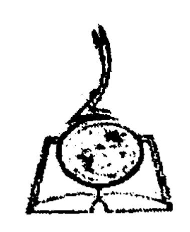


خاتمة التصوف

وشرحها

تأليف:

الشيخ: محمد بن المختار بن محمد سعيد

الشهير بـ محمد اليدالي: (1096هـ - 1166هـ)

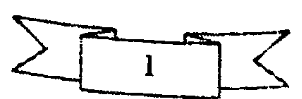
تحقيق: الراجل بن أحمد سالم اليدالي

نشر وتحقيق:

محمد سعيد محمد فال الشيباني **الراجل احمد السالم اليدالي**

الجزء الأول

الطبعة الأولى



بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

أما بعد ففي خضم هذه الحياة المادية العاتية الأمواج ذات الأهوال والمخاطر كالبحر الهائج لابد من طوق للنجاة ومنارات للاهتداء وربابنة مهرة للوصول إلى بر الأمان "وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه" صدق الله العظيم.

وفي دوامة اللهث وراء الحطام وانشغال القلب بهموم الدنيا يحتاج المرء إلى استفاقة وإشراقة، يحتاج إلى وقفة تأمل وتدبر وتفكر في خلقه وفي الغاية من وجوده في مصيره وفي مصير الكون حوله في مصير الدنيا ومآلها وسرعة إدبارها وزوالها لابد من لحظات ورد أو وارد للاتصال بالملإ الأعلى لتثبيت النفس وتفريج الكرب والغم والهم لابد للمرء من ساعة يخلو فيها بربه ذكرا وفكرا وتدبرا وإلا تكون الحياة بغير معنى ودون مغزى.

لابد من شيء من السلوك، من التصوف إن شئت ولكن هذا التصوف يجب أن يكون على منهج النبوة لا زيغا ولا انحرافا.

ولعل كتاب خاتمة التصوف للشيخ محمد بن سعيد اليدالي التي جعلها خاتمة لكتابه فرايد الفوايد ثم شرحها شرحا وافيا مستفيضا أبان فيه عن سعة إطلاع وفهم وتمكن من العلوم الشرعية ومعرفة بأهل الطريقة وآدابها لعل هذا الكتاب إذا أصبح في متناول القارئ يعين على التمسك

بعرى النجاة ويغري بالتعلق بالله لذلك آثرت أن يكون من بين أولويات نشرنا وفي مقدمة منشوراتنا إن شاء الله.

وهو كتاب ممتع ومفيد ولا غرو في ذلك فمؤلفه هو من هو، وترجمته في مقدمة الكتاب وهو غني عن الترجمة.

والله أسال أن ينفعني ووالدي وأشياخي ومن أعانني بهذا الكتاب، ومن قرأه وانتفع به، وأن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه وأن يثيبني عليه ذخرا وأجرا يوم لا ينفع مال ولا بنون آمين وصل اللهم على سيدنا محمد وآله وصحابته أجمعين.

محمد سعيد محمد فال الشيباني

الرباط في فاتح رمضان 1432 هـ

الموافق لـ 01 غشت 2011م



مقدمة التحقيق

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

خاتمة في التصوف قدمناه توحيد المتكلمين وهو إفراد التوحيد مع عدم العمل بمقتضاه وأما توحيد الخواص وهو توحيد العارفين وهو التصوف وهو العمل بمقتضى التوحيد حتى لايلتفت الى الخلق ويتخلى ظاهرا وباطنا عنِ الرذائل ويتحلى فيهما بالآداب والفضائل.

وتشتمل هذه الخاتمة على:

-مقدمة

-وثلاثة أبواب

*في الخلق(الباب الأول)

*وفي الرذائل (الباب الثان).

*وفي الآداب والفضائل (الباب الثالث)

مقدمة:

أعلم أن العلم المتعلق بالظاهر كالأعمال يسمى تفقها وهو مقدم وبالباطن كالأحوال تصوفا والظاهر تبع للباطن فالمخل بالأول هالك في الدنيا بحكم العلماء وبالثاني في الآخرة بحكم ملك الملوك فلزم جمعهما واعلم أن العلم والعبادة هما سببا السعادة فاجتهد في فعلهما وفي تصفيتهما من الآفات وصححهما بالإخلاص والصدق وباتباع السنة ولازم منهما ما ثقل على نفسك وما تثبت عليه لو جاءك الموت واحتمل مشقتهما زمنا قليلا لتسلم وتتنعم دهرا طويلا وإن اكثارهما مع الآفات غرور وتركهما لخوفها أو لعدم الحضور وترك التوبة لخوف العود غرور.

والعلم أفضل من العمل وأسه إلا أن العمل ثمرته وقليله معه خير من كثيره مع الجهل والعلم النافع ماكان تعلمه وتعليمه لله تعالى وحده ورياء ومباهاة ومراء ولا تصيدا

للدنيا وتحيل" لصرف القلوب وإلا كان حجة ووبالا على صاحبه وما أفاد الخشية وما أفاد الذل لله والخوف من الله والزهد والأدب والتواضع والافتقار وطهر القلب وقمع النفس ومنع صاحبه من المعاصي وإلا لم يمنع غدا من النار.

وأفضل العلم التوحيد فالتفسير فالحديث ثم أصول الفقه ثم الفرائض فالآلات على حسبها وأفضل العمل ما تعدت فائدته كالعلم ونفع المسلمين وما صفى القلب وهو وإن قل وما شق على النفس كالإنفاق للبخيل والصوم للشره وما قساه وأفضل الذكر القرآن كما أن أقبح المعاصي ما قساه وأفضل الذكر القرآن وحرف تدبر أفضل من حرفين غيره وبالصلاة ثم بالمصحف والجهر حيث لا رياء والنفل أفضل في البيت وبالليل.

وأعلم أن أحب الأشياء الى الموتى أن يردوا الى الدنيا ولو ساعة ليغتنموا صالحا فاغتنم بقية عمر ضيع أوله قبل فواتها ولا تغفل عن مراعاة الباطن وضبط الحواس وحفظ الأنفاس لأن كل نفس جوهرة نفيسة يمكن ان تشتري بها كنزا لا يتناهى نعيمه فاحلاء نفس أو في معصية حسرة وخسران عظيم واعمر أوقاتك بعد أداء الفرائض بالنوافل والصدقة والصوم ولاسيما في الليل وعلى الأقارب وفي الأيام الفاضلة وبكثرة الأوراد وبأنواع الذكر المفردون رب اغفر لي وتب علي وبالفكر وبالعلم النافع والاكتساب بنية الخير وإيصال خير أو سرور الى مسلم واجعل لك خبيئة ورد وإن قل لينفعك غدا واجتهد في الإخلاص فيه وفي إخفائه عن الناس إذ ما ظهر لهم منه ربما كان قليل النفع في الآخرة.

فرض عين وأركانه العزلة وتجب إن خاف على دينه وفي النفس إن عجز عن إزالتها وإلا حرمت وإن انتفيا فهل الأفضل الخلطة لاكتساب فوائدها أو العزلة إن أفادت فكرة ولم يصبر على أذى الناس ولم يترفع بها ولم يحتج اليه وإلا ندبت الخلطة في الأولين إن سلم من آفاتها ووجبت في البواقي بقدر الضرورة والتوبة وهي ترك ذنب سبق مثله اختيارا تعظيما لله من عذابه مع الندم والنية أن لا يعود ورد المظالم والجوع والسهر والصمت إلا عن خير والاستقامة على السنة وتجنب البدعة وتقوى الله ظاهرا وباطنا.



الباب الأول في الخلق

اعلم أن الالتفات الى الخلق حجاب ومن الخلق الهوى والشيطان فاعصمهما والنفس وهي أضر الأعداء فلا تركن اليها ولا ترض عنها وهو أصل كل شر واتهمهما ولو في الطاعة لخدعها القرار واحملها على مكروهها فإن المكارم بحسب المكارم وجاهدها امتثالا لتكون كلمته تعالى من الأمر بالإخلاص هي العليا وحاسبها كل لحظة وليخف حسابك غدا ولازمها بذكر الموت وهوله وكن في الحذر منها كمن احتوشته السباع إن غفل ساعة افترسته وعداوتهما لك نعمة لتضطر اليه في دفعهما.

فصل ومنه الدنيا فانفض يد القلب منها زهدا فيها ليزكوا عملك وهو ترك إرادتها بالقلب ولا تفرح بموجودها، ولا تحزن على مفقودها لأن حبها بالطبع ومنه يتفرع كل شر وحرامها طرد وحرمان وعداب وشبهاتها ظلمة وعتاب وامساك حلالها تفاخرا وتكاثرا وحساب وعقاب وشهوة حبس وحساب واحتياجا وعونو تعطفا على الناس وتعففا عنهم ليسلموا منه ويسلم له دينه خير وثوابا على الطاعة والكفاف فيها أفضل من الفقر والغنى والغني الشاكر أفضل من الفقير الصابر وكن عند أخذ القوت كالمضطر للميتة وفيها كالغريب المسافر المسجون وكدرها كالبلاء والمرض والفقر والمصيبة نعمة لأن من فقده سكن اليها فتصير جنته فيكره لقاء الله ولأن به الاضطرار والرجوع اليه تعالى كرها لأن أفضل أحوال العبد حالة الذل والاضطرار وهو أن لايرى لغياثه حولا ولا سببا يعتمد عليه الا مولاه كالغريق والضال وأدناها حالة النظر إلى النفس، والاستناد الى الغير حتى العلم والعمل الحال ولذا كان ذل الذنب والبلاء خير من عز الطاعة والعطاء فيه ضعف النفس وتحقيرها والمنع من المعاصي وتكفيرها والإقبال على الآخرة وتذكيرها الأجر إن رضي وصفاء الباطن طاعته وهي أفضل من طاعة الظاهر لأنها أشق على النفس. فصل ومنه الناس فارفع همتك عنهم خوفا وطمعا وشكوى فأعرض عنهم إقبالا وإدبارا واقنع بعلمه تعالى فيك وانظر اليهم بعينين عين الشريعة بالأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر وإقامة الحد وشكر احسانهم بعين الحقيقة بالعدر غن عصوا فغنهم مجبورون أو إن منعوك أو آدوك فإن المانع الضار هو الله تعالى وعملهم بإعطاء الحقوق وكف الأدى عنهم واصبره منهم وبسياسة النصيحة وبالشفقة والرحمة وبالإحسان وحسن الخلق ظاهرا مع الانقباض وسلامة الصدر باطنا والرفق وإرادة الخير لهم والأمانة وإذايتهم نعمة إذ يردك بها اليه.

فصل ومنه العمل فلا تعتمد عليه ولا تطلب عليه ثوابا لاعتلاله ولأنه ليس لك وصححه بالصدق وقل إذا دخلت جنته ماشاء الله لا قوة إلا بالله.

منهجية التحقيق

الحمد لله الذي ملأ قلوب أوليائه بمحبته، واختص أرواحهم بشـــهود عظمتـــه، وهيـــأ أسرارهم لحمل أعباء معرفته، فقلوبهم في روضات جنات معرفته يحبرون، وأرواحهم في رياض ملكوته ينتزهون، وألسنتهم ناطقة بجواهر الكلم ونتائج الفهوم، أفناهم الحـــق في محبة ذاته، وأبقاهم شهود ءاثار صفاته. والصلاة والسلام على سيدنا محمد عبده ورسوله الذي أحبه واصطفاه، أفضل من دعا على بصيرة إلى الله، منبع العلوم والأنوار، ومعـــدن المعارف والأسرار. ورضي الله عن صحابته الأبرار، وأهل بيته الأطهار، الذين مهـــدوا الطريق لكل من سلك إلى مولاه، وأكرم وأفصح من دعا لله بعده وأطاع الله.

أما بعد: فإن علم التصوف من أجل العلوم قدرا، وأعظمها محلا وفخرا، وأسناها شمسا وبدرا. فهو لباب الشريعة، ومنهاج الطريقة، ومنه تشرق أنوار الحقيقة.

ومن أهم ما صنف فيه في هذا القطر الشنقيطي (الموريتاني) وأنفسه: كتـــاب شـــرح خاتمة التصوف لمؤلفه: محمد بن المختار بن محمد سعيد المعروف بـــ: محمد اليـــدالي؛ لأنه جمع ما لم يجتمع في غيره من الكتب مما سنبينه إن شاء الله، وما سيراه المطالع لهـــذا الكتاب بحول الله.

هذا وقد عملنا على تحقيق هذا الكتاب تمهيدا لطبعه ونشره، راجين أن يظهر –إن شاء الله– في طبعته الأولى بصورة تكون أقرب إلى الحالة التي تركه بها مؤلفه، ويكون ذلك مما يرضي الله ورسوله.

وقد بذلنا ما في وسعنا من الجهد في سبيل ذلك رغم ضعف الوسائل المعينة على ذلك من كافة النواحي؛ لأن العمل في هذا النوع من الكتب يتطلب تحقيقه طاقما بشريا مسلحا بالخبرة العلمية والفنية والمادية، وهذا ما لم نتمكن من الحصول عليه، وخاصة الجانـــب العلمي والتقني؛ فقد كانت بضاعة المشرفين على العمل متواضعة، لا تسمح لهم بالتفكير

بالقيام به، فضلا عن مباشرة العمل فيه، إلا أن ما لا يدرك كله لا يترك بعضه. هذا مع عدم وجود البديل، وإلحاح وضعية هذه المؤلفات على إنقاذها من الضياع والإهمال، وتلبية لرغبة الباحثين والدارسين، ورجالات العلم العاملين.

وبناءً على هذا كله وعوامل أخرى صممنا العزم على بذل ما نملكه من الجهود الخاصة، معتمدين على العون من الله والتوفيق لأحسن طريق، وما ذلك على الله بعزيز، وهو المعين القدير وبالإجابة جدير.

وقد اتبعنا في هذا التحقيق المنهجية الآتية:

أولا: التعريف بالمؤلف من جميع الجوانب: (الجغرافية والاجتماعية والثقافية) بما في ذلك الجانب الصوفي عنده.

ثانيا: لمحة عن خاتمة التصوف وشرحها.

ثالثا: المراحل التي مر بها عمل التحقيق، ثم وصف النسخ، ثم الصعوبات التي تكمن في عمل التصحيح.

التعريف بالمؤلف

وسنتناول التعريف به من خلال محيطه الجغرافي, والاجتماعي, والثقافي:

محيطه الجغرافي:

ينتمي الشيخ محمد اليدالي إلى المجموعة الشمشوية, وخاصة منها قبيلة إدوداي التي توطنت منطقة إكيدي[1] وهي مجال جغرافي يوجد ضمن منطقة القبلة, أو ما يعرف حاليا بولاية اترارزة, وبعض المناطق المحاذية لها من الشمال والشرق, وهذه المنطقة يحدها من الغرب المحيط الأطلسي ومن الجنوب النهر السنغالي, بينما نجد لها حدودا إدارية في الشرق والشمال مع ولايتي لبراكنه وإينشيري, ويحتل إكيدي مجالا واسعا في وسط الجنوب الغربي من ولاية اترارزة[2].

محيطه الاجتماعي:

سنتناول هذا المحيط من خلال: اسمه, نسبه, مولده, نشأته.

اسمه ونسبه:

هو محمد بن المختار بن محمد سعيد بن المختار بن عمر بن علي بن يحيى بن يداج[3], الذي تنسب إليه قبيلة إدوداي، ويداج (يدال) هذا أحد الرجال الخمسة الذين كونوا حلف تشمش. وتشمش كلمة بربرية معناها: الخمسة أو المخمسة. وهم خمسة رجال تحالفوا وتعاقدوا على عدة أشياء مرجعها إلى التمسك بالكتاب والسنة والعض عليهما بالنواجذ. وقد كتب الله النجاح لهذا الحلف الذي وقع في القرن الثامن الهجري إلى الآن والحمد لله.

---

[1] ايكيدي منطقة تبدأ جنوبا من عاصمة مقاطعة المذرذة وتمتد شمالا إلى طريق الأمل

[2] محمد اليدالي ووسطه الاجتماعي: (7) النسخة المرقونة.

[3] يداج اسم لجد قبيلة إدوداي، والنسبة إليه: يدالي قال الناظم:

يداج بالكسر وشد الدال   جد علي والنسب اليدالي

بلغة البربر معناه جلي   قيدٌ للجد واعـــج لعلي

أما أمه فهي امبيكله بنت سيد المين بن بارك اللّ بن يعقوب نل بن ديمان (أبناء مهنض أمغر).[1]

مولده:

ولد رحمه الله سنة 1096هـ ويعرف محليا بعام "إمجيج" شرقي بئر تندكْسَمٌ، وهي الآن حاضرة من حواضر مقاطعة واد الناقة تبعد 20كلم جنوب كلم 70 من طريق الأمل.

أشياخه وبداية حياته العلمية:

إن هذا الجانب من حياته يشوبه غموض شديد إلا أننا يمكن أن نفترض أن بداية حياته العلمية من حفظ القرآن وعلومه، ومبادئ العلوم الأخرى أنه أخذها من محيطه الخاص. والمتداول والمتواتر عند الناس أن علومه وهبية، لكن لابد أن نذكر من صرّح هو أهم أشياخه في تآليفه وذلك بقوله: قال شيخنا. ورويت عن شيخنا...إلخ.

أولا: ألفغ عبد الله بن أعمر الأبهمي أخذ عنه القرآن بالرواية.

ثانيا: ألفغ مينَّحْنَ وهو شيخه الذي يعتز به وقال: إنه لم يذق طعم الوالدية بعد والديه إلا منه، وأطنب في مدحه في رسالة اللفعة.

ثالثا: أحمذُ بن ألفغ المختار بابُ.

رابعا: مختار بن المصطفى. ويقال إنه أخذ عنه الشاذلية لأنه من أول من أدخلها منطقة القبلة على أغلب الظن.

خامسا: المختار بن ألفغ موسى, الراجح أنه أخذ عنه الفقه.

تلامذته:

لم يذكر من التلاميذِ الذين تخرجوا على يديه إلا القليل لأنه ركز في حياته وعلمه على التأليف فهو بطبيعته ينتمي إلى المدرسة القلمية.

---

[1] مهنض أمغر: أحد رجال تشمشة الخمسة، وجد لإحدى الفصائل الشمشوية ذات الدور الهام في المنطقة.

ويذكر من تلامذته: ابن عمه ألما بن المصطفى بن محمد سعيد الذي كان يدافع عنه ويرد على خصومه وحساده وهو المعروف بـــ ألما العربي، وألما الشاعر.

ثم تلميذه الوحيد الذي تخرج على يده في العلم الظاهر والباطن، وتأثر به إلى أبعد حد وهو: وَالدْ بن خَالُنَا الأبهمي (إدابهم).

أما تلاميذه بالمعنى العام فهم: محيطه عموما ومن احتمى به. وبعد وفاته انتشرت مؤلفاته داخل البلاد وخارجها وظهرت ظهورا عجيبا وتأثر الناس بها كثيرا وكثرت تلامذته بواسطتها. فالشيخ محمذفال بن متالي والشيخ أحمدوبنب وغيرهم كل منهم يصرح أنه أخذ عنه وأنه شيخه مع أنهم متأخرون عن زمنه بكثير.

- **آثاره:**

لقد كان اليدالي ينتمي للمدرسة القلمية، وكانت وجهة عبقريته في التأليف، وهو ممن فتح الله عليهم في هذا الباب، فهو أبرز من ألف في هذا القطر، وأقدم من بقيت آثاره بعده؛ نظماً ونثراً، فقد تجاوزت سمعته وآثاره ونفوذه العلمي والثقافي حدود محيطه.

ويعد من الذين ساهموا في الرفع من سمعة البلاد، وتوسيع دائرة نفوذها العلمي والحضاري، كما ساهم في دعم الحضارة العربية ونفض الغبار عن كثير من جوانبها وتخليصها من كثير من الشوائب العالقة بها، وأبرز الدفائن وأظهر الخفايا. والحقيقة أنه كرّس حياته في خدمة العلم وخدمة الإسلام والمسلمين.

وقد ترك عدداً من المؤلفات لا يستهان به كمّاً وكيفاً، **ذكر النابغة الغلاوي أنها تناهز الخمسين،** وبين الأيدي منها حالاً عدد يزيد على الثلاثين متفاوتة الأحجام، منها مجلدات كبار ومتوسطة، ونبذ وفتاوى، ورسائل ذات أهمية، بالإضافة إلى ديوانه الشعري الذي يبلغ 1600 بيت.

وقد تناولت مؤلفاته جميع الفنون المعروفة في زمنه: من تفسير، وحديث، وتوحيد، وفقه، وأصول، وسيرة نبوية، وأنساب العرب وتاريخها، والعلوم الاجتماعية، والأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلم السلوك (التصوف) والأخلاق، والنحو، واللغة، والحساب، وعلم الهيئة... وغيرها.

وقد ضمن هذه المؤلفات من غرائب العلوم وعجائبها، ما يحير الأذهان، وسلك فيها مسلكاً موسوعياً، وعزا فيها لغرائب الكتب التي لا تعرف طريقة الحصول عليها آنذاك بل وحتى الآن.

ومؤلفاته شاعت وذاعت وانتشرت في جميع القطر الموريتاني، وخارجه، وترجم بعضها إلى لغات أجنبية، ومنذ ظهورها إلى الآن وهي مرجع للباحثين والدارسين والمؤلفين.

يقول الأستاذ محمذن بن باباه في كتابه: محمد اليدالي ووسطه الاجتماعي: "والحقيقة التي لا غبار عليها أنه ما من مؤلف موريتاني يتناول التراث الموريتاني – أيّ نوع من أنواعه– إلا ووجد نفسه مضطرًا إلى الرجوع إلى مؤلفات محمد اليدالي، فإذا هو يكتب عن حياته، وخوارقه، وآثاره الأدبية والتاريخية والعلمية والصوفية، وتجاربه وأخلاقه.. .إلخ."

ومن أشهر مؤلفاته

أ- التفسير وعلوم القرآن:

1- **الذهب الإبريز في تفسير كتاب الله العزيز**: أو الدّرّ الفريد، في تفسير القرآن المجيد, وهو أكبر هذه المؤلفات حجماً، يقع في أربعة مجلدات, ويقول متحدثا عن منهجه: إنه ركز على كشف مشكلات القرآن ومتشابهاته، كما ركز على الترجيح بين أقوال المفسرين بطرق الترجيح التي يعتمدها أهل الأصول, كما أنه جمع فيه ما افترق في التفاسير مع زيادة فوائد كثيرة, فقد عزا فيه لأكثر من ألف كتاب. ويعد هذا التفسير أقدم تفسير موريتاني. وهو موجود في زاوية الشيخ محمد اليدالي.

2- مورد الظمآن فيما حذف رسما من القرآن: منظومة تقع في 128 بيتا.

ب- التوحيد:

3 – **قواعد العقائد**: وهو مقدمة في التوحيد مختصرة في حدود عشر صفحات.

4 – **فرائد الفوائد في شرح قواعد العقائد:** وهو كتاب من أجلّ الكتب التي ألفت في علم التوحيد, وأدقها نقلا, وأعمها نفعا شرح به عقيدته الآنفة الذكر وهو زيادة على ما اشتمل عليه من العقائد وعلم الكلام مشحون بالفوائد الجليلة وفضائل الأعمال, وأقوال المتصوفة.

وقد اختصره ابن ابنه محمد فال بن المختار سعيد بن محمد اليدالي، واختصاره موجود في الزاوية بخط المؤلف.

5- نظم السبعة المطالب في علم الكلام.

ج- التصوف:

6- **خاتمة التصوف**: وهي نبذة صغيرة ختم بها العقيدة الآنفة الذكر.

7-شرح **خاتمة التصوف** وهو الكتاب الذي بين أيدينا.

8-**مختصر شرح الخاتمة**: في حدود (150) صفحة.

9-**إكسير الحسنات**: وهو في حدود (200) صفخة.

10-**شرح أسماء الله الحسنى**: وهو عبارة عن دعوات مختصرة، ثم يتكلم عن معنى الاسم من الجانب اللغوي والصوفي، ثم عن التعلق والتخلق به، ثم عن خاصيته...إلخ.

د- الحديث:

11- شرح صحيح البخاري (مفقود)

هـ- الفقه:

12- شرح باب التركة من مختصر خليل. مفقود.

13- شرح باب الردة من مختصر الشيخ خليل.

14- رسالة في أن النشوز لا يسقط الشرط.

15-نقلة في ضمان ما أكلته المواشي.

16- فتوى في تسريح الصبيان.

17- رسالة في السماع.

د- السيرة النبوية و أنساب العرب:

18- الحلة السيراء في أنساب العرب وسيرة خير الورى: تقع في 471 صفحة مخطوط في الزاوية جمع فيه بين السيرة وذكر النسب الشريف, وأنساب العرب العدنانيين والقحطانيين قبل الإسلام وبعده, وهو نادر النوع حقا.

19- شرح رسائل النبي ﷺ إلى الملوك (وهو موجود في آخر الحلة الآنفة الذكر).

20- "المربي على صلاة ربي" شرح على قصيدته المشهورة في مدح النبي ﷺ «صلاة ربي».

21- نقلة في أهل بدر. ما زالت في عداد المفقود.

22- الوسيلة الكبرى في صلاح الدين والدنيا والأخرى في الصلاة على النبي ﷺ.

23- الخلق والخلق وخصائص النبي ﷺ.

24- جوامع الكلم.

ز- اللغة والنحو:

25- تأليف في النحو على نمط الآجرومية (مفقود).

26- الصوارم الهندوانية في ردّ شبه الجيم السودانية.

27- تعليق على الفرق بين الجمع واسم الجمع, واسم الجنس وعلم الجنس

28- تقريب المعاني في علم البديع والبيان والمعاني، ما يتعلق منه بعلم المعاني ضائع.

ح- التاريخ:

29- شيم الزوايا في التاريخ وعلم الاجتماع (وهو خاص بما يعرف بتشمش من الزوايا).

30- أمر الولي ناصر الدين, وقد حقّق وطبع هذين الكتابين الأستاذ محمذٍ بن بابّاه، بالإضافة إلى رسالة النصيحة، ورسالة اللفعة الآتي ذكرها إن شاء الله تعالى.

ط- الأدب والشعر:

31- ديوان بلغ مجموعه 1600 بيت جمعه وحققه الأستاذ الأمير ولد آكاه، تناول فيه معظم أغراض الشعر ما عدا الهجاء.

هذا إضافة إلى رسائل ومؤلفات صغيرة منها:

32- دعاء ختم القرءان (في مقدمة الذهب).

33- رسالة النصيحة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. طبعت.

34-رسالة اللفعة وهي عبارة عن رسالة بعث بها إلى ابن شيخه ألمين بن أجفغ مينحن في شيء بلغه عنه في شأن موسم، وقد طبعت.

35-مكثر الحسنات في فضائل الأعمال، في حدود (300) صفحة، ويعدّ من اختصارات الخاتمة.

فهذه بعض مؤلفاته, والحقيقة أنه سلك فيها مسلكا موسوعيا, تناول فيه من مختلف الفنون والمعارف ما يحير الذهن, وعزا فيه لكتب لم نجد عنها أي ذكر, فالطريقة التي تحصل بها على الكتب تحير فيها الباحثون والمؤرخون.

وفاته:

لقد توفي رحمه الله سنة (1166هـ) بعد أن عاش سبعين سنة، ودفن بالموضع المسمى "انتوْفَكّتْ"، ومعناها بالعربية: ذات الشمس.

يقول العلامة: أحمد بن اجمد مؤرخا لميلاده ووفاته:

قَدْ وُلِدَ الْيدالِي عَامَ "وضَـــشِ"(1) وَبَعْــدَ سَــبْعِينَ ضَــجِيعَ نَعْــشِ

مِنْ بَعْدِ مَــا أَنْهَــى كِتَابَــهُ الذَّهَــبْ بِــوَاوِ أَعْــوَامٍ إِلَــى اللهِ ذَهَــبْ

(1) حساب هذه اللفظة بالجمل: 1096هـ والواو في البيت الثاني حسابه 6.

ولقد دل عليه قول القائل:

فما مات من أبقى ثناءً مخلداً.... البيت.

رحم الله السلف وبارك في الخلف.

الجانب الصوفي من حياة الشيخ محمد اليدالي

كان من عادة زوايا هذه البلاد ألا ينصرفوا إلي التصوف إلا بعد الفراغ من كل العلوم الظاهرة[1]، فيكون لأحدهم عند ذلك أو عليه عند البعض:

يَصْحَبُ شَيْخًا عَارِفَ الْمَسَالِكْ   يَقِيهِ فِي طَرِيقِهِ الْمَهَالِكْ[2]

فما الطريقة الصوفية التي اختار الشيخ محمد اليدالي لنفسه، ومن هم أشياخه فيها ؟ وكيف تدرج في مدارجها ؟

أولا: الطريقة الصوفية لليدالي وسنده فيها

تتفق المصادر المتاحة أن الشيخ محمد اليدالي كان من معتنقي الطريقة الشاذلية، التي تنتسب إلي أبي الحسن الشاذلي (593 – 652 هـ)، وهي من أقدم الطرق الصوفية وصولا إلى موريتانيا، فقد وصلتها أول الأمر من خلال تلامذة أبي العباس أحمد بن أحمد الشهير بزروق، المتوفى سنة: 899 هـ.

وللشاذلية فروع كثيرة[3]، لم يشع منها في البيئة الشنقيطية سوى الفرع الناصري، نسبة إلى الشيخ: محمد بن ناصر المتوفى سنة: (1085 هـ)، وولده أحمد بن محمد بن ناصر المتوفى سنة: (1129 هـ).

والمشهور المنتشر في وسط اليدالي الاجتماعي، المتناقل بينهم بالتواتر: أن الشيخ محمد اليدالي أخذ الشاذلية عن ابن عمه نختار بن المصطفى بن محمد سعيد[4]، الذي مر في

1- مقدمة تحقيق كتاب كراما ت تشمش: ص: 4 مرقون

2- بيت من منظومة ابن عاشر. انظر مختصر الدر الثمين والمورد المعين لميارة على منظومة المرشد المعين على الضروري من علوم الدين لابن عاشر: ص: 272.

3- تبلغ فروعها في المغرب وحده ثلاثين فرعا من أهمها : الزروقية الناصرية - الدرقاوية – الجزوليه الدرعيه – الدباغية المكناسيه / أبو الحسن الشاذلي / علي سالم عمار ج2 ص 23

4- نختار بن المصطفي بن محمد سعيد ابن عم المؤلف عاش في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، لم تحدد المراجع المتوفرة تاريخ وفاته، لكنه توفي قبل اليدالي. (تحقيق ديوان اليدالي: ص: 108، والشيخ محمد اليدالي ووسطه الإجتماعي: ج3: ص: 84).

طريقه إلى الحج بسيدي أحمد الحبيب السجلماسي المتوفى سنة: 1138 هـ، ومكث معه سنة، وأخذ عنه الطريقة الشاذلية، وأدخلها إلى بلاد الكبلة[1]، وقد أخذ سيدي أحمد الحبيب الطريقة عن أحمد بن محمد بن ناصر.

يقابل هذه الرواية نقل عن أُبَيْ بن الزايد، يروي عن يحظيه بن عيد الودود[2]، وقد أتاه يتلو ورده، وقال له: إنه أخذ الطريقة الشاذلية عن محمذ فال بن متالي[3]، وأنه يفهم من كلام محمذ فال بن متالي أن شيخه هو محمد اليدالي، ويفهم من كلام محمد اليدالي أن شيخه ابن ناصر الدرعي.

وهذا إن صح فلعله في العالم الروحاني؛ لأن يحظيه بن عبد الودود المشهور أنه أخذ **الشاذلية عن المختار بن ألما**، ومحمذ فال بن متالي جاءه و لم ينقل أنه أخذ عنه الورد مباشرة، وأعطاه كتابا من كتب النحو، **والذي ذكر يحظيه مما جرى بينهما أنه قال:**

قد كان ما كان مما لست أذكره　　　فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر

ومما يلاحظ: أن ولادة محمذ فال بن متالي كانت بعد وفاة محمد اليدالي بقرابة نصف قرن، وأن محمد اليدالي لم يُروَ أنه لقي ابن ناصر.

وكان اليدالي معجبا بشيخه مختار بن المصطفى متأثرا به، فقد وصفه في مرثيته له بأنه صاحب معارف ربانية، وتقوى وهمة عالية، جامع بين الشريعة والحقيقة، جواد كريم.

---

[1]- الشيخ محمد اليدالي ووسطه الاجتماعي: ج3: ص: 84، والحياة الثقافية لموريتانيا: ص: 80، والشعر العربي الفصيح في بلاد شنقيط: ص: 49.

[2]- يحظيه بن عبد الودود علم من أبرز علماء موريتانيا في القرن الرابع عشر الهجري، وأكثرهم طلابا، اشتهر بقدرته الفائقة على إفهام العلوم للطلاب وتفرغه للتدريس، تخرج على يديه جمع غفير من العلماء. توفي سنة: 1353 هـ.

[3]- محمذن فال بن متالي التندغي عالم من أجل علماء الكبله في القرن الثالث عشر الهجري، اشتهر بالورع والصلاح، له مولفات كثيرة منها: تفسير سماه: صلاح الآخرة والأولى- فتح الحق- اختصار شهية السماع للسملالي. توفي سنة: 1288 هـ. (الوسيط: ص: 343، وتحقيق التكملة: ص: 63.

ثانيا: أسس تصوف اليدالي

يقوم تصوف اليدالي على أسس أهمها:

1. الخوف من الله ورجاؤه في نفس الوقت، يقول: "لما كان الرجاء والخوف للمؤمن كجناحي الطائر، مهما مال أحدهما سقط، فالخوف هو توقع العقوبة على مجاري الأنفاس، واضطراب القلب عند ذكر المخوف، والخشية أخص منه، إذ هي خوف مقرون بمعرفة، والهيبة خوف مقرون بتعظيم وإجلال، وأكثر ما يكون مع المحبة والمعرفة، والإجلال تعظيم مقرون بالمحبة، والخوف للعامة، والخشية للعلماء العارفين، والهيبة للمحبين، فكان بكاؤه على ذنبه، غير قنوط من رحمة ربه".[1]
2. حب رسول الله ﷺ وكثرة مدحه، وقد طغى هذا الجانب على إنتاج اليدالي المعرفي، وبرز في شعره، وأبدع فيه وبرع.[2]
3. تلاوة القرآن: فقد نقل عن اليدالي عنايته الكبيرة بالقرآن الكريم، ولم تقتصر تلك العناية علي التفسير الذي بين أيدينا فحسب، بل كان لليدالي ورد ثابت من التلاوة، يحرص عليه في كل أحواله، وكان يختم القرآن في ركعتين كل ليلة[3]، وكان مفتوحا عليه فيه[4]، حتى جعله همه في الحياة، **فقال في قصيدته المثبتة في مقدمة التفسير:**

إِنَّ هَمِّي كِتَابُكَ الْمُسْتَبِينُ	يَا إِلَهِي يَا مَنْ بِهِ نَسْتَعِينُ
أَنَا مِنْ خَادِمِيهِ وَالْمُسْتَحِقُّ الدَّ	هْرَ لِلخِدْمَةِ الْكِتَابُ الْمُبِينُ
حُبُّهُ فِي قَلْبِي وَخِدْمَتُهُ مَا	عِشْتُ دَأْبِي وَدَيْدَنٌ لِي وَدِينُ

[1] - الشيخ محمد اليدالي ووسطه الاجتماعي: ج3: ص: 94.

[2] - راجع للتوسع في هاتين النقطتين كتاب الشيخ محمد اليدالي ووسطه الاجتماعي: ج3: ص: 16.

[3] - النجم الثاقب: ص: 30.

[4] - نفس المرجع والصفحة السابقين.

وأنيسه في الفلوات، **قيل:** إنه كان إذا سار في الخلاء اشتغل بقراءة القرآن، وكان لا يمر بحجر ولا مدر ولاحشيش إلا قبضها بيده، وسلم عليها لتشهد عليه بذالك[1]. وحث طلاب العلم على تلاوته، وحذرهم من الانشغال عنه بالمسائل العلمية وقت الطلب، وأخذ على معاصريه إهمال تدبره .. فلا حظ أن جل اهتمامهم إنما هو مقاساة حفظه ومعاناته، معرضين عن تدبر معاني آياته، حتى إنك ترى بعض مكلفيهم يستغرق في درسه الأوقات، وهو لم يحصل فرض العين في أمور الديانات، فحرموا بذلك شريف فضله، وجزيل خيره، ولم يعلموا أن حرف تدبر أفضل من حرفي غيره.

4. الذكر: فالذكر عند اليدالي أسرع طرق التزكية نفعا، ولا يحصل مقام الإخلاص الكامل إلا بمداومته، ولا تخمد الأمراض الباطنة إلا به، ولا تنقطع الخواطر الشيطانية، ولا تضعف الخواطر النفسانية إلا به، وبمداومته يزول الهم والغم في الدنيا، فإنهما بقدر الغفلة عن الله، فلا يلومن العبد إلا نفسه إذا ترادفت عليه الهموم والغموم، فإن ذلك جزاء بقدر إعراضه عن ربه، فمن أراد دوام السرور فليداوم على الذكر.[2]

وأذكار الصباح والمساء لا تكفي من الذكر عند اليدالي، ويخطّئ المريدين الذين يقتصرون عليها بقوله: وقد يقنع بعض المغرورين بمجلس الذكر صباحا ومساء، مع الغفلة عن الله فيما بينهما، وذلك لا ينجع بسالك إلى منازل القوم، وإنما تلحقه بالمغفرة بمن لا ذنب له، لا بمن فعل الطاعة؛ فافهم، والمغفرة لا ترقى فيها، ومراد القوم دوام الترقي مع الأنفاس في المقامات، وذلك بدوام ذكر الله، ثم إنهم لا يرون أنهم قاموا بذرة واحدة من واجب حق الله تعالى.[3]

---

[1] – نفس المرجع والصفحة السابقين.

[2] – خاتمة التصوف– مخطوط: ص: 251.

[3] – خاتمة التصوف– مخطوط: ص: 251.

وقد اشترط اليدالي للذكر ثلاثة شروط[1]، هي:

أ- خلو الوقت عن واجب أو مندوب.

ب- خلو الذكر عن محرم أو مكروه يقترن به؛ كسماع النساء أو حضورهن، أو من يتقى من الأحداث، أو قصد طعام لا قربة فيه، أو داخلته شبهة ولو قلت، أو فراش محرم؛ كحرير ونحوه، أو ذكر مساوئ الناس، أو الانشغال بالأراجيف، إلى غير ذلك.

ج- التزام أدب الذكر من كونه شرعيا، ومعناه بحيث يكون بما صح واتضح، وذكره على وجه السكينة، وإن مع قيام مرة وقعود أخرى، لامع رقص وصياح ونحوه، فإنه من فعل المجانين كما أشار إليه مالك.[2]

5. الصلاة على النبي ﷺ حتى قيل: إنه كان مفتوحا عليه فيها، فكان يختم دلائل الخيرات للجزولي سبعين مرة في أسرع وقت[3]، وقد ذكر أن الصلاة على النبي ﷺ من أفضل الذكر؛ لأن ذكره تعالى يستلزم ذكره عليه الصلاة والسلام، إذ هو دليل ذلك الذكر، ومنه عرف، والاعتداد به من جهة الاعتداد به، والأحاديث في فضل الصلاة على النبي ﷺ تحتاج إلى ديوان مستقل، وفي الغفلة عنها رائحة الجفاء.[4]

وكان كثير المدح للنبي ﷺ، وكان يعتبره من أفضل الأعمال، ويسعى للاندراج في سلك أهله، إذ يقول: "وقد مدحت النبي ﷺ بقصيدتين ميميتين تبركا بحرفين من اسم النبي ﷺ، رجاء أن أندرج في سلك خدمة جنابه العالي، وأنخرط في عقد

---

[1]- خاتمة التصوف- مخطوط: ص: 256.

[2]- خاتمة التصوف- مخطوط: ص: 261، وفرائد الفوائد- مخطوط: ص: 74.

[3]- النجم الثاقب: ص: 30.

[4]- خاتمة التصوف- مخطوط: ص: 259.

مدحة كماله الجلي". [1]

6. الورع: يدرك من طالع سيرة اليدالي وقرأ كتبه أنه كان يحث على الورع والابتعاد عن الشبهات مخافة الوقوع في الحرام، **يقول في خاتمة التصوف**: "إن حكم الشرع وظاهره أن تأخذ ما لا تتيقن أنه حرام، ولكن حكم الورع ألا تأخذ إلا ما بحثت عنه غاية البحث، حتى تتيقن أنه لا شبهة فيه بحال، فالورع مبني على التشديد والاحتياط، كما قيل: الأمر على المتقي أضيق من عقد التسعين. [2]

فإذا توفرت هذه الشروط في الذكر، وحصلت المداومة عليه، أكسبت توازنية تحرق وهج الطباع، وتقوي النفوس؛ لأنها كالماء، فكانت تقوم مقام شيخ التربية.

وانتقد اليدالي على بعض أهل زمانه عدم تحري الحلال في كسبهم، وعدد أصول الحلال، وكرر ذكرها في مواضع كثيرة من كتبه[3]، وذكر بأن من الحرام ما يعطى لمن يظن به الدين، وليس كذلك، وهو الأكل بالدين، وشرط حله ألا يكون في باطنك ما لو أطلعت عليه المعطي لامتنع من العطاء، فلا فرق بين ما يأخذه بالتصوف والتقوى و لم يتصف به باطنا، وبين من يدعي الشرف كاذبا، فذلك حرام، وإن أفتى الفقيه بالحل بناء على الظاهر[4].

7. الزهد : الزهد عند اليدالي لازم لأمرين: **أحدهما** ليزكو العمل، أي تكثر قيمته، ويعظم قدره. والثاني: فراغ الوقت للعبادة، فالرغبة في الدنيا شاغلة للظاهر والباطن. [5]

---

[1] – المربي على صلاة ربي: ص: 13. مرقون.

[2] – خاتمة التصوف: مخطوط: ص: 433.

[3] – مبحث الحلال في الذهب الإبريز: ص: 662 من هذا العمل. وخاتمة التصوف– مخطوط: ص: 431

[4] – خاتمة التصوف: مخطوط: ص432.

[5] – خاتمة التصوف: مخطوط:ص 395.

والزهد عند اليدالي قسمان: زهد مقدور للعبد: ويتمثل في ترك طلب المفقود من الدنيا، وتفريق المجموع منها، وترك إرادتها وإختيارها بالقلب. وغير المقدور للعبد: هو برودة الشيء علي قلب الزاهد، فإذا فعل المقدور له أورثه ذلك برودة الدنيا على قلبه.[1]

ويصحح اليدالي مفهوما يكثر الغلط فيه عند بعض أهل التصوف ممن يدفعهم الزهد في الدنيا إلى تضييع الحقوق الواجبة فيقول: "وأما ترك ما يجب أخذه من قوام نفسه، ومن تلزمه نفقته، فمعصية يستحق عليها العقوبة، فالزاهد هو المستصغر للدنيا، الذي انصرف قلبه عنها؛ لصغر قدرها عنده.[2]

وقد تميز تصوف اليدالي بانضباطه بالشرع، وتحريه للحق، وإخضاعه حقائق الطريقة لثوابت وظواهر الشريعة[3].

وقد بلغ اليدالي في التصوف مبلغ الأئمة المبرزين، فقصده المريدون، وتصدر عليه بعض مشهوري المربين[4]، واعتمدت كتبه مرجعا لأهل التصوف في البلاد، **بل من العلماء من قال:** إنها تقوم مقام شيخ التربية[5]. **وذكر العلامة محمذن فال ولد متالي أن** كتاب اليدالي خاتمة التصوف هو فرض العين في التصوف[6].

ولليدالي في التصوف أقوال تجديدية تخرج عن المعهود عند أهل التصوف، منها اعتباره أن شيخ التعليم تكفي عنه الكتب للبيب الحاذق الذي يعرف موارد العلم، وأن شيخ التربية تكفي عنه الصحبة لديّن عاقل ناصح، وأن شيخ الترقية يكفي عنه اللقاء والتبرك.[7]

---

[1] - خاتمة التصوف: مخطوط: ص396.

[2] - نفس المصدر والصفحة السابقين

[3] - راجع خاتمة التصوف والذهب الإبريز وفرائد الفوائد وغيرها من كتب المؤلف

[4] - انظر تحقيق كرامات أولياء تشمش: ص: 4- مرقون.

[5] - النجم الثاقب والشيخ محمد اليدالي ووسطه الاجتماعي: ج3: ص: 90.

[6] - نظم الأخلاق لمحمذن فال بن متالي- مخطوط.

[7] - فرائد الفوائد- مخطوط: ص: 74.

لـمحة عن كتاب خاتمة التصوف وشرحها

كان الشيخ محمد اليدالي قد ألف نبذة وجيزة في العقائد سماها: **"قواعد العقائـــد"** 10 صفحات تقريبا، وشرحها بكتابه المسمى: **"فرائد الفوائد"**، ثم جعـــل لهـــا خاتمـــة في حجمها 10صفحات تقريبا وسماها: **"خاتمة التصوف"**، ثم شرح هذه الخاتمة بكتاب لم يضع له اسما معينا، فصار معروفا بـــــ:**"شرح خاتمة التصوف"** وهو من أكبر مؤلفاتـــه **بعد تفسيره الذهب الإبريز يقع في** 555 صفحة من الحجم الكبير.

يقول في مقدمته: وبعد: فقد كنا وضعنا عقيدةً في توحيد العامة على طريق المتكلمين، ثم ختمناها بخاتمة في التصوف الذي هو توحيد الخاصة، ليكون السعي في تصفية الباطن وتحليته بالفضائل خاتمة حسنة للموحِّدِ تفاؤلا، أن يُختم لجامعهما وقارئهمـــا بحســـن الخاتمة، وما ذلك على الله بعزيز، **فقد رغبت إلى الرب الكريم في ذلك**، متوسلا بمفتاح الرحمة وعنصر البركة سيدنا ومولانا محمد ﷺ، فجلبنا فيها من التصوف لُبَابه، وولجنـــا فيها من الجمع بين الحقيقة والشريعة بابه، وسلكنا فيها وضوح العبـــارة، ولم نســـلك طريقهم في الرمز والإشارة...

ثم لما رأيت أبناء الزمان إما مخل بالحقيقة متمسك بالجمود على الظواهر، وإما مضـــيع للشريعة محب لطريقة الأكابر، وضعت عليها شرحا تكمل به فائدتها على وجه يصـــل الظاهر بالطريقة، ويجمع بين الشريعة والحقيقة. **وليعلم من يدعي منهم منزلة من الخير، أو يتوهم الصلاح في نفسه، أنه عار من ذلك إذا طالع هذا الكتاب بعين الإنصاف؛ إذ هو كالسيف القاطع لعنق من ادَّعى الصلاح**. وقصدت به أيضا نفع نفسي ولمن هو مثلي في القصور من أبناء جنسي...**إلخ كلامه.**

ثم قال بعد هذا: لقد حاولت أمرا عظيما، واستقبلت من الخوض في كلام القوم خطرا جسيما، ربِّ سلِّمْ سلِّمْ. فقد أدركتني غيرة عمياء، وشفقة حمقاء، على بعض السالكين سبيل الخير والمحبين له، فإنك ترى بعض متعبديهم إنما اهتموا بمجرد كثرة العمل، من غير مراعاة الآفات والعلل، وأغفلوا مجاهدة النفس، وأوردوا الأمور على العكس، وجهلوا الحقائق والمعاني، وشيدوا بناء السقف من غير إحكام المباني...**إلى آخر كلامه في هذا المعنى، وقد أطال فيه فلينظر في النص.**

ثم قال: مع أني لا أبرئ نفسي من هذه العيوب كلها، ولا أجد أحدا أحوج مني للعمل بما في هذا الكتاب، إذ ينبغي للمؤلف أن يكون هو أول قائم بما ألفه...**إلخ.**

ويقول في مضمون الكتاب: هو خلاصة ما لا بد للمرء من مطالعته كل حين، فعليك بتحصيله، فَتَطَّلِعَ فيه على جواهر نفيسة، لا توجد مجموعة في غيره كما هي -بحمد الله- حاصلة فيه...**إلخ.**

والكتاب يشتمل على مقدمة وثلاثة أبواب:

-**الباب الأول:** في الخلق

-**الباب الثاني:** في الرذائل

-**الباب الثالث:** في الآداب والفضائل

وقد أخذ المؤلف مادة هذا الكتاب من مصادر متنوعة ضاربة في القدم؛ منها المأثور من كلام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وَحِكَمِ الأمم الغابرة، والإسرائيليات، وكلام الحكماء, ومنها القرآن الكريم وتفاسيره، والأحاديث النبوية وعليها جل اعتماده؛ كشراح البخاري ومسلم وغيرهما من جميع كتب الحديث، والسيرة النبوية، وأئمة المذاهب الفقهية، والكتب المعتمدة في فن التصوف؛ ككتب الغزالي، وزروق، وابن عطاء

الله، والسيوطي، والمناوي مما يصعب حصره. ونقل فيها كلام أكثر من ألف من رجال التصوف.

وكان لخاتمة التصوف وشرحها تأثير كبير في الأوساط العلمية داخل الوطن وخارجه؛ فأقبل عليها الناس بالاستنساخ والتعليم والنظم، وأخذ عنها المؤلفون في مادتها، قلَّ من يؤلف بعده في التصوف إلا وكانت من أهم مراجعه. **نذكر منهم على سبيل المثال:**

-**سيد محمد بن انبوج التيشيتي في كتابه:** "الجيش".

-**ومحمد مولد بن أحمد فال المتوفى 1323هـ في كتابه:** "مطهرة القلوب".

كما نظم نص الخاتمة علماء أجلاء منهم:

العلامة: المختار بن جنك اليدالي المتوفى 1321هـ.

والعلامة: آبَّاه بن محمد الأمين اللمتوني المتوفى 1380هـ ونظمها في ثلاثمائة وثلاثة عشر بيتا كما قال في نهايته.

والولي الشيخ أحمدو بمب السينغالي المتوفى 1340هـ. في "مسالك الجنان".

يقول الشيخ أحمدو بمب فيها بعد أن ذكر البعض ممن ألف في التصوف:

لَكِنَّمَا كُتْبُهُمْ لِلطُّولِ	زَهِدَ فِيهَا جُلُّ هَذَا الْجِيلِ

إلى أن يقول:

فَاخْتَرْتُ ذَا اسْتِعَانَةً بِالْوَالِي	نَظْمَ الَّذِي نَثَرَهُ الْيَدَالِي
لِجَمْعِهِ جَمِيعَ مَا لِلسَّلَفِ	لِكَوْنِهِ خَاتِمَةَ التَّصَوُّفِ

إلى أن يقول:

ثُمَّ مِنَ الذَّهَبِ قَدْ أَخَذْتُ	فَوَائِدًا بِهَا لَهُ أَتْمَمْتُ

وعلق عليها الشيخ محمذفال بن متالي وقال إنها: "فرض عين في التصوف" حيث يقول:

كَمَا كَفَتْ خَاتِمَةُ التَّصَوُّفِ مِنْ فَرْضِ عَيْنِهِ لِمَنْ لَهُ اصْطُفِي
لِجَمْعِهَا الْأَدْوَاءَ وَالْأَدْوِيَّةِ وَذَاكَ فَرْضُ الْعَيْنِ لِلصُّوفِيَّةِ

وممن نظمها أيضا العلامة: محمذن الشفيع بن محمد بن المحبوبي المتوفى 1407هـ.

وقد اختصرها مؤلفها بكتابين:

-كتاب إكسير الحسنات في حدود 200صفحة.

- والثاني لم يكتب له اسما ويعرف بـ:"اختصار الخاتمة". وهما موجودان في الزاوية.

واليدالي عنده شفقة متينة على مؤلفاته والاعتناء بها وحب استفادة الناس منها.

ويتجلى ذلك في كثرة دعواته فيها لمن اعتنى بها، ويدعو الله أن يسوق إليها السعداء من خلقه.

يقول فيما يخص الخاتمة: إلهي دعوتك وأنت الكريم، وسألتك أن تجعل هذا الكتاب خالصا لوجهك الكريم، مقبولا بفضلك العميم، قبولا لا يعقبه خزي ولا تبديل، وتجعل ذلك سنة لمن قرأه، أو سمعه، أو عمل به، أو اقتناه، أو سعى في شيء منه، اللهم فاجعله لي حجة، واجعل لي نورَهُ تاما إلى يوم القيامة، واجعله لمن قرأه أو تملكه نورا تاما إلى يوم القيامة، اللهم اجعله لنا دليلا وإماما للحق، وقائدا إليه، ومؤنسا لنا في قبورنا، ومنورا لقلوبنا، وأرنا فضله في الدنيا والآخرةْ، وأعد علينا بركته في الدنيا والآخرةْ، برحمتك يا أرحم الراحمين.

المراحل التي مر بها عمل التحقيق
ثم وصف النسخ
ثم الصعوبات التي تكمن في عمل التصحيح

لقد كان العمل في إخراج هذا الكتاب محققا مر بالمراحل الآتية:

أولا: حاولنا في البداية أن نحصل على ما أمكن من نسخ الكتاب ووجدنا العديد منها، وبعد النظر فيها وجدنا أن معظمها لا يمكن الاعتماد عليه لعدة عوامل لا داعي لذكرها، **فاخترنا منها ثلاثة هي أحسنها:**

1. **نسخة بخط**: محمد حبيب الله بن محمد بن أحمد بن المختار بن أحمذي الحسني ثم اليوسفي، مؤرخة نهايتها بـــ: الأحد رابع شوال عام 1357هـ. وهـي بخط مغربي جيد إلا أنها صورة يكثر فيها الطمس في التصوير لدرجة تمنع الاستفادة مما في الطمس، وعدد صفحاتها 986صـفحة من الحجم الصغير، وليست خالية مـن الأخطاء، وفيها خرجات في بعض الأحيان، وتحريف في بعض الكلمات والجمل. ولعل ذلك يرجع إلى الأصل المكتوبة منه؛ لأن كاتبها معدود من العلماء العاملين. وهي صورة لم يتميز النص المشروح عن الشرح. مع ذلك فإنه لا يمكن الاعتماد عليها وحدها.
2. **نسخة بخط**: الولي العالم سيد بن زبد العابدين بن محمذن بن زبن (مـن حفـدة المؤلف) وخطها مغربي جيد ومقروء، وحبرها لم يكن تام السواد، ولا تخلو مـن طمس في بعض الأحيان يسبب صعوبة في قراءتها مع أن قلمها رقيق جدا، والنص المشروح مكتوب بالحبر الأحمر متميز. ولم يظهر في ءاخرها تـاريخ كتابتـها. وكاتبها توفي 1964م. وعدد صفحاتها: 390صفحة.
3. **أما النسخة الثالثة** فهي أقدم النسخ يرجع تاريخ كتابتها إلى منتصـف القـرن 13هـ، ولولا كثرة الأخطاء فيها لاستحقت التقديم وهي لآل محمد عال بـن زين العابدين (من حفدة المؤلف) وهي بخط مغربي جيد. وكتـب في آخرهـا:

"انتهى والحمد لله على يد كاتبها لنفسه: محمد بن احميِّد بن عطار القيني نسبا الديماني وطنا، عصر الأحد 16 من رجب سنة إحدى وستين بعد المائتين والألف (1261) وعدد صفحاتها 420صفحة.

ونلاحظ في هذه النسخ الثلاث ما يلي:

1. أنها لم تقابل منها واحدة وذلك مما يظهر جليا، ولذلك لم نجعل واحدة منها أصلا.
2. كثرة الأخطاء الناشئة عن عدم تمكن الكاتب من قراءة الكلمة فيصور ما ظهر أمامه فيتسبب ذلك في غموض المعنى أو فساده.
3. معظم الفروق التي بين النسخ هو نوع من التحريفات الناشئة عن عدم تمكن الكاتب من قراءة الكلمة، ولذلك لم نول عناية لتسجيل الفروق بين النسخ، بل نكتفي بتثبيت ما ظهر أنه هو الأصح في المتن إلا في بعض الكلمات.
4. أن هذه النسخ يمكن أن تتعاون فيما بينها، لأن ما يكون غامضا في إحداها يكون واضحا في الأخرى.

هذا وقد استطعنا بجهود لا تخلو من صعوبات إخراج نسخة جديدة من بين هذه النسخ الثلاث، مع الرجوع في بعض الأحيان إلى النسخ الأخرى التي لم نعتمد لتصحيح ما لم نتمكن من تصحيحه، أو فهمه من هذه النسخ. وأثناء كتابة هذه النسخة حرص الكاتب أن لا يكتب جملة إلا بعد أن ينظرها في النسخ الثلاثة.

ثم بعد نهاية نسخ هذه النسخة الجديدة قوبلت أيضا على النسخ الثلاثة مع الرجوع في كل حالة وكل إحالة إلى ما بين أيدينا من المراجع لتصحيح ما أهم علينا. وهذه النسخة الجديدة هي التي اعتمدنا في إخراج النسخة النهائية المقدمة للطبع.

وبعد نهاية عملية التصحيح شرعنا في تخريج الأحاديث والآثار، وكانت لا تخلو من صعوبات لكثرتها، وكون المؤلف يشير إلى الحديث بجملة منه أو كلمة. ولولا المكتبات الألكترونية لما استطعنا تخريج نصف هذه الأحاديث.

ثم تراجم الأعلام الواردة في النص، وهي كذلك لا تخلوا من صعوبة لكثرتها كـذلك، وكونها لا تذكر غالبا إلا بألقابها، وكثرة ترادف الأسماء فترى علما يطلق علـى عـدة أعلام، وغالبا لا تجد ما تميز به ما تريد منهم.

ثم تخريج الأبيات الشعرية ونسبتها وتصحيحها...إلخ.

ثم تخريج الإحالات للمصادر المكتوبة منها.

ولا ندعي الإحاطة بكل ذلك لكثرة الأعلام والأحاديث وَالإِحَاطَة متعـذرة، وكثـرة الإحالات.

ولكثرة استطراد المؤلف لكلام الصوفية واعتماده عليه في الاستشهاد فإننـا لم نعـتن بتخريجه كله لكثرته وتشعبه وتكريره، وعدم الإشارة إلى مراجعه. وتارة نذكر كـلام البعض أثناء ترجمته فنقول مثلا: ومن كلامه كذا وكذا إذا عثرنا عليه.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

الراجل بن أحمد سالم

الأمين العام لزاوية الشيخ محمد اليدالي

نواكشوط: 29/محرم/1432هـ

الموافق: 3/يناير/2011م

صورة من الصفحة الأولى من نسخة محمد حبيب الله بن أحمذي الحسني

النص محققا

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

مبارك الابتداء **ميمون الانتهاء**

رب يسّر **ولا تعسّر**

يقول الفقير إلى لطف ربه، الوجل من سوء كسبه: **محمد بن المختار بن محمد سعيد اليدالي الديماني** أسعد الله عاقبتهم في الدارين، وَبَيَّضَ لهم نواصي الأماني، نحمد الله تعالى على ما دفع من النقم، وأسبغ من النعم مما يفوت العدَّ والتقدير باطنة وظاهرة عائذا بوجهه الأكرم، وجلاله الأعظم من سوء المصير، وخزي الدنيا وعذاب الآخرة، وأشكره على نعمة الإيمان والإسلام، وعلى ما ستر من جميع المعائب والآثام، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله، شهادة تمحو ما كان مني من تخليط وتفريط وإفراط، وتضيئ لي في ظلمات القبر والحشر والصراط، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد النبي الأمين، وعلى آله وصحبه الأكرمين، صلاة تتكفل لي بالنجاة والسلامة، من أهوال الموت والبرزخ وعرصات القيامة، وتوجب لي الأمن والأمان عند تطاير الصحف ووضع الميزان.

وبعد: فقد كنا وضعنا عقيدةً في توحيد العامة على طريق المتكلمين، ثم ختمناها بخاتمة في التصوف الذي هو توحيد الخاصة، ليكون السعي في تصفية الباطن وتحليته بالفضائل خاتمة حسنة للموحِّدِ تفاؤلا، أن يُختم لجامعهما وقارئهما بحسن الخاتمة، وما ذلك على الله بعزيز، **فقد رغبت إلى الرب الكريم في ذلك**، متوسلا بمفتاح الرحمة، وعنصر البركة، سيدنا ومولانا محمد ﷺ، **فجلبنا فيها من التصوف لُبَابه، وولجنا فيها من الجمع بين الحقيقة والشريعة بابه، وسلكنا فيها وضوح العبارة، ولم نسلك طريقهم في الرمز والإشارة ولا طريقة التقرير بتصاريف العربية ومباحث الألفاظ؛ لأن ذلك يذهب**

رونق هذا الفن ويزيل مقصده، فمن سلك فيه تلك الطريقة في كلامه عليه، أو اعتبرها في كلام القوم وراعاها فقد أبعد في المأخذ. كما قاله سيدي زروق[1].

ثم لما رأيت أبناء الزمان إما مخل بالحقيقة متمسك بالجمود على الظواهر، وإما مضيع للشريعة محب لطريقة الأكابر، وضعت عليها شرحا تكمل به فائدتها على وجه يصل الظاهر بالطريقة، ويجمع بين الشريعة والحقيقة. وليعلم من يدعي منهم منزلة من الخير، أو يتوهم الصلاح في نفسه، أنه عار من ذلك إذا طالع هذا الكتاب بعين الإنصاف؛ إذ هو كالسيف القاطع لعنق من ادَّعى الصلاح. وقصدت به أيضا نفع نفسي ولمن هو مثلي في القصور من أبناء جنسي، لأنه جارٍ مجرى تواليف القوم في التصوف، فشتَّان بين من صَفَى قلبه وأشرق لُبُّهُ، وبين من غلبت عليه ظلمة الطبع والجهالة وداوم النوم والكسل والبطالة، فالواحد من أولئك يقول، وأنا أتقَوَّل، وهو أكحل، وأنا أتكحَّل، وأين من هو جالس متمكن في حضرة الاقتراب ممن هو مُتَطَفِّل واقفٌ بالباب، ولكن يرجو الطفيلي أن لا يضره حين يشم إكرام الربِّ لبعض عبيده أن يمد يد الضراعة للدخول معهم.

وقد نُقِل من لفظ الشيخ الولي العارف سيدي محمد الشَّاذلي[2] نفعنا الله به قال:

---

(1) زروق: هو أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي، أبو العباس، زروق: فقيه محدث صوفي. من أهل فاس (بالمغرب) تفقه في بلده وقرأ بمصر والمدينة، وغلب عليه التصوف فتجرد وساح، له تصانيف كثيرة يميل فيها إلى الاختصار مع التحرير، وانفرد بجودة التصنيف في التصوف. من كتبه (شرح مختصر خليل) في فقه المالكية، و (النصيحة الكافية لمن خصه الله بالعافية – ط) و (القواعد – ط)) في التصوف، و (إعانة المتوجه المسكين، على طريق الفتح والتمكين). ت: 899هـ. انظر: شجرة النور الزكية: (267)، معجم المؤلفين: (155/1)، موسوعة الأعلام: (258/1).

(2) الشاذلي: هو علي بن عبد الله الشاذلي الشريف الحسني المغربي، أبو الحسن: رأس الطائفة الشاذلية، من المتصوفة، وصاحب الاوراد المسماة " حزب الشاذلي – ط ". ولد في بلاد " غمارة " بريف المغرب سنة 571هـ، ونشأ في بني زرويل (قرب شفشاون) وتفقه وتصوف بتونس، وسكن " شاذلة " قرب تونس، فنسب إليها. أخذ عن الشيخين العارفين أبي عبد الله محمد بن حرزهم، وأبي محمد عبد السلام بن مشيش بسنده المشهور عند أهل الطريقة. وطلب " الكيمياء " في ابتداء أمره، ثم تركها، ورحل إلى بلاد المشرق فحج، ثم سكن الاسكندرية. وتوفي بصحراء عيذاب في طريقه إلى الحج في شوال سنة 656هـ وقبره هناك معروف متبرك به حتى الآن. انظر: شجرة النور الزكية: (186)، والتاج للزبيدي: (388/7). ومن أراد التوسع في حياته فلينظر كتاب: المفاخر العلية في المآثر الشاذلية لأحمد بن محمد بن عياد وهو مطبوع.

رأيت النبي ﷺ في النوم فقلت له: يا رسول الله ﷺ؛ إني متطفل في علم التصوف. فقال لي ﷺ: إقرأ كلام القوم، فإن المتطفل على هذا العلم هو الولي، وأما العالم به فهو النجم الذي لا يدرك. **قاله سيدي عبد الوهاب الشعراني[1] في كتاب طبقات الأولياء[2]**.

اللهم ارحم الطُّفَيْلِيَّ واغفر دعاويه الكاذبة، وأَعِنْهُ على نفسه المتمردة الهاربة، والطف به يا رب فإنه حاول أمرا عظيما، واستقبل من الخوض في كلام القوم خطرا جسيما، ربِّ سلِّمْ سلِّمْ. **ولكن اقتحَمَ ذلك نصيحةً لأبناء الزمان في تصحيح أعمالهم، وإصلاح علومهم وأحوالهم**، فقد أدركتني عليهم غيرة عمياء، وشفقة حمقاء، فإنك ترى بعض متعبديهم إنما اهتموا بمجرد كثرة العمل، من غير مراعاة الآفات والعلل، وأغفلوا مجاهدة النفس، وأوردوا الأمور على العكس، وجهلوا الحقائق والمعاني، وشيدوا بناء السقف من غير إحكام المباني، فغرهم الكثرة والعدد، وأهملوا الأهم الأوكَدَ وهو إصلاح القلوب والتطهير من العيوب، ولم يعلموا أن الشأن في الصفوة لا في الكثرة، وأن الجوهرة الواحدة خير من ألف خرزة، وأنه لا يغني عدد الْجَوْزِ ولا لُبَّ فيها، وأن العمل مع الآفات معلول، وأنه حقيق بالرد وعدم القبول، وترى بعض طلاب العلم إنما صرفوا معظم اجتهادهم، وجُلَّ عنايتهم واعتمادهم إلى علم يتوصلون به إلى التَّشَيُّخِ والقضاء، والتقدم على النظراء، والانخراط في سلك من يُقصد في المكاتبات والفتاوي، مما يوقعهم في أهوى المهاوي وأسوأ المساوي، فحسب أحدهم من العلم أن يقال: فلان عالم، فخاضوا في ذلك في فضول ما لا يعني، وضيعوا العمر النفيس فيما ليس في الآخرة يُغْنِي، **تالله لقد أغرق القوم فيما لا يعنيهم**، بل يُعَنِّتُهُمْ مع الساعات ولا يغنيهم، الشيطان

([1]) الشعراني: هو عبد الوهاب بن أحمد بن علي بن احمد بن محمد بن موسى الشعراني، الأنصاري، الشافعي، الشاذلي، المصري (أبو المواهب، أبو عبد الرحمن) فقيه، أصولي، محدث، صوفي، مشارك في أنواع من العلوم. ولد في قلقشنده بمصر في 27 رمضان، ونشأ بساقية أبي شعرة من قرى المنوفية، وتوفي بالقاهرة سنة 973هـ. من تصانيفه الكثيرة: "الجوهر المصون والسر المرقوم فيما تنتجه الخلوة من الأسرار والعلوم"، و "الدرر المنثورة في زبد العلوم المشهورة"، و"لواقح الانوار في طبقات الاخيار"، و"المقدمة النحوية في علم العربية"، و"شرح جمع الجوامع للسبكي" في اصول الفقه. انظر: شذرات الذهب: (372/8)، ومعجم المولفين: (218/6).

([2]) انظر الطبقات الكبرى المسماة: لواقح الأنوار في طبقات الأخيار للشعراني: (75/2).

يعدهم ويمنيهم، وأهملوا فرض العين الذي في إهماله هلاكُ الدارين، وهو ما يعــرف بــه أنواع الفضائل وكيفية اكتسابها، وأنواع الرذائل وكيفية اجتنابها يتعلم أحدهم حــلاوةَ المنطق، وضروب الفصاحة والتَّمَشْدُقِ، بما لم يبلغه فهما، ولم يحط بحقيقته علما، ويظهر غرائب العلم ودقائقه، ويتكلف العبارات البليغة الرائقة، **والله لا يحب المتكلفين**، ويورد في المسألة الخلافيات، وتكثير الصور والتفريعات، حرصا على استمالة النفوس، لما يرشح لها من الثناء والحظ الخسيس، ويُسَمِّنُ قوله بما يهزل به دينه، ليعلو به قــدره، وينتشــر صيته، ويرتفع ذكره، ويظفر بمراتب من الرياسة، ويتربى حُبُّ الجاه والشرف في قلبــه، كلما ازداد طالبا للعلم، فيئول به ذلك إلى الرياء، والتصنع للخلق، فيكون ذلك ســببا لهلاكه وطرده، من حيث يراه سبب نجاته وقربه، وإذا مات لحقه الندم حين لا ينفعــه، واعتذر إلى من لا يسمعه، وترى بعض من يشار إليهم بالعلم اتخذوه شركا وحبائل، لنيل الرياسة وطلب الحظ العاجل، وتحيلا لتحصيل الأماني، وحرفة يجمعون بها الحطام الفاني، وَسُلَّمًا يتوصلون بها إلى التنعم بالدنيا واكتسابها، واستجلابا للجاه والشهرة والمترلة عند أربابها، وجعلوه للدنيا تجارة، إلا أنها كافلة بالغبن والخسارة، ووسيلة للفتوى و القضاء، والتقدم عل الأقران والتسلط على الأعداء، وغير ذلك من مقاصد السوء، التي تغضــب الرحمان، وتضحك الشيطان، فصار يقتدى بهم في التكالب على الحظوظ العاجلة، فعادوا فتنة على الناس نازلة، فيقال: لو كان هذا مذموما منهيا عنه، لاَجْــتَنَــبَهُ العلماء وهربوا منه، فيا لها فتنة تعرضوا لها لو تفكروا، وليتهم كانوا كالعوام إذا ماتوا ماتــت معهــم ذنوبهم، **كما قال الإمام الغزالي[1] نفعنا الله به**: وتراهم يتغايرون على العلــم تغــاير

([1]) **الغزالي**: هو أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي، الملقب حجة الإسلام زين الدين الطوسي الفقيه الشافعي، لم يكن للطائفة الشافعية في آخر عصره مثله، متكلم فقيه، أصولي، صوفي، مشارك في انواع من العلوم. ولد بالطابران احدى قصبتي طوس بخراسان، وطلب الفقه لتحصيل القوت، ثم ارتحل إلى ابي نصر الاسماعيلي بجرجان، ثم إلى امام الحرمين ابي المعالي الجويني بنيسابور، فاشتغل عليه ولازمه ثم جلس للإقراء، وحضر مجلس نظام الملك، فأقبل عليه نظام الملك، فعظمت مترلة الغزالي، وندب للتدريس بنظامية بغداد، ثم أقبل على العبادة والسياحة، فخرج إلى الحجاز فحج، ورجع إلى دمشق فاستوطنها عشر سنين، ثم سار إلى القدس والاسكندرية، ثم عاد إلى وطنه بطوس واشتغل بنفسه وصنف الكتب المفيدة في عدة فنون منها ما هو أشهرها كتاب " الوسيط " و "

النساء، فيشق على أحدهم أن يستفيد تلميذه من غيره[1]. وإن رُدَّ كلامُ أحدهم أنِفَ واستنكف واغتاظ، وإن أُثني عليه فرح بالثناء وارتاح، وهذا كله غشٌّ ونفاقٌ ودورانٌ حول الجاه، وَرَشْحُ الصفات المهلكة في سر القلب. **نسأل الله السلامة والعافية دنيا وأخرى.** وربما كان بعضهم منجنيقَ ضلال ترمي به قواعد الدين، ونار فساد تضرم قلوب المهتدين، هذا مع أني لا أبرئ نفسي من هذه العيوب كلها، ولا أجد أحدا أحوج مني للعمل بما في هذا الكتاب، إذ ينبغي للمؤلف أن يكون هو أول قائم بما ألفه، ويحمل نفسه على مقتضاه، ليكون ذلك داعية إلى الانتفاع به ظاهرا وباطنا، ولكن ليس من شروط المرشدِ والناصحِ الامتثالُ، لأن الإرشاد والامتثال فرضان متميزان، فليس لمن ترك أحدهما أن يترك الآخر، وهذا كله ليس مني تهجينا لعلم الظاهر ولا تحقيرا، ولا ذما لأبناء الزمان ولا تغييرا، بل صدر ذلك مني لهم بقصدٍ صحيح إن شاء الله تعالى، ونية صحيحة شفقةً عليهم، وذكرى لأولي الألباب، ومحض نصيحة وحضا لهم في العلم والعمل على الإخلاص، ليكون لهم ذلك يوم القيامة كفيلا بالخلاص، ولينالوا غدا من المخاوف أمنا، ويفوزوا برضى الرحمان وملكٍ لا يبلى ولا يفنى، نسأله سبحانه أن يرزقنا من العلم النافع، والعمل الخالص، ما يوجب لنا ذلك بمنه وكرمه، وأن يلطف بنا وبإخواننا في هذا الزمان الصعبِ النكدِ الذي عظمت عوائقه، وكثرت علائقه، وخطرت بوائقه، وتلاطمت أمواجه، وتراكمت أهواله وأهراجه، وانقرضت فيه الأكابر، وشاعت فيه الأباطل والمناكر، وتعطل فيه موسم الأفاضل، وتبدد نظام الفضائل، وارتجت فيه أبواب المعروف وانسدت، وقويت شوكة الأشرار واشتدت، وكسفت فيه شموس الحق، وتراكمت فيه ظلمة الباطل بين الخلق، وذاع فيه الظلم والطغيان والشر، وسد الأفقَ في الأقاليم دخان الهوى وانتشر، وزهد أهله في الدرجات الأخروية العليا، ورغبوا في حطام

البسيط " و " الوجيز " و " الخلاصة " في الفقه، ومنها " إحياء علوم الدين " وهو من أنفس الكتب وأجملها، وله في أصول الفقه " المستصفى ". توفي: 505هـ. انظر: وفيات الأعيان: (216/4)، وطبقات السبكي: (101/4).

([1]) انظر: إحياء علوم الدين للغزالي: (63/1).

الدنيا، فلا حرص ولا حزن إلا عليها، ولا نهوض إلا إليها، يُضيِّعُ واحد منهم عمره في شهوة ساعةْ، وما ذلك كله إلا لقرب هجوم أشراط الساعةْ، إن ضاع دينه لم يتغير، وإن ضاعت ذرةٌ من دنياه تأسف وتكدر، **وكأن قائل هذه الأبيات شاهد زماننا وإياه عنى:**

ذَهَبَ الرجالُ المُقتدى بفِعالِهم ... والمُنكِرونَ لكُلِّ أمرٍ مُنكَرِ

وبَقيتُ في خَلفٍ يُزكّي بَعضُهُم ... بَعضاً ليَستُرَ مُعوِرٌ عن مُعوِرِ

أبُنَيَّ إن من الرِّجالِ بَهيمَةً ... في صُورةِ الرَّجُلِ السَّميعِ المُبْصِرِ

فَطِنٌ لِكُلِّ مُصيبَةٍ في مالِهِ ... وإذا أُصيبَ بِدينِهِ لَم يَشعُرِ[1]

ومثل هذا كله وأكبر لا يستغرب في زماننا هذا، وقد وقع بعضه في أزمنة قبله. فقد شكى الإمام المحقق ابن رَزق[2] زمانه الكثير الخير، **وكذلك الشيخ أبو محمد بن أبي جمرة**[3]، ثم بعده **أبو عبد الله بن الحاج**[4]، **ثم الشيخ سيدي محمد بن يوسف**[5] بعده

([1]) الأبيات لأبي الأسود الدؤلي. انظر ديوانه: (حرف الراء).

([2]) ابن رزق: هو أحمد بن محمد بن رزق أبو جعفر القرطبي، شيخ المالكية، كان من العلماء العاملين، دينا صالحا، حليما، خاشعا يتوقد ذكاءه. قال أبو الحسن بن مغيث: كان أذكى من رأيت في علم المسائل، وألينهم كلمة، وأكثرهم حرصا على التعليم، وأنفعهم لطالب فرع، على مشاركة له في علم الحديث، وقال ابن بشكوال: كان مدار طلبة الفقه بقرطبة عليه في المناظرة والتفقه. توفي 477هـ. انظر سير أعلام النبلاء: (564/18).

([3]) ابن أبي جمرة: هو عبد الله بن سعد بن سعيد بن أبي جمرة الازدي الأندلسي، أبو محمد: من العلماء بالحديث، مالكي. أصله من الاندلس ووفاته بمصر. من كتبه " جمع النهاية – ط " اختصر به صحيح البخاري، ويعرف بمختصر ابن أبي جمرة، و " بهجة النفوس – ط " في شرح جمع النهاية، و " المرائي الحسان – ط " في الحديث والرؤيا. توفي سنة: 695هـ. انظر: شجرة النور الزكية: (199)، والبداية والنهاية: (346/13).

([4]) ابن الحاج: هو محمد بن محمد بن محمد ابن الحاج أبو عبد الله العبدري الفارسي نزيل مصر سمع ببلاده ثم قدم الديار المصرية وحج وسمع الموطأ من الحافظ تقي الدين عبيد الأسعردي وحدث به ولزم الشيخ أبا محمد بن أبي جمرة فعادت عليه بركاته وصار ملحوظاً بالمشيخة والجلالة بمصر وجمع كتاباً سماه: "المدخل" كثير الفوائد كشف فيه عن معايب وبدع يفعلها الناس ويتساهلون فيها وأكثرها مما ينكروا بعضها مما يحتمل ومات في جمادى الأولى سنة 737هـ وقد بلغ الثمانين أو جاوزها وأضر في آخر عمره وأقعد ولشيخنا شمس الدين محمد بن علي بن ضرغام ابن سكر منه إجازة. انظر: شجرة النور الزكية: (118)، والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: (99/2).

([5]) هو محمد بن يوسف السنوسي الحسني التلمساني، الإمام المتقن العلامة الصالح الزاهد، أخذ عن والده وعن الزواوي والقلصادي والشريف يوسف بن أحمد وغيرهم، وأخذ عنه جماعة كابن صعد والقاسم الزواوي وابن أبي مدين وغيرهم، ألف كثيرا من الكتب منها: العقائد الكبرى والوسطى والصغرى وشروحها، ومختصر الأبي على مسلم، وشرح للبخاري. (شجرة النور الزكية: 266، كفاية المحتاج ج2 ص: 200، درة الحجال: 204).

شكى زمانه الذي هو أواخر القرن التاسع، هذا كله في أزمنتهم الكثيرة الخير الزاهرة بوجودهم ووجود أمثالهم، **فكيف لو أدركوا زماننا في صدر القرن الثاني عشر، فقد تفاقم الخطب بعدهم، ولا سيما والدنيا الآن هي تعالج النزع، وقد آذنت بالرحيل والانتقال، ومفاجآت الأشراط والأهوال.**

هَــذا الزّمــان الّــذي كنّــا نُحــاذِرهُ … فــي قَول كعب وَفي قَول ابنِ مَسـعودِ
إن دامَ هَذا وَلَــم يُحــدَث لَــهُ غِيَــرٌ … لَم يُبْكَ مَيْتٌ وَلَم يُفــرَح بِمَولــودِ[1]

صار اليوم المعروف منكرا، والمنكر معروفا. فإنا لله وإنا إليه راجعون، والله المستعان وإليه اللياذ في أن يعيذنا من شرور أنفسنا ومن شر هذا الزمان، وشر أهله إنه منعم كريم رؤوف رحيم. ولبعضهم:

لَقَــدْ صَــارَ تَغْــيِيرُ الْمَنَــاكِرِ مُنْكَــرًا … لَدَى عَصْرِنَا عِنْدَ اللِّئَــامِ مِــنَ الْــوَرَى
إِذَا قُلْــتُ هَــذَا لاَ يَحِــلُّ بِشَــرْعِنَا … يَقُولُونَ ذَا مَــا قَالَــهُ قَــطُّ مَــنْ دَرَى
فَكَمْ مِنْ فَقِيهٍ قَــدْ رَأَيْنَــا وَلَــمْ يَقُــلْ … لَنَــا مِثْــلَ هَــذَا إِنَّ هَــذَا لَمُفْتَــرَى

فتأمل يا أخي هذا الكتاب وطالعهْ، واعمل بما فيه تجمع لك الحقيقة والشريعة وصالح الإيمان، وجميع خير الدنيا والآخرة، فرحم الله عبدا أكثر من مطالعة هذا الكتاب، وطالب نفسه بالعمل بما فيه.

إلهي دعوتك وأنت الكريم، وسألتك أن تجعل هذا الكتاب خالصا لوجهك الكريم، مقبولا بفضلك العميم، قبولا لا يعقبه خزي ولا تبديل، وتجعل ذلك سنة لمن قرأه، أو سمعه، أو عمل به، أو اقتناه، أو سعى في شيء منه، اللهم فاجعله لي حجة، واجعل لي نورَهُ تاما إلى يوم القيامة، واجعله لمن قرأه أو تملكه نورا تاما إلى يوم القيامة، اللهم اجعله لنا دليلا وإماما للحق، وقائدا إليه، ومؤنسا لنا في قبورنا، ومنورا لقلوبنا، وأرنا

---

[1] البيتان وجدتهما في الأزهار فيما عقده الشعراء من الأحاديث والآثار للسيوطي وقال إنهما لأبي هلال.

شكى زمانه الذي هو أواخر القرن التاسع، هذا كله في أزمنتهم الكثيرة الخير الزاهـــرة بوجودهم ووجود أمثالهم، **فكيف لو أدركوا زماننا في صدر القرن الثاني عشر، فقـــد تفاقم الخطب بعدهم، ولا سيما والدنيا الآن هي تعالج النزع، وقد آذنت بالرحيـــل والانتقال، ومفاجآت الأشراط والأهوال.**

هَـــذا الزّمـــان الّـــذي كنّـــا نُحـــاذِرهُ ... فـــي قَول كعب وَفي قَول ابنِ مَســـعودِ

إن دامَ هَذا وَلَـــم يُحـــدَث لَـــهُ غِيَـــرٌ ... لَم يُبْكَ مَيْتٌ وَلَم يُفـــرَح بِمَولـــودِ[1]

صار اليوم المعروف منكرا، والمنكر معروفا. فإنا لله وإنا إليه راجعون، والله المستعان وإليه اللياذ في أن يعيذنا من شرور أنفسنا ومن شر هذا الزمان، وشر أهله إنه مـــنعم كريم رؤوف رحيم. ولبعضهم:

لَقَـــدْ صَـــارَ تَغْـــيِيرُ الْمَنَـــاكِرِ مُنْكَـــرًا ... لَدَى عَصْرِنَا عِنْدَ اللِّئَـــامِ مِـــنَ الْـــوَرَى

إِذَا قُلْـــتُ هَـــذَا لاَ يَحِـــلُّ بِشَـــرْعِنَا ... يَقُولُونَ ذَا مَـــا قَالَـــهُ قَـــطُّ مَـــنْ دَرَى

فَكَمْ مِنْ فَقِيهٍ قَـــدْ رَأَيْنَـــا وَلَـــمْ يَقُـــلْ ... لَنَـــا مِثْـــلَ هَـــذَا إِنَّ هَـــذَا لَمُفْتَـــرَى

فتأمل يا أخي هذا الكتاب وطالعهْ، واعمل بما فيه تجمع لك الحقيقة والشريعة وصالح الإيمان، وجميع خير الدنيا والآخرة، فرحم الله عبدا أكثر من مطالعة هذا الكتـــاب، وطالب نفسه بالعمل بما فيه

إلهي دعوتك وأنت الكريم، وسألتك أن تجعل هذا الكتاب خالصا لوجهك الكـــريم، مقبولا بفضلك العميم، قبولا لا يعقبه خزي ولا تبديل، وتجعل ذلك سنة لمن قرأه، أو سمعه، أو عمل به، أو اقتناه، أو سعى في شيء منه، اللهم فاجعله لي حجة، واجعل لي نورَهُ تاما إلى يوم القيامة، واجعله لمن قرأه أو تملكه نورا تاما إلى يوم القيامة، اللـــهم اجعله لنا دليلا وإماما للحق، وقائدا إليه، ومؤنسا لنا في قبورنا، ومنورا لقلوبنا، وأرنا

---

(1) البيتان وجدتهما في الأزهار فيما عقده الشعراء من الأحاديث والآثار للسيوطي وقال إنهما لأبي هلال.

فضله في الدنيا والآخرة، وأعد علينا بركته في الدنيا والآخرة، برحمتك يا أرحم الراحمين.

فدونك في شرح هذه الخاتمة جملة صالحة فيما لا بد للمرء من مطالعته كل حين لا تكاد توجد في غيره فعليك بتحصيله فَتَطَّلِع فيه على جواهر نفيسة لا توجد مجتمعة في غيره، كما هي بحمد الله حاصلة فيه، وكيف لا يكون كذلك وهو مشتمل على الوعظ والتذكير، والتنبيه والتبصير، وتخلية القلب من الرذائل، وتحليته بالفضائل، وتصفية الأعمال، والتحرز من الالتفات إلى الخلق الذي هو من أعظم الحجب بين العبد وبين ربه. **وقصدت بهذا نصح من اطلع على هذا الشرح أن يعلم قدر ما أنعم الله تعالى علي به، فإن التحدث بالنعم شكرٌ.**

وهذا أوان الشروع في الشرح وإلى الله تعالى الرغبة في التوفيق إلى أرشد الأمور وأجلها وأحمدها عاقبة في الدين والدنيا والآخرة، والله المستعان، وعليه التكلان وبه التوفيق. فإن صح ما قلته في هذا الكتاب فهو الغرضْ، وإلا فكم ظُنَّتْ صِحَّةٌ بِذِي مَرَضْ، **بيد أني أقول كما قال ابن عباس**[1] ﷺ لما سئل إذا مات الرجل في نكاح التفويض قبل الدخول وقبل الفرض فبقي شهرا لم يجاوب، فقيل له: يا صاحب رسول الله ﷺ ما لنا غيرك مجاوب في المسألة. فقال: وإذا عزمتمْ فَأَجْتَهِدُ، فإن أصبت فبفضل الله ورسوله، وإن أخطأت فمني ومن الشيطان. وصدق الله ورسوله.

([1]) **ابن عباس:** هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن ها شم بن عبد مناف ابن عم رسول الله ﷺ ولد قبل الهجرة بثلاث سنين ودعا له رسول الله ﷺ بالفهم في القرآن فكان يسمى البحر والحبر لسعة علمه، ونشأ في بدء عصر النبوة، فلازم رسول الله ﷺ وروى عنه الاحاديث الصحيحة. وشهد مع علي الجمل وصفين. وكف بصره في آخر عمره، فسكن الطائف، وتوفي بها. له في الصحيحين وغير هما 1660 حديثا. وكان كثيرا ما يجعل أيامه يوما للفقه ويوما للتأويل، ويوما للمغازي، ويوما للشعر، ويوما لوقائع العرب. وكان عمر إذا عضلت عليه قضية دعا ابن عباس وقال له: أنت لها ولأمثالها، ثم يأخذ بقوله ولا يدعو لذلك أحدا سواه. وكان آية في الحفظ، أنشده ابن أبي ربيعة قصيدته التي مطلعها: " أمن آل نعم أنت غاد فمبكر " فحفظها في مرة واحدة، وهي ثمانون بيتا، وكان إذا سمع النوادب سد أذنيه بأصابعه، مخافة أن يحفظ أقوالهن. ولحسان بن ثابت شعر في وصفه وذكر فضائله. وينسب إليه كتاب في " تفسير القرآن – ط " جمعه بعض أهل العلم من مرويات المفسرين عنه في كل آية فجاء تفسيرا حسنا.وأخباره كثيرة. تـ:68هـ. انظر: الإصابة: رقم الترجمة: 4272.

الكلام على البسملة

ابتدأ بالبسملة فقال: (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) تبركا بها.

ومن فضل البسملة: ما ذكر أن الله تعالى أوحى إلى نبي من الأنبياء: «أنه من لقيني وفي صحيفته بسم الله الرحمن الرحيم سبع مائة غفرت ذنوبه ولو كانت عدد التراب».

والاسم عند البصريين من الأسماء التي حذفت أعجازها لأن أصله سُمُوٌ [بضم أوله وكسره مع سكون الميم[1]] لا أوائلها كما عند الكوفيين، فعلى الأول فهو مشتق من السمو وهو العلو. **معناه:** أنه تعالى لم يزل موصوفا قبل الخلق وبعدهم وعند وجودهم لا تأثير لهم في أسمائه ولا في صفاته وهو قول أهل السنة. وعلى الثاني: هو مشتق من الوسم، يقول: كان الله تعالى في الأزل بلا اسم ولا صفة؛ فلما خلق الخلق جعلوا له أسماء وصفات وهو قول المعتزلة أي وزعموا أنه يبقى بلا اسم ولا صفة عند فناء الخلق. **كما نقله عنهم القرطبي[2]**، وهو أشد خَطَأً من قولهم بخلق القرآن؛ لأن القرآن صفة واحدة، والأسماء صفات متعددة. ويجاب عن الكوفيين بأنهم إنما نظروا للفظِ اسْمٍ بقطع النظر عن مسماه، ولازم المذهب ليس بمذهب، فلا يلزم على كلامهم الجري على مذهب المعتزلة[3]. **انتهى مما كتبه عبد الباقي[1] في شرح خطبة خليل للناصر اللقاني[2].**

([1]) كما في شرح عبد الباقي على شرح اللقاني لخطبة خليل ص 9. مخطوط.

([2]) **القرطبي:** هو محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الانصاري الخزرجي الاندلسي، أبو عبد الله، القرطبي: من كبار المفسرين. صالح متعبد. من أهل قرطبة. رحل إلى الشرق واستقر بمنية ابن خصيب (في شمالي أسيوط، بمصر) وتوفي فيها. من كتبه " الجامع لأحكام القرآن – ط " عشرون جزءا، يعرف بتفسير القرطبي، و " قمع الحرص بالزهد والقناعة " و " الاسنى في شرح أسماء الله الحسنى " و " التذكار في أفضل الأذكار – ط " و " التذكرة بأحوال الموتى وأحوال الآخرة – خ". تـ: 671هـ. انظر: الشجرة: (197).

([3]) انظر شرح عبد الباقي على شرح اللقاني لخطبة خليل : ص9. مخطوط. والكلام موجود في شرح عبد الباقي الزرقاني على العزية: (ص 17).

والحكمة في أنه تعالى جعل افتتاح كتابه بحرف الباء واختارها على سائر الحــروف ولا سيما على الألف -فإنه أسقط الألف من الاسم وأثبت مكانها الباء وقال: لبســم الله- **عشرة معان:**

منها: أن للألف ترفعا وتكبرا وتطاولا، وفي الباء انكسارا وتواضعا وتساقطا. فالألف لما تكبرت وضعها الله تعالى، والباء لما تواضعت رفعها الله تعالى **كما ورد:** «من تواضع لله رفعه الله[3]».

ومنها: أن الباء حرف شفوي تنفتح الشفة به ما لم تنفتح بغيره من الحروف، وكان أول انفتاح فم الذرة الإنسانية في عهد "ألست بربكم" في جواب "بلى"، فلما كانت البــاء أول حرف نطق به الإنسان وفتح فمه به، وكان المخصوص بهذه المعاني، اقتضت الحكمة الإلهية اختيارها من سائر الحروف، فاختارها ورفع قدرها وجعلها مفتاح كتابه وأعطاها رفعة الألف وقامته، وأثبتها مكانها لإظهار تعظيمها وقرنَها باسم ذاته.

ومنها: أن معاني الكتب المترلة مجموعة في القرآن، ومعاني القرآن مجموعــة في الفاتحــة، ومعاني الفاتحة مجموعة في البسملة، ومعاني البسملة مجموعة في الباء، أي لأن المقصود من العلم وصول العبد إلى الرب، والباءُ باءُ الإلصاق، فهي تلصق العبد بجانب الرب وذلك كمال المقصود.

([1]) أبو محمد عبد الباقي يوسف بن أحمد الزرقاني الإمام المحقق مرجع المالكية في عصره، أخذ عن علي الأجهوري- وشهد له بالعلم- والبرهان اللقاني وغيرهم، أخذ عنه جماعة كثيرون، له مؤلفات منها: شرح لمختصر خليل- شرح العزية- فتاوى في الفقه. توفي سنة: 1099هــ. (شجرة النور الزكية: 304).

([2]) **اللقاني**: هو محمد بن الحسن اللقاني، ناصر الدين، علامة محقق ، أخذ عن علامة المعقولات الملا عالي العجمي وغيره، اشتغل بإقراء العلوم على اختلافهما نحوا من ستين عاما لا يفتر عن ذلك على وجه لم يساوه فيه غيره من تحرير العبارات والنظر فيها، دارت عليه الفتوى بعد موت أخيه بإشارته له بذلك. قال القرافي: آخر من انتهت إليه رياسة العلم في مصر. وكان كما قال القرافي. ولم يصنف شيئا سوى ما كتب من الطرر على التوضيح فجمعت بعد موته في مجلد فعم نفعها، ونسب له تقييد على شرح المحلي على جمع الجوامع للسبكي، وشرح خطبة خليل. ت 958هــ. انظر: كفاية المحتاج (230/2) رقم الترجمة: (191).

انظر شرح عبد الباقي على شرح اللقاني لخطبة خليل: ص9. والكلام موجود في شرح عبد الباقي الزرقاني على العزية: (ص 17).

([3]) أخرجه أحمد في مسند رقم: (12043). بلفظ: « مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ دَرَجَةً رَفَعَهُ اللَّهُ دَرَجَةً حَتَّى يَجْعَلَهُ فِي عِلِّيِّينَ وَمَنْ تَكَبَّرَ عَلَى اللَّهِ دَرَجَةً وَضَعَهُ اللَّهُ دَرَجَةً حَتَّى يَجْعَلَهُ فِي أَسْفَلِ السَّافِلِينَ ».وابن حجر في فتح الباري رقم: 0621) عن أبي سعيد.

ومنها: أن البسملة متعلقة بمعنى الحمدُ لله، أي ما في الحمد من معنى الفعل، فإنه تعالى لا يحمد ولا يثنى عليه إلا بأسمائه الحسنى، ولا يُتكلّفُ في القرآن محذوفٌ إلا لضرورة، ولا ضرورة هنا. **وأما قولهم**: إن المصادر لا تعمل عمل الفعل إلا إذا تقدمت، وأما إذا تأخرت فتضعف عن العمل، فذلك تحكم من جمهور النحويين غيرُ مرضي في التعليل.

واختار بعضهم كالرضى[1] **والسعد التفتازاني**[2] جواز عمله في الظرف المتقدم.

ومنها: ما ورد أنه ﷺ قال لمعاوية[3]: «أَلِقْ الدواة، وحرّف القلم، وانصب الباء، وفرق السين، ولا تعور الميم، وَمُدَّ الرحمن، وجود الرحيم، وضع قلمك على أذنك اليسرى، فإنه أذكر لك»[4].

ومنها: «أن حروف البسملة تسعة عشر عدد الزبانية فمن قالها وُقي منهم» **كما ورد**.

ومنها: أن الله تعالى تكرَّرَ ذكره في القرآن في ألفيْ موضع وخمسمائة وستين.

ومنها: أن البسملة نزلت أولَ كل سورة من القرآن قَسَمًا بها أن ما في هذه السورة حق، **وقد تقدم الكلام عليها مستوفًى في: شَرْحِ الْعَقِيدَةِ**[1].

([1]) **لعله الرضى الصاغاني**: وهو الحسن بن محمد بن الحسن بن حيدر العدوي العمري الصاغاني الحنفي رضي الدين: أعلم أهل عصره في اللغة. وكان فقيها محدثا. ولد في لاهور (بالهند) ونشأ بغزنة (من بلاد السند) ودخل بغداد، ورحل إلى اليمن، وتوفي ودفن في بغداد، وكان قد أوصى أن يدفن بمكه، فنقل إليها ودفن بها. له تصانيف كثيرة منها (مجمع البحرين – خ) ملجدان في اللغة، و (العباب) معجم في اللغة ألفه لابن العلقمي (وزير المستعصم)، بقيت منه أجزاء، و (الشوارد في اللغات) و (الاضداد – ط). توفي 650هـ. انظر النجوم الزاهرة: (27/6).

([2]) **السعد التفتازاني**: هو مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني، سعد الدين: من أئمة العربية والبيان والمنطق. ولد بتفتازان (من بلاد خراسان) وأقام بسرخس، وأبعده تيمورلنك إلى سمرقند، فتوفى فيها، ودفن في سرخس. كانت في لسانه لكنة. من كتبه (تهذيب المنطق – ط) و (المطول – ط) في البلاغة، و (المختصر – ط) اختصر به شرح تلخيص المفتاح، و (مقاصد الطالبين – ط) في الكلام، و (شرح مقاصد الطالبين – ط) و (النعم السوابغ – ط) في شرح الكلم النوابغ للزمخشري، و (شرح التصريف العزي – ط) في الصرف، وهو أول ما صنف من الكتب، وكان عمره ست عشرة سنة، وغيرها. توفي: 793هـ. انظر: بغية الوعاة: (390)، وإرشاد الأريب: (159/7).

([3]) هو معاوية بن (أبي سفيان) صخر ابن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، القرشى الاموى: مؤسس الدولة الأموية في الشام، وأحد دهاة العرب المتميزين الكبار. كان فصيحاً حليما وقورا.ولد بمكة، وأسلم يوم فتحها (سنة 8 هـ وتعلم الكتابة والحساب، فجعله رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتابه. وأخباره كثيرة جدا لا تسعها الهوامش للمزيد منها انظر الإصابة: (433/3).

([4]) أخرجه الهندي في كنز العمال رقم: (29566). وأخرجه الديلمي (394/5 ، رقم (8533) .

فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم

(وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا) وتقدم الكلام فيه أيضا على الصلاة على النبي ﷺ مستوفًى[1].

أتى بالواو في عطف ﷺ على البسملة دروجا على مذهب كثير من النحاة، فإنه في عطفه على البسملة بالواو خلاف، **فقيل:** بالمنع بناء على أن جملة البسملة خبرية مراعاة لمن منع تعاطف الخبر والإنشاء. **وقيل:** بالجواز، **إما** على حذف القول؛ أي وأقول: صلى الله على سيدنا محمد، وحذف القول في كلام العرب كثير، **وإما** عل القول بجواز عطف الإنشاء على الخبر، **وإما** على أن جملة البسملة أيضا إنشائية، وهو الأرجح فيها، **والمختار: إثبات الواو لما ذكره الشيخ أبو عبد الله الخروبي[2] عن شيخه أبي عبد الله بن منصور الحلي[3] عن شيخه أبي زيد الثعالبي[4] عن شيخه أبي جمعة المقري** أن النبي ﷺ أمره بذلك في النوم، وهذه المسألة مما يعمل فيها بالرؤيا ونحوها. **قاله الشيخ محمد المهدي بن يوسف الفاسي[5] في شرح دلائل الخيرات[1]. وتقدم في شرح العقيدة**

([1]) انظر فرائد الفوائد من ص 55 إلى ص 68.

([2]) **الخروبي:** هو محمد بن علي الخروبي الطرابلسي (أو السفاقسي) الجزائري المالكي، أبو عبد الله: فقيه الجزائر في عصره. دخل مراكش سنة 959 سفيرا بين سلطان آل عثمان والامير أبي عبد الله الشريف، للمهادنة بينهما. وتوفي بالجزائر. له مولفات، منها كتاب في (التفسير) و (الحكم الكبرى – خ) و (شرح كتاب عيوب النفس ومداواتها – خ). توفي 963هـ. انظر: معجم المولفين: (11/6).

([3]) **لعله:** محمد بن منصور بن احمد بن ادريس ابن الحسين بن القاسم بن عيسى العجلي، الحلي فقيه، مفسر، من تصانيفه: السرائر الحاوية لتحرير الفتاوى، المستطرفات، جوابات مسائل ابن قمرويه، مختصر في المضايقة، ومختصر تفسير التبيان. انظر معجم المؤلفين: (51/12).

([4]) **الثعالبي:** هو عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي الجزائري، أبو زيد: مفسر، من أعيان الجزائر، زار تونس والمشرق. من كتبه (الجواهر الحسان في تفسير القرآن – ط) أربعة مجلدات، و (الأنوار) في المعجزات النبوية، و (روضة الأنوار ونزهة الأخيار) مجموع، و (جامع الامهات في أحكام العبادات) و (الذهب الإبريز في غريب القرآن العزيز) و (الإرشاد في مصالح العباد) و (رياض الصالحين). توفي 875هـ. انظر:

([5]) هو محمد المهدي بن أحمد بن علي بن يوسف بن محمد الفاسي الفهري، أبو عيسى: مؤرخ محدث. مولده بالقصر الكبير (بالمغرب) ووفاته بفاس. كان لا يأكل إلا من عمل يده بالنسخ، ولا ينسخ لمن في ماله شبهة. وخطه حسن متقن. له تآليف، منها: (التعريف

سبب تسميته ﷺ بمحمد(2).

فائدة: وفي جواز التسمية بمحمد -وهو مذهب الأكثر لتسمية كثير من السلف بـه- ومنعه خلاف، **وهو الظاهر من مذهب عمر(3) رضي الله عنه فإنه قال لمن تسمى بمحمد:** لا أسمع محمدًا يُسب أبدا. وجوازه بعد موته ﷺ لا في حياته. **والتسمية بمحمد** إنما هي بضم الميم الأولى وفتح الثانية على الموافقة للاشتقاق من الحمد. **وأما التسمية** بضم الميمين أو فتحهما فلعله من باب التغيير صونا للاسم الشريف أن يُسَمَّى به غيرُه. **قاله في المعيار عن بعضهم(4).**

وقال ابن مرزوق(5) في شرح قول البوصيري(6):

فَـإنَّ لِـي ذِمَّـةً منـهُ بِتَسْـمِيَتِي مُحمداً وَهْوَ أَوْفَى الخَلْقِ بالـذِّمَمِ(7)

في هذا دليل عل الترغيب في التسمية باسمه ﷺ لأنها من الذمم التي يُمَتُّ بها إليه في رجاء شفاعته ﷺ.

بمؤلف دلائل الخيرات وزمانه وكلامه وشيوخه – خ) عندي منه نسخة بالية.و (سمط الجوهر الفاخر – خ) في السيرة النبوية، و (الالماع ببعض من لم يذكر في ممتع الاسماع – ط) و (ذيل ممتع الاسماع – خ) وعليهما المدار في معرفة أولياء المغرب، و (مطالع المسرات بجلاء دلائل الخيرات – ط). توفي: 1109هـ. انظر: سلوة الأنفاس: (316/2)، والأعلام: (112/7).

([1]) انظر: مطالع المسرات بجلاء دلائل الخيرات: (ص 14). وفيه: "عن أبي عبد الله محمد بن منصور الحلي...".

([2]) انظر فرائد الفوائد في شرح قواعد العقائد للمؤلف ص 58.

([3]) هو عمر بن الخطاب غني عن التعريف. ومن أراد التوسع في أخباره فلينظر الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر.

(4) انظر المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب: (139/11).

([5]) ابن مرزوق: محمد بن أحمد بن محمد، ابن مرزوق العجيسي التلمساني، أبو عبد الله، المعروف بالحفيد، أو حفيد ابن مرزوق: عالم بالفقه الاصول والحديث والادب. ولد ومات في تلمسان، ورحل إلى الحجاز والمشرق. له كتب وشروح كثيرة، منها " المفاتيح المرزوقية لحل الاقفال واستخراج خبايا الخزرجية – خ " و " أنواع الذراري في مكررات البخاري " و " نور اليقين في شرح أولياء الله المتقين " و " تفسير سورة الاخلاص " على طريقة الحكماء، وثلاثة شروح على " البردة ". توفي: 842هـ. انظر: نيل الابتهاج: (293).

([6]) البوصيري: هو محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله الصنهاجي البوصيري المصري، شرف الدين، أبو عبد الله: شاعر، حسن الديباجة، مليح لمعاني. نسبته إلى بوصير (من أعمال بني سويف، بمصر) أمه منها. وأصله من المغرب من قلعة حماد من قبيل يعرفون ببني حبنون. ومولده في بهشيم من أعما البهنساوية. ووفاته بالاسكندرية. له (ديوان شعر – ط) وأشهر شعره البردة. توفي: 696هـ. انظر: فوات الوفيات: (205/2).

([7]) من قصيدة البردة المشهورة للبوصيري وعدد أبياتها 158 بيتا وهي من بحر البسيط، والبيت المذكور رقم: 144.

وقد وردت آثار في فضل التسمية بمحمد وأحمد:

منها: ما ذكره القاضي عياض[1] عن سريح[2] بن يونس أنه قال: «إن لله ملائكة سياحين عيادة كل دار فيها أحمد أو محمد إكراما لمحمد ﷺ».[3]

ومن فضله أيضا: ما رواه أنس[4] قال: قال رسول الله ﷺ: «يوقف عبدان بين يدي الله عز وجل فيؤمر بهما إلى الجنة فيقولان: ربنا وبما استأهلنا الجنة و لم نعمل عملا نجازى به الجنة فيقول الله لهما: عبداي ادخلا الجنة فإني آليت على نفسي أن لا يدخل النار من اسمه محمد ولا أحمد»[5].

وفي الحديث أيضا: «من ولد له مولود فسماه محمدا حبا لي وتبركا باسمي كان هو ومولوده في الجنة[6]» **رواه أبو أمامة[7].**

وفيه أيضا: «من ولد له ثلاثة أولاد و لم يسم أحدهم محمدا فقد جهل وقد جفاني[8]» **رواه ابن عباس وواثلة ابن الأسقع[1].**

([1]) **القاضي عياض:** هو عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي، أبو الفضل: عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته.كان من أعلم الناس بكلام العرب وأنسابهم وأيامهم. ولي قضاء سبتة، ومولده فيها، ثم قضاء غرناطة. وتوفي بمراكش مسموما، قيل: سمه يهودي.من تصانيفه " الشفا بتعريف حقوق المصطفى – ط " و " الغنية – خ " في ذكر مشيخته، و " ترتيب المدارك وتقريب المسالك في معرفة أعلام مذهب الامام مالك – ط". انظر: وفيات الأعيان: (483/3).

([2])هو سريج بن يونس بن إبراهيم بن الحارث المروزي الزاهد العابد صاحب الكرامات، وكانت وفاته في شهر ربيع الأول سنة خمس وثلاثين ومائتين ببغداد (235هـ). انظر: وفيات الأعيان: (67/1).

([3]) أخرجه ابن قانع في معجم الصحابة وهو له أخرجه الطبراني. انظر الشفا بتعريف حقوق المصطفى لعياض تحقيق سيدي محمد المنوني: (221/1).

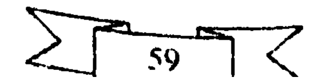
(4) هو أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم النجاري الخزرجي الانصاري، أبو ثمامة،أو أبو حمزة: صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخادمه. روى عنه رجال الحديث 2286 حديثا. مولده بالمدينة وأسلم صغيرا وخدم النبي صلى الله عليه وسلم إلى أن قبض. ثم رحل إلى دمشق، ومنها إلى البصرة، فمات فيها سنة 93هـ. وهو آخر من مات بالبصرة من الصحابة. انظر الإصابة: (71/1).

([5]) أخرجه المناوي في فيض القدير: رقم (7932) (78/5).

([6]) أخرجه المناوي في فيض القدير: رقم: (9084) (308/6).

([7]) هو صدي بن عجلان بن وهب الباهلي، أبو أمامة: صحابي. كان مع علي في (صفين) وسكن الشام، فتوفي في أرض حمص. وهو آخر من مات من الصحابة بالشام. له في الصحيحين 250 حديثا. توفي 81هـ. انظر الإصاب: (الترجمة 4056).

([8]) أخرجه المناوي في فيض القدير: رقم: (9084) (308/6).



وفيه أيضا: «ما ضر أحدكم أن يكون في بيته محمد ومحمدان وثلاثة[2]» **رواه أبو قدامة العَمْري[3] ورفعه إلى النبي ﷺ. ورُوِي أيضا عن مالك[4].**

وفيه أيضا: «ما اجتمع قوم في مشورة معهم رجل اسمه محمد فلم يدخلوه في مشورتهم إلا لم يبارك معهم[5]» **رواه علي[6].**

وفي رواية: «ما من قوم كانت لهم مشورة فحضر معهم من اسمه أحمد أو محمد فأدخلوه في مشورتهم إلا خِيرَ لهم[7]».

وفي الحديث أيضا: «تسموهم محمدا ثم تسبوهم[8]» **رواه أنس.**

وفيه أيضا: «ما من مائدة وضعت وحضر عليها من اسمه أحمد أو محمد إلا قدس الله ذلك المترل في كل يوم مرتين[9]».

وفيه أيضا: «ما أكل قوم طعامًا من حلال عليه رجل اسمه اسمي إلا يُضاعف الله في طعامهم[10]» **روته عائشة[11].**

([1]) هو واثلة بن الاسقع بن عبد العزى بن عبد ياليل، الليثي الكناني: صحابي، من أهل الصفة. قيل: خدم النبي ثلاث سنين. ثم نزل البصرة وكانت له بها دار. وشهد فتح دمشق، وسكن قرية " البلاط " على ثلاثة فراسخ منها.وحضر المغازي في البلاد الشامية. وتحول إلى بيت المقدس، فأقام. ويقال: كان مسكنه ببيت جبرين. وكف بصره. وعاش 105 سنين، وقيل: 98 وهو آخر الصحابة موتا في دمشق. له 76 حديثا. ووفاته بالقدس أو بدمشق. انظر الاصابة: (الترجمة 908).

([2]) أخرجه المناوي في فيض القدير: رقم: (3301) (324/3).

([3]) لعله عبيدالله بن سعيد بن يحيى، أبو قدامة: من حفاظ الحديث، وثقات رجاله. ولد بسرخس وسكن نيسابور. قال ابن حبان: وهو الذي أظهر السنة بسرخس ودعا إليها. روى عنه البخاري ومسلم، توفي 241هـ. انظر تهذيب التهذيب: (16/7).

([4]) هو مالك بن أنس إمام دار الهجرة وشيخ المذهب المالكي. وهو غني عن التعريف.

([5]) أخرجه السيوطي في الجامع الكبير: (رقم 312) وابن عساكر (431/38) . وأورده ابن الجوزى في العلل المتناهية (174/1 ، بعد رقم 267)

([6]) هو علي بن أبي طالب غني عن التعريف.

([7]) رواه السيوطي في الجامع الكبير: (رقم 212). عن عبد بن حميد عن أنس. ولفظه: «تسمون أولادكم محمدا.....».

([8]) أخرجه أبو يعلى في مسنده رقم: (3386).

([9]) لم أجد تخريج هذا الحديث إلا في شرح الشمائل المحمدية للهروي القاري المسمى: (182/2). وقد وجدته في كَمٍّ غفير من الكتب لكنها ليست من كتب السنن.

([10]) لم أجد تخريجه.

([11]) هي عائشة بنت أبي بكر الصديق أم المومنين، وهي غنية عن التعريف.

وفيه أيضا: «ما من أهل بيت منهم من اسمه محمد إلا لم يزالوا في البركة في كل يوم وليلة[1]» **رواه ابن عباس.**

وفيه أيضا: «ما من بيت فيه من اسمه محمد إلا رزقوا ورزق جيرانهم[2]» **رواه ابن وهب[3] في جامعه عن مالك قال:** سمعت أهل المدينة يقولون ذلك.

وفيه أيضا: «سمِّ ولدك محمدا يكثر خير بيتك[4]».

وفيه أيضا: «لا يدخل الفقر بيتا فيه اسمي[5]» **رواه أبو هريرة[6].**

وفيه أيضا: «ما من بيت فيه من اسمه محمد يخلو من خير[7]».

وفيه أيضا: «ما من أهل بيت فيهم اسم نبيٍّ إلا بعث الله إليهم ملَكًا يقدسهم بالغُدوِّ والعشيِّ[8]» **رواه علي.**

وعن جعفر بن محمد[1] عن أبيه عن جده مرسلا قال: «إذا سميتم الولد محمدا فعظموه ووقروه وبَجِّلُوه ولا تُذِلُّوه ولا تحقروه ولا تَجْبَهُوهُ[2]» تعظيما لمحمد ﷺ.

([1]) لم أجد تخريج هذا الحديث.

([2]) أخرجه في الشفا بلفظ: "ما من بيت فيه اسم محمد إلا نمى ورزقوا ورزق جيرانهم" انظر الشفا بتعريف حقوق المصطفى: (176/1).

([3]) هو عبد الله بن وهب بن مسلم الفهري بالولاء، المصري، أبو محمد: فقيه من الائمة. من أصحاب الإمام مالك. جمع بين الفقه والحديث والعبادة. له كتب، منها " الجامع - ط " في الحديث، مجلدان، و " الموطأ " في الحديث، كتابان كبير وصغير. وكان حافظا ثقة مجتهدا. عرض عليه القضاء فخبأ نفسه ولزم منزله. مولده ووفاته بمصر سنة 197هـ. انظر الوفيات: (249/1).

([4]) لم أجد تخريجه.

([5]) رواه ابن عدي وفي إسناده وضاع. انظر الفوائد المجموعة للشوكاني: (234/1).

([6]) هو عبد الرحمن بن صخر الدوسي، الملقب ب أبي هريرة: صحابي، كان أكثر الصحابة حفظا للحديث ورواية له. نشأ يتيما ضعيفا في الجاهلية، وقدم المدينة ورسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر، فأسلم سنة 7 هـ ولزم صحبة النبي، فروى عنه 5374 حديثا، نقلها عن أبي هريرة أكثر من 800 رجل بين صحابي وتابعي. وولي إمرة المدينة مدة. ولما صارت الخلافة إلى عمر استعمله على البحرين، ثم رآه لين العريكة مشغولا بالعبادة، فعزله. وأراده بعد زمن على العمل فأبى. وكان أكثر مقامه في المدينة وتوفي فيها. وكان يفتي، وقد جمع شيخ الإسلام تقي الدين السبكي جزءا سمي (فتاوي أبي هريرة) توفي 59هـ. انظر الإصابة: (الكنى الترجمة 1179).

([7]) لم أجد تخريجه.

([8]) رواه الخطيب عن علي وابن عباس وابن عمر مرفوعا وفي إسناده من رمي بالكذب وقد أورده ابن الجوزي في الموضوعات. انظر الفوائد المجموعة للشوكاني: (469/1).

وعن الحسن البصري[3] موقوفا قال: «إن الله عز وجل ليوقف عبدا بين يديه يوم القيامة اسمه محمد أو أحمد قال فيقول الله تعالى: محمد عبدي أما استحييت مني تعصيني واسمك اسم حبيبي محمد، فَيُنَكِّسُ العبد رأسه ثم يقول: اللهم إني فعلت، فيقول الله: يا جبريل خذ بيد عبدي فأدخله الجنة فإني أستحيي أن أعذب بالنار من اسمه حبيبي محمد[4]».

وفي الأثر: «إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ من قبل المولى جل جلاله: من كان اسمه محمدا فليدخل الجنة إكراما لنبي الله وحبيبه ﷺ»[5] **روي عن جعفر بن محمد. وفي لفظ آخر:** «يُنادى يوم القيامة يا محمد فيرفع رأسه كل من اسمه محمد فيقول الله عز وجل: أُشهدكم أني قد غفرت لكل من اسمه على اسم محمد نبيي».

وفي الحديث: «إذا كان يوم القيامة أخرج الله أهل التوحيد من النار وأول من يخرج من وافق اسمه اسم نبيي[6]».

وفيه أيضا: «إذا سميتم الولد محمدا فأكرموه وأوسعوا له في المجلس ولا تقبحوا له وجها[1]».

---

(1) لعله جعفر بن محمد بن نصير، أبو محمد الخلدي: شيخ الصوفية في أيامه ببغداد، وأعلمهم بالحديث. كان خوصا (يبيع الخوص، وهو ورق النخل) نسبته إلى (قصر الخلد) ببغداد ولم يكن منه وإنما دعاه (الجنيد) بالخلدي، فلزمه. حج 56 حجة. مولده ووفاته ببغداد. انظر الشذرات: (378/2).

(2) أخرجه الديلمي (1/340، رقم 1354).

(3) **البصري:** هو الحسن بن يسار البصري، أبو سعيد: تابعي، كان إمام أهل البصرة، وحبر الأمة في زمنه. وهو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء الشجعان النساك. ولد بالمدينة، وشب في كنف علي بن أبي طالب، واستكتبه الربيع بن زياد والي خراسان في عهد معاوية، وسكن البصرة. وعظمت هيبته في القلوب فكان يدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهم، لا يخاف في الحق لومة. وكان أبوه من أهل ميسان، مولى لبعض الانصار. قال الغزالي: كان الحسن البصري أشبه الناس كلاما بكلام الانبياء، وأقربهم هديا من الصحابة. وكان غاية في الفصاحة، تتصبب الحكمة من فيه. وله مع الحجاج ابن يوسف مواقف، وقد سلم من أذاه. ولما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إليه: إني قد ابتليت بهذا الامر فانظر لي أعوانا يعينوني عليه. فأجابه الحسن: أما أبناء الدنيا فلا تريدهم، وأما أبناء الآخرة فلا يريدونك، فاستعن بالله. أخباره كثيرة، وله كلمات سائرة وكتاب في (فضائل مكة - خ) بالازهرية. توفي بالبصرة. توفي 110هـ. انظر: ميزان الاعتدال (1: 245) وحلية الأولياء (2: 131).

(4) أخرجه السفيري في شرحه لصحيح البخاري: (25/35).

(5) أخرجه عياض في الشفا بتعرف حقوق المصطفى: (1/176).

(6) أخرجه الترمذي رقم: (2638).

وفيه أيضا: «من ولد له مولود فليحسن اسمه وأدبه فإن بلغ فلم يزوجه فأصاب إثما فإنما إثمه على أبيه[2]» رواه أبو سعيد.

وعن ابن جريج[3] يرفعه: «من كان له ذو بطن فأجمع أن يسميه محمدا رزقه الله غلاما، وما كان اسم محمد في بيت إلا جعل الله البركة في ذلك البيت[4]».

وفي الحديث: «تسموا بأسماء الأنبياء[5]».

وقد ذكر أنه إذا نودي يوم القيامة باسمه "يا محمد" فمن سمعه ورفع له رأسه أفلح وسعد.

وقد رأيت بعض المباركين وكان عالما وكان له جملة أولاد كلهم سماه محمدا، وما فرق بينهم إلا بالكُنى لما سمع من الخير الذي جاء في هذا الاسم المبارك، ولمن سمّي به ابنه، ولذلك ما رأيته وإياهم إلا في خير عظيم من غير أن يقصد أحدا أو يخرج عما كان مشتغلا بما يعنيه من دينه. قاله في الروض اليانع.

وفي رحلة العبدري: وأفضل الأسماء ما فيه ذكر الله أو اسم من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، أو اسم الصحابة.

قال ابن الرصاع[6]: معنى هذا روي في بعض الآثار ومشهور الأخبار -وهو وإن لم يصح- فالعناية الربانية بمقام سيدنا ومكانته والحض من الله تعالى على احترامه تؤكّده وتُؤيِّدُه.

([1]) أخرجه الخطيب (91/3). وأخرجه أيضًا: الديلمي (60/1/1)

([2]) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان رقم: (8413) بلفظ: « من ولد له ولد فليحسن اسمه وأدبه، فإذا بلغ فليزوجه فإن بلغ ولم يزوجه فأصاب إثما، فإنما إثمه على أبيه ».

([3]) ابن جريج: هو عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج، أبو الوليد وأبو خالد: فقيه الحرم المكي. كان إمام أهل الحجاز في عصره. وهو أول من صنف التصانيف في العلم بمكة. رومي الأصل، من موالي قريش. مكي المولد والوفاة. توفي: 150هـ. انظر: تذكرة الحفاظ 1: 160 وصفة الصفوة 2: 122 وابن خلكان 1: 286.

([4]) أخرجه في كتاب فضائل التسمية: (23/1).

([5]) أخرجه أبو داوود في سننه رقم: (4950) بلفظ: " تسموا بأسماء الأنبياء وأحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن وأصدقها حارث وهمام وأقبحها حرب ومرة ".

([6]) ابن الرصاع: هو محمد بن قاسم أبو عبد الله الأنصاري التلمساني ثم التونسي المغربي المالكي ويعرف بابن الرصاع بمهملتين والتشديد صنعة لأحد آبائه. ممن أخذ عن أحمد وعمر القلشانيين وابن عقاب وآخرين كأبي القسم البرزلي، وولي الجنة ثم الأنكحة ثم

والآثار في فضل التسمية بمحمد وأحمد كثيرة فينبغي الإكثار منها، ولهذا كان بعض الأفاضل يسمون ولدين فأكثر بِمُحَمَّدَيْنِ فيقع التمييز بينهما بالصغير والكبير ونحوه.

وقال أبو عبد الله[1]: ولما رأى الشيطان هذه البركة أراد إزالتها عنهم من حيث يعلم أنهم يقبلون منه ليحرمهم هذا الفضل، فأهل المشرق حبب إليهم التسمية بنحو عز الدين، وشمس الدين، وغيرهما؛ لما رأى فيهم من حب الرياسة والفخر، ورأى في أهل المغرب التواضع وترك الفخر فأوقعهم في الألقاب المنهي عنها فقالوا لمحمد: حم، ولأحمد حدوس، وليوسف بيش، إلى غير ذلك، فأعطى لكل إقليم ما يَقْبَلُ، على أن ذلك لا يسلم من الكذب والتزكية المنهي عنها فيجب النهي عن تلك البدعة. **قاله في الروض اليانع.**

الجماعة ثم صرف نفسه في كائنة صاحبنا أبي عبد الله البرنتيشي واقتصر على إمامة جامع الزيتونة وخطابته متصدياً للإفتاء ولإقراء الفقه وأصول الدين والعربية والمنطق وغيرها وجمع شرحاً في شرح الأسماء النبوية وآخر في الصلاة على النبي ﷺ وأفرد الشواهد القرآنية من المغنى لابن هشام ورتبها على السور وتكلم عليهما وشرح حدود ابن عرفة بل بلغني أنه شرع في تفسير وأنه اختصر شرح البخاري لشيخنا وعندي أنه انتقاء لا اختصار وبلغنا أنه في سنة أربع وتسعين على خطة. انظر: الضوء اللامع: (251/4) رقم الترجمة: (793). ومعجم المؤلفين: (137/11).

(1) هو ابن الرصاع المذكور ءانفا.

فوائد الصلاة على النبي ﷺ

وفي الصلاة على النبي نحو أربعين فائدة منها: امتثال أمر الله تعالى، وموافقته في الصلاة عليه، وإن اختلفتا، وموافقة الملائكة، وحصول عشر صلوات من الله تعالى على المصلي عليه، ويرفع له عشر درجات، ويكتب له عشر حسنات، ويمحى عنه عشر سيئات، وإجابة دعائه إذا قدمها، وسبب لشفاعته ولكفايته الله ما أهمه، ولقضاء حوائجه، ولصلاة الله والملائكة عليه، ولنجاته من أهوال الآخرة، ولرده عليه السلام للمصلي والمسلم عليه، ولنفي الفقر، ولوقود نوره على الصراط، ولهدايته وحياة قلبه، ولتثبيت قدمه عليه، والجواز عليه، ولكتب الله له بين عينيه براءة من النار، والبركة في ذاته وعمله وعمره، وأسباب مصالحه، ولنيل رحمة الله له، ولتبشيره بالجنة، ولقرب العبد من نبيه ﷺ في الآخرة، وإنها تقوم مقام الصدقة لذي العسرة، وتذكر العبد ما نسيه، وتطيب المجلس الذي تذكر فيه، ولا يكون حسرة على مجتمعيه في الآخرة، وتنفي عن العبد اسم البخل إذا صلى على نبيه عند سماع ذكره ﷺ، وتنجي من الدعاء عليه برغم الأنف، وترميه على طريق الجنة، وتنجي من شر المجلس الذي لا يذكر فيه اسم الله تعالى ورسوله، ويخرج بها من الجفاء، وأنها أداء لأقل القليل من حقه، وشكر الله على نعمته التي أنعم عليه مع أنه عليه الصلاة والسلام يستحق ما لا يحصى ولكنه سبحانه رضي منا باليسير من شكره وأداء حقه، وإنها سبب لرؤيته ﷺ في المنام إذا قال المصلي: اللهم صل على روح محمد في الأرواح، وعلى جسده في الأجساد، وعلى قبره في القبور، اللهم بلغ روح محمد مني تحية وسلاما. وسبب لإلقاء الله الثناءَ الحسنَ للمصلي عليه بين السماء والأرض. لأن المصلي طالب من الله أن يثني على رسوله، ويشرفه. والجزاء من جنس العمل، فلا بد أن يحصل للمصلي نوع من ذلك.

فائدة أخرى: الصلاة استقلالا خاصة بالأنبياء، كما خص "عز وجل" بالله تعالى، فلا يقال: محمد "جل وعز" وإن كان ﷺ عزيزا جليلا، ولا أبو بكر "عليه السلام"، كما يمنع محمد "رحمه الله" لأنه قال: «مَنْ صَلَّى عليَّ» ولم يقل من ترحم عليَّ ولا من دعى لي، ولأنه خلاف الأدب وخلاف المأمور به عند ذكره من الصلاة عليه، ولا ورد ما يدل عليه البتة، **وقول الأعرابي**: "اللهم ارْحَمْنِي وارحم محمدا" قد يجاب فيه بأن الدعاء فيه بالرحمة على سبيل التبعية لما قبلها. **وأما حديث**: «اللهم اغفر لي وارحمني[1]» فهو على سبيل التواضع والتشريع للأمة، ويجب علينا نحن أن نخصه بما يشير إلى تفخيمه وتعظيمه اللائق بمنصبه الشريف، اللهم إلا أن يكون الدعاء له بالرحمة على سبيل التبعية لذكر الصلاة والسلام كما في التشهد على وجه الإطناب والخطابة لا على وجه الاستقلال والإفراد نحو: محمد "رحمه الله"، وإن كان معنى الصلاة الرحمة، لكنه خاص بهذا اللفظ تعظيما له فلا يعدل إلى غيره، وَرُبَّ شيء يجوز تبعا ولا يجوز استقلالا.

فائدة أخرى: قال الرصاع[2] عن الشيخ عبد العزيز بن عبد السلام[3]: لا يتوهم أحد أن صلاتنا عليه ﷺ شفاعة منا له عند الله تعالى في زيادة رفعته، وبلوغ أمنيته، فإن مثلنا لا يشفع لعظيم القدر عند ربه، ولكنه تعالى أمرنا بمكافأة من أحسن إلينا وأنعم

---

(1) أخرجه مسلم (1893/4 ، رقم 2444) ، والترمذى (525/5 ، رقم 3496) ، وقال : حسن صحيح .

(2) الرصاع: هو محمد بن قاسم الانصاري، أبو عبد الله، الرصاع: قاضي الجماعة بتونس ولد بتلمسان، ونشأ واستقر بتونس (831) وعاش وتوفي بها. وله فيها عقب إلى الان. اقتصر في أواخر أيامه على إمامة جامع الزيتونة والخطابة فيه، متصدرا للافتاء وإقراء الفقه والعربية. وعرف بالرصاع لان أحد جدوده كان نجارا يرصع المنابر. له كتب، منها: (التسهيل والتقريب والتصحيح لرواية الجامع الصحيح – خ) و (تذكرة المحبين في شرح أسماء سيد المرسلين – خ) توفي: 894هـ. انظر: الأعلام: (26/3).

(3) هو عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، عز الدين الملقب بسلطان العلماء: فقيه شافعي بلغ رتبة الاجتهاد. ولد ونشأ في دمشق. وزار بغداد سنة 599 ه، فأقام شهرا. وعاد إلى دمشق، فتولى الخطابة والتدريس بزاوية الغزالي، ثم الخطابة بالجامع الاموي. ولما سلم الصالح إسماعيل ابن العادل قلعة " صفد " للفرانج اختيارا أنكر عليه ابن عبد السلام ولم يدع له في الخطبة، فغضب وحبسه. ثم أطلقه فخرج إلى مصر، فولاه صاحبها الصالح نجم الدين أيوب القضاء والخطابة ومكنه من الامر والنهي. ثم اعتزل ولزم بيته. ولما مرض أرسل إليه الملك الظاهر يقول: إن في أولادك من يصلح لو ظائفك. فقال: لا. وتوفي بالقاهرة. من كتبه :" التفسير الكبير " و " الالمام في أدلة الأحكام " وقواعد الشريعة – خ " و " الفوائد – خ " و " قواعد الأحكام في إصلاح الأنام – ط " فقه، و " ترغيب أهل الإسلام في سكن الشام " و " بداية السول في تفضيل الرسول – ط " و " الفتاوي – خ". توفي: 660هـ. انظر: فوات الوفيات (287/1)، وطبقات السبكي: (80/5).

علينا، بأن نرغب إليه بأن يُصلّي عليه لعجزنا عن مكافأته ﷺ لتكون صلاته تعالى مكافأةً له منه سبحانه لإحسانه إلينا، إذ لا إحسان أفضلُ وأوثقُ من إحسانه، إلا إحسان خالقه المنعم ببعثه رحمة إلى خلقهﷺ. **انتهى بخ.**

قال الأبـــيّ[1]: انظر لو قال: اللهم صل على محمد عدد كذا هل يثاب بعـــدد تلـــك الأعداد؟.

وكان الشيخ ابن عرفة[2] **يقول**: يحصل له ثوابٌ أكثر بصلاة من صلّى مرةً واحدة، لا ثواب من صلى ذلك العدد.

فائدة أخرى: قوله: "صلى الله على سيدنا محمد..إلخ": لفظه لفظ الخبر ومعناه الـــدعاء، واختلف في أفضل الكيفيات في الصلاة على النبي ﷺ.

ومن كتاب: " حمائل الزهر في الصلاة على سيد البشـــر" لســـيدي أحمـــد بـــاب التينبكتي[3] **في الفصل الثالث في ذكر ما قال إنه أفضل الكيفيات في الصلاة علـــى النبي ﷺ ما نصه:**

رابعها: للشيخ محيي الدين بن عبد القادر المسمى بجنيد اليمن[1] **وهي عشر صلوات مأثورة**، كل منها تستعمل وترتب، من صلى بها عشر مرات صباحا ومساء اســـتوجب

([1]) محمد بن خلفة بن عمر الأبي الوشتاني المالكي: عالم بالحديث، من أهل تونس.نسبته إلى (أبة) من قراها.ولي قضاء الجزيرة. من مؤلفاته: (إكمال إكمال المعلم، لفوائد كتاب مسلم – ط) في شرح صحيح مسلم، جمع فيه بين المازري وعياض والقرطبي والنووي، مع زيادات من كلام شيخه ابن عرفة، و (شرح المدونة) وغير ذلك، توفي بتونس 827هـــ. انظر البدر الطالع: (169/2).

(2) محمد بن محمد ابن عرفة الورغمي، أبو عبد الله: إمام تونس وعالمها وخطيبها في عصره.مولده ووفاته فيها. تولى إمامة الجامع الاعظم سنة 750 هـــ وقدم لخطابته سنة 772 وللفتوى سنة 773. من كتبه (المختصر الكبير – ط) في فقه المالكية، و (المختصر الشامل – خ) في التوحيد، و (مختصر الفرائض – خ) و (المبسوط) في الفقه سبعة مجلدات، قال فيه السخاوي: شديد الغموض، و (الطرق الواضحة في عمل المناصحة – خ) و (الحدود – ط) في التعاريف الفقهية. توفي 803هـــ. انظر الضوء اللامع: (240/9).

([3]) التنبكتي: هو أبو العباس أحمد باب التنبكتي الفقيه العلامة المحقق الفهامة المؤرخ التقي الفاضل الإمام المؤلف المحقق العالم العامل الثقة الأمين، بيته شهير بالجاه والعلم والصلاح، أخذ عن والده وعمه، وعنه أئمة من أهل جهته ومراكش منهم أبو القاسم أبي نعيم، والشيخ الرجراجي، له ما يزيد على أربعين تأليفا منها شرح على المختصر من الزكاة إلى النكاح. توفي في تنبكتو في شعبان 1032هـــ انظر شجرة النور الزكية (298).

رِضَى الله الأكبر والأمان من سخط الله، وتواترت عليه الرحمة والحفظ الإلهي من الأسواء، وتسهل عليه الأمور، وحصل له القبول والرزق **وهي هذه:**

أولها: "**اللهم** يا ربَّ محمد وآلِ محمد صل على محمد وعلى آل محمد، واجز محمدا ﷺ ما هو أهله".

الثانية: "**اللهم** صل على محمد النبي الأمي وأزواجه أمهات المومنين، وذريته وأهل بيته كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد".

الثالثة: "**اللهم** صل على محمد وعلى آل محمد، وارحم محمدا وآل محمد، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما صليت ورحمت باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد".

الرابعة: "**اللهم** صلى على محمد وعلى آل محمد في الأولين والآخرين وفي الملإ الأعلى إلى يوم الدين".

الخامسة: "**اللهم** صل على محمد عدد من صلى عليه، وصل على محمد عدد من لم يصل عليه، وصل على محمد كما أمرتنا أن نصليَ عليه، وصلِّ على محمد كما ينبغي أن يُصَلَّى عليه".

السادسة: **اللهم** صل على روح محمد في الأرواح، وعلى جسده في الأجساد، وعلى قبره في القبور، وعلى موقفه في المواقف، وعلى مشهده في المشاهد، وعلى ذكره إذا ذكر صلاة منا على نبينا.

السابعة: "**اللهم** صل على محمد وعلى أهل بيته وسلم".

الثامنة: **اللهم** صل على محمد الذي ملأت قلبه من جلالك، وعينَه من جمالك، فأصبح فرحا مسرورا مؤيدا منصورا".

([1]) **جنيد اليمن:** هو أبو الربيع سلمان بن محمد الملقب جنيد اليمن، كان فقيها عالما ذا عبادة وزهادة وجد واجتهاد، وكان مشهورا بإجابة الدعاء مقصودا لذلك، كانت له كرامات، وكانت وفاته 664هـ. انظر: طبقات الإخلاص أهل الصدق والإخلاص للزبيدي(65).

التاسعة: "**اللهم** صل على محمد وعلى آل محمد، صلاة من في السماوات والأرض وسلم عليه وأجر يا رب لطفك في أمري".

العاشرة: "**اللهم** صل على محمد سيد الأولين والآخرين، وقائد الغر المحجلين، السيد، الكامل، الفاتح، الخاتم، الحبيب، الشفيع، الرءوف، الرحيم، السابق للخلق نوره، والرحمة للعالمين ظهوره، عدد من مضى من خلقك ومن بقي، ومن سعد منهم ومن شقي، صلاة تستغرق العدّ، وتحيط بالحدّ، صلاة لا غاية لها ولا انتهاء، ولا أمد لها ولا انقضاء، صلاتك التي صليت عليه، صلاة دائمة بدوامك، باقية ببقائك، لا أمد لها ولا انقضاء لذلك، وسلم عليه وعلى آله وأصحابه كذلك، والحمد لله على ذلك".

قال: ومن رتَّبَ هذه العشر الصلوات عشر مرات صباحا ومساء -فتكون الجملة مائة- يحصل بها رِضَى الله الأكبر والأمان من سخطه، وهي كذلك بلا شك. انتهى.

ولنذكر هنا صلوات فيها فضل كثير تسمى بـ "كيمياء السعادة لمن أراد الحسنى والزيادة"

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ[1]﴾

اللهم صل وسلم وبارك وكرم على سيدنا ومولانا ونبينا وحبيبنا وشفيعنا وبشيرنا وسراجنا وقرة أعيننا، ووسيلتنا إلى ربنا، أبي القاسم الأمين محمد عبدك ونبيك ورسولك النبي الأمي، وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته أفضل صلاة وأزكى سلام، وأنمى بركة عدد سور القرآن العظيم، وآياته وكلماته، وحروفه ونقطه، وشكله وهمزِه، وحركاته وسكوناته، ومعجمه ومهمله، ومفصله ومجمله، وجزئياته وكلياته، ومنطوقه ومفهومه وإشاراته، ومحكمه ومتشابهه، وخاصه وعامه، وناسخه ومنسوخه، وأمره ونهيه وعبره،

(1) سورة فاطر: (35).

ووعده ووعيده، وقصصه وأمثاله، وعدد ما أحصى، وملأ ما أحصى، وزنة ما أحصى، وعدد الأحاديث الواردة النبوية وغير الواردة، ومن رواها والآثار.

اللهم صل وسلم وبارك وكرم على سيدنا ومولانا ونبينا وحبيبنا وشفيعنا وبشيرنا وسراجنا وقرة أعيننا ووسيلتنا إلى ربنا أبي القاسم الأمين محمد عبدك ونبيك ورسولك النبي الأمي وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته أفضل صلاة وأزكى سلام وأنمى بركة، عدد الدقائق والحقائق، والدرج والساعات، والليالي والأيام، والجُمَعِ والشهور، والسنين والأوقات، والأزمان والدهور والأعصار.

اللهم صل وسلم وبارك وكرم إلى قوله: وأنمى بركة... عدد الحركات والسكنات، والحسنات والسيئات، وتخلل المنسوجات، ومضغ الأفواه، وريش الأطيار.

اللهم صل وسلم وبارك وكرم إلى قوله: وأنمى بركة... عدد الأنفاس والخواطر والنقط والكلمات وحركاتها وعدد الهواجس والنيات وترادف الأفكار.

اللهم صل وسلم وبارك وكرم إلى قوله: وأنمى بركة... عدد الأشباح والأرواح، والأجساد والجواهر، والعقول والعلوم، وعدد ما يقع في رؤيا المنامات، من أول الخلق إلى آخرهم، وتعاقب الدلائل والأخبار.

اللهم صل وسلم وبارك وكرم إلى قوله: وأنمى بركة... عدد الملائكة، والحور العين، والولدان، والإنس والجن، وخلق البحر، والأنعام والدواب، والوحوش والأطيار.

اللهم صل وسلم وبارك وكرم إلى قوله: وأنمى بركة... عدد الرؤوس والوجوه، والآذان والعيون، والأنوف والشفاه، والأفواه والصدور، والأيدي والأرجل، والأصابع والأظفار.

اللهم صل وسلم وبارك وكرم إلى قوله: وأنمى بركة... عدد القلوب والأضلاع والبطون وما حوت، وعدد العروق والمسام والألسن والأسنان والأبصار.

اللهم صل وسلم وبارك وكرم إلى قوله: وأنمى بركة... عدد الزرع والنبات والأوراق والأغصان والأشجار.

اللهم صل وسلم وبارك وكرم إلى قوله: وأنمي بركة... عدد الحب والنوى والبذور والزّهر، والفواكه والثمار وورق الأشجار.

اللهم صل وسلم وبارك وكرم إلى قوله: وأنمي بركة... عدد الرمل والحصى والتراب والكهوف [والزُّلَقِ[1]] والمعادن والأحجار.

اللهم صل وسلم وبارك وكرم إلى قوله: وأنمي بركة.... عدد نجوم السماء [ودَوْرِ[2]] الأفلاك وممر السحاب وهبوب الرياح ولمع البرق وأصوات الرعد وقطر الأمطار.

اللهم صل وسلم وبارك وكرم إلى قوله: وأنمي بركة.... عدد مكاييل الماء ومثاقيل الجبال والأجساد وعدد أمواج البحار.

اللهم صل وسلم وبارك وكرم إلى قوله: وأنمي بركة.... عدد ما خلقت وما أنت خالقه، وعدد ما كان وما هو كائن، وعدد ما جرى به قلمك، ونفذ به حكمك، وأحاط به علمك، وما لا تدركه الأفهام والأوهام والأفكار.

اللهم صل وسلم وبارك وكرم إلى قوله: وأنمي بركة.... ما صلى عليه المصلون، من أهل السماوات وأهل الأرضين، من أول الدهر إلى آخره، في كل زمان وأوان، ووقت وساعة، وطرفة عين ولمحة ولحظة، وخطرة ونفَسٍ، ونسيم وشمٍّ، وعدد ما هم مصلون عليه كذلك في المساء والصباح والعشي والإبكار.

اللهم صل وسلم وبارك وكرم إلى قوله: وأنمي بركة.... مِلْءَ العرش والكرسي والسماوات والأرض وما فيهن وما بينهما مِلْءَ الآفاق والأقطار.

اللهم صل وسلم وبارك وكرم إلى قوله: وأنمي بركة.... زنة العرش والكرسي والسماوات والأرض وما فيها، وزنة الجبال والقلال، والتلال والرمال، والبحار والأنهار.

اللهم صل وسلم وبارك وكرم إلى قوله: وأنمي بركة.... عدد ما في علمك، وزنة ما في علمك، ومداد كلماتك، ومنتهى رحمتك، ومبلغ رضاك، وحتى ترضى وإذا رضيت،

---

(1) الزلق والزلفُ جمع "زلقة" بالقاف والفاء: الصخرة الملساء. القاموس.

(2) في النسخة "ج" "دَوَرَانِ"، لكن الأصح ما في النسخة "أ" وهو الذي أثبتنا.

وعدد ما ذكرك به خلقك، وعدد ما هم ذاكروك، وعدد ما سبحوك وحمدوك، وكبروك ووحدوك، وهللوك واستغفروك، وعدد ما هم مسبحوك وحامدوك، ومكبروك وموحدوك، ومهللوك ومستغفروك، على مَمَرِّ الدهور والأعصار.

اللهم صل وسلم وبارك وكرم إلى قوله: وأنمى بركة.... عدد ما خلقت من الطيور والبهائم والوحوش والأبصار.

اللهم صل وسلم وبارك وكرم إلى قوله: وأنمى بركة.... عدد الأعداد المجمهرة إلى ما لا يعدُّ ولا يُحصى، ولا يُحَدُّ بكيف ولا مقدار.

اللهم صل وسلم وبارك وكرم إلى قوله: وأنمى بركة.... عدد هذا كله أضعافا مضاعفة، مضروبا في مثله، وأمثال أمثاله، لا ينقص عددها، ولا ينقطع مددها، حتى تستغرق العدَّ، وتحيط بالحد، أبد الآبدين، ودهر الداهرين، ما دامت السماوات والأرض، والعرش والكرسي، وما دام ملك الله الواحد القهار.

اللهم صل وسلم وبارك وكرم إلى قوله: وأنمى بركة.... عدد ذلك ومثل ذلك، وأضعاف أضعاف ذلك.

اللهم صل وسلم وبارك وكرم على السيد الكامل، الفاتح الخاتم، حاء الرحمة، وميم الملك، ودال الدوام، بحر أنوارك، ومعدن أسرارك، ولسان حجتك، وعروس مملكتك، وإمام حضرتك، وخزائن رحمتك، ونبي رحمتك، وطريق شريعتك، وعين أعيان خلقك، وصفيك، السابق للخلق نورُه، والرحمة للعالمين ظهوره، المصطفى المجتبى، المنتقى المرتضى، عين العناية، وزين القيامة، وإمام الحضرة، وأمين المملكة، وكنز الخليقة، وشمس الشريعة، وكاشف الغمة، وجالي الظلمة، وناصر الملة، ونبي الرحمة، وشفيع الأمة يوم القيامة، وآت محمدا الوسيلة، والشرف والفضيلة، والدرجة الرفيعة، واجزه عنا يا رب ما هو أهله، واجزه أفضل ما جازيت به نبيا عن قومه، ورسولا عن أمته، وأنزله المنزل المقرب منك يوم القيامة، وصل وسلم، وبارك وكرم، يا رب كذلك كله في كل يوم وليلة، عليه وعلى إخوانه الأكرمين، من الأنبياء والمرسلين، صلوات الله وسلامه عليه

وعليهم أجمعين، وعلى آل كل، وصحب كل، وعلى القرابة والتابعين، البررة الأخيـــار، وسبحان الله وبحمده، تسبيحا يليق بحمده وجلاله، والحمد لله حمدا كثيرا، طيبا مباركا فيه، على جميع نعمه وإفضاله، ولا إله إلا الله وحده لا شريك له، المنفرد في علو كماله، الله أكبر المتعاظم في كبريائه وجلاله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، عند كل هم وغم، وكرب وضيق، وحادث يحدث للعبد في جميع أحواله. وأستغفر الله العظـــيم، الذي لا إله إلا هو الحيّ القيوم، وأتوب إليه من كل ذنب أذنبته وأتيته في سواد الليـــل وضياء النهار، وفي إقبال كل منهما وإدباره، عدد ذلك ومثل ذلك، وأضعاف أضـــعاف ذلك، ما طلعت شمس، وبزغ بدر، أو هبت ريح، أو سحَّ قطر، أو سجع حمام، أو أقبل ليل، أو أشرق نهار.

وهنا صلاة تسمى الكنز الأعظم

سمعت من محمد الغزالي؛ أردت أن أجمعها مع هذه فمن حصل له الكتر والكيمياء، فقد حصل له المقصود، فمن وفقه الله تعالى ويسره لقراءته في كل يوم مرة أو مرتين، حصلت له السعادة، ومن زاد زاده الله خيرا ونعمة. وهـــي هذه:

اللهم اجعل أفضل صلواتك أبدا وأنمى بركاتك سرمدا، وأزكى تحياتك فضلا وعـــددا، وأسنى سلامك أبدا مجددا، على أشرف الخلائق الإنسانية، ومجمع الحقائق الإيمانية، وطُورِ التجليات الإحسانية، ومهبط الأسرار الرحمانية، واسطة عقد النبيئين، ومقـــدم جـــيش المرسلين، وقائد ركب الأنبياء المكرمين، وأفضل الخلائق أجمعين، حامل لواء العز الأعلى، ومالك أزِمَّةِ المجد الأسنى، شاهد أسرار الأزل، ومشاهد أنوار السوابق الأول، ترجمـــان لسان القدم، ومنبع العلم والحلم والحكم، ومظهر سر الوجود الجزئي والكلي، وإنســـان عين الوجود العلوي والسفلي، روح جسد الكونين، وعين حياة الدارين، المتحقق بأعلى رتبة العبودية، والمتخلق بأخلاق المقامات الاصطفائية، الخليل الأعظم، والحبيب الأكرم، ونبيك العظيم، ورسولك الكريم، الهادي إلى الصراط المستقيم، سيدنا ومولانـــا ونبينـــا

وحبيبنا وطبيبنا **محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم** صلى الله عليه وعلى آلـه وأصحابه وأزواجه وذريته، أفضل صلاة وأزكى سلام، وأنمى بركة، عدد معلوماتـك، ومداد كلماتك، كلما ذكرك وذكره الذاكرون، وكلما غفل عـن ذكـرك وذكـره الغافلون، وسلم تسليما كثيرا طيبا مباركا فيه، جزيلا دائما، بدوامك، باقيا ببقائك، كما تحب أنت وترضى، ورضي الله تعالى عن الصحابة أجمعين، سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

اللهم كما شفيت به القلوب المرضى، وجعلت طاعته على العباد فرضا، إملأ بصلواتك عليه الأكوان سماء وأرضا، وبلغه أمنيته حتى يرضى، والصلاة والسلام على جميع الأنبياء والمرسلين والحمد لله رب العالمين.

وعن بعض الصالحين: أنه قرأ هذه الصلاة في ليلة ونام، ورأى كأن قائلا يقول: هـذه الصلاة لا يحصي ثوابها إلا الله تعالى وقد أتعبتنا. **رواه الغزالي وغيره.**

مبحث التصوف

ثم قال: (**خَاتِمَةٌ**) حسنة ختمنا بها كتابنا في التوحيد، مهمة (**فِي التَّصَوُّفِ**) عامة النفـــع لكل أحد من لباب ما يُحتاج إليه ويعوّل كل مؤمن في جميع أمره عليه، لابد لكل أحد منها لأنها مشتملة على النظر في أحوال القلب، وتطهيره من الأوصاف المذمومة، وتحليته بالأخلاق المحمودة، وتصفية الأعمال، وتصحيح الأحوال، والتحرج من الالتفـــات إلى الخلق الذي هو أعظم الحجب بين العبد وبين ربه، ولأنها أيضا ليس فيهـــا مُـــوهمٌ ولا مبهم، بل هي وعظ وتذكير وتنبيه وتبصير، وتخلية وتحلية، ومسلك توحيدي، لا يســـع أحدا إنكاره، ولا الطعن فيه، ليست من التصوف الذي هو معدن غرور الجهال، وَمَزَلَّةُ أقدام الرجال، ليس فيها ما تتحير فيه الأوهام، ولا ما يتحفظ من إلقائه لغير أهله مـــن العوام.

فهذا من التصوف يجوز بذله لكل أحد بل يجب. وأما التصوف الذي يبحث فيه عن تحقيق الأحوال والمقامات وأحكام الأذواق والمنازلات والمعارف الوهبيـــة والعلـــوم الإلهية فاختلف في بذله لغير أهله فقـــال الجنيـــد [1]: يبذل لأهله ولغيرهم **قائلا:** العلم أحمى جانبا من أن يصل إلى غير أهله. إذ قيل له: كم تنادي على الله بين يدي العامـــة؟ فقال: لكنني أنادي على العامة بين يدي الله تعالى. **اهـــ بخ.**

زروق: يعني أنه يذكر لهم ما يردهم إليه فتتضح الحجة لقوم، وتقوم على آخرين. والحق اختلاف الحكم باختلاف النِّسَبِ والأنواع، والتقريب: أنّ ما كان من الوعظ والتذكير فللخاص والعام، وما كان من البيان والتقرير فللخاصة من المحبين، وما كان من الأحوال

([1]) الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي الخزاز، أبو القاسم: صوفي، من العلماء بالدين. مولده ومنشأه ووفاته ببغداد. أصل أبيه من نهاوند، وكان يعرف بالقواريري نسبة لعمل القوارير. وعرف الجنيد بالخزاز لانه كان يعمل الخز. قال أحد معاصريه: ما رأت عيناي مثله، الكتبة يحضرون بمجلسه لالفاظه والشعراء لفصاحته والمتكلمون لمعانيه. وهو أول من تكلم في علم التوحيد ببغداد. وقال ابن الاثير في وصفه: إمام الدنيا في زمانه. توفي 297هـــ. انظر: وفيات الأعيان: (141/2).

والمنازلات فللمريدين والسالكين، وما كان من الحقائق والمعارف فلأهل المعرفة من الواصلين.

وقال الثوري[1] **وغيره:** لا يبذل لغير أهله، لأن من تأهل له يَقْدُرُهُ حق قدره، ويضعه في محله، ومن ليس له بأهل فقد يُضيعه وهو الغالب، أو يكون حاملا له على ضب نوعه وهو النادر. ولهذا كان العارفون يقفون في هذا البحر على ساحل الإشارات. فإن إفشاء سر الربوبية كفر. **قيل:** لا تعطي الحكمة لغير أهلها فتظلمها، ولا تمنعها من أهلها فتظلمهم. **وقيل:** لا تعلق الجواهر في أعناق الخنازير فإن الحكمة خير من الجوهرة. ومن لم يدرها فهو شر من الخنزير. **ولله در القائل:**

فَمَا كُلُّ مَا فِي مُضْمِرِ الْقَلْبِ وَالْحَشَى ... مِنَ السِّرِّ يُعْطَى لِلرِّجَالِ الأَجَانِبِ

وَلَكِنَّنِي مَنْ كَانَ أَهْلاً أَفَدْتُهُ ... عُلُومًا بِهَا يَسْمُو لِأَعْلَى الْمَرَاتِبِ

وقال بعضهم: إن هذا العلم مخصوص، لا يصلح إلا للخصوص، والخصوص قليل فما يكونوا ينطقون به إلا عند أهله، ويرون أن ذلك من حقه، وأنه واجب **عليهم كما وصفهم علي ﷺ بذلك في قوله:** حتى يودعوه أمثالهم، ويزرعوه في قلوب أشكالهم.

وعن بعض شيوخ الصوفية عن أبي عمران وهو الْمُزَيِنُ الكبير[2] **المكي قال:** رأيت النبي ﷺ في المنام فسمعته يقول: «إن لكل شيء حرمة، ومن أعظم الأشياء حرمة الحكمة، فمن وضعها في غير أهلها طالبه الله بحقها، ومن طالبه الله خصمه يوم القيامة».

وقال بعض العارفين: من كلم الناس بمبلغ علمه و لم يخاطبهم بقدر حدودهم فقد بَخَسَهُمْ حَقَّهُمْ، و لم يوف بحق الله فيهم.

([1]) الثوري: هو أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق من بني ثور ابن عبد مناف ، اشتهربالثوري ولقب أمير المؤمنين في الحديث وكان من الأئمة المجتهدين، وأجمع الناس على دينه وورعه وزهده وثقته ، عرض عليه القضاء فأبى عنه، وكانت له مواقف مشهورة مع الأمراء. كان الجنيد عميد أهل التصوف على مذهبه، من مؤلفاته: الجامع الكبير- الجامع الصغير- الفرائض. توفي سنة 161هـ انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد ج1 ص: 47، شذرات الذهب ج1 ص: 250، وفيات الأعيان ج2 ص: 386)

([2]) هو علي بن محمد أبو الحسن المزين الكبير بغدادي الأصل، صوفي، كان من أورع المشايخ وأحسنهم حالا. توفي سنة 328هـ انظر طبقات الصوفية: (382).

وقال يحيى بن معاذ[1]: إغرف لكل أحد من نهره، واسقه بكأسه، وإلا وقع الإنكـــار، لتفاوت المعيار، ونحن نقول: كِل له بمكيال عقله، وزن له بميزان علمه، حتى تسلم منه، وينتفع بك في أمور الدنيا.

وكان الحسن البصري ومعروف[2] **والجنيد والسري**[3] لا يقررون العلم بالله إلا بعد غلق الأبواب خوفا من إفشاء الأسرار بين المحجوبين.

وبالجملة: فلا يجوز لعارف إظهارُ شيءٍ من الأسرار إلا لمن لو فَصَدَ الشيخ ذراعه فَـــارَ الدم من ذراع ذلك التلميذ. **وأنشدوا**:

قَدْ كَـــانَ للهِ سِـــرٌّ لاَ أَبُـــوحُ بِـــهِ ... فَظُنَّ خَيْرًا وَلاَ تَسْأَلْ عَـــنِ الْخَبَـــرِ

([1]) هو يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي، أبو زكريا: واعظ، زاهد، لم يكن له نظير في وقته. من أهل الري. أقام ببلخ، ومات في نيسابور. له كلمات سائرة، منها: - " كيف يكون زاهدا من لا ورع له، تورع عما ليس لك، ثم ازهد فيما لك " - " هان عليك من احتاج إليك " - " تزكية الاشرار لك، هجنة بك، وحبهم لك عيب عليك " - " الدنيا، من أولها إلى آخرها، لا تساوي غم ساعة ". توفي: 258هـــ انظر: الكامل لابن الأثير: (67/5).

([2]) هو معروف بن فيروز الكرخي، أبو محفوظ: أحد أعلام الزهاد والمتصوفين. كان من موالى الإمام علي الرضى بن موسى الكاظم. ولد في كرخ بغداد، ونشأ وتوفي ببغداد. اشتهر بالصلاح وقصده الناس للتبرك به حتى كان الإمام أحمد ابن حنبل في جملة من يختلف إليه. ولابن الجوزى كتاب في (أخباره وآدابه) توفي 200هـــ. انظر طبقات الصوفية: (83).

([3]) هو السري بن المغلس السقطي، أبو الحسن: من كبار المتصوفة. بغدادي المولد والوفاة. وهو أول من تكلم في بغداد بلسان التوحيد وأحوال الصوفية، وكان إمام البغداديين وشيخهم في وقته. وهو خال الجنيد، وأستاذه. قال الجنيد: ما رأيت أعبد من السري، أتت عليه ثمان وتسعون سنة ما رؤي مضطجعا إلا في علة الموت. من كلامه: (من عجز عن أدب نفسه كان عن أدب غيره أعجز).توفي 246هـــ. وأخباره كثيرة للمزيد منها انظر طبقات الصوفية: (48).

فـــوائـــــــــد

الفائدة الأولى: التصوف علمٌ بأصول يعرف بها صلاح القلب والحـــواس وأنـــواع الفضائل وكيفية اكتسابها، وأنواع الرذائل وكيفية اجتنابها. **وهو أيضا**: تجريد القلب لله، واحتقار ما سواه. **واختلف في اشتقاقه على أقوال:**

الأول: أنه مشتق من الصوف وهو أقرب، لأن الصوفي مع الله تعالى كالصوفة المطروحة لا تدبير لها.

الثاني: أنه مشتق من صوفة القَفَا للينها، فالصوفي لَيِّنٌ هَيِّنٌ كَهِيَ.

وقال أبو عبيدة[1]: **الصوفية**: قبائل اجتمعوا وتشبكوا كما يتشبك الصوف.

الثالث: أنه من الصِّفَةِ إذ جملته اتصاف بالمحامد وترك الأوصاف المذمومة.

الرابع: أنه من الصفاء، وَصُحِّحَ هذا القول حتى قال **أبو الفتح البستي**[2]:

تَخَالَفَ النَّاسُ فِي الصُّوفِيِّ وَاخْتَلَفُوا ... جَهْلاً وَظَنُّوهُ مُشْتَقًّا مِـــنَ الصُّـــوفِ
وَلَسَتُ أَنْحَلُ هَذَا الإِسْمَ غَيْرَ فَتًـــى ... صَافَي فَصُوفِيَّ حَتَى سُمِّيَّ الصُّـــوفِي

وقال غيره:

لَيسَ التَّصَوُّفُ لُبْسُ الصُّوفِ تَرْقَعُـــهُ ... وَلاَ بُكَـــاؤُكَ إِنْ غَنَّـــى الْمُغَنُونَـــا
وَلاَ تَغاش وَلاَ رَقْـــص وَلاَ طَـــرَب ... وَلاَ اخْتِبَاط كَأَنْ قَدْ صِرْتَ مَجْنُونَا
بَلِ التَّصَوُّفُ أَنْ تَصْفُو بِـــلاَ كَـــدَرٍ ... وَتَتْبَـــعَ الْحَـــقَّ وَالْقُـــرْآنَ وَالـــدِّينَا
وَأَنْ تُـــرَى خَاشِـــعًا لله مُكْتَئِبًـــا ... عَلَى ذُنُوبِكَ طُولَ الـــدَّهْرِ مَحْزُونَـــا

([1]) **أبو عبيدة**: هو معمر بن المثنى التيمي بالولاء البصري أبو عبيدة النحوي، من أئمة العلم والأدب والنحو واللغة، وكان إباضيا شعوبيا. قال الجاحظ: لم يكن في الأرض أعلم بجميع العلوم منه. له نحو من 200 مؤلف وفي ترجمته وسع تنظر في المطولات. انظر وفيات الاعيان: (105/2).

([2]) **البستي**: هو علي بن محمد بن الحسين بن يوسف بن محمد بن عبد العزيز البستي، أبو الفتح: شاعر عصره وكاتبه. ولد في بست (قرب سجستان) وإليها نسبته. وكان من كتاب الدولة السامانية في خراسان، وارتفعت مكانته عند الامير سبكتكين، وخدم ابنه يمين الدولة (السلطان محمود، ابن سبكتكين) ثم أخرجه هذا إلى ما وراء النهر، فمات غريبا في بلدة " أوزجند " ببخارى. له " ديوان شعر – ط ". توفي: 400هـ. انظر: (356/1).

الخامس: أنه من الصف الأول.

السادس: أنه من الصُّفة، **والصفّة**: سقيفة اتخذها ضعفاء الصحابة رضي الله تعالى عنهم في مسجد المدينة. **القاموس**: أهل الصفة كانوا أضياف الإسلام، وكانوا يبيتون في صفّة مسجده ﷺ، وهي موضع مظلل من المسجد[1]. أي لأن الصوفي تابع لأهلها فيما أثبت الله لهم من الوصف حيث قال: ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ[2]﴾. وهذا هو الأصل الذي يرجع إليه كل قول فيه. **قاله سيدي زروق**[3].

وأهل الصفة فقراء تجردوا للعبادة دون تعلق بحرفة ولا سبب[4].

وفي البخاري[5] **عن أبي هريرة**: أهل الصفة لا يأوون على أهل، ولا على أحد. كان ﷺ إذا أتته صدقة بعث بها إليهم، ولم يتناول منها شيئا، أو هدية أشركهم فيها. فأقرهم النبي ﷺ على ذلك وكانوا فقراء أول أمرهم حتى كانوا يعرفون بأضياف الله[6]. ثم كان منهم الغني والفقير والمتسبب والأمير لكن شكروا عليها حين وُجدت، كما صبروا عنها حين فقدت فلم يخرجهم الوجدان عما وصفهم مولاهم به من أنهم ﴿يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾، كما أنهم لم يمدحوا بالفقدان، بل بإرادة وجه الملك الديان. وذلك غير مقيد بفقر ولا غنى وبحسبه فلا يختص التصوف بفقر ولا غنى إذا كان صاحبه [يريد][7] وجه الله.

([1]) انظر القاموس المحيط للفيروزبادي: (400/2).

([2]) الكهف 28.

([3]) انظر قواعد التصوف ص11.

([4]) انظر القواعد أيضا ص11.

([5]) **البخاري**: هو محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله: حبر الاسلام، والحافظ لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، صاحب (الجامع الصحيح – ط) المعروف بصحيح البخاري، و (التاريخ – ط) أجزاء منه، و (الضعفاء – ط) في رجال الحديث، و (خلق أفعال العباد – ط) و (الأدب المفرد – ط). ولد في بخارى، ونشأ يتيما، وقام برحلة طويلة (سنة 210) في طلب الحديث، فزار خراسان والعراق ومصر والشام، وسمع من نحو ألف شيخ، وجمع نحو ست مئة ألف حديث اختار منها في صحيحه ما وثق برواته. وهو أول من وضع في الإسلام كتابا على هذا النحو. توفي 256هـ. انظر الوفيات: (455/1).

([6]) انظر صحيح البخاري: (319/21) رقم: (6452).

([7]) في النسخة "أ" "أصحابه يريدون" وفي النسخة "ج" يريد. وهو الأصح.

وقال القشيري[1]: ولا يشهد لإسْمِ الصوفي من حيث العربيـــة قيـــاس ولا اشـــتقاق.
والأظهر فيه أنه كاللقب[2]. إذ لا يصح أخذه من الصفاء ولا من لبس الصوف ولا من
ملازمة الصفاء. والخَانكَاتِ بالكاف وهي بالعجمية: دار الصوفية. **انتهى من حاشـية
المنير على المنهاج.** أي لا يصح أخذه من الصفاء لأن الاشتقاق يرُدُّهُ. ولو صح معنـاه.
لأن مادة التصوف من صاف، ومادة الصفاء من صفا، ولا من لبس الصوف إذ لـبس
لبسه شهرة لهم وأكثرهم لا يلبسه.

السابع: أن الصوفي منسوب إلى "صوفَةَ": قوم من العرب. **وقيل:** صوفةُ حي من تمـيم،
وهم الصوفان أيضا. **وقيل:** صوفة كانوا في الجاهلية يخدمون الكعبة ويجيزون الحاج.

الفائدة الثانية: قال سيدي زروق: اختلف في حقيقة التصوف على نحو من ألفي قول كلها راجعة إلى صدق التوجه إلى الله تعالى، وهو مشروط بكونه مما يرضي مـن حيث يرضى، ولا يصح مشروط بدون شرطه، وهو أن يكون ما يقوله بلسانه من التوبة والإنابة إلى الله تعالى يقوله بقلبه تصميما، ويعمل به بجوارحه فتتفق هـــذه الثلاثـــة ولا يكذب بعضها بعضا ويقع الصدق على هذا، وعلى التصديق بالهداة الـــدالين علـــى الله تعالى واعتقاد الخير فيهم فإن المكذب لا يفلح أبدا ولا يمكنه الإتباع، وعلى هذا فعبارة كل أحد في التصوف بحسب ما فهم من صدق التوجه واعتبار كل آخذ له على حسب مناله منه علما أو عملا أو حالا أو ذوقا وغير ذلك. **والأقوال كلها** إنما هي واقعة على

([1]) **القشيري:** هو عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك ابن طلحة النيسابوري القشيري، من بني قشير ابن كعب، أبو القاسم، زين الاسلام: شيخ خراسان في عصره، زهدا وعلما بالدين. كانت إقامته بنيسابور وتوفي فيها. وكان السلطان ألب أرسلان يقدمه ويكرمه. من كتبه " التيسير في التفسير – خ " ويقال له " التفسير الكبير "و " لطائف الاشارات – ط " في التفسير أيضا، و " الرسالة القشيرية – ط ". توفي 465هـ. انظر الوفيات: (299/1).

([2]) انظر الرسالة القشيرية: (279).

تفاصيله ووجوهه، فإذن من له نصيب من صدق التوجه له نصيب من التصوف، وتصوف كل أحد صدق توجهه[1].

الفائدة الثالثة: **علم التصوف أشرف العلوم**، لأن شرف العلم بشرف متعلّقه، ومتعلق علم التصوف أشرف المتعلقات، إذ هو دال بأوله على خشية الله تعالى؛ التي هي نتيجة معرفته، ومقدمة اتباع أمره؛ وبأوسطه على معاملته وأحكام عبوديته؛ وبآخره على معرفته والانقطاع إليه؛ والتبري مما سواه حتى من وجود العبد وموجوده، ولأن نسبته من الدين نسبة الروح من الجسد؛ لأنه مقام الإحسان الذي هو «أن تعبد الله كأنك تراه[2]»...**الحديث**. لأن معاني صدق التوجه لهذا الأصل راجعة؛ وعليه دائرة كما دار الفقه على الإسلام؛ والأصول على مقام الإيمان. فالتصوف أحد أجزاء الدين الذي علّمه النبي ﷺ جبريلُ عليه السلام ليتعلمه الصحابة رضي الله عنهم[3].

والدليل على فضل التصوف أيضا: أن الفقيه يعتبر ما يسقط به الحرج؛ والأصولي يعتبر ما يصح به المعتقد، والصوفي ينظر فيما يحصل به الكمال في الأول، وفيما يتقوى به اليقين في الثاني، وطلب الكمال يستدعي إيثار الإحسان أبدا؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَه[4]﴾ فالصوفي يأخذ من كل شيء بأحسنه، وإن المفسر وصاحب فقه الحديث كل منهما يعتبر الحكم والمعنى ليس إلا، والصوفي يزيد بطلب الإشارة مع إثبات ما أثبتاه. وإلا فهو باطلي خارج عن الشريعة؛ فضلا عن التصوف. وإن العلماء ورثوا من النبي ﷺ أقواله، والْعبَّادَ ورثوا منه أفعاله، والصوفيةَ ورثوا الجميع بزيادة الأخلاق الجميلة. فسند العالم: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا[5]﴾ ومدد العابد من قيامه

([1]) انظر قواعد التصوف ص (10) القاعدة رقم 7.

([2]) أخرجه البخاري (27/1 ، رقم 50) ، ومسلم (39/1 ، رقم 9) ، وابن ماجه (25/1 ، رقم 64) . من حديث عمر المشهور.

([3]) انظر القواعد أيضا: ص (15)، القاعدة رقم: 14.

([4]) الزمر: 18

([5]) طه: 114.

ﷺ حتى تورمت قدماه، وموقف الصوفي عند قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ[1]﴾.

قالت عائشة رضي الله عنها: كان خلقه القرآن يرضى لرضاه ويغضب لغضبه. ﴿خُذِ الْعَفْوَ...[2]﴾ الآية. وبحسب هذا فالمتعلق بخلقه ﷺ متعلق بكل ما له من علم وعمل وحال، لأنها تابعة للأخلاق.

قال في المباحث الأصلية:

تَبِعَهُ الْعَالِمُ فِي الأَقْوَالِ ... وَالْعَابِدُ النَّاسِكُ فِي الأَفْعَالِ

وَفِيهِمَا الصُّوفِيُّ فِي السُّبَّاقِ ... لَكِنَّهُ قَدْ زَادَ بِالأَخْلاَقِ[3]

وقال الجنيد: لو كنت أعلم أن تحت أديم السماء أشرف من هذا العلم لسعيت إليه لكنه مقيد بما قيده به حيث قال: علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة فمن لم يسمع الحديث ويجالس العلماء ويأخذ أدبه عن المتأدبين زلت به قدمه، **أو كما قال.** فحق على كل من أراد التمسك بهذا الفن أن يلازم العلماء ويتبع الفقهاء ويأخذ بما بان رشده ويدع ما لم يتضح له.

وقال بعض العارفين: من لم يكن له نصيب من هذا العلم أخاف عليه سوء الخاتمة. وأدنى النصيب منه التصديق به وتسليمه لأهله، وأقل عقوبة من ينكره أن لا يرزق منه شيئا.

وقال الشاذلي: من لم يتغلغل في هذه العلوم – يعني علوم الصوفية – مات مُصِرًّا على الكبائر وهو لا يعلم، وما سوى هذا العلم قد لا يحتاج إليه، وربما أضر بصاحبه مداومته عليه، وهذا الفن لا بد للمرء من مطالعته كل حين.

([1]) القلم: 4.

([2]) الأعراف: 199.

([3]) انظر الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية لابن البنا السرقسطي: ص(99).

قال ابن عباد[1]: وليجعل المريد هجّيراه مطالعة كتب التصوف؛ وموالاة أهلــه القِلّــةِ بالتآلف والتعرف؛ فبذلك يقوى نور إيمانه ويقينه؛ وتنتفي عنه الغرة في عمله بوظــائف دينه؛ فلا يقدِّم على ذلك إلا فرض العين؛ وما يستجِمُّ به خاطره من التعب والأين.

وقال في المواهب القدوسية: مذهب الصوفية مذهب أهل القرآن والحديث؛ وعلــومهم مكارم الأخلاق التي بُعث النبي ﷺ ليتمِّمَهَا، وعامة الخلق مطلوبون بها. **وفي الحــديث**: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق[2]».

والدليل أيضا على فضل التصوف: أنه يورث المعرفة والخشية والمراقبة لله تعالى، وبقدر المعرفة يزداد الخوف منه تعالى، والقرب منه؛ لأن صاحب هذا العلم لما كان يتحدث في ذاته تعالى؛ وإفراده في القلب؛ وقد علم أن المشتغل بمدح الملك وذكر أوصــافه الحســنة بحيث يعلم الملك به؛ استوجب بذلك من الملك قربا ومكانة على الناس، ويتخذه وزيرا؛ فيسارُّه، ويجلس معه حيث جلس، ولا يفارقه في كل ساعة، ويمتعه بالنظر إليــه ويمــده بنعيمه إلى غير ذلك. وكذلك هذا الفن يزداد به الإنسان [شرفا[3]] وقربا من الحضــرة، ويفنى به عن كل ما سواه تعالى.

وقال بعضهم: مما يدلك على فضل علم التصوف أن كل عالم بعلــم إذا رآه مــن لا يعرفه فإنه لا يظهر له عليه أثر علمه إلا العلماء بالله؛ وهم أهل التصوف فإنهم يعرفــون بسيماهم وبالسكينة والتواضع والذلة؛ فهي صبغة الله تعالى لأوليائه ولبسته للعلماء بــه ﴿وَمَنْ أحسن من الله صبغة[4]﴾ فمثلهم في ذلك كمثل الصناع إذ كل صانع لو ظهر لمن

([1]) ابن عباد: هو محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن مالك بن إبراهيم بن محمد بن مالك بن إبراهيم بن يحيى بن عباد النفزي الحميري الرندي، أبو عبد الله، المعروف بابن عباد متصوف باحث، من أهل " رندة " بالاندلس.تنقل بين فارس وتلمسان ومراكش وسلا وطنجة، واستقر خطيباً للقرويين بفاس، وتوفي بها، له كتب منها " الرسائل الكبرى – ط " في التوحيد والتصوف ومتشابه الآيات، و " غيث المواهب العلية بشرح الحكم والعطائية – ط ". توفي 792هـ. انظر سلوة الأنفاس: (133/2).

([2]) أخرجه الحاكم (670/2 ، رقم 4221) وقال : صحيح على شرط مسلم . والبيهقى (192/10 ، رقم 20572) . وأخرجه أيضًا : الديلمى (12/2 ، رقم 2098) .

([3]) في نسخة (ب) "شوقا".

([4]) سورة البقرة. (الآية 138).

لا يعرفه لم يعرف صناعته، ولم يفرق بينه وبين غيره من أهل سائر الصنائع إلا العالم بالله فإنه يعرف بصنعته لأنها ظاهرة عليه؛ إذ صارت له لبسة وصفة فكانت سيماه كما قيل: ما ألبس الله عبدا لِبسة أحسن من خشوع في سكينة. وهي لِبسة الأنبياء؛ وسيما الصديقين والصوفية. **قال:** ومما يدلك أيضا على أن علم اليقين والتقوى؛ وعلم المعرفة والهدى الذي هو علم التصوف هو المقصود المذكور عند السلف أن الصحابة والتابعين كانوا يشفقون من فقد ذلك؛ ويخافون عدمه ويخبرون عن رفعه وقلته في آخر الزمان، وإنما يعنون بذلك علم القلوب والمشاهدة الذي هو نتيجة التقوى, وعلم المعرفة واليقين الذي هو مزيد الإيمان؛ والزهد؛ وثمرة الهدى. فإذا فقِد المتقون؛ وقل الخائفون والزاهدون؛ ذهبت هذه العلوم؛ لأنها قائمة بهم, موجودة عندهم, وهم أربابها, والناطقون بها. وهي طريقتهم وأحوالهم وهم سُلاَّكها والقائمون بها. فلأجل معرفة الصحابة والتابعين بفقد ذلك كانوا يبكون على فقده.

وقال بعض أهل الحديث: قال لي رجل من إخواني من أهل المعرفة: قد وجدت في قلبي غفلة فَسِرْ بِي إلى مجلس من مجالس الذكر، فحضرنا عند مذكّر يتكلم في علوم العامة، وقد اجتمع الخلق عنده، فأخذ في شيء من القصص والإسرائيليات, وفي ذكر الجنة والنار، فنظر إِلَيَّ صاحبي وقال: أليس قد زعمت أن هذا يذكر الله ويذكِّر به؟ فقلت: بلى. هكذا هو عندنا. فقال: ما أسمع إلا ذكر الخلق، فأين ذكر الله؟ ثم توقف ساعة ينتظر ما يرِد عليه من علم المعرفة, وما يعرف من شيوخه الصوفية, فقال: ليس إلا القصص, وأخبار من مضى, ثم خرج.

وعن ابن مسعود[1] أنه قال لما مات عمر ﷺ: إني لأحسب هذا الرجل قد ذهب بتسعة أعشار العلم، فقيل له: أتقول هذا وأصحاب رسول الله ﷺ متوافرون؟ فقال: لست أعني

([1]) هو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي، أبو عبد الرحمن: صحابي. من أكابرهم، فضلا وعقلا، وقربا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو من أهل مكة، ومن السابقين إلى الاسلام، وأول من جهر بقراءة القرآن بمكة. وكان خادم رسول الله الامين، وصاحب سره، ورفيقة في حله وترحاله وغزواته، يدخل عليه كل وقت ويمشي معه. نظر إليه عمر يوما وقال: وعاء ملئ علما. وولي

العلم الذي تذهبون إليه, وإنما أعني العلم بالله. وكانوا يقولون: علم الظاهر من عالم المُلك، وعلم الباطن من عالم الملكوت، يعنون أن ذلك من عالم الدنيا؛ لأنه يُحتاج إليه في أمور الدنيا، وهذا من عالم الآخرة لأنه من زادها. فاللسان ظاهر؛ وهو من الملك. وهو خزانة العلم الظاهر، والقلب خزانة الملكوت, وهو باب علم الباطن، فقد صار فضلُ علمِ الباطن على الظاهر كفضل الملكوت على الملك, وكفضل القلب على اللسان، **وكثيرا ما ينشد الجنيد هذين البيتين:**

عِلْمُ التَّصَوُّفِ عِلْمٌ لَيْسَ يَعْرِفُهُ ... إلاَّ أخُو فِطْنَةٍ بِالْحَقِّ مَوْصُوفُ
وَكَيْفَ يَعْرِفُهُ مَنْ لَيْسَ يشْهدُهُ ... وَكَيْفَ يشْهَدُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مَكْفُوفُ[1]

الفائدة الرابعة: علم التصوف وطريقه اليوم قد عفا واندرس. **قال في المباحث الأصلية:**

يَا سَائِلاً عَنْ سَنَنِ الْفَقِيرِ ... سَأَلْتَ مَا عَزَّ عَنِ التَّحْرِيرِ
إنَّ الَّذِي سَأَلْتَ عَنْهُ مَاتَا ... وَصَارَ بَعْدُ أعْظُمًا رُفَاتَا
فَطمَسَتْ أعْلاَمُهُ تَحْقِيقَا ... فَلَمْ نَجِدْ بَعْدُ لَهَا طَرِيقَا
إلاَّ رُسُومًا رُبَّمَا لم تَعْفُ ... فَذَاكَ مَا نَتْبَعُهُ وَنَقْفُوا[2]

وقال سيدي زروق في شرحها: وهذه الرسوم هي ما دل عليه كلام القوم في كتبهم وإشاراتهم من حقيقة وطريقة. وقد ضرب الناس لذلك مثلا، فقالوا: تشاجر الحق والباطل فقتله الباطل, وخاف أن يطلب به فأحرقه, فجاء أهله فلم يجدوا إلا رماده, فعملوا منه حبرا أي مدادا وكتبوا به الكتب، **ولهذا قال أبو مدين**[3]:

بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بيت مال الكوفة.ثم قدم المدينة في خلافة عثمان، فتوفي فيها عن نحو ستين عاما سنة 32هـ. روى من الأحاديث: 848 حديثا. انظر الإصابة: (الترجمة 4955).

([1]) روي البيت أيضا: "وكيف يعرف شيئا ليس يشهده". وهو في النسختين: (ب, ح).

([2]) انظر الفتوحات الالهية شرح المباحث الأصلية: (12).

([3]) هو شعيب بن الحسن الأندلسي التلمساني أبو مدين، صوفي. سكن بجاية وكثر أتباعه حتى خافه السلطان يعقوب المنصور. توفي بتلمسان سنة 594هـ. انظر للتوسع في ترجمته: تعريف الخلف برجال السلف وشجرة النور الزكية: (164) .

لاَ زِلْتُ عَـنْهُمْ وَأَنَّـى لِـي بِـرُؤْيَتِهِمْ أُسَائِلُ الْكُتْـبَ كَـيْ أَسْـتَفْهِمَ الْخَبَـرَا

وقال الجنيد: علمنا هذا الذي نتكلم فيه قد طوي بساطه منذ عشرين سنة. وإنما نتكلم في حواشيه.

وكان يقول: كنت أجالس قوما سنين يَتَجَارَوْنَ[1] علوما لا أفهمها, ولا أدري ما هي، وما بليت بالإنكار. فقد كنت أقبلها وأحبها من غير أن أعرفها. وكان يقـول: كنا نتجارى مع إخواننا علوما كثيرة قديما لا تُعرَفُ في وقتنا هذا. ولا سألني عنها أ حد وهذا باب كأنه أغلق وردم.

وقد صنف أبو سعيد ابن الأعرابي[2] كتاب "طبقات النساك" ووصف فيه أول مـن تكلم في هذا العلم وأظهره, ومن تكلم فيه بعده من البصريين والشـاميين إلي أن كان آخِرَهم البغداديون **فقال:** وآخر متكلم في هذا العلم **جنيدٌ القـواريري**[3]. وكانت له بصيرة فيه، وحقيقة منه، وما بقي بعده إلا مَنْ مُجَالَسَتُهُ غَيْظٌ .

وقال بعضهم: بعد ثلاث مائة سنة لا يحل أن يتكلم في علمنا هذا؛ لأنه يحـدث قـوم يتصنعون للخلق، تكون مواجيدهم لباسَهم، ومعبـودهم بطـونهم، وحليتـهم كلامهم.

وفي رحلة العبدري: أنشد أبو الحسن علي بن عبد الـرحيم[4] في انـدراس أهـل التصوف:

([1]) في النسخة (ج): "يتحاورون".

([2]) **ابن الأعرابي:** هو أحمد بن محمد بن زياد بن بشر بن درهم، أبو سعيد ابن الاعرابي: مؤرخ من علماء الحديث. من أهل البصرة. تصوف وصحب الجنيد، انتقل إلى الحجاز فكان شيخ الحرم المكي وتوفي بمكة. له (المعجم) في أسماء شيوخه، و (طبقات النساك) اطلع عليه الذهبي واقتبس منه، و (تاريخ البصرة) و (الاختصاص) في ذكر الفقر والغنى، و (الاخلاص ومعاني علم الباطن) و (العمر والشيب) و (معاني الزهد وأقوال الناس فيه وصفة الزاهدين – خ) في دار الكتب، و (المواعظ والفوائد – خ) في تذكرة النوادر. توفي 340هـ. انظر لسان الميزان: (308/1).

([3]) تقدمت ترجمته.

([4]) لعله علي بن عبد الرحيم بن يونس الصدفي المصري أبو الحسن فلكي من العلماء له شعر كثير، عارف بالأدب اختص بصحبة الحاكم الفاطمي. من كتبه: التعدي المحكم، وله الزيج الحاكمي يعرف بـ: زيج ابن يونس ط في أربعة مجلدات فأنسى كل زيج قبله. وله مؤلفات أخرى. توفي 399هـ. وفيات الأعيان: (375/1).

أَهْـلُ التَّصَـوُّفِ قَـدْ مَضَـوْا ... صَـارَ التَّصَـوُّفُ مَخْرَقَـةْ

صَـارَ التَّصَـوُّفُ سُـبْحَةً ... وَتَوَاجُـدًا وَمُطَبَّقَـةْ

مَضَـتِ الْعُلُـومُ فَـلاَ عُلُـو ... مَ وَلاَ قُلُـوبَ مُشْـرِقَةْ

كَـذَبَتْكَ نَفْسُـكَ لَـيْسَ ذَا ... سَـنَنَ الطَّرِيـقِ الْمُلْحِقَـةْ

حَتَّـى تَكُـونَ بِعَـيْنِ مَـنْ ... عَنْـهُ الْعُيُـونُ مُحَدِّقَـةْ

تَجْـرِي عَلَيْـكَ صُـرُوفُهُ ... وَهُمُـومُ سِـرِّكَ مُطْرِقَـةْ

ولأبي الحسن بن عبد الله الخراساني:

أَمُدَّعِيًا فِي النَّاسِ عِلْـمَ التَّصَـوُّفِ ... أَتَيْتَ بِعِلْـمِ الْجَاهِـلِ الْمُتَكَلِّـفِ

مَتَى كُنْتَ مِنْ أَهْلِ التَّصَوُّفِ أَوْ مَتَى ... سَلَكْتَ طَرِيقًا غَيْرَ طُرْقِ التَّعَسُّفِ[1]

الفائدة الخامسة : أول من نهج هذا العلم وفتق الألسنة به، ونطق بمعانيه، وأظهر أنواره، وكشف قناعه: **الحسن بن يسار البصري**[2]. وكان يتكلم فيه بكلام لم نسمعه من أحد من إخوانه. فقيل له : يا أبا سعيد: إنك تتكلم في هذا العلم بكلام لم نسمعه من أحد غيرك؛ فممن أخذت هذا العلم؟ فقال: **من حذيفة اليماني**[3]. وقيل لحذيفة اليماني: نراك تتكلم في هذا العلم بكلام لم نسمعه من أحد من أصحاب رسول الله ﷺ؛ فممن أخذت هذا العلم؟ قال حذيفة: أخذته من فم رسول الله ﷺ؛ خصَّني به دون أصحابه، وكان الناس يسألونه عن الخير؛ وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه؛ وعلمت أن الخير لا يسبقني, وأن من لا يعرف الشر لا يعرف الخير, وكان الناس

([1]) من قصيدة اثنان وعشرون بيتا آخرها:

فديتك دع علم التصوف مسكتا ... فلست وإن موهت بالمتصوف

انظر رحلة العبدري: (249).

([2]) تقدمت ترجمته.

([3]) هو حذيفة بن اليمان العبسي من كبار ومشاهير الصحابة أسلم هو وأبوه، فأراد شهود بدر فصدهما المشركون وشهدا أحدا، فاستشهد أبوه اليمان (كما في البخاري) وشهد الخندق وله بها ذكر حسن وشهد المشاهد بعدها. روى الكثير عن النبي ﷺ وأخبار فضله وما خصه النبي ﷺ به لا تسعها الهوامش. توفي 36هـ. انظر الاصابة: (317/1).

يقولون: يا رسول الله : ما لمن عمل كذا وكذا؟ فيسألونه عن فضائل الأعمال. وكنت أسأل؛ فأقول: يا رسول الله! ما يفسد كذا وكذا ؟ فلما رآني أسأل عن دقائق الأعمال خصني به .

وقال عمر ﷺ: من لم يعرف الشر كان أحدر أن يقع فيه, **ونظم هذا بعضهم فقال:**

عَرَفْــــتُ الشَّـــرَّ لاَ للِشَّـــــــــــــــرِّ لَكِـــــنْ لِتَوَقِّيـــــه
وَمَـــنْ لَـــمْ يَعْـــرِفِ الشَّـــــــــــــرَّ مِـــنَ النَّـــاسِ يَقَـــعْ فِيـــه[1]

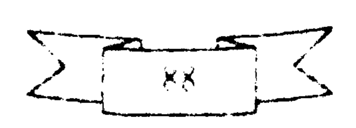
وكان حذيفة قد خُصَّ بعلم المنافقين؛ وعلوم النفاق؛ وبسائر العلوم؛ ودقائق الفهـوم؛ وخفايا الفتن. وكان الخلفاء وغيرهم يسألونه عن الفتن العامة والخاصة, ويَرجعون إليه في العلم الذي قد خُص به, ويسألونه عن المنافقين, وهل بقي منهم أحد ممن ذكر رســول الله ﷺ؟ فيخبرهم بأعدادهم؛ ولا يخبرهم بأسمائهم. ويستكشفه عمر ﷺ عن نفسه, هل يعلم فيه من النفاق شيئا؟ فيخبره ببراءته. ثم يسأله عن علامة النفاق وآية المنافق؟ فيخبره بما صلح من ذلك. ويستعفيه عما لا يجوز أن يـــخبـــرَ به، فيعذره في ذلك. وكان عمر ﷺ يرصده فإن رآه صلّى على جنازة صلى عليها. وإلا لم يصل عليها. وكان يُســمى صَاحِبَ السِّرِّ, وكان أكابرُ الصحابة إذا سُئلوا عن شيء قالوا: تسألوننا؟ وفيكم صاحب السر ــ يعنون حذيفة ــ.

وأول من أظهر هذا الفن بعد حذيفة: الحسن؛ وكان من الْمُذَكِّرِينَ. وكانت مجالسه مجالس ذكر يخلو فيها مع إخوانه وأتباعه من النساك والعباد في بيته، مثل مالـــك بـــن دينار[2], وثابت البُناني[3], ومحمد بن واســـع[1], وأيـــوب الســـختياني[2], وفرقـــد

([1]) البيتان لأبي فراس الحمداني ورواية الديوان: "ومن لم يعرف الشـــر من الخير يقع فيه". انظر ديوان أبي فراس الحمداني

([2]) هو مالك بن دينار البصري، أبو يحيى: من رواة الحديث. كان ورعا، يأكل من كسبه، ويكتب المصاحف بالأجرة. توفي في البصرة 131هـ. انظر الوفيات: (1/ 440).

([3]) هو ثابت بن أسلم البناني، أبو محمد البصري، التابعي، القاص الزاهد العابد، أحد مفاتيح الخير. كان يقول: "اللهم إن كنت قد أعطيت أحداً الصلاة في قبره، فأعطني الصلاة في قبري". ويقال: إن هذه الدعوة استجيبت له، وإنه رؤي بعد موته يصلي في قبره. مات بعد العشرين ومائة، عن نيف وثمانين سنة. انظر طبقات الأولياء: (1/ 20).



السنجي[3]، وعبد الواحد بن زيد[4], فيقول: هاتوا انشروا النور فيتكلم عليهم في هذا العلم من علوم اليقين, والقدرة وخواطر القلوب, وفساد الأعمال ووساوس الصدور وآفات النفوس؛ فربما قَنَّعَ بعضُ أصحاب الحديث رأسه فاختفى من ورائهم ليسمع من ذلك، فإذا رآه الحسن قال: يا لُكَعُ فأنت ما تصنع هنا؟ إنما خلَونا مع إخواننا نتذاكر, وكان الحسن من خيار التابعين. **قيل:** مازال يعي الحكمة أربعين سنة حتى نطق بها, وقد لقي سبعين بدريا؛ ورأي ثلاثمائة صحابي. وولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر رضي الله عنه سنة: ست ونيف وعشرين بالمدينة. وكانت أمه مولاة لأم سلمة رضي الله عنها. ويقال: إنها أرضعته, وكان كلامه يشبه كلام النبي ﷺ. ورأي عليا وعثمان رضي الله عنهما ومن بقي في وقته من العشرة, ورأي من الصحابة من عهد عثمان إلي سنة: نيف وتسعين, وقيل: لمائة.

ومن أكبر من مات من الصحابة بالبصرة: أنس بن مالك[5]؛ **وبالمدينة:** سهل بن سعد الساعدي[6], **وباليمن:** أبيض بن حمال المازني[7], **وبالكوفة:** ابن أبي أوفى[1], **وبالشام:**

([1]) هو محمد بن واسع بن جابر الازدي، أبو بكر: فقيه ورع، من الزهاد. من أهل البصرة. عرض عليه قضاؤها، فأبى. وهو من ثقات أهل الحديث. قال الاصمعي: لما صاف قتيبة بن مسلم الترك وهاله أمرهم، سأل عن محمد ابن واسع، فقيل: هو ذاك في الميمنة ينضنض بأصبعه نحو السماء، قال: تلك الاصبع أحب الي من مئة ألف سيف. توفي 123هـ. انظر تهذيب التهذيب: (499/9).

([2]) أيوب بن أبي تميمة كيسان السختياني البصري، أبو بكر: سيد فقهاء عصره. تابعي، من النساك الزهاد، من حفاظ الحديث. كان ثابتا ثقة روي عنه نحو 800 حديث. توفي 131هـ. انظر تهذيب التهذيب: (297/1).

([3]) هو فرقد السنجي، سكن سمرقند وروى عن أبيه وآخرين، وكان فقيها. توفي ببخارى 352هـ. انظر الطبقات السنية في طبقات الحنفية: (195/1).

([4]) هو عبد الواحد بن زيد أبو عبيدة، واعظ البصرة، من الطبقة الرابعة من تابعي أهل البصرة؛ كان من الزهاد وكان يحضر مجالس مالك بن دينار. قال أبو نعيم: صلى عبد الواحد الغداة بوضوء العتمة أربعين سنة. انظر النجوم الزاهرة: (120/1).

([5]) هوأنس بن مالك بن النضر بن ضمضم النجاري الخزرجي الانصاري، أبو ثمامة أو أبو حمزة: صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخادمه. روى عنه رجال الحديث 2286 حديثا. مولده بالمدينة وأسلم صغيرا وخدم النبي صلى الله عليه وسلم إلى أن قبض. ثم رحل إلى دمشق، ومنها إلى البصرة، فمات فيها. وهو آخر من مات بالبصرة من الصحابة. توفي 93هـ. انظر الإصابة: (71/1).

([6]) هو سهل بن سعد بن مالك بن خالد الانصاري الخزرجي الساعدي مشهور. توفي 88هـ وقد جاوز المائة. انظر تقريب التهذيب: (198).

([7]) هو أبيض بن حمال بالحاء المعجمة بن مرثد المأربي، له صحبة وأحاديث يعد في أهل اليمن لم تذكر الإصابة تاريخ وفاته. انظر الاصابة: (17/1).

أبو قرصافة[2], **وبخراسان:** بريدة الأسلمي[3]. ودخلت سنةُ مائة من التاريخ, وما بقي علي وحه الأرض عين تطرف رأت رسول الله ﷺ في جميع أقطار الأرض. وتوفي الحسن سنة: عشر ومائة. **وكان أبو قتادة العدوي**[4] **يقول:** عليكم هذا الشيخ؛ فو الله ما رأيت أحدا لم يصحب رسول الله ﷺ أشبه بأصحاب رسول الله ﷺ منه. وكانوا يقولون: إنه ليشبَّه هدي إبراهيم الخليل.

ونذرت امرأة بالبصرة نذرا؛ إن فعل الله كذا ها أن تَنْسُجَ ثوبا من غزلها، وتكسوه خير أهل البصرة, فرأت تمام نذرها فوفت بما نذرت، ثم سألت: من خير أهل البصرة؟ فقالوا: الحسن. فأتته بالثوب. فقال: يا هذه! ما أنا عنوا به؛ **إنما عنوا محمد بن سيرين**[5]. فأتت محمدا فأخبرته به فردها, وقال: أصاب الناس في الحسن؛ وأخطأ الحسن في, ارجعي به إليه فرجعت.

قال سيدي زروق: علمُ التصوف المرادُ للتخلق لا ينبغي أن يهمل, ولا أن يقتصر عليه دون عمل به, وإن قلّ؛ لأنه مقصده. فإن تعذر عمله فلا يبطل علمه؛ لأن العمل شرط كمال في علم التصوف والفقه؛ لأنهما شقيقان في الدلالة على أحكام الله تعالى وحقوقه، فلهما حكم الأصل الواحد في الكمال والنقص، إذ ليس أحدهما بأولى من الآخر في مدلوله. وقد صح أن العمل شرط كمال العلم فيهما، وفي غيرهما لا شرط صحة فيه إذ

([1]) هو علقمة بن الحارث الأسلمي، صحابي شهد الحديبية وعمر بعد النبي ﷺ. مات سنة 87هـ وهو آخر من مات من الصحابة بالكوفة. انظر تقريب التهذيب: (239).

([2]) هو جندرة بن خيشنة أبو قرصافة صحابي مشهور بكنيته نزل الشام. انظر تقريب التهذيب: (82).

([3]) هو بريدة بن الحصيب بن عبد الله بن الحارث بن الأعرج الأسلمي. أسلم حين مر النبي ﷺ مهاجرا بالغميم بعد أحد. غزى مع رسول الله ﷺ 17 غزوة. توفي 63هـ. انظر الاصابة: (246/1).

([4]) هو تميم بن نذير – بضم النون وفتح الذال المعجمة وسكون الباء آخر الحروف وبعدها راء – العدوي البصري من بني عدي بن مناف؛ تابعي. سمع عمر بن الخطاب وعمران بن حصين، وروى عنه محمد بن سيرين وحميد بن هلال ومورق العجلي، وكنيته أبو قتادة. انظر الوافي بالوفيات: (466/3).

([5]) هو محمد بن سيرين البصري، الانصاري بالولاء، أبو بكر: إمام وقته في علوم الدين بالبصرة. تابعي. من أشراف الكتاب. مولده ووفاته في البصرة. نشأ بزازا، في أذنه صمم. وتفقه وروى الحديث، واشتهر بالورع وتعبير الرؤيا. واستكتبه أنس بن مالك، بفارس. وكان أبوه مولى لانس. ينسب له كتاب (تعبير الرؤيا – ط). توفي 110هـ. انظر وفيات الاعيان: (453/1).

لا ينتفي بانتفائه، بل قد يكون دونه لأن العلم إمام العمل، فهو سابق في وجوده حكما وحكمة، بل لو شرط فيه الاتصاف بالعمل لبطل أخذه. كما أنه لو شرط في العلم العمل لبطل أخذه للزوم الدور، كما أنه لو شرط في الأمر والنهي العمل للزم ارتفاعهما بفساد الزمان, وذلك غير سائغ شرعا, ولا محمودٍ في الجملة, بل قد أثبت الله العلم لمن يخشاه, وما نفاه عمن لم يخشه.. **إلى آخر كلامه**[1].

الفائدة السادسة: دقائق علوم الصوفية منحٌ إلهية، ومواهبُ اختصاصيةٌ؛ لا تنال بمعتاد الطلب, فمفاتيح الفتح فيها **أربعة**:

الأول: إحكام المبادئ لتصحيح المعتقد.

الثاني: العمل بما علم على قدر الاستطاعة من غير إكثار مُمِلٍّ؛ ولا [اقتصار[2]] مُخِلٍّ. فإن من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم.

الثالث: الرغبة إلى الله تعالى؛ واللجأ إليه في الفتح على قدر الهمة من غير اعتماد على جهة أو سبب أو إيقاف ذلك على عمل أو كسب.

الرابع: العمل على السنة؛ والتشوف لحقائق الأمور، والتفطن لموارد الأحوال؛ حتى لا تكاد تسقط منه شعرة إلا تفطن لها؛ لجودة قريحته؛ وذكاء فطنته[3].

قال ابن عباد: لا تأخذوا في هذا العلم مع متكبر، ولا صاحب بدعة، ولا مقلد.

وقال الجنيد: ما أخذنا التصوف عن القيل والقال والمِراء والجدال، إنما أخذناه [عن[4]] الجوع والسهر وملازمة الأعمال. أو كما قال[5].

([1]) انظر قواعد التصوف: (19)، القاعدة رقم: 20.

([2]) في النسخة (ج): "إقتار".

([3]) انظر قواعد التصوف القاعدة رقم23 ص (20) بتصرف بزيادة في بعض الفقرات.

([4]) في النسخة (ج): "من الجوع".

([5]) انظر قواعد التصوف القاعدة ص (20).

وقال أبو سليمان الداراني[1]: إذا اعتادت النفوس ترك الآثام جالــت في الملكــوت، ورجعت إلى صاحبها بطرائف الحكمة من غير أن يودي إليها عالمٌ علماً.

الثامنة: قال سيدي زروق: قد كثر المدعون في [هذا[2]] الطريق لغربته والجهل به، وبُعْدِ الأفهام عنه لدقته، وعُسْرِ مُدْرَكِهِ، وكثر الإنكار على أهله لنظافته. وأنكره قوم لما ظهر على أيدي منتسبين له من خلاف حقيقته. [وعابه[3]] آخرون لعدم علمهـــم بحقيقتــه. وحذر الناصحون من سلوكه لكثرة الغلط فيه حتى **قال ابن العربي الحاتمي**[4]: احذرْ هذا الطريقَ، فإن أكثر الخوارج إنما خرجوا منه، وما هو إلا طريق الْهُلْك أو الملك. من حقق علمه وعمَله وحالَه نال عز الأبد، ومن فارق التحقيق فيه هَلك وما نفذ. **انتهى**[5].

وقال أيضا: إنما يؤخذ علم كل شيء من أربابه، فلا يعتمد صوفي في الفقه؛ إلا أن يعرف قيامُه عليه، ولا فقيهٌ في التصوف إلا أن يُعرف تحقيقُه له، ولا محدثٌ فيهما إلا أن يعرف قيامه بهما. فلزم طلب الفقه من قبل الفقهاء لمريد التصوف. وإنما يُرجعُ لأهل الطريقــة فيما يختص بصلاح باطنه من ذلك ومن غيره. **ولذلك كان الشيخ أبو محمد المرجاني**[6]

([1]) هو عبد الرحمن بن أحمد بن عطية العنسي المذحجي، أبو سليمان الداراني: زاهد مشهور، من أهل داريا (بغوطة دمشق) رحل إلى بغداد، وأقام بها مدة، ثم عاد إلى الشام، وتوفي في بلده. كان من كبار المتصوفين. له أخبار في الزهد. من كلامه: (خير السخاء ما وافق الحاجة). توفي 215هـــ. انظر طبقات الصوفية: (75).

([2]) في النسخة (ج): "هذه".

([3]) في النسخة (ح): "عافه".

([4]) **ابن العربي الحاتمي:** هو محمد بن علي بن محمد ابن العربي، أبو بكر الحاتمي الطائي الاندلسي، المعروف بمحيي الدين بن عربي، الملقب بالشيخ الاكبر: فيلسوف، من أئمة المتكلمين في كل علم. ولد في مرسية (بالاندلس) وانتقل إلى إشبيلية. وقام برحلة، فزار الشام وبلاد الروم والعراق والحجاز. وأنكر عليه أهل الديار المصرية (شطحات) صدرت عنه، فعمل بعضهم على إراقة دمه، كما أريق دم الحلاج وأشباهه. وحبس، فسعى في خلاصه علي بن فتح البجائي (من أهل بجاية) فنجا. واستقر في دمشق، فتوفي فيها. وهو، كما يقول الذهبي: قدوة القائلين بوحدة الوجود. له نحو أربعمائة كتاب ورسالة، منها (الفتوحات المكية - ط) عشر مجلدات، في التصوف وعلم النفس، و (محاضرة الابرار ومسامرة الاخيار - ط) في الادب، مجلدان، و (ديوان شعر - ط) أكثره في التصوف، و (فصوص الحكم - ط) و (مفاتيح الغيب - ط). توفي 638هـــ. انظر: كرامات الأولياء: (1/ 118).

([5]) انظر قواعد التصوف: ص(152) القاعدة رقم: 201.

([6]) **المرجاني:** هو عبد الله بن محمد بن عبد الملك، أبو محمد المرجاني: صوفي أصله من تونس. ولد بالاسكندرية ومات بتونس. له علم بالتفسير، أملى فيه دروسا جمعها ابن السكري من كلامه وسماها " الفتوحات الربانية في المواعيد المرجانية - خ " في التيمورية، و " بهجة الشموس الاسرار في تاريخ هجرة المختار - خ ". توفي 699هـــ. انظر شذرات الذهب: (451/5).

ﷺ يأمر أصحابه بالرجوع للفقهاء في مسائل الفقه؛ وإن كان عارفا بها. فافهم[1]!

وقال أيضا: لا حظٌ للعامي فيما سوى الحذر والإشفاق والأخذ بأيسر المسالك وأبينها لديه، وذلك بالتزام التقوى في البداية قبل وقوع الذنب والاستدراك بالتوبة مما وقع منه مع تدقيق النظر في ذلك دون ما سواه؛ لأن مطالبة الشخص على قدر حاله. فلا يُطَالَبُ عامي بزائد على التقوى، ولا فقيه بزائد على الاستقامة، ويطالب المريد بالصدق بعد تحصيل الأولَين, والعارف بالورع. فعامي: لا تقوى له فاجرٌ، وفقيهٌ: لا استقامة له مقصرٌ، ومريدٌ: لا صدق له متلاعب، وعارفٌ: لا ورع له ناقص. **انتهى**[2].

ثم قال: (**مَا قَدَّمْنَاهُ**) **في كتابنا: "قواعد التوحيد"** (**تَوْحِيدُ**) عوامِّ الخلق (**الْمُتَكَلِّمِينَ وَهُوَ إِفْرَادُ التَّوْحِيدِ**) ذاتاً؛ وصفاتٍ؛ وأفعالاً (**مَعَ عَدَمِ الْعَمَلِ بِمُقْتَضَاهُ**) من اتِّباع الهوى والالتفات إلى الخلق؛ والسخط عليهم؛ والخوف منهم؛ والطمع فيهم؛ والشكوى إليهم؛ وحب مدحهم؛ وبغض ذمهم. وخص الناسُ اسمَ التوحيد بهذا النوع. وصاحب هذا التوحيد تارة ينتبه فيشهد انفراده تعالى بالأفعال, وتارة يغفُل عن مشاهدة التوحيد في الوقائع؛ ولو دامت عليه الحال الأولى لكان من العارفين, ولكن يغلب عليه عدم مراعاة مقتضى التوحيد، فإن التوحيد أن تشهد انفراده تعالى بالأفعال وتري الخير والشر منه. فالعمل بمقتضى ذلك أن لا تلتفت إلى الخلق طمعا وخوفا وشكوى؛ ولكن صاحب هذا التوحيد لم يعمل بذاك .

والمتكلمون: هم أهل علم الكلام, وعلمُ الكلام خصَّ الناس به اسمَ التوحيد، **مع أن التوحيد حقيقة هو:** التصوف؛ لأنه العمل بمقتضي التوحيد, وهو لُباب التوحيد, وهو التوحيد المحض.

([1]) انظر قواعد التصوف: ص(46) القاعدة رقم: 61.

([2]) بداية هذا الكلام موجودة في القواعد ص (46) القاعدة رقم: 60. وآخره: "لأن مطالبة الشخص على قدر حاله" إلى نهاية الكلام محذوف من النسخ الثلاث التي بين أيدينا.

لمحة عن المعتزلة

والمعتزلة من المتكلمين, وسُمُّو المعتزلة لأن رئيسهم واصل بن عطاء[1] لما أثبت المنزلة بين المنزلتين[2], واعتزل عن مجلس الحسن البصري قال الحسن: قد أعتزل عنـــا؛ أي "واصل". من الاعتزال وهو: الاجتناب. وقد سَمَّوْا أنفسهم أصحابَ العدل والتوحيد؛ لإيجابهم ثواب المطيع وعقاب العاصي؛ ولنفيهم الصفات القديمة, ويرون الشرُّ من العبد ووجوب الأصلح للعباد عليه تعالي, وأن القرآن مخلوق, وأن إعجاز القرآن بالصَّرفة, وأنه تعالي لا يري في الآخرة إلي غير ذلك.

ومن أعيانهم وإليه تنسب فرقهم: الجاحظ[3], وأبو الهـــذيل العـــلاف[4], وإبـــراهيم النظام[5], وواصل بن عطاء[6], وأحمد بن حائط[7], وبشر بن المعتمر[1], ومعمر بـــن

([1]) هو واصل بن عطاء الغزال، أبو حذيفة، من موالي بني ضبة أو بني مخزوم: رأس المعتزلة ومن أئمة البلغاء والمتكلمين. سمي أصحابه بالمعتزلة لاعتزاله حلقة درس الحسن البصري. ولد بالمدينة، ونشأ بالبصرة. وكان يلثغ بالراء فيجتنبها في خطابه، وضرب به المثل في ذلك. وكانت له رسائل ومنها الرسائل، وقد قرأها بعض العلماء فوجدها خالية من الراء حتى في آيات من القرآن. وكان ممن بايع محمد بن عبد الله بن الحسن في قيامه على أهل الجور. له تصانيف، منها «أصناف المرجئة» و«المنزلة بين المنزلتين» و«معاني القرآن» و«طبقات أهل العلم والجهل». توفي 131هـ. انظر شذرات الذهب: (1/182).

([2]) قالت المعتزلة: إن وجد القول والعقد وعمل الأعمال، ولكن ارتكب صاحبه كبيرة أو بعض الكبائر خرج بها من الإيمان ولم يدخل في الكفر وسموه فاسقا، وهو منزلة بين منزلتين.

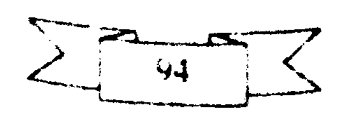
([3]) هو عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ: كبير أئمة الأدب، ورئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة. مولده ووفاته في البصرة. فلج في آخر عمره. وكان مشوه الخلقة. ومات والكتاب على صدره. قتلته مجلدات من الكتب وقعت عليه. له تصانيف كثيرة، منها «الحيوان - ط» أربعة مجلدات، و«البيان والتبيين - ط» و«التاج - ط» ويسمى أخلاق الملوك، و«البخلاء - ط» و«المحاسن والأضداد - ط» و«التبصر بالتجارة - ط». توفي 255هـ. انظر الوفيات: (1/388).

([4]) هو محمد بن محمد بن الهذيل بن عبد الله بن مكحول العبدي، مولى عبد القيس، أبو الهذيل العلاف: من أئمة المعتزلة. ولد في البصرة واشتهر بعلم الكلام. قال المأمون: أطل أبو الهذيل على الكلام كإطلال الغمام على الأنام. له مقالات في الاعتزال ومجالس ومناظرات. وكان حسن الجدل قوي الحجة، سريع الخاطر. كف بصره في آخر عمره، وتوفي بسامراء. له كتب كثيرة، منها كتاب سماه «ميلاس» على اسم مجوسي أسلم على يده. توفي 235هـ. انظر الوفيات: (1/480).

(5) هو إبراهيم بن سيار بن هانئ البصري، أبو إسحاق النظام: من أئمة المعتزلة. تبحر في علوم الفلسفة واطلع على أكثر ما كتبه رجالها من طبيعيين وإلهيين، وانفرد بآراء خاصة تابعته فيها فرقة من المعتزلة سميت (النظامية) نسبة إليه. وبين هذه الفرقة وغيرها مناقشات طويلة. توفي 231هـ. انظر النجوم الزاهرة: (2/234).

([6]) تقدمت ترجمته.

([7]) هو أحمد بن حائط رئيس الحائطية، معتزلي طالع كتب الفلاسفة وضم إلى مذهب النظام ثلاث بدع ذكرها الصفدي في الوافي بالوفيات فانظره: (2/321).



عباد السلمي[2], وأبو الحسن بن أبي عمرو ابن الخياط[3] أستاذ الكعبي[4], وأبو علي الجبائي[5] أستاذ الأشعري[6] أولا, وابنه: أبو هاشم عبد السلام بن محمد[7], وأبو عيسي الملقب بالمزدار, ويعرف بـ"راهب المعتزلة", وثمامة بن أشرس[8], وهشام بن عمر الغوطي, والصاحب بن عباد[9], والفراء النحوي[10].

([1]) هو بشر بن المعتمر الهلالي البغدادي، أبو سهل: فقيه معتزلي مناظر، من أهل الكوفة. قال الشريف المرتضى: (يقال: إن جميع معتزلة بغداد كانوا من مستجيبيه). تنسب إليه الطائفة (البشرية) منهم.له مصنفات في (الاعتزال) منها قصيدة في أربعين ألف بيت رد فيها على جميع المخالفين. ومات ببغداد 210هـ. انظر طبقات المعتزلة: (52).

([2]) هو معمر بن عباد السلمي: معتزلي من الغلاة. من أهل البصرة. سكن بغداد، وناظر النظام. وكان أعظم القدرية غلوا: انفرد بمسائل، منها ان الانسان يدبر الجسد وليس بحال فيه. توفي 215هـ. انظر لسان الميزان: (71/6).

([3]) هو عبد الرحيم بن محمد بن عثمان، أبو الحسين ابن الخياط: شيخ المعتزلة ببغداد. تنسب إليه فرقة منهم تدعى (الخياطية) ذكره الذهبي: في الطبقة السابعة عشرة، وقال: لا أعرف وفاته. له كتب، منها (الانتصار – ط) في الرد على ابن الراوندي، و (الاستدلال) و (نقض نعت الحكمة). انظر لسان الميزان: (8/4).

([4]) هو عبد الله بن أحمد بن محمود الكعبي، من بني كعب، البلخي الخراساني، أبو القاسم: أحد أئمة المعتزلة. كان رأس طائفة منهم تسمى " الكعبية " وله آراء ومقالات في الكلام انفرد بها. وهو من أهل بلخ، أقام ببغداد مدة طويلة، وتوفي ببلخ. له كتب، منها " التفسير ". توفي 319هـ. انظر الوفيات: (252/1).

([5]) محمد بن عبد الوهاب بن سلام الجبائي أبو علي: من أئمة المعتزلة. ورئيس علماء الكلام في عصره. وإليه نسبة الطائفة (الجبائية). له مقالات وآراء انفرد بها في المذهب. نسبته إلى جبى (من قرى البصرة) اشتهر في البصرة، ودفن بجبى. له (تفسير). توفي 303هـ. انظر الوفيات: (480/1).

([6]) هو علي بن إسماعيل بن إسحاق، أبو الحسن، من نسل الصح أبي موسى الاشعري: مؤسس مذهب الاشاعرة. كان من الائمة المتكلمين المجتهدين. ولد في البصرة. وتلقى مذهب المعتزلة وتقدم فيهم ثم رجع وجاهر بخلافهم. وتوفي ببغداد. قيل: بلغت مصنفاته ثلاثمئة كتاب، منها " إمامة الصديق " و " الرد على المجسمة " و " مقالات الاسلاميين – ط " حزآن، و " الابانة عن أصول الديانة – ط " و " رسالة في الايمان – خ ". توفي 324هـ. انظر الوفيات: (326/1).

([7]) هو عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب أبو هاشم، من أبناء أبان مولى عثمان: عالم بالكلام، من كبار المعتزلة. له آراء انفرد بها. وتبعته فرقة سميت " البهشمية " نسبة إلى كنيته " أبي هاشم " وله مصنفات في " الشامل – خ " في الفقه، و " تذكرة العالم " و " العدة " في أصول الفقه. توفي 321هـ. انظر الوفيات: (292/1).

([8]) هو ثمامة بن أشرس النميري، أبو معن: من كبار المعتزلة، وأحد الفصحاء البلغاء المقدمين.كان له اتصال بالرشيد، ثم بالمأمون. وكان ذا نوادر وملح. من تلاميذه الجاحظ. وأراد المأمون أن يستوزره فاستعفاه. وعده المقريزي في رؤساء الفرق الهالكة، وأتباعه يسمون (الثمامية) نسبة إليه. توفي 213هـ. انظر لسان الميزان: (83/2).

([9]) هو إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم الطالقاني: وزير غلب عليه الادب، فكان من نوادر الدهر علما وفضلا وتدبيرا وجودة رأي. استوزره مؤيد الدولة ابن بويه الديلمي ثم أخوه فخر الدولة.ولقب بالصاحب لصحبته مؤيد الدولة من صباه، فكان يدعوه بذلك. ولد في الطالقان (من أعمال قزوين) وإليها نسبته، وتوفي بالري ونقل إلى أصبهان فدفن فيها. انظر الوفيات: (75/1).

([10]) هو أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن مروان الديلمي إمام العربية، كان أعلم الكوفيين بالنحو بعد الكسائي، أخذ عنه وعليه اعتمد، من مؤلفاته: كتاب الحدود في النحو– علوم القرآن: لم يعمل مثله– المعاني. توفي سنة: 207 هـ عن عمر بلغ 67 سنة.

ومن فضلائهم: ابو الحسين البصري[1], والكعبي, والقاضي عبد الجبار[2], والرماني النحوي[3], وأبو علي الفارسي[4], وأقضى القضاة الماوردي[5] الشافعي. وهذا غريب, والزمخشري[6] صاحب الكشاف. **هكذا عدهم الصفدي[1] كلهم من المعتزلة. وقال الزمخشري ذاما لأهل السنة:**

(وفيات الأعيان ج6 ص: 176، شذرات الذهب ج2 ص: 19، طبقات المفسرين للسيوطي: 299، طبقات المفسرين للداودي ج2 ص: 367).

([1]) هو محمد بن علي الطيب، أبو الحسين، البصري: أحد أئمة المعتزلة.ولد في البصرة وسكن بغداد وتوفي بها. قال الخطيب البغدادي: (له تصانيف وشهرة بالذكاء والديانة على بدعته). من كتبه (المعتمد في أصول الفقه – ط) جزآن، و (تصفح الأدلة) و (غرر الأدلة) و (شرح الاصول الخمسة) كلها في الاصول، وكتاب في (الامامة) و (شرح أسماء الطبيعي – خ). توفي 436هـ. انظر الوفيات: (482/1).

([2]) هو عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمذاني الاسد ابادي، أبو الحسين: قاض، أصولي.كان شيخ المعتزلة في عصره. وهم يلقبونه قاضي القضاة، ولا يطلقون هذا اللقب على غيره.ولي القضاء بالري، ومات فيها. له تصانيف كثيرة، منها: (تنزيه القرآن عن المطاعن – ط) و (الامالي) و (المجموع في المحيط بالتكليف – ط) الاول منه، و (شرح الاصول الخمسة – ط) و (المغني في أبواب التوحيد والعدل – ط). انظر لسان الميزان: (386/3).

([3]) هو أبو الحسن علي بن عيسى بن علي بن عبد الله الرماني النحوي، إمام في العربية معتزلي، ولد سنة: 276 هـ أخذ عن الزجاج وابن السراج وابن دريد، كان متفننا في علوم كثيرة أخرى كالقراءات والفقه والكلام، من مؤلفاته: التفسير الكبير أوالجامع في علوم القرآن– الحدود الأكبر والأصغر. توفي سنة: 384 هـ. (طبقات المفسرين للداودي ج1 ص: 424، طبقات المفسرين للسيوطي: 258، طبقات النحاة للسيوطي ج2 ص: 174، وفيات الأعيان ج3 ص: 99).

([4]) هو الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي الاصل، أبو علي: أحد الائمة في علم العربية. ولد في فسا (من أعمال فارس) ودخل بغداد سنة 307 هـ وتجول في كثير من البلدان. وقدم حلب سنة 341 هـ فأقام مدة عند سيف الدولة. وعاد إلى فارس، فصحب عضد الدولة ابن بويه، وتقدم عنده، فعلمه النحو، وصنف له كتاب (الايضاح – خ) في قواعد العربية. توفي 377هـ انظر الوفيات: (131/1).

([5]) هو أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري الشافعي، أخذعن عدد كثير من الأجلاء منهم القاسم الصيمري والحسن الجيلي وابن العز وابن كادش وغيرهم، كان عالما بالحديث والفقه والنحو والأدب والفلسفة والسياسة وعلم الاجتماع، تصدر للتدريس في بغداد والبصرة، وتولى القضاء في بلدان كثيرة حتى لقب أقضى القضاة، من مؤلفاته: النكت والعيون في التفسير- الأحكام السلطانية- أدب الدنيا والدين. توفي سنة: 450 هـ.(وفيات الأعيان ج3 ص: 282، شذرات الذهب ج3 ص: 285، طبقات المفسرين للداودي ج1 ص: 427، طبقات المفسرين للسيوطي: 258).

([6]) **الزمخشري:** هو محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي الزمخشري، جار الله، أبو القاسم: من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والاداب. ولد في زمخشر (من قرى خوارزم) وسافر إلى مكة فجاور بها زمنا فلقب بجار الله، وتنقل في البلدان، ثم عاد إلى الجرجانية (من قرى خوارزم) فتوفي فيها. أشهر كتبه (الكشاف – ط) في تفسير القرآن، و (أساس البلاغة – ط) و (المفصل – ط) ومن كتبه (المقامات – ط) و (الجبال والامكنة والمياه – ط) و (المقدمة – ط) معجم عربي فارسي، مجلدان، و (مقدمة الادب – خ) في اللغة، و (الفائق – ط) في غريب الحديث، و (المستقصى – ط) في الامثال، مجلدان، و (رؤوس المسائل – خ). توفي 538هـ انظر وفيات الاعيان: (81/2).

وَجَمَاعَةٌ سَمَّوْا هَوَاهُمْ سُنَّةً ... لَجَمَاعَةٌ حُمُرٌ لَعَمْرِي مُوكَفَهْ

قَدْ شَبَّهُوا مَعْبُودَهُمْ وَتَخَوَّفُوا ... شُنَعَ الْوَرَى فَتَسَتَّرُوا بِالْبَلْكَفَهْ

البلكفة: فعللة مقتضبة من "بلا كيف" , فأجابه بعض أهل السنة[2] بقوله:

عَجَبًا لِقَوْمٍ ظَالِمِينَ تَلَقَّبُوا ... بِالْعَدْلِ مَا فِيهِمْ لَعَمْرِي مَعْرِفَهْ

قَدْ جَاءَهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَدْرُونَهُ ... تَعْطِيلُ ذَاتِ اللهِ مَعْ نَفْيِ الصِّفَهْ

وأجابه أيضا القاضي أبو حفص[3] بقوله :

أَجَعَلْتُمُ الْعُلَمَاءَ حُمُرًا مُوكَفَهْ ... هَذَا لأَنَّكُمُ أُولُوا تِلْكَ الصِّفَهْ

أَجَهِلْتُمُ صِفَةَ الإِلَهِ وَفِعْلَهُ ... وَنَسَبْتُمُوهُ لِغَيْرِهِ بِالزُّخْرُفَهْ

وَأَرَدْتُمُ تَنْزِيهَهُ فَوَقَعْتُمُ ... فِي الشِّرْكِ وَالإِلْحَادِ وَالأَمْرِ السَّفَهْ

خَالَفْتُمُ سَنَنَ النَّبِيِّ وَصَحْبِهِ ... وَتَبِعْتُمُ فِي الزَّيْغِ أَهْلَ الْفَلْسَفَهْ

وأجابه أيضا أ بو زكرياء يحيي بن عصام[4]:

قُلْ لِلذِي سَمَّى الْهُدَاةَ أُولِي النُّهَى ... حُمْرًا لِأَنْ سُلِبَ الْهُدَي وَالْمَعْرِفَهْ

فَغَدَا يُرَجِّحُ الاِعْتِزَالَ جَهَالَةً ... وَيَرُوقُهُ زُورٌ وَشَاهُ وَزَخْرَفَهْ

الْحَقُّ أَبْلَجُ وَاضِحٌ لَكِنَّهُ ... يَغشي عُيُون أُولِي الضَّلاَلَةِ وَالسَّفَهْ

اخْسَأْ فَقَوْلُكَ طَائِحٌ كَهَبَاءَةٍ ... طَاحَتْ بِهَا هُوجُ الرِّيَاحِ الْمُعْصِفَهْ

سَوَّغْتَ ذَمَّ جَمَاعَةٍ سُنِّيَّةٍ ... قَدْ أَحْرَزُوا مِنْ كُلِّ فَضْلٍ أَشْرَفَهْ

([1]) هو خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي، صلاح الدين: أديب، مؤرخ، كثير التصانيف الممتعة. ولد في صفد (بفلسطين) وإليها نسبته. وتعلم في دمشق فعانى صناعة الرسم فمهر بها، ثم ولع بالأدب وتراجم الاعيان. وتولى ديوان الانشاء في صفد ومصر وحلب، ثم وكالة بيت المال في دمشق، فتوفي فيها. له زهاء مئتي مصنف، منها (الوافي بالوفيات – خ) كبير جدا، في التراجم، و (الشعور بالعور – خ) في تراجم العور وأخبارهم، و (نكت الهميان – ط) ترجم به فضلاء العميان، و (ألحان السواجع – خ) رسائله لبعض معاصريه، رتب أسماءهم على حروف المعجم، عندي نسخة منه و (التذكرة – خ) مجموع شعر وأدب وتراجم وأخبار، كبير جدا. توفي 764هـ. انظر الدرر الكامنة: (82/2).

([2]) هو تاج الدين السبكي.

(3) هو أبو حفص بن عمر كما في رحلة العبدري: (22).

([4]) هو يحيي بن عصام أبو زكرياء وصفه في حلة العبدري بأنه رحل متقلل حيي متعفف، له حظ من اللغة ويقرض من الشعر ما لا بأس به. انظر رحلة العبدري: (22).

قَطَفُوا أَزَاهِرَ كُلِّ عِلْمٍ نَافِعٍ ... وَأَتَوْا بِكُلِّ بَدِيعَةٍ مُسْتَطْرَفَهْ
قَوْمٌ هُمُ قَمَعُوا الضَّلَالَ وَحِزْبَهُ ... بِمَقَاوِلٍ حَكَتِ الْمَوَاضِي الْمُرْهَفَهْ
هُمْ شِيعَةُ الْحَقِّ الَّذِي مَا بَعْدَهُ ... إِلاَّ مَهَاوٍ لِلضَّلَالَةِ مُتْلِفَهْ
آرَاؤُهُمْ يَجْلُوا الْبَصِيرَةَ نُورُهَا ... وَيُمِيطُ أَدْوَاءَ الْقُلُوبِ الْمُدْنَفَهْ
أَقْصِرْ فَإِنَّ شَقَاقَهُمْ كُفْرٌ فَلاَ ... تَدَعِ الرَّشَادَ لِعُصْبَةٍ مُتَعَسِّفَهْ
مَنْ شَذَّ عَنْ سَنَنِ الْجَمَاعَةِ قَدْ غَوَى ... جَاءَتْ بِذَا الْكُتُبُ الصِّحَاحُ مُعَرَّفَهْ

قال العبدري[1] **في رحلته**: خفف الحمر بالتسكين, والتخفيفُ في "فُعُل" بضم العين: مطرد إلا فيما يلتبس وهو هنا يلتبس بجمع أحمر فينبغي ألاَّ يخفف؛ ولم يقرأ في السبع: ﴿كأنهم حمر مستنفرة﴾ إلا بالتثقيل, ولهذا أنكر المحققون إسكان الباء في قوله ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث[2]» لأن إسكانها يلتبس بالمفرد؛ أي بالمصدر من خَبُثَ خُبْثًا, **فيكون المعني**: أعوذ بالله أن أكون خبيثا, ومن إناث الشياطين فيكون الكلام غير متناسب. **والحاصل**: أن التخفيف مطَّردٌ في فُعُلٍ فيما لا يلتبس؛ كما قرئ في السبع : رُسْلُنَا, وسُبْلنَا, ونذْر, والأذْن بالأذُن, وكعنُق. ولا يطرد فيما يلتبس كـ﴿حُمُرٍ مستنفَرَةٍ﴾ فإن إسكان الميم يلبس بجمع أحمر, وكحصر: فإن تسكينه يلتبس بالمفرد, فإن الحصر احتباس النجو, ولهذا منع إدغام ما يلتبس إدغامه نحو: وَتِدٍ وعتُدٍ وشاة زَنْمَاء, وأدغموا في نحو: مُمَرِّس وأمَّحَى, لما أمِنوا اللبسَ. **انتهي بخ**[3].

(1) هو محمد بن محمد بن علي بن أحمد، أبو عبد الله الحاحي العبدري: صاحب (الرحلة) المعروفة باسمه. أصله من بلنسية. ونسبته إلى بني عبد الدار. كان من سكان بلدة (حاحة) في المغرب، بعد أزمور، توجه منها حاجا سنة 688 هـ ، فدخل باجة وتونس والقيروان. ومر بالإسكندرية في ذهابه وإيابه. وليس في المصادر ذكر لسنة وفاته. وكان العبدري قد بدأ بتقييدها في تلمسان. ورحل من تلمسان في ربيع الأول (689) ثم عاد إليها في طريقه بعد الحج، واستقر في بلده، حيث أنجز الرحلة. انظر جذوة الاقتباس: (179).
(2) أخرجه أبو داود (2/1 ، رقم 6) ، والنسائى فى الكبرى (23/6 ، رقم 9903) ، وابن ماجه (108/1 ، رقم 296).
(3) انظر رحلة العبدري: (22).

توحيد الخاصة

فما قدمناه في الكتاب المذكور: هو توحيد العوام والمتكلمين؛ وهو الْقِشْرُ الظَّاهِرُ من التوحيد،

(وَأَمَّا تَوْحِيدُ الْخَوَاصِّ) والتوحيد المحض وهو لباب التوحيد الذي نحن الآن في معرض الكلام عليه في هذه الخاتمة (وَهُوَ) أيضا (تَوْحِيدُ الْعَارِفِينَ) أي أهل المعرفة, والمعرفة: تمكن حقيقة العلم بالمعروف من القلب حتى لا يمكن الانفكاك عنه بحال.

فائدة: المعرفة واليقين لا يسلبان ولله الحمد. لأنه من يَقَنَ الماء في الحوض إذا استقر. وإنما تُسْلَبُ الأحوالُ والعلم. وقولهم: فلان سُلِبَ أرادوا به سلب الأحوال؛ لأن شأنها الزوال, والعلم ينقص عن درجة اليقين, وصاحب الحال ينقص عن درجة العارف؛ لأن كل ما فيه يُلْبَسُ تارةً وَيُخْلَعُ أخري كالثوب, **قاله المناوي[1] في شرح الحكم[2]**.

وقال الخواص[3]: أرباب الأحوال كالسفن المشرَّعة, فما دامت الريح قائمة؛ فالشراع باقٍ والسير دائم, فإذا فقدت الريح وقفوا. **وقال:** العارف الكامل كراماته باقية معه وتصرفه دائم ولو ترك النوافل والخيرات, وأربابُ الأحوال ذوو نقص: متى تركوا قيام الليل وكسلوا عن عبادة بطل تأثيرهم في الكون. وصاحب اليقين لا يخاف زوال شيء.

وقال بعضهم : المريد تغلب أحواله عليه فتبدو أنوارها علي ظاهره, والعارف حاكم علي أحواله فلا يظهر منه إلا وجود البشرية, فلذلك تميل النفوس للمريدين أكثر من العارفين ويظهر التحقيق عليهم أكثر من أهل الكمال .

([1]) هو محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين ابن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري، زين الدين: من كبار العلماء بالدين والفنون. انزوى للبحث والتصنيف، وكان قليل الطعام كثير السهر، فمرض وضعفت أطرافه، فجعل ولده تاج الدين محمد يستملي منه تآليفه. له نحو ثمانين مصنفا، منها الكبير والصغير والتام والناقص. عاش في القاهرة، وتوفي بها. من كتبه(كنوز الحقائق – ط) في الحديث، و (التيسير – ط) في شرح الجامع الصغير، مجلدان، و"شرح الحكم العطائية". توفي 1031هـ. انظر خلاصة الأثر: (412/2).

([2]) شرح المناوي على الحكم لم نعثر عليه بعد.

([3]) هو إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل أبو إسحاق الخواص صوفي، كان أوحد المشايخ في وقته من أقران الجنيد. ولد في سر من رأى وتوفي في جامع الري. له كتب. توفي 291هـ. انظر طبقات الشعراني: (83/1)، ونفح الطيب: (756/2).

وقال عطاء السلمي[1]: مذ عرفت الله فأنا أخاف مقته, قيل و لم ؟ قال : لأنه يتجاوز عن الجاهل ولا يتجاوز عن العارف, فإن من عَرَفَ وَتَرَكَ خِدْمَتَهُ مَقَتَهُ.

وقال سيدي زروق: ومما يدلك علي أن رؤية العارف تزيد في نور المعرفة وغيرها: **قول أنس** ﷺ: ما نفضنا التراب من أيدينا في دفن النبي ﷺ حتى وجدنا النقص في قلوبنا ...**الحديث**.

قال المناوي: أهل الطريق ثلاثة:

عابد: فطريقته كثرة العمل وتجنب الزيغ والزلل.

ومريد: فطريقته: تخليص الباطن عن الشوائب. والتفرغ عن الشواغل والشواغب.

وعارف: فطريقته: تخليص القلب لله تعالى وبذل الدارين في طلب رضاه. **وهي أعلى الطرق، وتنبني على قاعدتين:** معرفة العبد بربه وما عليه من الكمال والجلال والجمال. ومعرفته بنفسه وما عليه من قبائح الخلال.

وقال القشيري[2] **في شرح الأسماء الحسنى:** همة العارفين أعظم من المخلوقات كلها، حتى العرش والسمكة التي عليها العالَم والملائكة وغيرها. وهمة العارفين هي التي يتلاشى فيها جميع المقدورات فضلا عن المخلوقات.

وفي كتاب طبقات الأولياء لسيدي عبد الوهاب الشعراني:قال الشيخ داوود بن ماخلا[3]: ما تنفس عارف في بلدة إلا ثبت إيمان كل عبد فيها[4].

وقال: إنما اضطر العارفون إلى ملابسة الخلق والدنيا لإنقاذ من فيها من الغرقى، ولتخليص من فيها من الأسرى وليتحملوا كثيرا من أكدارها عن الضعفاء[1]. **وقال:** ما

([1]) هو عطاء السلمي كان رجلا صالحا من كبار رجال التصوف، كثير البكاء والعبادة خوفا، كان يرى نفسه سبب البلاء النازل ولو مات لاستراح الناس. (رسالة القشيري: 374، طبقات الشعراني: ج1: ص: 47).

([2]) تقدمت ترجمته.

([3]) هو الشيخ داوود بن عمر بن إبراهيم الأسكندري، كان من الأئمة الراسخين والعلماء العاملين، أخذ عن ابن عطاء الله، وكان عالما بفنون عديدة. له شرح مختصر التلقين، وحمل الزجاجي وغير ذلك في المعاني والبيان. توفي 733هـ. انظر شجرة النور الزكية: (204).

([4]) انظر الطبقات الكبرى للشعراني: (195/1).

سكت عارف قط ولو نَفَسًا إلا عقوبةً لأهل زمانه، وما أتمّ قط كلمة إلا وانتفع بها كل من سمعها[2].

وقال: من أعظم منن الله تعالى على العباد أن يظهر بينهم عارفا وإن لم يعرفوه ولم يروه[3].

وقال: إن الرجل العارف ليكون في سفينة والأولياء حوله مُشَاةٌ على الماء يتلقون عنه ويأخذون منه، ولو نزل هو معهم لغرق[4]. وقال: العارفون يتكلمون مع الخلق بالحق وهم بالحق مع الحق[5].

وحكي عن الجنيد أنه قال: لي ثلاثون سنة أتكلم مع الله تعالى والناس يظنون أني أتكلم معهم[6].

وقال: لا بد أن يجلس العارفون في الجنة ويحدثون الناس حديثا فوق هذا من علم الجنة وعملها وآدابها[7].

وقال: إنما كان العبد يدخله الوسواس في الصلاة ولا يدخله إذا سمع كلام عارف وهو بين يديه لأن المصلي يناجي ربه والمستمع للعارف يناجيه ربه[8].

وقال: سيرك قدما واحدا على أثر قدم عارف أحسن من مائة ألف فرسخ تسيرها بهواك[9].

([1]) انظر الطبقات الكبرى للشعراني: (197/1).

([2]) انظر الطبقات الكبرى للشعراني: (193/1).

([3]) انظر الطبقات الكبرى للشعراني: (199/1).

([4]) انظر الطبقات الكبرى للشعراني: (199/1).

([5]) انظر الطبقات الكبرى للشعراني: (200/1).

([6]) انظر الطبقات الكبرى للشعراني: (200/1).

([7]) انظر الطبقات الكبرى للشعراني: (198/1).

([8]) انظر الطبقات الكبرى للشعراني: (199/1).

([9]) انظر الطبقات الكبرى للشعراني: (198/1).

وقال سيدي علي بن سيدي محمد وفا[1] في حديث: «من اغبـرّت قدماه في سبيل الله أبعد الله وجهه عن النار سبعين عاما[2]»: يدخل فيه من مشى مع ولي لوجه الله تعالى، وابتغاء مرضاته فإن الله تعالى يبعد وجههُ عن النار حقا [ونال معتقده][3].

وقال سيدي أبو المواهب محمد الشاذلي[4]: من غض من عارف بالله أو ولي لله ضرب في قلبه ولا يموت حتى يفسُد معتقدُهُ[5].

وقال علي كرم الله وجهه: ما يسرُّني أن الله تعالى أماتني طفلا وأدخلني من الجنة الدرجات العلى. فقيل له: و لم؟ قال: لأنه أحياني حتى عرفته.

وقال بعضهم: في الدنيا جنة من دخلها لم يشتق إلى جَنَّةِ الأُخرَى، ولا إلى شيء منها، و لم يستوحش. قيل: وما هي؟ قال: معرفة الله عز وجل.

وقال مالك بن دينار[6]: خرج الناس من الدنيا و لم يذوقوا أطيب الأشياء فيها. قيل: وما هو؟ قال: المعرفة بالله، **ثم قال:**

إنَّ عِرْفَانَ ذِي الْجَلاَلِ لَعِزٌّ ... وَضِيَاءٌ وَبَهْجَةٌ وَسُرُورُ

وَعَلَى الْعَارِفِينَ أَيْضاً بَهَاءٌ ... وَعَلَيْهِمْ مِنَ الْمَحَبَّةِ نُورُ

فَهَنِيئاً لِمَنْ عَرَفَكَ إِلَهِي ... هُوَ وَاللهِ دَهْرَهُ مَسْرُورُ

لَيْسَ لِلْعَارِفِينَ غَيْرَكَ هَمٌّ ... أَنْتَ وَاللهِ سُؤْلُهُمْ يَا غَفُورُ

([1]) هو سيدي محمد وفا رضي الله عنه من أكابر العارفين، وأخبر ولد سيدي علي رضي الله عنه أنه هو خاتم الأولياء صاحب الرتبة العلية وكان أميا وله لسان غريب في علوم القوم ومؤلفاته كثيرة ألفها في صباه وهو ابن سبع سنين أو عشر فضلا عن كونه كهلا وله رموز في منظوماته ومنثوراته مطلسمة لم يفك أحد معناها. وأخباره كثيرة جدا جدا من أراد التوسع فيها فلينظر الطبقات الكبرى للشعراني: (21/2).

([2]) أخرجه البخاري في صحيحه بلفظ: « مَنِ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ » رقم: (907).

([3]) انظر الطبقات الكبرى للشعراني: (59/2). وكلمة "ونال معتقده" ليست في الطبقات الكبرى.

([4]) تقدمت ترجمته.

([5]) هذه الجملة أوردها الشعراني في طبقاته وعزاها للشيخ أبي عبد الله القرشي: (159/1).

([6]) تقدمت ترجمته.

وقوله: (**وَهُوَ التَّصَوُّفُ**) جملة معترضة بين "أَمَّا" وجوابِها الذي هو عبارة عن أمــر لا يفهمه أكثر المتكلمين، وإن فهموه لم يتصفوا به (**وَهُوَ**) إفراد التوحيد ذاتًــا وصــفاتٍ وأفعالاً ثم (**الْعَمَلُ**) بعد ذلك (**بِمُقْتَضَى**) ذلك (**التَّوْحِيدِ**) وهو أن يرى الأمور كلها من الله تعالى رؤية تقطعه عن الالتفات إلى الوسائط والأسباب. فلا يرى الخير والشر إلا منه تعالى، وأن يعبده تعالى عبادة يفرده بها (**حَتَّى لاَ يَلْتَفِتَ**) بقلبه (**إِلَى الْخَلْقِ**) ولا يتوجــه بوجه قلبه إلا إلى الله تعالى. ومن الخلق الهوى والشيطان والنفس والدنيا والناس والعمل؛ كما يأتي ذلك مفصلا إن شاء الله تعالى. ويخرج من هذا التوحيد اتباع الهوى لأنه اتخذه إلها.

وفي الحديث: «أبغض إِلَــهٍ عُبِدَ في الأرض غير الله هو الهوى[1]». وعابد الصنم إنمــا يعبد هواه، إذ نفسه مائلة إلى دين آبائه فتبع ذلك الميل، ويخرج منه أيضا السخط علــى الخلق، والطمع فيهم، والخوف منهم والشكوى إليهم، ومراءاتهم بالعمل، والعجب به، فإن من يرى الكل من الله تعالى كيف يلتفت طمعا وخوفا وشكوى، أو يسخط عليهم، إذ لا نفعَ ولا ضرَّ إلا منه تعالى، والمخلوق لا ينفع نفسه فكيف غيره. وكذا يقال فيمن وحده تعالى بصفاته العلية وعرف انفراده بها. فمن عرف ذلك أوجبت له تلك المعرفــة أحوالا تنشأ عنها ملابسة الفضائل، وتجنب الرذائل، ومثال ذلك من عرف سعة رحمتــه تعالى ووحده بها فإن مقتضى ذلك أن تُثْمِرَ له معرفتُه وتوحيدُه ذلك سعة الرجاء والكف عن القنوط، ومن عرف شدة النقمة أثمرت معرفته شدة الخوف، وأثمر خوفه الكف عن كل معصية، مع البكاء والورع وحسن الانقياد والإذعان. ومن عرف أن جميع النعم منه تعالى أحبه وأثمرت المحبة آثارها المحمودة المعروفة، وكذا من شهد تفرده تعالى في النفــع والضر لم يعتمد إلا عليه و لم يفوِّض أمره إلا إليه، ومن شهد تفرده بالعظمة والجلال هابه وعامله بالتعظيم والانقياد والتذلل، وغير هذا مما يطول تتبعه من التخلي عن كل رذيلــة والتحلي بكل فضيلة. **وإلى ذلك أشار بقوله:** (وَ) حتى (**يَتَخَلَّى**) بالخاء المعجمة وهــو

---

[1] أخرجه الطبراني من حديث أبي أمامة بإسناد ضعيف. انظر تخريج أحاديث الإحياء الحديث رقم: (88).

سابق على التحلي بالمهملة ولذا قدَّمَهُ هنا (ظَاهِرًا وَبَاطِنًا عَنِ الرَّذَائِلْ). **قال المناوي:** **أول مهم على المكلف بعد معرفة الباري:** السعي في طهارة نفسه من الأخلاق الرَّدِيَّة، فمن لم يطهرها وزعم أنه عالم كذبه الوجدان القائم به، وإنما حَجَبَ الناسَ عن الاشتغال بذلك قلةُ الإدراك لدقائق النفوس المزينة للباطل لحظها وحبها الراحة، والفرح بالعاجل، واستبعاد الأجل، وذلك مكر واستدراج.

قال بعض العلماء العارفين: علامة كمال الطهارة عن الأوصاف الذميمة ثبوت المحل عند هجوم المقادير وسكون الجبلة عند الصدمة الأولى، وبقاء الحقيقة مستغرقة عند الصعقة.

فائدة: قال المناوي في شرح الحكم: قالوا: لا يصح زوال ما كان جبليا في النشأة وإنما العبد يوقى العمل بالصفات الردية، ولهذا قال تعالى: ﴿ومن يوق شح نفسه﴾[1] ولم يقل: ومن يزل شحُّ نفسه. ولهذا عين الشارع للصفات مصارف فقال: «لا حسد إلا في اثنتين[2]» فحثَّ على الحسد الذي هو غبطة أهل الخير؛ لا على تمني زوال النعمة، ونهى عن التبختر في المشي وأباحه في الحرب ليقهر به العدو، وقس عليه فإن ما في أصل النشأة محالٌ أن يزول إلا بانعدام الذات. **انتهى.**

وقال سيدي زروق: ما جُبِلَتْ عليه النفوس لا يصح انتفاؤه عنها، بل ضعفه وقوته فيها، وتحويله عن مقصد لغيره، كالطمع لتعلق القلب بما عند الله تعالى توكلاً عليه ورجاءً فيه. والحرص على الدار الآخرة بدلاً من الدنيا، والبخل فيما حَرُمَ وَمُنِعَ، والكبر على مستحقه، ولرفع الهمة عن المخلوقين، حتى تتلاشى في همته جميع المقدورات، فضلا عن المخلوقات، والحسدِ للغبطة، والغضب لله سبحانه حيث أمر به، والحقد على من لا نسبة له من الله حسب إعراضه، والتعزز على الدنيا وأهلها، والانتصار للحق عند تَعَيُّنِهِ...**إلى غير ذلك**[3].

([1]) الحشر (9).

([2]) أخرجه البخاري في صحيحه: « لاَ حَسَدَ إِلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ ، فَهْوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا » رقم: (1409). ومسلم في صحيحه: (1930) عن عبد الله بن مسعود.

([3]) انظر قواعد الصوفية: (1379 القاعدة رقم (179).

قال: وفائدة التدقيق في [أحوال[1]] النفس وتعرفها وتعرف دقائق الأحوال معرفة المرء بنفسه وتواضعه لربه ورؤية قصوره وتقصيره. وإلا فليس في قوة البشر التبري من كل عيب بإزالته، إذ لو أنك لا تصل إليه إلا بعد فناء مساويك، ومحو دعاويك، لم تصل إليه أبدا. **فافهم**[2].

وحق (يَتَحَلَّى) بالحاء المهملة **(فِيهِمَا)** في الظاهر والباطن **(بِالآدَابِ)** جمع أدب مثل سبب وأسباب **(وَالْفَضَائِلِ)** الأخلاق المحمودة؛ جمع فضيلة وهي ما يدل الشرع على مزيتها وثواب مكتسبيها وما يحصل له بسببها كالرضى والصبر والتوبة والتوكل والقناعة وغير ذلك، **كما يأتي إن شاء الله تعالى.**

ثم إن المتخلي من الرذائل إلى الفضائل مذموم، إذا كان ذلك بنية اكتساب الفضائل حبا لكمالها وبغضا لنقص الرذائل، إلا إذا كان ذلك لله تعالى.

والأدب: مأخوذ من: أَدَّبْتُهُ أَدْبًا؛ مثل: ضَرَبْتُهُ ضَرْبًا إذا علمته رياضة النفس، ومحاسن الأخلاق، وأَدَّبْتُهُ تأديبا مبالغة وتكثير، **ومنه:** أدبته تأديبا إذا عاقبته على سيئة لأنه سبب يدعوا إلى حقيقة الأدب. **ويقال:** إنه مأخوذ من المأدبة وهي الدعوة إلى الطعام؛ سمي بذلك لأنه يدعى إليه.

ويقال: أدب أدبا من باب ضرب أيضا إذا كان صنع صنيعا ودعا الناس إليه فهو آدب وزن فاعل، **قال طرفة**[3]:

لا تَرى الآدِبَ فينا يَنتَقِر[1] ....

([1]) في النسخ التي بين أيدينا من القواعد : "عيوب".

([2]) انظر قواعد الصوفية: (143) القاعدة رقم: (190).

([3]) هو طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد، البكري الوائلي، أبو عمرو: شاعر، جاهلي، من الطبقة الاولى. ولد في بادية البحرين، وتنقل في بقاع نجد. واتصل بالملك عمرو بن هند فجعله في ندمائه. ثم أرسله بكتاب إلى المكعبر (عامله على البحرين وعمان) يأمره فيه بقتله، لابيات بلغ الملك أن طرفة هجاه بها، فقتله المكعبر، شابا، في (هجر) قيل: ابن عشرين عاما، وقيل: ابن ست وعشرين. أشهر شعره معلقته، ومطلعها: (لخولة أطلال ببرقة ثهمد) وقد شرحها كثير من العلماء. انظر الشعر والشعراء: (49).

والأدب ما يصلح به حال الإنسان فيما بينه وبين الله، وفيما بينه وبين الناس من جار وجليس وضيف وغيرهم.

وقال ابن سيده[2]: الأدب الظرف، وحسن التناول. **وقال القشيري**: حقيقة الأدب: اجتماع خصال الخير[3]. **وقيل**: هو استعمال ما يحمد قولا وفعلا. **وقال بعضهم**: هو صفاء القلب وحضوره. **ويقال**: حسن معاملة تتولد من الحياء، والهيبة والشفقة. **وقيل**: هو الأخذ بمكارم الأخلاق. **وقيل**: هو تعظيم من فوقك، والرفق بمن دونك. **ويقال**: مجالسة الحق على بساط الصدق، ومطالعة الحقائق بقطع العلائق. **وقيل للحسن البصري** وقد أكثر الناس في علوم الأدب، فما أنفعها عاجلا وأوصلها آجلا؟ **فقال**: الفقه في الدين، والزهد في الدنيا، والقيام بما لله عليك.

قال العلقمي[4]: وتوضيحه وتعليله أنه إذا عَدِمَ الفقهَ وقع فيما لا ينبغي، وإذا لم يزهد في الدنيا لم يمكنه القيام بما علمه من القليل من الأحكام لشغله بحفظها وتحصيلها وجهات كسبها.

وقال أبو نصر السراج[1]: الناس في الأدب على طبقات؛ **أما أهل الدنيا** فأكثر أدبهم في الفصاحة والبلاغة وحفظ العلوم وأسماء الملوك وأشعار العرب، **وأما أهل الدين** فأكثر

([1]) من قصيدة لطرفة بن العبد 76 بيتا مطلعها:

أَصَحَوتَ اليَومَ أَم شاقَتكَ هِر وَمِنَ الحُبِّ جُنونٌ مُستَعِر

والبيت بكامله:

نَحنُ في المَشتاةِ نَدعو الجَفَلى لا تَرى الآدِبَ فينا يَنتَقِر

وهو البيت رقم 46 من القصيدة. انظر ديوانه (حرف الراء).

([2]) هو علي بن إسماعيل المعروف بابن سيده أبو الحسن، إمام في اللغة وآدابها، وصنف فيها "المخصص" 17 جزءا وهو من أثمن كنوز العربية، والمحكم، والمحيط الأعظم 18 جزءا، وشرح ما أشكل من شعر المتنبي، والأنيق في شرح حماسة أبي تمام 6 مجلدات وغير ذلك. توفي 458هـ في دانية وكان ضريرا. انظر ابن خلكان: (342/1).

([3]) انظر الرسالة القشيرية: (284).

([4]) هو محمد بن عبد الرحمن بن علي بن أبي بكر العلقمي، فقيه شافعي عارف بالحديث من بيوتات العلم في القاهرة المدرسين بالأزهر. له الكوكب المنير بشرح الجامع الصغير 3مجلدات. وملتقى البحرين في الجمع بين كلام الشيخين. توفي 969هـ. انظر شذرات الذهب: (338/8).

أدبهم في رياضة النفوس وتأديب الجوارح وحفظ الحدود وترك الشهوات، **وأما أهل الخصوص** فأكثر أدبهم في طهارة القلوب.

وقال بعضهم: الأدب على ثلاثة أقسام:

أدب طبعي: وهو ما جبل عليه الإنسان من الأخلاق السنية والاتصاف بالصفات المرضية من الحلم والكرم والشجاعة وحسن الخلق...إلخ.

وكسبي: وهو ما يكتسبه الإنسان بالحفظ والضبط وهو عبارة عن معرفة أربعة أشياء: النحو واللغة والشعر والخبر، وبعضهم يضيف إلى ذلك معرفة الكتاب والسنة وعلومهما.

وصوفي: وهو ضبط الحواس وحفظ الأنفاس.

وقال ابن عطاء الله[2]: الأدب الوقوف مع المستحسنات، فقيل له: وما معناه؟ قال: أن تعامل الله بالأدب سرا وإعلانا؛ أي في أعمال قلبك وأعمال جوارحك، فلا تتعاطى شيئا إلا شهدت له الشريعة بحسنه، فإذا كنت كذلك كنت أديبا، وإن كنت أعجميا، **ثم أنشدو:**

إِذَا نَطَقَتْ جَاءَتْ بِكُلِّ مَلَاحَةٍ وَإِنْ سَكَتَتْ جَاءَتْ بِكُلِّ مَلِيحِ

ومن لازم الآداب الشرعية حسنت حركته وسكونه وكلامه وسكوته.

قال بعضهم: سمعت من بعض الملوك أنه قال لولده: أينا أحب إليك أنا أو مؤدبك؟ قال: مؤدبي. فأظهر والدُه الغضبَ ثم سأله عن ذلك، فقال: أنت سبب حياتي الفانية، ومؤدبي سبب حياتي الباقية.

وقال الشعراني: ومن أخلاق السلف: حسن أدبهم مع الصغير والبعيد والجاهل فضلا عن الكبير والقريب والعالم. وقد قال تعالى لموسى وهارون: ﴿فقوله له قولا لينا لعله

([1]) هو عبد الله بن علي الطوسي، أبو نصر السراج: زاهد. كان شيخ الصوفية، على طريقة السنة. له كتاب " اللمع – ط " في التصوف. توفي 378هـ. انظر شذرات الذهب: (91/3).

([2]) هو أبو العباس تاج الدين أحمد بن محمد بن عبد الكريم الجذامي الإسكندراني المتكلم على طريقة الشاذلي المالكي، صاحب أبي العباس المرسي أخذ عنه وعن التقي السبكي، مفسر فقيه محدث أصولي نحوي، من مؤلفاته: الحكم- لطائف المنن- التنوير في إسقاط التدبير. توفي سنة: 709 هـ. (حسن المحاضرة ج1 ص: 250، طبقات المفسرين للداودي ج1 ص: 77، درة الحجال: 12).

يتذكر أو يخشى﴾، مع أن فرعون كان من أفسق الكفار، وأجمعوا على أن علو الدرجات إنما يكون بزيادة الأدب. **ومن الأدب:** شهود النقص في أنفسهم والكمال في غيرهم. عكس من كان قليل الأدب[1].

وقال ابن القاسم[2]: خدمت مالكا عشرين سنة فكانت ثمانية عشرة منها في تعليم العلم وسنتان منها في تعليم الأدب فليتني جعلت المدة كلها في الأدب. **وقيل:** من تأدب بآداب الصالحين صَلُحَ لبساط المحبة، ومن تأدب بآداب الصادقين صلح لبساط المشاهدة. **وقال:**

لَجلسَةٌ مَع أديبٍ في مُذاكَرَةٍ ... أنفي بِها الهَمَّ أو أستَجلِبُ الطَرَبا

أَشهى إِلَيَّ مِنَ الدُنيا وَزُخرُفِها ... وَمِلئِها فِضَّةً أو مِلئِها ذَهَبا[3]

فائدتان: الأولى: اختلف في الأدب وامتثال الأمر أيهما أفضل؟ **قال الصوفية:** الأدب أفضل لأن الصدِّيقَ[4] ﷺ تأخر عن المحراب و لم يمتثل أمره ﷺ له بإتمام الصلاة.

وقال الفقهاء: امتثال الأمر أفضل ويدل على ذلك قول المصلي في التشهد: اللهم صل على محمد من غير أن يقول سيدنا امتثالا لقوله عليه السلام: قولوا اللهم صل على محمد. **وقيل للعباس:** أنت أكبر أم النبي ﷺ؟ فقال: هو أكبر مني وأنا ولدت قبله[5]. **ويشهد لسلوك الأدب –والله أعلم–:** امتناع علي كرم الله وجهه من محو اسمه ﷺ من الصحيفة مع أمره له بذلك.

الثانية: قال الشعراني: ومن الأدب: عدم الكلام في شأن الدنيا أصلا في المسجد.

([1]) انظر تنبيه المغترين للشعراني: (81).

([2]) هو عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جنادة العتقي المصري، تفقه بالإمام مالك ونظرائه. له المدونة 16 جزءا، وهي من أجل كتب المالكية رواها عن الإمام مالك، وأخباره وفضله لا تسعها الهوامش. توفي 191هـ. انظر وفيات الأعيان: (276/1).

([3]) البيتان لعلي بن الجهم المتوفى 249هـ. انظر ديوانه (حرف الباء).

([4]) هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه. وهو غني عن التعريف.

([5]) رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح. انظر مجمع الزوائد رقم: (15482).

ورأى عيسى عليه السلام قوما يلعبون في المسجد فلف رداءه وضربهم وأخرجهم منه، **وقال:** "اتخذتم بيوت الله أسواقا، إنما هي أسواق للآخرة".

وكان خلف بن أيوب[1] **يوما جالسا في المسجد** فأتاه غلامه فسأله عن شيء من حوائج الدنيا فخرج من المسجد فأجابه ثم رجع وقال: كرهت أن أتكلم بكلام الدنيا في المسجد.

قال الشعراني: وبلغني أن هذا الأدب الآن في أكابر أهل اسطنبول؛ لا يكلمون أحدا بكلام لغو ما دام أحدهم في المسجد وينكرون على من يتكلمون فيه كلام الدنيا، فرضي الله تعالى عن أهل الأدب. **انتهى.**

وقال المناوي: من أصول الأدب التي يقع بتركها الطرد والإبعاد حفظ حرمة المسلمين سيما دائرة الحق من العباد والزهاد ومفتاح إسقاط حرمتهم احتقار ما منحهم مولاهم.

وفي كتاب المجالس في الوعظ: وفي الحديث: «يأتي آخر الزمان ناس من أمتي يأتون المساجد ويقعدون فيها حِلقاً حِلَقًا ذكرُهم الدنيا وحب الدنيا، لا تجالسوهم فليس لله بهم حاجة لا صلاة لهم ولا صوم لهم ولا زكاة لهم هم من الله مبعَدُونَ...**إلى أن قال:** فتقف عليهم الملائكة فيقولون: اسكتوا يا أعداء الله، اسكتوا يا بغضاء الله، فأذا صلوا ضربت وجوههم بصلاتهم، وانقلبوا إلى دورهم وقد سخط الله عليهم[2]».

وفي الحديث أيضا: يقول الله عز وجل: «إن بيوتي في أرضي المساجدُ، وإن زواري فيها عمارها، فطوبي لعبد يتطهر في بيته ثم يزورني في بيتي، فحقيق على هذا المزور أن يكرم زائره[3]».

---

[1]) هو خلف بن أيوب الفقيه أبو سعيد العامريّ البخليّ الحنفيّ، مفتي أهل بلخ وزاهدهم وعابدهم. أخذ الفقه عن أبي يوسف، وقيل إنه أدرك محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى وتفقّه عليه. وسمع منه ومن عوف الأعرابي ومعمر وإبراهيم بن أدهم وصحبه مدة. روى عنه أحمد بن حنبل وابن معين وأبو كريب وعليّ بن سلمة وجماعة. توفي 215هـ. انظر الوافي بالوفيات: (375/4).

2) أخرجه ابن حبان من حديث ابن مسعود والحاكم من حديث أنس وقال صحيح الإسناد. انظر: تخريج أحاديث الاحياء الحديث رقم: (407).

3) أخرجه أبو نعيم من حديث أبي سعيد بسند ضعيف " يقول الله عز وجل يوم القيامة أين جيراني فتقول الملائكة من هذا الذي ينبغي أن يجاورك فيقول أين قراء القرآن وعمار المساجد " وهو في الشعب نحوه موقوفا على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم

ويقال أيضا: إن الناس إذا ذكروا أخبار الدنيا وزينتها في المساجد؛ قالت لهم الملائكة: اسكتوا يا بغضاء الله، اسكتوا يا أعداء الله، اسكتوا عليكم لعنة الله.

وقال سعيد بن المسيب[1]: من جلس في المسجد فإنما يجالس ربه، فمن حقه ألا يقول إلا خيرا.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: سألت النبي ﷺ سنين عن الكلام في المسجد، فما زادني إلا تشديدا، ولا رأى لي فيه رخصة **ثم قال:** «يا ابن عباس اقرأ: ﴿في بيوت أذن الله أن ترفع...﴾ الآية.

ويروى الحديث: «الكلام في المسجد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب[2]».

وفي الحديث: «إن للمساجد أوتادا جلساؤهم الملائكة إذا جلسوا حفتهم الملائكة من لدن أقدامهم إلى أعناقهم، بأيديهم قراطيس الفضة وأقلام الذهب يكتبون الصلاة على النبي ﷺ ويقولون: أكثروا رحمكم الله. فإذا استفتحوا في الذكر أقبل الله عليهم بوجهه حتى يخوضوا في حديث غيره[3]». وإحاطة الملائكة دليل على كثرة الرحمة النازلة والبركة الشاملة، لكن إنما ذلك لمن توقى من الآثام، ومن تلويث المساجد بقذر الغيبة والنميمة والخصومة وإطلاق الريح ورفع الصوت والتأدب بسكينة ووقار وخضوع وحضور قلب مع رب البيت، فمن جلس في المسجد بهذه الصفة حفت به الملائكة وغشيته الرحمة ونزلت عليه السكينة. ومن عمره بغير ذلك بعدت عنه الرحمة وأكلت له الحسنة. **ويأتي إن شاء الله بعض فضائل الأدب في بابه.**

بإسناد صحيح ، وأسند ابن حبان في الضعفاء آخر الحديث من حديث سلمان وضعفه. انظر تخريج أحاديث الإحياء الحديث رقم: (408).

(1) هو سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب المخزومي القرشي، أبو محمد: سيد التابعين، وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة. جمع بين الحديث والفقه والزهد والورع، وكان يعيش من التجارة بالزيت، لا يأخذ عطاءا. وكان أحفظ الناس لاحكام عمر ابن الخطاب وأقضيته، حتى سمي راوية عمر. توفي بالمدينة 94هـ انظر الاعلام: (3م102).

(2) انظر العرف الشذي في شرح سنن الترمذي للكشميري: (377/1).

(3) هذا الحديث لم أجده إلا في تفسير الرازي، قال: عن عبد الله بن سلام:.........الحديث. انظر تفسير الرازي: (299/2).

(**وَتَشْتَمِلُ هَذِهِ الْخَاتِمَةُ عَلَى مُقَدِّمَة**) بكسر الدال وفتحها (**وَ**) على (**ثَلاَثَــةِ أَبْــوَابٍ**) **الباب الأول**: (**فِي الْخُلُقِ وَ**) **الثاني**: (**فِي الرَّذَائِلِ وَ**) **الثالث**: (**فِي الآدَابِ وَالْفَضَائِلِ**) فبدأ بالمقدمة فقال: (**مُقَدِّمَةٌ**) بكسر الدال ـــ **يقال**: مقدمة العلم لما يتوقف عليه الشروع في مسائله، كمقدمة الجيش للجماعة المتقدمة منه من قدم اللازم بمعنى تقدم. **ومنه**: ﴿لا تقدموا بين يدي الله ورسوله﴾[1]. **ويقال أيضا**: مقدَّمة الكتاب بالفتح على قلة من "قدم" المتعدي لطائفة من كلامه قدمت أمام المقصود لارتباطٍ له بها. وانتفاع بها فيه كمقدمة الرحل. والفرق بين مقدمة العلم ومقدمة الكتاب مما خفي على كثير من الناس. ثم إن كونها من قدَّم اللازم أرجح؛ لأن فيه دلالة على أنها متقدمة بنفسها لأمر استحقت به التقديم، وأما إن أُخِذَتْ من المتعدي كان فيها دلالة على أن الغير قدمها، فيحتمل أن يكون لأمر استحقت به التقديم وأن يكون لأمر اعتبره في نفسه. فكان الأول أرجح لعدم احتماله.

([1]) الحجرات: (1).

العلم قسمان: ظاهر وباطن

ثم قال: (**اعْلَمْ أَنَّ الْعِلْمَ**) قسمان: **علم الظاهر وعلم الباطن، وأن العلم** (**الْمُتَعَلِّقَ بِالظَّاهِرِ كَالأَعْمَالِ**) الظاهرة من صلاة وصوم وزكاة وغيرها، ومنه علم الإيمان وهو العلم الشرعي بما يلزم المكلف من أمر دينه (**يُسَمَّى تَفَقُّهًا**) والفقه هو العلم الباحث عن أفعال المكلفين، **وفائدته:** تمييز صحيحها من فاسدها، وكاملها من ناقصها (**وَهُوَ مُقَدَّمٌ**) **على التصوف**؛ لأن التصوف إنما يحصل في الغالب بعد مجاهدات، ورياضات، ولا تنتج تلك المجاهدات إلا بموافقتها لعلم الشريعة، وإلا كانت عبثا وأتعابا.

قال بعض الشيوخ: إذا بدأ المريد يكتب الحديثَ ثم لزم التصوف نفذ. وإذا بدأ بالتصوف ثم كتب الحديث فتر. أي إذا ابتدأ بالتعبد والتقوى والحال شُغل بذلك عن العلم والسنن فخرج؛ إما شاطحا وإما غالطا لجهله بالأصول والسنن. لأن من بدأ بالفرع قبل الأصل ضاع في حقه الأصل والفرع، وذلك كله؛ لأن من ضيع علم الشريعة أولا ربما خدعه الشيطان بتزيين البدع له، والخروج عن سنن السلف، فيتخذ إلهه هويه، فيلتحق بالمبتدعة، ولو سلم من هذا الوجه، فلا يؤمن عليه أن يستولي عليه سلطان الحقيقة، وليس له من الشريعة ما يقابله به. فربما باح بالأسرار وهتكها، ووجد الناس السبيل إلى الطعن عليه وتوجههم بالأذى إليه، فيتكدر عليه صفوه ويمزحلوه. وسبب هذا كله تفريطه في علم الشريعة.

وقال سيدي زروق: لما كان الفقه لا يصح التصوف بدونه، كان التزامه مع صدق القصد به محصلا له. فمن ثَمَّ كان الفقيه الصوفي أَتَمَّ حالا من الصوفي الذي لا فقه له. **قيل:** كن فقيها صوفيا، ولا تكن صوفيا فقيها. وكان أيضا نظر الفقيه أعم من نظر الصوفي. ولذلك صح إنكاره عليه لا العكس، ولزم الرجوع من التصوف للفقه لا العكس، باعتبار الحكم لا باعتبار الترك، وكفى أيضا الفقه عن التصوف، ولم يكف

التصوف عن الفقه. ومن ثم حضَّ الأئمة على القيام بالظاهر علما وعملا مع السلامة لما سئلوا عن علم الباطن. وقال ﷺ للذي سأله أن يعلمه من غرائب العلم: «ما صنعت في رأس العلم[1]». **انتهى**[2].

وقال المناوي في شرح الحكم: ومن قواعد الصوفية: تقديم المهم في كل شيء، فكل من طلب من علوم القوم حقيقيها قبل علمه بجمل أحكام العبودية منها، أو عدل عن جَلِيِّ الأحكام إلي غامضها فهو مخدوع بهواه، سيما إن لم يُحَكِّمْ الظواهر الفقهية، ولم يحقق الفرق بين السنة والبدعة، فهي البلية والرزية. ومن ذلك من طالبته نفسه بالتحلي بالمهملة قبل التخلي بالمعجمة، أو ادعى لها ذلك فهو لاشك هالك.

(وَ) أن العلم المتعلق (بِالْبَاطِنِ) نوعان: علم المعاملة (كَالأَحْوَالِ) أي أحوال القلب ما يحمد منها كالصبر، والشكر، والخوف، والرجاء، والمحبة، والزهد، والرضى، وغير ذلك، وما يذم منها كالكبر، والرياء، والعجب، والحسد، والحقد، وسخط المقدور. **وغير ذلك مما يأتي إن شاء الله تعالى.**

والنوع الثاني: علم المكاشفة: وهو نور يظهر في القلب عند تزكيته فتظهر به المعاني المجملة، فتحصل به المعرفة بالله تعالى، وكتبِه ورسلِه، وتنكشف به الأستار عن مغيبات الأسرار. **فَافْهَمْ وَسَلِّمْ تَسْلَمْ، ولا تكن من المنكرين، تهلك مع الهالكين. والغرض هنا النوع الأول الذي هو علم المعاملة ويُسمى: (تَصَوُّفًا) وهو:** علم بأصول يعرف بها صلاح القلب والحواسِّ. **وموضوعه:** أفعال القلب والحواس. **وفائدته:** إصلاح أحوال الإنسان ظاهرا وباطنا.

([1]) رواه ابن السني وأبو نعيم في كتاب الرياضة لهما ، وابن عبد البر من حديث عبد الله بن المسور، والحديث بكامله: " جاء رجل جاء إلى رسول الله ﷺ فقال علمني من غرائب العلم ، فقال له : ما صنعت في رأس العلم ؟ فقال : وما رأس العلم ؟ فقال ﷺ : هل عرفت الرب تعالى ؟ قال : نعم ، فما صنعت في حقه ؟ قال : ما شاء الله ، فقال ﷺ: هل عرفت الموت ؟ قال : نعم ، قال : فما أعددت له ؟ قال : ما شاء الله ، قال ﷺ: اذهب فأحكم ما هناك ثم تعال نعلمك من غرائب العلم ".

([2]) انظر قواعد الصوفية: (22) القاعدة رقم: (26). بتصرف بسيط.

وقيل: هو تجريد القلب لله تعالى واحتقار ما سواه، وقيل غير ذلك. **وقد مَرَّ أن فيه نحوا من ألفي قول كلها راجعة لصدق التوجُّهِ.**

تتميم: يصح أخذ الفقه والتصوف دون الأشياخ، ولكن أخذه منهم أتم.

قال سيدي زروق: أخذ العلم والعمل عن المشايخ أتمُّ من أخذه دونهم، بل ﴿هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم[1]﴾، ﴿واتبع سبيل من أناب إليّ﴾[2]. فلزمت المشيخة، سيما والصحابة أخذوا عنه ﷺ، وقد أخذ عن جبريل، واتَّبَعَ إشارتَه في أن يكون: نبياً عبداً، لا نبياً ملكاً. وأخذ التابعون عن الصحابة، فكان لِكُلٍّ أتباعٌ يختصون به كابن سيرين[3]، وابن المسيب، والأعرج[4] وأبي هريرة، وطاووس[5]، ووهب[6]، ومجاهد[7] وغيرهم عن ابن عباس إلى غير ذلك. **فأما العلم والعمل** فأخذهما جليٌّ فيما

([1]) العنكبوت: (49).

([2]) لقمان: (15).

([3]) **ابن سيرين:** هو محمد بن سيرين البصري الأنصاري بالولاء. إمام وقته في علوم الدين بالبصرة، تابعي تفقه وروى الحديث واشتهر بالورع وتعبير الرؤيا. توفي 110هـ. انظر تهذيب التهذيب: (214/9)/ ووفيات الأعيان: (453/1).

([4]) **الأعرج:** هو عبد الرحمن بن هرمز، أبو داود، من موالي بني هشام، عرف بالاعرج: حافظ، قارئ، من أهل المدنية. أدرك أبا هريرة وأخذ عنه. وهو أول من برز في القرآن والسنن. وكان خبيرا بأنساب العرب، وافر العلم، ثقة. رابط بثغر الاسكندرية مدة، ومات بها. وفي اسم أبيه خلاف. توفي 117هـ. انظر طبقات القراء: (381/1).

([5]) **طاووس:** هو طاووس بن كيسان الخولاني الهمداني، بالولاء، أبو عبد الرحمن: من أكابر التابعين، تفقها في الدين ورواية للحديث، وتقشفا في العيش، وجرأة على وعظ الخلفاء والملوك. أصله من الفرس، ومولده ومنشأه في اليمن. توفي حاجا بالمزدلفة أو بمنى، وكان هشام بن عبد الملك حاجا تلك السنة، فصلى عليه. وكان يأبى القرب من الملوك والامراء، قال ابن عيينة: متجنبو السلطان ثلاثة: أبو ذر، وطاووس، والثوري. توفي 106هـ. انظر وفيات الأعيان: (233/1).

([6]) **وهب:** هو وهب بن منبه الا بناوي الصنعاني الذماري، أبو عبد الله: مؤرخ، كثير الاخبار عن الكتب القديمة، عالم بأساطير الاولين. يعد في التابعين. أصله من أبناء الفرس الذين بعث بهم كسرى إلى اليمن. وأمه من حمير. ولد ومات بصنعاء وولاه عمر بن عبد العزيز قضاءها. من كتبه " ذكر الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم " رآه ابن خلكان في مجلد واحد، وقال: هو من الكتب المفيدة. وله " قصص الانبياء – خ " و " قصص الاخيار ". توفي 114هـ. انظر وفيات الأعيان: (180/2)، والأعلام: (126/8).

([7]) **مجاهد:** هو مجاهد بن جبر، أبو الحجاج المكي، مولى بني مخزوم: تابعي، مفسر من أهل مكة. قال الذهبي: شيخ القراء والمفسرين. أخذ التفسير عن ابن عباس، قرأه عليه ثلاث مرات، يقف عند كل آية يسأله: فيم نزلت وكيف كانت ؟ وتنقل في الاسفار، واستقر في الكوفة. وكان لا يسمع بأعجوبة إلا ذهب فنظر إليها: ذهب إلى " بئر برهوت " بحضرموت، وذهب إلى " بابل " يبحث عن هاروت وماروت. ويقال: إنه مات وهو ساجد. توفي 104هـ. انظر صفوة الصفوة: (117/2).

ذكر، وكما ذكروا. **وأما الإفادة بالهمة والحال فقد أشار إليها أنس بقوله:** "ما نفضنا التراب عن أيدينا من دفنه عليه الصلاة والسلام حتى أنكرنا قلوبنا"، فإن رؤية شخصه الكريم، كان نافعاً لهم في قلوبهم، والعلماء ورثة الأنبياء حالاً ومقالاً وإن لم يدانوا المترلة، وهو الأصل في طلب القرب من أهل الله في الجملة. إذ من تَحَقَّقَ بحالةٍ لم يَخْلُ حاضروه منها، فلذلك أُمِرَ بصحبة الصالحين، ونُهِي عن صحبة الفاسقين[1].

وقال أيضا: وقد تشاجر فقراء الأندلس من المتأخرين، في الاكتفاء بالكتب عن المشايخ ثم كتبوا للبلاد، فكلٌّ أجاب على حسب فتحه. **وجملة الأجوبة دائرة على ثلاثة:**

أولها: النظر للمشايخ؛ فشيخ التعليم تكفي عنه الكتب للبيب الحاذق الذي يعرف موارد العلم. وشيخ التربية تكفي عنه الصحبة لِدَيِّنٍ عاقل ناصح. وشيخ الترقية يكفي عنه اللقاء والتبرك. وأخذ كل ذلك من وجه واحد أتم.

الثاني: النظر لحال الطالب؛ فالبليد لا بد له من شيخٍ يُرَبِّيهِ، واللبيب تكفي الكتب في ترقيه، لكنه لا يسلم من رعونة نفسه، وإن وصل لابتلاء العبد برؤية نفسه.

الثالث: النظر للمجاهدات؛ فالتقوى لا تحتاج إلى شيخ لبيانها وعمومها. والاستقامة تحتاج إلى شيخ في تمييز الأصلح منها، وقد يكتفي دونه اللبيب بالكتب. ومجاهدة الكشف والترقية لا بد فيها من شيخ يُرْجَعُ إليه في فتوحها، كرجوعه ﷺ للعرض على ورقة بن نوفل لعلمه بأخبار النبوءة ومبادئ ظهورها، حين فاجأه الحق. وهذه الطريقة قريبة من الأولى والسنة معهما، والله أعلم[2].

تتميم آخر: كثيرا ما سلكنا في هذه الخاتمة العطفَ على معمولَيْ عامل واحد للجمع على جوازه، والعطف على معمولي أو معمولات عاملين مختلفين دروجا على مذهب الأخفش كما في هذا المحل وغيره.

---

(1) انظر قواعد التصوف: (49) القاعدة رقم: (65).

(2) انظر قواعد التصوف ص(52)، القاعدة رقم: (64).

وتلخيص المسألة باختصار: أنهم أجمعوا على جواز العطف على معمولَيْ عامل واحد نحو: إن زيدا ذاهب وعمرا جالس. وعلى معمولات عامل واحدٍ نحو: أعلمَ زيدٌ بكرا عمراً جالسا. وأبو بكر خالدا سعيدًا منطلقا. وعلى منع العطف على معمولات أكثر من عاملين نحو: إن زيدا ضاربٌ أبوه لعمرو وأخاك غلامه بكرٍ، ويمتنع أيضا عند غير الأخفش العطف على معمولي عاملين مختلفين إن لم يكن أحدهما جارًّا نحو: كان آكلا طعامك عمرو وتمرك بكر، أو كان جارا وتأخر عن المرفوع والمنصوب نحو: زيد في الدار وعمرٌو الحجرةِ. أو الحجرةِ عمرو ودخل زيد إلى عمرو وبكرٌ خَالِدٍ، وإن زيدا في الدار وعَمْرًا الحجرةِ للفصل بين نائب الجار وهو العاطف وبين المجرور. أو تقدم الجارُّ ولكن لم يَلِ المخفوضُ العاطفَ نحو: في الدار زيد والحجرةِ عمرو للفصل أيضا. وأما إن تقدم الجار وولى المخفوض العاطف سواء اتصل به نحو: في الدار زيد والحجرة عمرو أو انفصل بـ"لا" نحو: ما كلُّ سوداءَ تمرةً ولا بيضاءَ شحمةً. فالحق جوازه؛ لأنه كذا سمع ولأن فيه تعادل المتعاطفاتِ ومنعه سيبويه **وحجته:** أن العاطف حرف ضعيف لا ينوب عن عاملين أي لأن العاطف نائب عن العامل وعامل واحد لا يعمل جرا ونصبا. وحجة المجوز ظاهر **قوله تعالى:** ﴿إن في السموات والأرض لآيات للمومنين وفي خلقكم وما يبث من دابة ءايت لقوم يوقنون واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح ءايت لقوم يعقلون﴾[1] على قراءة الأخوين بنصب ءايَتٍ الثانية والثالثة. **وحجته أيضا قوله:**

هَوِّنْ عَلَيْكَ فَإِنَّ الأُمُو ... رَ بكفِّ الآلَهِ مَقَادِيرُهَا

فَلَيْسَ بِآتِيكَ مَنْهِيُّهَا ... وَلاَ قَاصِرٍ عَنْكَ مَأْمُورُهَا[2]

ثم قال: (**وَالظَّاهِرُ**) صلاحه وفساده (**تَبَعٌ لِـ**) صلاح (**الْبَاطِنِ**) وفساده، فإذا صلح المتبوع صلح التابع لأن الباطن أصل والظاهر فرع. لأن القلب ملك والجوارح جنوده.

([1]) الجاثية: (4).

([2]) البيتان للأعور الشني. انظر ديوانه.

وشأن الرعية طاعة الملك في الأمر والنهي. ولا شك أن الرعية تصلح بصلاح الملك وتفسد بفساده، فالقلب خزانة كل جوهر للعبد نفيس، كالعقل والمعرفة التي هي سبب السعادة، والبصيرة والنية الخالصة وأنواع العلوم والحكم وسائر الأخلاق الشريفة. والقلب هو العالم بالله والعامل له، والساعي إليه، والمتقرب إليه، والمكاشف بما عند الله ، والجوارح أتباع وخَدَمٌ يستخدمها ويستعملها استعمال المالك للعبيد والراعي للرعية.

والقلب أيضا: إنما هو المخاطَب والمعاتَب والمطالَب والمعاقَب، وهو الذي يسعد بالقرب من الله تعالى ويفلح إذا زكاه، وهو الذي يشقى إذا دَنَّسَهُ وَدَسَّاهُ، وهو المطيع بالحقيقة لله تعالى، وإنما الذي ينتشر على الجوارح من العبادة أنوارُه، وهو العاصي المتمرد على الله، وإنما الذي يظهر على الجوارح من الفواحش آثارُه. وبإظلامه واستنارته تظهر محاسنُ الظاهر ومساويه، إذ كل إناء يرشح بما فيه، وهو مبدأ الحركات البدنية والإرادات النفسانية، فإذا صدرت عنه إرادة صالحة بسلامته من الأمراض الباطنة، أو إرادة فاسدة بعدم سلامته منها كالحسد وغيره؛ تحرك البدن بتلك الحركة، فهو كالملك والجسد وأعضاؤه كالرعية.

وفي الحديث: «لا يستقيم إيمانُ عبدٍ حتى يستقيم قلبه[1]» **رواه أحمد**[2].

وإذا كان القلب هكذا فاصرف عنايتك إلى إصلاح قلبك تصلح الأعضاء الظاهرة. ولهذا كان إصلاح القلب أشدَّ على أهل الاجتهاد والاهتمام بأمره.

([1]) رواه أحمد في مسنده بلفظ: «لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه ولا يدخل رجل الجنة لا يأمن جاره بوائقه» وهو رقم: (13071).

([2]) هو أحمد محمد بن حنبل، أبو عبد الله، الشيباني الوائلي: إمام المذهب الحنبلي، وأحد الائمة الاربعة. أصله من مرو، وكان أبوه والي سرخس. وولد ببغداد. فنشأ منكبا على طلب العلم، وسافر في سبيله أسفارا كبيرة إلى الكوفة والبصرة ومكة والمدينة واليمن والشام والثغور والمغرب والجزائر والعراقين وفارس وخراسان والجبال والاطراف. وصنف (المسند – ط) ستة مجلدات، يحتوي على ثلاثين ألف حديث. وله كتب في (التاريخ) و (الناسخ والمنسوخ) و (الرد على الزنادقة فيما ادعت به من متشابه القرآن – ط) و (التفسير) و (فضائل الصحابة) و (المناسك) و (الزهد – خ). وفي أيامه دعا المأمون إلى القول بخلق القرآن ومات قبل أن يناظر ابن حنبل، وتولى المعتصم فسجن ابن حنبل ثمانية وعشرين شهرا لامتناعه عن القول بخلق القرآن، وأطلق سنة 220 هـ ولم يصبه شر في زمن الواثق بالله – بعد المعتصم – ولما توفي الواثق وولي أخوه المتوكل ابن المعتصم أكرم الإمام ابن حنبل وقدمه، ومكث مدة لا يولي أحدا إلا بمشورته، وتوفي الإمام وهو على تقدمه عند المتوكل سنة241هـ. انظر صفوة الصفوة: (190/2).

قال أبو يزيد[1]: عالجت قلبي عشرا ونفسي عشرا ولساني عشرا؛ فكان قلبي أصعب الثلاثة.

فائدة: قال المناوي في الدرر الجوهرية: أولياء الصوفية إنما يعملون على جلاء القلب وتطهيره وتصقيله فقط بخلاف العلماء يعملون في اكتساب العلوم واجتلاها إلى القلب.

وقد ذكر أن أهل الصين وأهل الروم تباهوا بين يدي بعض الملوك بحسن صناعة النقش والصور، فأمر الملك بصفيحة ينقش أهل الصين منها جانبا، وأهل الروم منها جانبا ويرخى بينهما حجاب يمنع اطلاع كل فريق على الآخر، ففعل ذلك. فجمع أهل الروم من كل صنيع غريب عجيب ما لا يحصى بحصر، ودخل أهل الصين من غير صنيع وهم يجلون جانبهم ويصقلونه. فلما فرغ أهل الروم ادعى أهل الصين أنهم فرغوا فعجب الملك من قولهم وأنهم كيف فرغوا من النقش بغير صنيع، فقيل: كيف فرغتم من غير صنيع؟ قالوا: ما عليكم ارفعوا الحجاب. فرفعوه فإذا جانبهم قد تلألأت فيه عجائب الصنعة الرومية مع زيادة إشراق وبريق ولمعان يكاد يخطف الأبصار، إذ كان جانبهم كالمرآت المجلوة لكثرة التصقيل، فازداد حسن جانبهم بمزيد الصفاء. فكذلك عناية الأولياء بتطهير القلب وجلائه وتزكيته حيث يتلألأ فيه [حلية[2]] الحق بنهاية الإشراق. وعناية العلماء والحكماء باكتساب نقش العلوم وتحصيل نقشها في القلب وشتان ما بينهما. **انتهى.**

تنبيه: فكما أن إصلاح الظاهر تبع لإصلاح الباطن، كذلك أيضا لطهارة الظاهر تأثير في إشراق نور القلب؛ لأن العلاقة ثابتة بين عالم الشهادة وعالم الملكوت. وكما يفيض من معارف القلب آثار على الجوارح فكذلك قد يفيض من طهارة الظاهر أثر على الباطن، وإليه الإشارة بأن الوضوء على الوضوء نور على نور. وقد عرف بالتجربة أنه إذا غلب اللون والصورة على قلب المجامع والحامل عند تحرك الحمل مال الولد وصورته إلى ذلك

([1]) أبو يزيد: هو طيفور بن سروشان كان هو وإخوته ءادم وعلي زهادا عبادا أرباب أحوال، وهم من أهل بسطام. ومن كلامه: عملت في المجاهدة 30 سنة فما وجدت شيئا أشد علي من العلم ومتابعته. وقال: عرفت الله بالله، وعرفت ما دون الله بنور الله عز وجل. وكلامه مبسوط في كتب التصوف. توفي 261هـ. انظر طبقات السلمي: (65).

([2]) في النسخة "ب" "حلية" وهي التي أثبتنا في النص. وفي الأخرى "جلية" بالجيم.

اللون وتلك الصورة. ونظيره فيضان النور بواسطة المرآت المحاذية للشمس على بعض الأجسام المحاذية للمرآت. وإلى قريب من هذا يرجع يقين الشفاعة. **قاله في الإحياء**[1].

(**فَالْمُخِلّ بِالأَوَّلِ**) الذي هو الأعمال الظاهرة المعرِض عنها التارك لها (**هَالِكٌ فِي الدُّنْيَا بِحُكْمِ الْعُلَمَاءِ**) فقهاء الدنيا بسيوف سلاطين الدنيا (**وَ**) المخل (**بِالثَّانِي**) الذي هو النظر في أحوال القلب والتفقد لها المعرض عنها هالك (**فِي الآخِرَةِ بِحُكْمِ**) علماء الآخرة بسطوة (**مَلِكِ الْمُلُوكْ**) جل جلاله، فإذا تعذر هذا فاصرف عنايتك إلى تفقد أحوال قلبك كل لحظة ومجاهدة نفسك في كل نفس. وليكن اهتمامك بعلم التصوف أشد من اهتمامك بعلم الفقه. **هذا بعد تحصيلك قدر الكفاية من الفقه.**

قال ابن عباد[2]: وعلى كل واحد من العالم والمتعلم أن يشتغل بما هو أهم مما هو مأمور به ومسئول عنه من مراقبة ربه وإصلاح نفسه وقلبه، فله في ذلك شغل شاغل عما يفرق همه وينسيه ذكر ربه.

قال ابن وهب[3]: ذُكر طلب العلم عند مالك فقال: إن طَلَبَهُ لَحَسَنٌ إذا صحت فيه النية، ولكن انظر إلى ما يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسي، ومن حين تمسي إلى حين تصبح، فلا تؤثرن عليه شيئا.

وكان الثوري يقول لأهل العلم الظاهر: طلب هذا ليس من زاد الآخرة. **وكان يقول:** ليس طلب الحديث من عُدَّة الموت لكنه علة يتشاغل بها الرجال. **وكان يقول:** لولا أن للشيطان فيه نصيبا ما ازدحمتم عليه ــ أي العلم ــ.

قال الغزالي في الإحياء: لو سئل فقيه زماننا عن معنىً من هذه المعاني حتى عن الإخلاص مثلا أو عن التوكل أو عن وجه الاحتراز عن الرياء لتوقف فيه مع أنه فرض عينه الذي في إهماله هلاكه في الآخرة. ولو سألته عن اللعان والظهار والسبق والرمي لسرد عليك

(1) هذا الكلام لم أجد في إحياء علوم الدين.

(2) تقدمت ترجمته.

(3) تقدمت ترجمته.

مجلدات من التفريعات الدقيقة التي تنقضي الدهور ولا يحتاج إلى شيء منها، وإن احتيج لم يخل البلد عمن يقوم بها ويكفيه مؤنة التعب فيها، فلا يزال يتعب فيها ليلا ونهارا، وفي حفظه ودرسه يغفل عما هو مهم في نفسه في الدين، وإذا روجع فيه قال: اشتغلت به لأنه علم الدين وفرض الكفاية ويلبس على نفسه وعلى غيره في تعلمه، والفَطِنُ يعلم أنه لو كان غرضه أداء حق الأمر في فرض الكفاية لقدم عليه فرضَ العين، بل قدم عليه كثيرا من فروض الكفايات فكم من بلدة ليس فيها طبيب إلا من أهل الذمة ولا يجوز قبول شهادتهم فيما يتعلق بالأطباء من أحكام الفقه ثم لا نرى أحدا يشتغل به ويتهاترون على علم الفقه لا سيما الخلافيات والجدليات والبلد مشحون من الفقهاء بمن يشتغل بالفتوى والجواب عن الوقائع فليت شعري كيف يرخص فقهاء الدين في الاشتغال بفرض كفاية قد قام به جماعة وإهمال ما لا قائم به هل لهذا سبب إلا أن الطب ليس يتيسر الوصول به إلى تولي الأوقاف والوصايا وحيازة مال الأيتام، وتقلد القضاء ومناصب الحكومة، والتقدم به على الأقران، والتسلط به على الأعداء، هيهات هيهات قد اندرس علم الدين بتلبيس العلماء السوء، فالله تعالى المستعان، وإليه الملاذ في أن يعيذنا من هذا الغرور الذي يُسخط الرحمن ويُضحك الشيطان[1].

وقد كان الفقهاء الذين هم زعماء الفقه وقادة الخلق؛ كالأئمة الأربعة والثوري وغيرهم؛ كل واحد منهم عالم بعلوم الآخرة وعابدٌ وزاهدٌ وفقيهٌ في مصالح الخلق في الدنيا، ومريد بفقهه وجه الله تعالى. فهذه خمس خصال اتبعهم فقهاء العصر فيها على خصلة واحدة وهي: التشمير والمبالغة في تفاريع الفقه. شمروا لها وادَّعوا بها مشابهة أولئك الأئمة. وهيهات فلا يقاس الأئمة بالحدادين. وظلموهم بانتحال مذاهبهم فإنهم من أشد خصمائهم يوم القيامة. فإنهم ما قصدوا بالعلم إلا وجه الله الكريم فإنهم ما كانوا متجردين لعلم الفقه بل كانوا مشتغلين بعلم القلوب. أيها الولد أيّ منفعة تحصل من تحصيل علم الكلام والخلاف والطب والنجوم ودواوين الشعر والعروض والنحو

([1]) انظر الإحياء: (22/1).

والصرف وديوان المتنبي والحماسة وأمثالها غير تضييع العمر بحق جلال ذي الجلال. أيها الولد العلم الذي لا يمنعك عن المعصية لا يمنعك غدا من النار. ومع هذا فلا ينبغي له أن ينظر بعين الحقارة إلى سائر العلوم أعني علوم الفتاوى وعلم النحو واللغة وعلم القـــراءة ومخارج الحروف وعلم التفسير وعلم أصول الفقه والعلم بالرجال وأساميهم وأســـامي الصحابة، والعلم بالعدالة في الرواية وغير ذلك. **فهذه كلها من فروض الكفاية.**

ولا تفهمن من غلونا في الثناء على علم الآخرة تهجين هذه العلوم فالمتكفلون بـــالعلوم كالمتكفلين بالثغور، والمرابطين بها، والغزاة المجاهدين في سبيل الله. فمنهم المقاتل، ومنهم الرِّدْءُ، ومنهم ساقي الماء، ومنهم الذي يحفظ دوابهم ويتعهدهم، ولا ينفك أحد منهم عن أجر إذا كان قصده إعلاءَ كلمةِ الله تعالى دون حيازة الغنائم، فكذلك العلماء **قـــال الله تعالى:** ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾[1]، **وقال تعالى:** ﴿هم درجات عند الله﴾[2]، وكذلك من يجتهد في العلوم. والفضيلة نســـبية، واســـتحقارنا للصيارفة عند قياسهم بالملوك لا يدل على حقارتهم إذا قيسوا بالكناسين فلا تظن أن ما نزل عن الرتبة القصوى ساقط القدر؛ بل الرتبة العليا للأنبياء، ثم الأوليـــاء، ثم العلمـــاء الراسخين في العلم، ثم للصالحين على تفاوت درجاتهم. **وبالجملة:** ﴿فمن يعمل مثقـــال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾ ومن قصد الله تعالى بـــالعلم -أيّ علـــم كان- نفعه ورفعه لا محالة. **اهـــ كلام الغزالي باختصار**[3].

وقال زروق: ويتعين قصد الأفضل بالفروع الفقهية، وإلا كانت وبالاً على صـــاحبها. ولإسراع، المفاسد للقصد فيها: مَنَعَ المشايخُ اشتغال المريد بها. وحذروا من الإكثار منها لأنها تشعب الذهن وتشغله، لكن ذو الحقيقة لا تزيده إلا كمالا، فلزم الاعتناء بها مـــع تصحيح النية، والتأدب في المقاوضة وإعطاء كل ذي حق حقه.

---

(1) المجادلة (11).

(2) آل عمران (163).

(3) انظر إحياء علوم الدين: (23/1).

وقال السنوسي[1]: إياك أن تستغرق أوقاتك بالتدريس لأن ذلك يقسي القلب.

وقال الملالي[2]: وليس للفقير حاجةٌ إلا قدر ما يعرفه كافة الناس وهو أمرٌ قريب بين.

وقال الغزالي: لا شك أنك سمعت من الصوفية أنهم يقولون: "العلم حجاب" لهذا الطريق فلا تنكر ذلك فإنه حق. فإن المحسوسات وكلّ علم حصل من طريق المحسوسات إذا اشتغلت به واستغرقت فيه كان حجابا من هذا الوجه. وَمَثَلُ القلب في ذلك حوض الماء الصافي من قعر الحوض فتريد أن تخرج الماء الذي في الحوض كله، والطين الأسود الذي من أثر الماء الخارج تخرجه أيضا، وتسد طريق الأنهار كلها حتى لا يأتي إليها شيء من الماء الخارج ويحفر قعر الحوض حتى يظهر الماء الصافي في باطن الحوض، فما دام الحوض مشغولا بالماء الذي حصل فيه من خارج فلا يمكن أن يظهر من باطنه ماء. كذلك هذا العلم لا يحصل من باطن القلب ولا يظهر حتى يخلى من جميع ما حصل فيه من خارج باطنه. انتهى[3].

قال المناوي: العلم النافع ما يورث الخشية والتواضعَ دون الكبر والأمن. أما ما وراء ذلك كعلم الطب، والحساب، واللغة، والنحو، والشعر، وفصل الخصومات، وطرق المجادلات، فإذا تجرد الإنسان لها حتى امتلأ بها امتلأ بها كبرا ونفاقا. فهذه بأن تسمى صناعات أولى من أن تسمى علوما، بل العلم معرفة العبودية والربوبية وطريق العبادة...إلخ. **انتهى.**

([1]) هو محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي الحسني، من جهة الام، أبو عبد الله: عالم تلمسان في عصره، وصالحها. له تصانيف كثيرة، منها (شرح صحيح البخاري) لم يكمله، و (شرح مقدمات الجبر والمقابلة لابن الياسمين) و (شرح جمل الخونجي) في المنطق، و (تفسير سورة ص وما بعدها من السور) و(عقيدة أهل التوحيد – ط) ويسمى العقيدة الكبرى،و(أم البراهين –ط) ويسمى العقيدة الصغرى، و (شرح كلمتي الشهادة – خ). توفي 895هـ. انظر تعريف الخلف: (176/1).

([2]) هو محمد بن إبراهيم بن عمر بن علي، أبو عبد الله الملالي:.فاضل نسبته إلى بني ملال بالمغرب. كان من تلاميذ محمد ابن يوسف السنوسي التلمساني (المتوفى سنة 895) وصنف في مناقبه " المواهب القدوسية في المناقب السنوسية – خ " بالرباط، وله " شرح صغرى السنوسي – خ "، توفي 898هـ, انظر الاعلام: (801/5).

([3]) لم أجد هذا الكلام في الإحياء، ولعله موجود في بعض كتبه الكثيرة.

وذكروا فقيها عند بعض علماء عصره وأثنوا وبالغوا فقال: دعونا من ذكـــر أهـــل الطرد، فقالوا: كيف وهو من علماء الإسلام؟ قال: ليس له من العلم إلا الاسم؛ هـــل رأيتم مُحِبًّا يثقل عليه تكرار اسم محبوبه ويضيق صدرُه إذا أُمِرَ بذلك؟ قالوا: لا، فهؤلاء أشق ما على أحدهم أن يقال له: اترك درسك في النحو واللغة أو الصرف، أو المســـائل التي لا تقع إلا نادرا ولا يعرف لها دليل واضح من السنة، ويقال له: تذكر الله ساعة وقد قال تعالى: "أنا جليس من ذكرني". وكل من لم يقدر على مجالسته مع ربه فهو مطرود عن حضرته، فقالوا: يا سيدي اشتغالهم بالعلم خير في الجملة؟ قال: صحيح، لكن كلامنا في أهل حضرة الله لا في أهل حضرة أحكامه. وفرق بين من مشهوده أحكام الحق وبين من مشهوده صفاته وأسماؤه واضح. فإن أحدهم يموت وهو مع أصحاب الأحكام مـــن الخلق لا يشهد الحق إلا عند موته، بخلاف من يشتغل باسم الذات فلا يزال يذكر حتى يجتمع بصاحب الاسم إذ الاسم لا يفارق المسمى.

وقد طلب الإمام الرازي[1] الطريق، فقال له النجم الطـــبري[2]: لا تطيـــق مفارقـــة أصنامك الذين هم علومك، فقال: لابد، فأدخله الخلوة وَسَلَبَهُ كلَّ ما مَعَهُ من العلـــوم، فصاح في الخلوة بأعلى صوته: لا أطيق هذا، فأعجبه وقال: أعجبني صـــدقك وعـــدم نفاقك لكن صرت من معارفنا فاعلم ذلك وأنت أعلم بنيتك والسلام.

([1]) هو محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري، أبو عبد الله، فخر الدين الرازي: الامام المفسر. أوحد زمانه في المعقول والمنقول وعلوم الاوائل. وهو قرشي النسب. أصله من طبرستان، ومولده في الري وإليها نسبته، ويقال له (ابن خطيب الري) رحل إلى خوارزم وما وراء النهر وخراسان، وتوفي في هراة. أقبل الناس على كتبه في حياته يتدارسونها. وكان يحسن الفارسية. من تصانيفه (مفاتيح الغيب – ط) ثماني مجلدات في تفسير القرآن الكريم، و (لوامع البينات في شرح أسماء الله تعالى والصفات – ط) و (معالم أصول الدين – ط) و (محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين) وغيرها. توفي 606هـ. انظر وفيات الأعيان: (474/1).

([2]) هو محمد بن محمد بن أحمد بن الرضى إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر الولوي أبو عبد الله بن أبي اليمن الطبري المكي وأمه أم كلثوم ابنة الجمال محمد بن أحمد ابن إبراهيم بن البرهان الطبري. سمع من أبيه وعمه وابن صديق وغيرهم وناب في الإمامة عن أبيه حينا. انظر الضوء اللامع: (260/4).

الفقه والتصوف متلازمان

ولما كان الفقه والتصوف متلازمين لأنه لا تصوُّفَ إلا بِتَفَقُّهٍ، إذ لا تعرف الأحكام الظاهرة إلا به. ولا فقه إلا بتصوف إذ لا عبرةَ بفقهٍ وعملٍ لا يصحبه صدقُ التوجه ولا هما إلا بإيمان، إذ لا يصحان دونه، أشار إلى ذلك بقوله: (فَلَـزِمَ جَمْعُهُمَـا) لتلازمهما في الحكم. **ولذا قيل:** من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن جمع بينهما فقد تحقق. وبحسب هذا فلا وجود للتصوف دون أخويه من الفقه والأصول، ولا عبرة بوجودهما دونه، إذ حقيقتهما إنما تظهر فيه، وحقيقته إنما تظهر فيهما. **كما قاله زروق**[1].

فمن عامل الحق بالحقيقة والخلقَ بالشريعة فهو صوفي، ومن عاملهما بالشريعة فهو سني، ومن عاملهما بالحقيقة فهو زنديق. **كما قاله ابن الجلاء**[2].

فالصوفي أخص من السني لا أنه مُغَايِرٌ له، فوصف السُّنِّيِّ تَبَرٌّ من البدعة، ووصف الصوفي نسبة إلى الكمال؛ لأن السنة شرط فيه علما وعملا وإلا كان زندقة.

زروق: ومثال الزنديق: الجبْرِيُّ الذي يريد إبطال الحكمة والأحكام. **ومثال السني:** ما وقع في حديث الثلاثة الذين انْسَدَّ عليهم الغار، فسأل الله كل واحد بأفضل أعماله كما صح، وعضدته ظواهر الأدلة ترغيباً وترهيباً. **ومثال الصوفي: ما في حديث الرجل الذي** استلف من رجل ألف دينار فقال: أبغني شاهداً. فقال: كفى بالله شهيداً، فقال: أبلغني كفيلاً، فقال: كفى بالله كفيلاً. فَرَضِيَ. ثم لما حضر الأجل، خرج يلتمس مركباً فلم يجده، فنقر خشبة، وجعل فيها الألف دينار، ورقعة تقتضي الحكاية، وبذلها للذي رضي به وهو الله سبحانه فوصلت. ثم جاءه بألف أخرى وفاءً بحق الشريعة[3]. **انتهى**[4].

---

(1) انظر قواعد التصوف ص(8). القاعدة رقم: (4).

(2) هو أحمد بن يحيى أبو عبد الله ابن الجلاء، أحد مشايخ الصوفية الكبار صحب أباه وذا النون وجماعة كباراً؛ استوفى ابن عساكر ترجمته. توفي سنة ست وثلاثمائة. انظر الوافي بالوفيات: (104/3). وكلامه ينظر في زروق: (27 القاعدة 32).

(3) أخرجه البخاري في صحيحه رقم: (2291). ونقله زروق بالمعنى.

(4) انظر قواعد التصوف ص(28). القاعدة رقم: (33).

فلا بد من الجمع بين الحقيقة والشريعة، ولا يستغنى بإحداهما عن الأخرى بل هما شيء واحد على التحقيق.

قال القشيري: كل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة فأمرها غير مقبول، وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فأمرها غير محصول[1].

وقال سيدي زروق: كل باطن تجرد عن الشريعة باطل، وجيده من الحقيقة عاطل.

وقال سيدي أبو بكر الدقاق[2]: هتف بي هاتف: كل حقيقة لا تَتّبِعُ الشريعةَ كفرٌ.

وقال ابن عباد: كل باطن من العلم يخالف ظاهرا من الحكم فهو مردود، والجمع بين الحقيقة والشريعة يجري في الأمور التكليفية وفي الثواب والعقاب وفي الأسباب مثلا.

أما الأولى فمتى كلف العبد بحكم شرعي فإنه مطلوب بفعله وذلك هو الشريعة، ومطلوب بنسبة التأثير فيه إلى الله تعالى وذلك هو الحقيقة. فإن أهمل واعتلّ بأنه لا قدرة له فقد ضيع الشريعة، وإن ادَّعى لنفسه حولا في ذلك أو قوة فقد ضيع الحقيقة، وإن أقام بالامتثال وتبرأ من الحول والقوة فقد جمع بينهما.**وأما الثواب والعقاب** فإن الله تعالى تفضل بالإثابة مثلا على الأعمال، فمن لم يعتبر ذلك وأسقطه رأسا فقد ضيع الشريعة؛ لأنها جاءت به، ومن أوجبه على الله -تعالى عن ذلك علوا كبيرا- فقد ضيع الحقيقة.

وأما الأسباب مثلا فمن لم يجعل لها اعتبارا أصلا، وأبطلها رأسا فقد ضيع الشريعة؛ لأن الشرع أذن فيها. ومن نسب إليها أثرا فيما يقع من المنافع عندها فقد ضيع الحقيقة؛ لأن التأثير كله لله تعالى. **قاله سيدي الحسن اليوسي**[3].

تنبيه: ما قدمناه من تقديم الفقه على التصوف إنما هو قدر الكفاية منه، وأما بعد تحصيل قدر الكفاية من الفقه وهو فرض العين الذي لا بد منه فليكن الاهتمام بعلم التصوف

([1]) انظر الرسالة القشيرية: (82).

([2]) هو أبو بكر نصر بن أحمد الدقاق الكبير رضي الله عنه، كان من أقران الجنيد ومن كبار مشائخ مصر. انظر طبقات الشعراني: (89/1) و لم يذكر تاريخ وفاته.

([3]) هو الحسن بن مسعود بن محمد أبو علي اليوسي، فقيه مالكي أديب ينعت بغزالي مذهبه، تعلم بالزاوية الدلائية، تنقل في الأمصار المغربية والأندلسية وأخذ عن علمائها، وسيرته لا تسعها الهوامش. انظر شجرة النور الزكية: (328).

أشد من الاهتمام بعلم الفقه حتى يصلح قلبه لتكون أفعاله بعد ذلك صالحة مقبولة لأن إصلاح الظاهر تبع لإصلاح الباطن، فلا منافاة بين تقدمة الفقه وبين كون الظاهر تبعا للباطن، والله أعلم. فافهم!.

العلم والعبادة هما سببا السعادة

(وَاعْلَمْ) أيضا (أَنَّ الْعِلْمَ وَالْعِبَادَةَ) **قال سيدي زروق:** العبادة: إقامة ما طلب شرعا من الأعمال الخارجة عن العادة والداخلة؛ سواءً كان رخصة أو عزيمة، إذْ أَمْرُ الله فيهما واحد. فليس الوضوء بأولى من التيمم في محله، ولا الصوم بأولى من الإفطار في محله، ولا الإكمال بأولى من القصر في موضعه. **وعليه يتنزل حديث:** «إن الله يحب أن تؤتى رُخَصُهُ كما يكره أن تترك عزائمه[1]». لا على الرخصة المختلف في حكمها، إذ الورع مطلوب في كل مشكوك الحكم، بخلاف المحقّق، فإن تركه تَنَطُّعٌ، وعلى هذا الأخير يتنزل كلام القوم في ذم الرُّخَصِ، والتأويلات. اهـ[2]. (هُمَا سَبَبَا السَّعَادَةِ) وإذا كانا بهذه المترلة من الخير فلا تشتغل عنهما بما يفارقك قبل الموت، فكل شيء يفارقك بالموت إلا العلم والعمل به، فإن الموت لا يهدم محل العلم أصلا.

قال الإمام السبكي[3]: مجامع السعادة سبعة أشياء: الدين والعقل والعلم والأدب وحسن السمت والتودُّدُ للناس ورفع الكلفة عنهم.

---

(1) أخرجه الطبراني فى الكبير (153/8 ، رقم 7661) . وأخرجه أيضًا : فى الأوسط (155/5 ، رقم 4927) . قال الهيثمى (163/3) : فيه عبد الله بن يزيد ضعفه أحمد وغيره.

(2) انظر قواعد التصوف ص(69). القاعدة رقم90).

(3) هو أبو الحسن تقي الدين علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام السبكي الأنصاري الخزرجي شيخ الإسلام في عصره الحافظ المفسر الأصولي، النحوي اللغوي المقرئ، البياني الجدلي المجتهد، ولد بسبك سنة: 683هـ، وقدم القاهرة وأخذ العلم عن مشاهير علمائها كالتقي الصائغ والعلم العراقي وشرف الدين الدمياطي وأبي حيان، وصحب في التصوف ابن عطاء الله وأجاز له الرشيد بن أبي القاسم وغيره، وتخرج به خلق كثير منهم: الأسنوي وأبو البقاء وابن النقيب، من مؤلفاته: تفسير القرآن- الابتهاج في شرح المنهاج- كتب مشهورة في النحو. توفي سنة: 756هـ (طبقات المفسرين للداودي ج1 ص: 416، طبقات المفسرين للسيوطي: 257، شذرات الذهب ج6 ص: 180).

قال المناوي: الدنيا باطن الآخرة، فإذا أقيم العبد فيها في مقام خير أو شر علم منه مقامه في الآخرة كما يدل له حديث: «أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة» فلا تحصد في الآخرة إلا ما تزرعه هنا ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾[1].

وفي الحديث: «من أحب — وفي رواية: من أراد، وفي أخرى: من سره — أن يعلم مترلته عند الله فلينظر ما لله عنده[2]». **انتهى.**

وقال الغزالي: ارتباط سعادة الآخرة ودركاها بالحسنات والسيئات بحكم تقدير مسبب الأسباب كارتباط المرض والصحة بتناول الأغذية والأدوية، وارتباط حصول فقه النفس الذي به تستحق المناصب العلية في الدنيا بترك الكسل، والمواظبة على تفقيه النفس. **إلى أن قال:** فطلب السعادة بالطاعات كطلب العلم بالجد والتكرار، وطلب المال بالتجارة وركوب البحار، وطلبها بمجرد الرجاء مع خراب الأعمال، كطلب الكنوز في المواضع الخربة، وطلب العلوم من تعليم الملائكة. وليتَ من اجْتَهَدَ تَعَلَّمَ، وَلَيْتَ مَنْ اتَّجَرَ اسْتَغْنَى، وَلَيْتَ مَنْ صَامَ وَصَلَّى غُفِرَ لَهُ، فالناس كلهم محرومون إلا العالمون، والعالمون كلهم محرومون إلا العاملون، والعاملون كلهم محرومون إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم. وكما أن من خرب بيته وضيع ماله وترك نفسه وعياله جياعا يزعم أنه ينتظر فضل الله بأن يرزقه كترا يجده تحت الأرض في بيته الخرب، يعدُّ عند ذوى البصائر من الحمقى والمغرورين، وإن كان ما ينتظره غير مستحيل في قدرة الله تعالى وفضله. فكذلك من ينتظر المغفرة والسعادة من فضل الله تعالى وهو مقصر عن الطاعة ومصر على الذنوب من غير سلوك طريق المغفرة والسعادة معدود عند أرباب القلوب من المعتوهين[3].

([1]) النجم: (39).

([2]) أخرجه عبد بن حميد (ص 333 ، رقم 1107) ، والحكيم (126/2) ، والحاكم (671/1 رقم 1820) وقال : صحيح الإسناد.

([3]) انظر إحياء علوم الدين للغزالي ومعه تخريج الحافظ: (353/5)

الاجتهاد في أعمال العبادة وروايات بعض الصالحين في ذلك

فإذا كان العلم والعمل بهذه المنزلة من الخير من كونهما سَبَبَيْ السعادة، والسعادة هي المطلوبة لذاتها رزقنا الله إياها بمنه (فَاجْتَهِدْ) في الإكثار (فِي فِعْلِهِمَا) أي العلم والعمل. **قالوا:** من ظن أنه بغير بذل الجهد في الطاعات يبلغ شيئا من الدرجات، فقد رام المحال. **وقالوا:** لا تخرق للعبد العادات، إلا إن زاد على الناس في الطاعات، في العبادات.

فقد كان داوود الطائي[1] يواصل العبادة ليلا ونهارا حتى أنه لم يبق له وقت يأكل فيه ولا يشرب، وكان يأكل السويق والفتيت دون الخبز، ويقول: بين مضغ اللقمة وبلعها قراءة خمسين آية. وقال له رجل: إن في سقف بيتك جذعا مكسورا، فقال: يا ابن أخي إن لي في البيت منذ عشرين سنة ما نظرت إلى السقف.

وقد بلغ صفوان بن سُليم[2] من الاجتهاد ما لو قيل له: إن القيامة تقوم غدا ما وجد مستزادا.

وكانت رابعة العدوية[3] إذا صلت العتمة قامت على سطح لها وشدت عليها درعها ثم تقبل على صلاتها إلى الفجر ثم تقول: اللهم اغفر لي سوء أدبي في صلاتي.

وقيل: إن عامر بن عبد قيس[1] **كان يقول:** والله لأجتهدن، فإن نجوت فبرحمة الله، وإن هلكت فبعد جهد.

([1]) هو داود بن نصير الطائي، أبو سليمان: من أئمة المتصوفين. كان في أيام المهدي العباسي. أصله من خراسان، ومولده بالكوفة. رحل إلى بغداد، فأخذ عن أبي حنيفة وغيره، وعاد إلى الكوفة، فاعتزل الناس، ولزم العبادة إلى أن مات فيها. قال أحد معاصريه: لو كان داود في الامم الماضية لقص الله تعالى شيئا من خبره. وله أخبار مع أمراء عصره وعلمائه. انظر وفيات الاعيان: (177/1).

([2]) صفوان بن سليم، أبو الحارث، ويقال أبو عبد الله، المدني الفقيه، مولى حميد بن عبد الرحمن بن عوف؛ روى عن ابن عمر وجابر وأنس وعبد الله ابن جعفر وأبي أمامة بن سهل بن حنيف وابن المسيب وسالم وعروة وسليمان وغيرهم، وروى عنه ابن المنكدر وزيد بن أسلم وموسى بن عقبة ومالك والثوري وابن عيينة وغيرهم. وكان ثقة كثير الحديث، توفي سنة اثنتين وثلاثين ومائة.

([3]) هي رابعة بنت إسماعيل العدوية، أم الخير، مولاة آل عتيك، البصرية: صالحة مشهورة، من أهل البصرة، ومولدها بها.لها أخبار في العبادة والنسك، ولها شعر: من كلامها: (اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم) توفيت بالقدس، قال ابن خلكان: (وقبرها يزار، وهو بظاهر القدس من شرقيه، على رأس جبل يسمى الطور) وقال: (وفاتها سنة 135 كما في شذور العقود لابن الجوزي، وقال غيره سنة 185). انظر وفيات الأعيان: (182/1).

وكان مسروق[2] يصلي حتى انتفخت قدماه .

وكان أبو مسلم الخولاني[3] قد علق سوطا في مسجد بيته يخوف به نفسه، وكان يقول لنفسه: قومي فو الله لأزحَفَنَّ بكَ زحفا حتى يكون الكلُّ منك لاَمِنِّي فإذا دخلته الفترة تناول سوطه وضرب به ساقيه ويقول لنفسه: أنت أحق بالضرب من دابتي. وكان يقول: أيظن أصحاب محمد أنهم فازوا به دوننا، فو الله لنزاحمنهم عليه في القيامة حتى يعلموا أنهم خلفوا وراءهم رجالا. **قال الملالي**: اللهم ارض عنه ما كان أحسنه.

وكان ضيغم[4] قد تعبد قائما حتى أُقْعِدَ، ومُقْعَدًا حتى استلقى، ومستلقيا حتى أُفحم، ومات وهو ساجد. **وكان يقول في دعائه**: اللهم إني أحب لقاءك فأحبب لقائي.

وانصرف يوما سليمان بن القاسم[5] من صلاة العيد إلى المسجد وأحرم فيه فلما سجد فيه قال: يا رب إن الناس غدوا على زينتهم ولذاتهم، وجئت أنا إليك أسألك فكَاك رقبتي من النار. فلم يزل ساجدا إلى الظهر.

ووعظ بعضهم يوما فقال: يا معشر الشيوخ الزرع إذا طاب ما يُصنع به؟ فقالوا: يُحصد. فقال: يا معشر الشباب كم من زرع لم يبلغ، وأدركته الآفة.

---

(1) هو عامر بن عبد قيس بن قيس ويقال عامر بن عبد قيس بن ناشب بن أسامة بن حذيفة بن معاوية التميمي العنبري أبو عبد الله أو أبو عمرو النصري الزاهد المشهور.يقال أدرك الجاهلية حكاه أبو موسى في الذيل. وروى البخاري في تاريخه من طريق أبي كعب قال كان الحسن وابن سيرين يكرهان أن يقولا عامر بن عبد قيس ويقولان عامر بن عبد الله. انظر الاصابة: (356/2).

(2) هو مسروق بن الاجدع بن مالك الهمداني الوادعي، أبو عائشة: تابعي ثقة، من أهل اليمن. قدم المدينة في أيام أبي بكر. وسكن الكوفة. وشهد حروب علي. وكان أعلم بالفتيا من شريح، وشريح أبصر منه بالقضاء. انظر الاصابة: الترجمة(8408).

(3) هو عبد الله بن ثوب (بضم ففتح) الخولاني: تابعي، فقيه عابد زاهد، نعمة الذهبي بريحانة الشام. أصله من اليمن. أدرك الجاهلية، وأسلم قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ولم يره، فقدم المدينة في خلافة أبي بكر، وهاجر إلى الشام، وفي أكثر المصادر: وفاته بدمشق، وقبره بداريا. وكان يقال: أبو مسلم حكيم هذه الامة. انظر فوات الوفيات: (209/1).

(4) هو ضيغم بن مالك الزاهد العابد، أبو بكر الراسبي البصري؛ اخذ عن التابعين، وتوفي سنة إحدى وثمانين ومائة للهجرة، وروى عنه ابنه أبو غسان مالك وسيار بن حاتم وأبو أيوب مولى ضيغم بن مالك؛ قال عبد الرحمن بن مهدي: ما رأت عيناي مثل ضيغم. انظر الوافي بالوفيات: (262/5).

(5) لعله سليمان التيمي صلى الغداة بوضوء العتمة أربعين سنة، وكان يمشي حافيا وله هيبة على السوقة وغيرهم ويدخل على الأمراء يأمرهم وينهاهم رضي الله عنه. انظر الطبقات الكبرى للشعراني: (37/1).

وقيل لمسروق: متى يؤخذ الرجل بعلمه؟ فقال: إذا أتت عليه أربعون سنة، قال الله تعالى: ﴿أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير﴾ وهو الشيب عن بعض المفسرين. فينبغي لمن بلغ هذه المدة أن يشمر في طاعة الله.

وزار الربيع أويس القرني[1] فوجده يصلي فقال في نفسه: لا أقطع عليه أتركه حتى يفرغ من صلاته. فبقي ينتظر حتى أُذِّنَ للظهر، فصلى الظهر وبقي يتنفل حتى أذن للعصر، فصلى العصر ثم قعد يذكر حتى أذن للمغرب، فصلى المغرب ثم بقي يتنفل حتى أذن للعشاء، فصلى العشاء وبقي يتنفل حتى طلع الفجر فصلى الصبح ثم قعد يذكر حتى كان وقت الضحى الأول، فقام يصلي ثم قعد يذكر. والزائر في ذلك كله يقول في نفسه: لا أقطع عليه حتى يفرغ. فلما قعد يذكر الله وهو ينتظر الضحى الأعلى نعس وهو قاعد، ثم مسح النوم عن عينيه فقال: أعوذ بالله من عين لا تشبع من النوم. فقال الزائر في نفسه: لا يحل لي الكلام مع مثل هذا وتركه وانصرف.

وكان لمنصور بن عمار[2] جاريةٌ لها ابنة صغيرة تصعد بها كل ليلة بعد العتمة إلى سطح لها وتترلها سحرا، وكانت تنظر إلى منصور وهو قائم يصلي. فلما مات وصعدت المرأة وابنتها قالت: يا أماه ما فعل ذلك الجذع الذي كان على سطح منصور؟ قالت: يا بُنَيَّةُ ما كان جذعا إنما هو المنصور.

وقال عامر بن عبد قيس[3]: الدنيا أربعة أجزاء: المال والنساء فهذان لا حاجة لي بهما، والطعام والنوم وأيم الله لأصبرن عنهما ولأجعلن الهمَّ همًّا واحدا.

---

(1) هو أويس بن عامر بن جزء بن مالك القرني، من بني قرن بن ردمان بن ناجية ابن مراد: أحد النساك العباد المقدمين، من سادات التابعين. أصله من اليمن، يسكن القفار والرمال، وأدرك حياة النبي صلى الله عليه وسلم و لم يره، فوفد على عمر بن الخطاب ثم سكن الكوفة. وشهد وقعة صفين مع علي، ويرجح الكثيرون أنه قتل فيهاز توفي 37هـ. انظر طبقات ابن سعد: (111/6).

(2) هو منصور بن عمار الواعظ من أهل مرو، كان من أحسن الواعظين كبير الشأن في الورع والزهد، وكان يقول: سبحان من جعل قلوب العارفين أوعية للذكر وقلوب أهل الدنيا أوعية للطمع وقلوب الفقراء أوعية للقناعة. انظر طبقات الشعراني: (83/1).

(3) تقدمت ترجمته.

وكان كهمس بن الحسن[1] يصلي كل يوم ألف ركعة فلما ضعف اقتصر على نصف ذلك ثم يبكي ويقول: ذهب نصف عملي.

وقال ثابت البناني[2]: أدركت أقواما كان أحدهم يصلي حتى لا يأتي فراشه إلا حبوا.

وقال ابن هلال[3]: والله لا يشهد علي ليل بنوم، ولا نهار بأكل أبدا.

وقال جعفر بن محمد[4]: **كان عتبة الغلام** يصيح كل ليلة ثلاث صيحات؛ إذا صلى العتمة وضع رأسه بين ركبتيه مفكرا إلى ثلث الليل فيصيح صيحة، ثم يضع رأسه كذلك إلى ثلثيه فيصيح أخرى، ثم يضع رأسه كذلك إلى السحر فيصيح أخرى. **قال بعض الصالحين**: والله ما صاح إلا خوفا من النار.

وكانت رابعة[5] تصلي في اليوم والليلة ألف ركعة وتقول: ما أريد بها ثوابا ولكن لِيُسَرَّ رسول الله ﷺ ويقول للأنبياء: انظروا إلى امرأة من أمتي هذا عملها في اليوم والليلة.

وكان كرز بن وبرة[6] يختم القرآن في كل ليلة ثلاث مرات ويجاهد نفسه في العبادة غاية فيقال له: هلا رفقت؟ فقال: عمر الدنيا سبعة آلاف سنة ويوم القيامة خمسون ألف سنة، فكيف يعجز أحدكم أن يعمل سُبُعَ يوم حتى يامن ذلك اليوم. يعني أنك لو عشت

---

(1) هو كهمس بن الحسن التيمي الحنفي البصري العابد، أحد الثقات الأعلام. قال أحمد بن حنبل: ثقة وزيادة. وكان يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة باراً بأمه. قال يحيى بن كثير البصري: اشترى كهمس دقيقاً بدرهم فأكل منه، فلما طال عليه كاله فإذا هو كما وضعه. توفي سنة تسع وأربعين ومائة، وروى له الجماعة. انظر الوافي بالوفيات: (288/7).

(2) هو ثابت البناني بن أسلم أبو محمد البصري. روى عن أنس وعبد الله بن الزبير وأبي برزة الأسلمي وعمر بن أبي سلمة وغيرهم. وعنه حماد بن زيد وحماد بن سلمة وحميد الطويل وشعبة وكان محدثاً من الثقات المأمونين صحيح الحديث. قال أبو حاتم: أثبت أصحاب أنس الزهري ثم ثابت ثم قتادة وكان يقص. مات سنة سبع وعشرين ومائة عن ست وثمانين. انظر الوافي بالوفيات: (8/1).

(3) هو إبراهيم بن هلال بن علي، أبو إسحاق الصنهاجي نسبا الفلالي السجلماسي: فقيه من علماء المالكية. كان مفتي سجلماسة في المغرب الاقصى وعالمها. ووفاته بها. له كتب منها (النوازل – ط) جزآن، رتبه علي بن أحمد الجزولي، و (الدر النثير على أجوبة أبي الحسن الصغير – ط) و (الاجوبة – ط) فقه، و (شرح البخاري) أربعة أسفار، و (شرح مختصر خليل) انظر الاعلام: (78/1).

(4) تقدمت ترجمته.

(5) هي رابعة العدوية تقدمت ترجمتها.

(6) هو كرز بن وبرة الحارثي، أبو عبد الله: تابعي، من أهل الكوفة، يضرب به المثل في التعبد. دخل جرجان غازيا مع يزيد بن المهلب سنة 98 هـ. ثم سكنها وتوفي بها. انظر الاعلام: (221/5).

عمر الدنيا سبعة آلاف سنة وتخلصت من يوم كان مقداره خمسين ألف سنة كان ربحك كثيرا، وكيف وعمرك قصير والآخرة لا غاية لها.

وقال بعضهم: ما تأسفي على البقاء في الدنيا، ولكن تأسفي على ليلة نمتها ويوم أفطرته وساعة غفلت فيها عن ذكر الله.

وقال الجنيد: لولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا.

وقال بعض الصالحين: لي أربعون سنة ما غمني إلا طلوع الفجر.

وقيل ليزيد بن هارون[1]: كم تصلي بالليل؟ فقال: أو أنام منه شيئا؟ إذًا لا أنام الله لي عينا أبدا.

وروي عن مطرف بن عبد الله بن الشخير[2] **أنه قال:** لا يراني الله آكلا نهارا ولا نائما بالليل أبدا. قيل له: من يطيق هذا؟ قال: لأني جعلت طعام النهار إلى الليل ونوم الليل إلى النهار.

وقيل لعبد الله بن عامر[3]: كيف صبرك على سهر الليل وظمإ الهواجر؟ قال: هين لأني صرفت طعام النهار إلى الليل ونوم الليل إلى النهار.

---

(1) هو يزيد بن هارون الواسطي قال أحمد بن سنان: ما رأيت عالما قط أحسن صلاة منه، يقوم كأنه أسطوانة. وكان إذا صلى العشاء لا يزال قائما يصلي حتى الغداة نيفا وأربعين سنة، ذهبت إحدى عينيه بالبكاء وعمشت الأخرى. توفي 286هـ. انظر طبقات الشعراني: (649/1).

(2) هو مطرف بن عبد الله بن الشخير الحرشي العامري، أبو عبد الله: زاهد من كبار التابعين. له كلمات في الحكمة مأثورة، وأخبار. ثقة في ما رواه من الحديث. ولد في حياة النبي صلى الله عليه وسلم. ثم كانت إقامته ووفاته في البصرة. توفي 87هـ. انظر حلية الأولياء: (198/2).

(3) هو عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة الاموي، أبو عبد الرحمن: أمير، فاتح. ولد بمكة. وولي البصرة في أيام عثمان (سنه 29 ه) فوجه جيشا إلى سجستان فافتتحها صلحا، وافتتح الداور، وبلادا من دار ابجرد وهاجم مرو الروذ فافتتحها، وبلغ سرخس فانقادت له، وفتح أبرشهر عنوة، وطوس وطخارستان ونيسابور وأبيورد وبلخ والطالقان والفارياب. وافتتحت له رساتيق هراة وآمل وبست وكابل. كان شجاعا سخيا وصولا لقومه، رحيما، محبا للعمران، اشترى كثيرا من دور البصرة وهدمها فجعلها شارعا. وهو أول من اتخذ الحياض بعرفة (في الحجاز) وأجرى إليها العين، وسقى الناس الماء. توفي 625هـ. انظر الاعلام: (94/4).

وقال محمد بن عبد العزيز: جلسنا إلى أحمد بن رزين من الغدوة إلى العصر فما التفت يمنة ولا يسرة، فقيل له في ذلك. فقال: إن الله خلق العينين لينظر بهما العبد إلى عظمته تعالى. فكل من نظر بغير اعتبار كتبت عليه خطيئة.

وكان ثابت البناني يصلي كل يوم ثلاثمائة ركعة وصام ستين سنة، **وكان يقول في دعائه:** اللهم إن كنت قد أعطيت أحدا الصلاة في قبره فأعطني ذلك. **وذكر بعض أصحابه أنه قال:** رأيته في منامي وهو قائم يصلي في قبره.

وروي عن علي بن عبد الله[1] أنه يسجد في كل يوم ألف سجدة، وكانوا يسمونه: **السجاد.**

وقال أويس القرني: والله لأعبدن الله تعالى بعبادة الملائكة نهاره يقطعه صائما وليله يقطعه ساجدا. وكان يقول: هذه ليلة الركوع فيحيي الليلة كلها في ركعة، ويقول: هذه ليلة السجود فيحييها كلها في سجدة.

وقالت امرأة حسان: كان حسان إذا أوى إلى فراشه جعل يخادعني كما تخادع المرأة الصبي. فإذا نمت شد نفسه وقام إلى الصلاة فأقول: يا عبد الله أَرْفق بنفسك. فيقول: اسكتي ويحك، والله لأرقدن رقدة لا أقوم منها زمنا طويلا.

وكان الربيع بن خُثَيْم[2] لا ينام الليل ويبكي ليلا ونهارا لا يفتر من البكاء.

وكان السري يدافع البكاء أول الليل، فإذا نام الناس أخذ في البكاء إلى الصباح.

وكان بشر[1] لا ينام الليل ويقول: أخاف أن يأتيني أمره وأنا نائم.

---

(1) هو علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، أبو محمد: جد الخلفاء العباسيين. من أعيان التابعين. كان كثير العبادة والصلاة فغلب عليه لقب " السجاد " وكان من أجمل الناس وأوسمهم، عظيم الهيبة، جليل القدر. قيل للوليد بن عبد الملك: إنه يقول بأن الخلافة ستصير إلى أبنائه، فأمر به فضرب بالسياط وأهين. واعتقله هشام بن عبد الملك، في البلقاء فمات معتقلا 118هـ. انظر الوفيات: (323/1).

(2) هو الربيع بن خُثَيْم بضم المعجمة وفتح المثلثة، بن عائذ بن عبد الله الثوري، أبو يزيد الكوفي. ثقة، عابد، مخضرم، قال له ابن مسعود: لو رآك رسول الله ﷺ لأحبك. توفي سنة 61، أو 63هـ. انظر: تقريب التهذيب ص 146.

وقالت أم سليمان لسليمان عليه السلام: يا بني لا تكثر النوم بالليل فإن كثرة النوم بالليل تدع الرجل فقيرا يوم القيامة، يا بني من يرد الله به خيرا لا ينام بالليل، لأن من نام ليله ندم نهاره. **وأنشدوا:**

يَا أَيُّهَا الْغَافِلُ جِدَّ الرَّحِيلْ وَأَنْتَ فِي لَهْوٍ وَزَادٍ قَلِيلْ
لَوْ كُنْتَ تَدْرِي مَا تُلاَقِي غَدًا لَذُبْتَ مِنْ فَرْطِ الْبُكَا وَالْعَوِيلْ
فَأَخْلِصِ التَّوْبَةَ تُحْظَى بِهَا فَمَا بَقِي مِ الْعُمْرِ إِلاَّ الْقَلِيلْ
وَلاَ تَنَمْ إِنْ كُنْتَ ذَا غِبْطَةٍ فَإِنَّ قُدَّامَكَ نَوْمٌ طَوِيلْ

تنبيه: هذا كله من الإكثار من العمل وبذل غاية الجهد فيه إنما هو للأقوياء.

قال القرافي[2]: يكره الإكثار من العبادة على وجه يؤدي إلى الانقطاع **لحديث**: «إن الله لا يملُّ حتى تملوا[3]»، **وحديث**: «إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق ولا تُبَغِّضْ لنفسك عبادة الله[4]»، **وحديث**: «إن هذا الدين واصب وإن الحق ثقيل وإن الإنسان ضعيف، فليأخذ أحدكم من العمل ما يطيق، فإن العبد إذا كلف نفسه فوق طاقته خيف عليه أن يترك ذلك كله، وإذا أخذ بالتخفيف والرفق دام على عمله[5]».

قال ابن أبي الحواري[6]: قال لي أبو سليمان الداراني[1]: لا أعرف قيام الليل كله، ولكن أقوم أوله وآخره. **انتهى.**

([1]) هو بشر بن الحارث بن علي بن عبد الرحمن المروزي، أبو نصر، المعروف بالحافي: من كبار الصالحين. له في الزهد والورع أخبار، وهو من ثقات رجال الحديث، من أهل (مرو) سكن بغداد وتوفي بها. قال المأمون: لم يبق في هذه الكورة أحد يستحيى منه غير هذا الشيخ بشر بن الحارث. توفي 227هـ. انظر الوفيات: (90/1).

([2]) هو أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن الصنهاجي، مصري المولد والمنشإ والوفاة، الإمام الحافظ، أخذ عن ابن الحاجب والعز بن عبد السلام والفاكهاني والمقدسي أبوبكر، وتخرج به جمع من الفضلاء، من مؤلفاته: الذخيرة في فروع المالكية- الفروق- الإحكام في الفرق بين الفتاوى والأحكام. توفي سنة: 684 هـ(شجرة النور الزكية: 188، الديباج: 128، درة الحجال: 11).

([3]) أخرجه البخاري في صحيحه بلفظ: « مَهْ ، عَلَيْكُمْ بِمَا تُطِيقُونَ ، فَوَاللَّهِ لاَ يَمَلُّ اللَّهُ حَتَّى تَمَلُّوا » رقم (43).

([4]) أخرجه احمد في مسنده رقم: (13074).

([5])أخرجه أبو نعيم في الحلية: (20/9).

([6]) هو أبو الحسن أحمد بن أبي الحواري الدمشقي، صحب الداراني وسفيان بن عيينة وكان زاهدا من بيت علم وزهد وورع. توفي 230هـ. انظر طبقات الصوفية: (98). وطبقات الشعراني: (82/1).

فينبغي إذا للعبد أن يغتنم الإكثار من العبادة قبل أن تفوته لكن لا على وجه التشديد.

قال زروق: التشديد في العبادة منهيٌّ عنه، كالتراخي عنها. والتوسط: أخذ بالطرفين، فهو أحسن الأمور. **وفي الحديث:** «أما أنا فأقوم وأنام، وأصوم وأفطر[2]». وكان يقوم من الليل نصفه، وثلثه، إلى ثلثيه، وهو الوسط، باعتبار من يأتي على كله، أو لا يقوم منه إلا اليسير. وكذلك رد عبد الله بن عمر للوسط بصيام نصف الدهر وقيام نصف الليل، وختم القرآن في سبع، إلى غير ذلك، فلزم التوسط في كل مكتسب، لأنه أرفق بالنفس وأبقى للعبادة. **انتهى بخ**[3].

قال ابن عربي[4]: لا بد لكل داخل في الطريق من فترة، فإما أن يعقبها رجوع إلى العبادة والاجتهاد وهم أهل العناية الإلهية، وإما أن تصحبه الفترة فلا يفلح أبدا.

تصفية العمل من آفات والإخلاص فيه

(**وَ**) اجتهد أيضا بعد اجتهادك في إكثارهما (**فِي تَصْفِيَتِهِمَا**) من حين ابتدائهما إلى انتهائهما (**مِنَ الآفَاتِ**) المبطلة لهما؛ كالرياء. وبعد تمامهما من السمعة والعجب. وأما إن ابتدأ العمل لغير الله فسد اتفاقا، وإن ابتدأه لله وأحب بقلبه في أثنائه أن يحمد عليه. ولم يدفع ذلك بقلبه، فما بعد ذلك يبطل اتفاقا، وكذا ما قبله على المشهور. وقيل: يصح. وأما إن أبى ذلك بقلبه ودفعه فلا يبطل اتفاقا، لأن مجرد ميل الإنسان إلى أن يُطَّلَعَ على عمله ميل طبعي لا يضر. ولو بطل بذلك لكان فيه تكليف ما لا يطاق. وإنما عليه أن يدفعه بقلبه. (**وَصَحِّحْهُمَا بِالإِخْلاَصِ**) وهو إفراد المعبود بالعبادة (**وَالصِّدْقِ**) وهو الإخلاص والغيبة عنه.

---

(1) تقدمت ترجمته.

(2) أخرجه النسائي في سننه رقم: (2390).

(3) انظر قواعد الصوفية: (42) القاعدة: (95).

(4) تقدمت ترجمته.

قال الزناتي[1]: ليس شيء أعز من الإخلاص، فإن كل حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفوس وتميل إليه القلوب قل أو كثر. والإنسان منغمس في حظوظه وشهواته فلا ينفك عمله من حظوظ أو أغراض عاجلة. ولذلك قيل: من سلم له في عمُره خطوة واحدة خالصة لله تعالى فقد نجا. وما ذلك إلا لعزة الإخلاص؛ وهو تخليص العمل عن الشوائب كلها حتى يتجرد فيه قصد التقرب، فلا يكون فيه باعث سواه، وهذا لا يتصور إلا من محب لله مستغرق الهم للآخرة بحيث لم يبق لحب الدنيا في قلبه قرار.

قال المناوي في شرح الحكم: خطاب الله تعالى عام في جميع العباد إلا من استثناه الشرع. فالمؤمن يؤمر بالإخلاص الخالي من طَلَبِ الْعِوَضِ، والنبي يؤمر بإخلاص يدق عن عقولنا ذوقه لأن النبوة مبدؤها من بعد منتهى الولاية، فلا ذَوْقَ لِوَلِيٍّ في إخلاص نَبِيٍّ، وإن تكلم فيه بحسب الإرث فهو كمن يتكلم على خيال نجوم السماء في البحر. وأقل إخلاصهم ألا يشهدوا في الوجود أمرا لغير الله تعالى ويستصحبونه دائما، وهذا يكاد ألا يكون مقدورا للبشر. **انتهى**.

وقال بعضهم: الإخلاص قليل من العقاقير التي لا توضع على شي إلا عاد طيبا بعد ما كان خبيثا، لكن الإخلاص قليل يكاد أن يكون مفقودا بل يُخشى عليه أن يكون معدوما.

وقيل: أقل ما أنزل الله من السماء إلى الأرض الإخلاصُ، وهو سرٌّ من أسرار الله تعالى استودعه قلبَ من سبقت له خصوصية وعناية. فالصدق أصل والإخلاص فرعه. فعلى قدر صدق العبد يكون إخلاصه، فكل عمل لم يمازجه الإخلاص فهو مردود على عامله، بل النار أولى به كما قيل: إن الله تعالى يجمع الأعمال يوم القيامة صافيها وكدرها وخالصها، فيقول الله تعالى: خذوا ما كان لنا وألقوا سائر ما سوى ذلك في النار، فما

---

[1] هو أبو عبد الله محمد بن عطية الزناتي الإمام الصوفي الكبير. أخذ عن عدة شيوخ منهم محمد الملالي والقصار وفي الطريق الصوفي علي بن محمد الحارثي وأخذ عه كثير من الأجلاء. توفي 1015هـ. انظر شجرة النور الزكية: (307).

لقي أحد صعوبة في طلب ضالة أصعب مما لقي العاملون في طلب الإخلاص، ولو كان الإخلاص رجلا ما عرفه أحد إلا صنف قليل من العابدين.

قيل: المخلص: قرع باب الخصوصية، وأقدامه ترقى مدارج العناية، وقدره مرفوع عند الله، وإن رأته الأبصار خفي. فما أكرم الله تعالى عبدا في الدنيا بالإخلاص حتى جعل له جاها في الآخرة. جعلنا الله وإياكم ممن جعل له جاها في الآخرة، وجعل الإخلاص في قلبه وقذف بنور اليقين في صدره وثبته عند السؤال في قبره وبعثه آمنا في حشره. آمين يا رب العالمين.

تصحيح العمل باتباع السنة

(وَ) صححهما أيضا (بِاتِّبَاعِ السُّنَّةِ) وهي ما عليه النبي ﷺ والصحابة والسلف الصالح بعدهم لقوله تعالى: ﴿وما آتيكم الرسول فخذوه وما نهيكم عنه فانتهوا﴾[1]. **وللحديث**: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين[2]». **وفي الحديث**: «المتمسك بسنتي عند فساد أمتي له أجر مائة شهيد[3]».

وقال مالك: كل بناء بُنِيَ على أساس معوجٍّ لم يستقر بناؤه. **ابن رشد**[4]: فمن قاس على أصل فاسد لم يقم قياسه، ومن عمل على غير سُنَّةٍ لم ينفعه عمله. ومن نظر إلى اعتقادٍ غير صحيح لم ينفعه نظره. فثبت بذلك أن العمل يجب أن يكون معروضا على السنة فما وافقها فهو المطلوب وما خالفها لم يُلْتَفَتْ إليه، وكان معصية أو قريبا منها غير مقبول. وإن اعتقد قربته وصحت نيته.

وقال سيدي زروق: الأجر على قدر الاتِّبَاعِ، لا على قدر المشقة لفضل الإيمان والمعرفة والذكر والتلاوة على ما هو أشق منها بكثير من الحركات الجسمانية. **وقوله عليه الصلاة والسلام**: «أجرك على قدر نصبك[5]» إِخْبَارٌ خَاصٌّ في خاصٍّ لا يلزم عمومه. سيما وما خير في أمرين إلا اختار أيسرهما **مع قوله**: «أنا أعلمكم بالله وأتقاكم لله

([1]) الحشر (7).

([2]) أخرجه أحمد 126/4(17275) . وأبو داود (4607).

([3]) أخرجه أبو نعيم في " الحلية " (8 / 200) من طريق الطبراني و هذا في " الأوسط " (2 / 31 / 5746)

([4]) هو محمد بن أحمد ابن رشد، أبو الوليد: قاضي الجماعة بقرطبة. من أعيان المالكية. وهو جد ابن رشد الفيلسوف. له تآليف، منها " المقدمات الممهدات - ط " في الاحكام الشرعية، و " البيان والتحصيل - خ " فقه، و " مختصر شرح معاني الآثار للطحاوي - خ " و " الفتاوي - خ " و " اختصار المبسوطة " و " المسائل - خ " مجموعة من فتاويه، في معهد المخطوطات. مولده ووفاته بقرطبة. توفي 520هـ. انظر قضاة الأندلس: (98).

([5]) هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وله شاهد صحيح. انظر المستدرك على الصحيحين للحاكم: رقم(1687).

أنا[1]». وكذا جاء: «خير دينكم أيسره[2]» إلى غير ذلك، انتهى[3].

وقال الصديق ﷺ: لست تاركا شيئا كان رسول الله ﷺ يعمل به إلا عملته، إني أخشى إن تركت شيئا من أمره أن أزيغ.

وقال رجل لابن عمر[4]: إنا نجد صلاة الخوف وصلاة السفر في القرآن ولا نجد صلاة الاستسقاء؟ فقال ابن عمر: يا ابن أخي إن الله بعث إلينا محمدا ولا نعلم شيئا فإنا نفعل كما رأيناه يفعل.

وقال أبـي بن كعب[5]: عليكم بالسبيل والسنة، فإنه ما على وجه الأرض من عبد على السبيل والسنة ذكر الله ففاضت عيناه من خشية ربه فيعذبه الله أبدا، ومـا علـى الأرض من عبد على السبيل والسنة ذكر الله في نفسه فاقشعر جلده من خشـية الله إلا كان مَثَلُهُ كمثل شجرة قد يبس ورقها فهي كذلك إذا أصابتها ريح شديدة فتَحاتَّ عنها ورقها إلا حط الله عنه خطاياه كما تحاتَّ عن الشجرة ورقها، فإن اقتصادا في سبيل الله وسنته خير من اجتهاد في خلاف سبيل الله وسنة[6].

وصلى عمر ﷺ بذي الْحُلَيْفَةِ ركعتين فقال: أصنع كما رأيت رسول الله ﷺ يصنع.

([1]) أخرجه أحمد (122/6). رقم: (24364).

([2]) أخرجه ابن عبد البر من حديث أنس بسند ضعيف والشطر الأول عند أحمد من حديث محجن بن الأدرع بإسناد جيد والشطر الثاني عند الطبراني من حديث ابن عمر بسند ضعيف. انظر تخريج أحاديث الإحياء: (رقم16).

([3]) انظر القواعد: (70) القاعدة: 92.

([4]) عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوي، أبو عبد الرحمن: صحابي، من أعز بيوتات قريش في الجاهلية. كان جريئا جهيرا. نشأ في الاسلام، وهاجر إلى المدينة مع أبيه، وشهد فتح مكة. ومولده ووفاته فيها. أفتى الناس في الإسلام ستين سنة. ولما قتل عثمان عرض عليه نفر أن يبايعوه بالخلافة فأبى. وغزا إفريقية مرتين: الاولى مع ابن أبي سرح، والثانية مع معاوية بن حديج سنة 34 هـ وكف بصره في آخر حياته. وهو آخر من توفي بمكة من الصحابة. له في كتب الحديث 2630 حديثا. توفي 73هـ. انظر الاصابة: (الترجمة 4825).

([5]) هو أبي بن كعب بن قيس بن عبيد، من بني النجار، من الخزرج، أبو المنذر: صح أبي أنصاري. كان قبل الإسلام حبرا من أحبار اليهود، مطلعا على الكتب القديمة، يكتب ويقرأ – على قلة العارفين بالكتابة في عصره – ولما أسلم كان من كتاب الوحي. وشهد بدرا واحدا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يفتي على عهده. وشهد مع عمر بن الخطاب وقعة الجابية، وكتب كتاب الصلح لاهل بيت المقدس. وأمره عثمان بجمع القرآن، فاشترك في جمعه. وله في الصحيحين وغيرهما 164 حديثا. وفي الحديث: أقرأ امتي أبي بن كعب. توفي 21هـ. انظر الإصابة: (19/1).

([6]) انظر تفسير الثعالبي: (32/2).

وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز[1] إليه بحال بلده وكثرة لصوصه، هل يأخذهم بالظنة ـــ أي التهمة ـــ أو يحملهم على البينة وما جرت عليه السنة؟ **فكتب إليه عمر**: خذهم بالبينة وما جرت عليه السنة فإن لم يصلحهم الحق فلا أصلحهم الله.

وقال عمر ـــ ونظر إلى الحجر الأسود ـــ: إنك حجر لا تنفع ولا تضر، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك ثم قبله[2].

وريئ ابن عمر يدير ناقته في مكان فسئل؟ فقال: لا أدري إلا أني رأيت رسول الله ﷺ فعله ففعلته.

وقال أبو عثمان الحيري[3]: من أَمَّرَ السنةَ على نفسه قولا وفعلا نطق بالحكمة، ومن أمر الهوى على نفسه نطق بالبدعة[4].

قال ابن أبي جمرة[5]: من علامة سعادة الشخص أن يكون معتنيا بمعرفة السنة في جميع تصرفاته، والذي يكون كذلك هو دائم في عبادة ربه في كل حركاته وسكناته. وهذا هو طريق أهل الفضل، **حتى حكي عن بعضهم** أنه لم يأكل البطيخ سنين لما لم يبلغه كيفية السنة في أكله. **وقد اتفق أهل الظاهر والباطن على أن كل حقيقة غير مؤيدة بالسنة فهي باطلة.**

---

(1) هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي القرشي، أبو حفص: الخليفة الصالح، والملك العادل، وربما قيل له خامس الخلفاء الراشدين تشبيها له بهم. وهو من ملوك الدولة المروانية الأموية بالشام. ولد ونشأ بالمدينة، وولي إمارتها للوليد. ثم استوزره سليمان ابن عبد الملك بالشام. وولي الخلافة بعهد من سليمان سنة 99 هـ فبويع في مسجد دمشق. وأخباره كثيرة جدا لا تسعها الهوامش. توفي 101هـ. انظر فوات الوفيات: (105/2).

(2) أخرجه البخاري في صحيحه رقم: (1597).

(3) هو أحمد بن حمدان بن علي، أبو جعفر الحيري: حافظ، من أهل نيسابور، نسبته إلى الحيرة (محلة بنيسابور).له (صحيح) في الحديث، على شرط مسلم.وكان زاهدا قدوة، يكاتبه الجنيد. انظر شذرات الذهب: (261/2).

(4) انظر الكشف والبيان للثعلبي: (393/4). وفيه: سمعت أبا عثمان سعيد بن إسماعيل الجيزي يقول:....إلخ.

(5) تقدمت ترجمته.

ميزان صحة العمل

ولما كان العلم والعمل معرضين للصحة والاعتلالْ ولصحتهما واعتلالهما ميزانـــان يعرفان هما أشار للأول بقوله، **(وَلاَزِمْ مِنهُمَا)** أي من العلم والعمل إذا التبس عليــك أمران منهما وكانت نفسك غير مطمئنة. **(ما ثَقُلَ عَلَى نَفْسِكَ)** من جهة الطبع لا مــن جهة الحقيقة أو المعنى. وعلامة مَا من الطبع العجلة، والأمن وعمى العاقبة، فإذا توجهت لشيء لا تعرف له مادة في الأحكام ترجح تركه على فعله، فإن كان مع أمن لا خوف ومع عجلة لا تأن ومع عمى العاقبة لا بصيرتها؛ فخفتُهُ على النفس من هواها، فاتبع مــا يثقلُ عليها إذ لا يثقل عليها إلا ما كان خيرا، وما مالت إليه منهما وخف عليها فاتركه لاعتلاله، **كما يأتي إن شاء الله تعالى.** لأن الغالب على النفس في حال الصحة كره الحق.

زروق: وذلك لا يكون إلا في المتساويين كمندوبين أو واجبين أو مباحين أو مكروهين لا أرجحية لأحدهما عن الآخر بنص الشارع، ولا ما يرجع إليه. **فمثال الواجبين:** أمــر الوالدين بمتناقضين على السواء، بحيث يعلم غضب كل واحد عند مخالفة أمره وتضرره في نفسه. **ومثال المندوبين:** كصلاة النافلة أو حضور الجنازة، ولذلك اختلف العلمــاء فيهما. **كذا مثل لهما سيدي زروق.**

ومثل لهما المناوي بحضور جنازتين متساويتين. **ومثال المباحين:** كرد هدية من لا يــتغير بردها تعففا أو قبولها موافقة لغير وارد ولا عارض حكمي. **ومثال المكروهين:** الأخــذ بأسباب الخمول فرارا من المترلة في قلوب الخلق، أو ترك ذلك مع حبها دون تحامل على تحققها. وعند ترجيح الشرع للضرائر يرجح الأخف مفسدة؛ فإن استويا فللعلماء فيــه خلاف مذكور في كتب الفقه. **انتهى.**

وقال أيضا في قواعد الصوفية: المقصود موافقة الحق وإن كان موافقا للهوى، **حتى قال عمر بن عبد العزيز ﷺ:** "إذا وافق الحق الهوى، فذلك الشهد بالزبد". وقد أغرق قوم

في مخالفة النفس، حتى خالفوا الحق في طي ذلك. ومنه استذالهم في الواجب والضروري الذي لا يمكن انفكاكه، وتركهم جملة من السنن، لإلفها مع ترك ما ألفوا منها. وهذا وإن كان مؤثرا في النفس، فهو مثيرٌ للباطل وسائِرٌ بصاحبه لعكس القصد، نسأل الله العافية[1].

تنبيه: ما تقدم في غير النفس المطمئنة كما قيدنا وهي التي غالبُ تصرُّفها بالهوى والشهوة وجري العادة. وأما المطمئنة التي ارتاضت حتى صار الحق إلفا لها فلا تقبل غيره، فإنه لا يثقل عليها العمل ولا يكون ذلك دليلا على اعتلاله، بل حلاوة الطاعة لصاحبها دليل على وجود قبول عمله. **كما في الحكم.**

قال المناوي: هذه الحلاوة من أهل الله من يجدها في البداية والنهاية، وهم أهل العناية، ومنهم من لا يجدها إلا بعد مرارة المجاهدة والمكابدة. **قال الحسن:** تفقدوا الحلاوة في ثلاث: فإن وجدتموها فابشروا وامضوا لقصدكم وإلا فاعلموا أن الباب مغلق: عند تلاوة القرآن وعند الذكر وفي السجود. **وزاد غيره:** وبالأسحار[2]. **قال أبو مدين:** من ذاقَ حلاوة المناجات زال عنه النوم، واحذر أن يكون سهرك للالتذاذ بها فتحرم من المشاهدة. **انتهى.**

ثم أشار إلى الميزان الثاني بقوله: وإذا التبس عليك أمر من علم أو عمل لا تدري هل يرضي الله فعله أو تركه؟ أو حالة أنت بها لا تدري هل قمت فيها بحق أو قمت فيها بهوى؟. فقدر نزول الموت بك على ما أنت فيه من علوم وأفعال وأحوال. (**وَ**) لازم منها (**مَا**) أي كل علم وعمل وحال (**تَثْبُتُ عَلَيْهِ**) ويسرك أن تكون مشغولا به إذ ذاك (**لَوْ جَاءَكَ الْمَوْتُ**) أي عند تقدير نزول الموت بك فلازم ذلك واشتغل به إذ ما كنت فيه قائما بحق لم يهزمه الموت إذ هو حق والموت حق والحق لا يهزمه الحق. والذي يقرأ العلم لله هو الذي إذا قلت له غدا تموت لا يضع الكتاب بين يديه.

([1]) انظر قواعد التصوف ص(70). القاعدة رقم: 91.

([2]) انظر تفسير حقي: (176/2).

ابن عباد: لأن العبد في هذه الحالة لا يصدر منه إلا العمل الخالص من الشوائب وممازجة حظ النفس واتباع الهوى. وهذا معنى قصر الأمل، وهذا لا يقدر لنفسه وقتا ثانيا يكون فيه حيا. وأما كل علم وعمل وحالة هزمها الموت فهي باطل، إذ الموت حق والحق يهزم الباطل ويدمغه **لقوله تعالى**: ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه[1]..﴾الآية. ﴿قل إن ربي يقذف بالحق علام الغيوب﴾[2]، ﴿قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد﴾[3]، ﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا﴾[4]، فليتحقق العبد بهذا، وهو أن لايقدر لنفسه وقتا ثانيا يكون فيه حيا ليخلص عمله من الآفات، لأن توقع الموت في كل نفس يهزم عنه جميع ذلك. ومن غفل عن هذه لا يسلم من الآفات. فإذا بعيد من الإخلاص من يأخذ في علم تعلما أو تعليما غير متعين عليه الأخذ فيه لا يجتني ثمرته إلا في ثاني حال ويكون في حالته الراهنة متمكنا من إيقاع طاعة تزيد مصلحتُها على مصلحة ما أخذ فيه من العلم يفوز بثوابها لأن في ذلك قوة نفسه ووفارة حظه. وآية ذلك أنه قد يعرض له في حال أخذه فيه غرض دنيوي فيقدمه على ما كان آخذا فيه من غير مبالاة بما يفوته من ذلك.

تنبيه: هذان الميزانان إنما هما في أمرين متساويين التبسا عليك. وأما الأمر الواحد فإن تحققت وجوبه فافعله فإنه خير ولا يأتي عنه إلا الخير. أو تحققت تحريمه فاتركه فإنه شرٌّ ولا يأتي عنه إلا الشر. فهذان النوعان ما تعلم فيهما كثير. فإذا اشتغلت بإصلاحهما ونصحت فيهما كثر قولك قولا وفعلا، وملأت بلادك إحسانا وعدلا. وأما إن شككت في حكمه وخفت من إثمه فعليك بالاحتياط الصارف عن الشبهات. فإن الجنة حفت بالمكاره. فاقطع الشك باليقين واحتط لدينك أكثر مما تحتاط لدنياك. مثال ذلك: إذا شككت في وجوبه وإباحته فافعله، أو في تحريمه وإباحته فاتركه. أو في تحريمه ووجوبه

([1]) الأنبياء: (18).

([2]) سبا (48).

([3]) سبا: (49).

([4]) الاسراء: (81).

فاتركه أيضا لأن الحرام من باب المفاسد، والواجبَ من باب المصالح. ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح. **فعليك بهذه القاعدة فإنها نافعة لكل من ليس بعالم، ولم يجد عالما تقيا حاضرا. ثم قال:** (وَاحْتَمِلْ مَشَقَّتَهُمَا) أي العلم والعمل واصبر عليهما صبر المريض على مرارة الدواء انتظارا للشفاء. وتأمل كيف تتحمل المشقة والذل في الدنيا شهرا أو سنة رجاء أن تستريح بها عشرين سنة. فكيف لا تتحمل ذلك. وذو الحزم لا يثقل عليه أن يُجَوِّعَ نفسه لوليمة العرس لعلمه بأن اللذة على قدر الجوع. **وأنشد أبو عمر بن عبد البر[1]:**

إذا المرءُ أحمى نَفسَهُ كلَّ شَهوَةٍ   لِصِحَّةِ أيَّامٍ تَبيدُ وتَنفَدُ
فما بالُهُ لا يَحتَمي عَن حَرامِها   لِصِحَّةِ ما يَبقى لَهُ وَيُخَلَّدُ

قال الثعالبي[2]: ولو قال: من حلالها لكان أبدع، إذ تركه للحرام من باب أحرى. **(زَمَنًا قَلِيلاً)** وهو أمد الحياة الذي هو كاللحظة بالنسبة إلى أمد الآخرة.

ولأبي الوليد الباجي[3]:

([1])هو يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي المالكي، أبو عمر: من كبار حفاظ الحديث، مؤرخ، أديب، بحاثة. يقال له حافظ المغرب. ولد بقرطبة. ورحل رحلات طويلة في غربي الأندلس وشرقيها. وولي قضاء لشبونة وشنترين. وتوفي بشاطبة. من كتبه " الدرر في اختصار المغازي والسير – ط " و " العقل والعقلاء " و " الاستيعاب – ط " مجلدان، في تراجم الصحابة، و " جامع بيان العلم وفضله – ط " و " المدخل " في القرآت، و " بهجة المجالس وأنس المجالس – خ " في المحاضرات، أربعة أجزاء، طبعت قطعة منه، واختصره ابن ليون وسماه " بغية المؤانس من بهجة المجالس – خ " إلى غيرها. توفي 463هـ. انظر الوفيات: (348/2).

([2]) هو عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي الجزائري، أبو زيد: مفسر، من أعيان الجزائر، زار تونس والمشرق. من كتبه (الجواهر الحسان في تفسير القرآن – ط) أربعة مجلدات، و (الانوار) في المعجزات النبوية، و (روضة الانوار ونزهة الاخيار) مجموع، و (جامع الامهات في أحكام العبادات) و (الذهب الابريز في غريب القرآن العزيز) و (الارشاد في مصالح العباد) و (رياض الصالحين). توفي 875هـ. انظر الاعلام: (331/3).

([3]) هو سليمان بن خلف بن سعد التجيبي القرطبي، أبو الوليد الباجي: فقيه مالكي كبير، من رجال الحديث. أصله من بطليوس ومولده في باجة بالاندلس. رحل إلى الحجاز سنة 426 هـ، فمكث ثلاثة أعوام. وأقام ببغداد ثلاثة أعوام، وبالموصل عاما، وفي دمشق وحلب مدة. وعاد إلى الاندلس، فولي القضاء في بعض أنحائها. وتوفي بالمرية من كتبه (السراج في علم الحجاج) و (إحكام الفصول، في أحكام الاصول – خ) منه نسخة في مجلد ضخم، في خزانة القرويين بفاس، و (التسديد إلى معرفة التوحيد) و (اختلاف الموطآت) و (شرح فصول الاحكام، وبيان ما مضى به العمل من الفقهاء والحكام – خ) و (الحدود) و (الاشارة – خ) رسالة في أصول الفقه، و (فرق الفقهاء) و (المنتقى – ط) كبير، في شرح موطأ مالك و (شرح المدونة) و (التعديل والتجريح لمن روى عنه البخاري في الصحيح). توفي 474هـ، انظر الديباج: (120).

إِذَا كُنْتُ أَعْلَمُ عِلْمًا يَقِينَا بِأَنَّ جَمِيعَ حَيَاتِي كَسَاعَةْ
فَلِمْ لاَ أَكُونُ ضَنِينًا بِهَا وَأَجْعَلُهَا فِي صَلاَحٍ وَطَاعَةْ

(**لِتَسْلَمَ**) من العذاب الأليم (**وَتَتَنَعَّمَ**) بالنعيم المقيم (**دَهْرًا طَوِيلاً**) وهو أمد الآخرة الذي لا منتهى له، فكيف يَفتُرُ رأيُ العاقل في الصبر عن الشهوات مائة سنة مثلا لأجل سعادة تبقى أبد الآباد ولا نسبة لمدة العمر إلى أبد الآباد، إذ لو قدرنا الدنيا مملوءة بالذُّرَةِ، وقدَّرنا طائرا يلتقط في كل ألف ألف سنة حبة واحدة منها لفنيت الذرة و لم ينقص أبد الآباد. (**وَإِكْثَارُهُمَا**) أي العلم والعمل (**مَعَ الآفَاتِ**) المبطلة لهما كالرياء والسمعة والعجب وغيرها (**غُرُورٌ**) من الشيطان، أي لا يغتر بكثرة العلم والعمل مع الآفات فإنها لا تنفعك، بل تكون معاصي وكبائر، وكل عمل لا إخلاص فيه مردود على صاحبه مضروب به وجهه. **وبهذا يتبين لك غرور أكثر الخلق في علومهم وأعمالهم إلا من رحم الله تعالى. ولهذا نشاهد أكثر الناس عند نزول الموت هم يندمون على ما أسلفوه من عمل ويودون أن لو أُنْسِئَ لهم في الأجل.** فأهل البصائر اهتموا برعاية مفسدات العمل والتحفظ منها، و لم تغنهم كثرته بالظاهر. **وقالوا:** الشأن في الصفوة لا في الكثرة. **وقالوا:** جوهرة واحدة خير من ألف خرزة. وغيرهم جهلوا المعاني، وأغفلوا ما في القلوب من العيو،ب واشتغلوا بإتعاب النفس، والإمساك عن الأكل، فغرهم العدد والكثرة، و لم ينظروا ما فيها. وما يُغْنِي عددُ الجوْز ولا لب فيها. ولا ينفع رفع السُّقُفِ و لم تُحكم مبانيها، وما يعقل هذه الحقائقَ إلا العالمون.

والحاصل: أن من كانت همته كثرة الأعمال قبل أن يعرف مكائدَ النفسِ ويتطهر منها، كان فساده فيها أكثر من صلاحه. (**وَتَرْكُهُمَا**) أي العلم والعمل (**لِخَوْفِهَا**) أي الآفات غرور ومكيدة روَّجها الشيطان بلعنته على المغرورين. وخيل لهم أنهم أهل البصائر وأهل التفطن للخفايا والسرائر، فأي خير في عمل بلا إخلاص. وإن خطر العلم عظيم. فتركه أولى ولا تتركهما لها. فإن الغفلة في العمل خير من الغفلة عنه.

قال في الإحياء: وإياك أن تلمح في الطاعات مجرد الآفات فَتَفتُرَ رغبتُك عن العبادات فإن ذلك مكيدة روجها الشيطان[1].

قال القرافي: فإن قيل: إذا كان الغالب على الناس اليوم الرياء والمباهات وغيرهما، فالمعلم لهم معين لهم على هذه المعاصي، والإعانة على المعصية معصية، فيحرم التعليم حينئذ على الإطلاق نظرا للغالب على الناس؟

فالجواب: اضطربت فتاوى العلماء في هذا؛ فمنهم من حرم التعليم إلا فيمن غلب على الظن سلامته من هذه المعاصي. **ومنهم من قال:** لو اعتبرنا هذا أدى إلى حسم مادة العلم، وانقطاع الشرع، وفساد النظام، وإطفاء نور الحق، وإضلال الخلق، حتى تنطبق الأرض بالكفر، ومعلوم أن هذه المفاسد أعظم من الرياء الذي قد يقع في العلم وقد لا يقع. والعلم قربة محققة. **وأيضا؛** إن قطعنا بوقوعه في الجملة لكنا لا نعلم حال كل أحد على انفراده، فالله تعالى متولي السرائر. **انتهى.**

وقال الشعراني:كان سيدي علي الخواص يقول: ما من حامل علم إلا وهو يعمل به ولو في حق نفسه إذا ارتكب المعاصي، لأنه يتوب ويندم إذا وقع فيها. فلولا علمه ما اهتدى لكون ذلك ذنبا، ولا كان تاب منه. فقد عمل هذا بعلمه من هذه الحيثية وإن كان من ارتكب المعاصي لم يعمل بعلمه على مصطلح القوم فافهم. فالعلم نافع لصاحبه على كل حال. **ولم يزل علم كل إنسان أكثر من عمله في كل عصر. انتهى.**

وفي الحديث: «اطلعت ليلة المعراج على النار فرأيت أكثر أهلها الفقراء. قيل: يا رسول الله من المال؟ قال: لا من العلم[2]».

(أَوْ) تركهما (لِعَدَمِ الْحُضُورِ) غرور أيضا، ولكن لا شك أن الأفضل أن تستعمل مع فضلية الذكر فضلية التفهم؛ بأن تحضر قلبك مع كل ذكر من قراءة، أو تهليل، أو تحميد، أو تضرع، وكذلك ينبغي لمن يخاطب ربه في صلاة أو في غيرها أن يباشر المعني بقلبه،

([1]) انظر الاحياء ومعه تخريج الحافظ: (361/5).

([2]) أخرجه المناوي في فيض القدير: (433/2 رقم 2226).

كما يباشر اللفظ بلسانه، ويحرك قلبه بفهم الذكر، كما يحرك لسانه باللفظ. وإلا كان المغبون الخائب من أكثر الحظ، وأوفر الفضل. فإذا قال: لا إله إلا الله فليؤد المعنى بقلبه نافيا متبرئا عن كل ما قاله الملحدون في الربوبية من تشريك أو نِدٍّ أو صاحبة أو ولد. وإذا قال: سبحان الله فليود المعنى بقلبه نافيا متبرئا عن كل ما قال الملحدون وكفر به الكافرون **كما قال تعالى**: ﴿سبحان الله عما يصفون﴾[1]. وإذا قال: الحمد لله فليعتقد بقلبه أن الحمد لله خالصا وحده، وأن النِّعَمَ كلَّها مبتدَأَةٌ منه ليس للعبد فيها سبب.

وفي الحكم: لا تترك الذكرَ لعدم حضورك مع الله فيه[2]. أي لأنه بساط للحضور فيه بالتكرار، ولأن وجوده معين على صورته، فهو مُهَيِّأٌ لتيسير أمثاله، إذ يألف الحسن، فإذا آن وقت الحضور وجدت النفس مهيئةً له قبلُ. ومن ثم حصل الفتح في أقرب مدة لذوي البدايات المخدَّمة كابن أدهم ومن في معناه، إذ لم يكن في الخدمة كبير كلفة لا عتياد النفس به في محل آخر، فلم يحتاجوا لغير تحويل النية. **ولذا قيل**: وجود العمل مع الرياء خير من فقده لخوفه، ولأن الترك بالكلية غفلة بالكل، والحضور بالجارحة حضور بوجه ما، ولأن فيه اشتغال الجارحة عما لا يعني بما صورته تعني. وفيه تزيين الجارحة بالطاعة التي لا خَلَفَ لها منهَا، إن تركتها في حالة من الأحوال، والتعرض لنفحات الله، إذ الذي مَنَّ بالأوَّل هو الْمَنَّانُ بغيره، ولا يخيب عليه عمل عامل.

قيل لبعضهم: ما لنا نذكر باللسان والقلب غافل؟ فقال: اشكروا الله على ما وفق من شكر اللسان، ولو أجرى مكانه الغيبة ماذا كنت تصنع. والله أكرم من أن يحضر العبد بلسانه ثم لا يمن عليه بحضور قلبه.

وأيضا: إنما يثبت الأعمال والأحوال في القلوب وجود الذكر في القلوب واللسان والجوارح، فإن فاتك واحد فلا يفوتك اثنان، وإن فاتك اثنان فلا يفوتك الثالث، بل اذكر مولاك على كل حال. **قاله زروق. انتهى بخ.**

([1]) الصافات: (159).

([2]) انظر شرح الحكم للشرنوبي: (55/1).

(وَ) كذا (تَرْكُ التَّوْبَةِ لِخَوْفِ الْعَوْدِ) إلى الذنب وعدم الثبوت عليها (غُرُورٌ) من الشيطان وجهل، إذ لا يُتْرَكُ واجبٌ على الفور خوف أن يقع ما يقطعه، فلا يَمْنَعَنْكَ ذلك من التوبة، فإنك من التوبة مأبدًا بين إحدى الحسنيين: لأنك إن تمت توبتك فذلك. وإلا قد غفرت ذنوبك السالفة وليس عليك إلا الحادث. ثم عد إلى التوبة مبادرا، وقل لنفسك: لعلي أموت قبل أن أعود إلى الذنب هذه المرة. وكذا ثانيا وثالثا ورابعا، وكلما اتخذت الذنب والعود إلى الذنب حرفةً، فاتخذ التوبة والعود إليها حرفةً، ولا تكن في التوبة أعجز منك في الذنب.

وفي الحديث: «خياركم كل مُفَتَّنٍ تواب[1]» أي كثير الابتلاء بالذنب كثير التوبة منه.

وفيه أيضا: «لا بد للمؤمن من ذنب يأتيه الْفَيْنَةَ بَعْدَ الْفَيْنَةِ[2]» أي الحينَ بعد الحينِ.

فلا يمنعنك من التوبة عظم ذنوبك وكثرها وخوف العود إليها، بل بادر إلى التوبة لينقلك تعالى من نقص إلى كمال ومن قبيح إلى حسن، كما فعل بخلائق كانوا مثلك، فأنقذهم، وخصهم بعنايته، وأصلحَ أعمالَهم، وأحوالَهم، وبدل سيئاهم حسنات، ورفعهم إلى أعلى الدرجات؛ كابن أدهم[3] وعياض[4] وابن دينار[5] وبشر[6] وذي النون[7] والشبلي[1] وابن المبارك[2] نفعنا الله بهم.

([1]) أخرجه البيهقي في الشعب بسند ضعيف. انظر تخريج أحاديث الاحياء: (16/4).

([2]) أخرجه الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بأسانيد حسنة. انظر تخريج أحاديث الاحياء: (3622).

([3]) هو إبراهيم بن أدهم بن منصور، التميمي البلخي أبو إسحاق: زاهد مشهور. أخذ عن كثير من علماء الاقطار الثلاثة. وكان يلبس في الشتاء فروا لا قميص تحته ولا يتعمم في الصيف ولا يحتذي، يصوم في السفر والاقامة، وينطق بالعربية الفصحى لا يلحن.وكان إذا حضر مجلس سفيان الثوري وهو يعظ أوجز سفيان في كلامه مخافة أن يزل. توفي 161هـ. انظر حلية الأولياء: (367/3).

([4]) تقدمت ترجمته.

([5]) تقدمت ترجمته.

([6]) تقدمت ترجمته.

([7]) هو ثوبان بن إبراهيم الاخميمي المصري، أبو الفياض، أو أبو الفيض: أحد الزهاد العباد المشهورين. من أهل مصر. نوبي الأصل من الموالي. كانت له فصاحة وحكمة وشعر. وهو أول من تكلم بمصر في (ترتيب الاحوال ومقامات أهل الولاية) فأنكر عليه عبد الله بن عبد الحكم. واتهمه المتوكل العباسي بالزندقة، فاستحضره إليه وسمع كلامه. ثم أطلقه، فعاد إلى مصر. وتوفي بجيزتها. توفي 245هـ. انظر وفيات الأعيان: (101/1).

العلم أفضل من العمل

ثم قال: (وَالْعِلْمُ) تعلما وتعليما (أَفْضَلُ مِنْ) سائر (الْعَمَلِ) ولذا كان أولى منه بالتقديم.

فإن قلت قد ورد أنه ﷺ سأله سائل: أي الأعمال أفضل؟ فقال: «الجهاد». وسأله آخر فقال: «بر الوالدين». وسأله آخر فقال: «الصلاة في أول وقتها[3]».

فالجواب: أنه ﷺ فهم من كل أحد أنه يسأل أي أعماله هو أفضل؟ فأجابه على ما فهِم منه من قصده.

أما فضلية العلم فقوله تعالى: ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمـــون﴾[4]، ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾[5].

وفي الحديث: «أوحى الله تعالى إلى إبراهيم ﷺ: إني عليم أحب كل عليم[6]».

وقيل: ما أمر الله تعالى رسوله بطلب الزيادة في شيء إلا في العلم؛ لقوله تعالى: ﴿وقـــل رب زدني علما﴾[7]، وقوله ﷺ: «اللهم أنفعني بما علمتني وعلمني ما ينفعني[8]».

([1]) هو دلف بن جحدر الشبلي: ناسك. كان في مبدأ أمره واليا في دنباوند (من نواحي رستاق الري) وولي الحجابة للموفق العباسي، وكان أبوه حاجب الحجاب، ثم ترك الولاية وعكف على العبادة، فاشتهر بالصلاح. له شعر جيد، سلك به مسالك المتصوفة. أصله من خراسان، ونسبته إلى قرية (شبلة) من قرى ما وراء النهر، ومولده بسر من رأى، ووفاته ببغداد 334هـ. انظر الوفيات: (180/1).

([2]) هو عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي بالولاء، التميمي، المروزي أبو عبد الرحمن: الحافظ، شيخ الاسلام، المجاهد التاجر، صاحب التصانيف والرحلات. أفنى عمره في الاسفار، حاجا ومجاهدا وتاجرا. وجمع الحديث والفقه والعربية وأيام الناس والشجاعة والسخاء. كان من سكان خراسان، ومات بهيت (على الفرات) منصرفا من غزو الروم. له كتاب في " الجهاد " وهو أول من صنف فيه، و " الرقائق – خ " في مجلد. توفي 181هـ. انظر الحلية: (162/8).

([3]) أخرجه عبد الرزاق (582/1 ، رقم 2217) ، وابن أبى شيبة (280/1 ، رقم 3219) ، وأبو داود (115/1.

([4]) الزمر: (9).

([5]) المجادلة: (11).

([6]) رواه الغزالي في الإحياء (7/1).

([7]) طه: (114).

([8]) أخرجه الطبراني فى الأوسط (208/2 ، رقم 1748).

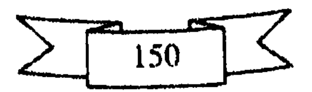
مبحث في فضل العلم

ومن فضل العلم: أنه وسيلة إلى السعادة في الآخرة، وإلى العز في الدنيا، فإن أغبياء الترك وحمقاء الأكراد وأجلاف العرب يوقرون مشائخهم لاختصاصهم بمزيد علم. والبهيمة توقر الآدمي بشعورها بتمييزه عليها. وأما تضعيف عذاب العالم العاصي فإنما كان لتشبهه بالمعاند واقتداء الجاهل به.

وفي الحديث: «تعلموا العلم فإن تعلمه لله حسنة، وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة، وهو الأُنْسُ في الوحدة، والصاحب في الخلوة، والدليل على الدين، والمبصر على السراء والضراء، والوزير عند الأخلاء، والقرين عند الغرباء، ومنار سبيل الجنة، يرفع الله به أقواما فيجعلهم في الخير سادة قادة هداة يهتدى بهم أدلة في الخير تقتص آثارهم وترمق أفعالهم وترغب الملائكة في خلتهم وبأجنحتها تمسحهم، وفي صلاتها تستغفر لهم، كل رطب ويابس يستغفر لهم، حتى حيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه، والسماء ونجومها، والأرض وخزائنها، لأن العلم حياة القلب من العمى، ونور الأبصار ومصابيحها في الظلمة، وقوة الأبدان من الضعف، وبالعلم يبلغ العبد منازل الأبرار والدرجات العلى. والتفكر في العلم يعدل الصيام، ومدارسته تعدل القيام، به يطاع الله وبه يعبد، وبه يتوحد، وبه يتورع، وبه توصل الأرحام، وهو إمام العمل، والعمل تابع له، يُلْهَمُهُ السعداءُ، ويُحرمهُ الأشقياء.[1]». **رواه ابن عبد البر.**

قوله: "يحرمه الأشقياء": **قال الغزالي:** معناه أن إحدى شقوتيه ألا يتعلم العلم، ثم يشقى ويتعب في العبادة على خَبَطٍ فما يكون له من ذلك إلا العناء والتعب والعياذ بالله تعالى من ذلك.

([1]) أخرجه الديلمى (41/2 ، رقم 2237)



وقد جمع الشافعي[1] نبذة في فضل العلم وقد قال: ما يتقرب العبد إلى ربه بشيء أفضل من طلب العلم.

وقال: ما أفلح في العلم إلا من طلبه في القلة، ولقد كنت أطلب القرطاس فيعسر علي، ولا يطلب أحد هذا العلم بالملك وعز النفس فيفلح ، ولكن من طلبه بذلة النفس وضيق العيش وخدمة العلم وتواضع النفس أفلح.

وقال: من لا يحب العلم لا خير فيه، فلا تكن بينك وبينه صداقة ولا معرفة.

وقال: رتبة العلماء التوفيق للعمل، وحليتهم حسن الخلق، وجمالهم كرم النفس.

وقال: زينة العالم الورع والحلم.

وقال: من طلب العلم فليدقق لِيلاَّ يضيع دقيق العلم.

وقال: من أراد الدنيا فعليه بالعلم، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم. انتهى.

ولولا العلم ما عُرف الله عز وجل، ولا ما فَرَضَ على عباده، فلا عَمَلَ أجل منه، فإن الله تعالى وصف به نفسه وسمى به، والعلماء ورثة الأنبياء.

وفي الحديث: «أفضل العبادة الفقه، وأفضل الدين الورع[2]» **رواه الطبراني[3] في معاجيمه الثلاثة.**

وفيه: «لَبَابٌ يَتَعَلَّمُهُ الرَّجُلُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَلْفِ رَكْعَةٍ تَطَوُّعًا[4]» **رواه الطبراني والبزار[1] عن أبي ذر[2] وأبي هريرة.**

([1]) هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان ابن شافع الهاشمي القرشي المطلبي، أبو عبد الله: أحد الائمة الاربعة عند أهل السنة. وإليه نسبة الشافعية كافة. ولد في غزة (بفلسطين) وحمل منها إلى مكة وهو ابن سنتين. وزار بغداد مرتين. وقصد مصر سنة 199 فتوفي بها، وقبره معروف في القاهرة. قال المبرد: كان الشافعي أشعر الناس وآدبهم وأعرفهم بالفقه والقرآت. وقال الإمام ابن حنبل: ما أحد ممن بيده محبرة أو ورق إلا وللشافعي في رقبته منة. وأخباره كثيرة. توفي204هـ. انظر الوفيات: (447/1).

([2]) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير رقم: (10807).

([3]) هو سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم: من كبار المحدثين. أصله من طبرية الشام، وإليها نسبته. ولد بعكا، ورحل إلى الحجاز واليمن ومصر والعراق وفارس والجزيرة، له ثلاثة (معاجم) في الحديث، منها (المعجم الصغير - ط) رتب فيه أسماء المشايخ على الحروف. وله كتب في (التفسير) و (الاوائل) و (دلائل النبوة) وغير ذلك. توفي 360هـ انظر الوفيات: (215/1).

([4]) أخرجه الديلمى (278/1 ، رقم 1084) .

وروي أيضا: «إذا جاء الموت لطالب العلم وهو على هذه الحالة مات وهو شهيد[3]».

وفي الحديث أيضا: «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين[4]» **رواه الشيخان.**

وفيه: «العلماء ورثة الأنبياء[5]» ومعلوم أنه لا رتبة فوق رتبة النبوءة، ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة.

وفيه: «يستغفر للعالم ما في السماوات وما في الأرض[6]» وأي منصب يزيد على منصب من يشتغل الملائكة وما في السماوات وما في الأرض بالاستغفار له، فهو مشغول بنفسه وهم مشغولون بالاستغفار له.

وفيه: « خصلتان لا تكونان في منافق: حسن السمت والفقه في الدين[7]».

وفيه أيضا: «أفضل الناس المؤمن العالم الذي إن احتيج إليه نفع، وإن استُغْنِي عنه أَغْنى نفسه[8]».

وفيه: « الإيمان عريان ولباسه التقوى، وزينته الحياء وثمرته العلم[9]».

وفيه: « يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء فأعلى حال الشهيد دمه، وأدنى وصف العالم حبره، فساوي بينهما[10]».

([1]) هو أحمد بن عمرو بن عبد الخالق أبو بكر البزار: حافظ من العلماء بالحديث. من أهل البصرة.حدث في آخر عمره بأصبهان وبغداد والشام، وتوفي في الرملة. له مسندان أحدهما كبير سماه (البحر الزاخر) والثاني صغير. توفي 292هـ انظر الشذرات: (209/2).

([2]) هو جندب بن جنادة بن سفيان بن عبيد، من بني غفار، من كنانة بن خزيمة، أبو ذر: صحابي، من كبارهم. قديم الاسلام، يقال أسلم بعد أربعة وكان خامسا. يضرب به المثل في الصدق. وهو أول من حيا رسول الله صلى الله عليه وسلم بتحية الاسلام. توفي 32هـ. انظر صفوة الصفوة: (238/1).

([3]) أخرجه البزار كما فى كشف الأستار (84/1 ، رقم 138).

([4]) أخرجه ابن ماجه (80/1 ، رقم 221) ، والطبرانى (385/19 ، رقم 904) ، والبيهقى فى شعب الإيمان (400/6 ، رقم 8661).

([5]) أخرجه أحمد (196/5 ، رقم 21763) ، وأبو داود (317/3 ، رقم 3641) ، والترمذى (48/5 ، رقم 2682) وقال : لا نعرف هذا الحديث إلا من حديث عاصم بن رجاء بن حيوة وليس هو عندى بمتصل . ثم أورد له إسنادًا وقال هذا أصح . وابن ماجه (81/1 ، رقم 223) ، وابن حبان (289/1 ، رقم 88) ، والبيهقى فى شعب الإيمان (262/2 ، رقم 1696) .

([6]) أخرجه ابن ماجه: (239).

([7]) أخرجه في مسند الشهاب: (318) عن عبد الله بن سلام.

([8]) أخرجه ابن عساكر (303/45) .

([9]) أخرجه الديلمى (112/1 ، رقم 380) .

([10]) أخرجه ابن عبد البر فى جامع بيان العلم (31/1)

وفيه: « طالب العلم تكفل الله برزقه[1] ».

وفيه: «يبعث العالم والعابد فيقال للعابد: ادخل الجنة، ويقال للعالم: اتَّئِدْ حتى تشفع في الناس[2]».

وفيه: « لَمَوْتُ قبيلة أيسر من موت عالم[3]».

وفيه: « من تفقه في دين الله كفاه الله تعالى ما أهمه ورزقه من حيث لا يحتسب[4]».

وفيه: « إذا أتى عليَّ يومٌ لا أزداد فيه علما يقربني إلى الله تعالى فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم[5]».

وفيه: « فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم[6]».

وفيه: «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب[7]».

وفيه: «فضل العالم على العابد كفضلي على أمتي[8]».

وفيه: «آخر درجة الأنبياء في الجنة أول درجة العلماء ليس بينها وبينها ستر[9]».

وفيه: «إن نوما على علم خير من صلاة على جهل، فإن العامل بغير علم يفسد أكثر مما يصلح[10]».

وفيه: « نظرة إلى العالم أحب إلي من عبادة سنة، صيامها وقيامها[1]».

---

(1) أخرجه الخطيب (3/180) وقال: غريب. وابن عساكر (41/232). وأخرجه أيضًا: القضاعي (1/244، رقم 391).

(2) أخرجه ابن عدي (2/412، ترجمة 531 حبيب بن أبي حبيب)، والبيهقي في شعب الإيمان (2/268، رقم 1717). وأخرجه أيضًا: الديلمي (5/465، رقم 8773).

(3) أخرجه الطبراني كما في مجمع الزوائد (1/202) قال الهيثمي: فيه عثمان بن أيمن ولم أر من ذكره وكذلك إسماعيل بن صالح. والبيهقي في شعب الإيمان (2/263، رقم 1699). وأخرجه أيضًا: الرافعي (3/462)

(4) أخرجه الرافعي (3/261).

(5) أخرجه الطبراني في الأوسط (6/367، رقم 6636) قال الهيثمي (1/136): فيه الحكم بن عبد الله، قال أبو حاتم: كذاب. وأبو نعيم في الحلية (8/188).

(6) أخرجه الترمذي (5/50، رقم 2685) وقال: غريب. والطبراني (8/233، رقم 7911).

(7) أخرجه الحارث كما في بغية الباحث (1/184، رقم 39)، وابن حبان في الضعفاء (1/340

(8) أخرجه الخطيب (8/106)، وأورده ابن الجوزي في العلل المتناهية (1/78، رقم 80)

(9) لم أجد تخريجه.

(10) أخرجه أبو نعيم في الحلية (4/385). وأخرجه أيضا: الديلمي (4/247، رقم 6732)

وفيه: « ألا أدلكم على أشرف أهل الجنة؟ قالوا: بلي يا رسول الله. قال: هـم علمـاء أمتي[2] ».

وفيه عن أبي ذر: «حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة وشهود ألف جنـازة وعيادة ألف مريض. قيل: يا رسول الله ومن قراءة القرآن؟ قال: وهل ينفع القـرآن إلا بالعلم؟[3] »

وقال بعض السلف: حضور مجلس ذكر يكفر عشرة مجالس من مجالس الباطل.

وأما عطاء فقال: مجلس ذكر يكفر سبعين مجلسا من مجالس اللهو.

وفيه: « لا تحقروا عالما آتاه الله علما، فإن الله تعالى لم يحقره إذ أتاه العلم[4] ».

وفيه: «يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء[5] ». فأعظمْ بمرتبة هي تلو النبوءة وفوق الشهادة مع ما ورد في فضل الشهادة؛ لأن العالم إمام أمة، فله مثل أجـور أمته، والشهيد عمله لنفسه.

وفيه: « ما عبد الله بشيء أفضل من فقه في دين الله، ولفقيه واحد أشد على الشـيطان من ألف شهيد، ولكل شيء عماد وعماد هذا الدين الفقه[6] ».

وفيه: « بين العالم والعابد سبعون درجة ما بين كل درجتين حضر الجواد المضمَّر سبعين سنة[7] ».

([1]) لم أجد تخريجه.

([2]) لم أجد تخريجه.

([3]) قال الحافظ العراقى فى تخريج " الإحياء " 1 / 16 : ذكره ابن الجوزى فى الموضوعات من حديث عمر و لم أجده من طريق أبي ذر.

(4) أخرجه في الإحياء (35/1) بلفظ: "إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا أهل المعرفة بالله تعالى فإذا نطقوا به لم يجهله إلا أهل الإغترار بالله تعالى ، فلا تحقروا عالما آتاه الله تعالى علما منه فإن الله عز و جل لم يحقره إذا آتاه إياه ".

([5]) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان: (1707) عن عثمان مرفوعا.

([6]) أخرجه الطبرانى فى الأوسط (194/6 ، رقم 6166).

([7]) أخرجه الديلمى (128/3 ، رقم 4345).

وفيه: « من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة. وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضي بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء...**الحديث**.[1]» **رواه ابن حبان[2] في صحيحه، وأبو داوود[3] والترمذي[4]**.

وينبغي للملوك ومن دونهم أن يتواضعوا لطلبة العلم اتباعا للملائكة وخاصة مملكته.

ومعنى: "تضع أجنحتها لطالب العلم" **قيل**: تكفها توقيرا له. وقيل: تكفها لتجلس إليه فتسمع منه. وقيل: لتبسطها له بالدعاء.

وقال العلقمي[5]: وذكر الخطابي[6] في معنى وضع أجنحة الملائكة ثلاثة أقوال:

أحدها: بسط الأجنحة.

الثاني: المراد به التواضع للطالب، أي تعظيما لحقه.

([1]) أخرجه أحمد (196/5 ، رقم 21763) ، وأبو داود (317/3 ، رقم 3641) ، والترمذى (48/5 ، رقم 2682).

([2]) هو محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن معبد التميمي، أبو حاتم البستي، ويقال له ابن حبان: مؤرخ، علامة، جغرافي، محدث. ولد في بست (من بلاد سجستان) وتنقل في الاقطار، فرحل إلى خراسان والشام ومصر والعراق والجزيرة. وتولى قضاء سمرقند مدة، ثم عاد إلى نيسابور، ومنها إلى بلده، حيث توفي في عشر الثمانين من عمره. وهو أحد المكثرين من التصنيف. توفي 354هـ. انظر الشذرات: (16/3).

([3]) هو سليمان بن الاشعث بن إسحاق بن بشير الازدي السجستاني، أبو داود: إمام أهل الحديث في زمانه. أصله من سجستان. رحل رحلة كبيرة وتوفي بالبصرة. له (السنن ط -) جزآن، وهو أحد الكتب الستة، جمع فيه 4800 حديث انتخبها من 500 , 000 حديث. وله (المراسيل - ط) صغير، في الحديث، و (كتاب الزهد - خ) ، و (البعث - خ) رسالة، و (تسمية الاخوة - خ) رسالة. وللجلودي كتاب (أخبار أبي داود). توفي 275هـ. انظر الوفيات: (214/1).

([4]) هو محمد بن عيسى بن سورة بن موسى السلمي البوغي الترمذي، أبو عيسى: من أئمة علماء الحديث وحفاظه، من أهل ترمذ (على نهر جيحون) تتلمذ للبخاري، وشاركه في بعض شيوخه. وقام برحلة إلى خراسان والعراق والحجاز وعمي في آخر عمره. وكان يضرب به المثل في الحفظ. من تصانيفه (الجامع الكبير - ط) باسم (صحيح الترمذي) في الحديث، مجلدان، و (الشمائل النبوية - ط) و (التاريخ) و (العلل) في الحديث. توفي 279هـ. انظر أنساب السمعاني: (95).

([5]) تقدمت ترجمته.

([6]) لعله أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي؛ أبو سليمان الخطابي كان فقيهاً أديباً محدثاً له التصانيف البديعة منها " غريب الحديث " و " معالم السنن في شرح سنن أبي داود " و " أعلام السنن في شرح البخاري " وكتاب " الشحاح " (2) وكتاب " شأن الدعاء " وكتاب " إصلاح غلط المحدثين " وغير ذلك. انظر وفيات الأعيان: (214/2).

الثالث: النزول عند مجالس العلم وترك الطيران **كحديث**: «ما من قوم يـذكرون الله تعالى إلا حفت بهم الملائكة[1]»، **انتهى**.

ولا مانع من اجتماعهما. **قوله**: بسط الأجنحة: أي لتكون وطاء له إذا مشى **كما في النهاية**. **وقيل**: معناه المعونة وتيسير السَّعي في طلب العلم.

وروى الحافظ عبد الله الرهاوي[2] **بسنده إلى الطبراني قال**: سمعت زكرياء بن يحيـي السماجي قال: كنت أمشي في بعض أزقة البصرة إلى دار المحدثين، فأسرعنا المشي وكان معنا رجل ماجن متهم في دينه فقال: ارفعوا أرجلكم عن أجنحة الملائكة لا تكسـروها كالمستهزئ، فما زال من موضعه حتى جفت رجلاه وسقط. **قال الرهاوي**: إسناد هذه الحكاية كالأخذ باليد، وكرأي العين؛ لأن رواتها أعلام وراويها إمـام. **انتـهى. قالـه العلقمي**.

وفي الحديث: «ولغَدوة في طلب العلم أحب إلـيَّ من مائة غزوة، ولا يخرج أحـد في طلب العلم إلا وملك يبشره بالجنة»[3].

وقال علي كرم الله وجهه: العالم أفضل من الصائم القائم المجاهـد في سـبيل الله، وإذا مات العالم ثلم في الدين ثلمة لا يسدها إلا خلف منه. **وقال أيضا**:

مـا الفَضـلُ إلا لِأهـلِ العِلـمِ إنَّهُـمُ ... عَلى الهُـدى لِمَـنِ اِسـتَهدى أَدِلّـاءُ

وَقَدرُ كُلِّ اِمـرِئٍ مـا كـانَ يُحسِـنُهُ ... وَالْجَـاهِلُونَ لِأَهْـلِ الْعِلْـمِ أَعْـدَاءُ

فَفُـزْ بِعِلـمٍ وَلا تَطلُـب بِـهِ بَـدَلاً ... فَالناسُ مَـوتى وَأَهـلُ العِلـمِ أَحيـاءُ

([1]) أخرجه أحمد (92/3 ، رقم 11893).

([2]) هو عبد القادر بن عبد الله الفهمي، بالولاء، الرهاوي ثم الحراني، أبو محمد: رحال، عالم بالتراجم، من حفاظ الحديث. ولد بالرها، وتوفي بحران. كان من موالي بني فهم الرانيين، وأعتقوه صغيرا فنسب إليهم. طاف بلاد العراق وفارس والشام ومصر، في طلب الحديث. وكان يمشي في رحلاته على قدمية، وكتبه محمولة مع الناس، وربما كان طعامه من عندهم، لفقره. من مصنفاته " كتاب الاربعين المتباينة الاسناد والبلاد " مجلدان في الحديث، و " المادح والممدوح " يتضمن ترجمة شيخ الاسلام الانصاري وذكر من مدحه وتراجم مادحية ومادحي مادحيه، ومصنف في " الفرائض والحساب. توفي 612هـ، انظر الاعلام: (40/4).

([3]) لم أجد تخريجه.

وقال أبو الأسود[1]: ليس شيء أعز من العلم، الملوك حكام على الناس، والعلماء حكام على الملوك.

وقال ابن عباس ﷺ: خُيِّر سليمان بن داوود بين العلم والمال والملك فاختار العلم، فأعطاه الله العلم والمال والملك معه.

وقال بعض الحكماء: أي شيء أدرك من فاته العلم، وأي شيء فات من أدرك العلم.

وقال ابن مسعود: عليكم بالعلم قبل أن يرفع، ورفعه أن هلك رواته. فو الذي نفسي بيده ليود رجال قتلوا في سبيل الله شهداء أن يبعثهم الله علماء لما يرون من كرامتهم، وإن أحدا لم يولد عالما، وإن العلم بالتعلم.

وقال ابن عباس: تَذَاكُرُ العلم بعضَ ليلةٍ أحب إلي من إحيائها. **وكذا عن أبي هريرة وأحمد بن حنبل.**

وفي العبدري: نقل ابن يونس[2] **عن أحمد بن حنبل أن رجلا قال له**: هذا العلم فمتى العمل؟ قال أحمد: أَلَسنا في العمل؟.

وقال الشافعي: طلب العلم أفضل من النافلة.

وروي أن ابن وهب[3] ترك الجلوس للناس للعلم، واشتغل بالعبادة، فأخبره إنسان أنه رأى في النوم النبي ﷺ في مسجد عظيم نحو المسجد الحرام ومعه أبو بكر وعمر وأنت معهم وفي المسجد قناديل نورها أحسن، فانطفأ مصباح منها فأمرك رسول الله ﷺ أن توقده فأوقدته. ثم آخر كذلك. ثم أقمنا مليا، فهمت المصابيح كلها أن تنطفئ، فقال أبو بكر: يا رسول الله ﷺ: أما ترى هذه القناديل؟ فقال رسول الله ﷺ: هذه عمل عبد

---

(1) هو ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل الدؤلي الكناني: واضع علم النحو. كان معدودا من الفقهاء و الأعيان والامراء والشعراء والفرسان والحاضري الجواب، من التابعين. رسم له علي بن أبي طالب شيئا من أصول النحو، فكتب فيه أبو الاسود. ر. سكن البصرة في خلافة عمر، وولي إمارتها في أيام علي. انظر الاصابة: (الترجمة: 4322).

(2) هو عبد الرحيم (تاج الدين) بن محمد (رضي الدين) بن محمد (عماد الدين) أبو القاسم ابن يونس: قاض من فقهاء الشافعية. ولد وتعلم بالموصل. ودخل بغداد، بعد استيلاء التتار عليها (في رمضان 670) وولي قضاء الجانب الغربي منها إلى أن توفي. صنف كتاب (التعجيز في اختصار الوجيز – خ). انظر الشذرات: (332/5).

(3) تقدمت ترجمته.

الله بن وهب يريد أن يطفئه. ثم **قال ابن وهب**: وعظت برؤياك هذه؛ ظننت أن العبادة أفضل من نشر العلم، ثم ترك كثيرا من عمله ورجع إلى الناس يقرؤون عليه.

وقال الزهري[1]: العالم إذا لم يُخِلَّ بواجب ولم يقصر في فرض أفضل من العابد.

وسئل عز الدين[2]: أقراءة القرآن أفضل أم النظر؟ قال: معرفة الأحكام الشرعية أفضل لعموم الحاجة إليها في الفتاوي، والأقضية، والولاية العامة والخاصة، ومصلحة القرآن مقصورة على القارئ ، وما عمت مصلحته ومست الضرورة، والحاجة إليه أفضل مما كانت مصلحته مقصورة على فاعله.

وقال الشافعي: من شرف العلم أن كل ما نسب إليه ولو في شيء حقير فرح، ومن دفع عنه حزن.

وقال بعض السلف: إذا أراد الله بالناس خيرا جعل العلم في ملوكهم، والملك في علمائهم.

ولفضيلة العلم خص الله به الأذكياء ومنح المال الفاضل وغير الفاضل، مع أن العلم يحرسك وأنت تحرس المال.

وقال ابن ليون[3]: طالب العلم معان، وربما ترك العلم متطيرا لما يرى من تضايق أهله فيعامل بالتلطف.

قال علي كرم الله وجهه: كن عالما أو متعلما أو مستمعا أو محبا، ولا تكن خامسا فتهلك. وقد أسنده خالد الحذاء عن النبي ﷺ. والخامس هو المتطَيِّرُ بالعلم.

([1]) هارون بن عبد الله بن محمد، أبو يحيى الزهري ثم العوفي، من ذرية عبد الرحمن بن عوف: فقيه مالكي من القضاة. له شعر. من أهل مكة. نزل بغداد. وولاه المأمون قضاء مصر (سنة 217 هـ ولما وقعت المحنة بخلق القرآن ألزمه الخليفة أن لا يقبل شهادة من لا يقر بذلك، ففعل، ثم صار يتسامح، فصرف (سنة 232) قال البزار في طبقات الفقهاء: كان أعلم من صنف الكتب في مختلف قول مالك. وأورد المرزباني أبياتا رقيقة من شعره. انظر شجرة النور الزكية: (57).

([2]) تقدمت ترجمته.

([3]) هو سعد بن أحمد بن إبراهيم بن ليون التجيبي، أبو عثمان: من علماء الاندلس، وأدبائها المقدمين. ولد بالمرية ونشأ بها ولم يخرج منها. وتوفي فيها شهيدا بالطاعون. له أكثر من مئة مصنف، منها في (الهندسة) و (الفلاحة) ومنها كتاب (كمال الحافظ) في المواعظ، و (أنداء الديم) في الحكم، و (لمح السحر من روح الشعر – خ). توفي 750هـ. انظر نفح الطيب: (289/3).

وفي الحديث: «إذا استرذل الله عبدا حظرَ عليه العلم[1]».

قيل: أصل العلم الرغبة، وثمرته السعادة، وأصل الزهد الرهبة وثمرته العبادة.

وفي الحديث: «من وقر عالما فقد وقر ربه[2]».

وعن علي ﷺ: كفى بالعلم شرفا أن يدعيه من لا يحسنه ويفرح إذا نسب إليه، وكفى بالجهل ذما أنه يتبرأ منه من هو فيه.

وكان الشيخ أبو حفص عمر بن هارون[3] يقول لأهل الدرس: تهنيكم عبادة القلوب والألسن والأيدي والأعين. يعني العلم. وهذا كلام من أُيِّدَ بالتوفيق وأمد بالتحقيق. **قاله العبدري في رحلته[4].**

وفي حديث ابن عباس: «تدارس العلم ساعة من الليل خير من إحيائها[5]».

وقال الأحنف[6]: كل عز لم يؤكد بعلم فإلى ذل مصيره.

وقال الزبير بن أبي بكر: كتَبَ إلي أبي في العراق: "عليك بالعلم، فإنك إن افتقرت كان لك مالا، وإن استغنيت كان لك جمالا".

وقال لقمان لابنه: "يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك، فإن الله يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض بوابل المطر".

وقال الزهري: العلم ذَكَرٌ ولا يحبه إلا ذكران الرجال.

---

(1) عزاه الحافظ في الإصابة (316/1، ترجمة 708 بشير بن النهاس): لعبدان وأبي موسى، وقال: إسناده ضعيف جدًا.

(2) لم أجد تخريجه.

(3) هو عمر بن هارون بن يزيع بن جابر، الثقفي بالولاء. البلخي: عالم بالقراآت، واسع الرواية للحديث. كان شيخ " بلخ " ومقرئها ومحدثها. وتوفي بها. انظر تهذيب التهذيب: (501/5).

(4) انظر رحلة العبدري: (7).

(5) تقدم تخريجه.

(6) هو الاحنف بن قيس بن معاوية بن حصين المري السعدي المنقري التميمي، أبو بحر: سيد تميم، وأحد العظماء الدهاة الفصحاء الشجعان الفاتحين. يضرب له المثل في الحلم. ولد في البصرة وأدرك النبي صلى الله عليه وسلم. ولم يره. ووفد على عمر، حين آلت الخلافة إليه، في المدينة، فاستبقاه عمر، فمكث عاما، وأذن له فعاد إلى البصرة. وأخباره كثيرة جدا. انظر الوفيات: (230/1).

مبحث فضل تعليم العلم

وأما فضلية تعليم العلم: فقد وردت فيه آيات وأحاديث. قال تعالى: ﴿ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم﴾[1] وهو التعليم والإرشاد، ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه﴾[2]، ﴿وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون﴾[3]، ﴿ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا﴾[4]، ﴿أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾[5]، ﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾[6].

وقال ﷺ لما بعث معاذا[7] إلى اليمن: «لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من الدنيا وما فيها[8]».

وقال: «من تعلم بابا من العلم ليعلم الناس أعطي ثواب سبعين نبيا صديقا[9]».

وقال عيسى عليه السلام: "من عَلِمَ وَعَمَلَ وَعَلَّمَ فذلك يدعى في ملكوت السماوات والأرض عظيما"

وقال ﷺ: «إذا كان يوم القيامة يقول الله تعالى للعابدين المجاهدين: ادخلوا الجنة. فيقول: العلماء بفضل علمنا تعبدوا وجاهدوا. فيقول تعالى: أنتم عندي كبعض ملائكتي

([1]) التوبة (122).

([2]) آل عمران: (187).

([3]) البقرة (176).

([4]) فصلت (33).

([5]) النحل (125).

([6]) البقرة (129).

([7]) هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الانصاري الخزرجي، أبو عبد الرحمن: صح أبي جليل، كان أعلم الأمة بالحلال والحرام. وهو أحد الستة الذين جمعوا القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم. أسلم وهو فتى، وآخى النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبين جعفر بن أبي طالب.وشهد العقبة مع الانصار السبعين. وشهد بدرا وأحدا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعثه رسول الله، بعد غزوة تبوك، قاضيا ومرشدا لاهل اليمن. توفي 18هـ. انظر الاصابة: (الترجمة 8039).

(8) خرجه أحمد (333/5 ، رقم 22872) ، والبخارى (1096/3 ، رقم 2847) ، ومسلم (1872/4 ، رقم 2406) . وأخرجه أيضًا : ابن حبان (377/15 ، رقم 6932)

([9]) أخرجه الديلمى (523/3 ، رقم 5633

اشفعوا تشفعوا، ثم يدخلون الجنة[1]». وهذا إنما يكون بالعلم المتعدى بالتعليم لا اللازم الذي لا يتعدى.

وقال: «نعم الهدية ونعم العطية كلمة حق تسمعها فتنطوي عليها ثم تحملها إلى أخ لك مسلم تعلمه إياها تعدل عبادة سنة[2]».

وقال: «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه أو معلم أو متعلم[3]».

وقال: «إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرض حتى النملة في حجرها، وحتى الحوت في قعر البحر ليصلون على معلم الناس الخير[4]».

وقال: «ما أفاد المسلم أخاه فائدة أفضل من حديث حسن بلغه فبلغه[5]».

وقال: «لكلمة من الخير يسمعها المؤمن فيعمل بها ويعلمها خير له من عبادة ألف سنة[6]».

وخرج رسول الله ﷺ ذات يوم فرأى مجلسين أحدهما يدعون الله ويرغبون إليه، والثاني يعلمون الناس. فقال: «أما هؤلاء؛ يسألون الله إن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم، وأما هؤلاء؛ فيعلمون الناس وإنما بعثت معلما. ثم عدل إليهم وجلس معهم[7]».

وقال: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية وولد صالح يدعو له بالخير وعلم ينتفع به من بعده[8]».

وقال: «الدال على الخير كفاعله[9]».

([1]) أخرجه في جامع الاحاديث القدسية: (1034).

([2]) أخرجه الديلمى (262/4 ، رقم 6773) .

([3]) أخرجه الترمذى (561/4 رقم 2322) وقال : حسن غريب . وأخرجه أيضًا : ابن ماجه (1377/2 رقم 4112) .

([4]) أخرجه الخطيب (106/8) ، وأورده ابن الجوزى فى العلل المتناهية (78/1 ، رقم 80)

([5]) أورده الذهبي في إحياء علوم الدين (10/1) قال العراقي: أخرجه ابن عبد البر من رواية محمد بن المنكدر مرسلا نحوه.

([6]) أخرجه ابن المبارك في الزهد (487/1، رقم 1386) عن زيد بن أسلم مرسلاً.

([7]) أخرجه ابن ماجه (83/1 ، رقم 229),

([8]) أخرجه أحمد (372/2 ، رقم 8831) ، والبخارى فى الأدب المفرد (28/1 ، رقم 38) ، ومسلم (1255/3 ، رقم 1631).

([9]) أخرجه أحمد (357/5 ، رقم 23077) .

وقال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها الناس، ورجل آتاه الله مالا فهو ينفق منه سرا وجهرا[1]».

وقال ﷺ: «رحمة الله تعالى على خلفائي. قيل: ومن خلفاؤك؟ قال: الذين يحيون سنتي ويعلمونها عباد الله[2]».

وقال عمر: إن الرجل ليخرج من منزله وعليه من الذنوب مثل جبال تهامة. فإذا سمع العلم خاف واسترجع ذنوبه وانصرف من منزله وليس عليه ذنب. فلا تفارقوا مجالس العلماء فإن الله تعالى لم يخلق على الأرض تربة أكرم من مجالس العلماء.

وعن ثعلبة بن الحكم[3] قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله للعلماء: إذا قعد أحدهم على كرسيه لفصل عباده: إني لم أجعل علمي وحلمي فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان فيكم ولا أبالي[4]».

قال المناوي: انظر إلى قوله: "علمي وحلمي فيكم" فيتضح لك بإضافته إليه أنه ليس المراد به علم أكثر أهل الزمان والمجرد عن العمل به والإخلاص. **قاله السيوطي[5]**.

وقال وهب بن منبه[6]: مَجلس يُتَنَازع فيه العلم أحب إلي من كثرة الصلاة؛ لعل أحدا يسمع الكلمة فينتفع بها السنة أو ما بقي من عمره.

([1]) أخرجه أحمد (8/2 ، رقم 4550) ، والبخارى (2737/6 ، رقم 7091) ، ومسلم (558/1 ، رقم 815) .

([2]) أخرجه ابن عساكر (61/51) .

([3]) هو ثعلبة بن الحكم الليثي الصحابي: نزل البصرة ثم تحول إلى الكوفة. روى عنه سماك بن حرب. انظر الوافي بالوفيات: (491/3).

([4]) أخرجه الطبراني (84/2 ، رقم 1381) قال الهيثمى (126/1) : رجاله موثقون .

([5]) هو عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد ابن سابق الدين الخضيري السيوطي، جلال الدين: إمام حافظ مؤرخ أديب. له نحو 600 مصنف، منها الكتاب الكبير، والرسالة الصغيرة. نشأ في القاهرة يتيما (مات والده وعمره خمس سنوات) ولما بلغ أربعين سنة اعتزل الناس، وخلا بنفسه في روضة المقياس، على النيل،منزويا عن أصحابه جميعا، كأنه لا يعرف أحدا منهم، فألف أكثر كتبه. وكان الاغنياء والامراء يزورونه ويعرضون عليه الاموال والهدايا فيردها. وطلبه السلطان مرارا فلم يحضر إليه، وأرسل إليه هدايا فردها. وبقي على ذلك إلى أن توفي 911هـ. الف 600كتاب. والكلام عنه كثير. للمزيد انظر الشذرات: (51/8).

([6]) تقدمت ترجمته.

وسئل عبد الله بن المبارك[1]: مَن الناس؟ قال: العلماء. قيل: فمن الملوك؟ قال: الزهاد. قيل: فمن السفلة؟ قال: من يأكل بدينه. **وفي رواية**: الذين يُقَلْنِسُونَ وَيُطَيْلِسُونَ ويطلبون الشهادات.

(وَ) العلم أيضا (**أُسُّه**) أي أصل العمل، فلا يصح عمل بدونه (**إِلاَّ أَنَّ الْعَمَلَ ثَمْرَتُهُ**) فلا ينفع علم بلا عمل، فإن العلم بمترلة الشجرة والعمل بمترلة ثمرها. فالشرف للشجرة إذ هي الأصل لكن الانتفاع بثمرها. فإذن لا بد للعبد أن يكون له من كلا الأمرين حظ ونصيب. **ولهذا قال أبو الحسن**: اطلبوا هذا العلم طلبا لا يضر بالعبادة، واطلبوا العبادة طلبا لا يضر بالعلم.

وفي الحديث: «العلم إمام العمل والعمل تابعه[2]». ومثل من قطّع الأوقات في طلب العلم وترك العمل كمن قعد هذه المدة يتطهر ويجدد الطهارة فلم يصل صلاة واحدة. مقصود العلم العمل كما أن المقصود بالطهارة وجود الصلاة.

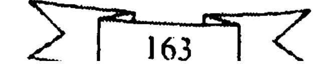
قال بعضهم: كان الرجل يشتغل بالعلم، فإذا بلغ أربعين سنة طوى بساط العلم واشتغل بالعبادة خلاف ما نحن عليه اليوم من استغراق الزمان بالوسائل والإعراض عن المقاصد. فالقوم قرءوا العلم ليعلموا به ما يلزمهم من معرفة رهم والقيام بعبوديته والتأدب في خدمته، فإذا حصلت لهم هذه الوسيلة رجعوا إلى المقصود بها. ونحن جعلنا العلم حرفة نجمع بها الحطام والمحترف لا يدع حرفته.

وقال بعضهم: العلم رفيع والمقصود به وصول إلى ما هو أرفع منه. فالعلم شبه مصباح في يدك. ودخلت بيتا مظلما تلتمس جوهرا ولا تعرفه إلا بمصباحك فصار الجوهر أرفع من المصباح، وصار المصباح أرفع شيء يطلب به الجوهر.

وبالجملة: فيقدم على العبادات البدنية أمران: العلم والرفق بالمسلمين لأن كلا منهما عمل في نفسه وعبادة تفضل سائر العبادات بتعدي فائدته وانتشار جدواه فكانا مقدمين.

([1]) تقدمت ترجمته.

([2]) أخرجه في روح البيان: (256/2).



(وَ) بسبب كون العلم أصلا للعمل صار(**قَلِيلُهُ**) أي العمل (**مَعَهُ**) أي مع العلم (**خَيْرٌ مِنْ كَثِيرِهِ**) أي العمل (**مَعَ الْجَهْلِ**) لأن من عمل بلا علم فساده أكثر من صلاحه **كما تقدم ذكره في الكلام على فضل العلم آنفا راجعه.**

العلم النافع ما كان لله وحده

ولما كان العلم أفضل الأعمال ولكن هو أعظمها خطرا، ولذلك كان فيه النافع وغير النافع أراد أن يبينهما فبدأ بالنافع فقال:

1 – العلم النافع ما كان لله (**وَالْعِلْمُ النَّافِعُ مَا كَانَ تَعَلُّمُهُ وَتَعْلِيمُهُ لله تَعَالَى وَحْدَهُ**) بأن يصحح نيته فيه ويحررها. **وتصحيحها**: أن يكون غرضه فيه طلب مرضاة الله، واستعماله فيما ينفع عنده وإيثاره الخروج من ظلمة الجهل إلى نور العلم.

قال المناوي: حكى الغزالي أنه لما دخل طريق القوم قال: وجدنا علوم الفقهاء حُجُبًا فليتنا لم نضيع أعمارنا فيها. فقال له عارف: لأي شيء تجعلها حجبا؟ فلو نظرت فيها وفي كل ما في الوجود وجدته دليلا على الله، رافعا للحجب عنك. فعمل على ذلك فعرف وجوه دلالتها، فرجع يقول: العلم النافع نور يكشف عن العبد الحجب. وإنما كان حجابا على من لم يخلص لله في تعلمه وتعليمه.

ولما دخل الجيلاني[1] **الطريق** بعد السياحة ترك تدريس العلم الظاهر، ووقعت النفرة بينه وبين أهله، فلما كمل وشهد وجه دلالة العلوم كلها على الله درس الفقه والأصول والنحو وغيرها حتى مات.

---

(1) عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن جنكي دوست الحسني، أبو محمد، محيي الدين الجيلاني، أو الكيلاني، أو الجيلي: مؤسس الطريقة القادرية. من كبار الزهاد والمتصوفين. ولد في جيلان وانتقل إلى بغداد شابا، سنة 488 هـ، فاتصل بشيوخ العلم والتصوف، وبرع في أساليب الوعظ، وتفقه، وسمع الحديث، وقرأ الادب، واشتهر. وكان يأكل من عمل يده. وتصدر للتدريس والافتاء في بغداد سنة 528 هـ. وتوفي بها. له كتب، منها " الغنية لطالب طريق الحق – ط " و " الفتح الرباني – ط " و " فتوح الغيب – ط " و " بالفيوضات الربانية – ط ". انظر طبقات الشعراني: (108/1).

وكان الشيخ غانم يُسَلِّكُ جماعته كلهم من طريق علم النحو حتى يوصلهم إلى حضرة الله تعالى. هكذا، هكذا وإلا فلا، لا.

ثم إن صحح النية ينبغي له أن يقدم المسألة لله تعالى أن يوفقه ويعينه عليه. **قاله الخطيب**[1].

فهذه هي النية الصحيحة. **ولا تغتر بقول الجنيد:** طلبنا العلم لغير الله فأبي أن يكون إلا لله؛ لأن قائله سلمه الله من تلك الفتنة، فلا يقاس عليه، كمن به مرض أعيا الأطباء فطعن نفسه ليقتلها فصادف موضع الداء فخرج الداء فبرئ.

قال زروق: قيل معناه: امتنع أن يكون حصوله إلا لله. وقيل: بل طلبه لغير الله لا يصيره لغيره لأنه لا يمكن أن يكون لغيره، حتى أن الشيطان يحض العبد على طلب العلم لتقوم عليه الحجة ويقع في ذنوب كثيرة، فبمخالطة الطلبة والعلماء خرج بيان الحلال والحرام الذي يصرفه عن تحليل الحرام وتحريم الحلال، فعند ذلك يود الشيطان أن يرده عن العلم لما يرى من مصلحته، فعند ذلك يجيبه بقوله: "طلبنا العلم لغير الله...إلخ" تأمله فإنه مليح. **انتهى.**

وفي الحكم: العلم النافع هو الذي يبسط في الصدر شعاعه، ويكشف عن القلب قناعه[2].

وعن ابن مسعود: من تعلم بابا من العلم ليعلمه الناس ابتغاء وجه الله أعطاه الله أجر سبعين نبيا.

([1]) هو أحمد بن علي بن ثابت البغدادي، أبو بكر، المعروف بالخطيب: أحد الحفاظ المؤرخين المقدمين. مولده في (غزية) بصيغة التصغير - منتصف الطريق بين الكوفة ومكة، ومنشأه ووفاته ببغداد. رحل إلى مكة وسمع بالبصرة والدينور والكوفة وغيرها، وعاد إلى بغداد فقربه رئيس الرؤساء ابن مسلمة (وزير القائم العباسي) وعرف قدره. ثم حدثت شؤون خرج على أثرها مستترا إلى الشام فأقام مدة في دمشق وصور وطرابلس وحلب، سنة 462 هـ ولما مرض مرضه الاخير وقف كتبه وفرق جميع ماله في وجوه البر وعلى أهل العلم والحديث. وكان فصيح اللهجة عارفا بالادب، يقول الشعر، ولوعا بالمطالعة والتأليف، ذكر ياقوت أسماء 56 كتابا من مصنفاته، من أفضلها (تاريخ بغداد – ط) أربعة عشر مجلدا. توفي 463هـ. انظر النجوم الزاهرة: (87/5).

([2]) انظر شرح الحكم للأزهري: (151).

وقال يزيد بن ميسرة[1]: من أراد بعلمه وجه الله؛ أقبل الله بوجهه وبوجوه العباد إليه. ومن أراد بعلمه غير وجه الله؛ صرف الله عنه وجهه ووجوه العباد.

وقال الشافعي: ليس العلم ما حُفِظَ، بل العلم ما نفع.

فائدة: ومن التعليم النافع: التصنيف. **وذكر القاضي تاج الدين السبكي**[2] أن التصنيف في ذلك أقوى لطول بقائه على ممر الزمان.

وفي الحديث: «إذا مات الإنسان انقطع إلا من ثلاث[3]...»فذكر علما ينتفع به. قالوا: هو التعليم والتصنيف.

وعن ابن عرفة[4]: إنما يدخل فيه التصنيف إذا اشتمل على فوائد زائدة على ما في الكتب السابقة، وإن لم يكن فيه إلا نقل ما في الكتب فهو تخسير للقاعد. وكذا يقول في حضور مجلس التدريس إن لم يكن فيه زيادة من الشيخ؛ فلا فائدة في حضورها؛ بل الأولى لمن عرف الاصطلاح وقدر على فهم ما في الكتب أن ينقطع بنفسه ويلازم النظر.

ونظم ذلك في أبيات فقال:

إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي مَجْلِسِ الدَّرْسِ نُكْتَةٌ ... بِتَقْرِيرِ إِيضَاحٍ لِمُشْكِلِ صُورَةِ

وَعَزْوٌ غَرِيبُ النَّقْلِ أَوْ حَلُّ مُقْفَلٍ ... أَو إِشْكَالٍ أَبْدَتْهُ نَتِيجَةُ فِكْرَةِ

فَدَعْ سَعْيَهُ وَانْظُرْ لِنَفْسِكَ وَاجْتَهِدْ ... وَلاَ تَتْرُكَنْ فَالتَّرْكُ أَقْبَحُ خلَّةِ[5]

فأجابه تلميذه الأبي[6] **بقوله:**

يَمِينًا بِمَنْ أَوْلاَكَ أَرْفَعَ رُتْبَةٍ ... وَزَانَ بِكَ الدُّنْيَا بِأَحْسَنِ زِينَةِ

([1]) هو يزيد بن ميسرة كان رضي الله عنه يقول: إذا بلغك عن الرجل القول فأنكره فخذ بقوله، ودع ما بلغك، وكان يقول: كنا نضحك، ونلعب ونمزح فلما بلغنا المحل الذي يقتدي بنا فما بقي إلا الإمساك عن ذلك، وكان يقول: إذا تكلم الفقيه بالإعراب ذهب الخشوع من قلبه. للمزيد من أخباره انظر الطبقات الكبرى للشعراني: (42/1).

([2]) تقدمت ترجمته.

([3]) تقدم تخريجه.

([4]) تقدمت ترجمته.

([5]) في النسخة: "ج": وإياك تركا فهو أقبح خلة".

([6]) تقدمت ترجمته.

لَمَجْلِسُكَ الْعَالِي كَفِيلٌ بِكُلِّهَا عَلَى حُسْنِ مَا عَنْهُ الْمَجَالِسُ وَلَّتِ
فَأَبْقَاكَ مَنْ رَقَّاكَ لِلنَّاسِ رَحْمَةً وَلِلدِّينِ سَيْفًا قَاطِعًا كُلَّ بِدْعَةِ

ثم قال الأُبِّيُّ: و إني بَارٌّ في قسمي.

(وَ) ما كان تعلمه وتعليمه (رِيَاءً) للناس (وَ) لا (مُبَاهَاةً) أي مفاخرة بالعلم وادعاء العظم به (وَ) لا (مِرَاءً) أي جدالا. والْمِرَاءُ بكسر الميم: طعنك في كلام الغير لإظهار خلل فيه لغير غرض سوى تحقير قائله وإظهار مزيتك عليه. **قاله الغزالي.** والجدال في الأصل: المخاصمة بما يشغل عن ظهور الحق ووضوح الصواب. ثم استعمل على لسان حملة الشرع في مقابلة الأدلة لظهور أرجحها.

وإنما نُهِيَ عن المراء والجدال **لحديث:** «لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء أو لتماروا به السفهاء ولتصرفوا وجوه الناس إليكم فمن فعل ذلك فهو في النار[1]». **ولحديث:** «لا يجادل إلا منافق أو مرتاب[2]». **ولحديث:** «إن الله يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة بلسانها[3]».

وقال الخضر لموسى عليه السلام: يابن عمران تعلم العلم لتعمل به ولا تتعلمه لتتحدث به، فيكون عليك بواره ولغيرك نوره.

وفي الحديث أيضا: «من ترك المراء وهو محق بني له بيت في أعلى الجنة، ومن ترك المراء وهو مبطل بني له بيت في ربض الجنة[4]».

وإنما فُضِّلَ الأول مع أن الثاني أفرض وأوجب، وهو ترك الكذب والمراء مبطلا؛ لأن المسلمين يتركونهما. وأما المراء والعبد محق صادق، فمن تركه زهدا في التظاهر ورغبةً في الصمت والسلامة فهو من الموقنين وخصوص المقربين.

([1]) أخرجه ابن ماجه (93/1 ، رقم 254).

([2]) لم أجد تخريجه.

([3]) أخرجه أحمد (165/2 ، رقم 6543) ، وأبو داود (301/4 ، رقم 5005) ، والترمذى (141/5 ، رقم 2853).

([4]) أخرجه الطبرانى فى الأوسط (269/1 ، رقم 878).

وفي الحديث: «ما استكمل أحد حقيقة الإيمان حتى يدع المـــراء والجـــدال وإن كـــان محقا[1]».

وقال مالك: إن هذا الجدال ليس من الدين في شيء. وقال الغزالي: أكثر ما يوجد المراء في علماء زماننا فلا تجالسهم وفِرَّ منهم فرارك من الأسد.

وقال الشافعي: المراء في العلم يقسي القلب ويورث الضغائن. وقال بعضهم: ربما كان علمك سببا لهلاكك من أجل غيرتك عليه وجدلك، فإن العالم إذا فسد قلبه لم يحب أن يذكر أحد بالعلم سواه. والمماري بالعلم هو القاصد دفع ما يرد عليه مـــن صـــحيح أو فاسد.

قال الجيلاني: أولى الناس بالمقت عالم فقيه فاجر كثير الجدال، لا يـــرى غـــير زعمـــه ودعاوي وهمه. وقيل: شر العلوم ما طلب للمراء، وأرذل العلماء من يطرق باب الأمراء.

قيل: المماري لا شفيع له وإن كان محقا صادقا.

فائدة: يقال أول من دوَّن الجدل: أبو علي الطبري[2].

وقال عز الدين بن عبد السلام في اختصاره للمقاصد: لا يجوز الجدل والمنـــاظرة إلا لإظهار الحق ونصرته ليعرف ويعمل به، فمن جادل لذلك فقد جاز، وقيل: منـــدوب، وقيل: واجب. ومن جادل لغرض آخر فقد عصى وخاب. ولا خير في من يَتَحَيَّلُ لنصرة مذهبه مع ضعفه وبعد أدلته من الصواب[3].

وللمذاكرة الجائزة آداب منها: تجنب الاضطراب ما عدى اللســـان مـــن الجـــوارح، والاعتدال في رفع الصوت وخفضه، وحسن الإصغاء إلى كلام صاحبه، وأن يجعل الكلام مناوبة لا مناهبة، والثبات على الدعوى إن كان مجيبا، والإصرار على السؤال إن كـــان

([1]) أخرجه أبو يعلى كما في مجمع الزوائد (92/1)

([2]) هو الحسن (أو الحسين) بن القاسم الطبري، أبو علي: فقيه شافعي بحاث، أصله من طبرستان. سكن بغداد وتوفي بها. قال ابن كثير: أحد الائمة المحررين في الخلاف وأول من صنف فيه. له (المحرر) في النظر، وهو أول كتاب صنف في الخلاف المجرد، و (الايضاح) و (العدة) عشرة أجزاء كلاهما في فقه الشافعية. توفي 350هـــ. انظر وفيات الاعيان: (130/1).

([3]) انظر الفوائد في اختصار المقاصد لعز الدين بن عبد السلام: (42).

سائلا، والاحتراز عن التعنت، والتعصب، والمبالغة، والريـــاء، والمباهـــاة، والضـــحك، واللجاج وترك قبول الحق. **فإذا وقعت على هذا المقصد أفادت خمس خصال:** إيضاح الحجة، وإبطال الشبهة، ورد المخطئ إلى الصواب، والضال إلى الرشاد، والزائغ إلى صحة الاعتقاد مع الذهاب إلى التعليم وطلب التحقيق.

والحاصل: أن الجدال **كما قاله النووي**[1]: قد يكون محمودا. وإن كان في مدافعة الحق بغير علم كان مذموما. **قال:** وعلى هذا التفصيل تنزل النصوص الواردة في إباحته وذمه. **والله تعالى أعلم.**

(وَ) العلم النافع ما تقدم (لاَ) ما كان (**تَصَيُّدًا لِلدُّنْيَا**) **لحديث أنس:** «ويل لأمتي مـــن علماء السوء يتخذون العلم تجارة يبيعونها لا أربح الله تجارتهم[2]». **ولحديث أبي هريرة:** «من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجـــد عرف الجنة يوم القيامة[3]». **ولحديث أبي الدرداء**[4]: «أوحى الله إلى بعض الأنبياء: قل للذين يتفقهون لغير الله ويتعلمون لغير العمل ويطلبون الدنيا بعمل الآخـــرة ويلبســـون للناس مسوك الكباش إياي يخدعون وبي يستهزئون لأُتِيحَنَّ لهم فتنة تذر الحلـــيم منـــهم حيران[5]». **ولحديث:** «من ازداد في العلم رشدا ــ أي بيانا ــ فلم يزدد في الدنيا زهدا

([1]) هو يحيى بن شرف بن مري بن حسن الحزامي الحوراني، النووي، الشافعي، أبو زكريا، محيي الدين: علامة بالفقه والحديث. مولده ووفاته في نوا (من قرى حوران، بسورية) وإليها نسبته تعلم في دمشق، وأقام بها زمنا طويلا. من كتبه " تهذيب الاسماء واللغات – ط " و " منهاج الطالبين – ط " و " الدقائق – ط " و " تصحيح التنبيه – ط " في فقه الشافعية. توفي 676هـ. انظر طبقات الشافعية: (65/5).

([2]) أخرجه الديلمى (398/4 ، رقم 7154) .

([3]) أخرجه الترمذى (33/5 ، رقم 2655) وقال : حسن غريب . وأخرجه أيضًا : النسائى فى الكبرى (457/3 ، رقم 5910).

([4]) هو عويمر بن مالك بن قيس بن أمية الانصاري الخزرجي، أبو الدرداء: صحابي، من الحكماء الفرسان القضاة. كان قبل البعثة تاجرا في المدينة، ثم انقطع للعبادة. ولما ظهر الإسلام اشتهر بالشجاعة والنسك. وفي الحديث " عويمر حكيم أمتي " و " نعم الفارس عويمر ". وولاه معاوية قضاء دمشق بأمر عمر بن الخطاب، وهو أول قاض بها. وهو أحد الذين جمعوا القرآن، حفظا، على عهد النبي صلى الله عليه وسلم بلا خلاف. وروى عنه أهل الحديث 179 حديثا. توفي 32هـ. انظر الإصابة: (الترجمة 6119).

([5]) أخرجه ابن النجار فى ذيل تاريخ بغداد (37/2) .

لم يزدد من الله إلا بعدا[1]».

وقال الأوزاعي[2]: شكت النواويس-وفي رواية: المقابر- إلى الله تعالى ما تجد من نتن ريح جيف الكفار، فأوحى الله إليها بطون علماء السوء أنتن مما أنتم فيه. لأن العالم إذا جعل بطنه مجمعا للطعام وحوضا تنصب فيه أودية الحرام لم تكن الجيفة أنتن من بطنه.

وقال الغزالي: علماء السوء: هم الذين قصدهم من العلم التنعم بالدنيا والتوصل إلى الجاه والمنزلة عند أهلها. وعلماء الآخرة: هم الذين لا يطلبون الدنيا بعلمهم، فإن أقل درجات العالم أن يدرك حقارة الدنيا، وخستها، وكدورتها، وانصرامها، وعظم الآخرة، ودوامها، وصفاء نعيمها، وجلالة ملكها. ويعلم أنهما متضادتان ويعلم أنهما كالضرتين مهما أرضيت أحداهما أسخَطْتَ الأخرى. وأنهما ككفتي ميزان مهما رجحت إحداهما خفت الأخرى، وأنهما كالمشرق والمغرب مهما قربت من أحدهما بعدت من الآخر، وأنهما كقدحين أحدهما مملوء والآخر فارغ فبقدر ما تصب من الممتلئ في الآخر حتى يمتلئ يفرغ الآخر. فإن من لا يعلم حقارة الدنيا فهو كافر مسلوب الإيمان، ومن لا يعلم مضادة الدنيا للآخرة فهو جاهل بشرائع الأنبياء كلهم؛ بل هو كافر بالقرآن كله، فكيف يعد من جملة العلماء؟ ومن علم هذا كله ولم يوثر الآخرة على الدنيا فهو أسير الشيطان قد أهلكته شهوته وغلبت عليه شقوته فكيف يعد من العلماء. **انتهى بخ**[3].

وفي الأخبار: يا داوود إن أدنى ما أصنع بالعالم إذا آثر شهوته على محبتي أن أحرمه لذيذ مناجاتي؛ يا داوود لا تسأل عني عالما قد أسكره حب الدنيا.

قال الحسن: عقوبة العالم موت القلوب، وموت القلب طلب الدنيا بعمل الآخرة.

وقال عمر: إذا رأيتم العالم محبا للدنيا فاتهموه على دينكم، فإن كل محب يخوض فيما أحب، **وأنشد**:

---

(1) أخرجه السيوطي في جامع الاحاديث رقم: (45654).

(2) هو عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد الاوزاعي، من قبيلة الاوزاع، أبو عمرو: إمام الديار الشامية في الفقه والزهد، وأحد الكتاب المترسلين. ولد في بعلبك، ونشأ في البقاع، وسكن بيروت وتوفي بها. وعرض عليه القضاء فامتنع. توفي 157هـ انظر الوفيات: (275/1).

(3) انظر إحياء علوم الدين للغزالي ومعه تخريج الحافظ: (116/1).

وَرَاعِي الشَّاة يَحْمِـي الـذِّيبَ عَنْهَـا ... فَكَيْـفَ إِذَا الـذِّئَابُ لَهَـا رُعَـاةُ[1]

وقال:

يَـا مَعْشَـرَ القـراءِ يَـا مِلْـحَ الْبَلَـدْ ... مَا يصْلِح الْمِلْـح إِذَا الْمِلْـح فَسَـد[2]

وقال بعض السلف: العلماء يحشرون في زمرة الأنبياء، والقضاة يحشرون في زمرة السلاطين. وفي معنى القضاة: كل فقيه قصده طلب الدنيا بعلمه.

وسأل عبد الله بن سلام[3] كعب الأحبار[4]: ما يذهب بالعلم من قلوب العلماء بعد أن حفظوه وعقلوه؟ قال: يذهبه الطمع وشره النفس، وطلب الحوائج إلى الناس.

وقال أعرابي لأهل البصرة: من سيدكم؟ قالوا: الحسن. قال: لم سادكم؟ قالوا: احتاج الناس إلى علمه واستغنى هو عن دنياهم.

وقال االشافعي: لا عيب بالعلماء أقبح من رغبتهم فيما زهدهم الله فيه، ومن زهدهم فيما رغبهم الله فيه.

قيل: طلاب العلم ثلاثة: واحد يطلبه للعمل به، **وآخر** يطلبه ليعرف الاختلاف فيتورع ويأخذ بالاحتياط فهذا هو العلم النافع، **وآخر** يطلبه ليعرف التأويل فيتناول الحرام فيجعله حلالا، ويسأل عن الشيء فيقال له حرام فيقول: كيف أصنع حتى يجوز لي فيسأل العلماء فيخبرونه بالاختلاف والشبهة، فهذا يكون هلاك الخلق على يديه والجهل خير منه.

---

(1) لم أجد قائله.

(2) البيت لم أجد قائله، ووجدته في المحاضرات في الأدب واللغة لليوسي قال: والمراد بالقراء: الفقهاء وهم يصلح ما فسد كما يصلح الطعام بالملح، فإذا فسدوا تعذر الصلاح.

(3) هو عبد الله بن سلام بن الحارث أبو يوسف: صحابي، أسلم عند قدوم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة، وكان اسمه " الحصين " فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله. وفيه الآية: " وشهد شاهد من بني إسرائيل " والآية " ومن عنده علم الكتاب " وشهد مع عمر فتح بيت المقدس والجابية. ولما كانت الفتنة بين علي ومعاوية، اتخذ سيفا من خشب، واعتزلها. وأقام بالمدينة إلى أن مات. له 25 حديثا. توفي 43هـ. انظر الإصابة: (الترجمة 4725).

(4) هو كعب بن ماتع بن ذي هجن الحميري، أبو إسحاق: تابعي. كان في الجاهلية من كبار علماء اليهود في اليمن، وأسلم في زمن أبي بكر، وقدم المدينة في دولة عمر، فأخذ عنه الصحابة وغيرهم كثيرا من أخبار الامم الغابرة، وأخذ هو من الكتاب والسنة عن الصحابة. توفي 32هـ. انظر الإصابة: (الترجمة 4798).
وخرج إلى الشام، فسكن حمص، وتوفي فيها، عن مئة وأربع سنين.

وعن علي ﷺ: ما قطع ظهري في الإسلام إلا رجلان: عالم فاجر يزهد الناس في علمه لما يرون من فجوره، ومبتدع ناسك يرغب الناس في بدعته لما يرون من نسكه.

وعن الحسن: أنه أعطاه يوما رجل خراساني خمسة آلاف درهم، وأثوابا من رقيق خَـزِّ خراسان، فقال له الحسن: ضم إليك نفقتك وكسوتك فلا حاجة لنا بذلك فـإن مـن جلس مثل مجلسي هذا وقبل من الناس مثل هذا لقي الله تعالى يوم يلقاه ولا خلاق له.

وروي: العلماء أمناء الرسل، ما لم يدخلوا في الدنيا، فإذا دخلوا في الدنيا، فاحـذروهم على دينكم.

وقال حاتم الأصم[1]: لا يجلس في المجامع إلا جامع، أي جامع للدنيا أو للعلـوم الـتي يعجز عن العمل بها، والعارفون رأوا: من آثر دنياه على آخرته غير عـالم. ورأوا: مـن انتصر لنفسه أو غضب لها غير حكيم.

وقال الفضيل: إني لأرحم ثلاثة: عزيزَ قوم ذَلَّ، وغنيا افتقر، وعالما تلعب بـه الـدنيا. **وأنشد**:

عَجِبْـتُ لِمُبْتَـاعِ الضَّـلاَلَةِ بِالْهُـدَى ... وَمَـنْ يَشْـتَرِي دُنْيَـاهُ بِالـدِّينِ أَعْجَـبُ
وَأَعْجَبُ مِنْ هَـذَيْنِ مَـنْ بَـاعَ دِينَـهُ ... بِدُنْيا سِـوَاهُ فَهْـوَ مِـنْ ذَيْـنِ أَخْيَـبُ

وقال وهب بن منبه لعطاء الخراساني[2]: كان العلماء قبلنا قد استغنوا بعلمهم عن دنيا غيرهم، وكانوا لا يلتفتون إلى دنيا غيرهم، وكان أهل الدنيا يبذلون لهم دنياهم رغبة في علمهم، فأصبح أهل العلم فينا اليوم يبذلون لأهل الدنيا علمهم رغبة في دنياهم، وأصبح أهل الدنيا قد زهدوا في علمهم لما رأوا من سوء موضعه عندهم.

([1]) هو حاتم بن عنوان، أبو عبد الرحمن، المعروف بالاصم: زاهد، اشتهر بالورع والتقشف. له كلام مدون في الزهد والحكم. من أهل بلخ. زار بغداد واجتمع بأحمد بن حنبل. وشهد بعض معارك الفتوح. وكان يقال: حاتم الاصم لقمان هذه الأمة. توفي 237هـ. انظر تاريخ بغداد: (241/8).

([2]) هو عطاء بن مسلم بن ميسرة الخراساني، نزيل بيت المقدس: مفسر. كان يغزو، ويكثر من التهجد في الليل. من تصنيفه " التفسير – خ " أوراق منه، و " الناسخ والمنسوخ – خ " جزء منه، كلاهما في الظاهرية. توفي 135هـ. انظر الشذرات: (192/2).

وقال ذو النون المصري: كان الرجل من أهل العلم يزداد بعلمه بغضا للدنيا وتركا لها، فاليوم يزداد الرجل بعلمه للدنيا حبا ولها طلبا. كان الرجل ينفق ماله على علمه ويكسب الرجل اليوم بعلمه مالا، وكان يرى على طالب العلم زيادة في باطنه وظاهره، فاليوم يرى على كثير من أهل العلم فساد في الظاهر والباطن. **وأنشد ابن المبارك**[1]:

وَهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إِلاَّ الْمُلُوك   وَأَحْبَارُ سُوءٍ وَرُهْبَانُهَا
وَبَاعُوا النُّفُوسَ وَلَمْ يَرْبَحُوا   وَلَمْ تَغْلُ فِي الْبَيْعِ أَثْمَانُهَا
لَقَدْ رَتَعَ الْقَوْمُ فِي جِيفَةٍ   يَبِينُ لِذِي اللُّبِّ إِنْتَانُهَا

وقال بعضهم: رأيت سفيان الثوري حزينا فسألته عن ذلك فقال وهو بَرِمٌ[2] ما ضرنا إلا أنا صرنا متجرا لأبناء الدنيا، قلت: وكيف ذلك؟ قال: يلزمنا أحدهم حتى إذا عُرف بنا وحمل عنا جُعل عاملا أو حاجبا أو قهرمانا أو جابيا، فيقول: حدثنا سفيان الثوري.

وعن عيسى عليه السلام أنه قال: مَثَلُ علماء السوء مثل صخرة وقعت في فم نهر لا هي تشرب الماء ولا هي تترك الماء ليخلص إلى الزرع.

وكذلك علماء الدنيا قعدوا على طريق الآخرة، فلا هم نفذوا ولا تركوا العباد يَصِلُون ويسلكون إلى الله تعالى. ومثلهم أيضا مثل قناة الْحِشِّ: ظاهرها جصٌّ وباطنها نتن. وكمثل القبور المشيدة: ظاهرها عامر وباطنها عظام الموتى. ومثل من تعلم العلم لاكتساب الدنيا وتحصيل الرفعة فيها: كمثل من رفع العذرة بملعقة من الياقوت فما أشرف الوسيلة وما أخس المتوسل إليه. فالعلم آلة حسنة كالسيف مثلا: حسن في نفسه أوفي استعماله في الجهاد ونحوه. وإنما يعرض له الذم من جهة استعماله في مذموم؛ كقطع الطريق وإخافة السبيل على المسلمين.فكما لا يذم السيف في نفسه ولا في استعماله في الجهاد ونحوه؛ فكذلك العلم لا يذم في نفسه ولا في استعماله في مرضات الله تعالى وفي **ما يقربه إليه.**

---

(1) تقدمت ترجمته.

(2) البرم: السئامة.

وقال وهب بن منبه: مثل من تعلم العلم ولا يعمل به: كمثل امرأة زنت سرا فجاءها المخاض فافتضحت. وكذلك من لا يعمل بعلمه يفضحه الله يوم القيامة على رؤوس الأشهاد.

وقال الفضيل: لو صحت النية في العلم لم يكن شيء أفضل منه، ولكنهم تعلموه لغير العمل به، وجعلوه شبكة يصطادون به الدنيا.

وقال سفيان الثوري: إنما يُتَعَلَّمُ العلمُ ليُتَّقَى به الله، وإنَّمَا فَضُلَ العلم على غيره لِيُتَّقَى به الله، فإن اختل هذا المقصد فسدت نية طالبه بأن يستشعر به التوصل إلى مترل دنيوي من مال أو جاه فقد بطل أجره وحبط عمله وخسر خسرانا مبينا، **قال تعالى:** ﴿ومن كان يريد حرث الدنيا نوته منها﴾[1].

وقال الفضيل: كان العلماء ربيع الناس إذا نظر إليهم المريض لم يسرَّه أن يكون صحيحا، وإذا نظر إليهم الفقير لم يود أن يكون غنيا، وقد صاروا اليوم فتنة على الناس؛ قال هذا في زمانه الصالح فكيف لو أدرك زماننا هذا. فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي الحديث: «همة السفهاء الرواية، وهمة العلماء الدراية[2]».

وقال ابن مسعود: كونوا للعلم رعاة ولا تكون للعلم رواة، فقد يعي من لا يدري، ويروي من لا يرعوي.

وقال الفضيل بن عياض: العلم طبيب الدين ودواؤه، والدنيا داء الدين، فإذا كان الطبيب يجر الداء لنفسه فمتى يبرئ غيره.

وقال الغزالي: الدنيا دار مرض، والعلماء أطباء، والسلاطين قوام دار المرضى، ولكن الداء العضال فقد الطبيب، فإن الأطباء هم العلماء، وقد مرضوا في هذه الأعصار مرضا شديدا عجزوا عن علاجه، وصارت لهم سلوة في عموم المرضى حتى لا يظهر نقصانهم فاضطروا إلى إغواء الخلق والإشارة إليهم بما يزيدهم مرضا؛ لأن الداء المهلك هو حب

([1]) الشورى (20).

([2]) رواه الخطيب في " اقتضاء العلم العمل " (ق 1/5) ، و ابن عساكر (2/78/19).

الدنيا. وقد غلب هذا الداء على الأطباء فلم يقدروا على تحذير الخلق منه استنكافا لهم من أن يقال لهم: فما بالكم تأمرون بالعلاج وتنسون أنفسكم، فبهذا السبب عم الداء وعظم الوباء وانقطع الدواء وهلك الخلق لفقد الأطباء، بل اشتغل الأطباء بفنون الإغواء، فليتهم إذ لم يصلحوا لم يفسدوا، وليتهم سكتوا وما نطقوا. فإنهم إذا تكلموا لم يهمهم في مواعظهم إلا ما يرغب العوام ويستميل قلوبهم ولا يتوصلون إلى ذلك إلا بالإرجاء وتغليب أسباب الرجاء وذكر دلائل الرحمة لأن ذلك ألذ في الأسماع، وأخف على الطباع، فينصرف الخلق عن مجلس الوعظ وقد استفادوا مزيد جرأة على المعاصي ومزيد ثقة بفضل الله. ومهما كان الطبيب جاهلا أو خائنا أهلك بالدواء حيث يضعه في غير محله... **إلى أن قال:** فلم يحصل للعلماء اليوم من ثمرة العلم إلا أنهم يقتدى بهم في الحرص على الدنيا والتكالب عليها. فيقال: لو كان هذا مذموما لكان العلماء أولى باجتنابه منا فليتهم كانوا كالعوام إذا ماتوا ماتت معهم ذنوبهم، فما أعظم الفتنة التي تعرضوا لها لو تفكروا. **انتهى**[1].

وقيل: العالم هو الذي يدعوا الناس إلى مثل حاله حتى يكونوا مثله، فإذا نظروا إليه زهدوا في الدنيا وشهواتها لزهده فيها.

وقال سهل[2]: العلم يهتف بالعمل فإن أجابه قرَّ وإلا ارتحل.

وقال ابن عيينة[3]: إذا رأيتم طالب العلم كلما ازداد علما رغب في الدنيا وشهواتها فلا تعلموه فإنكم تعينوه على دخول النار.

---

(1) انظر إحياء علوم الدين للغزالي: (365/5).

(2) هو سهل بن عبد الله بن يونس التستري، أبو محمد: أحد أئمة الصوفية وعلمائهم والمتكلمين في علوم الاخلاص والرياضيات وعيوب الافعال. له كتاب في (تفسير القرآن - ط) مختصر، وكتاب (رقائق المحبين) وغير ذلك. توفي 283). انظر طبقات الصوفية: (206).

(3) هو سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي الكوفي، أبو محمد: محدث الحرم المكي. من الموالي. ولد بالكوفة، وسكن مكة وتوفي بها. كان حافظا ثقة، واسع العلم كبير القدر، قال الشافعي: لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز. وكان أعور. وحج سبعين سنة. له (الجامع) في الحديث، وكتاب في (التفسير). توفي 198هـ. انظر الوفيات: (210/1).

وقال يحيي بن معاذ[1]: إذا طلب العالم الدنيا ذهب بهاؤه. وإياك يا أخي أن تقنع من العلم بالقشور. ومن الرق المنشور بالدوائر والعشور، أولئك قوم غفلوا عن الرحلة الثانية، وشغلوا بالدنيا الدنية عن القطوف الدانية، فهم في منازل الشر رافلون، وفي مهابط الغي سافلون، يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون.

(وَ) العلم النافع ما تقدم ذكره لا ما كان (**تَحَيُّلاً**) لاستمالة النفوس إليه ليعلوا قدره وينتشر ذكره وصيته، ويظفر بمراتب من الرياسة وتحيلا (**لِصَرْفِ الْقُلُوبِ**) إليه طلبا للمنزلة عند الخلق والشرف، واستجلابا للدخول على الأمراء وتوصلا للحيل التي بها يظهر جاهه عند الخلق ككثرة الكلام بالعلم.

وفي الحديث: «من تعلم صرف الكلام[2] ليسبي به قلوب الرجال والنساء لم يقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولا عدلا[3]».

وقال الإمام أحمد: علماء الكلام زنادقة. يعني بعلماء الكلام الذين يتعلمون حلاوة المنطق وضروب الفصاحة ليتمشدقوا بها ويتفاصحوا بحضرة أبناء الدنيا، ليستميلوا قلوبهم بذلك ويمدحوهم، ويعلو قدرهم، وينشر ذكرهم، ويرتفع صيتهم، ويظفروا بمراتب من الرياسة. وإنما كانوا زنادقة لأنَّ ظواهرهم تخالف بواطنهم؛ لأن الظاهر منهم يقتضي تعظيم قدر العلم والإفصاح عن دقائقه وتقريب ما أشكل منه بالعبارات البليغة الرائقة. وأما الباطن منهم: فإنما ذلك كله حبالات وشرك نصبوه لنيل الرياسة وجيفة الدنيا وكثير منهم يتمشدق ويتفاصح بما لم يحط علما بحقيقته. وذلك كله غش ونفاق لا شك فيه.

وقال الثوري: إذا رأيت العالم كثير الأصدقاء فاعلم أنه مخلط، وإذا رأيت الرجل محببا إلى إخوانه محمودا في جيرانه فاعلم أنه مراء.

---

(1) تقدمت ترجمته.

(2) صرف الكلام: أن يزاد فيه ويحسن.

(3) أخرجه أبو داود (302/4 ، رقم 5006) ، والبيهقى فى شعب الإيمان (252/4 ، رقم 4974) .

ودخل الثوري على الفضيل بن عياض فقال له: عظني، **فقال الفضيل**: ما ذا أعظكم معاشر العلماء كنتم سراجا يستضاء بكم في البلاد فصرتم ظلمة، وكنتم نجوماً يهتدى بكم في ظلمات الجهل فصرتم حيرة، يأتي أحدكم إلى هؤلاء الولاة؛ فيجلس على فرشهم ويأكل من طعامهم ويقبل هديتهم ، ثم يدخل بعد ذلك المسجد فيجلس فيه فيقول: حدثنا فلان عن فلان عن رسول الله ﷺ. والله ما هكذا يطلب العلم. فبكى سفيان وخرج.

وقال الفضيل: إذا رأيتم العالم ينشرح لذكره بالصلاح عند الأمراء وأبناء الدنيا فاعلموا أنه مراء.

وقال كعب الأحبار: سيأتي على الناس زمان يتعلم جهالهم العلم ثم يتغايرون به على القرب من الأمراء كما يتغاير النساء على الرجال، فذلك حظهم من علمهم.

وقال صالح المري(1): من ادعى الإخلاص في العلم فليعرض على نفسه إذا وصفه الناس بالجهل والرياء، فإن انشرح صدره لذلك فهو صادق، وإلا فهو مراء.

وقال الفضيل: من علامة المرائين بعلمهم أن يكون علمهم كالجبال وعملهم به كالذر.

وقال: لو أن حامل العلم عمل به لتجرع مرارته ولم يفرح به لأنه كلما ازداد علما ازداد تكاليف فلا ينبغي للعالم أن يفرح بعلمه إلا بعد مجاوزة الصراط.

وكان منصور بن المعتمر(2) **يقول لعلماء زمانه**: لستم بعلماء وإنما أنتم متلذذون بالعلم يسمع أحدكم المسألة ويحكيها للناس. ولو أنكم عملتم بعلمكم لتجرعتم المرارات والغصص ولحثكم علمكم على التورع حتى لا يجد أحدكم رغيفا يأكله

---

(1) هو صالح المرى الزاهد واعظ البصرة روى عن الحسن وجماعة وحديثه ضعيف. قال عفان كان شديد الخوف من الله إذا قص كأنه نكلى. للمزيد من أخباره انظر طبقات الشعراني: (43/1).

(2) هو منصور بن المعتمر بن عبد الله السلمي، أبو عتاب: من أعلام رجال الحديث. من أهل الكوفة. لم يكن فيها أحفظ للحديث منه. وكان ثقة ثبتا. توفي 132هـ. انظر الحلية: (40/5).

ويختبر العبد نفسه في قصده بالعلم بأن ينظر فيما يجري على لسانه من العلم والحكمة فإن كانت نفسه لا تميل إلى خَرْدَلَةٍ مِنْ جَاهٍ وَشَرَفٍ وَجَرٍّ مَنْفَعَةٍ من السامعين له فليفسخ عقدة الصمت عن لسانه وينطق بالعلم والحكمة لينتفع بها قلوب الخلق، بعدما يكون هو أكثرهم انتفاعا بالعلم وأكثرهم خشوعا. **وإن عدم هذا خِيفَ عليه أن يكون من الثلاثة الذين ورد أنهم «أول من تسعر بهم النار يوم القيامة[1]»**. فمن طلب بالعلم والحكمة لقمة أو رفعة أو منزلة فقد تعرض للسقوط من عين الله. فالأعمى لا يصلح أن يكون دليلا ، والطبيب لا يصلح أن يكون عليلا. فالعبد إذا كان بالعلم موصوفا، وكان قلبه إلى الحظ العاجل مصروفا، فقلبه من حب الدنيا معلول، وباب الأسرار عنه مقفول. فكل من مال بالكلام بالعلم إلى وزن خردلة من جاه أو رفعة أو طلب ذرة من حطام الدنيا فلفظه بالعلم تعرض منه لمقت الله عز وجل وسخطه، فحب الجاه والشرف إذا تفاحش لا يَشْفي منه العبد إلا العناية والخصوصية. فالعبد إذا تكلم بالعلم أشرف الجبار جل جلاله على قلبه فإن رأى سره خالصا لوجهه رفع قدره عند ملائكته. فإن أهل السماء ينظرون إلى صالحي أهل الأرض كما نرى نحن النجوم في السماء وإن رأى سبحانه في قلب عبده إذا تكلم بالعلم ميلا إلى حب جاه أو شرف أو منزلة عند الخلق أسقطه من عينه، وأزال لذة المناجاة من قلبه، فمثل هذا المحروم في جلسائه الشاخصين إليه؛ شبه قوم شخصوا بأبصارهم إلى بكر زافة إلى بعلها تعظيما لها، وهي مفتضة بفجور، وعلقت بجنين، فعما قليل تفتضح ويخرج تعظيمها من القلوب إذا حلت بها شواهد الامتحان، ولا يفسد الكلام بالعلم إلا بميل إلى طمعٍ أو جاهٍ أو شرفٍ أو غير ذلك من مقاصد السوء، فحب الجاه والشرف والمنزلة عند الناس مخ الدنيا ولبابها، فمن تلذذ قلبه بذوق ذرة من ذلك فهو جبار لا عبد، والجبروت لا تصح للعبيد. وما مقت الله عز وجل من الجبابرة ببعيد.

([1]) أخرجه الترمذي (591/4 ، رقم 2382) وقال : حسن غريب . والحاكم (579/1).

وفي كتاب الفرق بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة: حدثونا عن مندل بن علي[1] عن أبي نعيم الشامي[2] عن محمد بن زياد[3] عن معاذ بن جبل[4] قال: من فتنة العالم أن يكون الكلام أحب إليه من الاستماع، **ومن العلماء** من يخزن علمه فلا يحب أن يوجد عند غيره، فذلك في الدرك الأول من النار؛ **ومن العلماء** من يكون في عمله بمنزلة السلطان، فإن رد عليه شيء من علمه أو تهوون بشيء من حقه غضب، فذلك في الدرك الثاني من النار؛ **ومن العلماء** من يجعل حديثه وغرائب علمه لأهل الشرف واليسار ولا يرى أهل الحاجة له أهلاً، فذلك في الدرك الثالث من النار؛ **ومن العلماء** من يستفزه الزهو والعجب فإن وعظ عنف، وإن وعظ أنف، فذلك في الدرك الرابع من النار؛ **ومن العلماء** من ينصب نفسه للفتيا فيفتي بالخطأ، والله يبغض المتكلفين، فذلك في الدرك الخامس من النار؛ **ومن العلماء** من يتكلم بكلام اليهود والنصارى ليعزز به علمه، فذلك في الدرك السادس من النار؛ **ومن العلماء** من يتخذ علمه مروءة ونبلاً وذكراً بين الناس، فذلك في الدرك السابع من النار.

وفي الحديث: «لا تزال هذه الأمة تحت يد الله وفي كنفه ما لم يمالئ قراؤها أمراءها، وما لم يزك صلحاؤها فجارها، وما لم يمالئ خيارها أشرارها؛ فإذا هم فعلوا ذلك رفع الله عنهم يده، ثم سلط عليهم جبابرتهم فساموهم سوء العذاب، ثم ضربهم بالفاقة والفقر وملأ قلوبهم رعبا[5]».

([1]) هو مندل (ويقال: اسمه عمرو، ومندل لقبه) ابن على العنزي، أبو عبد الله: من رجال الحديث.من أهل الكوفة. توفي 167هـ. انظر الأعلام: (292/7).

([2]) لعله عبد الملك بن محمد بن عدي، أبو نعيم الجرجاني الاستراباذي، نزيل جرجان: فقيه: حافظ للحديث. له تصانيف، منها كتاب " الضعفاء " في رجال الحديث، عشرة أجزاء. توفي 323هـ. انظر تذكرة الحفاظ: (35/3).

([3]) محمد بن زياد علم على عدة علماء من علماء الحديث ولا نعرف أيهم المقصود.

([4]) تقدمت ترجمته.

([5]) أخرجه ابن المبارك في الزهد: (821).

ولـــمّا ترك بشر الحافي[1] الجلوس لإملاء الحديث قالوا له: ما تقول لربك يوم القيامة؟ فقال: أقول يا رب قد أمرتني فيه بالإخلاص و لم أجد عند نفسي إخلاصا.

وكان يقول: لو أن عبدا علم العلم كله وعبد الله حتى صار كهذه الســارية أو الشــنّ البالي، ثم أنه لم يفتش ما يدخل في جوفه أحلال هو أم حرام ما تقبل منه عبادة[2].

واعلم أن العالم إذا تصدى للتدريس أو الوعظ فقد تصدى لفتنة عظيمة لا ينجو منها إلا الصديقون؛ لأنه لا يخلو غالبا من إظهار نفسه بالعلم وطلب الشهرة وانتشار الصيت.

قال الغزالي: لأنه إن كان كلامه مقبولا حسن الوقع في القلوب لم ينفك عن الإعجاب والخيلاء والتصنع والتزين، وإن رد كلامه لم يخل عن أنفة وغيظ وحقد على من يــرده أكثر من غيظه على من يرد كلام غيره، وقد يلبِّس الشيطان عليه ويقول: إن غيظك من حيث أنه رد الحق وأنكره، فإن وجد تفرقة بين أن يرد عليه كلامه أو يرد على عالم آخر فهو مغرور وضُحَكَةٌ للشيطان. ثم إن كان له ارتياح بالقبول وفرح بالثناء واستنكاف من الرد والاعتراض لم يخل عن تكلف وتصنع لتحسين اللفظ حرصا على استجلاب الثنــاء والله لا يحب المتكلفين، والشيطان قد يلبس عليه ويقول: إنما حرصك على تحســين الألفاظ والتكلف فيها لينتشر الحق ويحسن موقعه في القلب إعلاء لدين الله تعالى. فــإن كان فرحه بحسن ألفاظه وثناء الناس عليه أكثر من ثناء الناس على واحد من أقرانه فهو مخدوع. وإنما يدور حول طلب الجاه وهو يظن أن مطلبه الدين. ومهما اختلج ضــميره لهذه الصفات ظهر على ظاهره حتى يكون للموقر له والمعترف بفضله أكثــر احترامــا. ويكون بلقائه أشد استبشارا ممن يغلو في موالاة غيره. وإن كان ذلك الغــير مســتحقا للموالاة. وربما ينتهي الأمر بأهل العلم إلى أن يتغايروا تغاير النساء فيشق على أحدهم أن يختلف بعض تلامذته على غيره. وإن كان يعلم أنه ينتفع بغيره ويستفيد منه في دينــه. فكل هذا رشح للصفات المهلكة في سر القلب التي قد يظن العالم النجاة منــها وهــو

([1]) تقدمت ترجمته.

([2]) انظر تنبيه المغترين للشعراني: (37).

مغرور فيها، وإنما ينكشف ذلك بهذه العلامات ففتنة العالم عظيمة فيجب عليه إن أحس بهذه الصفات العزلة وطلب الخمول ودفع الفتاوى مهما سُئل. والصحابة كلهم مُفْتُون وكانوا يتدافعون الفتوى، وكل من كان يستفتي كان يود أن يكفيه غيره، وعند هذا ينبغي أن يتقي شياطين الإنس إذا قالوا: لا تفعل هذا. فإن هذا الباب لو انفتح لاندرست العلوم بين الخلق. ولْيقل لهم: إن دين الإسلام مستغن عني، فقد كان معمورا قبلي وكذلك يكون بعدي، ولو مت لم ينهدم والدين مستغن عني وما أنا بمستغن عن إصلاح قلبي.

وأما أداء ذلك إلى اندراس العلم فَحِيَلٌ تدل على غاية الجهل فإن الناس لو حبسوا في السجن وقيدوا بالقيود وتوعدوا بالنار على طلب العلم لكان حب العلو والرياسة يحملهم على كسر القيود وهدم حيطان الحصون والخروج منها والاشتغال بطلب العلم. فالعلم لا يندرس ما دام الشيطان يحبب إلى الخلق الرياسة، والشيطان لا يفتر عن عمله إلى يوم القيامة بل ينتهض لنشره أقوام لا نصيب لهم في الآخرة **كما ورد:** «إن الله تعالى يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم[1]»، «وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر[2]» فلا ينبغي أن يغتر العالم بهذه التلبيسات. فيشتغل بمخالطة الخلق حتى يتربى في قلبه حب الجاه والشرف والثناء والتعظيم فإن ذلك بذر النفاق، **فقد ورد:** «حب الجاه والشرف ينبتان النفاق في القلب[3]». **وورد أيضا:** «ما ذئبان ضاريان أرسلا في زريبة غنم بأكثر فسادا فيها من حب الجاه والمال في دين المرء المسلم[4]». فليكن فِكْرُ العالم في التفطن لخفايا هذه الصفات من قلبه وفي استنباط طريق الخلاص منها...**إلى آخر كلامه[5]**.

([1]) أخرجه أيضًا : الطبراني فى الصغير (97/1 ، رقم 132) .

([2]) أخرجه الطبرانى (39/17 ، رقم 81) قال الهيثمى (303/5) : رجاله ثقات . وأخرجه أيضًا : القضاعى (159/2 ، رقم 1096) .

([3]) أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة بسند ضعيف. الاحياء: (159/3).

([4]) أخرجه الطبراني في الأوسط: (772).

([5]) انظر إحياء علوم الدين: (103/7).

ثم قال: (وَإِلاَّ) بأن كان تعلمه وتعليمه رياء ومباهاة، أو تصيدا للدنيا...إلخ (كَانَ) ذلك (حُجَّةً) على صاحبه (وَوَبَالاً عَلَى صَاحِبِهِ) وسببا في تكثير العذاب عليه وحبط عمله فيقال له يوم القيامة: قد استوفيت حظك في الدنيا موفورا فيخسر خسرانا مبينا.

والوبال: المكروه وسوء العقبى.

قال ابن العربي: دخلت على بعض المشايخ وكتابي في كمي، فقال: يا هذا تكثر عليك الحجج؛ فو الله ما من حرف تعلمته و لم تعمل به إلا كان حجة عليك، فأقلل أو أكثر.

وقال الشعبي[1]: اطلبوا العلم وأنتم تبكون فإنه كله حجة عليكم عند ربكم، فويل للجاهل حيث لم يتعلم مرة، وويل للعالم حيث لم يعمل بما علمه ألف مرة؛ لأن حجة الله عليه أظهر.

(وَ) العلم النافع أيضا: (مَا أَفَادَ الْخَشْيَةَ) وهي مهابة يصحبها تعظيم لأنها تحجز عن المعاصي والقبائح وتدعوا إلى إلى المحاسن والنصائح. **قال الله تعالى:** ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾[2].

وفي الحكم: العلم إن قارنته الخشية فلك وإلا فعليك[3].

قيل: إذا أراد الله تعالى أن يخذل عبدا أعطاه العلم أو النعمة أو الفقر أو البلاء أو الحكمة أو الوقت أو الغنى، ويمنعه الخشية أو الشكر أو الصبر أو الأدب أو العمل أو السخاء.

قال الإمام أحمد: علامة إخلاص العالم أنه كلما ازداد علما ازداد خشية وزهدا في الدنيا.

وقال الحسن: كان الرجل إذا طلب العلم لم يلبث أن يرى ذلك في تخشعه ولباسه وبصره ولسانه وصلاته وزهده، وإن كان الرجل ليصيب الباب من أبواب العلم فيعمل به فيكون له خيرا من الدنيا بما فيها لو كانت فيضعها في الآخرة.

([1]) الشعبي: هو عبد الرحمن بن قاسم الشعبي أبو المصرف قاضي مالقة بالأندل، كانت تدور عليه الفتيا أيام حياته في قطره وكان يذهب إلى الاجتهاد. له مجموع في الأحكام. توفي 499هـ، انظر الأعلام: (47/4).

([2]) فاطر: (28).

([3]) انظر شرح الحكم العطائية للأزهري: (151/1).

فائدة: ومن فضائل الخشية: أنها تورث البكاء، وقد عد من بكى من خشية الله ممن يظلهم الله تعالى بعرشه.

وحكى الطبري[1] **عن التيمي**[2] **أنه قال:** من أوتي من العلم ما لم يبكه ويورثه الخشوع لخليق ألا يكون أوتي علما ينفعه لأنه تعالى نعت العلماء بقوله: "ويخرون للأذقان يبكون".

ونقل الغزالي عن ابن عباس أنه قال: إذا قرأ أحدكم سجدة سبحان فلا تستعجلوا بالسجود حتى تبكوا، فإن لم تبك عين أحدكم فليبك قلبه. **قال الغزالي:** فإن لم يحضره حزن وبكاء كما يحضر أرباب القلوب الصافية فليبك على فقد الحزن والبكاء فإن ذلك من أعظم المصائب[3].

وفي الحديث: «إذا اقشعر جلد العبد من خشية الله حرمه الله على النار[4]». **قال قتادة**[5]: هذا نعت أولياء الله، نعتهم بأن تقشعر جلودهم وتطمئن قلوبهم بذكر الله، و لم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم إنما ذلك في أهل البدع وهو من الشيطان الرجيم[6].

وأخرج البغوي[7] **عن عبد الله بن عروة بن الزبير**[1] **قال:** قلت لجدتي أسماء: كيف كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا قرئ عليهم القرءان؟ قالت: تدمع أعينهم وتقشعر

---

(1) تقدمت ترجمته.

(2) تقدمت ترجمته.

(3) انظر إحياء علوم الدين: (38/2).

(4) ذكره الحكيم (395/1) ، وأبو بكر الشافعى فى الغيلانيات (ص 129 ، رقم 271) ، وأورده الحافظ فى الإصابة.

(5) هو أبو الخطاب قتادة بن دعامة السدوسي البصري الأكمه أحد علماء التابعين ومن أعلمهم بالتفسير واختلاف العلماء، روى عن أنس وابن المسيب وابن سيرين ومجاهد ومسروق وغيرهم، وروى عنه الأعمش والأوزاعي والشعبي، وكان حافظا عالما باللغة والأنساب وأيام العرب. توفي سنة: 117 وقيل 118 هـ. (وفيات الأعيان ج4 ص: 85، طبقات الفقهاء ص: 89، شذرات الذهب ج1 ص: 153).

(6) انظر معالم التنزيل: (116/7).

(7) هو الحسين بن مسعود بن محمد، الفراء،أو ابن الفراء، أبو محمد، ويلقب بمحيي السنة، البغوي فقيه، محدث، مفسر.نسبته إلى (بغا) من قرى خراسان، بين هراة ومرو. له (التهذيب - خ) في فقه الشافعية، و (شرح السنة - خ) في الحديث، و (لباب التأويل في معالم

جلودهم. قال: فقلت لها: إن ناسا اليوم إذا قرئ عليهم القرآن خر أحدهم مغشيا عليه. قالت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

وأخرج عن ابن عمر أنه مر برجل من أهل العراق ساقط قال: ما بال هذا؟ قيل: إنه إذا قرئ عليه القرآن وسمع ذكر الله سقط. قال ابن عمر: إنا لنخشى ولا نسقط. **قال ابن عمر**: إن الشيطان ليدخل في جوف أحدهم. ما كان هذا صنيع أصحاب رسول الله ﷺ.

وذكر عند ابن سيرين الذين يصرعون إذا قرئ عليهم القرآن فقال: بيننا وبينهم أن يقعد أحدهم على ظهر بيت باسطا رجليه ثم يقرأ عليه القرآن من أوله إلى آخره فإن رمى بنفسه فهو صادق[2].

(**وَ**) العلم النافع (**مَا أَفَادَ الذُّلَّ لله وَالْخَوْفَ مِنَ الله**) تعالى والرجاء (**وَالزُّهْدَ**) في الدنيا والإعراض عنها وعن طلبها وبغضها والتقلل منها ومجانبة أبواب أربابها، وترك ما فيها على من فيها والرغبة في الآخرة والإعانة على سلوك طريقها.

وروي عن علي وابن عباس وكعب الأحبار رضي الله عنهم: «يكون في آخرِ الزمان عُلماء يُزَهِّدون في الدُّنيا ولا يَزهدون، ويُخوفون ولا يَخافون، ويَنْهَوْن عن غشيان الوُلاة ولا ينْتهون، ويوثرون الدنيا على الآخرة، ويأكلون الدنيا بألسنتهم أكلا، يُقَرِّبون الأغنياء، ويُباعِدون الفُقراء، ويتغايرون على العلم كما يتغاير النساء على الرجال. يغضب أحدهم على جليسه إذا جالس غيره. ذلك حظهم من العلم». **وفي حديث ابن عباس**: «أولئك الجبارون أعداء الرحمن[3]».

(**وَالأَدَبُ**) مع الخلق ومع الخالق تعالى ظاهرا وباطنا.

التنزيل – ط) في التفسير، و (مصابيح السنة – ط) و (الجمع بين الصحيحين) وغير ذلك. توفي بمرو الروذ 510هـ. انظر الوفيات: (145/1).

([1]) هو عبد الله بن عروة بن الزبير بن العوام، الاسدي: تابعي. من الخطباء شجعان. كان يشبه بعبدالله بن الزبير في لسانه وجلده. وله شعر. توفي 126هـ. انظر تهذيب التهذيب: (319/5).

([2]) انظر معالم التنزيل: (87/4).

([3]) أخرجه المناوي في فيض القدير: (247).

وفي شرح الحكم للمناوي: قال بعضهم: ليس لنا علم شرعي إلا وهو يدعوا إلى الأدب مع الله تعالى ومع خلقه فليمتحن طالب العلم نفسه، فإن كان كلما ازداد علما ازداد أدبا مع الله تعالى وزهدا فليعلم أن اشتغاله بالعلم على القواعد. وإن كان كلما ازداد علما ازداد حبا للدنيا ومناصبها وحب المأكل والمشرب والملبس والمنكح فليقصر عنه ويكثر من الاستغفار فإنه على شفا جرف هار. انتهى.

(وَ) العلم النافع ما أفاد (التَّوَاضُعَ) لله تعالى. قال تعالى: ﴿واخفض جناحك لمن اتبعك من المومنين﴾[1]. وأما حديث: «ليس منا من لم يتعاظم بالعلم[2]» فمعناه: ليس منا من لم يعتقد أن الله جعله عظيما بالعلم حيث جعله محلا له وموصوفا به، ولم يسترذله بحيث حظره عليه ومنعه منه كما ورد في الحديث: «إذا استرذل الله عبدا حظر عليه العلم والأدب[3]»، أو ما هذا معناه. وليس المراد بتعاظمه احتقار غيره.

وعن عمر ﷺ: تعلموا العلم، وتعلموا للعلم السكينة والحلم، وتواضعوا لمن تتعلمون منه، وليتواضع لكم من يتعلم منكم، ولا تكونوا من جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم. ويقال: ما آتى الله عبدا علما إلا آتاه معه حلما وتواضعا وحسن خلق فذلك علامة العلم النافع، وقد روينا معناه في الأثر: «من آتاه الله عز وجل زهدا وتواضعا وحسن خلق فهو إمام المتقين[4]».

وقال الحسن: الحلم وزير العلم، والرفق أبوه، والتواضع سرباله.

والعلم النافع أيضا: ما أفاد كيفية التعبد له والتأدب بين يديه وإيثار الآخرة والوقوف على حدوده والنصيحة للخلق والشفقة عليهم وحسن معاملة الله ودوام مراقبته وطلب الحلال وحفظ الجوارح وأداء الأمانة ورعاية الظاهر ومراقبة الباطن ومجالسة الفقراء وتعظيم الأولياء والتخلق بأخلاق الإيمان وتوافق الإسرار والإعلان، والموالاة في الله

([1]) الشعراء: (215).

([2]) لم أجد تخريجه.

([3]) تقدم تخريجه.

([4]) لم أجد تخريجه.

والمعاداة فيه والحرص على التفطن للأسباب الباعثة له على الاستقامة والآداب فيراعيها طلبا وحفظا ومعرفة الأسباب الصادة له عن ذلك فيوسعها رفضا وهَرَبًا.

(وَ) ما أفاد (**الافْتِقَارَ**) إلى الله تعالى والاستغناء به عن غيره ومخالفة النفس ومباينة الشهوات ودوام المجاهدة. (**وَطَهَّرَ الْقَلْبَ**) أي طهره من عيوبه حتى يفيد لصاحبه الخشية والاستكانة والتأثر بقوارع التذكير، ويكون سالما من الشدة والفترة والغلظ. (**وَقَمعَ النَّفْس**) **قال مالك بن دينار**: من لم يؤت من العلم ما يقمعه فما أوتي منه لا ينفعه.

والقلب: القوة المستعدة لقبول المفهومات وهو يطلق على **معنيين**: اللحم الصنوبري الشكل المودع في الجانب الأيسر من الصدر وهو لحم مخصوص وفي باطنه تجويف، وفي ذلك التجويف دم أسود وهو منبع الروح ومعدنه وهو موجود لسائر الحيوانات حتى الميتة. **المعنى الثاني**: هو لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسماني تعلق وتلك الحقيقة هي حقيقة الإنسان. وتعلقها يشبه تعلق الأعراض بالأجساد والصفة بالموصوف. وحيث ورد في القرآن والسنة لفظ القلب فالمراد به: المعنى الذي يَفْقَهُ من الإنسان ويعرف حقيقة الأشياء. وقد يكنى عنه بالقلب الذي في الصدر؛ لأن بين اللطيفة وبين جسم القلب علاقة خاصة **كما مرَّ**.

(وَ) العلم النافع ما (**مَنَعَ صَاحِبَهُ مِنَ الْمَعَاصِي**) الظاهرة والباطنة، فقليل علم تصحبه هذه الأشياء من ورع وخشية وغيرهما خير من كثير منه خال منها. ألا ترى إلى يوسف عليه السلام كيف لم ينفعه جمال صورته الظاهرة، وكان قيمة ذلك أن كان عبدا مملوكا محكوما عليه ثم غضب عليه ثم سجن مدة، فوصل بجماله إلى السجن والذل والملك. ولما ظهر جمال صورته الباطنة بالعلم والحكمة قال له الملك: ﴿إنك اليوم لدينا مكين أمين﴾(1). وقال له عند ذلك: ﴿اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم﴾(2)، ولم يقل: إني حسن جميل؛ لعلمه بأن السؤدد والرفعة في الدنيا والآخرة لا تنال إلا بجمال

---

(1) يوسف (54).

(2) يوسف (55).

الباطن بالعلم بالله ولله وفي الله، فلما ظهر عليه جمال الباطن وصل به إلى الرفعة والسؤدد.

(وَإِلاَّ) بأن أفاد الرياء والمباهاة والرغبة في الدنيا والتملق لأربابها، وصرف الهمة لاكتسابها والجمع والادخار والتكبر وطول الأمل ونسيان الآخرة وطلب العلو والرياسة واستتباع الخلق والتصدي إلى تولي الأعمال السلطانية واكتساب الحرام. (لَمْ يمنعْ غَدًا مِنَ النَّارِ) بل يدخل فيها والعياذ بالله تعالى. **وهذا هو العلم غير النافع الذي استعاذ منه النبي ﷺ فقال:** «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع[1]». **وفي الحديث:** «العلم الذي لا يعمل به كالكنز الذي لا ينفق منه أتعب صاحبه نفسه في جمعه ثم لم يصل إليه[2]». **وفيه:** «أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه[3]». **وفيه:** «يكون في آخر الزمان عُبَّادٌ جهال وعلماء فساق[4]».

وقيل لإبراهيم بن أدهم: أي الناس أطول ندامة؟ فقال: أما في عاجل الدنيا فصانع المعروف إلى من لم يشكر، وأما عند الموت فعالم مفرط.

وقال الحسن: عالم بلا عمل هو وإبليس سواء، وملك لا يعدل في رعيته هو وفرعون سواء، وامرأة لا تلزم بيتها هي والأمة سواء.

وقال ابن المبارك: لا يزال المرء عالما ما طلب العلم، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل.

وقال أبو عمر بن عبد البر: وروينا عن فضيل بن عياض وأسد بن الفرات[5] قالا: بلغنا أن الفسقة من العلماء ومن حملة القرآن يبدأ بهم يوم القيامة قبل عبدة الأوثان. **قال الفضيل:** لأن من علم ليس كمن لم يعلم.

([1]) أخرجه الحاكم (716/1 ، رقم 1957) وقال : صحيح الإسناد

([2]) أخرجه الطبراني في الأوسط. انظر حاشية الشهاب على البيضاوي: (230/1).

([3]) أخرجه الطبراني في الصغير (305/1 ، رقم 507) ، والبيهقي في شعب الإيمان (284/2 ، رقم 1778) ،

([4]) أخرجه الحاكم (351/4 ، رقم 7883) ، وأبو نعيم في الحلية (331/2).

([5]) هو أسد بن الفرات بن سنان مولى بني سليم، أبو عبد الله: قاضي القيروان وأحد القادة الفاتحين. أصله من خراسان.ولد بحران (أو بنجران) ورحل أبوه إلى القيروان، في جيش الاشعث، فأخذه معه وهو طفل، فنشأ بها ثم بتونس. ورحل إلى المشرق في طلب الحديث (سنة 172 هـ ثم ولي قضاء القيروان (سنة 204 هـ وكان شجاعاً حازما صاحب رأي. واستعمله زيادة الله الاغلبي على جيشه

وفي الحديث: « يؤتى بالعالم يوم القيامة، فيلقى في النار فتندلق أقتابه فيدور بها كما يدور الحمار في الرحا فيطوف به أهل النار، فيقولون: ما لك. فيقول: كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه[1]».

وقال ﷺ: «مررت ليلة أسري بي بأقوام تقرض شفاههم بمقاريض من نار، فقلت: من أنتم؟ فقالوا: إنا كنا نأمر بالخير ولا نفعله[2]».

ومن أوصاف العالم: أن يكون أعمل بعلمه من متعلميه وإلا كان حسرة عليه وندامة **كما قال حاتم الأصم**: ليس في القيامة أشد حسرة من رجل علم الناس علما فعملوا به ولم يعمل به هو، ففازوا بسببه وهلك.

وإذا كان العالم يحض على الخير بلسانه ويأتي خلافه بأفعاله فقد نفع غيره وأهلك نفسه، **كما قال الشافعي**: يطلع قوم من أهل الجنة على قوم من أهل النار فيقولون لهم: بماذا دخلتم النار وإنما دخلنا الجنة بفضل تأديبكم وتعليمكم؟ فقالوا: إنا كنا نأمر بالخير ولا نفعله، وننهى عن المنكر ولا ننتهي عنه.

وروي: أن رجلا كان يخدم موسى عليه السلام فجعل يقول: حدثني موسى صفي الله، حدثني موسى كليم الله حتى أثري وكثر ماله ففقده موسى عليه السلام وجعل يسأل عنه ولا يحس له أثرا. حتى جاءه رجل ذات يوم وفي يده خنزير وفي عنقه حبل أسود فقال: يا موسى أتعرف فلاناً. قال: نعم. قال: هو هذا الخنزير. فقال موسى عليه السلام: يا رب أسألك أن ترده إلى حاله الأول حتى أسأله بم أصابه ذلك؟ فأوحى الله تعالى إليه: لو دعوتني بالذي دعاني به آدم فمن دونه ما أجبتك فيه، ولكن أخبرك لم صنعت به هذا لأنه كان يطلب الدنيا بالدين.

وأسطوله ووجهه لفتح جزيرة صقلية (سنة 212 هـ فهاجمها بعشرة آلاف، ودخلها فاتحا، قال ابن ناجي: وهو أول من فتح صقلية. وتوفي من جراحات أصابته وهو محاصر سرقوسة برا وبحرا. وهو مصنف (الاسدية) في فقه المالكية. توفي 213هـ. انظر قضاة الأندلس: (54).

([1]) أخرجه أحمد (205/5 ، رقم 21832) ، والبخارى (1191/3 ، رقم 3094) ، ومسلم (2290/4 ، رقم 2989) .

([2]) أخرجه أحمد (120/3 ، رقم 12232) ، والطبرانى فى الأوسط (144/8 ، رقم 8223) ، وأبو نعيم فى الحلية (386/2).

العلم غير النافع

واختلف في العلم الذي لا ينفع -الذي استعاذ منه النبي ﷺ- فقيل: هو الذي لا يعمل به صاحبه. قال الطيبي[1]: هو الذي لم يهذب الأخلاق الباطنة فيسري منها إلى الأفعال الظاهرة . **قال**: والعلم المذموم هو أن يكون موديا إلى ضرر لصاحبه أو لغيره كعلم السحر والطلسمات، أو وسيلة إلى شر كعلم النجوم فإنه خوض في فضول لا يعني، وتضييع العمر النفيس بغير فائدة طائلة، وكتعلم دقيق العلوم قبل جليها وكالبحث عن الأسرار الإلهية التي تطلع عليها الفلاسفة والمتكلمون فيجب كف الناس عن البحث عنها وردهم إلى ما نطق الشرع به. **انتهى**.

قال العلقمي: ويلحق بذلك علم المنطق، فقد نهى عنه كثير من المتقدمين والمتأخرين حتى جوز بعضهم الاستنجاء بكتبه؛ أي الخالية من اسم الله ورسله.

فائدة: وعلى المعلم أن يتفقد أحوال من يتعلم منه، فلا يبذل علمه إلا لمن توسم فيه الخير والصلاح إذ بذلك تستقيم له النيات والمقاصد التي ذكرناها ولا يبذله لمن سوى هذا ممن علم حاله أو جهله.

وقال الثوري: والله لو أعلم بالذي يطلب هذا العلم لا يريد به إلا ما عند الله لكنت أنا الذي آتيه في مترله وأحدثه بما عندي مما أرجوا أن ينفعه الله به. وفي قوله تعالى: ﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم﴾ تنبيه على أن حفظ العلم عمن يفسده ويستضر به أولى كما قيل:

وَمَنْ مَنَحَ الْجُهَّالَ عِلْمًا أَضَاعَهُ ... وَمَنْ مَنَعَ الْمُسْتَوْجِبِينَ فَقَدْ ظَلَمْ[2]

([1]) هو أحمد بن أحمد بن بدر الدين، شهاب الدين الطيبي الصالحي الدمشقي: فقه شافعي متصوف. كان إماما بجامع بني أمية.له (زاد الابرار وسلاح الاخيار - خ). توفي 979هـ. انظر الشذرات: (393/8).

([2]) البيت هو الأخير من خمسة أبيات للشافعي. انظر ديونه (حرف الميم).

وحكي عن بعض الأمم السالفة أنهم كانوا يختبرون المتعلم مدة في أخلاقه، فإن وجدوا فيه خلقا رديا منعوه التعليم أشد المنع. وقالوا: يستعين بالعلم على مقتضى خلقه الردي فيصير العلم آلة شر في حقه.

وقالت الحكماء: زيادة العلم في الرجل السوء: كزيادة الماء في أصول الحنظل؛ كلما ازداد ريا ازداد مرارة. وعلى المعلم أيضا أن يتأمل المفاسد التي تنشأ عن تعليمه ويقيس بها ما توهمه من المصالح الناشئة عن تعليمه بزعمه ويدقق النظر في ذلك كما يدققه في أكثر المسائل التي لا يحتاج إليها، ولا يقدم على التعليم في هذا الزمان حتى يقطع بوجوب ذلك عليه من غير تردد ولا تجويز وقوع خطإ في نظره، وعليه أن يحرص على مخالفة نفسه فيما تدعوه إليه من التعليم لأن كلما تستحليه النفس ويوافق غرضها مصحوب بالآفات والعلل التي تقدح في الإخلاص. ويأتي الكلام على اتهام النفس في دعائها إلى ما ظاهره خير إن شاء الله تعالى. وتقدم الكلام على الميزانين الذين يوزن بهما صحة الأعمال واعتلالها.

قلت: فإذا وفق الله تعالى العالم من العلماء إلى الإقبال على الآخرة والإعراض عن الدنيا وما فيها ومن فيها والسلامة من آفات العلم وخطره العظيم. **فأول ما** يلزمه أن يعرف نعم الله عليه في ذلك، ويقوم بواجب الشكر، ويزيد تواضعا واجتهادا، ويعلم أنه محمول على ذلك، وأن ذلك بتوفيق من الله لا بمجاهدة منه، فإن مجاهدته أيضا ومعرفته لنعم الله تعالى نعمة من نعم الله عليه بزيادة توفيق. فإذا كان العالم بهذا المحل من الدين كان إماما مقتدًى به ظاهرا وباطنا، يهتدى بنوره، ويكون حجة الله في عباده وبركة في بلاده.

والعلوم التي طلبها في الجملة فرضٌ ثلاثة: علم التوحيد، وعلم السر وهو الذي يتعلق بالقلب ومساعيه، **وعلم الشريعة**. وفي هذه العلوم الثلاثة فرض العين وفرض الكفاية.

وقال سيدي زروق: العلوم ثلاثة: علم كالغذاء: فلا يستغنى عنه بحال وهو فرض العين؛ وهو ما لا يومن الهلاك مع جهله. **وعلم كالدواء**: وهو ما يومن الهلاك مع جهله؛ وهو فرض الكفاية. **وعلم كالداء**: وهو ما يودي إلى ضرر في الدين والدنيا؛

يختلف باختلاف أحوال الناس فيه. وَعَدَّ فيه جماعة علم الجدل والكلام والمنطق. والحق أن في ذلك تفصيلا. انتهى.

العلماء أربعة أقسام

والعلماء أيضا على أربعة أقسام: عالم يعمل بعلمه ويأمر به غيره فهو كَالأُتْرُجَّةِ: ريحها طيب وطعمها طيب. وعالم يعمل بعلمه ولا يأمر به غيره فهو كالتمرة طعمها طيب ولا ريح لها. وعالم لا يعمل بعلمه ولكن يأمر به غيره فهو كالرَّيحانة ريحها طيب وطعمها مر. وعالم لا يعمل بعلمه ولا يأمر به غيره فهو كالحنظلة ريحها خبيث وطعمها مرٌّ.

وقال عبد الرحمن بن غانم: حدثني عشرة من أصحاب رسول الله ﷺ: إنا كنا ندرس العلم في مسجد قباء؛ إذ خرج علينا رسول الله ﷺ قال: «تعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله عليه حتى تعملوا[1]». فالعلم دليل على العمل، فإن لم تعملوا به صار جمع العلم عليك حجة، فإن عملت بما علمت أورثك الله علم ما لم تعلم، وإن لم تعمل بما علمت فلا يفيدك طلب ما لم تعلم إلا ثبوت الحجة عليك، فلا فائدة في العلم إذا أَطْلعك على القبيح فلم تجتنبه، وأراك الجميلَ و لم تتبعه.

وقال عيسى عليه السلام: مثل الذي يتعلم العلم ولا يعمل به؛ كمثل امرأة زَنَتْ فِي السِّرِّ فحملت فظهر حملها فافتضحت. وَزِنَى العالِمِ فعلُ القبائح في السر والكلام في العلم في العلانية، فإذا ظهرت عليه الأعمال التي لا توافق العلم افتضح، ففائدة العلم العمل به عند العلماء، وفائدته عند الجهلاء الخبر به.

وقال الغزالي: ومما يُصَيِّرُ الصغيرة كبيرة أن يكون المذنب عالما يقتدى به، فإذا فعله بحيث يرى ذلك منه كبر ذنبه؛ كلبس العالم الإِبْرَيْسِمَ وركوبه مراكب الذهب، وأخذه مال الشبهة من أموال السلاطين، ودخوله عليهم وتردده إليهم ومساعدته إياهم بترك الإنكار عليهم وإطلاقه اللسان في الاعراض، وتَعَدِّيهِ باللسان في المناظرة قصد الاستخفاف،

([1]) أخرجه ابن عدى (25/2 ، ترجمة 264 بكر بن خنيس) ، والخطيب (94/10) ، وأبو نعيم في الحلية (236/1) .

واشتغاله من العلوم بما لا يقصد منه إلا الجاه كعلم الجدل والمناظرة فهذه ذنوب [يعتب[1]] العالم عليها فيموت العالم ويبقى شره مستطيرا في العالم؛ آمادا متطاولة. فطوبى لمن إذا مات ما تت ذنوبه معه. **قال ابن عباس:** وَيْلٌ للعالم من الاتباع، يَزِلُّ زلة فيرجع عنها ويحتملها الناس ويذهبون بها في الآفاق. **وقال بعضهم:** مثل زلة العالم مثل انكسار السفينة تغرق ويغرق أهلها.

فاتضح أن أمر العلماء مُخْطِرٌ، فعليهم **وظيفتان: إحداهما:** ترك الذنب. **والأخرى:** إخفاؤه. وإن مال العالم إلى التَّجَمُّلِ مالت طبائع من دونه إلى التشبه به، ولا يقدرون على التجمل إلا بخدمة السلاطين. وجمع الحطام من الحرام ويكون هو السبب في جميع ذلك. **انتهى**[2].

وظيفة العالم

ومن وظيفة العالم: تحسين الظاهر والباطن والسر والعلانية والأقوال والأفعال. **وأنشدوا:**

الْعَيْبُ فِي الْجَاهِلِ الْمَغْمُورِ مَغْمُورُ ... وَعَيْبُ ذِي الشَّرَفِ الْمَذْكُورِ مَذْكُورُ
كَقَلْمَةِ الظُّفْرِ تَخْفَي مِنْ حَقَارَتِهَا ... وَمِثْلُهَا فِي سَوَادِ الْعَيْنِ مَشْهُورُ[3]

لأن اشتهاره بالخير يبعث على الاقتداء به فيحصل له كمال السعادة ويصير للمتقين إماما. واشتهاره بالدَّناءة ينفر منه النفوسَ فتفوته هذه المترلة، وإذا كان ينبغي له أن يكتم من الحق ما تنفر منه عقول جلسائه وأهلِ زمانه، وأن يخاطب الناس على قدر عقولهم، وإلا لم يحصل مقصوده من إظهار الحق.

وفي الحديث: «من خاطب الناس بما لا تصل إليه عقولهم كان عليهم فتنة[4]». اللهم إلا أن يكون مما أوجب الله إظهاره كقواعد الدين، وإبطال شبه المبطلين، والأمر بالمعروف،

---

(1) في النسخة "ب" "يتبع".

(2) انظر إحياء علوم الدين: (330/5).

(3) البيتان للمخزومي كما في زهر الأكم في الأمثال والحكم لليوسي.

(4) لم أجد تخريجه.

فليقل: ﴿الحق من ربكم فمن شاء فليومن ومن شاء فليكفر﴾[1]. ومن رضي الله تعالى عنه فلا يضره غضب غيره.

إِذا رَضِيَتْ عَنِّي كِرامُ عَشيرَتي فَلا زالَ غَضْباناً عَلَيَّ لِئامُها[2]

ومن وظيفة العالم أيضا: أن يكون عارفا بزمانه مقبلا على شأنه حافظا للسانه محترزا من إخوانه فلم يوذ الناس قديما إلا معارفهم. والمغرور من اغتر بمدحهم له، والجاهل من صدقهم على خلاف ما يعرف من نفسه.

ومن وظيفة العالم أيضا: ألا يصبر حتى يسأل، بل ينبغي أن يتصدى لدعوة الناس إلى نفسه فإن العلماء ورثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والأنبياء ما تركوا الناس على جهلهم بل كانوا ينادونهم في مجامعهم، ويدورون على أبوابهم في الابتداء ويطلبونهم واحدا بعد واحد فيرشدونهم. فإن مرضى القلوب لا يعرفون مرضهم. وهذا فرض عين على العلماء كافة أن يرتبوا في كل قرية وفي كل محلة فقيها متدينا يعلم الناس دينهم. فإن الخلق لا يولدون إلا جهالا فلا بد من تبليغ الدعوة إليهم في الأصل والفرع. **قاله الغزالي**[3].

ومن شأنه أن يضع التراب على رأسه ويعاتب نفسه إذا خلي بها، ولا يفرح بالرياسة فإنه إذا اضجع في قبره وتوسد التراب شاهد ذلك كله.

ومن وظيفة العالم: أن يتواضع لله عز وجل في علمه ويحترس من نفسه ويقف عما أشكل عليه، ولا يستحيي أن يقول: لا أدري فيما لا يدري، وينقل الرواية جهده وينصف جلساءه ويلين لهم جانبه، ويثبت سائله، ويتوقى الضجر، ويلزم نفسه الصبر ويصفح عن زلة جليسه ولا يواخذه بعثرته.

---

[1] الكهف (29).

[2] البيت لمحمد بن القاسم بن خلاد بن ياسر الهاشمي أبو الولاء. انظر ديوانه (حرف الميم).

[3] انظر الإحياء: (365/5).

ومن وظيفة العالم: صيانة نفسه عن كل دناءة وعيب وإن لم يكن مأثما، وإن أولى الناس بالمروءة والأدب وصيانة الدين ونزاهة النفس: العلماء.

ومن وظيفة العالم أيضا: أن لا يخطو خطوة إلا خطوة يبغي بها ثواب الله عز وجـــل ولا يجلس مجلسا يخاف عاقبته ووزره، فإن ابتلي بالجلوس فيه فليقم لله تعالى بواجب حقه في إرشاد من استحضره ووعظه، ولا يجالسه بموافقته فيما يخالف الله عز وجل في مرضاته، ولا تتعرض منه حاجة لنفسه ولا أخيه، فإن قام بذلك ينجو ويسلم فيما بينه وبين الله.

ومن وظيفة العالم أيضا: قول: لا أدري. **قال علي كرم الله وجهه:** وما أبردهـــا عـــل القلب إذا سئل أحدكم عما لا يعلم أن يقول: لا أعلم. **وقال ابن عبـــاس:** إذا تـــرك أحدكم قول: لا أدري أصيبت مقاتله. **وفي الحديث:** «من سئل فأفتى بغير علم فقد ضل وأضل[1]». **وقال الهيثم بن جميل[2]:** كنا في زمان العالم عندهم من يقـــول: لا أدري. فصرنا في زمان يَعدُّونَ العالم من يقتحم الأمور، ومن اقتحم الفتوى يخاف أن يقال لـــه يوم القيامة: من أين أفتيت. فيا لها من مصيبة إن أفتيت عن جهل ومعك لا أدري. وهي حصن المفتي. ولكن حال بينك وبين لا أدري خوفُ وضع قدرك عند الناس وغلبة هواك على عقلك.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: من أفتى الناس في المشكلات من غير تربص وتأمـــل فقد عرض نفسه لدخوله النار. **وكان مع جلالته إذا فرغ من تفسيره للقرآن يقـــول:** اختموا مجلسنا بالاستغفار. وكان الصحابة كلهم مفتون وكانوا يتدافعون الفتوى، وكل من استفتـــيَ منهم يود أن يكفيه غيره.

([1]) أخرجه أبو داود (321/3 ، رقم 3657) ، والحاكم (184/1 ، رقم 350) وقال : احتج الشيخان برواته . والبيهقى (116/10 ، رقم 20140) .

([2]) هو الهيثم بن جميل الحافظ الكبير محدث أنطاكية أبو سهل البغدادي حدث عن حماد بن سلمة ومالك والليث بن زهير بن معاوية وشريك بن عبد الله ومندل بن علي وامثالهم روى عنه احمد بن حنبل والذهلي ومحمد بن عوف الطائي ويوسف بن سعيد بن مسلم وآخرون قال احمد العجلي ثقة صاحب سنة وقال احمد بن حنبل كان أصحاب الحديث عندنا أبو كامل وأبو سلمة الخزاعي والهيثم بن جميل والهيثم احفظهم. تذكرة الحفاظ: (363/1).

وروي: أن العبد يسأل عن فتواه هل بعلمٍ أو بِجَهْلٍ، وهل فتواه نصيحة أو خذلان، وهل أراد وجه الله أو الرياسة. ولا يجوز للمفتي إذا كان في المسألة قولان: أن يفتي العامة بما فيه تشديد منهما، والخاصة بالتخفيف، إذ ذاك قريب من الفسوق والخيانة في الدين والتلاعب بالمسلمين، وفيه فراغ القلب من تقوى الله وتعظيمه. والحاكم كالمفتي، وكذلك لا يأخذ في أمر نفسه بالتخفيف ويشدد على الناس، والأولى له العكس.

ومن وظيفة العالم: الرفق بالمتعلم وصرف الهمة إلى السائل، وتفهم سؤاله وقبول الحجة والانقياد للحق بالرجوع إليه عند الهفوة، ومنع المتعلم من كل علم يضره، وزجره عن أن يريد بالعلم غير الله ومواخذته نفسه أولا بالتقوى ليقتدي المتعلم أولا بأعماله ويستفيد ثانيا من أقواله.

وقال الثعالبي: ينبغي لأهل العلم التتره عن أخذ شيء من المتعلمين على تعليم العلم بل يلتمسون الأجر من الله عز وجل. وقد قال تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿قل لا أسألكم عليه أجرا[1]..﴾ الآية.

وفي الحديث: أن عبادة بن الصامت[2] قال: علّمت ناسا من أهل الصفة الكتاب والقرآن وأهدى إِلَيَّ رجل منهم قوسا فقلت: ليست بمال وأرمي عليها في سبيل الله، فسألت النبي ﷺ فقال: «إن كنت تحب أن تطوق طوقا من نار فاقبلها». **وفي رواية**: «جمرة بين كفيك تقبلها أو تعلقها». **انتهى من الغافقي**[3].

وعن أبي: **أعطاني رجل كنت أقرئه سورة قوسا هدية فقال لي النبي ﷺ: «إذا أردت أن تقلد قوسا من نار فخذها[4]»**.

([1]) الأنعام (90).

([2]) هو عبادة بن الصامت بن قيس الانصاري الخزرجي، أبو الوليد: صحابي، من الموصوفين بالورع. شهد العقبة، وكان أحد النقباء، وبدرا وسائر المشاهد. ثم حضر فتح مصر. وهو أول من ولي القضاء بفلسطين. ومات بالرملة أو ببيت المقدس. روى 181 حديثا اتفق البخاري ومسلم على ستة منها.وكان من سادات الصحابة. توفي 34هـ. انظر الإصابة: (4488).

([3]) لمحات الأنوار في ثواب قارئ القرآن:

([4]) حديث أبي بن كعب : أخرجه ابن ماجه (730/2 ، رقم 2158) قال البوصيرى (12/3) : هذا إسناد مضطرب .

وعنه أيضا: «أطعمني رجل كنت أقرئه القرآن طعاما فوجدت منه في نفسي. فسألت النبي ﷺ فقال: «إن كان ذلك الطعام طعامه وطعام أهله الذين يأكلونه فكلْ، وإن كان طعاما يتحفك به فلا تأكل».

هذا **وفي الصحيح:** «إن أحق ما أخذتم عليه أجرا كتاب الله[1]».

وفي قضية الرقى: فاضربوا لي معكم بسهم. **قال ميارة**[2]: وهذا — والله أعلم — باختلاف الأحوال أو النسخ على تسليم **صحة ما في الغافقي**. هذا كله مما يتوجه على العالم في نفسه. وأما ما يتوجه على الناس في حقه؛ **فمن حقه:** أن من جالسه فلينظر إليه بعين الإجلال، وليُنصت له عند المقال، فإن راجعه راجعه تفهما لا تعنتا، ولا يعارضه في جواب سائل يسأله فإنه يلبس بذلك على السائل. ويزري بالمسؤول، وينتظر بالعالم فيئته، ولا تؤخذ عليه عثرته، وبقدر إجلال العالم ينتفع الطالب بما يستفيد من علمه. ومن ناظره في علم فبالسكينة والوقار وترك الاستعلاء.

ومن حقه: أن يأتيه الناس كلهم ولا يزهدوا فيه، بل يحرصوا على الانتفاع منه والتبرك به ولا سيما القريب له بخلاف عادة الناس اليوم، فإن القريب له أزهد فيه من غيره.

قيل: إن العالم كالحجة يأتيها البعداء ويزهد فيها القرباء.

ولمسيح بن حاتم:

لاَ تَــرَى عَالِمًــا يَحِــلُّ بِقَــوْمٍ ... فَيُحِلُّــوهُ غَيْــرَ دَارِ الْهَــوَانِ

قَلَّمَــا تُوجَــدُ السَّــلاَمَةُ وَالصِّــ ... ـحَــةُ مَجْمُــوعَتَيْنِ فِــي إِنْسَــانِ

هَــذِهِ مَكَّــةُ الْمُنِيفَــةُ بَيْــتُ اللَّــ ... ــهِ يَسْــعَى لِحَجِّهَــا الثَّقَلاَنِ

وَتَرَى أَزْهَــدَ الْبَرِيَّةِ فِــي الْحَــجِّ ... لَهَــا أَهْلَهَــا لِقُــرْبِ الْمَكَــانِ[3]

---

[1] أخرجه البخارى (2166/5 ، رقم 5405) . وأخرجه أيضًا : ابن حبان (546/11 ، رقم 5146).

[2] هو محمد بن أحمد بن محمد، أبو عبد الله، ميارة: فقيه مالكي. من أهل فاس. من كتبه (الاتقان والاحكام في شرح تحفة الحكام - ط) جزآن، و (الدر الثمين في شرح منظومة المرشد المعين - ط) فقه، ويعرف بميارة الكبير. توفي 1072هـ. انظر: الاعلام: (12/6).

[3] هذه الأبيات وجدتها في كتاب أدب الدنيا والدين وزاد على الأبيات ببيت آخر قبل البيت الثالث وهو:

فَإِذَا حَلَّتَا مَكَانًا سَحِيقًا ... فَهُمَا فِي النُّفُوسِ مَعْشُوقَتَانِ

وقال سيدي محمد بن أبي جمرة[1]: ثلاثة لا يفلحون في الغالب: ابن الشيخ وزوجته وخادمه.

أما ابنه: فإنه يفتح عينيه على تقبيل المريدين يده وَحَمْلِهِ على أعناقهم والتبرك به ويطيعونه فتكبر نفسه ويرضع من حب الرياسة من صغره، فتتولى عليه الصفات المظلمة فلا يفيد فيه وعظ واعظ ويتجرأ على الأكابر وينفي مشيختهم عليه. فإن جاء صالحا فاق والده وانتفع بوالده أكثر من كل أحد.

وأما الزوجة: فإنها ترى الشيخ بعين الأزواج لا بعين الولاية فتعتقد أنه محتاج إليها في الشهوة، فإن نوَّرَ الله بصيرتها ورأته بعين الولاية انتفعت به قبل كل أحد لملاصقتها له ليلا ونهارا.

وأما الخادم: فلتكَرُّرِ رؤية الشيخ واطلاعها على أحواله من المأكل والمشرب والمنام. ولذلك قالوا: لا ينبغي للشيخ أن يأكل مع المريد ولا يجالسه إلا عن ضرورة خوفا على المريد من سقوط حرمته من قلبه، فيحرم بركة الصحبة فإن نظر الخادم إلى الشيخ بالتعظيم انتفع به كذلك وأفلح أكثر من غيره. **اهـ من كتاب طبقات الأولياء بخ**[2].

ومن حقه على الناس: الإجلال والتعظيم. **قيل:** من إجلال الله عز وجل إجلال العالم العامل وإجلال الإمام المقسط.

وفي البخاري: عن ربيعة أنه قال: لا ينبغي لأحد عنده شيء من العلم أن يضيع نفسه[3]. أي بأن يجعلها غرضا للدنيا فيهينها بل يعظم معظم العلم.

هذه مكة المنيفة......

([1]) هو محمد بن أبي جمرة كان رضي الله عنه كبير الشأن مقبوض الظاهر معمور الباطن غلبت عليه آثار صفة الجلال كان معظماً للشرع قائماً بشرائعه، وشعائره، وأنكروا عليه في دعواه رؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم يقظة، وعقدوا له مجلساً فأقام في بيته لا يخرج إلا لصلاة الجمعة، ومات المنكرون عليه على أسوأ حال وعرفوا بركته، ودفن رحمه الله تعالى بالقرافة بمصر، وقبره بها ظاهر يزار. وأخباره طويلة جدا للمزيد منها انظر الطبقات للشعراني: (378/1).

([2]) انظر طبقات الشعراني: (380/1).

([3]) انظر صحيح البخاري: رقم (30/1) باب رفع العلم وظهور الجهل. وهو بعد الحديث رقم: (79).

ويحتمل الحث على نشر العلم لأهله ليلا يموت العلم. ويحتمل أن يشهر العالم نفسه ليؤخذ عنه ليلا يضيع علمه فيثاب على ذلك. ويحتمل الحث على التعليم لمن فيه قابلية وعقل وفهم، فلا يُهمل التعليم فيرفع العلم. ويحتمل الحث على العمل بالعلم وترك الشهوات لأن من خالف ذلك فقد ضيع نفسه وفاته خير عظيم.

واختار سيدي **محمد بن يوسف**[1] أن معنى تضييع النفس أن يشتغل به في كل أوقاته، فيؤدي ذلك إلى مخالطة الناس فيقسو قلبه، بل يخلو أحيانا لورده ومناجاة ربه وتفكره فيما ينفعه وما يضره من تلك العلوم حتى يصقل قلبه فيصدق عليه أنه لم يضيع نفسه.

ومما يتوجه على المتعلم خاصة في جانب الشيخ التملق والتذلل للشيخ وتعظيمه وإكرامه.

وفي الحديث: «ليس من أخلاق المومن التملق ولا الحسد إلا في طلب العلم[2]».

وقال ابن عباس: ذَلِلْتَ طَالبا فعزَزْتَ مطلوبًا. **وقيل:** من قعد صغيرا حيث يحب قعد كبيرا حيث يكره. **وقيل:**

إِنَّ الْمُعَلِّمَ وَالطَّبِيبَ كِلاَهُمَا لاَ يَنْصَحَانِ إِذَا هُمَا لَمْ يُكْرَمَا
فَاصْبِرْ لِدَائِكَ إِنْ جَفَوْتَ طَبِيبَهُ وَاصْبِرْ لِجَهْلِكَ إِنْ جَفَوْتَ مُعَلِّمَا[3]

وَلْيحذر التبسط على المعلم والإملالَ عليه بكثرة القراءة أو السؤال، وليتق كثرة السؤال بكثرة التعلم إعناتا. فإن التثقيل والإضجار يُغَيِّرُ الإفهام ويحيل الطباع. **وقد كان إسماعيل بن أبي خالد**[4] من أحسن الناس خلقا فلم يزالوا به حتى ساء خلقه.

وعن محمد بن سيرين: أنه سأله رجل عن حديث، وقد أراد أن يقوم **فقال:**

إِنَّكَ إِنْ كَلَّفْتَنِي مَا لَمْ أُطِقْ سَاءَكَ مَا سَرَّكَ مِنِّي مِنْ خُلُقْ.[5]

([1]) تقدمت ترجمته.

([2]) أخرجه الخطيب فى الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع (211/1 ، رقم 388) .

([3]) هذان البيتان لم أجد قائلهما.

([4]) هو إسماعيل بن أبي خالد البجلي مولاهم الكوفي الحافظ أحد أعلام الحديث سمع أبا جحيفة وابن أبي أوفى وخلقا وكان صالحا ثبتا حجة. انظر العبر في خبر: (204/1).

([5]) البيت ليزيد بن الصعق من ثلاثة أبيات:

أبا يزيد يا ابن عمرو بن الصعق قد كنت حذرتك آل المصطلق

قال ابن الصلاح[1]: يخشى على فاعل ذلك أن يحرم الانتفاع. **وقد اضجر بعضهم الشيخ أبا العباس أحمد بن عبد الرحمن البرداوي** وأطال عليه في القراءة، فقال: لا أحياك الله إن تروها عني أو نحو ذلك. فمات الطالب بعد قليل، ولم ينتفع بما سمعه عليه. ولا يظهر المتعلم استكفاء من العلم، فإن ذلك من كفر النعمة، ولا يعترض عليه إزراءً به وتبكيتا له. **قال أبو البطحاء:**

أُعَلِّمُهُ الرِّمَايَةَ كُلَّ يَوْمٍ .... [2]

ورجح كثير من العلماء حق المعلم على حق الوالد. **قال:**

يَا فَاخِرًا بِالْعِظَامِ وَالسَّلَفِ ... وَتَارِكًا لِلْعَلاَءِ وَالشَّرَفِ

آبَاءُ أَجْسَادِنَا هُمُ سَبَبٌ ... لِأَنْ جُعِلْنَا عَوَارِضَ التَّلَفِ

مَنْ عَلَّمَ النَّاسَ كَانَ خَيْرَ أَبٍ ... ذَاكَ أَبُو الرُّوحِ لاَ أَبُو النُّطَفِ

وقال:

فَضْلُ الْمُعَلِّمِ قَدْرٌ لَيْسَ يَبْلُغُهُ ... حُنُوُّ أُمٍّ وَلاَ يَحْوِيهِ عطْفُ أَبِ

هَذَا يُدَبِّرُ فِي الدُّنْيَا مَعِيشَتَهُ ... وَذَا يُمَكِّنُهُ مِنْ أَرْفَعِ الرُّتَبِ

ومن آداب المتعلم أيضا: أن يتفقد من علمه ولو آية أو سورة بما قدر عليه من أنواع الهدايا وكسوته وكسوة عياله ويتأدب معه حتى أنه لا يمر عليه راكبا، ولا يتزوج له مطلقة ولو صار من مشائخ الإسلام. **كما ذكر الشعراني أن هذا من أخلاق السلف.**

وقلت يا هذا أطعني وانطلق ... إنك إن كلفتني ما لم أطق

ساءك ما سرك مني من خلق ... دونك ما استحسنته فاحس وذق

[1] هو عثمان بن عبد الرحمن (صلاح الدين) ابن عثمان بن موسى بن أبي النصر النصري الشهرزوري الكردي الشرخاني، أبو عمرو، تقي الدين، المعروف بابن الصلاح: أحد الفضلاء المقدمين في التفسير والحديث والفقه وأسم الرجال. ولد في شرخان (قرب شهرزور) وانتقل إلى الموصل ثم إلى خراسان، فبيت المقدس حيث ولي التدريس في الصلاحية. وانتقل إلى دمشق، فولاه الملك الاشرف تدريس دار الحديث، وتوفي فيها. له كتاب " معرفة أنواع علم الحديث - ط " يعرف بمقدمة ابن الصلاح. توفي 643هـ. انظر الوفيات: (312/1).

[2] بقيته:

فلما اشتد ساعده رماني ... .

ومن آدابه: أن يبدأه بالسلام ويقلل بين يديه الكلام ولا يقول في معارضته قوله: قال فلان خلاف ما قلت، ولا يسارُّ جليسَه في مجلسه، ولا يلتفت إلى الجوانب بل يجلس مطرقا متأدبا كأنه في الصلاة ولا يسيء الظن به في أفعال ظواهرها منكرة عنده، فهو أعلم بأسراره كما قال موسى للخضر عليهما السلام: أخرقتها لتغرق أهلها. وكونه مخطئا في إنكاره اعتمادا على الظاهر.

ومما ينبغي للمتعلم: أن يكون له ورد من الصلوات كالرواتب ولا سيما ركعتي المغرب فإنه يروى أنها ترفع مع عمل النهار. ومن الذكر ولو مائة صلاة على نبينا ﷺ ليستعين بذلك على تصحيح نيته.

وطلب العلم أفضل الأعمال بنية صالحة. وكل طالب علم أو قراءة لا يبتهل بإقامة الفرائض فذلك دليل على عدم القصد به لوجه الله تعالى فإن خدمة العلم هي خدمة الله عز وجل. فإذا لم يحافظ على أوامره فإنما يخدم هواه. وذلك إذا رأيته يؤخر الصلاة لآخر وقتها. **وما روي من قول مالك وابن وهب** ما الذي قمت إليه بأولى مما قمت عنه مشكل، إذ كان قيامه لصلاة الجماعة إلا إذا اتسع الوقت وكانت جماعة أخرى. وكذلك الذي يبادر اللوح والكتاب إثر الصلاة ويترك المعقبات. وانظر ماذا فعل عمر رضي الله عنه لمن بادر التنفل بعد السلام مع أنه قام لنافلة مجانسة للصلاة فأين غيرها من نحو اللوح والكتاب، وأين منهما من سلم وابْتَدَرَ شقائق الكلام الذي نحن فيه سائر الدهر. ونصوا أن أقل ما يكفي من ذلك قراءة آية الكرسي والتسبيح والتحميد والتكبير عشرا عشرا.

زروق: وقد صح فعلها عشرا عشرا. **وكان شيخنا القوري**[1] يأخذ به إن أعجله أمره.

انتهى من شرح ميارة[1] **على ابن عاشر بخ.**

([1]) هو محمد بن القسم بن أحمد أبو عبد الله اللخمي المكناسي المغربي ويعرف بالقوري نسبة للقور مفتي المغرب الأقصى، كان متقدماً في حفظ المتون وفقيهها وعلق على مختصر الشيخ خليل شيئاً لم ينتشر وانتفع به الطلبة وممن أخذ عنه الفاضل أحمد بن أحمد زروق. وسئل عن ابن عربي فقال الناس فيه مختلفون ما بين مكفر ومقطب فالأولى الوقف. انظر الضوء اللامع: (246/4).

وإنما أطلنا النفس في الكلام على العلم لما فيه من الآفات والخطر العظيم لينتبه بذلك من سبقت له من الله العناية. وبالله تعالى التوفيق.

ترتيب العلوم الشرعية في الافضلية

ولما بين أ فضلية العلم على العمل ذكر أيضا تفاوته في الأفضلية فقال: (**وَأَفْضَلُ الْعِلْمِ التَّوْحِيدُ**) لأن شرف العلم بشرف متعلَّقه كما تقدم، ولتوقف أصل الإيمان أو كماله عليه والخاص منه أفضل من العام كما تقدم أيضا. (**فَالتَّفْسِيرُ**) لتعلقه بكلام الله تعالى (**فَالْحَدِيثُ**) لتعلقه بكلام النبي ﷺ (**ثُمَّ أُصُولُ الْفِقْهِ**) إذ الأصل أشرف من الفرع (**ثُمَّ الْفَرَائِضُ**) الذي هو من أبواب الفقه، وهو بعد الأصول في الرتبة (**فَالْفِقْهُ**) فالفقه أشرف من غيره للأحاديث الواردة فيه. **قال بعضهم**: إذا اجتمع عند الشيخ درس قدم الأشرف فالأشرف. كما ذكرنا. (**فَالآلاَتُ**) فتالات التوحيد. المنطق على القول بجوازه. **وآلة التفسير ما تكلم عليه السيوطي في الإتقان كأسباب النزول وغيرها. وآلة الحديث ما تكلم عليه العراقي في ألفيته.** والعربية واللغة والبيان آلة كل (**عَلَى حَسَبِهَا**) أي على قدرها في الحاجة إليها، أي فيقدم النحو واللغة لأنهما آلةُ كُلٍّ، ثم التصريف لتوقف علم البلاغة عليهما. ويقدم النحو على التصريف وإن كان اللائق بالوضع العكس؛ إذ معرفة الذات أقدم من الطواري والعوارض لأن الحاجة إليه أهم، ثم يقدم المعاني على علوم البلاغة لتوقف البيان عليه ولأنه إنما يراعى بعد مراعاة الأول، ويؤخر البديع عنهما لأنه تابع بالنسبة إليهما.

([1]) هو محمد بن أحمد بن محمد، أبو عبد الله، ميارة: فقيه مالكي. من أهل فاس. من كتبه (الاتقان والاحكام في شرح تحفة الحكام – ط) جزآن، و (الدر الثمين في شرح منظومة المرشد المعين – ط) فقه، ويعرف بميارة الكبير، تمييزا عن مختصر له، يسمى (ميارة الصغير)، و (تنبيه المغتربين على حرمة التفرقة بين المسلمين)، و (تكميل المنهج للزقاق – خ). توفي 1072هـ. انظر سلوة الأنفاس: (165).

ولما كانت الأعمال أيضا متفاوتة بين الأفضل فقال: (**وَأَفْضَلُ الْعَمَلِ مَا تَعَدَّتْ فَائِدَتُهُ**) إلى غير فاعله وعم نفعه (**كَالْعِلْمِ وَنَفْعِ الْمُسْلِمِينَ**) بالمال والجاه والإرشاد والنصيحة والإرفاق والجهاد، وكالسعي على العيال والفقراء والضعفاء وخدمة الصوفية والفقهاء وأهل الدين والتردد في أشغالهم وإطعام الطعام وعيادة المرضى وتشييع الجنائز وما يوصل به خيرا إلى مسلم، أو يدخل به عليه سرور، أو يتيسر له به عمل...إلى غير ذلك. (**وَمَا صَفَّى الْقَلْبَ**) من شواغل الدنيا وشواغل الخلق، لأن القلب هو المطلوب تنويره وتصفيته بالأعمال. والمحظور إظلامه وتسويده بالسيئات.

والقلب: هو القوة المستعدة لقبول المفهومات. **وصفاءُ القلب له فائدتان:**

إحداهما: أن أقرب القلوب إلى الله ما رق وصفى.

والثانية: أن يُكشف له جلال الله تعالى في ذاته وصفاته وأفعاله وذلك هو الغاية التي تطلب لذاتها فإن السعادة تُنال بها بل هي عين السعادة. (**وَهُوَ**) أي ما يصفي القلب من العمل **نوعان:**

أحدهما: ما دام منه، أي من العمل **لحديث**: «أحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها[1]».

(**وإن قل**) **قال القاضي أبو بكر بن العربي**: معنى المحبة تعلق الإرادة بالثواب أي أكثر الأعمال ثوابا أدومها.

قال النووي: لأن بدوام القليل تستمر الطاعة بالذكر والمراقبة والإخلاص والإقبال على الله تعالى، بخلاف الكثير الشاق حتى ينموا القليل الدائم بحيث يزيد على الكثير المنقطع أضعافا كثيرة.

وقال ابن الجوزي[2]: إنما أحب الدائم **لمعنيين:**

([1]) رواه البخارى فى خلق أفعال العباد (72/1) ، والطبرانى فى الشاميين (122/1 ، رقم 191) .

([2]) هو عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي، أبو الفرج: علامة عصره في التاريخ والحديث، كثير التصانيف. مولده ووفاته ببغداد، ونسبته إلى (مشرعة الجوز) من محالها.له نحو ثلاث مئة مصنف، منها(تلقيح فهوم أهل الآثار، في مختصرالسير والاخبار- ط) قطعة منه، و (الاذكياء وأخبارهم – ط) و (مناقب عمر بن عبد العزيز – ط) و (روح الارواح – ط) و (شذور العقود في تاريخ العهود – خ) و (المدهش – ط) في المواعظ وغرائب الاخبار، وغيرها من كتبه الكثيرة. توفي 597هـ. انظر الوفيات: (279/1).

أحدهما: أن التارك للعمل بعد الدخول فيه كالمعرض بعد الوصل متعرض للذم. **ولهذا** **ورد** الوعيد في حق من حفظ آية ثم نسيها وإن كان قبل حفظها لا يتعين عليه.

ثانيهما: أن مداوم الخير ملازم للخدمة وليس من لازم الباب كل يوم وقتا مًّا كمن لازم يوما كاملا ثم انقطع. **قاله العلقمي**.

فإذا تقرر هذا فلينظر العبد أشد الأعمال تأثيرا ووقعا في قلبه وأزيدها في حاله فليواظب عليه، فإذا أحس بملالة منه فلينتقل إلى غيره؛ لأن أحوال الشخص الواحد تختلف. ولكن إذا فهم فقه الأوراد وسرها فليتبع المعنى. فإن سمع تسبيحة مثلا وأحس لها بوقع في قلبه فليواظب عليها. ويحفظ من الأدعية ما يراه أوفق لحاله وأرق لقلبه وأخف على لسانه فليواظب عليه وإن قل. والأشياء تستبان بأضدادها، أي وكذلك العمل الكثير المتصرم قليل النفع في تنوير القلب وتطهيره. وعلى هذا فكل وظيفة لا تمكن المواظبة على كثيرها فقليلها مع المداومة أفضل وأشد تأثيرا في القلب من كثيرها. مثال ذلك: قطرات من الماء تقع على الحجر على توال فتؤثر فيه، وذلك القدر من الماء لو صب عليه دفعة أو دفعات متفرقة متباعدة لم تؤثر.

والحاصل: أن المقصود من العمل إنما هو رعاية أحوال القلب والروح في المعرفة والمحبة، وأن المراد منه تغير صفات الباطن المذمومة، وآحاد الأعمال تقل آثارها بل لا يحس بآثارها. وإنما يترتب الأثر على المجموع. وإذا لم يكن يعقب العمل الواحد أثر محسوس ولم يردف بثان وثالث على القرب امَّحَى أثر الأول. وكان كالفقيه لا يصير فقيه النفس إلا بتكرار كثير ولو بالغ ليلة في التكرار وترك شهرا أو أسبوعا ثم عاد وبالغ ليلة لم يؤثر تكراره هذا فيه ولو وزع ذلك القدر على الليالي المتواصلة لأثر فيه. **ولذلك قالت عائشة رضي الله عنها**: كان عمل النبي ﷺ ديمة[1]. وكان إذا عمل عملا أثبته.

([1]) أخرجه البخاري في صحيحه: (6466) بلفظ: عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَنْ عَلْقَمَةَ قَالَ: "سَأَلْتُ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ قُلْتُ يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ كَيْفَ كَانَ عَمَلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَلْ كَانَ يَخُصُّ شَيْئًا مِنْ الْأَيَّامِ قَالَتْ لَا كَانَ عَمَلُهُ دِيمَةً وَأَيُّكُمْ يَسْتَطِيعُ مَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَطِيعُ"

أفضل الذكر القرآن

ولما كان الذكر من أفضل الأعمال وكان هو في نفسه متــفاوتا بين الأفضل منه قال:

(وَأَفْضَلُ الذِّكْرِ الْقُرْآنُ) لحديث: «من قرأ القرآن ثم رأى أن أحدا أوتي مثل مــا أوتي فقد استصغر ما عظم الله[1]». **ولحديث:** «إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد وجلاؤها قراءة القرآن وذكر الموت[2]».

وقال عمرو بن ميمون[3]: من نشر مصحفا حين يصلي الصبح فقرأ مائة آية رفع الله له مثل عمل أهل الدنيا.

وقيل لابن مسعود: إنك لتقل الصوم؟ فقال: إنه ليشغلني عن قراءة القرآن وقراءة القرآن أحب إلي منه.

وروي أن سحنونا[4] رأى ابن القاسم[5] في النوم فقال له: ما فعل الله بــك؟ قــال: وجدت عنده ما أحببت، قال له: فأي أعمالك وجدت أفضل؟ قال: تــلاوة القــرءان. قال: قلت له: فالمسائل؟ فكان يشير بأصبعه كأنه يلاشيها. فكنت أسأله عن ابن وهب فيقول لي: هو في عليين.

وأفضلية القرآن لسائر الذكر ما عدا طرفي النهار **ففيهما قولان: قال سعيد بن المسيب:** القرءان أفضل من الذكر فيهما. **وقال أبو حامد:** يدعو أولا بالدعاء المأثور ثم بالذكر ثم قراءة القرآن ثم التفكر. **قال:** وأفضل من ذلك كله الاشتغال بالعلم.

---

(1) أخرجه الشوكاني في الفوائد المجموعة: (297/1).

(2) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (352/2، رقم 2014).

(3) هو عمرو بن ميمون الأودي أود بني صعب بن سعد من الطبقة الأولى من التابعين، أدرك رسول الله ﷺ ولم يلقه. انظر النجوم الزاهرة: (77/1).

(4) هو عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخي، الملقب بسحنون: قاض، فقيه، انتهت إليه رياسة العلم في المغرب. كان زاهدا لا يهاب سلطانا في حق يقوله. أصله شامي، من حمص، ومولده في القيروان. ولي القضاء بها سنة 234 هـــ واستمر إلى أن مات، أخباره كثيرة جدا. وكان رفيع القدر، عفيفا، أبي النفس. روى " المدونة – ط " في فروع المالكية، عن عبد الرحمن بن قاسم، عن الإمام مالك. توفي 244هـــ. الوفيات: (241/1).

(5) تقدمت ترجمته.

وقال صاحب الدرر الملتقطة[1]: أفضل ما نطق به المسلم قراءة القرآن ثم ذكر الله ثم ذكر الرسول ﷺ حتى من ذكره يوم الجمعة. وهو يخالف ما ذكره الشافعية من أن الصلاة عليه ﷺ في ليلة الجمعة ويومها أفضل من تلاوة القرآن ما عدا سورة الكهف ونحوها مما استثني.

واختلف في اشتقاق لفظ القرآن. السيوطي: قال جماعة: هو اسم علم غير مشتق خاص بكلام الله تعالى وهو غير مهموز، وبه قرأ ابن كثير وهو مروي عن الشافعي. **وأخرج البيهقي**[2] **والخطيب**[3] **وغيرهما عنه** أنه كان يهمز قرآنا ولا يهمز القرآن، ويقول: القرآن اسم وليس بمهموز ولم يؤخذ من "قَرَنَ" ولكنه اسم لكتاب الله مثل التورية والإنجيل. **وقال الأشعري وغيره:** هو مشتق من قرن الشيء بالشيء إذا ضم أحدهما للآخر. وسمي به القرآن لجمع السور والآيات والحروف فيه. **وقال الفراء**[4]: هو مشتق من القرائن فإن الآيات منه يصدق بعضها بعضا ويشابه بعضها بعضا وهي قرائن. وعلى القولين هو بلا همز أيضا ونونه أصلية. **وقال الزجاج**[5]: الصحيح أن ترك

---

(1) صاحب الدرر الملتقطة هو: عبد العزيز بن أحمد بن سعيد الدميري المعروف بالديريني: فقيه شافعي من الزهاد. نسبته إلى " ديرين " في غربية مصر. وقبره بها. من كتبه " التيسير في علم التفسير – ط " أرجوزة تزيد على 3000 بيت، و " الدرر الملتقطة في المسائل المختلطة – خ " و " طهارة القلوب، والخضوع لعلام الغيوب – ط " تصوف، و " إرشاد الحيارى – ط ". انظر طبقات الشافعية: (75/1).

(2) هو أحمد بن الحسين بن علي، أبو بكر: من أئمة الحديث. ولد في خسروجرد (من قرى بيهق، بنيسابور) ونشأ في بيهق ورحل إلى بغداد ثم إلى الكوفة ومكة وغيرهما، وطلب إلى نيسابور، فلم يزل فيها إلى أن مات. ونقل جثمانه إلى بلده. قال إمام الحرمين: ما من شافعي إلا وللشافعي فضل عليه غير البيهقي، فان له المنة والفضل على الشافعي لكثرة تصانيفه في نصرة مذهبه وبسط موجزه وتأييد آرائه. وقال الذهبي: لو شاء البيهقي أن يعمل لنفسه مذهبا يجتهد فيه لكان قادرا على ذلك لسعة علومه ومعرفته بالاختلاف. صنف زهاء ألف جزء، منها (السنن الكبرى – ط) عشر مجلدات، و (السنن الصغرى) و (المعارف) و (الاسماء والصفات – ط) و (ودلائل النبوة) و (الآداب – خ) في الحديث، و (الترغيب والترهيب) و (المبسوط) و (الجامع المصنف في شعب الايمان – خ). توفي 458هـ. انظر الشذرات: (304).

(3) تقدمت ترجمته.

(4) تقدمت ترجمته.

(5) هو إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج: عالم بالنحو واللغة. ولد ومات في بغداد. كان في فتوته يخرط الزجاج ومال إلى النحو فعلمه المبرد. وطلب عبيد الله بن سليمان (وزير المعتضد العباسي) مؤدبا لابنه القاسم، فدله المبرد على الزجاج، فطلبه الوزير، فأدب له ابنه إلى أن ولي الوزارة مكان أبيه، فجعله القاسم من كتابه، فأصاب في أيامه ثروة كبيرة. وكانت للزجاج مناقشات مع ثعلب

الهمز فيه من باب التخفيف ونقل حركة الهمز إلى الساكن قبلها. واختلف القائلون بأنه مهموز. **فقال بعضهم**: هو مصدر لقرات كالرجحان وسمي به الكتاب المقروء من باب تسمية المفعول بالمصدر. **وقال آخرون منهم الزجاج**: هو وصف على فعلان مشتق من القرء بمعنى الجمع ومنه قرأت الماء في الحوض إذا جمعته.

أبو عبيدة: سمي بذلك لأنه جمع السور بعضها إلى بعض.

وقال الراغب: لا يقال لكل جمعي قرآن ولا لجمع كل كلام قرآن. **قال**: وإنما سمي قرآنا لكونه ثمرات الكتب السابقة المترلة. **وقيل**: جمع أنواع العلوم كلها. **وقيل**: في اشتقاقه غير هذا.

فضائل السور على التعيين

ومن فضائل سور القرآن على التعيين: «أن البقرة وآل عمران تحاجان عن صاحبهما»، «وأن من قرأ البقرة في بيته لم يدخله الشيطان ثلاثة أيام[1]»، «وأن من قرأهما في ليلة كتب من القانتين»، «وأن من قرأ آل عمران يوم الجمعة صلت عليه الملائكة إلى الليل[2]»، «وأن آية الكرسي ربع القرآن[3]»، «وأن من قرأها بعد كل فرض لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت[4]»، «وأن من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه[5]»، «وأن من قرأ آخر آل عمران في ليلة كتب له قيام ليلة»، «وأن "يس" قلب القرآن[6]»، «وأن من قرأها يريد الله والدار الآخرة غفر له، وأنه كمن قرأ القرآن عشر

وغيره. من كتبه (معاني القرآن – خ) (خلق الانسان – ط) و (الامالي) في الأدب واللغة. توفي 311هـ. انظر إنباه الرواة: (159/1).

(1) رواه الترمذي: (2882).

(2) رواه الدارمي في سننه (3397).

(3) ضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة: (1484).

(4) صحيح صححه الألباني في صحيح الجامع: (6463).

(5) رواه البخاري: (4068)، ومسلم: (6463).

(6) رواه الدارمي في سننه: (3396).

مرات[1]»، «وأن لباب القرآن ودبياجه الحواميم[2]»، «وأن من قرأ "حم" الـدخان في ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك[3]»، «وأن عروس القرآن الـرحمن[4]»، «وأن في المسبحات آية كألف آيـة[5]»، قيـل هـي: ﴿هـو الأول والاخـر والظـاهر والباطن﴾...الآية. «وأن تبارك تشفع لصاحبها وتنجيه من عـذاب القـبر[6]»، «وأن الكافرون والنصر كلٌّ تعدل ربع القرآن[7]»، «وإذا زلزلت والعاديات كلٌّ تعدل نصف القرءان»، «وسورة الإخلاص ثلثه»، «وأن من قرأ ها كل يوم مائتي مرة محي عنه ذنوب خمسين سنة إلا أن يكون عليه دين[8]»، «وأن من قرأها مائة مرة في الصلاة أ وغيرهـا كتب الله له براءة من النار[9]»، «وأن من قرأها بعد الصبح اثنتي عشرة مرة فكأنما قرأ القرآن أربع مرات وكان أفضل أهل الأرض يومئذ إذا اتقي[10]»، «وأنه مـا نـزل في التوراة ولا في الزبور ولا في الإنجيل ولا في القرآن مثل المعوذتين[11]»، «وأن من قرأهما بعد الإخلاص بعد الجمعة قبل أن يتكلم وهو ثان رجليه أعاذه الله من السوء إلى الجمعة الأخرى[12]».

([1]) رواه الترمذي: (2887)، وأبو داوود (3121)، وابن ماجه: (1448).

([2]) رواه الدارمي في سننه: (539/2).

([3]) رواه الترمذي: (2888).

([4]) ضعفه الالباني: (135).

([5]) أخرجه أبو داوود: (5057)، والترمذي: (2921).

([6]) رواه الترمذي (2890).

([7]) رواه الترمذي: (2894).

([8]) رواه مسلم: (813).

([9]) رواه الترمذي: (2898).

([10]) رواه الطبراني: (331/18).

([11]) رواه الطبراني في الصغير: (115/1).

([12]) رواه أحمد: (16999).

فضائل القرآن جملة

ومن فضائل القرآن جملة ما ذكره البغوي عن عقبة بن عامر[1] **قال**: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لو كان القرآن في إهاب ما مسته النار[2]». **قيل**: معناه: من حمل القرآن وقرأه لم تمسه النار يوم القيامة. **وقال أبو عبيدة**: أراد بالإهاب: قلب المؤمن وجوفه الذي وعى. **وقال غيره**: إن من جمع القرآن ثم دخل النار فهو شر من الخنزير.

وقال ابن الأنباري[3]: معناه: أن النار لا تبطله ولا تقلعه من الأسماع التي وعته والأفهام التي حملته **كقوله في الحديث**: «وأنزلت عليه كتابا لا يغسله الماء[4]» أي لا يبطله ولا يقلعه من أوعيته الطيبة ومواضعه، لأنه وإن غسله بالماء في الظاهر لا يغسله بالقلع من القلوب.

وأخرج الطبراني من حديث أنس: «من قرأ القرآن يقوم به آناء الليل والنهار يحلل حلاله ويحرم حرامه حرم الله لحمه ودمه على النار وجعله رفيق السفرة الكرام البررة حتى إذا كان يوم القيامة كان القرآن حجة له[5]».

وفي الحديث: «القرآن شافع مشفع أو ماحل مصدق من جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار[6]».

---

(1) هو عقبة بن عامر بن عبس بن مالك الجهني: أمير. من الصحابة. كان رديف النبي صلى الله عليه وسلم وشهد صفين مع معاوية، وحضر فتح مصر مع عمرو بن العاص. وولي مصر سنة 44 هـ وعزل عنها سنة 47 وولي غزو البحر. ومات بمصر. كان شجاعاً فقيها شاعراً قارئا، من الرماة. وهو أحد من جمع القرآن. توفي 58هـ. انظر الإصابة: (الترجمة 5603).

(2) ضعفه الألباني: (5764).

(3) هو محمد بن القاسم بن محمد بن بشار، أبو بكر الانباري: من أعلم أهل زمانه بالأدب واللغة، ومن أكثر الناس حفظا للشعر والاخبار، قيل: كان يحفظ ثلثمائة ألف شاهد في القرآن. ولد في الانبار (على الفرات) وتوفي ببغداد. وكان يتردد إلى أولاد الخليفة الراضي بالله، يعلمهم. من كتبه (الزاهر – خ) في اللغة، و (شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات – ط). توفي 328هـ. انظر الوفيات: (503/1).

(4) أخرجه الطبرانى (358/17 ، رقم 987) وأخرجه أيضًا : النسائى فى الكبرى (26/5 ، رقم 8070).

(5) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (345/2 ، رقم 1991) .

(6) صححه الألباني: (2010).

وأخرج الطبراني من حديث أنس: «حملة القرآن عرفاء أهل الجنة[1]» أي رؤساؤهم.
وفي رواية: «حملة القرآن هم أهل الله».
وأخرج الترمذي وغيره من حديث علي: «من قرأ القرآن فاستظهره فأحل حلاله وحرم حرامه أدخله الله الجنة وشفّعه في عشرين من أهل بيته كلهم قد وجبت لهم النار[2]».
وفي الحديث: «من تعلم آية من كتاب الله عز وجل استقبلته يوم القيامة تضحك في وجهه[3]».
وقال الزركشي[4]: جرت عادة المفسرين ممن ذكر فضائل القرآن أن يذكرها في أول كل سورة لما فيه من الترغيب والحث على حفظها **إلا الزمخشري فإنه** يذكرها في أواخرها **قائلا:** إنها صفات السور والصفة تقتضي تقديم الموصوف.
الإتقان: وأخرج أيضا عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل الذي ليس في قلبه شيء من القرآن كالبيت الخرب[5]».
وأخرج أيضا عن أبي موسى الأشعري أنه ﷺ قال: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأَتْرُجَّةِ طعمها طيب وريحها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل الفاجر الذي لا يقرا القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب ولا طعم لها، ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها[6]».

---

(1) رواه الطبراني في الكبير: (132/3).
(2) رواه الترمذي: (2905).
(3) رواه الطبراني في مسند الشاميين: (318/4).
(4) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن بهادر بدر الدين الشافعي، ولد سنة: 725 هـ، كان فقيها محدثا أصوليا مفسرا، أخذ عن الأسنوي ومغلطاي وابن كثير والسراج البلقيني، من مؤلفاته: البحر المحيط- البرهان في علوم القرآن- الديباج في توضيح المنهاج. توفي سنة: 794 هـ ودفن بالقرافة الصغرى. (طبقات المفسرين للداودي ج2 ص: 162، طبقات المفسرين للسيوطي: 277).
(5) رواه الترمذي: (2913)، وأحمد: (1948)، انظر الإتقان: (80/4).
(6) رواه البخاري: (5427)، ومسلم: (797). متفق عليه.

وأخرج أيضا عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «يقال لصاحب القرآن اقرأ وارق ورتل كما ترتل في الدنيا فإن مترلك عند آخر آية تقرؤها»

قال العلماء: هذا للقارئ حق قراءته وهو أن يتدبر معناه ويأتي بما هو مقتضاه، لا الذي يقرؤه والقرآن يلعنه.

وأخرج أيضا عن أبي أمامة قال: سمعت النبي ﷺ يقول: اقرءوا القرآن فإنه يأتي شافعا لأصحابه يوم القيامة، اقرءوا الزهراوين: البقرة وآل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف يحاجان عن صاحبهما؛ اقرءوا البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة[1]» **وزاد في رواية:** «وإن القرآن ليأتي صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب فيقول: هل تعرفني؟ فيقول له: ما أعرفك. فيقول له: أنا صاحبك القرآن الذي أظمأك بالهواجر، وأسهرك ليلك، وإن كل تاجر من وراء تجارته، وإنك اليوم من وراء كل تجارة، فيعطى الملك بيمينه، والخلة بشماله، ويوضع على رأسه تاج الوقار فيكسى والداه حلتين لا يقوم لهما أهل الدنيا...» **الحديث.**

وأخرج أيضا عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «من استمع ءاية من كتاب الله كانت له نورا يوم القيامة[2]».

وأخرج أيضا عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أيحب أحدكم إذا رجع إلى أهله أن يجد فيه ثلاث خلفات عظام سمان؟ قلنا: نعم. قال: فثلاث آيات يقرؤهن أحدكم في صلاته خير له من ثلاث خَلِفَاتٍ عظام سمان[3]».

وأخرج أيضا عن معاذ بن جبل الجهني عن النبي ﷺ قال: «من قرأ القرآن فأحكمه وعمل بما فيه أُلبس والداه يوم القيامة تاجا ضوءه أحسن من ضوء الشمس في بيت من

([1]) أخرجه أحمد (249/5 ، رقم 22200) ، والطبراني (118/8 ، رقم 7542) ، والحاكم (752/1 ،رقم 2071).

([2]) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (341/2 ، رقم 1981) .

([3]) رواه مسلم: (862).

بيوت الدنيا لو كانت فيه[1]». **فما ظنكم بالذي عمل بهذا الحديث.**

وروى الثعلبي[2] أنه ﷺ قال: «ثلاثة أصوات يحبها الله تعالى: صوت الديك، وصوت قارئ القرآن وصوت المستغفرين بالأسحار».

وسئل أي الأعمال أفضل؟ قال: «الحالُّ المرتحل. قيل: وما هو؟ قال: صاحب القرآن، يضرب في أوله حتى يبلغ آخره، وفي آخره حتى يبلغ أوله». وقال: «أفضل عبادة أمتي قراءة القرآن[3]» **رواهما البيهقي.**

وروى أحمد وغيره حديث: «أهل القرآن هم أهل الله وخاصته[4]».

وأخرج الدارمي[5] من حديث عبد الله بن عمرو[6] مرفوعا: «القرآن أحب إلى الله من السماوات والأرض ومن فيهن[7]».

وأخرج الحاكم[1] من حديثه أيضا: من قرأ القرآن فقد استدرج النبوءة بين جنبيه غير أنه لا يوحى إليه، لا ينبغي لصاحب القرآن أن يجد مع من يجد ولا يجهل مع من يجهل وفي جوفه كلام الله[2]».

([1]) رواه أبو داوود: (1453).

([2]) هو أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري الثعلبي، إمام حافظ لغوي بارع، روى عن أبي طاهر بن خزيمة، وأبي محمد المخلدي، وأخذ عنه الواحدي، كان صحيح النقل ثقة، من مؤلفاته: العرائس في قصص الأنبياء- ربيع المذكورين. توفي سنة: 437 هـ، وقيل: بل 427 هـ. (طبقات المفسرين للداودي ج1 ص: 66، وفيات الأعيان ج1 ص: 79، شذرات الذهب ج3 ص: 230).

([3]) أخرجه الحاكم (757/1 ، رقم 2089) ، والبيهقى فى شعب الإيمان (348/2 ، رقم 2001) .

([4]) رواه أحمد: (11870).

([5]) هو أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام الدارمي التميمي السمرقندي الحجة الحافظ العابد الرحالة، برع في الحديث وألف فيه، من شيوخه: أبو مسهل ومروان بن محمد وعبد الوهاب بن سعيد وزيد بن هارون وآخرون كثيرون، روى عنه البخاري في غير جامعه ومسلم في صحيحه وأبو داود والترمذي والنسائي خارج سننه ومن في طبقتهم. توفي سنة: 255 هـ عن عمر بلغ أربعا وستين سنة.(تقريب التهذيب: 253، شذرات الذهب ج2 ص: 130، طبقات المفسرين للداودي ج1 ص: 242).

([6]) هو عبد الله بن عمرو بن العاص، من قريش: صحابي، من النساك. من أهل مكة. أسلم قبل أبيه. فاستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في أن يكتب ما يسمع منه، فأذن له. وكان كثير العبادة حتى قال له النبي صلى الله عليه وسلم: إن لجسدك عليك حقا، وإن لزوجك عليك حقا، وإن لعينيك عليك حقا – الحديث. توفي 65هـ. انظر الإصابة: (الترجمة 4838).

([7]) رواه الدارمي في سننه: (3358).

وأخرج البزار[3] **من حديث أنس:** «البيت الذي يقرأ فيه القرآن يكثر خيره، والبيت الذي لا يقرأ فيه القرآن يقل خيره[4]».

وفي الحديث: «من جمع القرآن كانت له عند الله دعوة مستجابة إن شاء عجلها في الدنيا وإن شاء أخرها له في الآخرة[5]».

وفيه: «لأن تغدوا فتتعلم ءاية من كتاب الله خير لك من أن تصلي مائة ركعة».

وفيه: إن هذا القرآن سبب طرفه بيد الله، وطرفه بأيديكم فتمسكوا به فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده أبدا[6]».

وفيه: «إنكم لا ترجعون إلى الله بشيء أفضل مما خرج منه[7]» يعني القرآن.

وأخرج أيضا عن عمران بن حصين[8] أنه مر على رجل يقرأ القرآن على قوم، فلما قرأ سأل فقال عمران:"إنا لله وإنا إليه راجعون" سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ القرآن فليسأل الله به فإنه سيجيء أقوام يقرءون القرآن ويسألون الناس به[9]».

([1]) هو محمد بن عبد الله بن حمدويه بن نعيم الضبي، الطهماني النيسابوري، الشهير بالحاكم، ويعرف بابن البيع، أبو عبد الله: من أكابر حفاظ الحديث والمصنفين فيه.مولده ووفاته في نيسابور.رحل إلى العراق سنة 341 هـ وحج، وجال في بلاد خراسان وما وراء النهر، وأخذ عن نحو ألفي شيخ.وولي قضاء نيسابور سنة 359 ثم قلد قضاء جرجان، فامتنع. من كتبه (المستدرك على الصحيحين – ط) أربع مجلدات، و (الاكليل) و (المدخل – ط) في أصول الحديث، و (تراجم الشيوخ). توفي 405هـ. انظر الوفيات: (484/1).

([2]) رواه الحاكم في المستدرك: (738/1).

([3]) تقدمت ترجمته.

([4]) ضعفه الألباني: (5695).

([5]) أخرجه الطبراني (199/8 ، رقم 7810) قال الهيثمى (125/1) : فيه عبيد الله بن زحر عن على بن يزيد ، وكلاهما ضعيف لا يحتج به . والرامهرمزى فى أمثال الحديث (88/1 ، رقم 52) .

([6]) صحح الألباني: (713).

([7]) أخرجه الحاكم (741/1 ، رقم 2039) وقال : صحيح الإسناد.

([8]) هو عمران بن حصين بن عبيد، أبو نجيد الخزاعي: من علماء الصحابة. أسلم عام خيبر سنة 7 هـ وكانت معه راية خزاعة يوم فتح مكة. وبعثه عمر إلى أهل البصرة ليفقههم. وولاه زياد قضاءها. وتوفي بها. وهو ممن اعتزل حرب صفين. له في كتب الحديث 130 حديثا. توفي 52هـ. انظر تهذيب التهذيب: (125/8).

([9]) أخرجه ابن أبي شيبة (168/2 ، رقم 7743).

وأخرج من حديث أبي سعيد[1] عن النبي ﷺ: «يقول الله سبحانه من شغله القرآن عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين. وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على سائر خلقه[2]».

وأخرج مسلم من حديث أبي أمامة: «اقرءوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه».

وأخرج البيهقي من حديث عائشة رضي الله عنها: «البيت الذي يقرأ فيه القرآن يتراءى لأهل السماء كما تتراءى النجوم لأهل الأرض[3]».

وأخرج من حديث أنس: «نوروا منازلكم بالصلاة وقراءة القرآن[4]».

وفي كتاب الترغيب والترهيب: عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يهولهم الفزع الأكبر ولا ينالهم الحساب هم على كثيب من مسك حتى يفرغ من حساب الخلائق: رجل قرأ القرآن ابتغاء وجه الله، وعبد أحسن فيما بينه وبين مواليه، وبينه وبين الله». **رواه الطبراني**[5].

وروى ابن أبي لبابة عن العتبي[6] عن سحنون: أنه رأى ابن القاسم في النوم فقال له: ما فعل الله بك؟ قال: وجدت عنده ما أحببت. قال: فأي عمل من أعمالك وجدت

---

(1) هو سعد بن مالك بن سنان الخدري الانصاري الخزرجي، أبو سعيد: صحابي، كان من ملازمي النبي صلى الله عليه وسلم وروى عنه أحاديث كثيرة. غزا اثنتي عشرة غزوة، وله 1170 حديثا. توفي في المدينة. توفي 74هـ. انظر تهذيب التهذيب: (379/3).

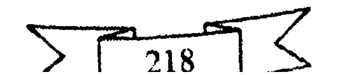
(2) رواه الترمذي في السنن برقم (2926) من طريق محمد بن الحسن الهمداني به، وقال الترمذي: "هذا حديث حسن غريب".

(3) أخرجه البزار كما فى كشف الأستار (93/3 ، رقم 2321) قال الهيثمى (171/7) : رواه البزار وقال : لم يروه إلا أنس ، وفيه عمر بن نبهان ، وهو ضعيف

(4) أخرجه أيضًا : الديلمى (245/4 ، رقم 6725) عن أبى هريرة .

(5) انظر الترغيب والترهيب للمنذري: (112/1).

(6) هو محمد بن أحمد بن عبد العزيز الأموي القرطبي الأندلسي العتبي، أبو عبد الله: فقيه مالكي، نسبته إلى عتبة بن أبي سفيان بن حرب، بالولاء. له تصانيف، منها " المستخرجة العتبية على الموطأ – خ " في فقه مالك و " كراء الدور والارضين – خ " توفي بالاندلس. توفي 255هـ. انظر الديباج: (238).



أفضل؟ قال: تلاوة القرآن. قال: قلت: فالمسائل؟ فكان يشير بإصبعه فكأنه يلاشيها. **ثم قال الباجي**[1]: وما أهون الدنيا على من جعل القرآن أمامه والموت أمامه.

ورأى ابن غريب[2] **ابن زرب**[3] **في النوم فسأله فقال**: ما وجدت شيئا أضر من الاختلاف إلى الملوك.

قال المقرئ الباغاني[4]: سأله في النوم فقال: ما وجدت أنفع من تلاوة القرآن.

قال الثعالبي: وكذا أجابني بعض أصحابي لما سألته عن حاله. وسألت آخر من الأفراد فقلت له: ما أحسن الأعمال عندكم؟ قال: تلاوة القرآن. فسألته عن الاشتغال بالفقه كالمدونة؛ فضاق صدره من ذكرها وأعرض عنها وجعل يلاشيها. وسألته عن كتب الحديث؛ فانشرح صدره وفرح به لكن دون فرحه وابتهاجه بالقرآن.

وأما فضائل القرآن سورةً سورةً فموضوع كما قاله السيوطي في الإتقان[5].

وسببه: أن أبا عصمة الجامع قال: إني قد رأيت الناس أعرضوا عن القرآن واشتغلوا بفقه أبي حنيفة[1] ومغازي ابن إسحاق[2] فوضعت هذا الحديث حسبة. **أسنده إلى عكرمة**[3] **عن ابن عباس**.

([1]) هو سليمان بن خلف بن سعد التجيبي القرطبي، أبو الوليد الباجي: فقيه مالكي كبير، من رجال الحديث. أصله من بطليوس ومولده في باجة بالاندلس. رحل إلى الحجاز سنة 426 هـ فمكث ثلاثة أعوام. وأقام ببغداد ثلاثة أعوام، وبالموصل عاما، وفي دمشق وحلب مدة. وعاد إلى الاندلس، فولي القضاء في بعض أنحائها. وتوفي بالمرية 474هـ. انظر الديباج: (120).

(2) هو أبو بكر محمد بن غريب البغدادي الشيخ، العالم، الثقة، أبو بكر محمد بن غريب بن عبد الله البغدادي، غلام ابن مجاهد المقرئ.سمع (موطأ سويد)من:أحمد بن محمد بن الجعد الوشاء، وسمع من:جعفر الفريابي، وعلي بن حماد الخشاب. وعنه:البرقاني، وأبو العلاء الواسطي، وعمر بن إبراهيم الفقيه. انظر سير أعلام النبلاء: (22/32).

([3]) هو محمد بن يبقى بن زرب، أبو بكر: من كبار القضاة وخطباء المنابر بالاندلس. ولي القضاء بقرطبة (سنة 367) في أيام المؤيد الاموى (هشام) وتتبع أصحاب ابن ميسرة لاستتابة من يعتقد مذهبه، وأحرق ما وجد عندهم من كتبه، ووضع كتاب (الرد على ابن مسرة) في نقض آرائه. وصنف (الخصال) في فقه المالكية. وتوفى بقرطبة 381هـ. انظر قضاة الأندلس: (77).

([4]) هو المقرئ الباغاني من الطبقة السابعة من الأندلس يكنى أبا العباس الحافظ كان بحراً من بحار العلم وله تآليف في أحكام القرآن وقدم للشورى بعد موت بن المكوى وقرأ عليه بن عتاب وناهيك به مزية. وكان بن عتاب يستحسن كتابه في الأحكام. توفي في ذي القعدة سنة إحدى وأربعمائة رحمة الله تعالى. الديباج: (24/1).

([5]) انظر الإتقان: (92/2).

قيل لميسرة بن عبد ربه[4]: من أين جئت بهذه الأحاديث: من قرأ كذا فله كذا؟ **قال:** وضعتها لأرغب الناس فيها.

وسئل شيخ روي عنه حديث أبـيٍّ في فضائل القرآن سورة سورة: من حدثك؟ قال: لم يحدثني أحد ولكنا رأينا الناس رغبوا عن القرآن فوضعنا لهم هذا الحـديث ليصـرفوا قلوبهم إلى القرآن.

قال ابن الصلاح: ولقد أخطأ الواحدي المفسر ومن ذكره من المفسـرين في إيداعـه تفاسيرهم. إلى غير ذلك من فضائله.

فائدة: قال السيوطي[5]: نسيان القرآن كبيرة **صرح به النـووي لحـديث أبي داوود وغيره:** «عرضت علي ذنوب أمتي فلم أرى ذنبا أعظم من سورة من القرآن أو آيـة أو تيها رجل ثم نسيها[6]».

وروي أيضا حديث: «من أوتي القرآن ثم نسيه لقي الله يوم القيامة أجذم[7]».

وحديث: «بيسما لأحدكم أن يقول: نسيت آية كيت وكيت[8]».

وحديث: «تعاهدوا القرآن بالتكرار[1]» أي بالتلاوة خوف النسيان.

([1]) هو النعمان بن ثابت، التيمي بالولاء، الكوفي، أبو حنيفة: إمام الحنفية، الفقيه المجتهد المحقق، أحد الائمة الاربعة عند أهل السنة. قيل: أصله من أبناء فارس. ولد ونشأ بالكوفة. وكان يبيع الخز ويطلب العلم في صباه، ثم انقطع للتدريس والافتاء. وأراده عمر بن هبيرة (أمير العراقين) على القضاء، فامتنع ورعا. وأراده المنصور العباسي بعد ذلك على القضاء ببغداد، فأبى، فحلف عليه ليفعلن، فحلف أبو حنيفة أنه لا يفعل، فحبسه إلى أن مات 150هـ. وأخباره لا تسعها الهوامش. انظر الوفيات: (163/2).

([2]) هو محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي بالولاء، المدني: من أقدم مؤرخي العرب. من أهل المدينة. له (السيرة النبوية – ط) هذبها ابن هشام. ومن الأصل أجزاء مخطوطة كتبت سنة 506 هـ في خزانة القرويين بفاس و (كتاب الخلفاء) و (كتاب المبدأ). وكان قدريا، ومن حفاظ الحديث. زار الاسكندرية سنة 119 هـ وسكن بغداد فمات فيها 151هـ. انظر تهذيب التهذيب: (38/9).

([3]) هو عكرمة بن أبي جهل عمرو بن هشام المخزومي القرشي: من صناديد قريش في الجاهلية والاسلام. كان هو وأبوه من أشد الناس عداوة للنبي صلى الله عليه وسلم وأسلم عكرمة بعد فتح مكة. وحسن إسلامه، فشهد الوقائع، وولي الاعمال ل أبي بكر. واستشهد في اليرموك، أو يوم مرج الصفر، وعمره 62 سنة. انظر الإصابة: (الترجمة 5640).

([4]) هو ميسرة بن عبد ربه الفارسي، ثم البصري. للمزيد من أخباره انظر ميزان الاعتدال: (165/15).

([5]) انظر الإتقان في علوم القرآن: (279/1).

([6]) أخرجه أبو داود (126/1 ، رقم461) ، والترمذى (178/5 ، رقم 2916)

([7]) أخرجه أبو داود (75/2 ، رقم 1474) بلفظ: "ما من امرئ يقرأ القرآن ثم ينساه إلا لقى الله يوم القيامة أجذم"

([8]) أخرجه أحمد (417/1 ، رقم 3960) ، والبخارى (1921/4 ، رقم 4744) ، ومسلم (544/1 ، رقم 790).

وفيه تنبيه على معاهدة المصحف فإنه لا يترك حتى يعلوه الغبار **لحديث**: «من علق مصحفا ولم يتعاهده جاء يوم القيامة متعلقا به يقول: هذا اتخذني مهجورا ـــ أي تركني وصدعني ـــ فاحكم بيني وبينه[2]».

ولكن في الدرر الملتقطة ما يخالفه. **قال فيها**: حفظ القرآن فضيلة عظيمة ومن قرأ شيئا منه ثم تشاغل عنه حتى نسيه فقد ضيع خيرا كثيرا. وينبغي له أن يقرأ حتى يرجع إلى حفظه. واعلم أن بعضهم يتوهم أن هذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿وكذلك أتتك ءاياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى﴾[3] وهذا غلط عظيم. والآية إنما هي في حق الكافر. **انتهى المراد منه.**

وفصل ابن رشد فقال: إن تركه للاشتغال بواجب أو مندوب حتى نسيه، لم يأثم، وإن تركه استخفافا بحقه ورغبة عن ثوابه أثم. وحفظ القرآن وتعليمه فرض كفاية بحيث يقوم به قوم يحصل بهم التواتر فإن لم يقم به هذا العدد أثم الكل سواء علمه بأجرة أم لا. لأن الإجارة على تعليمه جائزة عند مالك **لحديث**: «خير ما اتخذتم عليه أجرا كتاب الله[4]»، وليلا يضيع القرآن. **وفي الحديث**: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه[5]».

ويندب للقارئ الوضوء ومكان طاهر، والاستقبال والخشوع والسكينة والوقار وإطراق الرأس والسواك والترتيل وتدبر المعنى، وأن يقرأ بالتفخيم. ومعناه: أن يقرأ على قراءة الرجال ولا يخضع بالصوت فيه ككلام النساء. **قاله النووي**[6].

([1]) أخرجه أحمد (411/4 ، رقم 19700) ، والبخارى (1921/4 ، رقم 4746) ، ومسلم (545/1 ، رقم 791) .

([2]) أخرجه الثَّعْلَبِيّ من طَرِيق أبي هدبة إِبْرَاهِيم بن هدبة عَن أنس. انظر الفتح السماوي في تخريج أحاديث البيضاوي: (881/2).

([3]) طه: (126).

([4]) أخرجه البخارى (2166/5 ، رقم 5405) . وأخرجه أيضًا : ابن حبان (546/11 ، رقم 5146)

([5]) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (405/2 ، رقم 2209) .

([6]) لم أجده في التبيان في آداب حملة القرآن ولعله في بعض مؤلفات النووي الأخرى الكثيرة.

تدبر وترتيل القرآن

(وَحَرْفُ تَدَبُّرٍ أَفْضَلُ مِنْ حَرْفَيْ غَيْرِهِ) إذ لا يوجد أنفع من قراءة القرآن بالتفكر فإنه جامع لجميع المقامات والأحوال وفيه شفاء العالمين، وفيه ما يورث الصفات المحمودة ويزجر عن المذمومة.

وقال بعض أهل المعاملات مع الله تعالى بالصدق والإخلاص: إن قراءة القرآن بالتدبر والحضور حياة النفوس، وإنها غذاء الأرواح. فالتدبر يوجب الخضوع والافتقار إلى الله تعالى؛ لأنه إذا تذكر القارئ ذنوبه أو جبت له الذلة والمسكنة. **وقال أبو حامد:** قراءة آية بتأمل خير من قيام ليلة أو ختمة.

وروي: أن بعض المشايخ وقف ليلة كاملة بقوله تعالى: ﴿وقفوهم إنهم مسئولون﴾[1]. فينبغي أن يردد العبد الآية التي هو محتاج إلى التفكر فيها مرة بعد أخرى ولو بمائة مرة، فقراءة آية بتدبر خير من ختمة من غير تدبر وفهم. **وفائدة التدبر:** أن تعرف معنى ما تتلوه من الآي.

وقال أبو سليمان الداراني: ربما أقمت في الآية الواحدة خمس ليال, ولولا أني أدع التفكر فيها ما جزتها. وقال: إنما يؤتى على أحدكم من أنه إذا قرأ السورة أراد آخرها.

وقال السيوطي في الإتقان: وقراءة جزء بترتيل أفضل من قراءة جزئين في قدر ذلك الزمان بلا ترتيل[2].

وقال في النشر: اختلف هل الأفضل الترتيل مع قلة القراءة أو السرعة مع كثرتها[3].

وقال بعض: إن ثواب قراءة الترتيل أجل قدرا وثواب الكثرة أكثر عددا؛ لأن بكل حرف عشر حسنات.

([1]) الصافات: (24).

([2]) انظر الإتقان: (283/1).

([3]) انظر النشر في القراءات العشر للدمشقي: (234/1).

وقيل: هما سواء لتعارض الأدلة.**وقيل**: الإسراع أفضل للعارف بمعاني القرآن لأنه يتـأتى منه التفهم مع الإسراع بمترلة العارف بفروسة الخيل يحكم جميع آلات الحرب في القتال، والجاهل بها لا يحكم، إذا رد بآلة إلى شيء ضاع له شيء آخر.

وقال الزركشي: كمال الترتيل تفخيم ألفاظه، والإبانة عن حروفه، وألا يدغم حـرف في حرف[1].

وقيل: هذا أقله. وأكمله أن يقرأه على منازله، فإن قرأ آية تهديد لفظ بها لفظة المتهدد. وءاية تعظيم لفظ بها على التعظيم ويفرق بين نغماته في آية الرحمة وآيات العذاب والوعد والوعيد والتحميد والتعظيم، وتسن القراءة بالتدبر والتفهم فهـو المقصـود الأعظـم والمطلوب الأهم وبه تنشرح الصدور وتستنير القلوب. **قال تعالى**: ﴿ليدبروا آياته﴾[2]، وقال: ﴿أفلا يتدبرون القرآن﴾[3]. وصيغة ذلك أن يشغل قلبه بالتفكر في معنى ما تلفظ به فيعرف معنى كل آية، ويتأمل الأوامر والنواهي ويتيقن أنه المأمور والمنهي، ويعتقـد قبول ذلك، فإن كان مما قصر عنه فيما مضى اعتذر واستغفر، وإذا مر بئاية رحمة استبشر وسأل، أو بآية عذاب أشفق وتعوذ، وآية تتريه: نزه وعظم، وبآية فيها مثل تدبر واعتبر، أو بآية دعاء تضرع وطلب. وكان عليه الصلاة والسلام يكسوه من كل آية يتلوها حال يناسب معناها. وكذلك ينبغي أن تكون تلاوة القرآن وأن لا يكون تاليه كالحمار يحمل أسفارا. ويقدر أنه المقصود بكل خطاب في القرآن، فإن سمع أمرا أو نهيا قدر أنه المنهي والأمور. وكذلك إن سمع وعدا أو وعيدا. وكذلك القصص فالمقصود بها الاعتبار. **قال تعالى**: ﴿وكلا نقص عليك من أنباء الرسل﴾[4] الآية. **وقال**: ﴿هـذا بيـان للنـاس وهدى﴾[5] الآية. وقال: ﴿وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ﴾[1] الآية.

---

[1] انظر البرهان في علوم القرآن: (450/1).

[2] ص: (29).

[3] محمد: (29).

[4] هود: (120).

[5] آل عمران: (138).

قال محمد بن كعب القرظي[2]: من بلغه القرآن فكأنما كلمه الله عز وجل. **انتهى من الإحياء**[3].

وعن سعيد بن مالك[4] **مرفوعا**: «إن هذا القرآن نزل بحزن وكآبة، فإذا قرأتموه فابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا[5]».

وفي مسند أبي يعلى: أن النبي ﷺ قال: «اقرءوا القرآن بالحزن فإنه نزل بالحزن[6]».

وقال علي رضي الله عنه: لا خير في عبادة لا فقه فيها ولا خير في قراءة لا تدبر فيها. ودليل القائل بأفضلية الترتيل: **قوله تعالى**: ﴿ورتل القرآن ترتيلا﴾[7]، **وقول عائشة رضي الله عنها** - وقد مرت برجل يهذ القرآن؛ أي يسرع-: ما سكت هذا ولا قرأ. **وقول ابن مسعود**: لا تنثروه نثر الدقل، ولا تَهذُّوهُ هَذَّ الشِّعْرِ قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب ولا يكن هم أحدكم آخر السورة[8].

وقول ابن عباس: لَأَنْ أَقْرَأَ البقرة وآل عمران أرتلهما وأتدبرهما أحب إلَيَّ من أن أقرأ القرآن كله هذرمة. ومن الصالحين من يقوم الليل كله بآية واحدة يرددها إلى الصباح، ولأن الترتيل أيضا أقرب إلى التوقير والاحترام، وأشد تأثيرا في القلب من الهذرمة، وحجة القائل بأفضلية الإسراع والهذرمة أن كثرة القراءة تتضمن كثرة الأجر **لقوله تعالى**: ﴿اذكروا الله ذكرا كثيرا﴾[9].

([1]) الانعام: (19).

([2]) هو محمد بن كعب بن سليم القرظي أبو حمزة القاص، يروي عن زيد بن أرقم. انظر الانساب للسمعاني: (428/4).

([3]) انظر إحياء علوم الدين: (53/2).

([4]) هو أبو سعيد الخدري وقد تقدمت ترجمته.

([5]) أخرجه البزار (69/4 ، رقم 1235) ، والديلمى (97/1 ، رقم 314) .

(6) أخرجه الطبراني في الأوسط (193/3 ، رقم 2902).

(7) المزمل: (4).

(8) أخرجه محمد بن نصر المروزي في "قيام الليل" ص: (116) مختصر المقريزي. وأخرجه أيضا العسكري في "المواعظ" موقوفا عن علي رضي الله عنه. انظر: الدر المنثور: 8 / 314. وذكره ابن كثير عن البغوي.

(9) الأحزاب: (41).

ومن الصالحين من يختم القرآن في ركعة واحدة و لم يصل قبلها ولا بعدها شيئا. وسعيد بن جبير[1] يقرأ في الركعة الثانية سورة الإخلاص. ومنهم من يختمه كل ليلة مـــرتين. ومنهم من يختمه ثلاثا. ومنهم من يختمه بين المغرب والعشاء. ومنهم من يختمه بين الظهر والعصر. والشافعي وأبو حنيفة يختمانه في رمضان ستين مرة. وبعضهم يختمه فيه تسعين مرة. وابن عباس يختمه فيه مائة مرة. وكان أبو الحسن الكانشي[2] إذا ختم القـــرآن يبكي ثم يقول:

أَبَعْـــدَ دَرْسِـــيَ لِلْقُـــرْآنِ تَحْرِقُنِـــي يَا لَيْتَ أُدْرِجْتُ قَبْلَ الذَّنْبِ فِـــي الْكَفَـــنِ

قراءة القرآن في الصلاة وفي المصحف

(وَ) قراءة القرآن (بِالصَّلاَةِ) أي فيها أفضل من قراءته في غيرها.

وقال علي كرم الله وجهه: من قرأ القرآن وهو قائم في الصلاة كان له بكل حرف مائة حسنة وإن كان جالسا في الصلاة فله بكل حرف خمسون.

---

(1) هو سعيد بن جبير الاسدي، بالولاء، الكوفي، أبو عبد الله: تابعي، كان أعلمهم على الاطلاق. وهو حبشي الاصل، من موالي بني والبة بن الحارث من بني أسد. أخذ العلم عن عبد الله بن عباس وابن عمر. ثم كان ابن عباس، إذا أتاه أهل الكوفة يستفتونه، قال: أتسألوني وفيكم ابن أم دهماء ؟ يعني سعيدا. ولما خرج عبد الرحمن ابن محمد بن الاشعث، على عبد الملك بن مروان، كان سعيد معه إلى أن قتل عبد الرحمن، فذهب سعيد إلى مكة، فقبض عليه واليها (خالد القسري) وأرسله إلى الحجاج، فقتله بواسط. قال الإمام أحمد بن حنبل: قتل الحجاج سعيدا وما على وجه الارض أحد إلا وهو مفتقر إلى علمه. توفي 95هـــ. انظر الوفيات: (204/1).

(2) هو حسن بن محمد بن حسن الخولاني. كان رجلاً صالحاً فاضلاً فقيهاً مشهوراً بالعلم متعبداً مجتهداً ورعاً خائفاً رقيق القلب كثير النياحة والبكاء، سمحاً كثير المعروف، باع ضياعه كلها وتصدق بها، وكان صارماً في مذهبه مجانباً لأهل الأهواء. ومن يخالف مذهب أهل المدينة. وكان أبو العباس الإبياني، إذا ذكره يقول: ذلك العالم حقاً. قال أبو بكر بن خلف: كان من العالمين بالله، وبأمره. سكن المنستير، سمع من عيسى بن مسكين، ويحيى بن عمر، وأحمد بن يزيد، وأبي إسحاق بن شعبان، وكان يحسن العربية والنحو واللغة، وشعر العرب، واعتماده في روايته على عيسى بن مسكين. وكان أجمع على فضله المؤلف والمخالف. سمع منه أبو الحسن القابسي. وأبو القاسم بن شبلون، وأبو الحسن اللواتي. وأبو الحسن القمودي علي القمودي. وأبو عبد الله بن نصيب، وجماعة الناس. انظر ترتيب المدارك وتقريب المسالك: (383/1).

وقال أبو العالية[1]: من أعظم الذنوب أن يتعلم الرجل القرآن ثم ينام عنه ولا يتهجد به. **قاله الشعراني**[2]. (ثُمَّ) تليها في الفضل قراءته (بِالْمُصْحَفِ) **لحديث**: «فضل قراءة القرءان نظرا على من يقرؤه على ظهْر كفضل الفريضة على النافلة[3]». **قاله أبو عبيد بن وضاح**. قال ﷺ: «من قرأ القرآن نظرا متع ببصره وخفف عن والديه العذاب وإن كانا مشركين[4]».

ابن وضاح عن بعض شيوخ أهل المدينة قال: كلما قرأ الرجل في المصحف خفف عن أبويه في قبريهما. **ابن وضاح يرفعه قال**: اجتمع اثنا عشر من الصحابة على أن من أفضل العبادة قراءة القرآن نظرا. **انتهى من المفيد شرح الرسالة**.

وإنما كانت قراءة المصحف أفضل لأنه أشغل لسانه وعيناه وقلبه بتدبر المعنى. وإن كان قراءته عن ظهر قلب أجمع لقلبه في تدبر المعنى من القراءة في المصحف كانت أفضل من المصحف. **وكره جماعة من السلف** أن يمضي على الرجل يوم لا ينظر في مصحفه أي لأن النظر فيه عبادة.

وفي الشعب للبيهقي بأسانيد ضعيفة حديث: «قراءة القرآن من غير المصحف ألف درجة، وقراءته في المصحف تضعف على ذلك ألفى درجة[5]»، **وحديث**: «أعطوا أنفسكم حظها من العبادة. قالوا وما هو؟ قال: النظر في المصحف[6]». **وفيه بسند**

([1]) هو زياد بن فيروز البصري البراء من أهل البصرة، يروي عن ابن عمر وابن الزبير رضي الله عنهم، روى عنه عاصم الاحول ويقال إسم أبي العالية البراء: أذينة، وقد قيل اسمه كلثوم، مولى قريش، مات يوم الاثنين في شهر شوال سنة تسعين. انظر الأنساب للسمعاني: (303/1).

([2]) انظر الطبقات الكبرى: (79/1).

([3]) أخرجه الديلمى (127/3 ، رقم 4342) ، وقال الحافظ فى الفتح (78/9 ، رقم 4741) : أبو عبيد فى فضائل القرآن وإسناده ضعيف .

([4]) أخرجه الديلمى (44/4 ، رقم 6139) ، وابن الجوزى فى العلل المتناهية (88/1 ، رقم 98) .

([5]) انظر شعب الإيمان للبيهقي: (رقم2145).

([6]) انظر شعب الإيمان للبيهقي: (رقم2148). بلفظ: " « أعطوا أعينكم حظها من العبادة قيل : يا رسول الله ، وما حظها من العبادة ؟ قال : النظر في المصحف ، والتفكر فيه ، والاعتبار عند عجائبه »

صحيح موقوفا على ابن مسعود ﷺ: «أديموا النظر في المصحف[1]».

ويستحب تقبيل المصحف كما يستحب تقبيل الولد الصغير؛ لأن عكرمة بن أبي جهل[2] كان يقبل المصحف، وبالقياس على تقبيل الحجر الأسود،؛ ولأنه هدية من الله تعالى.

وعن أحمد ثلاث روايات: الجواز والاستحباب والتوقف. وإن كان فيه رفعة وإكرام لأنه لا يدخله قياس، **ولهذا قال عمر في الحجر:** لولا أني رأيت النبي ﷺ **يقبلك ما قبلتك.**

الإتقان: ويستحب تطييب المصحف وجعله على كرسي. ويحرم توسده ومد الرجلين إليه[3]. **وكره سفيان أن تعلق المصاحف.**

فضل قراءة القرآن جهرا

(**وَالْجَهْرِ**) في قراءة القرآن أفضل من السر بشرطين أشار لأحدهما بقوله: (**حَيْثُ لاَ رِيَاءَ**) يخافه، والثاني: أن لا يؤذي غيره بجهره من مصل أو نائم أو غيرهما. وقيل: إيقاظ النائم بالقراءة جائز **لقول عمر** ﷺ: أوقظ الوسنان وأطرد الشيطان. وأُرضي الرحمان. وإنما كان أفضل لأن فيه تنبيه الغافل وتعليم الجاهل وتذكير الذاهل وإكثار العمل وإيقاظ الفؤاد وإبعاد النعاس، وزيادة النشاط.

وقيل: السر أفضل لأن عمل السر أفضل من عمل الجهر بسبعين ضعفا. وقيل: هما سواء لتعارض الأدلة. **وقيل:** الجهر أفضل في آية الرحمة.

([1]) انظر شعب الإيمان للبيهقي: (رقم2147).

([2]) تقدمت ترجمته.

([3]) انظر الإتقان: (458/2).

القرآن شفاء

ومن خواص القرآن: ما جاء في الحديث: «عليكم بالشفاءين: العسل والقـــرآن[1]».
وفيه: «خير الدواء القرآن[2]».

وقال طلحة بن مصرف[3]: كان يقال إذا قرئ القرآن عند المريض وجد لذلك خفة.
وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني أشتكي صدري. **قال:** اقرأ القرآن يقول الله تعـــالى: ﴿وشفاء لما في الصدور﴾[4]. **وورد:** «في فاتحة الكتاب شفاء من كـــل داء[5]». وفي **رواية:** «شفاء من السم».

وورد: «أن من قرأ أربع آيات من أول سورة البقرة وءاية الكرسي إلى خالدون، وآمن الرسول للختم لم يقربه ولا أهله شيطان ولا شيء يكرهه ولا يقرآن علـــى مجنـــون إلا أفاق». «وأن من قرأ آية الكرسي عند النوم لم يقربه شيطان حتى يصبح». «وأن مـــن قرأها حفظ هو وذريته وداره حتى الدويرات حول داره». «وأن من قرأها عند الكرب أغاثه الله». «وأن سورة الأنعام ما قرئت على عليل إلا شفاه الله». «**وأن قوله تعـــالى:** ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾[6] لم يدع بها مسلم إلا استجيب له، ولا مكروب إلا فرج عنه». «وأن من جعل يس أمام حاجته قضيت له». «وأن من قرأ سورة الدخان وأول غافر إلى المصير وءاية الكرسي مساء وصباحا حفـــظ إلى المســـاء والصباح».

([1]) أخرجه ابن ماجه (1142/2 ، رقم 3452) ، قال ابن كثير فى تفسيره (577/2) : هذا إسناد جيد
([2]) أخرجه ابن ماجه (1158/2 ، رقم 3501) . قال البوصيرى (69/4) : فيه الحارث بن عبد الله الأعور وهو ضعيف .
([3]) هو طلحة بن مصرف بن كعب بن عمرو الهمداني اليامي الكوفي، أبو محمد: أقرأ أهل الكوفة في عصره. وكان يسمى (سيد القراء) وهو من رجال الحديث الثقات، ومن أهل الورع والنسك. شهد وقعة (الجماجم) وقال: رميت فيها بأسهم، ولوددت أن يدي قطعت ولم أشهدها. توفي 112هـــ. انظر تهذيب التهذيب: (25/5).
([4]) يونس: (57).
([5]) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (450/2 ، رقم 2370) . وأخرجه أيضًا : الدارمى (538/2 ، رقم 3370)
([6]) الأنبياء: (87).

وعن ميمونة بنت شاقول البغدادية قالت: آذانا جار لنا فصليت ركعتين وقرأت من فاتحة كل سورة آية حتى ختمت القرآن وقلت: اللهم اكفنا أمره ثم نمت وفتحت عيني وإذا به قد نزل وقت السحر فزلت قدمه فسقط ومات.

فوائد الأولى : قال السيوطي: يستحب الإكثار من قراءة القرآن قال تعالى: ﴿يتلون آيات الله آناء الليل﴾[1]. **وعن مكحول[2] قال:** كان أقوياء الصحابة يقرؤون القرآن في سبع ليال، وبعضهم في شهر، وبعضهم في شهرين، وبعضهم في أكثر من ذلك.

وقال أبو الليث في البستان: ينبغي للقارئ أن يختم السنة مرتين إن لم يقدر على الزيادة. **وعن أبي حنيفة قال:** من قرأ القرآن في كل سنة مرتين فقد أدى حقه لأنه عليه الصلاة والسلام عرض علي جبريل في السنة التي قبض فيها مرتين. **وقال غيره:** يكره تأخير ختمه أكثر من أربعين يوما بلا عذر **نص عليه أحمد. لأن ابن عمر سأل النبي ﷺ** في كم يختم القرآن؟ قال: أربعين يوما. **رواه أبو داوود. انتهى**[3].

ومن الصالحين من يختم القرآن بين المغرب والعشاء وبين الظهر والعصر.

وصح أن أبا عيسى التلمساني يختمه بين اليوم والليلة اثنا عشر ألف مرة، **وأنكر ذلك الغزني فقال:** لو كان يقول: القرآن القرآن ما أتم اثنا عشر ألفا.

وذكر المحاسبي[4]: أن رجلا كان يقرأ القرآن بالمشرق يختم القرآن اثني عشر ألف ختمة في اليوم. وأنكر ذلك عليه، فلما رجع ثانية إلى المشرق كتب فيه عقدا بالشهود، وعلامة القاضي فيه فجاء به.

---

(1) آل عمران: (113).

(2) هو محمد بن عبد الله بن عبد السلام، أبو عبد الرحمن، المعروف بمكحول: حافظ للحديث، ثقة، ثبت. من أهل بيروت. سمع بمصر والشام والجزيرة، وروى عنه كثيرون. توفي 321هـ. انظر تذكرة الحفاظ: (33/3).

(3) انظر الاتقان: (276/1).

(4) هو الحارث بن أسد المحاسبي، أبو عبد الله: من أكابر الصوفية. كان عالما بالاصول والمعاملات، واعظا مبكيا، وله تصانيف في الزهد والرد على المعتزلة وغيرهم. ولد ونشأ بالبصرة، ومات ببغداد. وهو أستاذ أكثر البغداديين في عصره. من كتبه (آداب النفوس – خ) صغير، و (شرح المعرفة – خ) تصوف. انظر حلية الأولياء: (30/10).

وفي المفيد شرح الرسالة: كان عثمان وعمر بن عبد العزيز وتميم الداري وسعيد بن عبد الرحمن بن عوف وثابت البناني رضي الله عنهم يختمونه في ركعة واحدة، ويقـرءون في الثانية: ﴿قل هو الله أحد﴾[1].

والحاصل: أن الاستكثار من القراءة أولى ما لم يؤد إلى الملل.

قال النووي: ذلك يختلف باختلاف الأشخاص. فمن كان من أهل الفهم وتدقيق الفكر استحب له أن يقتصر على القدر الذي لا يخل بالمقصود من التدبر واستخراج المعـاني، وكذا من كان له شغل بالعلم أو غيره من مهمات الدين ومصـالح المسـلمين العامـة يستحب له أن يقتصر على القدر الذي لا يخل بما هو فيـه. ومـن لم يكـن كـذلك فالاستكثار أولى.

وقال عطاء الخراساني: من جمع القرآن فقرأ من أوله إلى آخره في الصلاة كان في رياض الجنة.

وفي الحديث: «من قرأ القرآن فليسأل به فإنه سيجيء أقوام يقرءون القرآن يسألون بـه الناس، فمن تعلم العلم لله أو حفظ القرآن لوجه الله و لم يصيره آلة لما يأكل به فأولئـك من جلساء الرحمن[2]».

وقال السيوطي: ويُسَنُّ الدعاء عقب الختم كما ورد أن مع كل ختمة دعوة مستجابة.

وعن أبي هريرة مرفوعا: «من قرأ القرآن وحمد الرب وصلى على النبي ﷺ واستغفر ربه فقد طلب الخير مكانه». والعمل على تكرير سورة الإخلاص عند الختم لأنها تعدل ثلث القرآن، فتحصل بذلك ختمة أخرى وكرهه أحمد، **فإن قيل:** فكان ينبغي أن يقرأها أربع ليحصل ختمتان, **قلنا:** وحاصل ذلك يرجع إلى جبر ما لعله حصل في القراءة من خلل. **انتهى**[3].

([1]) الاخلاص: (1).

([2]) تقدم تخريجه.

([3]) انظر الإتقان: (294/1).

أبو عبيد[1]: **قال أبو قتادة**: كان رجل بالمدينة يقرأ القرآن من أوله إلى آخــره علــى أصحاب له وكان ابن عباس يضع عليه الرقباء؛ فإذا كان عند الختم جاء ابــن عبــاس وشهده وكان ابن مسعود يجمع أهله إذا ختم فيدعو ويؤمنون على دعائه؛ لأن الــدعاء عند الختم مستجاب.

قال عطاء السلمي: دخلنا على مريض قد أُسْكت لا يتحرك منه شيء لنخــتم عليــه ختمة. قال: فابتدأنا فلما بلغنا الثلث الأول من القرآن فتح عينيه ثم قرأنا حتى بلغنا الثلث الثاني فتكلم ثم قرأنا الثلث الثالث فجلس.

وقال السيوطي: روى البخاري في تاريخه الكبير بسند صالح أنه ﷺ قال: «من قــرأ القرآن عند ظالم ليرفع عنه: لعن بكل حر عشر لعنات». **انتهى**[2].

الثانية :قال السيوطي: لا تحتاج قراءة القرآن إلى نية كسائر الأذكار لأنه قد جاء أنها أعظم القرب بفهم أو بغير فهم[3].

وفي الفوائد الجميلة: والتفهم للقارئ مستحب لأنه يؤجر مطلقا مع الحضور وغيره[4].

وقال الشعراني في طبقات الأولياء: وكان سيدي علي الخواص رضي الله عنه يقول: في معنى كلام الإمام أحمد ﷺ حين رأى الحق جل جلاله في منامه فقــال: يــا رب: بم يتقرب إليك المتقربون؟ قال: يا أحمد بتلاوة كلامي. قال: يا رب بفهم أم بغير فهــم؟ قال: يا أحمد بفهم أو بغير فهم[5].

([1]) هو القاسم بن سلام الهروي الازدي الخزاعي، بالولاء، الخراساني البغدادي، أبو عبيد: من كبار العلماء بالحديث والأدب والفقه.من أهل هراة.ولد وتعلم بها.وكان مؤدبا. ورحل إلى بغداد فولي القضاء بطرسوس ثماني عشرة سنة. ورحل إلى مصر سنة 213 وإلى بغداد، فسمع الناس من كتبه. وحج، فتوفي بمكة. من كتبه " الغريب المصنف – ط " مجلدان، في غريب الحديث، ألفه في نحو أربعين سنة، وهو أول من صنف في هذا الفن. توفي 224هـ. انظر الوفيات: (418/1).

([2]) انظر الاتقان: (296/1).

([3]) انظر الاتقان: (282/1).

([4]) انظر الفوائد الجميلة على الأيات الجليلة: (247).

([5]) انظر الطبقات الكبرى: (391/2).

قال الخواص ﷺ: المراد "بفهم": ما يتعلق بعلماء الشريعة. وبغير فهم ما يتعلق بعلماء الحقيقة فإن العلماء مالهم آلة إلا الفهم لكتاب الله تعالى بالفكر والنظر. وأما العارفون فطريقتهم إلى فهمه الكشف والتعريف الإلهي وذلك لا يحتاج إلى تفهم؛ أي المراد بغير فهم؛ أن معانيه تأتي إليهم من طريق الكشف؛ لا بواسطة الفهم والفكر ، **قال**: وهذا هو اللائق بفهم هذا الكلام. وإن كان تالي القرآن من العوام بلا فهم له الثواب الجليل. فالكمل ليست علومهم المتعلقة بالقرآن مستنبطة بفكر ولا إمعان نظر؛ إنما هي مواهب يهبها لهم حال تلاوتهم فيكون عين التلاوة عين المعاني. ومتى تخلفت المعاني عن النطق فذلك من نتيجة الفكر فقيل له: فما تقول فيمن يقرؤه من العوام بغير فهم قال: قد صح أن له بكل حرف يقرؤه عشر حسنات فيحث قوله: بفهم وبغير فهم؟ فقال: قد صح أن له بكل حرف مسألتان والله أعلم.

وقال الشيخ العارف سيدي إبراهيم الدسوقي[1]: يجب على قارئ القرآن أن يطهر فمه من اللفظ والنطق الفاحش، ولا يأكل إلا حلالا من غير سرف، وإلا أساء الأدب، ويعطر ثيابه وبدنه. **وقد كان** ﷺ يتعطر لذلك، ولا يدنس فمه بأكل حرام من عرض مؤمن. ومثال من ينطق بالقرآن العظيم مع تدنس فمه بغيبة أو نميمة أو بهتان؛ مثال من وضع المصحف في قاذورة. **انتهى**[2].

ومما لا يتوقف الثواب فيه على الحضور: ﴿حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم﴾[3] **لما روي**: «أن من قالها كفاه الله ما أهمه من أمر دينه ودنياه صادقا كان أو كاذبا[4]».

([1]) هو إبراهيم بن أبي المجد بن قريش بن محمد، يتصل نسبه بالحسين السبط: من كبار المتصوفين، كثير الاخبار. من أهل دسوق (بغربية مصر) أورد الشعراني من كلامه مجموعة كبيرة اختارها من كتاب له اسمه (الجواهر) قال: وهو مجلد ضخم. وأورد له شعرا ينحو فيه منحى ابن الفارض في وحدة الوجود. وفي خطط مبارك أنه تفقه على مذهب الشافعي في أوليته ثم اقتفى آثار الصوفية وكثر مريدوه. توفي 676هـ. انظر طبقات الشعراني: (43/1).

([2]) انظر الطبقات الكبرى للشعراني: (181/1).

([3]) التوبة: (129).

([4]) أخرجه ابن عساكر (193/36) .

قال سيدي محمد بن يوسف: فقف على هذا واغتبط به، فإن كثيرا من الأذكار متوقف على الصحة والصدق، وقد عمت الرحمة في هذا الذكر سائر الذاكرين وحصلت الكفاية من الهموم الدنيوية والأخروية لمن وفقه الله تعالى إلى النطق به، وإن لم يكن له قـــدم في التوكل فهذه نعمة لا يقدر قدرها ولا يقام بواجب شكرها، فلله الحمد والشكر ظاهرا وباطنا وأولا وآخرا. **انتهى.**

وقال في كتاب البركة: قال ﷺ: «من قال: ﴿حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم﴾[1] سبعا كفى ما أهمه من أمر الدنيا والآخرة». **رواه ابن السني[2] وغيره.**

فينبغي المواظبة على هذا، **فقد قال ابن أبي الصيف اليمني:** ينبغي الاعتماد مـــن ربـــع العبادات على تلاوة القرآن، وقول: ﴿حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهـــو رب العرش العظيم﴾. **قال:** لأن العبادات سوى هذين يشترط فيها حضور القلب والصدق. وتلاوة القرآن قد جاء أنها أعظم القربات بفهم وغير فهم. ﴿وقل حسبي الله﴾[3] جاء أن قائله يكفيه الله ما أهمه صادقا كان به أو كاذبا. **انتهى**[4].

وفي بعض طرق الحديث عن حذيفة: «إن هذا فيمن قاله سبعا».

([1]) التوبة: (129).

([2]) هو أحمد بن محمد بن إسحاق بن إبراهيم بن اسباط الدينوري، أبو بكر ابن السني: محدث ثقة، شافعي من تلاميذ النسائي. ناهز الثمانين. من أهل الدينور. سمع بالعراق ومصر والشام والجزيرة. وصنف كتبا، منها (عمل اليوم والليلة – ط) و (فضائل الاعمال – خ) في الأزهرية، و (القناعة – خ) في الظاهرية، و (الطب النبوي – ط) في الفاتح، و (الصراط المستقيم – خ) في شستربتي (3303) و (المجتبى) اختصر به سنن النسائي. ومات فجأة وهو يكتب. كان جده اسباط مولى لجعفر بن أبي طالب. توفي 364هـ. انظر الشذرات: (47/3).

([3]) التوبة: (129).

([4]) انظر البركة في فضل السعي والحركة: (346).

وقال ابن ناجي[1]: أفتى بعض من لاقيناه بأن من يقرأ القرءان بلا فهم لا ثواب له البتة، زاعما أن ابن عبد البرنص على ذلك. **قال:** وهو كمثل الحمار يحمل أسفارا. وكنت لا أرتضي هذه الفتوى. **وأجمل ما ذكر ابن عبد البر** إن صح على قصد المبالغة في فهم القرآن. **انتهى**[2].

وقال أحمد بن الحسين الجريري[3]: من قرأ القرآن بقصد الدرجات في الجنة، فقد رضي بالقليل بدلا عن الكثير؛ لأن الجنة مخلوقة، والقرآن غير مخلوق. ومعظم الفائدة في قراءته وجود الرب وفهم خطابه. فكيف من يطلب بقراءته عرضا من الدنيا، ومن فعل ذلك فقد فاته خير القرآن كله. **قاله الشعراني**[4].

ومن ذلك أيضا: الصلاة على النبي ﷺ؛ **ففي الحديث:** «من قال حين يسمع المؤذن: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة صل على محمد عبدك ورسولك وأعطه الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة والشفاعة يوم القيامة حلت له شفاعتي[5]». **وفيه:** «من صلى عليَّ صلاة صلَّى الله عليه بها عشرا[6]».

عياض: كان بعض من لقيناه من المحققين يقول هذا. والله أعلم فيمن صلى عليه محتسبا مخلصا قاضيا حقه بذلك إجلالا لمكانته وحبا فيه لا لمن قصد بذلك حظ نفسه، ودعابه لمجرد الثواب. أو رجاء لإجابة دعائه بصلاته عليه أو لحظ نفسه. وهذا عندي فيه نظر. **انتهى**[7].

([1]) هو قاسم بن عيسى بن ناجي التنوخي القيرواني: فقيه، من القضاة، من أهل القيروان. تعلم فيها وولي القضاء في عدة أماكن. له كتب، منها " شرح المدونة – خ " وزيادات على معالم الايمان – ط " مع المعالم، و " شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني – ط " و " مشارق الانوار القلوب – خ " و " شرح التهذيب للبراذعي ". توفي 837هـ. انظر تعريف الخلف: (87/1).

([2]) انظر شرح ابن ناجي على الرسالة مع شرح زروق لها: (405/2).

([3]) هو أبو محمد أحمد بن الحسين الجريري، كان من كبار أصحاب الجنيد وسهل بن عبد الله التستري، من علماء القوم. أقعد بعد الجنيد في مجلسه لتمام حاله. انظر طبقات الأولياء للشعراني: (95/1).

([4]) انظر الطبقات الكبرى: (220/1).

([5]) أخرجه أحمد (354/3 ، رقم 14859) ، والبخارى (222/1 ، رقم 589) ، وأبو داود (146/1 ، رقم 529).

([6]) أخرجه أحمد (168/2 ، رقم 6568) ، ومسلم (288/1 ، رقم 384) ، وأبو داود (144/1 ، رقم 523).

([7]) انظر إكمال المعلم شرح صحيح مسلم لعياض: (138/2).

قال الأجهوري[1]: ولعل وجه النظر أن الصلاة عليه ﷺ لا يدخلها الرياء.

وقال بعض الفضلاء: الصلاة على النبي ﷺ لها مطلبان: مطلب بين العبد وربه، ومطلب بين الرب ونبيه. فإذا قال العبد: اللهم صل على محمد فمعناه: اللهم أوصل رحمتك إلى محمد؛ فالمطلب الذي بين الرب ونبيه هو إيصال رحمته إليه. فهذا حاصل قطعا ولو مع رياء. والمطلب الذي بين العبد وربه هو طلبه ذلك فيثاب عليه إن لم يصحبه رياء، فأحد المطلَبَيْن يدخله الرياء دون الآخر. ويمكن أن يكون جمعا بين قول من قال يدخلها كالرملي. وقول من قال لا يدخلها.

وقال بعض الفقهاء: إنها مقبولة قطعا لا ترد.

السنوسي[2]: معنى القطع بقبولها أنه إذا ختم له بالإيمان وجد حسناته مقبولة لا ريب فيها بخلاف سائر الحسنات فلا وثوق بقبولها وإن مات صاحبها على الإيمان. ويحتمل أن قبولها على القطع إذا صدرت من صاحبها على وجه محبته له عليه الصلاة والسلام فيقطع بانتفاعه بها في الآخرة ولو في تخفيف العذاب في الكافر. ألا ترى إلى انتفاع أبي طالب في الآخرة بمحبته له عليه الصلاة والسلام، وكذا أبو لهب من التخفيف عليه يوم الاثنين لعتقه من بشرته بولادته عليه الصلاة والسلام. فإذا انتفعا معا بحب طبيعي لم يكن لله تعالى؛ فكيف بالمؤمن المحب له ﷺ. **انتهى من الدر النضيد.**

---

(1) هو علي بن محمد بن عبد الرحمن بن علي، أبو الارشاد، نور الدين الأجهوري: فقيه مالكي، من العلماء بالحديث. مولده ووفاته بمصر. من كتبه " شرح الدرر السنية في نظم السيرة النبوية " مجلدان، و " النور الوهاج في الكلام على الاسراء والمعراج - خ " و " الاجوبة المحررة لاسئلة البررة - خ " فقه، و " المغارسة وأحكامها - خ " و " شرح رسالة أبي زيد - خ " فقه، و " مواهب الجليل - خ " في شرح مختصر خليل، فقه، و " غايه البيان - خ ". توفي 1066هـ. انظر خلاصة الأثر: (157/3).

(2) هو محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسى الحسنى، من جهة الام، أبو عبد الله: عالم تلمسان في عصره، وصالحها. له تصانيف كثيرة، منها (شرح صحيح البخاري) لم يكمله، و (شرح مقدمات الجبر والمقابلة لابن الياسمين) و (شرح جمل الخونجي) في المنطق، و (تفسير سورة ص وما بعدها من السور) و(عقيدة أهل التوحيد - ط) ويسمى العقيدة الكبرى،و(أم البراهين -ط) ويسمى العقيدة الصغرى، و (شرح كلمتي الشهادة - خ) عندي، و(مختصر في علم المنطق - ط) توفي 895هـ. انظر تعريف الخلق: (186/1).

وفي شرح دلائل الخيرات: إنما يصلى عليه ﷺ بنية التقرب والاحتساب وقصد التعظيم ورجاء الثواب، **ولذا كرهت في مواضع:** في الجماع، وحاجة الإنسان، والعثرة، وشهرة المبيع، وما يصدر من العوام في الأعراس وغيرها من إشهارهم أفعالهم للنظر إليها بالصلاة عليه، عليه الصلاة والسلام مع زيادة عدم الوقار والاحترام بل بضحك ولعب **كما ذكره الرصاع**. ومن التعجب والذبح والعطاس على خلاف الثلاثة[1].

ويقصد بها أيضا: امتثال أمر الله وتعظيما لقدره وكونه أهلا لذلك ونحو هذا. وهذه المقاصد بعضها أعلى من بعض. وهي كلها أعلى من العمل على الأجور لأن صاحب ذلك عامل على حظ نفسه وواقف معها. والعامل على ذلك لم يقم بحق أوصاف مولاه ولا أوصاف نبيه وحسنه وإحسانه وعظم قدره ودعائه رجاء الثواب ورجاء لإجابة دعائه بالصلاة عليه أو لحظه. **ومن ذلك أيضا:** الأذان. **قاله الفشني على الأربعين.**

الثالثة: قراءة القرآن بالصوت الحسن وبالتجويد

أجمعوا على استحباب قراءة القرآن بالصوت الحسن والقراءة المجودة. **كما قاله النووي في التبيان**[2]. وهو أمر محمود شرعا، قال تعالى: ﴿يزيد في الخلق ما يشاء﴾[3] **قيل:** إنه الصوت الحسن.

وفي الحديث: «لكل شيء حلية وحلية القرآن حسن الصوت[4]»

وقال عمر لأبي موسى الأشعري: ذكرنا ربنا بحسن صوتك لحسن صوته بالقرآن وتجويده لقراءته استدعاء لرقة قلبه بسماع القرآن لا لمجرد التذاذ حسن صوته. **وقال مالك في هذا الحديث:** إن من الأحاديث أحاديثَ قد سمعتها وأنا أتقيها.

([1]) انظر شرح دلائل الخيرات للفاسي: (36).

([2]) لم أجده بهذا اللفظ في التبيان في آداب حملة القرآن.

([3]) فاطر: (1).

([4]) أخرجه عبد الرزاق (484/2 ، رقم 4173) ، والخطيب (268/7) ، والضياء (88/7 ، رقم 2496) .

قال القباب[1]: **إنما اتقى مالك أن يكون التحدث بما روى عن عمر ذريعة لاستجازة قراءة القرآن** بالألحان ابتغاء استماع الصوت الحسن والالتذاذ بذلك حتى يقصد أن يقدم الرجل للإمامة بحسن صوته، لا لما سوى ذلك مما يرغب في إمامته من أجله.

وكره مالك النفر في المسجد يقولون لرجل حسن الصوت: اقرأ علينا يريدون حسن صوته. **ابن رشد**: أما إذا قالوا ذلك استدعاء لرقة قلوبهم لسماعهم قراءته الحسنة فلا يكره.

وفي الحديث: «ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي يتغنى بالقرآن[2]» أي ما استمع لشيء ما استمع لنبي يُحَسِّن الصوت بالقرآن طلبا لرقة قلبه بذلك.

فمن أعطاه الله هذه العطية -أي حسن الصوت- وحلاه بهذه الحلية وأعطاه هذه النعمة وأعرض عنها **فقد خالف قوله تعالى**: ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾[3] **والتحدث بها إظهارها**[4]. **قاله الشوشاوي**[5].

وقال أبو الحسن في تحقيق المباني: وأحسن ما قيل في **حديث**: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن[6]» عندي أن يكون المعنى فيه: ليس منا من لم يتلذذ بسماع القرآن لرقة قلبه وشوقه إلى ما عند ربه كما يتلذذ أهل الأغاني بسماع أغانيهم. **انتهى**.

---

(1) هو أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن الجذامي الفاسي، أبو العباس الشهير بالقباب: فقيه مالكي، قاض. مولده ووفاته بفاس. ولي الفتوى بها، والقضاء بجبل الفتح ثم اعتزل وعكف على التدريس في (المدينة البيضاء) فالجامع الاعظم بفاس. وعرض عليه قضاء الجماعة فامتنع واختفى مدة. وعاد إلى التدريس والفتيا. وحج. ثم ولي الخطابة بالجامع الاعظم بفاس في النصف الثاني من ذي القعدة 778 وتوفي إثر ذلك. له كتب، منها (شرح قواعد عياض – خ). توفي 778هـ. انظر الديباج: (31).

(2) أخرجه أحمد (450/2 ، رقم 9804) ، والبخاري (2720/6 ، رقم 7044) ، ومسلم (545/1 ، رقم 792).

(3) الضحى: (11).

(4) انظر الفوائد الجميلة على الآيات الجليلة للشوشاوي: (235).

(5) هو الحسين بن علي بن طلحة الرجراجي ثم الشوشاوي، أبو عبد الله السملالي: مفسر مغربي، من بلاد (سوس) له تصانيف، منها (الفوائد الجميلة على الآيات الجليلة – خ) مباحث في نزول القرآن وكتابته، منه نسخة في الظاهرية بدمشق، و (نوازل) في فقه المالكية، و (شرح مورد الظمآن توفي بتارودنت 899هـ. انظر الاعلام: (247/2).

(6) أخرجه محمد بن نصر فى قيام الليل كما فى مختصره للمقريزى (ص 226-227 رقم 155) . وأخرجه أيضاً : البزار (69/4 ، رقم 1235) ، والدورقى فى مسند سعد (214/1 ، رقم 129) ، والقضاعى (208/2 ، رقم 1198) ، والديلمى (97/1 ، رقم 314)

فمن جملة معانيه: أنه يجعله هجِّيراه وتسلية نفسه وذكر لسانه في كل حالة، كما كانت العرب تفعل ذلك في الشعر والحداء في قطع مسافاتها وحروبها فيجد القارئ من الأنس وانشراح النفس بتلاوة القرآن كما يجده أهل الغناء بغنائهم.

وفي الحديث: «زينوا القرآن بأصواتكم[1]» أي زينوا أصواتكم بالقرآن، لا على تطريب الصوت.

وقال آخرون: لا حاجة إلى القلب؛ **فمعناه**: الحث على الترتيل. فكأن الزينة للمرتل لا للقرآن كما يقال: ويل للشعر من رواة السوء. فهو راجع إلى الراوي لا على الشعر.

قال ابن مليكة: فإن لم يكن صوته حسنا فليحسنه ما استطاع.

قال النووي: هذا ما لم يخرج عن حد القراءة بالتمطيط. فإن خرج حتى زاد حرفا أو أخفاه حرم[2].

قال العلقمي: ومن جملة تحسينه أن يراعي فيه قوانين النغم، فإن الحسن الصوت يزداد حسنا بذلك. وإن خرج عنها أثر ذلك في حسنه.

وعن الحسن: ربما انجبر بمراعاتها ما لم يخرج عن شرط الأداء المعتبر عند أهل القراءات فإن خرج منها لم يف تحسين الصوت بقبح الأداء. فلعل هذا مستند من كره قراءة القرآن بالأنغام، لأن الغالب على من راعى الأنغام أن لا يراعي الأداء، فإن وجد من يراعيهما معا فلا شك أنه أرجح من غيره؛ لأنه يأتي بالمطلوب من تحسين الصوت ويتقي الممنوع من خرم الأداء.

الرابعة : حكى عبد الوهاب المالكي عن مالك تحريم قراءة القرآن باللحون المرجعة كترجيع الغناء، لأنها تلهي بسماعها عن الخشوع والاعتبار بآيات القرآن والخشية لله وتجديد التوبة عند سماع مواعيظه. **وعن الغزالي** من الشافعية، **وصاحب الذخيرة** من

([1]) أخرجه أحمد (283/4 ، رقم 18517) ، والدارمي (565/2 ، رقم 3500) ، وأبو داود (74/2 ، رقم 1468)

([2]) انظر التبيان في آداب حملة القرآن: (110/1).

الحنفية، والإمام الشافعي: الكراهة. وحكى ابن بطال[1] عن جماعة من الصحابة والتابعين: الجواز، وهو للشافعي أيضا. ونقله الطحاوي[2] من الحنفية لحديث البخاري عن عبد الله بن مغفل[3] قال: قرأ النبي ﷺ يوم فتح مكة سورة الفتح فرجع فيها وهو على ناقته.

ومحل هذا الخلاف خلاف في حال؛ لأنه إن لم يخرج بالألحان عن المنهج القويم جاز، وإلا حرم. قاله النووي.

ومن حرم الترجيع قال: إن ترجيعه ﷺ يوم الفتح من هزّ ناقته لا قصدا منه. والترجيع: تقارب ضروب الحركات في القراءة وأصله الترديد، وترجيع الصوت ترديد في الحلق. وقد فسره في التوحيد: ءا، ءا، ءا ثلاث مرات بهمزة مفتوحة بعدها ألف ساكنة ثم همزة أخرى ثم أخرى كذلك.

وقال العلقمي: وذلك يحتمل أمرين: أحدهما: أن ذلك حدث من هز الراحلة. وأنشد الشيخ عبد المؤمن بن خلف الدمياطي[4] مشيرا إلى ذلك بقوله:

رَوَيْنَا بِإِسْنَادٍ عَنِ ابْنِ مُغَفَّلٍ حَدِيثاً شَهِيراً صَحَّ مِنْ عِلَّةِ الْقَدْحِ

---

[1] هو علي بن خلف بن عبد الملك بن بطال، أبو الحسن: عالم بالحديث، من أهل قرطبة. له " شرح على البخاري – خ ". توفي 449هـ. انظر الشذرات: (283/3).

[2] هو أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة الازدي الطحاوي، أبو جعفر: فقيه انتهت إليه رياسة الحنفية بمصر. ولد ونشأ في (طحا) من صعيد مصر، وتفقه على مذهب الشافعي، ثم تحول حنفيا. ورحل إلى الشام سنة 268هـ فاتصل بأحمد بن طولون، فكام من خاصته، وتوفي بالقاهرة. وهو ابن أخت المزني. من تصانيفه (شرح معاني الآثار – ط) في الحديث، مجلدان، و (بيان السنة – ط) رسالة، وكتاب (الشفعة – ط) و (المحاضر والسجلات) و (مشكل الآثار – ط) أربعة أجزاء، في الحديث. توفي 321هـ. انظر الوفيات: (19/1).

[3] هو عبد الله بن مغفل المزني: صحابي، من أصحاب الشجرة. سكن المدينة. ثم كان أحد العشرة الذين بعثهم عمر ليفقهوا الناس بالبصرة.

فتحول إليها، وتوفي فيها. له 43 حديثا. توفي 57هـ. انظر الإصابة: (الرجمة 4973).

[4] هو عبد المومن بن خلف الدمياطي، أبو محمد، شرف الدين: حافظ للحديث، من أكابر الشافعية. ولد بدمياط. وتنقل في البلاد، وتوفي فجأة في القاهرة. قال الذهبي: كان مليح الهيأة، حسن الخلق، بساما، فصيحاً لغويا مقرئا، جيد العبارة، كبير النفس، صحيح الكتب، مفيدا جدا في المذاكرة. وقال المزي: ما رأيت أحفظ منه. من كتبه " معجم " ضمنه أسماء شيوخه وهم نحو ألف وثلاثمائة، في أربع مجلدات، و " كشف المغطى، في تبيين الصلاة الوسطى – ط " و " المتجر الرابح في ثواب العمل الصالح – خ " و " قبائل الخزرج " و " العقد المثمن. توفي 705هـ. انظر الشذرات: (12/6).

بـــأنّ رَسُـــولَ اللهِ حِـــينَ مَسِـــيرِه   لثامنَـــةٍ وَافَتْـــهُ فِـــي غَـــزْوَةِ الْفَـــتْحِ
تَـــلاَ خَيْـــرَ مَسْـــمُوعٍ بِمَـــتْنِ بعـــيرِه   فَرَجَّعَ فِي الآيَاتِ مِـــنْ سُـــورَةِ الْفَـــتْحِ

والآخر: أنه أشبع المدّ في موضعه فحدث ذلك. وهذا الثاني أشبه بالسياق، والذي يظهر أن في الترجيع قدرا زائدا على الترتيل. **فقال ابن أبي جمرة**: معنى الترجيع تحسين التلاوة لا ترجيع الغناء؛ لأن القراءة بترجيع الغناء تنافي الخشوع الذي هو مقصود التلاوة. **وقال القرطبي**: هو محمول على إشباع المد في موضعه. **وقيل**: كان ذلك بسبب كونه راكبا فحصل الترجيع من تحريك الناقة له، **وهذا فيه نظر. لأن في رواية علي عن شعبة**[1] **عند الإسماعيلي**[2] وهو يقرأ قراءة لينة فقال: لولا أن يجتمع الناس علينا لقرأت لكم بذلك اللحن، أي النغم. **وكذا أخرجه أبو عبيدة**[3].

وقول معاوية ابن قرة[4]: "لولا أن يجتمع الناس...إلخ: يشير إلى أن القراءة بالترجيع تجمع نفوس الناس إلى الإصغاء وتستميلها بذلك حتى لا يكاد يصبر على الترجيع. وفي قوله: ءا بمد الهمزة والسكون: دلالة على أنه ﷺ كان يراعي في قراءته المد والوقف. **انتهى**.

وقال القرطبي: يحتمل أن يكون ذلك حكاية عن صوته وتقطيعه لأجل هز الركوب. **قال شيخ شيوخنا**: ولا شك أن النفوس تميل إلى سماع القراءة بالترنم أكثر من ميلها لمن

([1]) هو شعبة بن الحجاج بن الورد العتكي الازدي، مولاهم، الواسطي ثم البصري، أبو بسطام: من أئمة رجال الحديث، حفظا ودراية وتثبتا. ولد ونشأ بواسط، وسكن البصرة إلى أن توفي. وهو أول من فتش بالعراق عن أمر المحدثين، وجانب الضعفاء والمتروكين، قال الإمام أحمد: هو أمة وحده في هذا الشأن. وقال الشافعي: لولا شعبة ما عرف الحديث بالعراق. وكان عالما بالأدب والشعر، قال الاصمعي: لم نر أحدا قط أعلم بالشعر من شعبة. له كتاب (الغرائب) في الحديث. توفي 160هـ. انظر تهذيب التهذيب: (338/4).

([2]) هو محمد بن إسماعيل بن مهران النيسابوري، أبو بكر المعروف بالإسماعيلي: من حفاظ الحديث، ثقة. جمع (حديث الزهري) و (حديث مالك) و (حديث يحيى بن سعيد) و (حديث عبد الله بن دينار) و (حديث موسى بن عقبة). توفي 295هـ. انظر الشذرات: (221/2).

([3]) تقدمت ترجمته.

([4]) هو معاوية بن قرة بن إياس بن هلال المزني، أبو إياس، من الطبقة الثانية من التابعين من أهل البصرة. كان زاهداً عابداً ورعاً. انظر النجوم الزاهرة: (79/1).

لم يترنم. لأن للتطريب تأثيرا في رقة القلب وإجراء الدمع. **انتهى كلام العلقمي باختصار.**

الخامسة: يندب تحسين القرآن بالقراءة المجودة ما لم يخرج عن حد القراءة.
وفي الحديث: «اقرءوا القرآن على اختلاف ألسنتكم[1] »... **الحديث.**
قال ابن رسلان[2]: على الكيفية التي يسهل على ألسنتكم النطق بها مع اختلاف ألسنتكم في الفصاحة واللكنة واللثغة من غير تكلف ولا مشقة في مخارج الحروف ولا مبالغة ولا إفراط في المد والهمز والإشباع والإدغام. فقد كانت قراءة رسول الله ﷺ وخيار السلف والتابعين زمنه لو أراد السامع أن يعدها حرفا حرفا لعدها. وقد أقر رسول الله ﷺ أهل كل لسان على قراءتهم الجِبليَّةَ التي طبعهم الله عليها. و لم يكلف أحدا منهم أن يجتهد في إصلاح لسانه وتردده إلى المعلمين كما في هذا الزمان، حتى أن بعضهم ليستمر في قراءة الفاتحة شهرا ونحوه، ويلازم التلفظ بالضاد المعجمة في "المغضوب"، وفي "ولا الضالين".
قال ابن الجوزي[3]: فيلبس عليه إبليس في تحقيق تشديد الضالين وفي إخراج ضاد "المغضوب". **قال**: ولقد رأينا من يخرج بصاقه مع إخراج الضاد لقوة تشديده والمراد

([1]) لم أجد تخريجه.
([2]) هو أحمد بن حسين بن حسن بن علي ، أبو العباس ، الرملي الشافعي . ويعرف بابن رسلان . فقيه شافعي ، ولد بالرملة (بفلسطين) وانتقل في كبره إلى القدس ، فتوفى بها ، عالم شارك في بعض العلوم . ولزم الإفتاء والتدريس مدة . وأجازه قاضي القضاة الباعوني بالإفتاء .
ومن تصانيفه : " صفوة الزبد " منظومة في الفقه " ، و " شرح سنن أبي داود " و " شرح البخاري " ، و " تصحيح الحاوي " فقه ، و " شرح منهاج الوصول إلى علم الأصول " . انظر شذرات الذهب: (248/7).
([3]) هو عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي، أبو الفرج: علامة عصره في التاريخ والحديث، كثير التصانيف. مولده ووفاته ببغداد، ونسبته إلى (مشرعة الجوز) من محالها.له نحو ثلاث مئة مصنف، منها(تلقيح فهوم أهل الآثار، في مختصرالسير والاخبار- ط) قطعة منه، و (الاذكياء وأخبارهم – ط) و (مناقب عمر بن عبد العزيز – ط) و (روح الارواح – ط) و (شذور العقود في تاريخ العهود – خ) و (المدهش – ط) في المواعظ وغرائب الاخبار. توفي 597هـ. انظر الوفيات: (279/1).

تحقيق الحرف حَسْبُ. وإبليس يخرج هؤلاء عن حد التحقيق بالزيادة ويشغلهم بالمبالغة في الحرف عن فهم التلاوة.

وقال الغزالي في الإحياء: وذلك من الأسباب المانعة من فهم معاني كلام الله والحجب التي أسد لها الشيطان على قلوبهم. فعميت عليهم عجائب أسرار القرءان يكون هم القارئ منصرفا إلى تحقيق الحروف بإخراجها من مخارجها. وللقراء شيطان يصرفهم عن معاني القرآن فهو موكل بهم، ولا يزال يحملهم على ترديد الحروف، ويخيل إليهم أنه لم يخرج من مخرجه، فهذا يكون تأمله مقصورا على مخارج الحروف، فأنى تنكشف له المعاني. فما أعظم ضحكة الشيطان ممن كان مطيعا لمثل هذا التلبيس. **انتهى**[1].

والمقصود: أن السلف والأئمة يكرهون التنطع في مخارج الحروف والغلو في النطق. ومن تأمل هديه ﷺ وإقراره أهل البوادي، وأجلاف الأعراب، ومن أسلم من الأعاجم على قراءتهم التي يألفونها، ووصف قراءتهم مع قراءة فصحاء العرب بالحسن بقوله **كما رواه أبو داوود عن جابر بن عبد الله**[2] **قال**: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نقرأ القرآن وفينا الأعرابي والأعجمي فقال: «اقرءوا فكل حسن وسيجيء أقوام يقيمونه كما يقام القدح، يتعجلونه ولا يتأجلونه[3]» أي يتعجلون العمل بالقرآن ولا يلتفتون إلى الأجر الآجل في الآخرة. وبقوله: اقرءوا ما أنتم تقرؤون وداوموا عليها فكل هذا حسن؛ أي فيه فضيلة وأجر وثواب. **انتهى**.

قال العلقمي: ولا بد من مراعاة إخراج الحروف من مخارجها غير أنها تختلف بالفصيح، ومنهم بين بين. كما أن بعضهم يعقد القاف، وبعضهم لا يعقده. فلعل هذا هو المراد باختلاف ألسنتهم. أو لحن لا يغير المعنى فهو جائز مع الكراهة. أما اللاحن المغير المعنى

([1]) انظر إحياء علوم الدين: (51/2).

([2]) هو جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الخزرجي الانصاري السلمي: صحابي، من المكثرين في الرواية عن النبي صلى الله عليه وسلم وروى عنه جماعة من الصحابة. له ولابيه صحبة.غزا تسع عشرة غزوة. وكانت له في أواخر أيامه حلقة في المسجد النبوي يؤخذ عنه العلم. روى له البخاري ومسلم وغيرهما 1450حديثا. توفي 78هـ. انظر الإصابة: (213/1).

([3]) أخرجه أحمد (357/3 ، رقم 14898) .

فليس له أن يقرأ غير الفاتحة في الصلاة. **قال إمام الحرمين**[1]: لأنه يتكلم بما ليس بقرآن بلا ضرورة. **وقواه السبكي. انتهى.**

السادسة: إذا أنعم الله عليك بحفظ القرآن أو بقراءته فيجب عليك أن تعتقد أنه لولا تسهيل الله تعالى لك ذلك ما قدرت عليه. قال تعالى: ﴿فإنما يسرنه بلسانك﴾[2].

السابعة: ورد فيمن لم يعمل بالقرآن وعيد شديد ووعد حسن لمن عمل به. **فعن ابن مسعود:** أنزل القرآن ليعمل به فاتخذ الناس دراسته عملا، وسيأتي قوم يثقفونه تثقيف القنا. **وفي لفظ آخر:** يقيمونه إقامة القدح يتعجلونه ولا يتأجلونه.

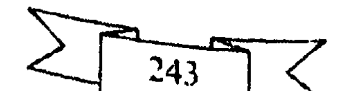
وفي بعض الأحاديث: كنا أصحاب رسول الله ﷺ أوتينا الإيمان قبل القرآن، وسيأتي قوم يؤتون القرآن قبل الإيمان يقيمون حروفه ويضيعون حدوده يقولون قرأنا القرآن فمن أقرأ منا وعلمنا فمن أعلم منا؟ فذلك حظهم منه. **وفي لفظ آخر:** أولئك شرار هذه الأمة؟.

قال أبو حازم[3]: أدركت القراء وهم القراء حقا. ولو كان حامل القرآن منهم في مائة رجل لعرف حامله منهم بشدة الورع والتواضع وحسن السمت قد خضعه القرآن وخشعه. فأما هؤلاء فو الله ما هم بالقراء ولكنهم المراءون.

([1]) هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، أبو المعالي، ركن الدين، الملقب بإمام الحرمين: أعلم المتأخرين، من أصحاب الشافعي. ولد في جوين (من نواحي نيسابور) ورحل إلى بغداد، فمكة حيث جاور أربع سنين. وذهب إلى المدينة فأفتى ودرس، جامعا طرق المذاهب.ثم عاد إلى نيسابور، فبنى له الوزير نظام الملك " المدرسة النظامية " فيها.وكان يحضر دروسه أكابر العلماء. له مصنفات كثيرة، منها " غياث الامم والتياث الظلم – خ " و " العقيدة النظامية في الاركان الاسلامية – ط " و " البرهان – خ " في أصول الفقه، و " نهاية المطلب في دراية المذهب – خ " في فقه الشافعية، اثنا عشر مجلدا، و " الشامل " في أصول الدين، على مذهب الاشاعرة، و " الارشاد – ط " في أصول الدين، و " الورقات – ط " في أصول الفقه، و " مغيث الخلق – ط " أصول. توفي بنيسابور478هـ. انظر الوفيات: (287).

([2]) مريم: (98).

([3]) هو سلمة بن دينار المخزومي، أبو حازم، ويقال له الاعرج: عالم المدينة قاضيها وشيخها.فارسي الاصل. كان زاهدا عابدا، بعث إليه سليمان بن عبد الملك ليأتيه، فقال: إن كانت له حاجة فليأت، وأما أنا فما لي إليه حاجة. قال عبد الرحمن ابن زيد ابن أسلم: (ما رأيت أحدا الحكمة أقرب إلى فيه من أبي حازم) أخباره كثيرة. توفي 140هـ. انظر تذكرة الحفاظ: (125/1).



وكان الفضيل يحذر من قراء زمانه. وكان الحجاج أقرأ القراء وأحفظهم لحروف القرءان؛ كان يختم في كل ثلاث، وكان أضيعهم لحدود الله.

وقال الثوري: لا شيء أبغض إِلَيَّ من صحبة قارئ. **وقال بشر:** إياك وصحبة القراء فإنهم يذمون غير مذموم ويسرعون الإنكار إلى شيء لغلبة الجهل عليهم وقلة مجالسة العلماء ومعاداتهم للعلم. وأنهم موصوفون بدقائق الرياء والتصنع والعجب.

وقال أبو الحسن المقري: يقبح على قارئ القرآن العصيان ولو مرة في عمره. **وقال:** لو عمل قارئ القرآن بالقرآن لم تحرقه نار الدنيا. **وقال:** أعظم الكبائر فساد العلماء، وأشد المصائب زنا الفقراء.

وقال أبو محمد عبد الله بن حنيف الأنطاكي[1]: إذا عصى القارئ ناداه القرآن من صدره ما لهذا حملتني. فلو أن العاصي سمع ذلك الصوت لمات حياء من الله تعالى.

وقال عياض: حامل القرآن حامل راية الإسلام لا ينبغي له أن يلهُوَ مع من يلهو ولا يسهُو مع من يسهو، ولا يلغو مع من يلغو تعظيما لحق القرآن.

وقال ابن مسعود: ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذا الناس نائمون وبكائه إذا الناس يضحكون وبصمته إذا الناس يتحدثون.

وقال الثوري: كيف يكون حامل القرآن وهو ينام الليل ويفطر النهار ويتناول الحرام والشبهات.

وقال الفضيل: لولا نقص دخل على أهل القرآن والحديث لكانوا خيار الناس، ولكنهم اتخذوا علمهم حرفة ومعاشا. ولذلك هانوا في ملكوت السماوات والأرض.

وفي الحديث: «اقرءوا القرآن ما ائتلفت قلوبكم فإذا اختلفت فقوموا عنه[2]».

([1]) هو أبو محمد عبد الله بن حنيف الأنطاكي صحب يوسف بن أسباط وهو من زهاد الصوفية الأكياس في أكل الحلال والورع في جميع الأحوال، أصله من الكوفة وطريقته في التصوف طريقة الثوري رضي الله عنه فإنه صحب صحابه رضي الله عنهم. انظر الطبقات الكبرى للشعراني: (81/1).

([2]) أخرجه المستغفري في فضائل القرآن: (رقم 246).

قال ابن أبي جمرة: إن القارئ إذا كان في شغل وكان قلبه مجتمعا على القرآن فلا يضره ذلك الشغل لأن يده فيه عارية وقلبه مشغول بعبادته. وإن تعلق قلبه بالشغل منعت لـه القراءة. فأقل المجزئ في ذلك أن تسمع بقلبك ما تتلوه بلسانك كأنك تسمع لغيرك يقرأ عليك. وأعلاه أن تتفكر في معناه حتى تفهم ما أنت تتلوه.

وعن زادان قال: من قرأ القرآن ليأكل به الناس لقي الله عز وجل وليس في وجهه مزْعَةُ لحم. **وعن الحسن:** قراء القرآن ثلاثة أصناف:

صنف اتخذوه بضاعة يأكلون به.

وصنف أقاموا حروفه وضيعوا حدوده واستطالوا به على بلادهم واشتروا به الولايـــة. كثر هذا الضرب من حملة القرآن لا كثرهم الله.

وصنف عمدوا إلى دواء القرآن فوضعوه على داء قلوبهم فذكروا به في محاريبهم، وجثوا به في برانيسهم، واستشعروا الخوف، وارتدوا الحزن، فأولئك الذين يسقى بهم الغيـــث وينصر بهم على الأعداء. والله فهذا الضرب من حملة القرآن أعزُّ من الكبريت الأحمر.

وقال عبد الله بن المبارك: من حمل القرآن ثم مال بقلبه إلى الدنيا فقد اتخذ آيات الله هزءا ولعبا.

وكان يوسف بن أسباط[1] كلما ختم القرآن يستغفر الله تعالى سبعمائة مرة ثم يقـــول: اللهم لا تمقتني بما قرأته من غير عمل سبعين مرة.

وقال الفضيل بن عياض: حامل القرآن يجل مقامه أن يعصي ربه لأنه يسمع كل حرف منه ينادي بالله عليك لا تخالف ما أنت حامله مني.

وقال الثوري: لا ينبغي لحامل العلم والقرآن أن يكون جافيا ولا مماريا ولا رافعا صوته بالحديث والعلم ولا راغبا في الدنيا لأن كل كلمة منه تقول له: ازهد في الدنيا.

---

(1) هو يوسف بن أسباط كان يقول: غاية التواضع أن تخرج من بيتك فلا ترى أحداً إلا رأيت أنه خير منك، وكان رضي الله عنه يقول: لو أن شخصاً ترك الدنيا كما تركها أبو ذر وأبو الدرداء ما قلت له زاهداً، وذلك أن الزهد لا يكون لا في الحلال المحض والحلال المحض لا يعرف اليوم وأقام أربعين سنة ليس له إلا قميصان إذا غسل أحدهما لبس الآخر، وكان يعمل الخوص بيده ويتقوت حتى مات رضي الله عنه. للمزيد من أخباره انظر طبقات الشعراني: (59/1).

وقال الفضيل: إن حملة القرآن يسألون يوم القيامة عما يسأل عنه الأنبياء.

وقال أنس بن مالك: رب تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه. ثم يقرأ: **﴿ألا لعنة الله على** الظالمين﴾[1] وهو قد ظلم نفسه.

وقال الثوري: إذا قرأ العبد كلام الله ثم تكلم بلغو ثم أعاد القراءة قال تعالى: "مالك ولكلامي"؟.

قال الشعراني: ومن هنا كان سيدي علي الخواص إذا كان يقرأ القرآن وكلمه أحد في حاجة يقول في قلبه: دستور يا رب أكلم فلانا ثم يكلمه. والله أعلم.

وعن الثوري: عشرة من الجفاء: من يدعو لنفسه ولا يدعو لأبويه والمؤمنين، ومن يتعلم القرآن ولا يقرؤه في كل يوم، ومن يدخل المسجد ويخرج ولا يصلي ركعتين، ومن يمر على المقابر ولا يسلم عليهم، ولا يدعو لهم، ومن يدخل المدينة يوم الجمعة ثم يخرج ولا يصلي الجمعة، ومن نزل بمحلتهم عالم فلا يذهبون إليه للتعلم، ورجلان يترافقان ولا يسأل أحدهما الآخر عن اسمه، وشاب فارغ لا يطلب العلم والأدب، وشبعان وجاره جائع، ومن يجب لصاحبه الضيافة ثم لا يذهب إلى الضيافة.

والحاصل: أن الذنوب قبيحة ولا سيما على العالم وقارئ القرآن.

ولما ذكر الفاضل والمفضول من العلم ومن الذكر ذكر الأفضل من النفل فقال: (**وَالنَّفْلُ أَفْضَلُ فِي الْبَيْتِ**) من النفل خارجه حتى في المساجد الثلاثة **لحديث الصحيحين:** «أيها الناس صلوا في بيوتكم فإن أفضل الصلاة صلاة المرء في بيته[2]» إلا المكتوبة. **وقيده الشيرازي[3] في المهذب[1]** بتطوع النهار، **وتعجب منه النووي في شرحه.**

---

(1) الاعراف: (44).

(2) أخرجه البخارى (256/1 ، رقم 698) . وأخرجه أيضًا : أحمد (182/5 ، رقم 21622).

(3) هو إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروزآبادي الشيرازي، أبو إسحاق: العلامة المناظر. ولد في فيروزاباد (بفارس) وانتقل إلى شيراز فقرأ على علمائها. وانصرف إلى البصرة ومنها إلى بغداد (سنة 415 هـ فأتم ما بدأ به من الدرس والبحث. وظهر نبوغه في علوم الشريعة الاسلامية، فكان مرجع الطلاب ومفتي الأمة في عصره، واشتهر بقوة الحجة في الجدل والمناظرة. وله تصانيف كثيرة، منها

وقال السبكي في الأشباه والنظائر: لعله أشار به إلى أن التطوع في البيت ــ حيث يظهر في المسجد ــ أفضل لا حيث يخفى. قال: وهو حسن[2].

وقال بعض السلف: فضل صلاة النافلة في البيت كفضل الفريضة في المسجد بقطع ظهر إبليس ولكونه أخفى وأبعد من الرياء وأصون من المحبطات، ولتبرك أهل البيت بذلك، وتنزل فيه الرحمة والملائكة، وتنفر منه الشياطين. **قال العلقمي**: إلا ما استثني من النوافل كسنية الجمعة القبلية وركعتي الإحرام والطواف.

قال الزركشي: وصلاة الضحى **لخبر رواه أبو داوود**، وصلاة الاستخارة، وصلاة منشئ السفر والقادم منه، والماكث في المسجد لتعلم أو تعليم أو اعتكاف، والخائف فوات الراتبة. **انتهى**.

(وَ) النفل أيضا أفضل **(بِاللَّيْلِ)** من النفل بالنهار **لحديث**: «أفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل[3]».

حكى العلقمي الاتفاق على ذلك. **وقال السيوطي: استدل أبو إسحاق المروزي[4]** من أصحابنا على أن صلاة الليل أفضل من السنن الراتبة. وقال أكثر أصحابنا: الرواتب أفضل لأنها تتمة الفرائض. **وقال النووي**: الأول أقوى وأوفق للحديث.

(وَ) النفل أيضا في جوفه الأخير وهو الجزء الخامس من أسداس الليل **كما في النهاية[5]**. **وكما في القاموس في تفسير الحديث**: «أفضل من النفل أولهُ» **لحديث**: «يترل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول: من يدعوني أستجب له؟ من

(التنبيه – ط) و (المهذب – ط) في الفقه، و (التبصرة – خ) في أصول الشافعية، و (طبقات الفقهاء – ط. توفي 476هـ. انظر الوفيات: (4/1).

[1] انظر المهذب لإبراهيم بن يوسف بن علي الشيرازي: (84/1).

[2] انظر الأشباه والنظائر للسبكي: (244/1).

[3] أخرجه أيضاً : الدارمي (412/1 ، رقم 1476) ، وأبو يعلى (280/11 ، رقم 6392) .

[4] ابراهيم بن أحمد المروزي، أبو اسحاق: فقيه انتهت إليه رياسة الشافعية بالعراق بعد ابن سريج. مولده بمرو الشاهجان (قصبة خراسان) وأقام ببغداد أكثر أيامه. وتوفي بمصر. له تصانيف منها (شرح مختصر المزني). انظر وفيات الأعيان: (4/1).

[5] انظر النهاية في غريب الأثر للجزري: (841/1).

يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له[1]؟». **والحديث:** «أحب الصلاة إلى الله صلاة داوود ﷺ كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه[2]» **رواهما الشيخان.**
والحديث: «أفضل الصلاة بعد المكتوبة: الصلاة في جوف الليل الأخير[3]». **والحديث:** «أقرب ما يكون العبد من الرب في جوف الليل الأخير[4]».

قال الطيبي: هو أن يُنَصِّف الليل ويجعل لكل نصف جوفا، والقرب يحصل في نصف الجوف الثاني، فابتداؤه يكون من الثلث الأخير وهو وقت القيام للتهجد. وأما السدس الأخير فكانوا ينامون فيه حتى قالوا: إن نومه سبب المكاشفة والمشاهدة من وراء حجاب الغيب.

([1]) أخرجه مالك (214/1 ، رقم 498) ، وأحمد (487/2 ، رقم 10318) ، والبخارى (384/1 ، رقم 1094) ، ومسلم (521/1 ، رقم 758) وأبو داود (34/2 ، رقم 1315) ، والترمذى (526/5 ، رقم 3498) وقال : حسن صحيح .

([2]) أخرجه أحمد (160/2 ، رقم 6491) ، والبخارى (1257/3 ، رقم 3238) ، ومسلم (816/2 ، رقم 1159).

([3]) أخرجه البيهقى (4/3 ، رقم 4438)

([4]) أخرجه الترمذى (569/5 ، رقم 3579) ، وقال : حسن صحيح غريب . والحاكم (453/1 ، رقم 1162).

فضل الحض على العمل

اعْلَمْ أَنَّ أَحَبَّ الأَشْيَاءِ إِلَى الْمَوْتَى) وهو أحب إليهم من الدنيا بحذافيرها لأنهم عرفوا قدر الأعمال (**أَنْ يُرَدُّوا إِلَى الدُّنْيَا**) ولو يوما واحدا من أيام أعمارهم التي ضيَّعوها. بل (**وَلَوْ سَاعَةً**) أما من عصى فليتدارك، وأما من أطاع فلِيزيدَ في طاعته، فإن يوم القيامة يوم التغابن، فالمطيع مغبون إذ يرى جزاء طاعته فيقول: كنت أقدر على أكثر من هذه الطاعات، فما أعظم غبني إذ ضيعت بعض الأوقات في المباحات. وأما العاصي فغبنه ظاهر. (**لِيَعْمَلُوا**) عملا (**صَالِحًا**) ينفعهم في الآخرة (**فَـ**) إذا علمت أن أحب الأشياء إلى الموتى أن يكون بقي لهم من العمر ما بقي لك (**اغْتَنِمْ بَقِيَّةَ عُمُرٍ**) وهي صبابة يسيرة وما عمُرك من يوم ولدتك أمك، ولكن عمرك من يوم عرفت الله تعالى.

وقال علي كرم الله وجهه: بقية عمر المؤمن ما لها ثمن؛ يدرك فيها ما أفات، ويحيي فيها ما أمات، **وقد نظمه بعضهم**:

بَقِيَّةُ الْعُمْرِ مَا عِنْدِي لَهَا ثَمَنٌ ... وَإِنْ غَدَى غَيْرَ مَحْـبُوبٍ مِنَ الثَّمَنِ
يَسْتَدْرِكُ الْمَرْءُ فِيهَا مَا أَفَاتَ وَيُحْـ ... ـيِي مَا أَمَاتَ وَيَمْحُو السُّوءَ بِالْحَسَنِ[1]

وقال رجل لعامر بن عبد الله بن عبد قيس[2] وهو يريد الجمعة: قف حتى أكلمك. فقال: لولا أني أبادر لوقفت لك. قال له: وما تبادر؟ قال: أبادر خروج روحي.

(**ضَيِّع أولَه**) في البطالة والسيئات واصرِفها إلى ما يشتهي الموتى — العودُ إلى الدنيا لأجله — فإن عمُرا ضُيِّع أولُه حرٍ أن تَحفظ آخرَه كامرأة لها عشرة أولاد ماتوا كلهم

([1]) البيتان لأبي الفتح البستي، انظر ديوانه (حرف النون).

([2]) هو عامر بن عبد الله المعروف بابن عبد قيس العنبري، تابعي من بني العنبرى، هو أو ل من عرف بالنسك من عباد التابعين بالبصرة، كان فرض على نفسه كل يوم ألف ركعة وكان إذا سافر يصب من ركوته: إن شاء لبنا وإن شاء ماء، أخذ القرآن عن أبي موسى الأشعري، وتخرج عليه في النسك والتعبد من أقران أويس القرني. توفي في خلافة معاوية. انظر حلية الأولياء (87/2) وطبقات الشعراني (28/1)

إلا واحدا أليست تردُّ وَجدها على ذلك الواحد، وأنت قد ضيعت بقية عمرك فأحفظ بقيته. وإنما كان العود إلى الدنيا أحب إليهم من الدنيا بحذافيرها؛ لأنهم قد عرفوا قدر الأعمال وقدر الحياة وظهرت لهم الأمور وانكشفت لهم الحقائق وتبدلت لهم المنازل. وعلموا مقدار ما ضيعوا وقيمة ما فيه فرطوا، فندموا وتمنوا الرجوع إلى الدنيا ليزداد المطيع من العمل وليستدرك المقصِّر ما فرَّط فيه.

وفي الحديث: «ما من أحد يموت إلا وندم إن كان محسنا ندم ألا يكون ازداد، وإن كان مسيئا ندم ألا يكون نزع»[1].

قال بعض الأولياء: رأيت أخا لي في الله في النوم فقلت: يا فلان عشت بعدك والحمد لله رب العالمين، قال: لأن أقدر أن أقولها أحب إلي من الدنيا وما فيها، ثم قال: ألم تر كيف كانوا يدفنوني فإن فلانا يصلي ركعتين، لأن أكون أقدر أن أصليهما أحب إلي من الدنيا وما فيها.

وقال مطرف بن عبد الله[2]: رأيت أني نزلت إلى الأموات فرأيتهم جالسين فسلمت عليهم فلم يرد علي منهم أحد السلام، فقلت لهم في ذلك، فقالوا: إن رد السلام حسنةٌ وإنا لا نستطيع أن نزيد في الحسنات. **قاله في طبقات الأولياء**[3].

وقال أبو يزيد بن نعامة[4]: رأى رجل ابنة له في النوم فقالت له: يا أبت والله لتسبيحة أو تسبيحتان أو ركعة أو ركعتان أحب إلَيَّ من الدنيا وما فيها.

وقال أبو قلابة[1]: صليت ركعتين ثم نمت على قبر، فإذا صاحبه يشتكي يقول: لقد آذيتني منذ الليلة ثم إنكم لا تعملون وتقدرون على العمل ونحن نعلم ولا نقدر على العمل، ثم قال: الركعتان اللتان ركعتهما خير من الدنيا وما فيها.

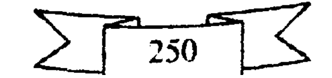
---

[1]- أخرجه الترمذي عن أبي هريرة، رقم: (2403)

[2]- تقدمت ترجمته.

[3]- انظر طبقات الأولياء: للشعراني (34/1).

[4]- لم أعثر عليه.



ودخل أصحاب حسان بن أبي سنان[2] **عليه في مرض موته فقالوا:** كيف تجدك؟ قال: بخير إن نجوت من النار، فقيل له: ما تشتهي؟ قال: ليلة طويلة أحييها بالصلاة والاستغفار قبل أن أموت.

ومر ابن عمر رضي الله عنهما يوما على مقبرة وصلى ركعتين هناك فقيل له: هذا شيء ما رأيناك تصنعه قبل اليوم، فقال: ذكرت أهل القبور وقد حيل بينهم وبين العبادة فأحببت أن أتقرب إلى الله تعالى بركعتين بينهم استغناما للعمر.

وفي الحديث: «ما من ليلة إلا وينادي ملك: يا أهل القبور من تغبطون؟ فيقولون: نغبط أهل المساجد لأنهم يصومون ولا نصوم، ويصلون ولا نصلي، ويذكرون الله ولا نذكره[(3)]».

ويقال: إن ملك الموت إذا ظهر للعبد أعلمه؛ إنك قد بقي من عمرك ساعة، وأنك لا تستأخر عنها طرفة عين، قالوا: فيبدوا للعبد من الأسف والحسرة ما لو كانت له الدنيا من أولها إلى آخرها لخرج منها إلى أن يضم إلى تلك الساعة ساعة أخرى. فيستعتب فيها. أو يستبدل بها خيرا، فلا يجد إلى ذلك سبيلا. قال تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ **قيل:** هو التوبة، **وقيل:** الزيادة في العمر. **وقيل:** إن العبد عند كشف الغطاء يقول: يا ملك الموت أخرني يوما أعمل فيه صالحا لنفسي. فيقول: فنيت الأيام فلا يوم، فيقول: أخرني ساعة، فيقول: فنيت الساعات فلا ساعة، فتبلغ الروح الحلقوم ويؤخذ بكظمه عند الغرغرة. فذلك قوله تعالى: ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ فحينئذ يغلق باب التوبة. وتنقطع الأعمال والأوقات، ويبقى عدد الأنفاس يشهد فيها المغابنة عند كشف الغطاء. فيحد بصره، فإذا

---

[1] - هو عبد الله بن زيد بن عمرو الجرمي، عالم بالقضاء والأحكام، كان ثقة بالحديث، ناسك بصري، أرادوه على القضاء فهر إلى الشام فمات بها سنة (104هـ). انظر تهذيب التهذيب (224/5) وحلية الأولياء (282/2).

[2] - لعله حسان بن أبي سنان البصري صدوق عابد كان يكتب بالعربية والفارسية والصريانية، رأى أنس بن مالك وأدرك الدولتين؛ الأموية والعباسية، من نسله قضاة ووزراء. (ت 186) انظر تقريب التهذيب (ص 98) والبداية والنهاية (175/10).

([3]) أخرجه في الفوائد المجموعة: (35).

كان في آخر نفس زهقت روحه فيدرك ما سبق له من السعادة فتخرج روحه على التوحيد فذلك حسن الخاتمة. أوبالعكس **والعياذ بالله تعالى.**

وقيل: إن أولَ من يسأل الرجوعَ من هذه الأمة: من لم يكن أدى زكاته، ولم يحج بيت ربه، لقوله تعالى: ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾. وقيل: لا يسأل الرجعة عند الموت من له عند الله مثقالُ ذرة من خير، لو أن له الدنيا بما فيها لم يحبَّ أن يعود إليها أي ليعمل صالحا. فإذا علمت أن أحب الأشياء إلى الموتى أن يكون بقي لهم من العمر ما بقي لك فاغتنمْ بقية عمرك **(قَبْلَ فَوَاتِهَا)** واغتنم معها غنيمة الفراغ فإنها فضيلة لم تعط على شروطها إلا لنادر من الناس. ولعلها لا تدوم، وإن دامت فالموت القريب يهدم كل عمل. **وأشار بهذا إلى حديث:** «اغتنم خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك»[1].

وأنشد أبو القاسم عبد المحسن التنوخي[2]:

اغْتَنِمْ خَمْسَةً شَبَابًا وَيُسْرًا وَفَرَاغًا وَصِحَّةً وَبَقَاءَا
وَاحْذَرَنْ خَمْسَةً مَشِيبًا وَعُسْرًا وَاشْتِغَالاً وَعِلَّةً وَفَنَاءَا

وعن محمد بن القاسم الفارسي[3] **عن شمر بن عبد الله الصوفي**[4] **قال:** رأيت مكتوبا على جدار مسجد القادسية باللأزوردي بيتين **قيل إنهما من كلام البخاري وهما:**

اغْتَنِمْ فِي الْفَرَاغِ فَضْلَ رُكُوعٍ فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مَوْتُكَ بَغْتَهْ
كَمْ صَحِيحٍ رَأَيْتَ مِنْ غَيْرِ سُقْمٍ ذَهَبَتْ رُوحُهُ الصَّحِيحَةُ فَلْتَهْ

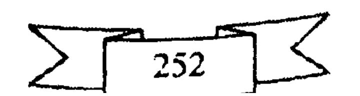
---

[1]- أخرجه في الجامع الصغير (48/1) وعزاه للحاكم في المستدرك والبيهقي في شعب الإيمان.

[2]-عبد المحسن التنوخي: هو عبد المحسن بن حمود بن عبد المحسن التنوخي الحلبي أبو الفضل؛ أديب من الشعراء كان كاتبا ووزيرا لعز الدين أيبك صاحب صرخد له كتاب في الأخبار والنوادر وله ديوان شعر ومؤلفات أخرى. (تـ 643هـ) انظر شذرات الذهب (220/5) آداب اللغة (22/3) وغيرهما.

[3]- محمد بن القاسم الفارسي: يوجد محمد بن القاسم علم على عدة أشخاص ولم أجد فيهم الفارسي.

[4]- لم أعثر عليه كذلك.



وقال ابراهيم بن أدهم[1]: لن ينال الرجل درجة الصالحين حتى يجوز ستّ عقبات وهي: أن يغلق باب النعمة ويفتح باب الشدة, أن يغلق باب العز, ويفتح باب الذل, ويغلق باب الراحة، ويفتح باب الجهد، ويغلق باب النوم، ويفتح باب الفقر, ويغلق باب الأمل، ويفتح باب الاستعداد للموت.

مراعاة الباطن وضبط الحواس

(**وَلاَ تَغْفَلْ**) مع هذا كله (**عَنْ مُرَاعَاةِ الْبَاطِنِ**) والتفتيش عنه كلّ ساعة، هل هو متلبس بخفايا آفات النفس، وغرور الدنيا، ومصائد الشيطان، لتحتال في الطهارة من ذلك، والتحرز منه، أو هو مترّهٌ عنه، فتتفكر في كيفية امتحانه والاستشهاد بالعلات عليه، وهل هو متصف بالفضائل كالزهد والرضى وغيرهما، وما الذي يعوزك منها. (**وَضَبْطِ الْحَوَاسِّ**) وهي الجوارح السبعة التي هي: السمع والبصر واللسان واليدان والرجلان والبطن والفرج. **ففي الحديث**: «خلق الله للنار سبعة أبواب وخلق لابن آدم سبعة جوارح؛ فمتى أطاع الله بجارحة من تلك الجوارح السبعة أغلق عنه بابا من تلك الأبواب[2]». (**وَحِفْظ الأَنْفَاس**) لأن أنفاسك معدودة عليك ومسئول عنها مطالب بها، بل وعن دقائقك وجزئياتك، فإذا كنت هكذا فإنه لم يبق محل لمتابعة هواك، فعليك بدوام المراقبة وعدم الغفلة.

وأدب العبد في أنفاسه: أن يجعل أنفاسه التي هي عنده أمانة له لا عليه لأنها خزائن أعماله النافعة له يوم يفتقر غالب الناس. وقد كان بعضهم يعد ما يفوته من الأنفاس فيما يمضغ من الأكل، فيسف السويق ليلا يشتغل بالأنفاس في الأكل دون الذكر، وهذه

---

[1]- تقدمت ترجمته.

(2) لم أجد تخريجه.



مراقبة سنية عدها السلف أعلى مقامات السلوك. لكن فُتح لبعضهم بأكملَ منها وهي مراقبة طرفةِ العينِ.

والمراقبة: تحقيق القلب بنظر الحق على سره وجهره، في كل زمن فرد، فمن راعى الله في الأنفاس راقبه في عموم أحواله، فيرى أنه رقيب عليه وأقرب إليه من حبل الوريد. فلا تغفل عن مراعاة أنفاسك فإن السنة 12شهرا، والشهر 30يوما، واليوم والليلة 24ساعة، والساعة 120نفسا والنفس لحظتان، وفي كل لحظة يجب على العبد ثلاثة أشياء يعصي بتركها: ذكر الله، والإخلاص، والرضى بكل ما يأتي من الله. فكل لحظة تقرب باستعمالها في الذكر لله، وتبعد باستعمالها لغير الله.

فأيام السنة: ثلاثمائة وستون يوماً "360"، **وساعاتها:** 8640نفَسا، **والأنفاس فيها:** 1036800، **واللحظات فيها:** 2073600 لحظة. فانظر يا أخي ما ذا يضيع البطّالُ من الأوقات الشريفة التي تذهب سُدًى، وهو لا يشعر ولا يدري أن كل نفس جوهرة نفيسة لا عوض لها **كما أشار إلى ذك بقوله:** (**لأنَّ كلَّ نفسٍ**) من أنفاس عمرك. والنفس بفتح الفاء أدقُّ الحركات النفسية في عالم الملكوت والشهادة. (**جَوْهَرَةٌ نفيسةٌ**) لا عوض لها (**يُمْكِنُ أن تَشْتَرِيَ بها**) أي أن تفعل في ساعة قصيرة من العمر (**كَنْزًا**) أي عملا صالحا (**لاَ يَتَنَاهَى نَعِيمُهُ**) في الجنة أبدا. وذلك بصرف ذلك النفس في ذكر الله وطاعته، وذلك أرباح عظيمة يستحقرها الغافلون الذين لم يعرفوا قدر الدين (**فَإِخْلاَءُ نَفْسٍ**) أي ساعة قصيرة من الطاعة أي انقضاؤها ضائعا (**أَوْ**) استعمالُها (**فِي مَعْصِيَّةٍ**) قوله: (**حَسْرَةٌ**) راجع إلى قوله: "فإخلاء..إلخ" وقوله: (**وَخُسْرَانٌ عَظِيمٌ**) راجع إلى قوله: "أو في معصية" على طريق اللف والنشر.

وفي الخبر: «ما من ساعة تأتي على العبد لا يذكر الله فيها إلا كانت عليه حسرة»[1].

---

[1]- أورده السيوطي في الجامع الصغير بلفظ: «ما من ساعة تمر بابن آدم ولم يذكر الله فيها إلا حسر عليها يوم القيامة» (150/2) وعزاه للبيهقي في شعب الإيمان، وأبي نعيم في الحلية.

24 **ويقال:** إن العبد تعرض عليه ساعاته في اليوم والليلة فيراها خزائن مصفوفة خزانة فيرى في كل خزانة لذةً ونعيماً وعطاءً وجزاءً بما كان أودَع خزائنه من ساعاته في الدنيا من الحسنات فيسره ذلك ويغتبط به. فإذا مرت في الدنيا ساعة لم يذكر الله فيها رآها في الآخرة خزائن فارغة لا عطاء فيها ولا جزاء عليها فيسوءه ذلك ويتحسر كيف فاته حيث لم يدخر فيها شيئا.

ثم قال: (وَاعْمُرْ أَوْقَاتَكَ) واشغلها واستغرقها ولا سيما أفاضلها **بما ينفعك مما سيأتي.** فإن الشيطان يرضى منك بتضييع عمرك من غير فائدة.

قال الشاذلي: الطريق ليست بالرهبانية ولا بأكل الشعير، بل بحفظ الأوقات عن الضياع فإن طريقهم جهاد لا صلح فيه.

قال الحكيم الترمذي[1]: رأس مَالِكَ وَقْـتُكَ وقَلْـبُكَ، وقد شغلت قلبك بهواجس الظنون وضيعت وقتك بارتكاب ما لا يغنيك فمتى يربح من خسر رأس ماله.

قال الغزالي: من أراد أن يدخل الجنة بغير حساب فليستغرق أوقاته في الطاعة ومن أراد أن ترجح كفة حسناته وتثقل ميزان خيراته فليستوعب في الطاعة أكثر أوقاته. وانظر إلى ما قال الله تعالى لأقرب عباده وأرفعهم درجة لديه: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾، ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلاً﴾.[2]

وقال الحسن البصري: أدركت أقواما كانوا على ساعاتهم أشفق منكم على دنانيركم ودراهمكم يقول: كما لا يخرج أحدكم دينارا ولا درهما إلا فيما يعود عليه نفعه؛ كذلك لا يحبون أن تخرج عنهم ساعة من أعمارهم إلا فيما يعود عليهم نفعه. فمن فاته نفس بلا ذكر ولا طاعة فقد ضيع خيرا كثيرا، لا يمكن أن يخلفه أبدا.

([1]) هو محمد بن علي بن الحسن بن بشر، أبو عبد الله، الحكيم الترمذي: باحث، صوفي، عالم بالحديث وأصول الدين. من كتبه: فمنها (نوادر الاصول في أحاديث الرسول – ط) و (الفروق – خ) يفرق فيه بين المداراة والمداهنة، والمحاجة والمجادلة، والمناظرة والمغالبة، والانتصار والانتقام الخ، وهو فريد في بابه. وله كتاب (غرس الموحدين). توفي 320هـ. انظر طبقات السبكي: (20/2).

([2]) انظر إحياء علوم الدين: (331/1).

ولكن هذا كله. (**بَعْدَ أَدَاءِ الْفَرَائِضِ) قال صالح بن بشير**[1]: رأيت الفُضيل بعد موته فقلت له: ما فعل الله بك؟ فقال: لم أر شيئا أفضل من تأدية الفرائض فعليكم بها.

وقال سعيد بن المسيب[2]: من حافظ على الصلوات الخمس فقد ملأ البَرَّ والبحر عبادة. ثم ذكر ما تعمر به الأوقات بعد الفرائض فقال: بكثرة النوافل؛ لأن التزوُّد بمجرد الفرائض لذلك السفر البعيد قد لا يكفي، لاحتمال أن يكون فيها نقص فيحتاج أن **يُكَمَّلَ (بِالنَّوَافِلِ) كما ورد في الحديث**. ويدل على هذا قوله ﷺ للذي قال: لا أزيد على هذا ولا أنقص يعني الفرائض «أفلح هذا إن صدق[3]» لأنه قال: لا أنقص.

قال ثابت البناني[4]: لو علم الله تعالى شيئا أفضل من الصلاة لما قال: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلآئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ فينبغي للمؤمن أن يُنعش إيمانه بكثرة النوافل ويسقي شجرة إيمانه حتى تحيا وتثمر وتخرج أغصانها وثمارها من كل جزء من أجزاء البدن. ولا حياة لشجرة الإيمان إلا بأن تسقى على الدوام بمياه الطاعات. فمن فرط في الطاعات وأعرض عن التقرب إلى الله تعالى والتضرع إليه على مر الأزمان والساعات يبست شجرة إيمانه وقلّت ثمارها فلم تنفذ إلى الجوارح. وإذا كانت الجوارح عريت عن ثمار الإيمان صارت مأوى لأفاعي المعاصي وحياتها وعقاربها. **ولذا قيل**: من وُفِّق في نهاره وُفِّق في ليله وبالعكس. وإن خلّط في أحدهما ابتلي بالتخليط في الآخر إلا أن يعفو الله تعالى عنه.

قال الغزالي: ومن اشتغل بشهوة نفسه عن العبادة مع تمكنه منها من غير تعذر- والدار دار خدمة وعبادة لا دار تنعم وشهوة – استحق اللوم بذلك والتعيير من سيده. **انتهى بخ.**

([1]) هو صالح بن بشير، القاص الزاهد الخاشع؛ لما سمعه سفيان الثوري قال لمرحوم: تقول لهذا قاص؟ ! إنما هذا نذير. توفي سنة اثنتين وسبعين ومائة، وروى له الترمذي. انظر الوافي بالوفيات: (230/5).

([2]) تقدمت ترجمته.

3 أخرجه البخاري رقم: (46) عن طلحة بن عبيد الله.

([4]) تقدمت ترجمته.

وقيل لعبيد[1] **مولى رسول الله ﷺ:** هل كان رسول الله ﷺ يأمر بالصلاة غير المكتوبة؟ قال: بين المغرب والعشاء. **وقال الأسود:** ما أتيت ابن مسعود في هذا الوقت إلا ورأيته يصلي فسألته؟ فقال:نعم هي ساعة الغفلة، **ففي الحديث:** «من صلى المغرب وصلى بعدها ركعتين بَنَـــى الله له قصرا في الجنة»[2] **قال الرواي:** لا أدري من ذهب أو فضة. ومن صلى بعدها أربع ركعات غفر له ذنوب عشرين، أو قال أربعين سنة[3].

وفيه: «من صلى ست ركعات بعد المغرب عدلن له عبادة سنة أو كأنه صلى ليلة القدر»[4].

وفيه: « من صلى بعد المغرب ستا و لم يتكلم بينهن بسوء عدلن له عبادة اثنتي عشرة سنة»[5].

وعن سعيد بن جبير عن ثوبان[6] **قال:** قال رسول الله ﷺ: «من عكف نفسه بين المغرب والعشاء في مسجد جماعة لم يتكلم إلا بصلاة أو قراءة كان حقا على الله أن يبني له قصرين في الجنة مسيرة كل قصر منهما مائة عام ويغرس له {غرسا}[7] بينهما لو طافه أهل الدنيا لوسعهم»[8].

---

[1]- عبيد مولى رسول الله: هو عبيد بن عبد الغامري ويقال عبد الله بن عبد الغافر مولى سول لله ﷺ راوي حديث: «إذا ذكر أصحابي فأمسكوا» انظر الإصابة (398/2»

[2]- أخرجه العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (252/3) برقم (1252) وقال رواه أبو الوليد يونس

([3]) انظر إحياء علوم الدين: (351/1) باب: بيان أوراد الليل.

[4]- قال في الجامع الصغير (175/2) .«من صلى ست ركعات بعد المغرب قبل أن يتكلم غفر له ذنوب خمسين سنة» وعزاه لابن نصر عن ابن عمرورمز له بالضعف (ض).

[5]- أورده في الجامع الصغير (174/2) وعزاه للترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة ورمز له بالضعف (ض).

(6) هو ثوبان بن يجدد، أبو عبد الله: مولى رسول الله ﷺ أصله من أهل السراة (بين مكة واليمن) اشتراه النبي ﷺ ثم أعتقه، فلم يزل يخدمه إلى أن مات، فخرج ثوبان إلى الشام فترل الرملة (في فلسطين) ثم انتقل إلى حمص فابتنى فيها دارا، وتوفي بها. له 128 حديثا. انظر الإصابة (212/1).

(7) في نصحة: {غراسا}.

[8]- ذكره الغزالي في الإحياء (383/1) أخرجه أبو الوليد الصفار في كتاب الصلاة من طريق عبد الملك بن حبيب بلاغا له من حديث عبد الله بن عمر".

وفي الحديث: «من ركع عشر ركعات ما بين المغرب والعشاء بني له قصر في الجنة»[1] **قال عمر:** إذن تكثر قصورنا يا رسول الله؟ فقال: «الله أكثر وأفضل»، أو قال: «أطيب»[2].

وعن أنس بن مالك قال رسول الله ﷺ: «من صلى المغرب في جماعة ينبغي أن يصلي بعدها ركعتين ولا يتكلم بشيء فيما بين ذلك من أمر الدنيا ويقرأ في الركعة الأولى بفاتحة الكتاب وعشر آيات من أول سورة البقرة وءايتين من وسطها، و﴿وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ الآيتين، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ خمس عشرة مرة ثم يركع ويسجد فإذا قام قرأ في الركعة الثانية فاتحة الكتاب وآية الكرسي وءايتين بعدها إلى: ﴿خَالِدُونَ﴾ وثلاث آيات من آخر البقرة من قوله: ﴿لِلَّهِ ما فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ إلى آخر السورة، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ خمس عشرة مرة»[3]. ووصف من ثوابه في الحديث ما يخرج عن حصر.

ومنها: صلاة الضحى. **ومن فضلها:** أن ركعتين منها تجزئ عن صدقة الأعضاء التي تصبح عليها كل يوم وهي ستون وثلاثمائة عدد مفاصل ابن آدم.

وفي الحديث: «يصبح على كل سلامى من الناس صدقة»[4]. والسُّلامى بالضم مقصورا: واحد السلاميات وهي مفاصل الأصابع. وكان المعنى: على كل عظم من عظام ابن آدم صدقة؛ أي في مقابلة ما أنعم الله تعالى به على الإنسان في خلق تلك السلاميات إلى أن قال: ويجزئ عن ذلك كله ركعتا الضحى. لأن الصلاة عمل بجميع الأعضاء، فإذا صلى العبد فقد قام كل عضو منه بوظيفته وأدى شكر نفسه.

---

[1] أخرجه أحمد (147/5 ، رقم 21346)

[2]- أسنده في الجامع الصغير (174/2) إلى ابن ماجه عن عائشة ورمز له بالضعف (ض).

[3]- ذكره الغزالي في الإحياء (*__191/2__*) وعلق العراقي في تخريجه بقوله: "أخرجه أبو الشيخ في الثواب من رواية زياد بن ميمون عنه مع اختلاف يسير وهو ضعيف"

[4]- أخرجه مسلم حديث رقم (1671) عن أبي ذر.

ولفظ مسلم في الحديث: «يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة فكل تسبيحة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة ويجزئ من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى»[1]. **وفي رواية:** وفي الإنسان 360 مفصلا فعليه أن يتصدق عن كل مفصل منها صدقة. قالوا فمن يطيق ذلك يا رسول الله؟ قال: «النخامة في المسجد يدفنها والشيء ينحيه عن الطريق، وإن لم يقدر فركعتا الضحى تجزئ عن ذلك». **وفي رواية:** «تعدل بين اثنين صدقة وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة يمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة». **وفي رواية:** «تسمع الأصم وتهدي الأعمى وتدل المستدل على حاجته وتسعى بشدة ساقيك مع اللهفان المستغيث وتحمل بشدة ذراعيك مع الضعيف فهذا كله صدقة منك على نفسك». **وزاد البيهقي:** «وتبسمك في وجه أخيك صدقة، وإماطتك الحجر والشوكة والعظم عن طريق الناس صدقة، وهديك الرجل في أرض الضلالة لك صدقة». **وفي رواية:** «حتى أنه ليؤجر في السلعة تكون في طرف ثوبه فيلمسها فيفقد مكانها أو كلمة نحوها فيخفق بذلك فؤاده فيرده الله عليه». **وفي رواية:** «ولو أن تهب صلة الحبل...إلى أن قال: ولو أن تونس الوحشان بنفسك ولو أن تهب الشسع». **وفي رواية:** «أن من الصدقة أن تسلم على الناس وأنت طليق الوجه». **وفي أخرى:** «ولو أن تكلم أخاك ووجهك إليه منبسط». **وفي أخرى:** «وإتيانك زوجتك صدقة وما أكلته من مالك ومشيك بدينك تقضيه ودعاؤك واستغفارك للمومنين والمومنات وما وقيت به عرضك صدقة ومدارات الناس وإطراق فحل وإعادة الصلاة مع رجل يصلي وحده صدقة. وكذلك المعونة في الحاجة والشفاعة والنخامة في المسجد يدفنها وإخراج القذى منه وإضاءة السراج فيه والجلوس مستقبلا، والتبشير بما يسره والتهنئة بما يسره والدلالة على

---

[1]- أخرجه مسلم برقم (720)عن أبي ذر.

الخير والحاجة, وأداء الأمانة الخفية, والدين الخفي والإعرة والعبادة, وتشييع جنازة وحملها وتعزية وزيارة وقرض طعام ودرهم وغيره». **انتهى**[1].

وقال بعض السلف: طلبنا البركة في الرزق فوجدناها في صلاة الضحى. والصحيح أنها من حيث الفضل ثمان ومن حيث الكثرة اثنتا عشرة. وأقلها ركعتان ووقتها من ارتفاع الشمس إلى الزوال. **وروي عن أبي ذر:** أن من صلاها أربعا لم يكتب من الغافلين. ومن صلاها ثمانا كتب من القانتين. وعن أبي هريرة قال: أوصاني خليلي رسول الله صلى الله عليه وسلم بصيام ثلاثة أيام من كل شهر وركعتي الضحى، وأن أوتر قبل أن أرقد. **رواه الشيخان**[2].

وعنه أيضا: قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من حافظ على سبحة الضحى غفرت ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر»[3].. **رواه ابن ماجه.**

وعنه أيضا: قال: قال رسول ﷺ : «لا يحافظ على صلاة الضحى إلا أواب»[4]. **رواه ابن خزيمة[5] في صحيحه.**

وعنه أيضا عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة بابا يقال له الضحى، فإذا كان يوم القيامة نادى منادٍ: أين الذين كانوا يدمنون على صلاة الضحى؛ هذا بابكم فادخلوه برحمة الله»[6].. **رواه الطبراني في الأوسط. انتهى من شرح شهية السماع[7].**

---

[1]- أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (220/3 ، رقم 3377) .

[2]- أخرجه مسلم برقم (1672) عن أبي هريرة و (1673) و (1674) كذلك. و(1675) عن أبي الدرداء. والبخاري برقم: (1971) و (1178) عن أبي هريرة كذلك.

[3]- أخرجه بن ماجه برقم: (1382) عن أبي هريرة.

[4]- أورده في الجامع الصغير (204/2) بزيادة: «وهي صلاة الأوابين» وعزاه للحاكم عن أبي هريرة وصححه.

([5]) هو محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي، أبو بكر: إمام نيسابور في عصره. كان فقيها مجتهدا، عالما بالحديث. مولده ووفاته بنيسابور. رحل إلى العراق والشام والجزيرة ومصر، ولقبه السبكي بإمام الائمة. تزيد مصنفاته على 140 منها كتاب (التوحيد وإثبات صفة الرب – ط) كبير وصغير، و (مختصر المختصر) المسمى (صحيح ابن خزيمة – ط). توفي 311هـ. انظر طبقات السبكي: (130/2).

[6] أخرجه الطبرانى فى الأوسط (195/5 ، رقم 5060)

([7]) انظر شرح شهية السماع: (97) مخطوط بالزاوية.

وقال الفشني على الأربعين: وعن أنس عنه ﷺ: «من صلى الضحى يقرأ في الركعة الأولى فاتحة الكتاب وآية الكرسي عشر مرات. وفي الثانية فاتحة الكتاب و﴿قل هو الله أحد﴾ عشر مرات استوجب رضوان الله الأكبر»[1].

وفي كتاب النورين في إصلاح الدارين: عنه ﷺ: «صلاة الضحى تجلب الرزق وتنفي الفقر». **ومنها** رواتب الفرائض المشهورة.

وقال القاضي عياض: المختص بالأسباب من النوافل عشرة: الصلاة عند الخروج إلى السفر. وعند القدوم منه. وعند حلول المترل وعند الخروج منه وصلاة الاستخارة: ركعتان. وصلاة الحاجة ركعتان، وصلاة التسبيح: أربع. وركعتان بين الأذان والإقامة. وركعتان لمن قدم للقتل، وركعتان عند الدعاء. وركعتان عند التوبة من الذنب والاستغفار منه. وأربع ركعات بعد الزوال(2). **ومنها:** التنفل في الأيام والليالي الفاضلة.

قال الغزالي: اعلم أن الليالي المخصوصة بمزيد الفضل التي يتأكد فيها استحباب الإحياء في السنة: خمس عشرة ليلة لا ينبغي أن يغفل المريد عنها، فإنها مواسم الخيرات، ومظان التجارات، ومتى غفل التاجر عن المواسم لم يربح، ومتى غفل المريد عن فضائل الأوقات لم ينجح. فستة من هذه الليالي في شهر رمضان، خمسة منها: هي أوتار العشر الأخيرة إذ فيها تطلب ليلة القدر، وليلة سبع عشرة من رمضان. وأما التسع الأُخَرُ: أول ليلة من المحرم، وليلة عاشوراء، وأول ليلة من رجب وليلة النصف منه، وليلة سبع وعشرين منه. وهي ليلة المعراج؛ ففيها صلاة مأثورة: **ففي الحديث:** «للعامل في هذه الليلة حسنات مائة سنة، فمن صلى فيها اثنتي عشرة ركعة يقرأ في كل ركعة بفاتحة الكتاب وسورة من القرآن يتشهد في كل ركعتين. ويسلم في آخرهن ثم يقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر مائة مرة ويستغفر الله مائة مرة، ويصلي على النبي ﷺ مائة مرة ، ويدعوا لنفسه ما شاء الله من أمر دنياه وآخرته ويصبح صائما. فإن

---

[1]– انظر الفشني على الأربعين حاشية الشبرخيتي على الأربعين (ص 174) المجلس 26.

(2) انظر: قواعد عياض.

الله تعالى يستجيب دعاءه كله، إلا أن يدعو في معصية[1]». وليلة عرفة، وليلتا العيد، وليلة النصف من شعبان، وفيها مائة ركعة في كل ركعة سورة الإخلاص عشرا، كانوا لا يتركونها، وكذا ليلة النصف من رمضان هذه الصلاة أيضا.

وأما الأيام الفاضلة: فهي تسعة عشر يستحب مواصلة الأوراد فيها: يوم عرفة، ويوم عاشوراء ويوم سبع وعشرين من رجب ويوم سبعة عشر من رمضان ويوم النصف من شعبان ويوم العيد، والعشر الأول من ذي الحجة وأيام التشريق. **وفي الحديث:** «إذا سلم يوم الجمعة سلمت الأيام، وإذا سلم رمضان سلمت السنة»[2]..

وقال بعض العلماء: من أخذ مهنأه في الأيام الخمسة في الدنيا لم ينل مهنأه في الآخرة أي العيدين والجمعة وعرفة وعاشوراء.

ومن الرغائب: كما في كتاب البركة: صلاة أول جمعة من رجب بين المغرب والعشاء اثنتي عشرة ركعة بست تسليمات يقرأ في كل ركعة الفاتحة والقدر ثلاثا والإخلاص إحدى عشرة مرة, وفي رواية اثنتا عشر مرة فإذا فرغ قال: اللهم صل على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله بعد ما يسلم سبعين مرة، ثم يسجد فيقول: سبوح قدوس رب الملائكة والروح سبعين مرة ثم يرفع رأسه فيقول: رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم فإنك أنت العلي الأعظم سبعين مرة. ثم يسجد ويقول مثل الأولى سبعين مرة ثم يسأل الله وهو ساجد حاجته، فإن الله لا يرد سائله.[3]

وذكر النووي في فتاويه كراهة فعلها. ولعله يعني بذلك كراهة فعلها في الجماعة والله أعلم. **انتهى.**

([1]) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (374/3 ، رقم 3812)

[2] انظر إحياء علوم الدين للغزالي: (361/1).

([3]) انظر كتاب البركه في فضل السعي والحركه (ص 460) قال الغزالي: هذه صلاة مستحبة ذكرها الآحاد لكن رأيت أهل القدس بأجمعهم يواظبون عليها ولا يسمحون بتركها. انتهى من كتاب البركه.

قال الغزالي: فهذه صلوات مستحبة نقلها الآحاد ولكني رأيت أهل القدس بأجمعهم يواظبون عليها ولا يسمحون بتركها(1).

وعن عمرو بن خالد الخزاعي[2] **قال:** كنت عند عطاء فجاء رجل فقال يا أبا محمد؛ إن طاووسا قال: من صلى العشاء ثم صلى بعدها ركعتين، يقرأ في الأولى أمّ القرآن و الــم السجدة، وفي الثانية: أم القرآن وتبارك الملك، كتب له مثل وقوف ليلة القدر. فقال عطاء: صدق طاووس، وعن أنس: أن من قرأ الــم السجدة و تبارك في ليلة كان كمن وافق ليلة القدر وكان طاووس لا يدعهما في حضر ولا سفر. **وروي:** أن من قرأهما في ركعتين ثم قال: يا دائم يا حي يا قيوم يا وتر يا قديم يا أحد يا صمد صل على محمد وآله وصحبه وسلم تسليما. ثم سأل الله حاجته استجيب له. **وروى الترمذي عن جابر:** أن النبي ﷺ كان لا ينام حتى يقرأهما.

فضل الصــدقــة

(وَالصَّدَقَة) من حلال لتنفعه. **قال الثوري:** من أنفق الحرام في طاعة الله كان كمن غسل الثوب بالبول. فقد جاء في فضلها آثار كثيرة، **ففي الحديث:** «إن الله ليدخل بلقمة الخبز وقبضة التمر ومثلهما مما ينفع المساكين؛ ثلاثة الجنة: صاحب البيت والآمر به والزوجة المصلحة والخادم»[3]. **وفيه:** «استعينوا على الرزق بالصدقة»[4]. **وفيه:** «إن الله ليصرف العذاب عن الأمة بصدقة رجل منهم»[5]. **وفيه:** «إن الله ليضحك إلى الرجل إذا

---

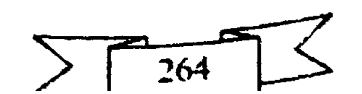
(1) انظر الإحياء: (203/1).

2- هو عمرو بن خالد بن فروخ بن سعيد التميمي ويقال الخزاعي نزيل مصر ثقة. (تـ 229) تقريب التهذيب (ص 358).

3- أورده في الجامع الصغير (76/1) وأسنده للحاكم عن أبي هريرة.

4- أخرجه في الجامع الصغير (40/1) وعزاه للديلمي في مسند الفردوس عن عبد الله بن عمرو المزني.

5 أخرجه الديلمي (160/1 ، رقم 589) .



مد يده بالصدقة وإذا ضحك الله لعبد غفر له»[1]. **وفيه:** «أعظم الصدقة أن تتصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر، وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم؛ قلت: لفلان كذا ولفلان كذا»[2].

وجاء: أن سائلا أتى امرأة وفي فمها لقمة فأخرجت اللقمة فناولتها السائل فاحتمل الذئب يوما ابنها فعدت في إثره وهي تقول: ابنـــي إبنـــي، فأمر الله ملكا أن ألحِق الذئب فخذ الصبي من فيه، وقل لأمه: الله يقرئك السلام ويقول لك: لقمة بلقمة.

وفي الحديث: «لا توكي فيوكي الله عليك[3]». أي لا تمسكي المال في الوعاء وتوكى عليه فيمسك الله فضله وثوابه عنك، كما أمسكت ما أعطاك الله تعالى.

وفي هذا الحديث دليل على النهي عن منع الصدقة خشية النفاد، فإن ذلك أعظم الأسباب لقطع مادة البركة؛ لأن الله تعالى يثيب على العطاء بغير حساب، ومن لا يحاسب عند الجزاء لا يحاسب عليه عند العطاء، ومن علم أن الله يرزقه بغير حساب فحقه أن يعطى ولا يحتسب **قاله ابن رسلان.**

وفيه: «يا زبير إن مفاتيح الرزق بإزاء العرش يترل الله للعباد أرزاقهم منه على قدر نفقاهم فمن كثر كثر الله عليه ومن قلل قلل الله عليه»[4].

وفيه: «أفضل الصدقة جهد المُقلّ وابدأ بمن تعول»[5]. **قال في النهاية:** أي قدر ما يحتمله حال قليل المال[6].

---

[1] أخرجه الديلمى (160/1 ، رقم 590) .

[2]- أخرجه البخاري برقم: (1419)عن أبي هريرة، ومسلم برقم: (2382) عن أبي هريرة كذلك.

([3]) أخرجه البخارى (915/2 ، رقم 2451) ، ومسلم (713/2 ، رقم 1029) بلفظ: "ولا توعي فيوعي الله عليك".

[4] أخرجه أيضًا : الديلمى (402/5 ، رقم 8554) .

[5]- أخرجه في الجامع الصغير (50/1)لأبي داوود والحاكم في مستدركه.

([6]) انظر النهاية في غريب الأثر: (848/1).

قال ابن رسلان: أي أقصى ما يقدر عليه المقل، يعني من المال، ولا شك أن الصدقة بالشيء مع شدة الحاجة إليه والشهوة له أفضل من صدقة الغني وذلك بشرط أن لا يضر ذلك بدينه من ضعفه عن القيام في الصلاة وكشف عورته وغير ذلك.

قوله: "وابدأ بمن تعول"، ثم بعد ذلك يدفع الصدقة لغيرهم، لان القيام بكفاية العيال واجب عليه، والصدقة على الغير مندوبة، ولا يدخل في ذلك ترفُّه العيال وإطعامهم لذائذَ الأطعمة مما زاد على كفاياتهم من الترفُّه، لأن من لم تندفع حاجته أولى بالصدقة ممن اندفعت حاجته في مقصود الشرع، **وبهذا يجمع بين هذا الحديث وبين حديث:** «أفضل الصدقة ما كان عن ظهر غنى»[1].

قال السيوطي: أي ما وقع من غير محتاج إلى ما تصدق به لنفسه. أو لمن تلزمه نفقته، والمعنى: أفضل الصدقة ما أخرجه الإنسان من ماله بعد أن يستبقي منه قدر الكفاية، ولذلك قال بعد ذلك: «ابدأ بمن تعول».

البغوي: المراد: غنى يستظهر به عن النوائب التي تنوبه. **وقيل** المراد: أفضل الصدقة ما أغنيت به من أعطيته عن المسألة. وقيل: "عن" للسببية، و "ظهر" زائد، أي خير الصدقة ما كان سببها غنى في المتصدق. **قاله العلقمي. بخ.**

وفي الحديث أيضا: «المرء في ظل صدقته حتى يفصل بين الناس»[2]. **وفيه:** «ما أحسن عبد الصدقة إلا أحسن الله الخلافة على بنيه، وكان في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله، وحفظ من يوم صدقته من كل عاهة وآفة»[3].

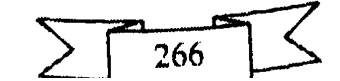
قال ابن أبي جمرة: ولا يلهم الصدقة إلا من سبقت له سابقة خير. **وكان أبو الخير** لا يخطئه يوم لا يتصدق بشيء فيه، ولو كعكة أو بصلة.

---

[1]- أخرجه في الجامع الصغير بزيادة «واليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول» وأسنده إلى مسلم والنسائي وأحمد في مسنده.

[2]- أخرجه في الجامع الصغير بلفظ: «إن الصدقة لتطفئ عن أهلها حر القبور وإنما يستظل المؤمن يوم القيامة في ظل صدقته» وعزاه للطبراني (طب)في الكبير.

[3]- أخرجه في الجامع الصغير وعزاه لابن المبارك عن ابن شهاب مرسلا وأشار له بالضعف (ض)



وفي الحديث: «من لبس ثوبا جديدا فقال حين يبلغ ترقوته: الحمد لله الذي كساني ما أواري به عورتي، وأتجمل به في حياتي، ثم عمد إلى الثوب الذي أخلق فتصدق به كان في كنف الله وفي حفظ الله، وفي ستر الله، حيا وميتا.»[1] ما بقي من الثوب سلك، **قال الراوي:** ولا أدري من أي الثوبين.

وفي الزناتي[2]: «كان ﷺ إذا استجَدَّ ثوبا سماه باسمه: إما قميصا وإما عمامة ثم يقول: اللهم لك الحمد أنت كسوتنيه، أسالك خيره وخير ما صنع له، وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له»[3].

وقال الفشني في شرح الأربعين: إن الصدقة بغير الفاضل عن الكفاية مكروهة، أو محرمة، وإنما أمر بالصدقة لأنها عبادة تقر به إلى الله تعالى ثم يحصل له فائدة الغير وتنجذب إليه بركة دعوات المسلمين؛فيتضاعف له الأجر، ولكن ينبغي أن يطلب لصدقته من تزكوا به الصدقة كالتقي المعرض عن الدنيا المتجرد لتجارة الآخرة[4].

وفي الحديث: «لا تأكل إلا طعام تقي، ولا يأكل طعامك إلا تقي، وهذا لأن التقى يستعين به على التقوى فتكون شريكا لله في طاعته، بإعانتك إياه[5]». **وفي الحديث:** «أضف بطعامك من تحب في الله»[6].

وكان بعض العلماء يوثر بالعطاء المنقطعين في الله تعالى، فقيل له: لو عممت كان أفضل؟ فقال: لا هؤلاء قوم هِممُهم لله تعلى، فإذا طرقتهم فاقة شتِّت هم احدهم، فلَأن أرد همة واحد منهم إلى الله تعالى أحب إليَّ من إعطاء ألف ممن همتهم الدنيا». **فذكر هذا الكلام للجنيد فاستحسنه وقال:** هذا وليٌّ من أولياء الله. ثم حكى أن رجلا اختل

---

[11]- أخرجه الترمذي رقم: (3560) قال أبو عيسى: هذا حديث غريب وهو عن أبي أمامة.

[2]- تقدمت ترجمته.

[3] أخرجه أبو داوود رقم: (4020) والترمذي رقم: (1767) والنسائي رقم: (310) كلهم عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

[4]- انظر الفشني على الأربعين حاشية على الشبرخيتي على الأربعين (ص 160) المجلس 25.

[5] أخرجه ابن المبارك (124/1 ، رقم 364) ، وأحمد (38/3 ، رقم 11355).

[6] أخرجه ابن المبارك (124/1، رقم 366) ، وابن أبي الدنيا في الإخوان (ص 232، رقم 197) .

حاله وهم بترك الحانوت فبعث إليه الجنيد مالا وقال: اجعله بضاعتك ولا تترك الحانوت، فإن التجارة لا تضر بمثلك، وكان هذا الرجل بقالا لا يأخذ من الفقراء لمن ما يبتاعون منه.

ومن تزكو به الصدقة: من كان من أهل العلم خاصة، فإن ذلك إعانة له على العلم، والعلم أشرف العبادات مهما صحت فيه النية.

وكان عبد الله بن المبارك يخصص بمعروفه أهل العلم فقيل له: لو عممت؟ فقال: إني لا أعرف بعد مقام النبوءة مقاما أفضل من مقام العلماء فإذا شُغل قلب أحدهم بحاجته لم يتفرغ للعلم، ولم يقبل على التعليم، فتفريغهم للعلم أفضل.

ومن تزكو به الصدقة أيضا: المستتر المخفي حاجته، أو من يكون من أهل المروءة ممن ذهبت نعمته، وبقيت عادته، فهو يتعيش في جلباب التجمل. قال تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ الآية. وكذلك المُعيل والمحبوس بمرض أو سبب من الأسباب. وكذلك الغرباء **كما يأتي إن شاء الله تعالى.** فليراع هذه الصفات، ففي كل صفة درجات ينبغي أن يطلب أعلاها، فإن وجد من جمع جملة منها فهي الغنيمة العظمى، فإن اجتهد وأصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر، وأحد أجريه في الحال تطهير نفسه من صفة البخل وتأكّد حب الله في قلبه، واجتهاده في طاعته. والأجر الثاني: ما يعود إليه من فائدة دعوة الآخذ وهمته، فإن قلوب الأبرار لها آثار في الحال والمآل، فإن أصاب حصل الأجران، وإن أخطأ حصل الأول دون الثاني، وفي ذلك أجر آخر، وهو أجر خدمة الفقراء، وقد ورد فيها فضل عظيم، **قاله الغزالي. بخ**[1].

وفي الحديث: «أفضل الصدقة صدقة على ذي الرحم الكاشح[2]». **وفيه:** «من تصدق بصدقة من كسب طيب –ولا يقبل الله إلا طيبا– كان كأنما يضعها في كف

---

(1) انظر الإحياء: (221/1).

2– أخرجه الحارث كما في بغية الباحث (396/1 ، رقم 301) وعزاه الحافظ في الإصابة (182/1) لابن شاهين في الصحابة.

الرحمن يربيها له كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله، حتى إن اللقمة لتعود مثل جبل أحد.»[1].

وكفى بفضل الصدقة أنها تمنع ميتة السوء، وأنها تطفئ غضب الرب، وأنها تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار وأن صاحبها في ظلها حتى يقضي الله بين الناس، وإنا أمرنا أن نداوي بها مرضانا». **كما جاء هذا كله في الحديث.**

وفي الحديث: «إن الله يدرأ بالصدقة سبعين ميتة من ميتات السوء، وميتات السوء أن يموت مصرا على معصية، أو قانطا من رحمة الله أو ظالما أو قاطعا لرحمه، أو يفجأ بالموت أو يختم له بالسوء، أو شبه ذلك»[2].

وفيه: «ما من رجل يتصدق في ليل أو نهار إلا حفظ من أن يموت بغتة أو هدمة أو لدغة.»[3] **وفيه:** «حصنوا أموالكم بالزكاة، وداووا مرضاكم بالصدقة، واستقبلوا أنواع البلايا بالدعاء.»[4]

وفي الصدقة خمس خصال في الدنيا وخمس في الآخرة:

فالتـــي في الدنيا: تطهير المال **لحديث:** «يا معشر التجار إن هذا البيع يحضره اللغو والكذب فشوبوه بالصدقة»[5] والتطهير من الذنب ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ الآية. ورفع البلاء والأمراض **لحديث:** «داووا أمراضكم بالصدقة، وإدخال السرور على المؤمن وبركة المال وسعة الرزق».

والتـــي في الآخرة: خفة الحساب، وثقل الميزان، وتخفيف الجواز على الصراط، ورفع الدرجات، ورضى الله تعالى. **وفيها:** استغنام دعوة المساكين وغم الشيطان. **وقيل:** إن ملكين يناديان أبدا عند طلوع الشمس: اللهم اجعل للمنفق خلفا، وللممسك تلفا.

---

[1]- أخرجه البخاري رقم: (1410) ورقم: (7430) عن أبي هريرة باختلاف بسيط.

[2]- أخرجه القضاعي (158/2) برقم: (1094) وكنز العمال برقم: (16979)

[3]- أخرجه الطبراني رقم (10096) والبيهقي رقم: (6385) كلاهما عن ابن مسعود ﷺ.

[4]- أخرجه البيهقي في شعب الايمان (282/3)

[5]- أخرجه الحاكم برقم (2138) عن قيس بن أبي عرزة وأبو داوود برقم (3326).

وخاف رجل على ولده الهلاك، فجاء إلى أبي هريرة فقال: ادع الله لابني فقال: تصدق بصدقة تنوي بها نجاة ولدك، وسلامة ما معه فذلك أنفع لك من دعائي وأنجح.

وقال رجل لابن وضاح: إني حضرت الآن فأصابت العجلة ولدك ومشت عليه، فلم يكترث ابن وضاح بذلك فما لبث أن قيل له: أبشرْ يابنَ وضاح سلِم الصبي إنما أصابت العجلة ثوبه فسقط وجازت ولم تضره، فقال: الحمد لله قد أيقنت بذلك لأني رأيت الصبي اليوم ناول مسكينا كسرة فعلمت أنه لا يصيبه بلاء هذا النهار **للحديث:** «إن الله يدفع عن العبد الميتة السوء بالصدقة يتصدق بها[1]». **وقيل:** «ما من أحد يتصدق بصدقة حتى يترعها من ضرس ستين شيطانا».

وعن علي الوراق: لم يسرف من أراد الله بنفقته، ولم يسلم من الإسراف من راءى وإن قصر.

وقال محمد بن يوسف: أنفق على أخيك الصالح فإنه خير لك من ورثتك فإنه يدعو لك وأنت في الثرى، حتى ربما تخرُج من قبرك وليس عليك ذنب بدعائه. وأما ورثتك فيقتسمون مالك وينسونك، ولا يرون لك فضلا عليهم ويقولون إن الله تعالى جعل لنا ذلك.

وروى أبو نعيم[2] عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «تصدقوا فإن الصدقة فكاككم من النار»[3]. وذكر في الحديث أشياء يجري أجرها للعبد بعد موته، **فذكر:** «من علّم علما، أو أجرى نهرا أو حفر بئرا، أو غرس نخلا، أو بنى مسجدا، أو ورث مصحفا، أو ولدا صالحا تركه أو بيتا لابن السبيل بناه وصدقة أخرجها من ماله في صحته تلحقه

([1]) لم أجد تخريجه.

[2]- هو أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني أبو نعيم جافظ مؤرخ من الثقاة في الحفظ والرواية، من تصانيفه: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء "ط" عشرة أجزاء. وطبقات المحدثين، ودلائل النبوءة. وعدة مؤلفات أخرى (تـ 430هـ). انظر وفيات الأعيان (26/1)طبقات الشافيعية (7/3).

[3]- أخرجه الطبراني في الأوسط برقم: (8060) عن أنس. والبيهقي في شعب الإيمان برقم: (3355).

بعد موته»[1].

قال ابن القاسم الجذامي[2]: معنى: ورَّث مصحفا أي كتبه أو استأجر عليه، أو اشتراه ثم خلفه من بعده قاصدا أن يقرأ فيه، فله أجر من قرأ فيه، سواء حبسه أم لا، ويدخل في ذلك من ورَّث سنة النبي ﷺ، ومن أجرى نهرا أو أنبط عينا، فله أجر من شرب منه، أو توضأ منه أو اغتسل وغير ذلك من منافع الماء، ومن غرس غرسا لا يصيب الطير ولا السباع ولا الذئاب ولا ابن السبيل من ثماره شيئا إلا كتب له به صدقة، ومن أخرج صدقة أي جعلها يتصدق من غلتها أو ثمرها. **ونظمها السيوطي فقال:**

إِذَا مَاتَ ابنُ ءَادَمَ لَيسَ يَجْرِي ... عَلَيْهِ مِنْ فِعَالٍ غَيْر عَشْرِ
عُلُوم بَثَّهَا وَدُعَاء نَجْلٍ ... وَغَرْس النَّخْلِ وَالصَّدَقَات تَجْرِي
ورَاثَة مصْحَفٍ ورِبَاط ثَغْر ... وحَفْر البِئرِ أَوْ إِجْرَاء نَهْرِ
وَبَيْتٌ لِلْغَرِيب بَنَاهُ يَاوِي ... إِلَيْهِ أَوْ بِنَاء مَحَل ذِكْرِ
وَتَعْلِيم لِقُرْءَانٍ كَرِيمٍ ... فَخُذْهَا مِنْ أَحَادِيثٍ بِحَصْرِ

وذكر أبو نعيم عن الأوزاعي[3] قال: سألت محمد[4] بن علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم عن قوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ **قال:** نعم حدثنيه أبي عن جدّي عن علي ﷺ قال: سألت عنها رسول الله ﷺ فقال: إني أبشرك بها يا علي فبشر بها أمتي من بعدي: الصدقة عن وجهها واصطناع المعروف وبر الوالدين وصلة الرحم, تحول الشقاوة سعادة وتزيد في العمر, وتقي مصارع السوء.

وروى أبو نعيم عن بشر بن الحارث الحافي[5] أنه كان يقول: الصدقة أفضل من

---

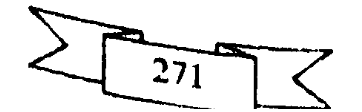
[1]- أخرجه البيهقي في شعب الإيمان برقم: (3449) بلفظ: «سبع يجري للعبد أجرهن بعد موته: من علم علما أو أجرى نهرا....إلخ» وأخرجه أبو نعيم في الحلية (344/2)

([2]) أبو القاسم الجذامي

[3]- تقدمت ترجمته.

[4]- هو عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي المدني صدوق فاضل توفي بعد المائة. انظر تقريب التهذيب (354).

[5]- تقدمت ترجمته.



الحج والعمرة والجهاد, ثم قال: ذلك يركب ويرجع ويراه الناس, وهذا يعطي سرا لا يراه إلا الله عز و جل.

وقال أبو الحسن بن سلمون[1]: من كثرت ذنوبه فعليه بكسب الضياع, يعني أن صاحب الضيعة لا يخلو من أجور تدخل عليه باختياره وعلمه، وقد تدخل عليه بعلمه بغير اختياره, وقد تدخل لا بعلمه ولا باختياره, وأيضا فإنها باقية للزمان الطويل.

وقال إسماعيل بن رافع[2]: ما من ذي رحم أوصل لذي رحمه من رجل اتبع ذا رحم بحج أو عمرة أو صدقة.

وفي مسند علي بن مجاهد[3] **من حديث عمرو بن شعيب عن جده عن النبي ﷺ أنه قال**: «ما على أحد إذا أراد أن يتصدق أن يجعلها لوالديه إذا كانا مسلمين، فيكون لوالديه أجرها ويكون له مثل أجورهما من غير أن ينقص من أجورهما شيء[4]». **صح من العلوم الفاخرة بخ**[5].

ويقال: عشر خصال تبلغ بالعبد منزلة الأخيار ودرجة رفيعة: كثرة الصدقة, وكثرة تلاوة القرءان, والجلوس مع الزهداء, وتجنب مجالسة الأغنياء, وكثرة التفكر في ما هو صائر إليه غدا, وقصر الأمل, وذكر الموت, والصمت والتواضع، ولبس الكفاف, وحب الفقراء ومجالستهم, وتقريب اليتامى والمساكين ومسح رؤوسهم.

وفي الحديث: «لو جرت الصدقة على يد سبعين ألفا كان أجر آخرهم مثل أجر

---

[1]- هو عبد الله بن علي بن عبد الله بن علي بن سلمون الكناني أبو محمد فاضل أندلسي، ولد بغرناطة وقرأ بها وبمالقة وسبتة وتصوف بفأس. توفي وفي وقعة طريف 741هـ. من كتبه: الشافي في تحرير ما وقع من الخلاف بين التبصرة والكافي في فروع المالكية. جدوة الاقتباس: ص: 4. وشجرة النور الزكية ـ(214).

[2]- هو إسماعيل بن رافع بن عمير الأنصاري المدني نزيل البصرة يكنى أبا رافع، ضعيف الحفظ. توفي في حدود: 150هـ. تقريب التهذيب.

[3]- علي بن مجاهد بن مسلم القاضي متروك، قال في تقريب التهذيب: وليس في شيوخ أحمد أضعف منه. توفي بعد 180هـ. انظر تقريب التهذيب (243).

[4]- أخرجه الطبراني في الأوسط برقم: (7726) والديلمي برقم: (6342).

([5]) العلوم الفاخرة في النظر في أمور الآخرة لعبد الرحمن بن محمد الثعالبي الجزائري. المتوفى سنة 876.لم نعثر عليه بعد.

أو لهم»[1].

وفي الحديث: «الصدقة تطفئ الخطيئة لتعدي نفعها. ولأن الخلق عيال الله، وهي إحسان عليهم، والعادة أن الإحسان على عيال شخص يطفئ غضبه»[2].

وقال في شرح الأربعين: وتكره الصدقة بالردي؛ كدرهم مغشوش وحب مسوس، أو عتيق، أو ما فيه شبهة.

وفي الحديث: «إن صدقة السر تطفئ غضب الرب»[3]. **وفيه:** «يا معشر النساء تصدقن فإن أكثركن حطب جهنم، إنكن تكثرن الشكاية وتكفرن العشير»[4]. **وفيه:** «يصيح صائح يوم القيامة: أين الذين أكرموا الفقراء والمساكين في الدنيا؟ ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون»[5].

وقال عبد العزيز بن عمير[6]: الصلاة توصلك إلى نصف الطريق, والصوم يوصلك إلى باب الملك, والصدقة تدخلك على الملك. وقال أبو هريرة: يتزوج أحدكم فلانة بالمال الكثير, ولا يتزوج أحدكم الحور العين بلقمة ولا تمرة؟ هذا من العجب[7].

وقال معاذ النسفي[8]: من لم ير نفسه أحوج إلى ثواب صدقته هو فهو ممن أبطل صدقته بالمن, لأنه يرى نفسه على الفقير, وعند ذلك يضرب بها وجهه.

وقال حاتم الأصم[1]: من أعطى درهما من مائة درهم ولم يكن عنده ذلك الدرهم أعظم وأحب إليه من التسعة والتسعين المدخرة ردت صدقته إليه وضرب بها وجهه.

---

[1]- أخرجه الديلمي برقم: (5090) عن جابر.

[2]- أخرجه ابن ماجه برقم: (1408) عن أنس، وأبو يعلى برقم: (3356).

[3]- أخرجه الطبراني في الكبير برقم (1018) وأخرجه في الأوسط برقم (3450) عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده.

[4]- أخرجه مسلم برقم (80) عن ابن مسعود. وابن حبان برقم (5744).

[5]- أخرجه ابن عساكر (148/5) عن ابن عمر. والرافعي (492/2).

[6]- هو عبد العزيز بن عمير أصله من خراسان لكنه سكن دمشق أحمد بن محمد بن أبي موسى الأنطاكي قال سمعت أحمد بنأبي الحواري يقول سمعت عبد العزيز بن عمير يقول ترى نور الجلال عليهم وأثر الخدمة بين أعينهم ثم قال عبد العزيز إن الرجل لينقطع إلى بعض ملوك أهل الدنيا فيرى أثره عليه فكيف بمن ينقطع إلى الله عزوجل كيف لايرى أثره عليه. انظر صفوة الصفوة: (234/4).

[7]- تقدم تخريجه.

[8]- لم أجده.

وقالت عائشة رضي الله عنها: لا تحقروا من الصدقة شيئا فإن الحبة منها توزن يوم القيامة بجبال الأجر.

وكان الثوري ينشرح إذا رأى سائلا على بابه ويقول: مرحبا بمن جاء يغسل ذنوبي. وكان إبراهيم بن أدهم إذا جاءه سائل يدخل على عياله ويقول: جاءكم رسول المقابر, فهل توجهون إلى موتاكم شيئا من الصدقة. وذلك قبل أن يزهد في الدنيا.

وكان الحسن البصري يقول: إذا رأى سائلا: اللهم إن هذا سألنا ونحن سألناك وأنت بالمغفرة أجود منا بالعطية ثم يطعمه.

وقال عيسى ﷺ: من رد سائلا خائبا لم تغش الملائكة بيته سبعة أيام عقوبة له.

قال الشعراني: محل ذلك ما إذا رده مع القدرة بخلا بها لا لحكمة أما العاجز فلا.

ومن سأله سائل فخرج له بصدقة فلم يجده؟ **فقال سحنون:** أحب له أن يتصدق بها على غيره، وإن أعادها في ماله فلا بأس به.

وجاءت امرأة جميلة سائلة إلى حسان بن سنان فأعطاها أربعمائة درهم. فقيل له سائلة تسألك درهما فأعطيتها أربعمائة درهم؟ فقال: إنها جميلة فخشيت أن تفتتن فتقع في المعصية فأحببت أن أغنيها، فعسى أن يرغب فيها رجل فيتزوجها.

وجاء سائل يوما إلى مالك ين دينار[2] فأعطاه نصف خلة بتمر فقالت له زوجته: أنت زاهد، هل رأيت أحدا يبعث إلى الملك هدية مكسورة؟ فأعطى مالك السائل البقية، فقال لها قال تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ أيتها المرأة إنا قد طرحنا من أعناقنا نصفها بالإيمان فينبغي لنا أن نطرح النصف الآخر بالصدقة.

---

[1]- حاتم الأصم: هو حاتم بن علوان الأصم رضي الله تعالى عنه أبو عبد الرحمن من قدماء المشائخ بخراسان، صحب شقيقا البلخي. توفي 237هـ. وكان غاية في الزهد وله كلام فيه في غاية البعد. انظر طبقات الشعراني: (80/1).

[2]- تقدمت ترجمته.

وتصدق أعرابي بسخلة مهزولة من غنمه، وكان قليل الصدقة، فرأى في المنام كأن غنمه كلها أقبلت إليه فجعلت السخلة تحامي عنه، فلما انتبه قال: والله لإن استطعت لأجعلن أتباعك كثيرة فكان بعد ذلك يجزل الصدقة منها ويقسم للمساكين. ويقال سبع خصال تزين الصدقة وتعظمها: إخراجها من حلال، ومن مال قليل، وتعجيلها، وإعطاؤها من أحسن المال لا من رديه، وإسرارها، ولا يبطلها بالمن والأذى[1].

وفي الحديث: «يا عائشة؛ إذا طبختم قدرا فأكثروا من مرقها وتعاهدوا الجيران»[2].

وقال مجاهد: لا يتصدق أحدكم إلا بما يشتهيه، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾ أي وهم يشتهونه.

وفي الحديث: «إن عابدا عبد الله سبعين سنة ثم أصاب فاحشة فأحبط عمله بها، ثم أنه نزل يغتسل فمر به مسكين فتصدق عليه برغيف فغفر الله له ذنبه ورد عليه عمله سبعين سنة[3]». **وفيه**: «باكروا بالصدقة فإن البلاء لا يجاوزها[4]». **وورد**: «أن المباكرة بالصدقة تنمي الرزق وتدفع العاهات»[5].

وكانت الصحابة لا يخرجون لصلاة الصبح إلا بشيء يتصدقون به على أول مسكين يلقونه، ولو لقمة او زبيبة أو بصلة، وكره بعضهم أن يقال للسائل -إذا لم يحضره ما يعطى له- يفتح الله عليك لأنه قصد دفعه بذلك لا الدعاء.

ابن عرفة: كرهوا ذلك تنزيها لاسم الله تعالى أن يذكر لمن يكره سماعه. قيل: هو الدعاء الذي لا يسمع الذي استعاذ منه النبي ﷺ. **وقيل لابن عرفة**: إن معنى قوله تعالى: ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾: أن يقال لهم رزقنا الله وإياكم من فضله. قال: الكراهة لا تنافي الإباحة.

---

(1) انظر تنبيه المغترين: (136).

2- أخرجه ابن حبان برقم: (513) عن أبي ذر بلفظ: «إذا طبخت قدرا فأكثر من مرقتها فإنه أوسع للأهل والجيران».

(3) لم أجد تخريجه.

(4) أخرجه الطبراني في الأوسط (9/6 ، رقم 5643)

5- أخرجه الطبراني في الأوسط برقم (5643). والبيهقي في الشعب برقم (3353) عن أنس.

(والصَّوْم) ففي حديث مسلم: «والصيام جنة»[1]. أي وقاية من النار. **وفي حديث الصحيحين:** «كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به»[2]. أي إذا حوسب العبد في الآخرة وأدِّيَ ما عليه من الظلم من عمله ولم يبق إلا الصوم؛ احتمل الله ما عليه من المظالم وأدخله بالصوم الجنة. أو معنى قوله: فإنه لي: لا يطلع عليه غيري. وقيل: تشبُّه بوصفي. **وفي الحديث:** «لكل شيء باب وباب العبادة الصوم، ونوم الناس كلهم عطلة إلا نوم الصائم, فإنه عبادة. **وفيه:** كل حسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصيام فإن الله تعالى يقول: هو لي وأنا أجزي به، وأعطى عليه من الأجر مالا عين رأت ولا أذُنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر»[3].

وقد قيل: الصوم: عموم وخصوص وخصوص الخصوص؛ **فالعموم:** كف الفم والفرج، **وصوم الخصوص:** كف سائر الجوارح عن الآثام، **وخصوص الخصوص:** صون القلب عن الهمم الدنية، وكفه عما سوى الله بالكلية.

وروي: أن تسبيحة واحدة في رمضان أفضل من ألف تسبيحة في غيره، **وأدنى** درجات الصوم: الاقتصار على الكف عن المفطرات، **وأوسطها:** أن يضم إليها كف الجوارح عن الجرائم، **وأعلاها:** أن يضم إليها كف القلب عن الوسواس.

وسمع الحسن البصري(4) يوما رجلا حلف لصاحبه في أمر تنازعا فيه، فقال: وحقِّ الصائمين ما كان كذا، فقال الحسن لنفسه: ويحك؛ إنك حيث يقسم على الله بحقك وأنت تفطرين؟ لا كان ذلك أبدا. **(وَلاَسِيَمَا فِي اللَّيْلِ)** قوله: "لاسيما في الليل" راجع لقوله: "بالنوافل" على طريق اللَّفِّ والنشر المرتَّب. فينبغي للعاقل أن لا يجعل ليله كله

---

[1]ـ أخرجه مسلم برقم: (1151) عن أبي هريرة والنسائي (2228) عن أبي هريرة.

[2]ـ أخرجه مسلم برقم: (1151) وأخرجه البخاري برقم: (5927) كلاهما عن أبي هريرة.

[3]ـ أخرجه في الزهد برقم (1423) والقضاعي برقم (1032) عن ضمرة بن حبيب مرسلا.

(4) تقدمت ترجمته.

نوما فيكون ضائع العمر؛ جيفة بالليل بطَّال بالنهار. فإن أردت أيها الأخ أن تكون من الأبرار، فعليك بالقيام في الأسحار. قالت أم سليمان لسليمان عليه السلام: يا بُنَيَّ: لا تكثر النوم بالليل، فإن كثرة النوم بالليل تدع الرجل فقيرا يوم القيامة.

وفي الترمذي عن معاذ بن جبل قال: قلت يا رسول الله: أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار. قال: «لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه؛ تعبد الله ولا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة المكتوبة، وتوتي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان وتحج البيت. ثم قال: ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذُروة سنامه: الجهاد. ثم قال: ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ قلت بلي يا رسول الله، فأخذ بلسانه فقال: كف عليك هذا. قلت يا رسول الله: وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال ثَكِلَتْك أمك يا معاذ وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم[1]».

وقال ابن رجب[2]: قيام الليل من الأسباب المنجية من عذاب النار. **وأنشد ابن الجوزي[3]**:

تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ مِن لذيذ المضاجع
كلهم بين خائف مُسْتَجِير وَطَامِع
تَرَكُوا لَذَّةَ الْكَرَى لِلْعُيُونِ الْهَوَامِع
رَعَوا النَّجْمَ فِي الدُّجَى طَالِعًا بَعْدَ طَالِع

([1]) أخرجه أحمد في مسنده والترمذي والحاكم في المستدرك وابن ماجه برقم (3973) عن معاذ. وزاد بعد «وتحج البيت» ثم قال: «ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ النارَ الماء وصلاة الرجل في جوف الليل، ثم قرأ ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ حتى بلغ ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ثم قال: ألا أخبرك برأس الأمر...إلخ الحديث» انظر سنن ابن ماجه (ص 571).

([2]) هو عبد الرحمن بن أحمد بن رجب السلامي البغدادي ثم الدمشقي، أبو الفرج، زين الدين: حافظ للحديث، من العلماء. ولد في بغداد ونشأ وتوفي في دمشق. من كتبه (شرح جامع الترمذي) و (جامع العلوم والحكم – ط) في الحديث، وهو المعروف بشرح الاربعين،و(فضائل الشام – خ)و(الاستخراج لاحكام الخراج – ط) و(القواعد الفقهية – ط) و (لطائف المعارف – ط) و (فتح الباري، شرح صحيح البخاري – خ) لم يتمه، و (كشف الكربة في وصف حال أهل الغربة – ط) رسالة في شرح حديث (بدأ الإسلام غريبا) و (التوحيد – خ) و (رسالة في معنى العلم – خ). انظر الشذرات: (339/6).

([3]) تقدمت ترجمته.

وَاسْتَهَلَّتْ دُمُوعُهُمْ ۞ انْسِكَابَ الْمَدَامِعِ
فَأُجِيبُوا إِجَابَةً ۞ لَمْ تَقَعْ فِي الْمَسَامِعِ
لَيْسَ مَا تَصْنَعُونَهُ ۞ يَا عِبَادِي بِضَائِعِ
فَابْذُلُوا لِي نُفُوسَكُمْ ۞ إِنَّهَا فِي وَدَائِعِ

وفي الحديث: «ركعتان يركعهما الرجل في جوف الليل الأخير خير من الدنيا وما فيها، ولولا أن أشق على أمتي لفرضتهما عليهم»[1].

وفيه: «عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم، وإن قيام الليل قربة إلى الله تعالى، وتكفير للذنوب، ومطردة للداء عن الجسد، منهاة عن الإثم»[2].

وفيه: «يا أبا هريرة أتريد أن تكون رحمة الله عليك حيا ومقبورا ومبعوثا، قم من الليل فصلِّ وأنت تريد رضى ربك، يا أبا هريرة صَلِّ في زوايا بيتك يكن نور بيتك في السماء كنور الكواكب والنجوم عند أهل الدنيا[(3)]».

وفيه: «ألا أنبئك بما ينفعك ذلك اليوم؟ قال بلى، بأبي أنت وأمي. قال: صمْ يوما شديد الحر ليوم النشورْ، وصلِّ ركعتين في ظلمة الليل لوحشة القبورْ، وَحُجَّ حَجَّةً لعظائم الأمورْ، وتصدق بصدقة على مسكين، أو كلمة حق تقولها، أو كلمة شر تسكت عنها[(4)]».

وفيه: «رحم الله رجلا قام من الليل فصلى ثم أيقظ امرأته فصلت، فإن أبت نضح في وجهها الماء، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلت ثم أيقظت زوجها فصلى، فإن أبى نضحت في وجهه الماء»[5].

وقال زهير بن مغيث[1]: رأيت ليلة حوراء من أجمل النساء فقلت لها لمن أنت: فقالت: لمن يقوم الليل في ليالي الشتاء.

---

[1]– أورده في الجامع الصغير وعزاه لابن نصر عن حسان بن عطية مرسلا ورمز له بالضعف(ض)

[2]– أخرجه الترمذي برقم (3549) والبيهقي برقم 4425) كلاهما عن جابر.

([3]) ذكره في الإحياء واستنكره العراقي: (24/1).

([4]) أخرجه الفاكهاني: (رقم 1904) عن أبي ذر.

[5]– أخرجه أبو داوود برقم (1308) والنسائي (1610) وابن ماجه (1336) عن ب أبي هريرة.

ورئي الجنيد في المنام فقيل له: كيف تجدك عند الله؟ قال وجدت بركة ركيعات كنا نقوم بها في الليل، فسئل عن الإشارات والإلهامات التي تُتَلَقّى منه في مقامات التصوف، فقال: هيهات ذهب كل ذلك.

وسئل ابن القاسم أيضا في المنام عن الاجتهادات في المسائل، فقال: لم يبق لنا إلا صلوات الليل.

فإذا كان هؤلاء هكذا مع أن ما هم فيه مطلوب، فأين ما فيه غيرهم من الفضول؟

ويروى: أن إنسانا عامل نبينا ﷺ، فأراد ﷺ مكافأته، فقال له: «ما حاجتك؟ فقال: الجنة يا رسول الله، فقال له: أعني على نفسك بقيام الليل ». أو كما قال.

وفيه: «من استيقظ من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين كتبا من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات[2]».

وفيه: «أفضل الصلاة بعد الصلاة المكتوبة قيام الليل[3]».

وروي أن سفيان الثوري شبع ليلة فقال: إن الحمار إذا زيد في علفه زيد في عمله، فقام في تلك الليلة حتى أصبح.

وكان عبد العزيز بن أبي رواد[4]: إذا جن عليه الليل يأتي فراشه فيمر يده عليه ويقول إنك للينٌ، واللهِ لفي الجنة ألينُ منك، ولا يزال يصلي كل ليله.

وقال الحسن: إن الرجل ليذنب فيحرم به قيام الليل.

وقال الفضيل: إذا لم تقدر على صيام الليل وقيام النهار، فاعلم أنك محروم، وقد كثرت خطيئتك.

---

[1]- لم أجده كذلك.

[2] أخرجه أبو داوود برقم: (1451) والحاكم عن أبي هريرة وأبي سعيد.

[3] أورده في الجامع الصغير: (50/1) بزيادة: «وأفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم»، وأخرجه مسلم برقم: (2756) عن أبي هريرة، وأخرجه الأربعة.

[4]- هو عبد العزيز بن أبي رواد بفتح الراء وتشديد الواو، صدوق عابد ربما وهم، ورمي بالأرجاء. توفي 159هـ. انظر تقريب التهذيب: (298).

وكان أبو حنيفة يحيي نصف الليل، فمر بقوم فقالوا: إن هذا يحيي الليل كله. فقال: إني أستحي أن أُوصَفَ بما لا أفعل، فكان بعد ذلك يحيي الليل كله.

وقيل للحسن: ما بال المجتهدين أحسن الناس وجوها؟ قال: لأنهم خلَوْا بالرحمن فألبسهم نورا من نوره.

وقال الفضيل: أدركت أقواما يستحيون من الله في سواد الليل من طول الهجعة إنما هو على الجنب، فإذا تحرك قال قومي خذي حظك من الآخرة ليس لك أن تنامي.

وقال ابن عطية[1]: من أطال قيام الليل هون عليه طول القيام يوم القيامة.

وقال مكحول: من أحيى ليلة في ذكر الله عز وجل أصبح كيوم ولدته أمه.

وفي الحديث: «أمتي حملة القرءان وأصحاب الليل»[2].

وكان زمعة بن صالح[3] يصلي ليلا طويلا فإذا كان في السحر نادى أهله: يأيها الركب المُعَرِّسِون أكُلَّ هذا الليل ترقدون؟ فيتواثبون بين باكٍ وداعٍ وقارئٍ ومتوضئ فإذا أصبح نادى: عند الصباح يحمَد القومُ السُّرى.

فائدة: من الأسباب التي تيسر قيام الليل: قلة الأكل؛ لأن من كثَّره يُكثرُ الشراب فيغلبه النوم ويثقل عليه القيام.

كان بعض المشايخ يقف على المائدة كل ليلة ويقول: يا معشر المريدين: لا تأكلوا كثيرا فتشربوا كثيرا فترقدوا كثيرا, فتتحسروا عند الموت كثيرا.

ومنها قلة التعب بالنهار، فإن التعب مجلبة للنوم. والقيلولة بالنهار فإنها سنة للاستعانة على قيام الليل.

([1]) هو عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي، من محارب قيس، الغرناطي، أبو محمد: مفسر فقيه، أندلسي، من أهل غرناطة. عارف بالاحكام والحديث، له شعر. ولي قضاء المرية، وكان يكثر الغزوات في جيوش الملثمين. وتوفي بلورقة. له (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز – خ) في عشر مجلدات، و (برنامج – خ) في خزانة الرباط (المجموع 1301 ك) في ذكر مروياته وأسماء شيوخه. وقيل في تاريخ وفاته سنة 541 و 546هـ. انظر نفح.الطيب: (593/1).

[2] أخرجه الطبراني (125/12، رقم 12662).

[3] هو زمعة بسكون الميم بن صالح الجندي بفتح الجيم والنون اليماني، نزيل مكة أبو وهب، ضعيف وحديثه عند مسلم مقرون، توفي بعد المائة. انظر تقريب التهذيب: (156).

ومنها: عدم الذنوب بالنهار, فإنها تقسي القلب وتحول بينه وبين أسباب الرحمة.

قال رجل للحسن: يا أبا سعيد؛ إني أبيت معافى وأحب قيام الليل وأعدُّ طهوري، فما بالي لا أقوم؟ قال: ذنوبك قيَّدتْك.

وقال الثوري: حرمت قيام الليل خمسة أشهر بذنب أذنبته قيل: وما ذلك الذنب؟ قال: رأيت رجلا يبكي فقلت في نفسي: هذا مراء.

وبكى كرز بن وبرة[1] فقيل له: ما يبكيك؟ قال: بابي مغلق وستري مسبل و لم أقرأ وردي البارحة وما ذاك إلا بذنب أحدثته, هذا لأن الخير يدعوا إلى الخير والشر يدعوا إلى الشر والقليل من كل منهما يجر إلى الكثير. **ولذلك قال سليمان الداراني**[2]: لا تفوت أحداً صلاة الجماعة إلا بذنب. وكان يقول: الاحتلام بالليل عقوبة. وقال بعض العلماء: إذا صمت يا مسكين فانظر عند من تفطر وعلى أي شيء تفطر؟ فإن العبد ليأكل أكلة فينقلب قلبه عما كان عليه ولا يعود على حالته الأولى. فالذنوب كلها تورث قساوة القلب وتمنع من قيام الليل وأخصها بالتأثير في القلب: تناول الحرام. وتؤثر اللقمة الحلال في تصفية القلب وتحريكه إلى الخير ما لا يؤثر غيرها. **ولذا قال بعضهم:** كم من لقمة منعت قيام ليلة وكم من نظرة منعت قراءة سورة. وإن العبد ليأكل أكلة ويفعل فعلة فيحرم بها قيام سنة.

وقال بعض السجانين بدينور(3): بقيت سجانا نيفا وثلاثين سنة أسأل كل ما خوذ بالليل: هل صلى العشاء في جماعة؟ فكانوا يقولون لا .

---

[1]- هو كرز بن وبرة الحارثي أبو عبد الله، تابعي من أهل الكوفة، يضرب به المثل في التعبد، دخل جرجان غازيا مع يزيد بن المهلب سنة 98هـ. ثم سكنها وتوفي بها (110هـ) انظر تاريخ جرجان (ص295)

[2]- تقدمت ترجمته.

(3) قيل بكسر الدال المهملة. قال الحافظ أبو سعد السمعاني بفتحها. وقال ابن خلكان: الأصح الكسر: وهي بلدة من بلاد الجبل نسب إليها جماعة من العلماء. انظر مرآة الجنان وعبرة اليقظان لليافعي: (85/2).

وهذا تنبيه على أن بركة الجماعة تمنع من تعاطي الفحشاء والمنكر وكما أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر فكذلك الفحشاء تنهى عن الصلاة وسائر الخيرات. هذه هي الأسباب الميسرات للقيام في الليل ظاهرا.

وأما الباطنة: فسلامة القلب من الحقد والبدع، وفضول هموم الدنيا، فهذا الأخير؛ ـــ وإن قام ـــ فلا يتفكر في صلاته إلا في مهماته. **ومنها:** خوف غالب. **وحكي** أن غلاما اسمه صهيب كان يقوم الليل كله فقالت له سيدته: إن قيامك بالليل يضر بعملك بالنهار. فقال: إن صهيبا إذا ذكر النار لا يأتيه النوم. **ومنها:** أن يعرف فضل قيام الليل بسماع الآيات والأخبار حتى يستحكم بها رجاؤه. **ومنها:** -وهو أشرف البواعث-: الحب لله وقوة الإيمان فصاحبه في قيامه لا يتكلم بحرف إلا وهو يناجي به ربه، وهو مطلع عليه مع مشاهدة ما يخطر بقلبه وأن تلك الخطرات من الله تعالى خطاب معه، فإذا أحب الله أحب لا محالة الخلوة به والتلذذ بالمناجاة فتحمله لذة المناجاة بالحبيب على طول القيام. **قيل لبعضهم:** كيف الليل عليك؟ قال ساعة أنا فيها بين حالتين: أفرح بظلمته إذا جاء، وأغتم بفجره إذا طلع، ما تم فرحي به قط.

وقال علي بن بكار[1]: بقيت منذ أربعين سنة ما أحزنني شيء سوى طلوع الفجر.

وقال الفضيل بن عياض: إذا غربت الشمس؛ فرحت بالظلام بخلوتي بربي، وإذا طلعت الشمس حزنت لدخول الناس علي. وقال بعض العلماء: ليس في الدنيا وقت يشبه نعيم الجنة إلا ما يجده أهل التملق في قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة.

وقال بعضهم: لذة المناجاة ليست من الدنيا؛ إنما هي من الجنة، أظهرها الله لأوليائه لا يجدها سواهم.

---

[1]- هو الإِمَامُ، الرَّبَّانِيُّ، العَابِدُ، أَبو الحَسَنِ البَصْرِيُّ، الزَّاهِدُ، نَزِيْلُ المَصِّيْصَةِ، وَمُرِيْدُ إِبْرَاهِيْمَ بنِ أَدْهَمَ. حَدَّثَ عَنِ: ابْنِ عَوْنٍ، وَمُحَمَّدِ بنِ عَمْرٍو، وَحُسَيْنٍ المُعَلِّمِ، وَهِشَامِ بنِ حَسَّانٍ، وَالأَوْزَاعِيِّ، وَطَائِفَةٍ. وَلَيْسَ هُوَ بِالمُكْثِرِ. رَوَى عَنْهُ: هَنَّادُ بنُ السَّرِيِّ، وَيُوْسُفُ بنُ سَعِيْدِ بنِ مُسَلَّمٍ، وَالفَيْضُ بنُ إِسْحَاقَ، وَسَلَمَةُ بنُ شَبِيْبٍ، وَبَرَكَةُ بنُ مُحَمَّدٍ الحَلَبِيُّ الوَاهِي، وَعَبْدُ اللهِ بنُ خُبَيْقٍ الأَنْطَاكِيُّ، وَآخَرُوْنَ. انظر سير أعلام النبلاء.

وقال خالد بن معدان: بلغني أن الله تعالى يباهي الملائكة بثلاثة نفر:

- رجل كان بأرض فلاة؛ فيؤذن ويقيم الصلاة ثم يصلي وحده فيقول الله عز وجل: «انظروا عبدي يصلي ولا يراه أحد غيري» فيترل سبعون ألف ملك يصلون وراءه.

- ورجل قام من الليل فيصلي وحده، فيسجد وينام وهو ساجد فيقول: «انظروا روحه عندي وجسده ساجد».

- ورجل زحف وثبت حتى قتل.

وقالوا: ما من عبد يقع جنبه على فراش فيذكر الله تعالى فيدركه النوم وهو مضطجع ساجد إلا كتب ذاكرا إلى أن يستيقظ.

وكان ممن يقوم الليل كله وواظب عليه: سعيد بن المسيب[1] وصفوان بن سليم[2] المدنيان، والفضيل بن عياض[3] ووهب بن الورد المكيان، وطاووس[4] ووهب بن منبه[5] اليمنيان، والربيع بن خثيم[6] والحكم الكوفيان، وأبو سليمان الداراني[7] وعلي بن بكار[8] الشاميان، وأبو عبد الله الخواص[9] وأبو عاصم[10] العباديان، وحبيب

([1]) تقدمت ترجمته.

([2]) تقدمت ترجمته

([3]) تقدمت ترجمته.

([4]) تقدمت ترجمته.

([5]) تقدمت ترجمته.

([6]) تقدمت ترجمته.

([7]) تقدمت ترجمته.

([8]) هو علي بن بكار، أبو الحسن البصري؛ كان إماماً عالماً زاهداً؛ انتقل من البصرة فترل المصيصة فأقام مرابطاً؛ وكان صاحب كرامات واجتهاد. انظر النجوم الزاهرة: (198/1).

([9]) تقدمت ترجمته.

[10]- هو أبو عاصم الضحاك بن مخلد بن الضحاك بن مسلم الشيباني، أبو عاصم النبيل النبيل البصري، ثقة ثبت. (تـ212هـ) ولم أره في غيره من المراجع.



بن محمد[1] وأبو جابر السلماني الفارسيان، ومالك بن دينار[2] وسليمان التيمي[3]، ويزيد الرقاشي[4] وحبيب بن أبي ثابت[5] ويحيى البصريون، وكهمس بن المنهال[6] وكان يختم في الشهر تسعين ختمة وما لم يفهم رجع وقرأه مرة أخرى. **وأيضا من أهل المدينة:** أبي حازم[7] ومحمد بن المنكدر[8] وجماعة يكثر عددهم.

وأما من يقوم نصف الليل فلا ينحصر عدد المواظبين عليه من السلف، وأحسن طريق فيه: أن ينام الثلث الأول من الليل والسدس الأخير منه، وهو قيام داوود عليه السلام؛ لأن نوم آخر الليل يذهب النعاس بالغداة ويقلل صفرة الوجه والشهرة. وكان ﷺ ينام آخره **حتى قال بعض السلف:** هذه الضجعة قبيل الصبح سنة منهم أبو هريرة. وكان نوم هذا الوقت سبب المكاشفة والمشاهدة من وراء حجاب العين، وذلك لأرباب القلوب، وفيه استراحة تعين على الورد الأول من أوراد النهار.

([1]) هو حبيب بن محمد العجمي، ويعرف بالفارسي، البصري، من الطبقة الرابعة من تابعي أهل البصرة. وهو أحد الزهاد الذي يضرب بزهده المثل. انظر النجوم الزاهرة: (111/1).

([2]) تقدمت ترجمته.

([3]) تقدمت ترجمته.

([4]) هو يزيد الرقاشي زاهد من العباد من كلامه: إلى متى تقول : غدا أفعل كذا وبعد غد أفعل كذا وإذا أفطرت فعلت كذا وإذا قدمت من سفري فعلت كذا ؟ أغفلت سفرك البعيد ونسيت ملك الموت أما علمت أن دون غد ليلة تخترم فيها أنفس كثيرة أما علمت أن ملك الموت غير منتظر بك أملك الطويل أما علمت أن الموت غاية كل حي ؟ ثم يبكي حتى يبل عمامته. مختصر تاريخ دمشق: (373/1).

([5]) لعله حبيب بن أبي ثابت قيس بن دينار، وقيل قيس بن هند، مولى بني أسد بن خزيمة كان أعور. روى عن ابن عباس وابن عمر وأبي عبد الرحمن السلمي وأبي وائل وسعيد بن جبير وخلقاً. انظر الوافي بالوفيات: (83/4).

([6]) تقدمت ترجمته.

([7]) لعله عبد العزيز بن أبي حازم سلمة بن دينار المدني، أبو تمام: فقيه محدث. قال ابن حنبل: لم يكن بالمدينة بعد مالك أفقه من ابن أبي حازم. توفي 184هـ. انظر تذكرة الحفاظ: (274/1).

([8]) هو محمد بن المنكدر بن عبد الله بن الهدير (بالتصغير) بن عبد العزى القرشي التيمي (من بني تيم بن مرة) المدني: زاهد، من رجال الحديث. من أهل المدينة. أدرك بعض الصحابة وروى عنهم.له نحو مئتي حديث. قال ابن عيينة: ابن المنكدر من معادن الصدق. توفي 130هـ. انظر الاعلام: (112/7).

ثم إن تعذر عليه قيام الليل: تطهر وقام مقدار أربع ركعات أو ركعتين، وإن تعذرت عليه الطهارة فيسن أن يمس أعضاءه بالتراب, فإن لم يتيسر فإنه يجلس مستقبل القبلة ساعة مشتغلا بالذكر والدعاء فيكتب في جملة قوام الليل برحمة الله وفضله.

وقد جاء في الأثر: «صلِّ من الليل ولو قدر حلب شاة»[1]. **وفي رواية:** «لابد من قيام الليل ولو حلب ناقة». وإن تعذر عليه أيضا القيام وسط الليل فلا ينبغي أن يهمل إحياء ما بين العشاءيْن والورد الذي بعد العشاء ثم يقوم قبل الصبح وقت السحر. فلا يدركه الصبح نائما ويقوم بطرفي النهار.

وقال ابن الحاج: قالوا فيمن كان ينفلت منه القرآن لقلة حفظه فلْيَقُمْ به في الليل في الصلاة فإن ذلك يثبته له وما ذاك إلا لبركة امتثال السنة في قيام الليل، سيما إن كان في الثلث الآخر منه لما ورد في ذلك من البركات والخيرات[2].

وفي قيام الليل من الفوائد جملة: فلا ينبغي لطالب العلم أن يفوته منها شيءٌ، فمنها: أنه يحطُ الذنوبَ كما يَحُطُ الريحُ العاصفُ الورقَ اليابسَ. **الثاني:** أنه ينور القلب. **الثالث:** أنه يحسِّن الوجه. **الرابع:** أنه يذْهبُ الكسلَ وينشِّطُ البدنَ. **الخامس:** أن موضعه تراه الملائكة من السماء كما يتراءى الكوكب الدُّرِيُّ لنا في السماء.

وفي الحديث: «من قام بعشر آيات: لم يكتب من الغافلين. ومن قام بمائة آية كتب من القانتين. ومن قام بألف كتب من المقنطرين»[3]. وقوله (وَ) لاسيما الصدقة **(عَلَى الأَقَارِبِ)** راجع لقوله: "الصدقة" وإنما كانت الصدقة على الأقارب وذوي الأرحام أفضل لأنها صدقة وصلة قال تعالى: ﴿وَمَا انْفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالاَقْرَبِينَ﴾ لَأَنْ أَصِلَ أخاً من إخواني بدرهمٍ أحبُّ إليَّ من أن أتصدق بعشرين درهما، ولَأَنْ أصِلَه بعشرين درهما أحبُّ إليَّ من أن أتصدق بمائة درهم، ولَأَنْ أصله بمائة درهم أحب إلي من أن أعتق

[1]- أخرجه الطبراني في الأوسط (251/4 ، رقم 4114)
[2]- انظر المدخل لابن الحاج: (136/2).
[3]- أخرجه أبو داوود برقم (1398) وابن حبان عن ابن عمر.

رقبة. ولِأنَّ حقَّهم أيضا آكد وصلتهم أوجبُ لتأكيد حق الرحِمِ التي اشتق اسمها من اسمه تعالى، وجعل صلتها من صِلته.

وفي البخاري: أن زينب امرأة ابن مسعود ﷺ قالت: يا نبي الله، أردت أن أتصدق فزعم ابن مسعود أنه هو وولده أحق من تصدقت عليهم فقال ﷺ : «صدق ابن مسعود، زوجك وولدك أحق من تصدقت عليهم»[1].

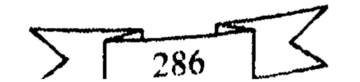
وفي الحديث: «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم اثنتان: صدقة وصلة».[2] **وقال الشعبي:** "ما من مال أعظم أجرا من مال يتركه الرجل لوُلْدِهِ يغنيهم به عن الناس".

وفي مسلم: قال رسول الله ﷺ لامرأة عتقت رقبة: «لو كنت أخدمتيها بعض أقاربك لكان أعظم لأجرك». **وفي الحديث:** «أفضل الصدقة: الصدقة على ذي الرحم الكاشح»[3]. **وفيه:** «إن من الجفاء الصدقة على الأبعدين وترك الأقربين».

وقال مجاهد: لا يقبل الله صدقة من تعدى بصدقته رحمه المحتاج.

وفي البخاري أيضا: أن أبا طلحة لما قال: إن أحب أموالي إلي "بير حاء" وإنه لصدقة قال رسول اللهﷺ: «اجعلها لفقراء أقاربك» فجعلها لحسان بن ثابت وأبَيّ، قال أنس: وكانا أقرب إليه مني. وأبو طلحة: اسمه: زيد بن سهل بن الأسود بن حرام بن عمرو بن زيد مناة بن عدي بن عمرو بن مالك بن النجار. وحسان بن ثابت بن المنذر بن حرام، فيجتمعان إلى حرام وهو الأب الثالث. وأَبي بن كعب بن قيس بن عبيد بن زيد بن معاوية بن عمرو بن مالك. فيجتمعان في عمرو بن مالك وهو الأب السادس. **انتهى بخ**[4].

1- أخرجه البخاري، كتاب الزكاة برقم (1466) عن أبي سعيد.
2- أخرجه في الجامع الصغير وعزاه للطبراني في الأوسط (178/2)عن أبي أيوب وحكيم بن حزام.
3- أورده في الجامع الصغير (198/1) وعزاه لأحمد في مسنده والطبراني في الكبير.
4- أخرجه البخاري برقم (4554) عن أنس بن مالك.



وقوله: (وَ) لاسيما (فِي الأَيَّامِ الْفَاضِلَةِ) راجع لقوله: "في الصوم" كاليوم الخامس والعشرين من ذي القعدة، ويوم عرفة والتروية، وثالث المحرم، وعاشوراء وتاسوعاء، والسابع والعشرين من رجب، ويوم النصف من شعبان، ويوم الجمعة، ويومي العيدين، وعشر ذي الحجة وأيام التشريق، (وَ) ضيِّق على نفسك أيضا بعمارة الأوقات. **(بِكَثْرَةِ الأَوْرَادِ)** جمع ورد؛ بكسر الواو.

وقال في القاموس: الورد: جزء من القرآن[1]. وهو ما يجعله الإنسان على نفسه من صلاة وقراءة وذكر ونحوه.

قال سيدي زروق: الورد ما يترتب من العبادات في الأوقات، وهو عظيم الموقع شرعا، لأنه بساط العبودية التي يترتب عليها الثواب في الدار الآخرة بقدره. ولأنه مفتاح الفتح على حسب حال المتوجه. **وقال أيضا:** الأوراد ترتيب الأعمال بحسب الأوقات والأحوال.

وفي كلام ابن عطاء الله في لطائف المنن تنبيهٌ على تأكيد أمر الأوراد، وعظم موقعها من الدين. وأن مراعاتها من أحسن سيما العارفين.

وقال أبو طالب المكي[(2)]: مداومة الأوراد من أخلاق المومنين، وطريق العابدين. وهي: مزيد الإيمان، وعلامة الإيقان. **وقال:** من لم يهذب نفسا و لم يلتزم وردا فهو مغرور.

وقال الشافعي: من أحب أن يفتح الله قلبه وينوره: فعليه بترك كثرة الكلام فيما لا يعني، وتجنب المعاصي، ويكون له ورد في الأعمال فيما بينه وبين الله تعالى. **وفي رواية:** فعليه بالخلوة، وقلة الأكل، وترك مخالطة السفهاء وبعض أهل العلم الذين لا يريدون بعلمهم إلا الدنيا، وليس معهم إنصاف ولا أدب.

---

[1]- ترتيب القاموس (596/4).

([2]) هو محمد بن علي بن عطية الحارثي، أبو طالب: واعظ زاهد، فقيه. من أهل الجبل (بين بغداد وواسط) نشأ واشتهر بمكة. ورحل إلى البصرة فاتهم بالاعتزال. وسكن بغداد فوعظ فيها، فحفظ عنه الناس أقوالا هجروه من أجلها. وتوفي ببغداد. له (قوت القلوب – ط) في التصوف، مجلدان، قال الخطيب البغدادي: ذكر فيه أشياء منكرة مستشنعة في الصفات، و (علم القلوب – خ) و (أربعون حديثا) أخرجها لنفسه. توفي 386هـ. انظر الوفيات: (493/1).

وفي **الحكم العطائية**: لا يستحقر الورد إلا جهول[1]. **وفيها أيضا**: وأولى ما يعتنى به: ما لا يخلف وجوده. **زروق**: ما لا يُخلَفُ وجوده هو وجود الورد لتوقفه على هذه الدار إذ كل أسباب السعادة إنما توجد فيها غير الشفاعة.

وقال في الأجوبة الناصرية: اعلم أن طريق أشياخي هي: جعل الأوراد كلها وردا واحدا. وهي الهيللة التي هي الذكر الأعظم بعد التوطئة له بتقديم الاستغفار والصلاة على النبي المختار. ويتركون ما سواه من الأحزاب والوظائف والدعوات إلا الصلاة على النبي المختار ﷺ، وتلاوة القرآن، والإتيان بذلك على الكيفية المذكورة للسنوسي هو الكمال. وأما الصلاة على النبي ﷺ فيأتون منها دبر كل صلاة بمائة بعد الاستغفار، ويأتون منها بين المغرب والعشاء بألف، ويختمون دلائل الخيرات في كل جمعة ثلاث مرات، يختمونه في كل يوم جمعة. ويقرءون في كل يومٍ غيره ثُلُثَهُ. **وأما المريدون**: فكل على حسب طاقته. وتوفيق ربه، فليس الرجل كالمرأة، فهي حسبها من الهيللة مائة، وليس من يعالج القرآن كغيره، فالمعالج يذكر الهيللة ألفا وغيره سبعة آلاف، ويزاد عند تمام كل مائة: محمد رسول الله ﷺ. هذا كله بعد قول: استغفر الله مائة، اللهم صلى على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم تسليما. مائة أيضا. ولا يتخذ وردا إلا بإذن الشيخ، وكذلك أحزاب السادات. ومن اتخذ وردا بغير شيخ فهو غار مغرور، إلا الصلاة على النبي ﷺ، والمسبعات العشر، وهي تكفي عن جميع الأوراد، والدعاء بالأسماء الحسنى فإن هذا لا يحتاج إلى إذن.

وإن فاته ورده في الوقت المعتاد له: فليقضه. ومن كثّر عدد الأذكار والعبادات غير ما صح من السنة بَعُدَ عليه الفتح؛ لأنه كمن يريد حفر بئر يريد ماءها، ويحفر في كل موضع شبرا فشبرا، فمن لازَمَ أوقاتَه ورتب أورادَه قرب الفتح منه وانتهى الخير إليه.

قال المناوي: طلب الشيء بوجه واحد مع الإلحاح أقرب لحصوله، وأدعى لدوام المطلوب، فلذلك لزم السالك التزام ورد واحد لا ينتقل عنه حتى يُحصِّلَ نتائجه، وإلا

---

[1]- انظر شرح الحكم لزروق (ص122).



فالمتنقل قبل الفتح كحافر بئر لا يدوم على محل واحد، وكالمقطر قطرة على كل محل يريد تأثير المحل بالقطرة أتراه يظهر لعمله أثر. **انتهى**.

ثم إن الذي لا بد فيه من الأخذ من الشيخ؛ إنما هو الورد: وهو الذكر بأذكار معلومة على هيئة مخصوصة لتطهير القلب، وإيراد المعارف عليه. وأما الذكر بمجرد قصد الثواب والأجر، فلا يحتاج إلى الأخذ.

قال الشيخ أبو عبد الله الأنصاري[1]: الذكر على قسمين: **ذكر العامة**: وهو أن يذكر العبد مولاه بما شاء من الأذكار، ولا يقصد غير الأجور والثواب. **وذكر الخاصة**: وهو أن يذكر بأذكار معلومة على صفة مخصوصة لينال بذلك المعرفة بالله سبحانه بطهارة نفسه من كل خُلُقٍ ذميم. **انتهى**.

ومن فضل الورد على مجرد الذكر ما قاله سيدي محمد بن ناصر[2]: المتغمش تغمُّشا ما في دينه، متعلق بحزبنا وكان من جملة فقرائنا؛ خير من الحازم المتعلق بغيرنا.

وقال شيخه: سيدي عبد الله بن حسين: من وقع عليه طابعنا؛ أي أخذ منا الأوراد قمنئا منه، ونشفع في غيره من المحبين.

وقال أيضا سيدي محمد بن ناصر: من كان عليه الطابع فلا كلام فيه، ومن أحب فهو لاحق، وغيرهما ينتفع بدعائنا في الدنيا. ومن قال بعد ورده: سبحان الله وبحمده، سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، عملت سوءا وظلمت نفسي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، يا رب العالمين. **فكأنما عمل عليه الطابع**. **ومما يقال بعد الورد**: الجبار إحدى وعشرين مرة.

---

(1) لعله محمد بن عبد الله بن محمد بن خلف، أبو عبد الله، الانصاري: مقرئ واعظ أندلسي. من أهل بلنسية.من كتبه: (نسيم الصبا) في الوعظ، على طريقة ابن الجوزي، و (بغية النفوس الزكية في الخطب الوعظية). توفي 640هـ. انظر غاية النهاية: (178/2).

(2) هومحمد بن محمد بن أحمد، ابن ناصر، أبو عبد الله الدرعي: من صلحاء المالكية وعلمائهم في المغرب. كانت له زاوية وأتباع كثيرون. وهو الممدوح بالقصيدة (الدالية – ط) لليوسي.كان من أهل درعة (قرب سجلماسة) وهو أستاذ العياشي صاحب الرحلة. عني في أول أمره بجمع الكتب، نسخا بخطه وشراء، وتصحيحا ومقابلة، مع كتابة الفوائد على حواشيها وطررها، على ضيق معيشته. وكان ينام مع أهله على التراب لضعف ماله عن شراء حصير أو فراش. توفي 1085هـ. انظر شجرة النور: (313).

قال الهيتمي: ومن يريد التبرك يجوز له الأخذ من مشايخ متعددين، ومن يريد السلوك والتربية؛ يحرم عليه الخروج عن شيخه، بل ولا رخصة عندهم للشيخ الثاني، إذا علم أن المريد الآخذ عنه أستاذا كاملا، بل يأمره بالرجوع لأستاذه[1].

وقال سيدي علي بن وفا: مادام المريد تحت حكم أستاذه فترقيته دائمة، فإن خرج عن حكمه اتكالا على ما حصل منه فهو كالحجر المرفوع إلى السماء، مادامت تلك القوة الرافعة مصاحبة له فهو متعال، ومتى فتر انحط إلى الأرض. فكن تحت حكم أستاذك تغنم[2].

وقيل: من دخل الدنيا ولم يصادف رجلا كاملا يربيه؛ يخرج منها وهو متلوف، ولو كان على عبادة الثقلين. **وقيل:** والله ما عرف **الجيلاني والرفاعي**[3] وغيرهما الطريق إلى الله إلا على يد شيخ.

وقال سيدي الحسن اليوسي: فكما أنه لا يشتعل المصباح من ذات نفسه إلا من مصباح آخر، إلا أن يخرق الله عادته أحيانا؛ فكذلك لا ينتفع الإنسان بلا قدوة. **ولهذا قال أئمة الطريق:** من لم يأخذ أدبه عن المتأدبين أفسد نفسه ومن تبعه. **انتهى.**

فائدة: قال سيدي زروق: أساس الأوراد كلها أن يكون عملك كله لله، سواء كان عادات أو عبادات، فإن النية إكسير العمل، ومن لم ينقل قدميه إلا حيث يرجو ثواب الله قلّ أن يقع في محظور.

وأعدل أوراد الضحى ست ركعات، **كما في حديث أنس وعلي، وهما في الترمذي، وأشارت إليه عائشة رضي الله عنها في مسلم.** وقبل الظهر أربعٌ، وبعدها

([1]) انظر الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمي: (170/1).

([2]) انظر طبقات الشعراني: (271/1).

[3]- الرفاعي: هو أحمد بن علي بن يحيى الرفاعي الحسني أبو العباس، الإمام الزاهد، مؤسس الطريقة الرفاعية، تفقه وتأدب في واسط وتصوف فانضم إليه خلق كثير من الفقراء كان لهم به اعتقاد كبير، صنف كثيرون كتبا في سيرته وجمع بعض كلامه في رسالة سميت "رحيق الكوثر" ومن كلامه: التوحيد: وجدان تعظيم في القلب يمنع من التعطيل والتشبيه. ومنه: ما أقبح الجهل بالألباء والعلة بالأطباءوالجفاء بالأحباء. (ت578) انظر طبقات الشعراني (140/1) وابن خلكان (55/1).

ركعتين كما صح من فعله عليه الصلاة والسلام، **وكره ابن المبارك** أن تتبع الصلاة بمثلها. وقبل العصر أربعٌ، وبعد المغرب ركعتان كما صح من فعله عليه الصلاة والسلام، ومن الليل ثلاث عشرة ركعة؛ أولها ركعتان خفيفتان وآخرها الوتر بواحدة. **(وَ) ضَيِّق** على نفسك بعمارة الأوقات **(بِأَنْوَاعِ الذِّكْرِ)** قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾. **وفي الحديث**: «ذاكر الله في الغافلين: مثل الذي يقاتل بين الفارين، وذاكر الله في الغافلين مثل الشجرة الخضراء في وسط الشجر الذي قد تحات من الصر أي البرد الشديد، وذاكر الله في الغافلين يغفر الله له بعدد كلّ فصيح وأعجم، أي الآدميين والبهائم، وذاكر الله في الغافلين يعرفه الله مقعده من الجنة»[1].

وفيه: «كل نفس تخرج من الدنيا عطشانة إلا نفس ذاكر الله تعالى[2]». وقد جعل الله التقليل من الذكر علامة المنافقين. فقال ذاما لهم: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وفيه: «سبق المفردون. قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: الذاكرون الله كثيرا والذاكرات». **وفي رواية**: «المستهترون بذكر الله يضع الذكر عنهم أوزارهم، فيأتون يوم القيامة خفافا»[3]. **وروي**: "المفرِدُ" بتخفيف الراء وتشديدها **(المفرّدون)** والتشديد أكثر. **قال ابن عباس**: الذاكرون الله كثيرا: الذين يذكرون الله أدبار الصلوات وغدوا وعشيا، وفي المضاجع. وكلما استيقظ من نومه. وكلما غدا أو راح من مترله ذكر الله تعالى. **وقال مجاهد**: لا يكون منهم حتى يذكر الله تعالى قائما وقاعدا ومضجعا. **وقال عطاء**: من صلى الخمس بحقوقها فهو داخل في قوله تعالى: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾.

---

[1]- أخرجه في الجامع الصغير (113/2) وعزاه لابن نعيم في الحلية عن ابن عمر.

[2] لم أجد تخريجه.

[3]- أورده في الجامع الصغير (الفتح الكبير) (147/2) وأسنده إلى الترمذي والحاكم عن أبي هريرة والطبراني في الكبير عن أبي الدرداء.

وفي حديث أبي سعيد: قال قال رسول الله ﷺ: «إذا أيقظ الرجل أهله من الليل فصلى أو صليا ركعتين جميعا؛ كتبا من الذكرين الله كثيرا والذاكرات[1].

قال ابن الصلاح: إذا واظب على الأذكار المأثورة صباحا ومساء وفي الأوقات والأحوال المختلفة ليلا ونهارا كان من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات.

وفي حديث ابن أبي أوفى[2]: «إن خيار عباد الله الذين يراعون الشمس والقمر والنجوم والأظلة لذكر الله»[3]. **وقال رجل:** يا رسول الله: إن شرائع الإسلام كثرت علي فأخبرني بشيء أتشبث به, **وفي رواية:** «فدلني على عمل أدرك به ما فاتني. قال: لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله[4]».

وفي الحديث «سئل رسول الله ﷺ وسلم أي الأعمال أحب إلى الله تعالى؟ قال: أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله[5]». **وفيه:** «أكثروا من ذكر الله حتى يقولوا مجنون»[6]. **وفيه:** «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق, وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم قالوا: بلى قال ذكر الله تعالى»[7]. **وفيه:** «ذكر الله بالغداة والعشي خير من حطم السيوف في سبيل الله»[8]. **وفيه:** «لا يأتي على العبد ساعة لا يذكر الله فيها إلا كانت عليه حسرة يوم القيامة». **وفيه:** «الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه كمثل الحي والميت[9]». **وفيه:** «إن لله ملائكة يطوفون بالطرق يلتمسون أهل

---

[1]- أورده في الجامع الصغير وعزاه للطبراني في الكبير (90/1).

[2]- ابن أبي أوفي: هو زيد بن أبي أوفى بن خالد بن الحارث بن أبي أسيد الأسلمي أبو عبد الله، روى حديثه ابن أبي حاتم والبخاري في التاريخ الصغير. انظر الإصابة (560/1).

[3]- أخرجه الطبراني كما فى مجمع الزوائد (327/1)

(4) أخرجه أحمد (188/4 رقم 17716) والترمذى (458/5 رقم 3375) وقال : حسن غريب

(5) أخرجه الحاكم (672/1 ، رقم 1822) وقال : صحيح الإسناد . والبيهقى (371/3 ، رقم 6318) .

[6]- أخرجه الطبراني

[7]- أخرجه الترمذي برقم (3377)عن أبي الدرداء. وابن ماجه برقم (3790).

[8]- أخرجه ابن أبي شيبة برقم (29456).

(9) أخرجه البخاري في باب فضل ذكر الله عز وجل: (6044) عن أبي موسي.

الذكر فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تنادوا: هلموا إلى حاجتكم، فيحفونهم بأجنحتهم فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم منهم»[1]. ويروى: ما من مصيد يصاد ولا شجرة تقطع، إلا لغفلتها عن ذكر الله تعالى؛ لأن السارق لا يسرق بيتا وأهله أيقاظ بل على نوم وغفلة.

وقال أبو جعفر الباقر[(2)]: الصاعقة تصيب المسلم وغير المسلم، ولا تصيب ذاكرا.

وحكى النووي عن ابن جبير وغيره: أن الذكر غير منحصر في التسبيح والتهليل والتكبير بل كل عامل لله تعالى بطاعته فهو ذاكر.

وقال عبد الله بن زكريا[3]: من قال سبحان الله وبحمده عند البرق؛ لم تصبه صاعقة.

قال الشعراني: ومن أخلاق السلف كثرة الغيرة على ذكر الله تعالى. أن يذكره أحد وهو غافل. وذلك كقصد الوالدة بالذكر تنويم ولدها إذا سهرت به في الليل، فإن ذكر الله يُجَل عن مثل ذلك.

وقد قال بعض الصالحين يوما لمريض: قل: يا لطيف، وهو غافل عن كونه بين يدي الله فعاتبه ربه على ذلك في المنام، وقال له قد جعلت ذكر اسمي لعبا ولهوا.

وقال الفضيل: إذا ذكرتم الخلق في مجالسكم فاذكروا الله فإنه دواء لذكر الخلق.

وقال داوود الطائي: كل نفس تخرج من الدنيا عطشانة إلا نفس الذاكرين.

وقال وهيب بن الورد: أولى الناس بالله من افتتح المجلس بذكر الله قبل الناس.

وقال عطاء السلمي: لا ينبغي لمن ظلم نفسه أن يذكر الله تعالى، إلا بعد التوبة والاستغفار، فإن الله تعالى يلعن الظالم إذا ذكره ما دام مصرا على الظلم.

---

[1]- أخرجه البخاري (6408) برواية تختلف لفظا والمعنى متحد، ومسلم، كتاب الدعوات برقم (3600) عن أبي سعيد الخدري.

[(2)] هو محمد بن علي زين العابدين بن الحسين الطالبي الهاشمي القرشي، أبو جعفر الباقر: خامس الائمة الاثني عشر عند الامامية. كان ناسكا عابدا، له في العلم وتفسير القرآن آراء وأقوال. ولد بالمدينة، وتوفي بالحميمة 114هـ ودفن بالمدينة. انظر الوفيات: (450/1).

[3]- لعله عبد الله بن أبي زكرياء الخزاعي أبو يحيى الشامي واسم أبيه إياس، ثقة فقيه عابد (ت119هـ) انظر تقريب التهذيب (ص246)

قال الشعراني: وهذا يؤيد ما ذهب إليه القوم من التوبة كلما أرادوا أن يذكروا ربهم احتياطا لنفوسهم لاحتمال ظلمهم لها ولو بارتكاب المكروه أو غفلة عن ربهم، أو خاطر مذموم[1].

وقال القشيري: قال الحريري: كان بين أصحابنا رجل يكثر أن يقول الله الله، فشج رأسه يوما فطار دمه في الأرض فكتب على الأرض الله الله[2].

وقال زروق: الذكر مدار العبادات عليه، وهو لا حد له وهو منشور الولاية أي ظهيرها.

قال ابن عباد: الذكر أقرب الطرق إلى الله تعالى، وهو علم على وجود ولايته، **كما قال علي الدقاق:** الذكر منشور الولاية: أي مرسوم من الله للعبد كمراسيم ملوك الدنيا بالولاية والوظائف، ولله المثل الأعلى، فمن وفق للذكر فقد أعطي مرسومها، ومن سلب الذكر فقد عزل.

وقال أبو القاسم القشيري: الذكر عنوان الولاية ومنار الوصلة وتحقيق الإرادة وعلامة صحة الولاية، فليس وراء الذكر شيء، وجميع الخصال المحمودة راجعة إلى الذكر، ومنشأها عنه.

وروى الطبراني: «من لم يذكر الله فقد برئ من الإيمان[3]». **وفي رواية له:** «من لم يكثر ذكر الله فقد برئ من الإيمان».

وروي أيضا أن رجلا قال: «يا رسول الله؛ أي المجاهدين أعظم أجرا؟ قال: أكثرهم لله ذكرا. قال: فأي الصالحين أعظم أجرا؟ قال: «أكثرهم لله ذكرا، ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصوم والصدقة، كل ذلك ورسول الله ﷺ يقول: أكثرهم لله ذكرا.

([1]) انظر تنبيه المغترين: (93).

([2]) انظر الرسالة القشيرية: (226).

([3]) أخرجه في المعجم الكبير: (18206).



فقال أبو بكر لعمر: يا أبا حفص، ذهب الذاكرون بكل خير فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أجل»[1].

وقال ابن أبي الدنيا وغيره: إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم فإذا ذكر الله خنس، وإن نسي التقم قلبه. **والأخبار في فضل الذكر والحث عليه أكثر من أن تحصى. وكذا الآثار.**

قال أبو علي الدقاق: الذكر ركن قوي في طريق الله بل هو العمدة في هذه الطريق، ولا يوصل إلى الله إلا بالذكر.

وقال أهل الطريقة: لا يصل أحد إلى الله إلا بدوام الذكر، ولا يدوم الذكر إلا بالقلب. ولا يصل الذكر بالقلب إلا بشرط الدوام والإكثار منه باللسان، فإذا استولى الذكر باللسان على القلب رسخ فيه ولازمه ملازمة لا انفكاك له عنه، حتى لو سكت اللسان لأحس صاحبه بباطنه يلهج به.

وقال ذو النون[2]: من ذكر الله حفظه من كل شيء. وقال: ذكر الله بالقلب سيف المريدين به يقاتلون أعداءهم، وبه يدفعون الآفات التي تطرقهم.

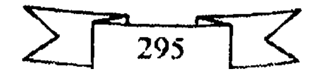
وقال سهل: لا أعرف معصية أقبح من نسيان هذا الرب. وإذا تمكن الذكر من القلب ثم دنا منه الشيطان صرع، فتجتمع عليه إخوانه فيقولون مالهذا؟ فيقال: قد مسه الإنس.وقال: لكل شيء عقوبة وعقوبة العارف انقطاعه عن الذكر.

وقال أبو سليمان الداراني: إن في الجنة قيعانا، فإذا أخذ الذاكرون في الذكر أخذت الملائكة في غرس الأشجار، فربما يقف بعض الملائكة فيقال له: لم وقفت فيقول: فتر

---

[1]- أخرجه أحمد برقم (15652). والطبراني (186/20) عن معاذ بن أنس.

([2]) هو ثوبان بن إبراهيم الاخميمي المصري، أبو الفياض، أو أبو الفيض: أحد الزهاد العباد المشهورين. من أهل مصر. نوبي الأصل من الموالي. كانت له فصاحة وحكمة وشعر. وهو أول من تكلم بمصر في (ترتيب الاحوال ومقامات أهل الولاية) فأنكر عليه عبد الله بن عبد الحكم. واتهمه المتوكل العباسي بالزندقة، فاستحضره إليه وسمع كلامه. ثم أطلقه، فعاد إلى مصر. وتوفي بجيزتها 245هـ. انظر الوفيات: (101/1).



صاحبي. **وقال الحكيم الترمذي**[1]: ذكر الله يرطب القلب ويلينه،فإذا خلا عن الذكر أصابته حرارة النفس ونار الشهوات، فقسى ويبس، وامتنعت الأعضاء عن الطاعة. **وقال أبو مدين التلمساني**: أقرب رحلة تكون للمريد الذكر. **وقال أيضا**: من دامت أذكاره صفت أسراره، ومن صفت أسراره كان في حضرة الله قراره. **وقال عون بن عبد الله بن عتبة**[2]: مجالس الذكر شفاء القلوب، وذكر الله صفاؤها. ولولا من يذكر الله تعالى في غفلة الناس هلك الناس. **وقال**: لو يأتي على الناس ساعة لا يذكر الله تعالى فيها: هلك من في الأرض جميعا. **وقال أبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود**[3]: لو أن رجلا جلس في الطريق ومعه دنانير لا يمر عليه أحد إلا أعطاه دينارا، وآخر إلى جنبه يكبر الله تعالى، كان صاحب التكبير أعظم أجرا. **وقال ثابت البناني**: لو أن أهل الذكر يجلسون إلى ذكر الله وعليهم من الآثام أمثال الجبال فإذا ذكروا الله تعالى يقومون من مجلسهم بعد الذكر عطلاء من الذنوب ما عليهم منها شيء. **وقال الشبلي**[4]: كل من تساهل بالغفلة ولم تكن أشد عليه من ضرب السيوف، فهو كاذب لا يجيء منه شيء في الطريق. **وقال الشاذلي**: إذا ترك العارف الذكر نفسا أو نفسين قيض الله له شيطانا فهو له قرين، وأما غير العارف فيسامح بمثل ذلك. ولا يؤخذ إلا في مثل درجة أو درجتين، أو زمن أو زمنين، أو ساعة أو ساعتين، على حسب المراتب. **وقال**: من نسي الله فقد كفر به **كما ثبت في الخبر. قال**: وهذا النسيان يطلق على نسيانه غفلة، وعلى الإعراض عن الحق

---

[1]- هو محمد بن علي بن الحسن بن بشر، أبو عبد الله الحكيم الترمذي، باحث صوفي عالم بالحديث وأصول الدين، من أهل الترمذ نفي منها بسبب مخالفته لمذهبهم في التصوف، كان يقول: للأولياء خاتم كما أن للأنبياء خاتما، ثم انتهى إلى بلخ فرحبوا به لموافقته إياهم، وسلم من المضايقات بسبب تصانيفه (ت320هـ) من تصانيفه نوادر الأصول في أحاديث الرسول، وكتاب الفروق وأدب النفس وهي عديدة وأخباره لا تسعه الهوامش. انظر الزيادة والتكميل طبقات السبكي (20/2)، لسان الميزان لابن حجر (308/5)

[2]- هو عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي، خطيب، راوية، ناسب، شاعر، كان يسكن الكوفة واشتهر بالعبادة والقراءة وصحب عمر بن عبد العزيز في خلافته (ت115هـ). انظر حلية الأولياء (240/4)، تهذيب التهذيب (171/8)، طبقات الشعراني (42/1).

[3]- هو أبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود، مشهور بكنيته، كوفي، ثقة. تقريب التهذيب (ص578).

[4]- تقدمت ترجمته.

وطريقه، وكلاهما مذموم.

وقال الشيخ أفضل الدين: لو كشف لأحدنا لرأى إبليس يركبه كما يركب أحدنا الدابة، ويصرفه كيف شاء طول الليل والنهار، كلما غفل ويترل عنه كلما ذكر.

قال ابن عربي: إذا غفل المريد عن الذكر نفسا واحدا صار الشيطان قرينه، فإنه بالمرصاد لمن أقبل على الله تعالى، يقف تجاه قلبه، فمتى دخلت الغفلة عليه دخل وإن دخل الذكر خرج. وإن كان الشيطان يدنّس القلب بدخوله مرة بالنهار. فكيف بقلب باض فيه وأفرخ. **انتهى. قاله المناوي.**

وأجمع القوم على أن الذكر مفتاح الغيب وجاذب الخير، وأنيس المتوحشين، وجامع لشتات صاحبه، وإن البلاء إذا نزل على قوم وفيهم ذاكر حاد عنه البلاء. وأجمعوا أيضا على أن فوائده لا تنحصر؛ لأن الذاكر يعني الحاضر بقلبه في ذكره يصير جليس الحق تعالى وحضرة الحق تعالى لا يرد عليها أحد ويفارقها من غير مدد، فمن لم يحضر في ذكره يتخذ شيخا يزيل عنه الموانع عن الحضور، فإن لم يجد شيخا يكثر من ذكر الله تعالى باللفظ حتى يصير يحضر في ذكره مع ربه.

فوائد

الفائدة الأولى: الأكمل في الذكر أن يكون مع الحضور. وإلا: فلا يترك لذلك، لأن بذكر اللسان يصل إلى استدامة ذكر القلب.

قال في الحكم: لا تترك الذكر لعدم حضورك مع الله فيه فإن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك في وجود ذكره[1]. **زروق:** لأنه بساط للحضور فيه بالتكرار. ولأن وجوده معين على صورته، فهو مهيّئ لتيسير أمثاله، إذ يألف الحسن، فإذا آن وقت الحضور وجدت النفس مهيَّئَةً له قبلُ، ومن ثم حصل الفتح في أقرب مدة لذوي البدايات المخدمة؛ كابن أدهم ومن في معناه، إذ لم يكن عليهم في الخدمة كبير كلفة الاعتياد النفس به في محل آخر، فلم يحتاجوا لغير تحويل النية, **ولذاك قيل:** وجود العمل مع الرياء خير من فقده لخوفه، ولأن الترك بالكلية غفلة بالكل والحضور بالجارحة خضور ما. **ولأن فيه أيضا ثلاث فوائد:**

ـــ اشتغال الجارحة عما لا يعنى بما صورته تعنى.

ـــ وتزين الجارحة بالطاعات التي لا خلف لها منها إن تركتها في حال من الأحوال.

ـــ والتعرض لنفحات الله؛ إذ الذي من بالأول هو المنان بغيره، ولا يخيب عليه عمل عامل[2].

قيل لبعضهم: مالنا نذكر الله باللسان والقلب غافل؟ فقال: أشكروا الله على ما وفق من ذكر اللسان ولو أجرى مكانه الغيبة ما ذا كنت تصنع؟ والله أكرم من أن يحضر العبد بلسانه، ثم لا يمن عليه بحضور قلبه. وأيضا: إنما تثبت الأعمال والأحوال في القلب بوجود الذكر بالقلب واللسان والجوارح، فإن فاتك واحد فلا يفوتك اثنان، وإن فاتك اثنان فلا يفتك الثالث بل اذكر مولاك الله على كل حال.

([1]) انظر شرح الحكم للأزهري: (55/1).

([2]) انظر شرح زروق على الحكم: (70).

قال المناوي: عن بعض الأكابر: لا تحصُل لأحد القدرة في الذكر وغيره على دوام شهوده أنه في الحضرة، إلا بعد إدمانٍ لتقلب النفس من صاحبها في تلك الحضرة، وسرعة خروجها بإسدال الحجاب سيما الملطَّخة بالأقذار، فهو وإن أكره نفسه على المكث فيها شيئا فشيئا من ثانية إلى دقيقة إلى عشر درجة، إلى خمسها، إلى ربعها، إلى نصفها، وهكذا بالتدريج إلى ساعة فساعتين، إلى يوم كامل ثم جمعة ثم شهر، ثم سنة، وهكذا حتى لا يخرج من الحضرة؛ لأنه لا يجد مكانا في الوجودُ إلا وهو فيها. **وقد قال التستري لي:** منذ ثلاث سنين أكلِّم الله والناس يظنون أني أكلمهم. **انتهى.**

وقال بعضهم: أقرب الطرق إلى دخول حضرة الله: ذكر الله: لأن الاسم لا يفارق مسماه. فلا يزال الذاكر يذكر والحُجُبَ تتمزَّق شيئا فشيئا، حتى يقع الشهود القلبي، وحينئذ يستغني عن الذكر بمشاهدة المذكور.

ومرادهم بحضرة الله حيث أطلقت: انكشاف الحجاب فتدخلها وأنت قاعد مكانك.

الفائدة الثانية: قال في شرح شهية السماع: لا يقرِّب الله تعالى عبدا إلى حضرته إلا أن يستحيي منه حق الحياء، ولا يصح له ذلك إلا إن حصل له الكشف ورفع الحُجُب، ولا يصح له ذلك إلا بملازمة الذكر. ولا يصلح مقام الإخلاص الكامل وهو شهود الأعمال أنها خلق الله تعالى إلا بمداومة الذكر، ولا تخمد الأمراض الباطنة إلا به، ولا تنقطع الخواطر الشيطانية إلا به، ولا تضعف الخواطر النفسانية إلا به. وبمداومته يزول الهم والغم في الدنيا، فإنهما بقدر الغفلة عن الله فلا يلومن العبد إلا نفسه إذا ترادفت عليه الهموم والغموم، فإن ذلك إنما هو جزاء بقدر إعراضه عن ربه، فمن أراد دوام السرور فليداوم على الذكر، وقد يقنع بعض المغرورين بمجلس الذكر صباحا ومساء مع الغفلة عن الله فيما بينهما وذلك لا ينجع بالسالك إلى منازل القوم، وربما **يحتج بحديث:** «إذا ذكر العبد ربه ساعة أول النهار وآخر النهار ساعة غفر له ما بينهما»، والمغفرة لا ترقى

فيها. وغايتها أن تُلْحِقَ المُذْنبَ بمن لا يذنب ذلك الذنب. لأنها لا تلحقه بمن فعل الطاعات فافهمْ. ومراد القوم: دوام الترقي مع الأنفاس في المقامات، وذلك بدوام ذكر الله ثم إنهم لا يرون أنهم قاموا بذرة واحدة من واجب حق الله تعالى[1].

الفائدة الثالثة: قال الشيخ أبو عبد الله الساحلي: اعلم أن الإنسان مطلوب بطهارة نفسه وتزكيتها. وطرق التزكية: -وإن كثرت- فطريق الذكر أسرع نفعا، وأقرب مراما، وعليه درج أكثر مشايخ التربية. **ثم قال:** والذكر ضد النسيان. والمراد منه عمارة الباطن بالله تعالى في كل زمان، ومع كل حال؛ لأن الذكر يدل على المذكور لا محالة، فذكره ديدنا يوجب المحبة والمعرفة. والذكر -وإن اختلفت ألفاظه ومعانيه- فلكل معنى من معانيه اختصاص بنوع من التحلية والتزكية. **ثم قال: والذكر على قسمين:**

ذكر العامة: وهو أن يذكر العبد مولاه بما شاء من الأذكار لا يقصد غير الأجور والثواب.

وذكر الخاصة: وهو أن يذكر بأذكار معلومة على صفة مخصوصة لينال بذلك المعرفة بالله سبحانه بطهارة نفسه من كل خلق ذميم. **قاله الثعالبي عند قوله تعالى في الأنفال:** ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[2].

الفائدة الرابعة: ما اعتادته الصوفية من عقد حِلَقِ الذكر والجهر به، ورفع الصوت بالتهليل، ليس بمكروه **كما قاله السيوطي؛** للأحاديث الواردة بالجهر بالذكر تصريحا والتزاما. وقد ورد أيضا في الحديث استحباب السر به **كحديث:** «خير الذكر الخفي

---

[1]- شرح شهية السماع(ص90) مخطوط في الزاوية. وينظر كلامه في الذكر ابتداء من ص 69 فأكثر ما هنا يوجد فيها.

[2]- انظر الجواهر الحسان للثعالبي: (82/2).

وخير الرزق ما يكفي»[1]. والجمع بينهما: أن ذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص.

النووي: الجمع بينهما أن الإسرار أفضل حيث خاف الرياء، أو تأذى به مصل أو نائم والجهر أفضل من غير ذلك؛ لأن العمل فيه أكثر، ولأن فائدته تتعدى إلى السامعين، ويوقظ قلب الذاكر، ويجمع همه إلى الفكر ويصرف سمعه إليه، ويطرد النوم ويزيد في النشاط، وهو نظير معارضة الجهر بالقرآن لحديث السر فيه وقد ورد في الأحاديث مايدل على الجهر بذلك؛ إما صريحا أو التزاما. **ففي الحديث:** «ما مِن قوم يذكرون الله إلا حفت بهم الملائكة وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله في من عنده»[2]. **وفيه:** «أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير منه»[3]. **وفيه:** «أيها الناس إن لله سرايا من الملائكة تحل وتقف على مجالس الذكر، فاغدوا وروحوا في ذكر الله»[4]. **وفيه:** أنه ﷺ خرج على حلقة من أصحابه فقال: «ما يجلسكم؟ قالوا جلسنا نذكر الله ونحمده، فقال: أتاني جبريل فأخبرني أن الله تعالى يباهي بكم الملائكة»[5]. **وفيه:** «أكثروا ذكر الله حتى يقولوا مجنون»[6]. **وفي حديث آخر:** «حتى يقول المنافقون إنكم مراءون». ووجه الدلالة من هذا والذي قبله: أنه إنما يقال هذا عند الجهر دون الإسرار. **وفيه:** «يقول الله تعالى يوم القيامة: سيعلم أهل الجمع اليوم من أهل الكرم فقيل: ومن أهل الكرم يا رسول الله؟ قال مجالس الذكر»[7]. **وعن ابن عباس:** المؤمن إذا مات بكى عليه من الأرض الموضع الذي كان يصلي عليه، ويذكر الله فيه. قال تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾. **وعن**

---

[1] - أخرجه احمد برقم: (1477) عن سعد بن أبي وقاص. والبيهقي في شعب الإيمان (406/1). وينظر كذلك الجهر بالذكر والكلام فيه في شرح شهية السماع.

[2] - أخرجه الترمذي برقم (3348) عن أبي هريرة وقال حسن صحيح. وابن ماجه برقم (3791)

[3] - أخرجه البخاري في كتاب التوحيد برقم: (7405) عن أبي هريرة.

[4] - أخرجه الحاكم برقم (1820) وقال صحيح الإسناد. والطبراني في الأوسط (1367) برقم (2501) عن جابر بن عبد الله.

[5] -أخرجه ابن أبي شيبة (59/6 ، رقم 29469) ، وأحمد (92/4 ، رقم 16881) ، ومسلم (2075/4 ، رقم 2701)

[6] - أورده في الجامع الصغير (الفتح الكبير) (212/1) وعزاه لأحمد في مسنده والحاكم وابن حبان والبيهقي عن أبي سعيد.

[7] - أورده في الدر المنثور (95/5) قال أخرجه أحمد وأبو يعلى وابن حبان عن أبي سعيدعن رسول الله ﷺ.

أبي عبيد قال: إن المؤمن إذا مات تنادي بقاع الأرض: "عبد الله المؤمن مات" فتبكي عليه الأرض والسماء فيقول الرحمن: ما يبكيكما على عبدي؟ فيقولان: لم يمش فينا إلا وهو يذكر الله. ووجه الدلالة من هذا أن سماع الأرض والجبال للذكر لا يكون إلا عن الجهر به. **وفيه:** «مر ﷺ برجل في المسجد يرفع صوته، قيل: يا رسول الله عسى أن يكون مرائيا؟ قال: لا، ولكنه أواهٌ»[1]. **وفيه:** «جاءني جبريل فقال: مُر أصحابك أن يرفعوا أصواتهم بالتلبية[2]» وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ **قال الصوفية:** إن الآية خاصة بالنبي ﷺ وأما غيره ممن هو محل الوسواس والخواطر الرديئة، فمأمور بالجهر؛ لأنه أشد تأثيرا في دفعها **ويؤيده حديث معاذ:** «من صلى منكم بالليل فليجهر بقراءته فإن الملائكة تصلي بصلاته، وتسمع لقراءته[3]...» **الحديث. وما نقل عن ابن مسعود أنه قال:** لقوم وجدهم يذكرون الله جماعة: لقد جئتم ببدعة ظلما، ولقد فقتم أصحاب محمد علما. وأنه رأى قوما يهللون برفع الصوت في المسجد: فهذا على تقدير ثبوته معارَض بالأحاديث الكثيرة الثابتة المقدَّمة عليه عند التعارض. أو أنه لم يبلغه حديث الترغيب فيها، أو أنه أنكر الهيئة ونحوها، وإلا فلا يصح إنكاره لهذا الوجه بعد صحة الحديث. **وعن الإمام أحمد:** ما ينقض إنكار ذلك عن ابن مسعود، **فإنه قال:** حدثنا حسين بن محمد حدثنا المسعود عن عامر بن شقيق عن أبي وائل قال: هؤلاء الذين يزعمون أن عبد الله كان ينهى عن الذكر؛ ما جالست عبد الله مجلسا قط إلا ذكر الله فيه.

قال السيوطي: وقال زروق: الجمع للذكر والدعاء والتلاوة أخص من الجمع فيها لكونه مقصودا بخلاف الأول، فإنه أعم من ذلك فلزم طلب دليل يخصه؛ فأما الجمع للذكر: **ففي حديث أبي هريرة:** «إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون حلق

([1]) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان: (576) عن زيد بن أسلم.

([2]) الترمذى (191/3 ، رقم 829) وقال : حسن صحيح . والنسائى فى الكبرى (رقم 3734) ، وابن ماجه (975/2 ، رقم 2922).

([3]) أخرجه البزار في مسنده: (2655).

الذكر[1]..» إلخ **الحديث**. **وفي آخره**: «فيسألهم ربهم ما يقول عبادي؟ فيقولون: يسبحونك ويهللونك ويحمدونك ويكبرونك ويمجدونك...» **إلخ الحديث**. وهو صريح في ندب الجمع لعين الذكر للترغيب في سياقه وما وقع في آخره من أن فيهم من ليس منهم **فإن قيل**: يجتمعون وكلٌ على ذكره، **فالجواب**: إن كان سرا فجدواه غير ظاهر، وإن كان جهرا وكُلٌ على ذكره؛ فلا يخفى ما فيه من إساءة الأدب بالتخليط وغيره مما لا يسوغ في حديث الناس، فضلا عن ذكر الله، فلزم جوازُه بل ندبه. **ثم قال**: والجمع لذلك قد صح ندبه بالأحاديث المتقدمة فلا يصح دفع أصل حكمه، وإن أوثر عليه غيره فلأفضلية الغير عليه؛ كالذكر الخفي، وما يتعدى نفعه من العبادات؛ كالعلم والجهاد والتكسب على العيال إلى غير ذلك مما كان اعتناء الصحابة به, وشغلهم فيه، حتى شغلهم عن الاجتماع للذكر والتفرغ له من غير ضميمة شيء من ذلك إليه ألا تراهم عند إمكانه مع ما هم فيه استعملوه؛ كالأسفار والأعياد وأدبار الصلوات ونحو ذلك.

وأما التلاوة: **فصحح النووي وغيره**: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يقرءون القرآن ويتدارسونه إلا حفت بهم الملائكة[2]...» **الحديث**. كما في الذكر. وأخذوا منه جواز قراءة الحزب الذي يقرأ في المساجد. كل ذلك على أصل مذهب الشافعي. وأما مالك فمذهبه في كل ذلك الكراهة لعدم عمل السلف ولسد ذريعة الابتداع بالزيادة على ذلك والخروج فيه لغير الحق، وقد وقع ما اتقاه ﷺ.[3]

وقال ابن عباد: الحزب من روائح الدين التي يجب التمسك بها لذهاب حقائق الديانات في هذه الأزمنة، وإن كان بدعة، فهو مما اختلف فيه وغاية القول فيه الكراهة. فصح العمل به على قول من يقول به. قلت: وقد يُلحق الذكر في بعض الأماكن والأوقات بشرطه، ولعل الشارع إنما قصد بترغيبه من بعد الصدر الأول لاحتياجهم له.

([1]) أخرجه أحمد (382/2 ، رقم 8960) ، والبخارى (2353/5 ، رقم 6045) ، ومسلم (2069/4 ، رقم 2689)

([2]) أخرجه مسلم (2074/4 ، رقم 2700) ، والترمذى (459/5 ، رقم 3378) وقال : حسن صحيح .

([3]) انظر القواعد الصوفية (ص: 116-117- 118 – 119 – 120 -122)

وشروط الذكر التي تتعين عند الجمع ثلاثة:

أولها: خلو الوقت من واجب أو مندوب إذا كان يلزم من عمله الإخلال بذلك الواجب؛ كأن يسهر فينام عن الصلاة أو يتثاقل فيها أو يفرط في وِرده، أو يضر بأهله، إلى غير ذلك.

الثاني: خلوه عن محرم أو مكروه يقترن به: كإسماع النساء أو حضورهن أو من يتقى من الأحداث، أو قصد طعام لا قربة فيه، أو داخلته شبهة ولو قلت، أو فراش محرم كحرير ونحوه، أو ذكر مساوئ الناس، أو الاشتغال بالأراجيف. إلى غير ذلك.

الثالث: التزام أدب الذكر من كونه شرعيا، أو معناه بحيث يكون بما صح واتضح، وذكره على وجه السكينة. وإن مع قيام مرة وقعود أخرى، لا مع رقص وصياح ونحوه فإنه من فعل المجانين كما أشار إليه مالك رحمه الله لما سئل عنهم فقال: أمجانين هم؟ وغاية كلامه الاستقباح بوجه يكون المنع أحرى.[1]

الفائدة الخامسة: "الأولى" قال الغزالي في جواهر القرآن: اعلم أنه قد انكشف لأرباب البصائر أن الذكر أفضل الأعمال، **ولكن له قشور ثلاثة** بعضها أقرب إلى اللب من بعض، ولها لب وراء القشور الثلاث، وإنما فضل القشور لكونها طريقا إليه، **فالقشر الأعلى منه:** ذكر اللسان فقط. **والثاني:** ذكر القلب إذا كان القلب يحتاج إلى مراقبة حتى يحضر مع الذكر، ولو تركه وطبعه لاسترسل في أودية الأفكار.

والثالث: أن يتمكن الذكر من القلب بحيث يحتاج إلى تكلف في صرفه عنه إلى غيره، كما احتاج الثاني إلى تكلف في قراره معه ودوامه معه.

الرابع: وهو اللباب المطلوب؛ وذلك بأن لا يلتفت القلب إلى الذكر ولا إلى القلب بل يستغرق المذكور جملته، ومهما ظهر له في أثناء ذلك التفات إلى الذكر فذلك حجاب

---

[1]- انظر القواعد الصوفية لزروق (ص:94) القاعدة 121.

شاغل، وهذه الحالة هي التي يعبر عنها العارفون بالفناء، وذلك بأن يفني عن نفسه حتى لا يحس بشيء من ظاهر جوارحه، ولا من الأشياء الخارجة عنه، ولا من العوارض الباطنة، بل يغيب عن جميع ذلك ويغيب عنه جميع ذلك ذاهبا إلى ربه أولا، ثم ذاهب فيه آخر. وإن ظهر له في أثناء ذلك أنه فنى عن نفسه بالكلية؛ فذلك شوب وكدورة، بل الكمال فيه: أن يفني عن نفسه ويفني عن الفناء أيضا، والفناء عن الفناء غاية الفناء. وهذا قد يظنه الفقيه الرسمي أنه طاقات غير معقولة وليس كذلك بل هذه الحالة لهم بالإضافة إلى محبوبهم؛ كحالتك في أكثر أحوالك بالإضافة إلى محبوبك؛ من جاه أو مال، أو معشوق، فإنك تكون مستغرقا من شدة الغضب بالفكر في عدوك، ولشدة شهوتك بالفكر في معشوقك، حتى لا يكون قلبك مستعملا لشيء أصلا، فتخاطب فلا تفهم، ويجتاز غيرك بين يديك فلا تراه، وعيناك مفتوحتان، ويتكلم عندك فلا تسمع، ولا بأذنك صمم، وأنت في الاستغراق غافل عن كل شيء وعن الاستغراق أيضا، لأن الملتفت إلى الاستغراق معرض عن المستغرق به إلى أن قال: فقد أفهمناك ما أرادوه بالفناء فدع عنك الغيبة والتكذيب بما لم تحط به قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾. وقال: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾. ثم إن الفناء والاستغراق يكون أولا كالبرق الخاطف قلما يثبت ويدوم، فإن دام ذلك وصار عادة راسخة، وهيئة ثابتة عرج به إلى العالم الأعلى، وطالع الوجود الحقيقي الأصفى، وانطبع فيه نفس الملكوت، وتجلى له قدس اللاهوت.

وأول ما يتمثل له من ذلك العالم جواهر الملائكة وأرواح الأنبياء والأولياء في صورة جميلة، يفضي إليه بواسطتها بعض الحقائق، وذلك في البداية إلى أن تعلو درجته عن المثال، ويكافح بصريح الحق في كل شيء. فإذا رد إلى هذا العالم المجازي الذي هو كالظلال، نظر إلى الخلق مترحما عليهم لحرمانهم من مطالعة جمال حضرة القدس، ويتعجب في انخداعهم بعالم الغرور، فيكون معهم حاضرا شخصه غائبا بقلبه متعجبا هو من حضورهم ويتعجبون هم من غيبته.

وهذه ثمرة لباب الذكر. وإنما مبدؤها ذكر اللسان، ثم ذكر القلب مكلفا، ثم ذكر القلب طوعا ثم استيلاء المذكور وانمحاء الذكر، وما دام القلب يشعر بالذكر، ويلتفت إليه فهو معرض عن الله، وغير منفك عن شرك خفي حتى يصير مستغرقا بالواحد الحق. فذلك هو التوحيد.

وكذلك القول في المعرفة فمن طلب المعرفة بالمعرفة فقد قال بالثاني. ومن وجدها وكأنه لا يجدها بل يجد المعروف بها فهو الذي استكمل حقيقة الوصال ووصل بحبوحة حضرة القدس. انتهى[1].

الفائدة السادسة: قال القاضي عياض: ذكر الله تعالى ضربان: ذكر بالقلب وذكر باللسان. **وذكر القلب نوعان: أحدهما:** وهو أرفع الأذكار وأجلها وهو الفكر في عظمة الله تعالى وجلاله وجبروته وملكوته، وآياته في سمواته وأرضه. **ومنه الحديث:** «خير الذكر: الخفي[2]». والمراد به: هذا. **والثاني:** ذكر القلب عند الأمر والنهي فيمتثل ما أمر به ويترك ما نهى عنه، ويقف فيما أشكل عليه، وأما ذكر اللسان مجردا فهو أضعف الأذكار ولكن فيه فضيلة عظيمة كما جاءت به الأحاديث. **قال: وذكر محمد بن جرير الطبري وغيره:** اختلاف السلف في ذكر القلب واللسان أيهما أفضل؟. **قال القاضي:** والخلاف عندي إنما يتصور في مجرد ذكر القلب تسبيحا وتهليلا وشبههما، ويدل عليه كلامهم لا أنهم مختلفون في الذكر الخفي الذي ذكرناه أولا فذلك لا يقاربه ذكر اللسان، فكيف يفاضله؟ وإنما الخلاف في ذكر القلب بالتسبيح المجرد ونحوه، والمراد به بذكر اللسان مع حضور القلب فإن كان لاهيا فلا. واحتج من رجح ذكر القلب بأن عمل السر أفضل. ومن رجح ذكر اللسان بأن العمل فيه أكثر فإنه زاد باستعمال اللسان

---

(1) لم أجد هذه الإحالة في جواهر القرآن للغزالي.

2 أخرجه أحمد (172/1 ، رقم 1477)

فاقتضى زيادته أجرا. **قال القاضي**[1]: واختلفوا هل تكتب الملائكة ذكر القلب فقيل: تكتبه وتجعل لهم علامة يعرفونه بها. وقيل: لا تكتبه لأنه لا يطلع عليه إلا علام الغيوب. انتهى.

قلت: وسمعت من شيخنا العارف بالله محمد بن الترجمان[2]: أن علامة الحسنة: رائحة طيبة يشمها الملك وعلامة السيئة: ريح خبيثة يشمها الملك أيضا. ولا يعلمون خصوص الحسنة ما هي، وكذا السيئة. **انتهى من حاشية الأجهوري على الرسالة عند قوله: "والذكر أفضل الأعمال"**.

واختلفوا أيضا في الفكر والذكر اللساني المجرد أيهما أفضل؟ وأما الذكر النفساني فقال الدقاق: أنه أتم من الفكر لأنه تعال يوصف بالذكر لا بالفكر. وذهب بعضهم إلى تفضيل الذكر مطلقا لأنه لو مات في الذكر مات في حضرة المذكور. أو مات بالفكر مات في حضرة الأكوان. **قال بعضهم**: والحق أن الحكم يختلف باختلاف الأحوال ومراتب الرجال. **صح من الدرر الجوهرية.**

الفائدة السابعة: من أفضل الذكر: الصلاة على النبي ﷺ؛ لأن ذكر الله تعالى يستلزم ذكره عليه الصلاة والسلام، إذ هو دليل ذلك الذكر ومنه عرف ولا اعتداد به إلا من جهة الاعتداد به. وقد ورد في فضل الصلاة والسلام عليه ﷺ أحديث كثيرة تحتاج إلى ديوان مستقل، وفي الغفلة عنها رائحة الجفاء. **ففي الحديث**: «من نسي الصلاة علي أخطأ طريق الجنة[3]».

وروى الطبراني: «من صلى علي صلاة واحدة صلى الله عليه عشرا. ومن صلى

---

(1) لعله القاضي عياض الآنف الذكر.

2_ هو محمد بن الحسين بن علي بن الترجمان، أبو الحسين العزي، شيخ الصوفية بديار مصر في وقته، حدث بمصر والشام. (ت 448هـ) الوافي بالوفيات: (307/1).

(3) أخرجه ابن ماجه: (908) عن ابن عباس.

علي عشرا صلى الله عليه مائة. ومن صلى علي مائة كتب الله له بين عينيه براءة من النفاق وبراءة من النار وأسكنه يوم القيامة مع الشهداء[1]» وقالوا: ينبغي لمن فاته كثرة الصيام والقيام أن يشتغل بها **فإنك لو فعلت كل طاعة في عمرك، ثم صلى الله عليك صلاة واحدة** رجحت تلك الصلاة الواحدة جميع ما فعلت في عمرك من الطاعات، لأنك تصلي على قدر وسعك، وهو يصلي على حسب ربوبيته. هذا إذا كانت صلاة واحدة، فكيف إذا صلى عليك عشرا بكل صلاة **كما جاء في الحديث الصحيح**.

قال بعضهم: الصلاة على النبي ﷺ سلم ومعراج وسلوك إلى الله تعالى إذا لم يلق الطالب شيخا مرشدا[2].

وقال سيدي زروق: نورانية الأذكار محرقة لأوصاف العبد، ومثيرة لحرارة طبعه بانحراف النفس عن طبعها، فلذا أمر بالصلاة على النبي ﷺ معها؛ لأنها كالماء للنار تقوي النفس وتذهب وهج الطباع وسر ذلك في السجود لآدم عند قولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ ولذا أمر المشائخ بالصلاة عليه ﷺ عند غلبة الوجد. والذوق لذلك شاهد. وقد أشار إليه الصديق رضي الله عنه إذ قال: الصلاة على محمد ﷺ أمحق للذنوب من الماء البارد للنار...إلى آخر الأثر[3].

ونص في مفتاح الفلاح[4]: أن علامة الفتح: ثوران الحرارة في الباطن.[5] **انتهى.**

وفي شرح دلائل الخيرات: وفي الصلاة على النبي ﷺ من سر الاعتدال الجامع لكمال العبد وتكميله. ففيها ذكر الله ورسوله. فكذلك كانت المثابرة على الأذكار والدوام عليها يحصل به الانحراف ويكسب نورانية تحرق وهج الطباع، وتقوي النفوس؛ لأنها كالماء، فكانت تقوم مقام التربية أيضا من هذا الوجه. **انتهى.**

([1]) أخرجه الطبراني في الأوسط: (7235).

([2]) قواعد زروق ص: 86.

[3]- انظر القواعد (ص 87) القاعدة 115.

[4]- اسم كتاب لابن عطاء الله.

[5]- انظر القواعد (ص:87) القاعدة: 180.

وفي الحديث: «أربع من الجفاء: أن يبول الرجل وهو قائم، وأن يمسح جبهته قبل أن يفرغ من الصلاة، وأن يسمع النداء فلا يتشهد مثل ما يتشهد المؤذن، وإذا ذكرت عنده فلم يصل علي[1]».

واختلف في أفضل كيفيات الصلاة على النبي ﷺ، ومن جملتها: اللهم إني أشهدك وأشهد ملائكتك أني أصلي على محمد. **قاله السمرقندي.**[2]

ومن أنواع الذكر: لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ وهو أفضل الذكر، **كما ورد في الحديث**[3]. وهو دأب السالكين وعدة السائرين وتحفة السابقين. ومفتاح الجنة، ومفتاح العلوم والمعارف.

وفي الحديث: «إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد حقا من قلبه إلا حرمه الله على النار»[4]. **وفيه:** «جددوا إيمانكم. قيل: يا رسول الله كيف نجدد إيماننا؟ قال: أكثروا من قول لا إله إلا الله[5]». **رواه أحمد وغيره.**

وقال ابن مسعود: إن الله يعطي المال لمن يحب ولمن لا يحب ولا يعطي الإيمان إلا لمن يحب فمن ضن بالمال أن ينفقه، وخاف العدو أن يجاهده، وهاب الليل أن يكابده؛ فليكثر من قول: لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله. **وإذا سمع ابن مسعود سائلا يسأل ويقول:** ﴿من ذ الذي يقرض الله قرضا حسنا﴾ **يقول:** القرض الحسن: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر.

وفي الحديث: «من دخل السوق فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير. كتب الله

---

(1) أخرجه الديلمى (372/1 ، رقم 1501)

2- هو نصر بن محمد بن احمد بن ابراهيم السمرقندي، أبو الليث الملقب ب: إمام الهدى؛ علامة من أئمة الحنفية، ومن الزهاد المتصوفين، له تصانيف نفيسة منها: تفسير القرآن جزء غير كبير- عمدة العقائد – بستان العارفين وتنبيه الغافلين- فضائل رمضان وغيرها وهي كثيرة ومفيدة معتمدة. (ت373هـ). انظر الجواهر البهية (ص: 220) والجواهر المضيئة (196/2) الأعلام (348/8).

(3) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (90/4 ، رقم 4371) بلفظ: "أفْضَلُ الدُّعَاءِ لا إله إلا الله وأفضل الذكر الحمد لله"

4- أورده في الجامع الصغير (57/2) وعزاه لأحمد في مسنده والحاكم في المستدرك.

(5) أخرجه أحمد (359/2 ، رقم 8695)

له ألف ألف حسنة ومحا عنه ألف ألف سيئة، ورفع له ألف ألف درجة»[1].

وكان قتيبة يركب فيأتي السوق فيقول هذه الكلمات فينصرف. **قاله السمرقندي.**

وفي الحديث: «أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصا من قبل نفسه» [2]. **وفيه:** «من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة» فقيل: يا رسول الله؛ وما إخلاصها؟ قال: أن تحجزه عن محارم الله[3]». **انتهى من الثعالبي**[4].

وقال سهل: ليس لقول لا إله إلا الله ثواب إلا النظر إلى وجه الله الكريم. والجنة ثواب الأعمال.

وقيل: إن كلمة التوحيد إذا قالها الكافر تنفي عنه ظلمة الكفر. وتثبت في قلبه نور التوحيد، وإذا قالها المؤمن ذكر وإن قالها في كل يوم ألف مرة تنفي عنه شيئا لم تنفه في المرة الأولى.

وحكي: أنه إذا كان آخر الزمان فليس لشيء من الطاعات فضل كفضل لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ؛ لأن الصلاة والصوم يشوبهما الرياء والصدقة يشوبها الحرام، ولا إخلاص في شيء منها. وأما كلمة لا إله إلا الله فهي: ذكر الله. والمؤمن لا يذكرها إلا عن صميم قلبه.

وحكى الرازي أن رجلا كان واقفا بعرفات، وكان بيده سبعة أحجار فقال: أيتها الأحجار اشهدي لي أني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ﷺ، فنام فرأى في المنام كأن القيامة قد قامت وحوسب ذلك الرجل فوجبت له النار، فلما ساقوه إلى باب من أبواب جهنم جاء حجر من تلك الأحجار السبعة فألقى نفسه على ذلك الباب فاجتمعت ملائكة العذاب على دفعه فما قدروا، وسيق إلى باب آخر فكان من الأمر

---

[1]- أورده في الجامع الصغير (الفتح الكبير) (180/2) وعزاه لأحمد في مسنده والحاكم في المستدرك والترمذي برقم (3428) عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه عن جده وابن ماجه في سننه.

([2]) أخرجه البخارى (49/1 ، رقم 99) . وأخرجه أيضا : أحمد (373/2 ، رقم 8845)

([3]) أخرجه أيضًا : النسائى فى الكبرى (276/6 ، رقم 10964)

([4]) انظر الجواهر الحسان: (252/1).

كذلك. وهكذا إلى الأبواب السبعة، وسيق به إلى العرش فقال تعالى: عبدي: أشهدت هذه الأحجار فلم تضيع حقك وأنا شاهد على شهادتك على توحيدي أدخل الجنة. فلما قرب من أبواب الجنان فإذا أبوابها مغلقة فجاءت شهادة أن لا إله إلا الله وفتحت الأبواب. وسبعون منها تكون فداء من النار، وفضائلها كثيرة.

ومن أنواع الذكر: الاستغفار؛ **قال بعضهم**: من غفل عن الاستغفار نزل عليه البلاء وقتر عليه الرزق لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾

وفي الحديث: «من لزم الاستغفار جعل الله له في كل ضيق فرجا، ومن كل هم مخرجا ورزقه الله من حيث لا يحتسب[1]». ومن خطر له أنه مستغن عن الاستغفار في وقت من الأوقات فهو جاهل. ويتأكد على العبد كثرة الاستغفار كلما اعتقدَ الناسُ فيه الخيرَ، وهو في السر على خلاف ذلك، **وقال بعضهم**: ما دام للعبد سريرة يفتضح بها في الدنيا والآخرة لو كشف فاللائق به كثرة الاستغفار والخوف لتلبيسه على الناس فإذا تخلق بما ظنه الناس فيه كان له حكم آخر.

وفي سنن المهتدين: الاستغفار دأب العارفين بل هو مرقى خيرة الخلق من الأنبياء والمرسلين. وكان يعد له ﷺ في المجلس الواحد أكثر من مائة مرة. (**ربِّ أغفرْ لي وتُبْ عَلَيَّ**) وإذا كان ﷺ يؤمر بالاستغفار وهو معصوم فما الظن بغيره؟ والأكمل: الاستغفار بالقلب واللسان معا، وإلا فلا يترك لذلك، لأن الاستغفار باللسان فقط حسنة أيضا لأنه أفضل من حركة اللسان حينئذ بالغيبة، أو بالفضول بل من السكوت.

وقول رابعة: استغفارنا يحتاج إلى استغفار؛ أي من غفلة القلب لا من حركة اللسان بالاستغفار، فإن سكت عن الاستغفار باللسان أيضا: أحتاج إلى استغفارين؛ لا إلى استغفار واحد.

وقال مكحول: إذا كان في أمة خمسة عشر رجلا يستغفرون الله تعالى كل يوم خمسة وعشرين مرة؛ لم يؤاخذ الله تلك الأمة بعذاب العامة.

([1]) أخرجه أبو داود (85/2 ، رقم 1518) ، وابن ماجه (1254/2 ، رقم 3819)

وقال **أبو المهاجر بن قيس**[1]: لي نيف وأربعون ذنبا قد استغفرت عن كل ذنب منها مائة ألف مرة وما ثم إلا عفوه ومغفرته.

وقال **أبو الحسن الشاذلي**: أحصن الحصون من وقوع البلاء على المعاصي الاستغفار. **وقال ابن عيينة**: رأيت أخي في المنام فقلت ما فعل الله بك؟ فقال: كل ذنب استغفرت الله منه غفر لي، وما لم أستغفر منه لم يغفر لي. **انتهى من طبقات الأولياء**[(2)].

وقال إبراهيم بن أدهم: ما ألهم الله عبدا الاستغفار وهو يريد أن يعذبه. **وقال أبو العالية**: إني لأرجو أن لا يهلك عبد بين نعمتين: نعمة يحمد الله عليها، وذنب يستغفر الله منه. **وقال الربيع بن خثيم**: لا يقُل أحدكم أستغفر الله وأتوب إليه فيكون ذلك ذنبا وكذبا إن لم يفعل، ولكن ليقل: اللهم اغفر لي وتب علي؛ أي لأنه سؤال وضراعة ودعاء وتسميته كذبا لا يوافق عليه؛ لأن معنى: أستغفر الله وأتوب إليه: أي أطلب مغفرته وليس في هذا كذب. ويمكن أن يكون أيضا: أستغفر الله وأتوب إليه دعاء على صورة الخبر. فعلى هذا لا فرق بحسب المعنى بين: أستغفر الله وبين اللهم اغفر لي وتب علي. فقيل له: إن قول العبد: أستغفر الله ورَدَ في السنة. فقال: ذلك في حق الصديقين.

وقال الشيخ داوود بن ماخلاء: إذا أجنب العبد ألف جنابة كفاه غسل واحد وأباح له الدخول في الصلاة. وكذلك العبد إذا أجنب بالغفلة، ثم ذكر الله تعالى مرة واحدة واستغفره كان ذلك مطهرا له من تلك الجنابات ومبيحا له الدخول في الحضرات **قاله الشعراني**[(3)]. **ويأتي بعض فضائل الاستغفار إن شاء الله.**

ومن أفضل أنواع الذكر التسبيح: وقد ورد في فضله أحديث كثيرة **ففي الحديث**: «إن أحب الكلام إلى الله: سبحان الله وبحمده»[4]. وهذا محمول على كلام الآدميين. وإلا

---

[1]- لعله أبو المهاجر سالم بن عبد الجرزي، ويقال ابن أبي المهاجر مولى بني كلاب ثقة (ت161هـ) انظر تقريب التهذيب (ص167)

([2]) انظر طبقات الشعراني: (216/1).

([3]) انظر طبقات الشعراني: (205/1).

[4]- أخرجه مسلم كتاب الأدب برقم (5601) عن سمرة بن جندب.

فالكلام بالذكر أفضل من التسبيح والتهليل المطلق كما تقدم[1]. وأما المأثور في وقت أو حال فالاشتغال به أفضل. **وفيه**: «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم»[2]. **وفيه**: «من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة»[3]. **وعن شريح قال**: بلغني أنه لو قسم ثواب تسبيحة على جميع هذا الخلق لأصاب كل واحد منهم خير. **وفيه**: «من قال إذا أصبح: سبحان الله وبحمده ألف مرة فقد اشترى نفسه من الله وكان من آخر يومه عتيقا من النار[4]». **وروى ابن أبي حاتم[5] عن علي كرم الله وجهه قال**: سبحان الله كلمة أحبها الله لنفسه ورضيها وأحب أن تقال.

ومن الذكر: التكبير: **وفي الحديث** «إذا رأيتم الحريق فكبروا فإن التكبير يطفئه»[6]. **وفيه**: «من كبر تكبيرة عند غروب الشمس على ساحل البحر رافعا صوته أعطاه الله من الأجر بعدد كل قطرة في البحر عشر حسنات ومحا عنه عشر سيئات ورفع له عشر درجات بين الدرجتين مسيرة مائة عام بالفرس المسرع[7]». **انتهى من الأنوار المضيئة للثعالبي**.

---

[1]- وفي نسخة: وإلا فكلام الله أفضل من التسبيح والتهليل المطلق.

[2]- أخرجه البخاري كتاب التوحيد برقم (3563) عن أبي هريرة. ومسلم برقم (6846) عن أبي هريرة.

[3]- أخرجه الترمذي كتاب الدعوات برقم (3464) عن جابر. وقال أ[و عيسى هذا حديث حسن غريب صحيح لا نعرفه إلا من حديث ابن الزبير عن جابر.

([4]) أخرجه السيوطي في الدر المنثور: (592/11).

[5]- عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميم الحنظلي الرازي، حافظ للحديث له تصانيف منها: الجرح والتعديل ط 8 مرات والتفسير عدة مجلدات. علل الحديث ط. وغيرها (تـ327هـ) انظر تذكرة الحفاظ (46/3) وفات الوفيات (260/1).

[6]- أورده في الجامع الصغير (106/1) وعزاه لابن السني وابن عدي في الكامل وابن عساكر.

([7]) أخرجه الحاكم في المستدرك: (6484).

إعمار الوقت بالفكر

ثم قال: (وَ) أعمر أوقاتك أيضا **(بِالْفِكْرِ)** وهو استعمال القوة في طلب العلم من وجهه بطريقه؛ أي يتفكر في صنع الله تعالى لتحصل له المعرفة به، وفيما يقربه إلى الله تعالى؛ كالطاعات كيف يؤديها، وكيف يحرسها من النقصان والتقصير، أو كيف يجبرها بالنوافل إن كانت فرائض، وفيما يبعده منه كالذنوب فيتركها، ويفتش أعضاءه كل يوم هل هي متلبسة بها الآن فيتركها، أو لابسها بالأمس فيتداركها بالتوبة. أو هو متعرض لها فيستعد للاحتراز منها. وفي رحمة الله تعالى فيشمر للطاعات، وفي شدة عذابه فيترك المعاصي، وفي تعديد نعم الله تعالى عليه، وما سبق من حسن عمله فيشكر ذلك، وفي كيفية اكتساب الفضائل، وكيفية التحرز من آفات النفس ومكايد الشيطان وغرور الدنيا، فيستفيد بهذا كله أحوالا سنية يزول بها مرض قلبه، ويستعين بسببها على طاعة ربه، فلذا كان الفكر خيرا من الذكر؛ لأن فيه ذكرا وزيادة. وقيل: تفكر ساعة خير من عبادة سنة.

وقال ابن رشد: التفكر من أشرف الأعمال لأنه من أعمال القلوب التي هي أشرف من أعمال الجوارح؛ لأنه لا يثاب أحد على عمل من أعمال الجوارح إلا مع مشاركة القلوب لها بالإخلاص.

القاضي عياض: كان الشيخ محرز التونسي خاتمة صلحاء إفريقية أكثر عمله التفكر، إنما صلاته النافلة يصلي ركعتين ثم يجلس يتفكر ساعة أو ساعتين، ثم يركع ركعتين ثم يتفكر كذلك، يفعل ذلك عامة ليله ونهاره.

قال الثعالبي: ينبغي أن يفصل الحكم فيها بحسب ما يقع التفكر فيه فإن كان الفكر وسيلة في تحصيل واجب فهو واجب. **(وَبِالْعِلْمِ النَّافِعِ)** وقد تقدم **(وَالِاكْتِسَابِ)** بما لا بد منه **(بِنِيَّةِ الْخَيْرِ)** وهو ما يأتي في قوله: وللاحتياج عونا على الطاعة، وتعطفا على الناس وتعففا عنهم، ليسلموا منه ويسلم له دينه: خير وثواب

إيصال الخير وإدخال السرور إلى المسلم

(**وَإِيصَالِ خَيْرٍ**) إلى مسلم: من قضاء حاجة له، ونصيحة وإرشاد وتعليم وقضاء دين، وتفريج عن مكروب، وإغاثة ملهوف، وإطعام جائع، وسقي عطشان وكسوة عريان، وغير ذلك من وجوه الخير. (**أَوْ** إيصال (**سُرُورٍ إِلَى مُسْلِمٍ**) **لحديث**: «من أدخل على مسلم سرورا فقد سرني، ومن سرني فقد اتخذ عند الله عهدا، ومن اتخذ عند الله عهدا فلن تمسه النار أبدا[1]». **ولحديث**: «من أقر عين مؤمن أقر الله عينه يوم القيامة». **ولحديث**: «إن من أحب الأعمال إلى الله سبحانه إدخال السرور على المؤمن، وأن تفرج عنه هما أو تقضي عنه دينا، أو تطعمه من جوع[2]». **ولحديث**: «من أدخل على مؤمن سرورا خلق الله من ذلك السرور ملكا يدخل عليه في قبره ويؤنسه إلى يوم القيامة».

قال عبد الجليل[3]: لما كان السرور يطيب قلب المؤمن ويزيل همه، ويؤنسه كان الجزاء على ذلك في محل الوحشة موافقا لعمل العبد فيدخل عليه الملك في قبره في أحسن صورة؛ لأن السرور أحسن شيء وإدخال السرور على المؤمن أعظم الخيرات.

إخفاء الأعمال الصالحة

ولما كان أمر الرياء دقيقا صعبا جدا خاف أولو البصائر على أنفسهم؛ حتى أن منهم من لا يلتفت إلى جميع ما يظهر للناس من أعماله. أشار إلى ذلك بقوله: (**وَاجْعَلْ لَكَ خَبِيئَةَ وِرْدٍ**) أي ورد عمل يكون سرا بينك وبين الله تعالى تخبئه عن الناس، أي تخفيه وتستره عنهم، والخبيئة والخبيء والخبء بالفتح والكسر: ما خبئ وغاب وستر. **يقال:**

([1]) أخرجه الدارقطني في الأفراد ، وأبو الشيخ في الثواب عن ابن عباس. انظر جامع الأحاديث للسيوطي: (54431)

([2]) أخرجه الطبراني (71/11 ، رقم 11079) . وأخرجه أيضًا : الطبراني في الأوسط (45/8 ، رقم 7911)

[3]- عبد الجليل علم على عدة أعلام لا شيء يميز بينهم.

خَبَأَهُ كَمَنَعَهُ : سَتَرَهُ كَخَبَّأَهُ واختَبَأَهُ . وامْرَأَةٌ خُبَأَةٌ كَهُمَزَةٍ : لاَزِمَةٌ بَيْتَها. **قاله في القاموس**[1]. (**وَإِنْ قَلَّ لِيَنْفَعَكَ غَدًا**) **ورؤي بعض الصالحين في النوم فقيل له**: ما فعل الله بك؟ فقال: ما نفعنا إلاركيعات كنا نركعها في السحر.

ورؤي الجنيد بعد موته فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: طاحت تلك الإشارات ,وفنيت تلك العبارات، وما نفعنا إلا ركيعات كنا نركعها في السحر. **ورؤي أبو حنيفة** بعد موته فقيل له: ما فعل الله بك فقال: غفر لي، فقيل له بالعلم؟ فقال: هيهات إن للعلم شروطا وآفات قل من ينجو منها.

ورؤي أبو سهل الصعلوكي[2] **بعد موته فقيل له**: ما صنع علمك فقال: كل ما كان من دقائق العلوم وجدها هباء منثورا إلا بعض مسائل سألني عنها العوام.

وقال الشافعي: من أحب أن يفتح الله قلبه وينوره فعليه بترك كثرة الكلام فيما لا يعني، وتجنب المعاصي. ويكون له ورد في الأعمال فيما بينه وبين الله تعالى.

وقال أيضا: ينبغي للعالم أن يكون له خبيئة من عمل فيما بينه وبين الله تعالي فإن كل ما ظهر للناس من علم أو عمل قليل النفع في الآخرة. قال: وما رؤي أحد بعد موته وقال: غفر الله لي بعلمي إلا قليلا. **ولذا قال**: (**وَاجْتَهِدْ فِي الإِخْلاَصِ فِيهِ وَفِي إِخْفَائِهِ عَنِ النَّاسِ**) اكتفاء بنظر الله تعالى **لحديث رواه الشهاب**: «ما تقرب العبد إلى الله تعالى بشيء أفضل من سجود خفي[3]». ثم إن إخفاء العمل من أقوى أسباب ظهوره جبلت عليه النفوس من إظهار ما خفي وإعلان ما كتم. (**إِذْ مَا ظَهَرَ لَهُمْ مِنْهُ**) أي من العمل (**رُبَّمَا كَانَ قَلِيلَ النَّفْعِ فِي الآخِرَةِ**) **قال بعضهم**: إن أمكنك أن تجعل لك خبئا من الخير فافعل،

([1]) انظر القاموس المحيط: (48/1).

([2]) هو محمد بن سليمان بن محمد بن هارون الحنفي (من بني حنيفة) أبو سهل الصعلوكي: فقيه شافعي، من العلماء بالأدب والتفسير. قال الصاحب ابن عباد: ما رأينا مثله ولا رأى مثل نفسه. وأورد الثعالبي أبياتا من نظمه، وقال: له شعر كثير. مولده بأصبهان وسكنه ووفاته بنيسابور. درس بالبصرة بضعة أعوام، وبنيسابور32 سنة. ورويت عنه فوائد. توفي 369هـ. انظر الوفيات: (460/1).

([3]) أخرجه ابن المبارك (50/1 ، رقم 154) . وأخرجه أيضًا : القضاعى (250/2 ، رقم 1294) .

ولا تنس صلاتك بالليل لخبر: ركعتان في الليل المظلم خير من ألف ركعة بالنهار. وقال آخر: اكتم حسناتك كما تكتم سيئاتك. **وقالت رابعة:** ما ظهر من أعمالي لا أعده شيئا؛ أي لعجز أمثالنا عن الاخلاص في العمل إذا رآه الناس.

وقال بشر الحافي: لا ينبغي لواحد من أمثالنا أن يظهر من أعماله الصالحة مثقال ذرة: فكيف بأعماله التي دخلها الرياء. والأولى بأمثالنا الكتمان. **قال:** بلغنا أن عيسى عليه الصلاة والسلام كان يقول للحواريين: إذا كان يوم صوم أحدكم فليدهن رأسه ولحيته ويمسح شفتيه ليلا يرى الناس أنه صائم.

وقال الفضيل: خير العلم والعمل ما خفي عن الناس. **وقال عكرمة:** ما رأيت أقل عقلا ممن يعلم من نفسه السوء ويحب من الناس أن يصفوه بالعلم والصلاح، ولابد أن يطلع الناس على سوء سريرته. ومثاله: من غرس شوكا وطلب أن يحمل له رطبا. ومر أبو أمامة على شخص ساجد وهو يبكي فقال: نعم هذا لو كان في بيتك حيث لا يراك الناس. **وقال الفضيل:** من أحب أن ينظر إلى مراء فلينظر إلي.

وكان عبد الرحمن بن هرمز الزاهد[1] يقول في مناجاته: من أسوأ حالا مني؟ عاملت عبادك في الظاهر بالأمانة، وعاملتك في السر بالخيانة فليتني عكست. **وقال يوسف بن أسباط:** أوحى الله إلى نبي من الأنبياء: قل لقومك يخفوا لي أعمالهم وعلي أن أجهرها لهم. **وقال الزبير بن العوام:** اجعلوا لكم خبيئة من العمل الصالح، كما أن لكم خبيئة من العمل السيئ. **وقال معاوية ابن قرة**[2]: من يدلني على رجل يبكي في الليل ويتبسم في النهار؛ أي إن ذلك لقليل. **وكان السمرقندي يقول إذا مدحه الناس:** والله ما مثلي ومثلكم إلا كمثل جارية ذهبت بكارتها بالفجور، وأهلها لا يعلمون فهم يفرحون بها ليلة

---

[1]- عبد الرحمن بن هرمز الزاهد تابعي جليل أخذ القراءة عن أبي هريرة وابن عباس رضي الله عنهما وغيرهما، وأخذ عنهم كثيرون (تـ117هـ) غاية النهاية في طبقات القراء(168/1) طبقات الحفاظ (6/1)

[2]- تقدمت ترجمته.

الزفاف، وهي حزينة مغمومة خوف الفضيحة. **وكان أبو أمامة** يعيب على الرجل بكاءه في المسجد بحضرة الناس. **قاله الشعراني**[1].

وقال أبو الوليد الطيالسي[2]: **سمعت مالكا يقول**: من أحب أن يفتح الله له قريحة قلبه فليكن عمله في السر أكثر منه في العلانية. **قال بعضهم**: هذا موافق لحديث: «من أخلص لله أربعين صباحا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه؛ لأن عمل السر منعوت بالإخلاص، وعن الإخلاص تنبع الحكمة»[3].

وقال إبراهيم النخعي[4]: لو أن عبدا اكتتم بالعبادة كما يكتتم بالفجور لأظهر الله تعالى ذلك منه.

قلت: وصَّى بعض أسلافنا صديقا له فقال: أوصيك بثلاث خصال: واحدة لدنياك وواحدة لآخرتك، وواحدة لهما؛ فأما التي لدنياك فهي: أن البهيمة الثارية في ماشيتك فلا تهبها ولا تبعها، فإنها بركة المال. وأما التي لآخرتك فهي أن يكون لك سر مع الله، وخبيئة لا يطلع عليها إلا الله تعالى. وأما التي لهما: بأن تعمد إلى أخ صالح ناصح، وتتخذه رقيبا على نفسك وراعيا، يبصرك بعيوبك، ويرشدك لمصالحك دينا ودنيا. وذلك لأن الإنسان كائنا من كان؛ لا يرى عيوب نفسه غالبا، وإنما يراها أصحابه **لحديث**: «المؤمن مرءاة المؤمن[5]». فالمرءاة لا ترى نفسها وترى غيرها. وكذلك المرء؛ يرى عيوب غيره ولا يرى عيوب نفسه لغلبة الهوى ولمحبته لنفسه. **قاله الشعراني**.

([1]) انظر تنبيه المغترين: (25).

[2]– هو هشام بن عبد الملك الباهلي (مولاه) البصري الحافظ أركان الحديث سمع الحمادين ،ابن زيد وأبي سلمة وحدث عنه جماعة منهم إحمد ابن حمبل (ت227) عن 94 سنة. انظر طبقات الحنابل (158/1) والعبر في خبر من غبر(75/1)

[3]– أورده في الجامع الصغير (144/2) وعزاه لأبي نعيم في الحلية ولفظه: «أربعين يوما» بدل "صباحا"..

([4]) هو إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الاسود، أبوعمران النخعي، من مذحج: من أكابر التابعين صلاحا وصدق رواية وحفظا للحديث. من أهل الكوفة. مات مختفيا من الحجاج. قال فيه الصلاح الصفدي: فقيه العراق، كان إماما مجتهدا له مذهب. ولما بلغ الشعبي موته قال: والله ما ترك بعده مثله. توفي 96هـ. انظر طبقات القراء: (29/1).

([5]) أخرجه الطبراني في الأوسط (325/2 ، رقم 2114)

فصل

التصوف وهو علم يعرف به كيفية التخلص من عيوب النفس (فَرْضُ عَيْنٍ) وذلك لأن الإنسان لا يسلم غالبا من دواعي الشر: كالرياء والعجب، والكبر، والحسد، وغيرها. وتعلم ما يتخلص به من هذه الدواعي واجب.

وقال الغزالي: وكيف لا يجب؟ **وقد قال عليه الصلاة والسلام:** «ثلاث مهلكات»[1]...**الحديث.** والإنسان لا ينفك عنها وعن غيرها من عيوب النفس.

قال الغزالي: معرفة حدودها وأسبابها، وطبها وعلاجها: فرض عين[2].

وقال غيره: إن رزق المكلف قلبا سالما من أمراض القلب المحرمة كفاه ذلك، ولا يلزم تعلم دوائها. فإن لم يسلم ونظر فيها فإن تمكن من تطهير قلبه من ذلك بلا تعلم لزمه التطهير كما يلزمه ترك الرياء ونحوه من غير تعلم أدلة الترك، وإن لم يمكن الترك إلا بتعلم العلم المذكور تعين حينئذ.

قال المناوي: وأول مهم على المكلف بعد التوحيد: السعي في طهارة نفسه من الأخلاق الردية.

قال في شرح شهية السماع: علاج أمراض القلوب واجب، والغفلة عن الواجب معصية بإجماع وقد حكى شيخنا الإجماع على وجوب علاجها حتى تخمد حركتها؛

---

[1]- هذا الحديث أورده في الجامع الصغير (الفتح الكبير بضم الزيادة إلى الجامع الصغير) (46/2) ولفظه: «ثلاث مهلكات وثلاث منجيات، وثلاث كفارات، وثلاث درجات؛ فأما المهلكات فشح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه. وأما المنجيات: فالعدل في الغضب والرضى، والقصد في الفقر والغنى، وخشية الله تعالى في السر والعلانية. وأما الكفارات فانتظار الصلاة بعد الصلاة وإسباغ الوضوء في السبرات ونقل الأقدام إلى الجماعات. وأما الدرجات: فإطعام الطعام، وإفشاء السلام والصلاة بالليل والناس نيام» عزاه في الجامع الصغير للطبراني في الأوسط.

[2]- انظر كلامه في منهاج العابدين عن النفس (ص26).

وذلك من باب: مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب. **ثم قال:** فلا يقال: لو كان علاجها واجبا لوضع السلف فيها كتبا كما فعلوا في أحكام الدين. لأنا نقول: إنما ظهرت بعدهم، ولو ظهرت في عصرهم لاستنبطوا لأهلها الدواء الذي يخرجهم من تلك الكبائر التي توعد الله عليها بالنار ولا يقول عاقل أن أحدا من السلف يقر أحدا على ما رأى فيه من كبر أو غيره، حاشاهم من ذلك[1].

قال القشيري: أول ما حدثت هذه الأمراض الباطنة أواخر المائة الثالثة لحديث: «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»[2].

فيجب على كل من غلب عليه مرض منها أن يعالجه بشيئين: ملازمة التوحيد وملازمة أركان الطريق **التي أشار إليها بقوله:** (وَ) من (أَرْكَانِهِ):**المعدودة هنا سبعة:**

اركان التصوف

(**الْعُزْلَةُ**) بضم العين **كذا ضبطها القسطلاني**(3)، وبدأ بها؛ لأن التصوف: هو مداواة أمراض الباطن، وأبلغ دوائها وأنفعه العزلة. **قاله ابن عباد.**

وهي: التفرد عن الناس بالمعنى، ولو كان معهم بالشخص،واعتزال الشر وأهله

---

[1]- شهية السماع (ص91) مخطوط في الزاوية.

[2]- أخرجه البخاري في كتاب الشهادات برقم (2651- 6428-6695) ومسلم برقم (6469) بلفظ: «خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» قال :عمران: لا أدري أذكر النبي ﷺ بعد قرنين أو ثلاثة. قال ﷺ: «إن بعدكم قوما يخونون ولا يؤتمنون، ويشهدون ولا يستشهدون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن. وفي إحدى الروايات «خير أمتي قرني».

([3]) هو أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري، أبو العباس، شهاب الدين: من علماء الحديث. مولده ووفاته في القاهرة. له (إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري – ط)عشرة أجزاء. و (المواهب اللدنية في المنح المحمدية – ط) في السيرة النبوية، و (لطائف الاشارات في علم القرآت – خ) و (الكنز) في التجويد، و (شرح البردة) سماه (مشارق الانوار المضية – خ). توفي 923هـ. انظر البدر الطالع: (102/1).

بالقلب والعمل، وإن كان بين أظهرهم، **ويشهد له حديث ابن عمر**: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذي يخالطهم ولا يصبر على أذاهم[1]». وقد يراد بالعزلة الخلوة بالشخص ليسلم من ذنوب المخالطة، ومن مسارقة الطباع الردية، ويصون دينه ونفسه عن التعرض للخصومات وأنواع الشر، ويجتمع بها همه، ويقوى في ذات الله عزمه، وليسلم الناس من شره، وليسلم له دينه، ويسلم من الفتنة كما يأتي إن شاء الله في فوائد العزلة. وهي سنة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وهي أرفع الأحوال؛ لأنها الحالة التي أختارها لنبيه عليه السلام في بداية أمره. قال تعالى: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ وهي تكون مرة في الجبال، ومرة في السواحل والرباط، ومرة في البيوت. وفي الخبر: إذا كانت الفتنة فأخف مكانك، وكف لسانك، ولم يخص موضعا دون موضع.

فائدة: وفي الدرر الجوهرية شرح الحكم وغيرها: قال بعض الكاملين: الخلوة أخص من العزلة، وهي نوع من الاعتكاف، ولكن لا بالمسجد وربما كانت به، وأكثرها عند القوم لا حد له، لكن السنة تشير للأربعين كمواعدة موسى عليه السلام. **وفي الحديث:** «من أخلص لله أربعين يوما تفجرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه[2]». والقصد في الحقيقة إلى الثلاثين ،إذ هي أصل المواعدة. وجاور ﷺ بحراء شهرا. وقد اعتزل نساءه شهرا، وشهر الصوم واحد. وزيادة القمر ونقصانه كالمريد في سلوكه، وأقلها عشرا لاعتكافه عليه الصلاة السلام العشر. والخلوة للكامل زيادة في حاله ولغيره ترقية. ولا بد من أصل يرجع إليه، والقصد بها تطهير القلب من أدناس المخالفة، وإفراد القلب بذكر واحد، وحقيقة واحدة ،لكنها بلا شيخ مخطرة ولها فتوح عظيمة قد لا تصلح لقوم فليعتبر كل واحد بها حاله. **انتهى**.

([1]) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (127/7 ، رقم 9730)

([2]) أخرجه ابن عدي (307/5) بلفظ: "من زهد في الدنيا أربعين يومًا وأخلص فيها العبادة أجرى الله على لسانه ينابيع الحكمة من قلبه".

وأجمعوا على أنه لا بد للمريد في بداية أمره من العزلة بشرطها. ثم في انتهائه من الخلوة لتحققه بأنسه.

حكم العزلة شرعا

ثم لما كانت العزلة ربما تجب وربما تحرم بحسب الحال والإمكان أشار لذلك بقوله: (**وَتَجِبُ**) العزلة (**إِنْ خَافَ**) المرء (**عَلَى دِينِهِ وَ**) تجب أيضا عليه (**فِي الْفِتَنِ**) أي عند ظهور الفتن وفساد الناس ولذلك يكره التبدي إلا في الفتن، وحين يفر بالدين.

الثعالبي: ولا يعترض على هذا ببدو يعقوب عليه السلام؛ لأن ذلك لم يكن في أهل عمود ،بل كان ينعزل في منازل وربوع، وأيضا: إنما جعله بدوا بالإضافة إلى مصر كما هي في بنات الحواضر بدو بالإضافة إلى الحواضر. **وفي الأحاديث ما يدل على وجوب العزلة عند الفتن والخوف على الدين.**

وروي من طريق عمرو بن العاص قال: بينا نحن جلوس حول رسول الله ﷺ إذ ذكر الفتنة فقال: «إذا رأيتم الناس مرجت عهودهم، وخفت أماناتهم وكانوا هكذا وشبك بين أصابعه، فقلت ما أصنع عند ذلك جعلني الله فداك.؟ قال الزم بيتك، واملك عليك لسانك، وخذ ما تعرف ودع ما تنكر وعليك بأمر الخاصة ،ودع عنك أمر العامة[1]».

وفي الحديث: «يوشك أن يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها شعب الجبال ومواقع القطر، وفرَّ بدينك من الفتن»[2]. **رواه البخاري.**

وروى البيهقي في الزهد من طريق أبي هريرة مرفوعا: «يأتي على الناس زمان لا

([1]) أخرجه أبو داود (124/4 ، رقم 4343) ، والطبراني (9/13 ، رقم 4)

[2]ـ أخرجه البخاري، كتاب الإيمان برقم (19) عن أبي سعيد الخدري. وأخرجه في عدة مواضع من صحيحه.

يسلم لذي دين دينه إلا من هرب بدينه من شاهق إلى شاهق، ومن جحر إلى جحر، وإذا كان ذلك الزمان لم تُنَل المعيشة إلا بسخط الله، فإذا كان ذلك كذلك كان هلاك الرجل على يد زوجته وولده، فإن لم تكن له زوجة ولا ولد، كان هلاكه على يدي أبويه، فإن لم يكن له أبوان كان هلاكه على يدي قرابته أو الجيران. قالوا: كيف ذاك يا رسول الله؟ قال: يعيرونه بضيق المعيشة، فعند ذلك يورد نفسه الموارد التي يهلك بها نفسه[1]».

وذكر في خبر آخر للحارث بن عميرة[2] أنه قال: «إن يرفع من عمرك فسيأتي عليك زمان كثير خطباؤه، قليل علماؤه، كثير سؤاله، قليل معطوه، الهوى فيه قائد العلم. قيل: ومتى ذلك؟ قال: إذا أميتت السنة، وقبلت الرشا وبيع الدين بعرض يسير من الدنيا، فالنجا ويحك ثم النجا[3]».

قال الغزالي: وجميع ما ذكره في هذه الأخبار تراه بعينك في زمانك وأهلك فانظر لنفسك، ثم إن السلف أجمعوا على التحذير من زمانهم وأهله وآثروا العزلة، وأمروا بذلك، وتواصوا به، ولا شك أنهم كانوا أبصر وأنصح، وأن الزمان لم يصر بعدهم خيرا مما كان، بل أشر وأمر. **وذكر عن يوسف بن أسباط قال: سمعت الثوري يقول:** والله الذي لا إله إلا هو لقد حلّت العزلة في هذا الزمان.

قال الغزالي: قلت أنا ولئن حلت في زمانه ففي زماننا هذا قد وجبت وافترضت[4].

قال الشعراني: معنى حلت: وجبت. **كما في حديث:** «فقد حلت له شفاعتي يوم

([1]) انظر الزهد الكبير للبيهقي: (183/1).

[2]- هو أبو عمير البصري نزيل مكة، وثقه الجمهور، وفي أحاديثه مناكير ضعفه بها الأزدي وابن حبان وغيرهما. توفي بعد المائة. انظر تقريب التهذيب (ص87).

([3]) البخارى فى الأدب المفرد (275/1 ، رقم 789) ، والبيهقى فى شعب الإيمان (258/4 ، رقم 5000)

[4]- الحديث وما معه من كلام القوم بما فيه كلام سفيان بن عيينة والثوري ينظر هذا كله في منهاج العابدين (ص17).

القيامة[1]». أي وجبت. فقد وصى ﷺ عند فساد الزمان بالعزلة وكسر السيوف، واتخاذها من العراجين والخشب. (**إِنْ عَجَزَ عَنْ إِزَالَتِهَا وَإِلاَّ**) بأن يكون قادرا على إزالة الفتن (**حَرُمَتْ**) عليه العزلة حينئذ وتجب عليه الخلطة عينا أو كفاية بحسب الحال والإمكان (**وَإِن انْتَفَيَا**) أي انتفت الفتن والخوف على الدين.

(**فَهَلْ الأَفْضَلُ**) حينئذ (**الْخلْطَةُ**) **كما عند الشافعي وكثير من التابعين والفقهاء** (**لاكْتِسَابِ فَوَائِدِهَا**) أي الخلطة ،التي هي آفات العزلة؛ من تعلمه، وتعليمه، وعبادته، وأدبه، وتأديبه، ونفع وانتفاع، وإيناس واستئناس، وتحسين خلقه بحلم واحتمال، وتواضع، ومعرفة أحكام لازمة، وتكثير سواد المسلمين، وعيادة مريضهم، وتشييع جنائزهم وحضور الجمعة والجماعة (**أَوْ**) الأفضل (**الْعُزْلَةُ**) وهو مختار معظم علماء الآخرة. **قاله الغزالي. ثم قال**: والمختار أن أغلب الناس محتاجون إلى العزلة بعد الخلطة لاكتساب فوائدها أيضا.

وفوائد العزلة كثيرة. منها: سلامته هو خصوصا، وسلامة الناس من شره عموما.

ومنها: التخليص من الذنوب التي يتعرض لها بالمخالطة، كالغيبية والنميمة وسماعهما، والسعاية والمخاصمة، والمسارقة للطبائع الرذيلة، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ أي لعدم وجوبهما عليه لأنه لا يرى المنكر، ولا يعلم المعاصي كلها بين اثنين، والواحد منها أسلم غالبا، والمداهنة والرياء والتصنع للخلق. فإنهم يشغلون المرء عن العبادة حتى لا يكاد يحصل له منها شيء ويفسدون عليه ما حصل له حتى لا يكاد يسلم له منها شيء.

ومنها: أنه يصون بها دينه ونفسه عن التعرض والفتن والخصومات وأنواع الشر.

([1]) أخرجه أحمد (354/3 ، رقم 14859) ، والبخارى (222/1 ، رقم 589) ، وأبو داود (146/1 ، رقم 529)

ومنها: أنه ينقطع بها طمعه عن الناس ويحصل له منهم اليأس وذلك من أعظم فوائدها وينقطع طمعهم عنه وعتبهم عليه.

ومنها: التفرغ للعبادة والتخلص من مشاهدة الثقلاء والحمقاء.

ومنها: أنه ينكف بها بصره عن ما لا يحل من العورات وعن النظر إلى زينة الدنيا، فيتخلص من سمها، ومن منافسة أهلها.

قال أبو القاسم القدسي: فأرباب المجاهدات إذا أرادوا صون أنفسهم عن الخواطر الرذيلة لم ينظروا إلى المستحسنات.

ومنها: أنه يجتمع بها همه، ويقوى في ذات الله عزمه، ويعمل بما يهمه، ويأنس بدوام ذكره.

ومنها: أنه يسلم من الاعتراض بقلبه على الناس إذا عصوا، إلى غير ذلك من فوائدها.

شروط العزلة

ثم ذكر للعزلة شروطا خمسة، متى اجتمعت كان ذلك محل الخلاف المتقدم، أشار لأولها بقوله: (إِنْ أَفَادَتْ فِكْرَةً) في عجائب صنع الله لتحصل له المعرفة، فكلما أكثر التفكر كثرت المعارف؛ لأن بحر المعرفة لا ساحل له، والإحاطة بكنه جلال الله محال، وكلما كثرت المعارف بالله تعالى وصفاته وأفعاله وأسرار مملكته وقويت كثر النعيم في الآخرة، وعظُم كما أنه كلما كثر البذر وحسُن كثُر الزرع وحسُن. وسعة ملك العبد في الجنة بحسب سعة معرفته بالله، وبحسب ما يتجلى له من عظمة الله تعالى وصفاته وأفعاله.

قال الغزالي: والفكرة أيضا فيما يقربه من الله فيأتيه، وفيما يبعده منه فيجتنبه. أو فيما سلف من ذنوبه فيستغفر منه، وفيما سبق من حسن عمله فيشكره، وفي شدة عذاب الله فيترك المعاصي وفي رحمته فيشمر للطاعة، فالفكر في الخير يدعو إلى العمل به والندم على الشر يدعو إلى تركه.

وقال بعضهم: كل عزلة لا تصحبها فكرة فإلى الحمق مآلها.

وقوله: "إن أفادت فكرة": احتراز عن الذي تأخذه فرسان الشياطين وتسلبه قطاع النفس إذا انعزل. فالأفضل له: الصبر على مشقة الصحبة، والالتجاء إلى حصن جلال الله تعالى. **وقال الغزالي:** وإن كانت الوساوس في العزلة تجاذبك إلى ما لا يرضاه الله ولم تقدر على قمعها بوظائف العبادات فعليك بالنوم فإنه أحسن أحوالك وأحوالنا إذا عجزنا عن الغنيمة رضينا بالسلامة في الهزيمة وأخسس بحال من سلامة حياته في تعطيل حياته؛ إذ النوم أخ الموت، وهو تعطيل الحياة والتحاق بالجمادات.

وقال سيدي زروق: الفكرة هي استعمال القوة في طلب العلم من وجهه بطريقه.

وقال الغزالي: الفكر: هو إحضار معرفتين في القلب لتستمد منها معرفة ثالثة. مثال ذلك: أن يعرف أن الأبقى أولى بالإيثار، ثم يعرف أن الآخرة أبقى فيحصل له من هاتين المعرفتين معرفة ثالثة وهي: أن الآخرة أولى بالإيثار. وإحضار المعرفتين السابقتين للتوصل إلى الثالثة يسمى تفكرا، واعتبارا، ونظرا، وتدبرا. **إلى أن قال:** وثمرة الفكر العلوم والأحوال، والأعمال فإذا حصل العلم في القلب تغير حال القلب من حب الدنيا والميل مثلا إلى الزهد، والإقبال على عمل الآخرة. وإذا تغير حال القلب تغيرت أعمال الجوارح فالعمل تابع الحال والحال تابع العلم والعلم تابع الفكر. فالفكر إذا هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها، وهذا هو الذي يكشف لك عن فضيلة التفكر، فإنه خير من الذكر والتذكر؛ لأن في الفكر ذكرا وزيادة. وذكر القلب خير من عمل الجوارح، بل شرف

العلم بما فيه من الذكر، فإذن التفكر أفضل من جملة الأعمال ولذلك قيل: تفكر ساعة خير من عبادة سنة.

قال السري السقطي: ما هو إلا أن تحل أطناب خيمتك وتجعلها في الآخرة. **وقال الحسن**: من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو، ومن لم يكن سكوته تفكرا فهو سهو، ومن لم يكن نظره اعتبارا فهو لهو. وقيل لأم الدرداء: ما كان عمل أبي الدرداء؟ قالت التفكر. **وقال الحسن**: الفكرة مرآة تريك حسنك من سيئك. **وقال ابن عباس** رضي الله عنهما: ركعتان مع تفكر وتدبر خير من قيام ليلة كاملة، والقلب ساه عن الله تعالى.

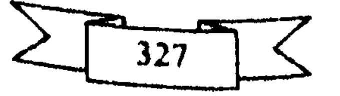
قال الشعراني: والمراد بالتفكر هنا: تفكر في الآداب المتعلقة بحضرة الله تعالى لا التفكر في استنباط الأحكام، فإن الصلاة ليست بمحل لذلك. **انتهى**.

وقال كعب الأحبار: من أراد أن يبلغ شرف الآخرة فليكثر التفكر.

وأخذ أبو سليمان الداراني قدحا ليتوضأ لصلاة الليل، فأدخل أصبعه في أذن القدح فأقام كذلك متفكرا حتى طلع الفجر. فقيل له: ما هذا؟ فقال: إني لما طرحت أصبعي في أذن القدح تذكرت قوله تعالى: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ وتفكرت في حالي كيف أتلقى الغل إن طرح في عنقي يوم القيامة فمازلت في ذلك حتى أصبح.

وهذه نهاية الخوف، وخير الأمور أوسطها، وليس علماء الأمة الذين هم الحجة على هذا المنهاج. وقراءة معاني القرآن والحديث لمن يفهم ويرجى نفعه أفضل من هذا لكن يحسن أن لا تخلو البلاد من مثل هذا، **قاله ابن عطية**[1].

([1]) انظر المحرر الوجيز: (593/1).



وعن بعضهم: كنت بائتا في مسجد الأقدام بمصر وسهرنا للصلاة، ورأيت رجلا مضجعا إلى الصباح، ثم صلى الصبح بغير وضوء فاستعظمت منه ذلك فخرج وهو **ينشد**:

مسَجَّى الجسمِ غائبٌ حاضرٌ مُنْتَبِه الْقَلْب صَامِت ذَاكِرْ
منبسِطٌ فِي الْغُيُوب مُنقَبِضٌ كَذَاكَ مَنْ كَانَ عَارِفًا ذَاكِرْ
يَبِيتُ فِي لَيْلِهِ أَخَا فِكَرٍ فهْو مَدَى اللَّيْلِ نَائِمٌ سَاهِرْ

قال: فعلمت أنه يعبد الله بالتفكر.

قال الفخر: دلت الآيات على أن أعلى مراتب الصديقين التفكر(1). **قال مالك**: وهو من الأعمال وهو من اليقين.

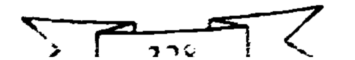
ابن رشد: وهو من أشرف الأعمال؛ لأنه من أعمال القلوب. التي هي أشرف الجوارح، ألا ترى أنه لا يثاب أحد على عمل إلا مع مشاركة القلوب لها بإخلاص النية.

والفكر يجري في أربعة أنواع: معاص، وطاعات، وصفات مهلكات، وصفات منجيات. **أما المعاصي**: فينبغي للعبد أن يفتش صبيحة كل يوم جميع أعضائه السبعة تفصيلا، ثم بدنه على الجملة، هل هو في الحال ملابس لمعصية بها فيتركها، أو لابسها بالأمس فيتداركها بالترك والندم. أو هو متعرض لها بنهاره فليستعد للاحتراز والتباعد منها. **وأما الطاعات**: فلينظر أولا في الفرائض كيف يؤديها وكيف يحرسها عن النقصان؟ والتقصير. أو كيف يجبر نقصانها بكثرة النوافل ثم يتفكر في أفعال كل عضو.

وأما المهلكات: فإن ظن أن قلبه متره عنها فيتفكر في كيفية امتحانه والاستشهاد بالعلامات. فإن النفس أبدا تعد بالخير من نفسها وتخلف.

---

(1) انظر التفسير الكبير: (112/9).



وأما المنجيات: فيتفكر كل يوم في قلبه ما الذي يفوته من هذه الصفات المقربة إلى الله تعالى.

وقال ابن عباد: بالفكرة يصل إلى معرفة حقائق الأشياء ويتبين الحق من الباطل، والنافع من الضار. ويطلع بها أيضا على خفايا آفات النفس ومكائد العدو، وغرور الدنيا ويتعرف بها وجود الحيل في التحرز منها. والطهارة منها، ويطلع بها على عظمته تعالى وجلاله إذا تفكر في آياته ومصنوعاته، وعلى آلائه ونعمائه الجلية والخفية فيستفيد بذلك أحوالا سنية يزول بها مرض قلبه، ويستعين بسببها على طاعة ربه. **انتهى.**

وقال في الدرر الجوهرية في شرح الحكم العطائية: وللفكرة: **ابتداء ووسط وغاية:**

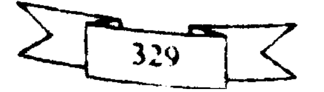
فالابتداء: استعمالها في تذكر التبعات، ورد الظلامات، وتذكر أفعاله القبيحة، ليندم ويعزم على أن لا يعود؛ لأن من لا توبة له لا عمل له. وإن عمل من البر ما عمل.**والتوسط:** التفكر في إنعام الله تعالى بالجود على الوجود. **والغاية:** التفكر في دقائق المعارف الربانية، والعلوم اللدنية التي بها يلج القلب حضرة القدس، ويخلع عليه فيها خلعة الأنس، حيث المشاهدة والمفاتحة، والمواجهة والمطالعة والمكالمة، والمنادمة بلذيذ الخطاب عند رفع الحجاب. **انتهى.**

والجمع بين حديث: «تفكر ساعة خير من عبادة سنة[1]». **وحديث:** «تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة[2]». أن الأول التفكر في الموت وما بعده. والثاني: التفكر في الأمور الرفيعة؛ كالسماء والأرض والعرش والكرسي، وسائر العوالم، وفي قدرة الله تعالى وإرادته وتعلقهما بالممكنات، وفي علمه وتعلقه بكل موجود ومعدوم، وغير ذلك من

---

(1) أخرجه أبو داود في المراسيل (231/1، رقم: 298.

(2) أخرجه ابن عساكر (47/149)



عجائب المخلوقات. ولا شك أن التفكر في هذه الأشياء أعلى وأفضل من التفكر في الموت وما بعده، فالمتفكر فيه إن كان عاليا فيضاعف ثوابه، وإن كان أدنى فأدنى. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾. **وفي الحديث**: «ويل لمن قرأها و لم يتفكر فيها[1]». **وروي**: «ويل لمن لاكها بين فكيه و لم يتأملها».

وكان الرجل من بني إسرائيل إذا عبد الله ثلاثين سنة أظلته سحابة فعبد الله فتى من فتيانهم فلم تظله سحابة، فقالت له أمه: لعلك فرطت منك فرطة، فقال: ما أذكر شيئا. قالت: لعلك نظرت مرة إلى السماء فلم تعتبر. قال: لعل ذلك. قالت: فما أوتيت إلا من ذلك. **وفي بعض الأخبار** أن من نظر في النجوم وتفكر في عجائبها وفي قدرة الله تعالى وقرأ: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا﴾ الآية. كتب له بعدد كل نجم في السماء حسنة.

وقيل: لا تفكر في ثلاث: في فقرك فيكثر همك وغمك ويكثر حرصك، ولا في ظلم من ظلمك فيغلظ قلبك ويكثر حقدك ويدوم غيظك، ولا في طول البقاء في الدنيا فتحب الجمع وتضيع العمر وتسوف العمل.

قال مكحول: من آوى إلى فراشه ينبغي أن يتفكر فيما صنع في يومه، فإن عمل خيرا حمد وإلا استغفر ورجع من قريب فإن لم يفعل ذلك كان كالتاجر الذي ينفق ولا يحسب حتى يفلس ولا يشعر.

ولثانيها بقوله: (وَلَمْ يَصْبِرْ عَلَى أَذَى النَّاسِ) عند مخالطتهم و لم يقدر على الصمت والسلامة من غائلة اللسان، فيؤمر بالعزلة حينئذ، إذ لا يتوصل إلى الواجب الذي هو ترك المحرمات إلا بها.

([1]) رواه ابن حبان في صحيحه في النوع السابع والأربعين من القسم الخامس من حديث عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء. انظر تخريج الأحاديث الواردة في الكشاف للزمخشري: (260/1).

ولثالثها بقوله: (وَلَمْ يَتَرَفَّعْ بِهَا) على الناس، وأما إن ترفع بها وتكبر على الناس بأن يلجئه إلى اعتزال الناس خوف ابتذاله وإهانته بكثرة الملاقات وطلب المحبة، والتعظيم بطول الغيبة في الخلوات فذلك كبر وطلب للرياسة. وإنما الواجب أن يرى نفسه حية أو كلبا عقورا أو نجاسة يهرب بها سترا لعيبه، وكفاية المسلمين من شره.

ولرابعها بقوله: (وَلَمْ يَحْتَجْ) هو إلى غيره في الضرورة ودينا ودينا.

ولخامسها بقوله: (وَلَمْ يحتَجْ إِلَيْهِ) في ذلك في بيان حق، أو رد على مبتدع، أو دعوة إلى خير يفعل، أو قول، أو تعليم علم نافع، ونحو ذلك (وَإِلاَّ) بأن اختل شرط واحد أو أكثر من شروط العزلة الخمسة. (نُدِبَتْ الْخِلْطَةُ) والصبر على مشقتها والالتجاء إلى حصن جلال الله تعالى (فِي الأَوَّلَيْنِ) أي عند انتفاء الشرطَين الأولَين. وانتفاء الأول أن لا تفيده العزلة الفكرة بأن تأخذه فرسان الشياطين وقطاع النفس إذا انعزل. وانتفاء الثاني: أن تكون له قدرة على صبر أذى الناس. أما في الأول فإنما أمر بالخلطة ليسلم من الشياطين. وإما في الثاني: **فلحديث ابن عمر**: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي يخالطهم ولا يصبر على أذاهم». **رواه البخاري في الأدب وغيره**[1]. **ورواه داوود الطائي**[2] **عن الأعمش**[3] **عن يحي بن وثاب**[4]

([1]) البخاري في "الأدب المفرد" (388)، والترمذي (2507)

([2]) تقدمت ترجمته.

([3]) هو سليمان بن مهران الاسدي بالولاء، أبو محمد، الملقب بالاعمش: تابعي، مشهور. أصله من بلاد الري، ومنشأه ووفاته في الكوفة. كان عالما بالقرآن والحديث والفرائض، يروي نحو 1300 حديث، و كان رأسا في العلم النافع والعمل الصالح. قال السخاوي: قيل: لم ير السلاطين والملوك والاغنياء في مجلس أحقر منهم في مجلس الاعمش مع شدة حاجته وفقره. توفي 148هـ. انظر الوفيات: (213/1).

(4) هو يحيى بن وثاب الاسدي بالولاء، الكوفي: إمام أهل الكوفة في القرآن. تابعي ثقة. قليل الحديث.من أكابر القراء. له خبر طريف مع الحجاج: كان يحيى يؤم قومه في الصلاة، وأمر الحجاج أن لا يؤم بالكوفة إلا عربي ! فقيل له: اعتزل، فبلغ الحجاج، فقال: ليس عن مثل هذا نهيت، فصلى بهم يوما، ثم قال: اطلبوا إماما غيري إنما أردت أن لا تستذلوني فإذا صار الامر إلي فلا أؤمكم !. توفي 103هـ. النجوم الزاهرة: (299/11).

عن ابن عمر[1] عن النبي ﷺ. وليغتنم أيضا ما في إذاية الناس من الفضل **كما يأتي في مبحث فضل الناس إن شاء الله تعالى** . وليغتنم أيضا فوائد الخلطة المتقدمة. **ثم ذكر لندبية الخلطة هنا شرطا أشار إليه بقوله: (إِنْ سَلِمَ مِنْ آفَاتِهَا)** كالذنوب التي يتعرض لها بالمخالطة. كالرياء والعجب والتصنع والغيبة والمداهنة، والفتن في دينه، ونفسه إلى غير ذلك مما تقدم .

الخلطة بقدر الضرورة

(وَوَجَبَتْ) الخلطة **(فِي الْبَوَاقِي)** أي عند الباقي من الشروط، كما إذا لم يترفع بها، أو يحتاج هو إلى غيره في ضرورة علم نافع ونحوه أو يحتاج الناس إليه في ذلك، وإذا ندبت الخلطة أو وجبت عليه فإنه يجب عليه أن يختارمن يخالطه **(بِقَدْرِ الضَّرُورَةِ)** أي في ما لابد له منه. وتجب عليه العزلة عموما في ما فضل عن ذلك متحريا في مخالطته من يسلم معه دينه؛ وطالبا من المواضع ما هو أقرب إلى الخمول وأسلم للدين وأفرغ للقلب وأيسر للعبادة معتزلا عن الناس بالمعنى وإن كان معهم بالشخص منفردا عنهم بالقلب والعمل، وإن كان بين أظهرهم منقبضا عنهم غير تارك لجماعتهم مثل الفكرونة إذا رأت الناس انقبضت وأدخلت يديها ورجليها وإذا وجدت الخلوة انبسطت، وناصبا نفسه إذا احتيج إليه بين الخلق، ناصحا لهم ذابا عن دين الله. **وفي الحديث:** «إذا ظهرت البدع وسكت العالم فعليه لعنة الله.» [2]

وحكي أن الأستاذ أبا بكر بن فورك[3] هم بالعزلة فنودي: يا أبا بكر؛ إذ صرت من حجج الله على خلقه تركت عباد الله فرجع وصحب الخلق.

([1]) تقدمت ترجمته.

[2]- انظر منهاج العابدين (ص19) تجد الحديث وكلام أبو بكر بن فورك بعده مباشرة وكذلك كلام أبي إسحاق وما كتبه به بعض العباد لمالك.

[3]- هو محمد بن الحسن بن فورك الأنصاري الأصبهاني، أبو بكر: واعظ عالم بالأصول والكلام، شافعي، مؤلفاته كثيرة نحو المائة توفي بنيسابور 406هـ. انظر للتكميل: طبقات السبكي (53/3)، تاريخ بغداد (214/2).

وذكر مأمون بن أحمد[1] **أن الأستاذ أبا إسحاق قال لعباد جبل لبنان:** يا أكلة الحشيش تركتم أمة محمد ﷺ في أيدي المبتدعة هاهنا واشتغلتم بأكل الحشيش. قالوا: لا نقوى على صحبة الناس.

وروي أن بعض العباد كتب إلى مالك يحضه على الانفراد وترك مجالسة الناس. فكتب إليه مالك: إن الله قسم بين عباده الأعمال كما قسم الأوزاق. فرب رجل فتح له في كذا و لم يفتح له في كذا فعدد أشياء ثم قال: وما أظن ما أنت فيه بأفضل مما أنا فيه فكلانا على خير إن شاء الله تعالى.

وقال أبو العباس المرسي: والله ما جلست للناس حتى هددت بالسلب. وقيل لي: إن لم تجلس سلبناك ما وهبناك. ومما جاء في التأكيد على العزلة على الإجمال ما روي في الخبر أن العزلة عن الناس عافية.[2]

وفي الحديث: «قالوا: يا رسول الله؛ أي الناس أفضل؟ قال: من جاهد بنفسه وماله. قال: ثم من؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: ثم مؤمن يعتزل في شعب يتقي ربه ويدع الناس من شره» **رواه الشيخان.**[3]

وروى ابن أبي الدنيا في كتاب العزلة حديث: «إن أعجب الناس إلـــيَّ رجل يؤمن بالله ورسوله ويقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعمر ماله ويحفظ دينه، ويعتزل الناس[(4)]».

وعن سفيان الثوري: أنه كتب إلى عباد الخواص **أما بعد:** فإنك في زمان كان أصحاب رسول الله ﷺ يتعوذون بالله أن يدركوه فيما بلغنا، ولهم من العلم ما ليس لنا،

---

[1]- لعله المأمون بن أحمد العباسي، ينتهي نسبه إلى المأمون الخليفة، بغدادي واعظ له نظم حسن ونثر، كان فصيحا، حسن الإيراد (ت633هـ). انظر الأعلام (147/6).

[2]- انظر منهاج العابدين (ص:19) تجد كلام ابن فورك، وأبي إسحاق، وما كتب به بعض العباد لمالك.

[3]- أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير برقم: (2634) ومسلم في كتاب الإمارة برقم (1888) عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

([4]) انظر العزلة لابن أبي الدنيا: (51/1).

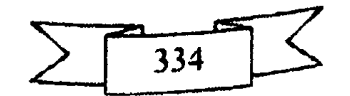
فكيف بنا حين أدركناه على قلة علم، وقلة صبر، وقلة أعوان وكدر من الدنيا، وفساد من الناس؟ **وإن عمر قال:** في العزلة راحة من خلطاء السوء. **ونقل عن سفيان بن عيينة أنه قال:** قلت للثوري: أوصني. قال: قلل من معرفة الناس. قلت: يرحمك الله أليس قد جاء في الخبر «أكثروا من معرفة الناس فإن لكل مؤمن شفاعة». قال: لا أحسبك رأيت قط ما تكره إلا ممن تعرف. قلت أجل. ثم مات، فرأيته في المنام فقلت يا أبا عبد الله أوصني قال: أقللْ من معرفة الناس، فإن التحصن منهم شديد.

وقال الفضيل: هذا زمان أحفظ فيه لسانك، وأخف مكانك، وعالج قلبك وخذ ما تعرف، ودع ما تنكر. وقال داوود الطائي: فر من الناس فرارك من الأسد.

وقال سهيل: اجتمع الخير كله في هذه الخصال، وبها صارت الأبدال أبدالا: إخماص البطون، والصمت، واعتزال الناس، وسهر الليل. وقال أيضا: مخالطة الولي الناسَ ذلٌّ وتفرده عنهم عز فقلما رأيت وليا لله تعالى إلا منفردا. ولقد ذكر أن هرم بن حيان قال لأوَّيس رضي الله عنهما: صلنا بالزيارة واللقاء قال أويس: قد وصلتك بما هو أنفع لك منهما وهو الدعاء عن ظهر الغيب؛ لأن الزيارة واللقاء يعرض فيهما التزيُّن والرياء[1].

وقيل لسليمان الخواص لما قدم إبراهيم بن أدهم رضي الله عنهما: أفلا تأتيه؟ فقال: لأن ألقى شيطانا ماردا أحب إلي من لقائه. فاستنكروا ذلك من قوله. فقال: لأني إذا لقيته أخاف أن أتزين له، وإذا لقيت شيطانا أمتنع منه. **قال الغزالي:** فهذا حال أهل الزهد والرياضة في ملاقاتهم فكيف حال أهل الرغبة والبطالة. بل حال أهل الشر والجهالة. **قال:** وأعلم أن الزمان قد أصبح في فساد كبير وأصبح الناس في ضرٍّ عظيم؛ فإنهم يشغلونك عن العبادة ويفسدون ما حصل لك منها فلزمتك العزلة والتفرد عن

[1]_ هذا الكلام بلفظه في منهاج العابدين: ص: 18 وكذلك ما قبله وما بعده.



الناس، والاستعاذة بالله من شر هذا الزمان وأهله، والله تعالى الحافظ برحمته وفضله.

وأنشدو:

عِشْ خامِلَ الذِّكْرِ بَيْنَ النَّاسِ وَارْضَ بِهِ   فَذَاكَ أَسْلَمُ لِلدُّنْيَا وَلِلدِّينِ

مَنْ عَاشَرَ النَّاسَ لَمْ تَسْلَمْ دِيَانَتُهُ   وَلَمْ يَزَلْ بَيْنَ تَحْرِيكٍ وَتَسْكِينِ

فائدتـــان في الخلطة:

الفائدة الأولى: يحتاج من يخالط الناس إلى عدة أعين: عين ينظر بها إلى الحقوق المترتبة عليه في المخالطة فيستغفر منها، وعين ينظر بها إلى ما أنزل الله في قلوب الناس من تعظيمهم له فيشكر ويستغفر معا. وعين ينظر بها إلى حقارة نفسه في نفسه ليعطي التواضعَ حقه، وعين ينظر بها إلى المواضع التي يحصل للناس بسببها نقص في دينهم فيتركها. وعين ينظر بها إلى الحكمة الإلهية في المعاصي التي تقع ممن يخالطهم ليسلَم من الاعتراض. **قاله في شرح شهية السماع**[1].

الفائدة الثانية: قال الغزالي: ينبغي للمريد أن يلازم مكانه، إلا أن يكون قصده بالسفر استفادة علم، هذا إذا سلم له حاله في وطنه، وإن لم يسلم فليطلب من المواضع ما هو أقرب إلى الخمول وأسلم للدين، وأفرغ للقلب، وأيسر للعبادة، فهو أفضل المواضع في حقه. **وفي الحديث:** «البلاد بلاد الله والخلق عباد الله فأي المواضع رأيت فيه رفقا فأقم وأحمد الله تعالى»[2]. **قال أبو نعيم:** رأيت سفيان الثوري وجعل جرابه على كتفيه، فقلت إلى أين؟ قال: إلى موضع أملأ فيه جرابي بدرهم. **وكان سفيان يقول:** إذا سمعت بقرية فيها رُخص فاقصدها فإنه أسلم لدينك، وأقل لهمك. وقال له رجل: إني عزمت على المجاورة بمكة. فقال: أوصيك بثلاث: لا تصلينَّ بالصف الأول ولا تصحبْ قرشيا ولا

([1]) انظر شرح شهية السماع: (68).

[2]ـ أخرجه أحمد في مسنده بلفظ: «البلاد بلاد الله والعباد عباد الله فحيثما أصبت خير فأقم» (166/1) برقم: (1420) عن الزبير بن العوام. قال شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف.

تُشهرنَّ صدقة. وإنما كره الصف الأول للشهرة، واعتقاد الفضل فيه، فيركن إلى ذلك فيحبط عمله. **وقال داوود الطائي**: ما خالط أحد الناس قط إلا نسي العهد. وقال: نازعتني نفسي إلى العزلة فقلت: حتى تجلس مع الناس سنة ولا تجيب في شيء فكنت أجالسهم فتجيء مسألة فأجد فيها من شهوة الجواب أكثر من شهوة العطشان إلى الماء البارد فلا أجيب، فلما مضت سنة اعتزلتهم. **انتهى**.

وقال الشاذلي: وليلازم أسماء النصرة عند الدخول في الخلوة وهي: بسم الله، وبالله، ومن الله، وإلى الله، وعلى الله فليتوكل المؤمنون. وإن أردت سعة الصدر فيما يرد عليك من الضيق في العزلة فقل: حسبي الله آمنت بالله ورضيت بالله وتوكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، وقل في بعض مناجاتك وسؤالك: يامن وسع كرسيه السموات والأرض ولا يئوده حفظهما وهو العلي العظيم. رب أسألك الإيمان بحفظك إيمانا يسكن به قلبي عن هم الرزق وخوف الخلق، وأقرب مني بقدرتك قربا تمحق به عني كل حجاب محقته عن إبراهيم خليلك. فلم يحتج لجبريل رسولك ولا لسؤاله منك، وحجبته بذلك من نار عدوك، وكيف لا يحجب عن مضرة الأعداء من غيبته عن منفعة الأحباء، كلا، إني أسألك أن تغيبني بقربك مني حتى لا أرى ولا أحس ولا أبصر بقرب شيء ولا ببعده عني إنك على كل شيء قدير[1].

وقال الشاذلي أيضا: آفات العزلة أربع: تعلق النفس بالأسباب. وركون النفس إلى الجهة المخصوصة بالاكتساب، واكتفاء العقل بما يحصل له من الاقتراب وخطرات الشيطان بالأماني الصادة عن المرام. **وآفاتها في خواصهم أيضا أربع**: الاستئناس بالوسواس، والتحدث بالرجوع إلى الناس والتحديد في الوقت وهو من أمارات الإفلاس، وملاقات هواتف الحق على زعمه بالمعهود من الحواس. ولكل آفة سبيل في الجهاد بالرد إلى أصل التوجه والمعرفة والحمل على سبيل الاستقامة، فإذا عرض لك عارض من جهة التعلق بالاسباب ،والركون إلى الجهة المخصوصة في الاكتساب فارجعها إلى أصل المعرفة

[1]ـ انظر المفاخر العلية (ص62).

بالسوابق فيما قسم لها أو أجرى عليها، وقل لها اتخذت عند الله عهدا أنك لا ترزقين إلا بهذا السبب أو من هذه الجهة، وضيّق عليها بالمعرفة، وأغرقها في بحر التوحيد. وقل: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. وكذلك قالوا: أغرق الدنيا في بحر التوحيد قبل أن تغرقك. وإن عرض لك عارض من جهة اكتفاء العقل بما حصل له من علم أو عمل، أو نور أو هدى أو خطاب بنجوى فلا تغفل عن السابقة أو الخاتمة، ولا بد من فعل الواحد المختار الذي يفعل ما يشاء لا يبالي بحسنة المقبل، ولا بسيئة المدبر، وإذا عرض لك عارض من خطرات العدو الصادة عن المراد بالدنيا والآخرة، أو من جهة الألطاف والأحوال والمنازل، فاعلم أنها صادة عن المراد، والمراد: العبودية المحضة، ووجود الحق بلا سبب من الخلق فالله تعالى يقتضي منك أن تكون له عبدا، وتحب أنت أن يكون لك ربا، فإذا كنت له عبدا من حيث يرضى كان لك ربا من حيث ترضى فلا يدعك لغيره، من طريق الحقائق، فكيف بالأماني، وإذا عرض لك بما يشبه العلم من طريق الإلهام من حيث التوهم فلا تقبل، وارجع إلى الكتاب والسنة، واعلم أن الذي عارضك لو كان حقا في نفسه واعرضت عنه إلى حق بكتاب أو سنة لما كان عليك عتب بذلك لأنك تقول: إن الله قد ضمن لي العصمة في جانب الكتاب والسنة، ولم يضمنها لي في جانب الكشف والإلهام والمشاهدة. وإن عرض لك عارض بالتحدث بالرجوع إلى الناس لتعرض عليهم ما أنت فيه فأنت معهم لم تخرج عنهم بشيء ولا تغتر باعتزالك ظاهرا والقلب معهم، واهرب إلى الله تعالى، فمن هرب إليه آواه. **انتهى كلام الشاذلي**[1].

وقال الشيخ محمد المنير[2]: قد غلط قوم فظنوا أن من اعتزل الناس خرج عن كونه إلفا مألوفا، والحال أنه أولى بمقام الألفة، لأنه إذا اعتزل الناس صفت نفسه واشتاق الناس

---

[1]- هذا الكلام كله في المفاخر العلية في المآثر الشاذلية لابن عياد (ص 63-64) وقال في آخر كلامه: فاعلم هذا الباب وأتقنه جدا واستعن بالله وأصبر، إن الله مع الصابرين.

[2]- الشيخ محمد المنير أحد أصحاب سيد إبراهيم المبتولي، وهو الذي أمر بحفر بئر على الطريق. في خلاء حتى صارت عمارة كبيرة بعد ذلك وهو من أكابر الأولياء. وفي أخباره ومناقبه طول لا تسعه الهوامش. توفي نيفا وثلاثين وتسع مائة. انظر طبقات الشعراني (130/2).

إلى رؤيته فألفوه أكثر من المخالط. وأصل الائتلاف إنما هو بالأرواح لخبر: «الأرواح جنود مجندة...الحديث»[1].

ثم أشار إلى الركن الثاني من أركان التصوف بقوله: (وَ) منها أي من أركان التصوف: (التَّوْبَةُ) قال الواسطي[2]: كانت توبة بني إسرائيل بقتل النفس. قال تعالى: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ فتوبتهم إفناء نفوسهم وتوبة هذه الأمة أشد، وهي إفناء نفوسهم عن مرادها مع رسوم الهياكل ومثله بعضهم بمن أراد كسر لوزة في قارورة لكن ذلك يسير على من يسره الله عليه، وهي لغة الرجوع. (وَ) شرعا (**هِيَ تَرْكُ ذَنْبٍ**) في الحال (**سَبَقَ**) عنه (**مِثْلُهُ اخْتِيَارًا**) ولو لم يسبق عنه مثله لكان متقيا غير تائب منه، فالنبي ﷺ متق عن الكفر غير تائب منه إذ لم يسبق عنه كفر بحال. وعمر ﷺ تائب عن الكفر لما سبق عنه ذلك وقوله: "سبق مثله": أي في المترلة والدرجة لا في الصورة، فيدخل الشيخ الفاني الذي سبق منه الزنى والسرقة، والمجبوب، والأشل، والأخرس إذا سبق منهم الزنى والقذف فتصح توبتهم إذا لم يغلق بابها لأنهم وإن كان تركهم للذنب لا عن اختيار، لكنهم يقدرون على ما هو مثل الزنى والسرقة والقذف وقطع الطريق في المترلة والدرجة كالقذف والغيبة والنميمة إذ جميع ذلك كله معاص وإن كان الإثم يتفاوت في كل واحدة لكن المعاصي الفرعية كلها مترلة واحدة. وهي دون المترلة البدعية، وهذه دون الكفر، فلذلك صح منه التوبة عن الزنى وقطع الطريق وسائر الذنوب التي هو عاجز عن أمثالها اليوم في الصورة. (**تَعْظِيمًا لله**) سبحانه و (**تَعَالَى وَخَوْفًا**) وحذرا (**مِنْ**) سخطه وأليم (**عَذَابِهِ**) مجردا لا لإضرارها ببدنه، أو إخلالها بعرضه، أو

---

[1] - نص الحديث: «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف. أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء عن عائشة برقم: (3336).

([2]) هو أحمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن مسعود، عماد الدين الواسطي البغدادي ثم الدمشقي فقيه كان شافعيا. وأقام بالقاهرة مدة خالط بها طوائف من المتصوفة فتصوف. وقدم دمشق فتتلمذ لابن تيمية. وانتقل إلى مذهب ابن حنبل. ورد على المبتدعة الذين خالطهم. وكان يتقوت من النسخ ولا يكتب الا مقدار ما يحتاج إليه، وصنف كتبا منها رسالة (مفتاح طريق الاولياء وأهل الزهد من العلماء – خ) و (اختصار دلائل النبوة) و (شرح منازل السائرين) وله نظم. توفي بدمشق 771هـ. انظر الشذرات: (24/6).

حسبه، أو ماله، و لا لرغبة دنيوية، أو رهبته من الناس، أو طلب ثناء أو صيت، أو ضعف في الناس أو فقر، أو غير ذلك.

قال السنوسي: أما تركها لخوف النار، أو طمعا في الجنة؛ هل يكون توبة ففيه تردُّدٌ مبني على أن ذلك هل يكون ندما عليها لقبحها؛ ولكونها معصية أم لا وكذا وقع التردُّد في الندم عليها لقبحها مع غرض آخر. والحق أن جهة القبح إن كانت بحيث لو انفردت لتحقق الندم؛ فتوبة. وإلا فلا كما إذا كان الغرض بمجموع الأمرين لا كل واحد منهما وكذا وقع التردد في التوبة عند مرض مخوف بناء على أن ذلك الندم؛ هل يكون لقبح المعصية أم لا. بل للخوف كما في الآخرة عند معاينة النار. **انتهى**. **(مَعَ النَّدَمِ)** على المعصية لأجل قبحها، وأنها معصية. ومعنى الندم حزن وتوجع على أن فعل وتمنى كونه لم يفعل.

ابن عرفة: هو تألم نفس الفاعل لكرهه لما فعل فمن ترك المعصية من غير ندم لا يكون تائبا شرعا. **قال أبو الجوزاء**[1]: إن الرجل ليذنب الذنب فلا يزال نادما حتى يدخل الجنة، فيقول إبليس: يا ليتني لم أوقعه فيه. **(وَالنِّيَّةُ)** على **(أَنْ لاَ يَعُودَ)** إلى الذنب في المستقبل كما لا يعود اللبن إلى الضرع ويوطن نفسه ويجرد عزمه على ذلك البتة، ويعقد مع الله تعالى عقدا مؤكدا، أو يعاهده عهدا وثيقا على ذلك. وأما إن ترك الذنب وفي نفسه أنه ربما يعود إليه أو تردد بأنه يقع له العود، فإنه ممتنع عن الذنب غير تائب منه. ولهذا تصح توبة الزاني المجبوب وغيره ممن تقدم لأن المراد العزم على الترك على تقدير القدرة حتى لو سلب القدرة لم يشترط العزم على الترك خلافا **لأبي هاشم في قوله**: لا نتصور توبته وهو مردود بصحة توبة ذي مرض مخوف إجماعا.

---

[1]- هو أوس بن عبد الله الربعي بفتح الموحدة: أبو الجوزاء بالجيم والزاي، بصري، ثقة، يرسل كثيرا. (ت 183هـ) تقريب التهذيب (ص55).

قال ابن عرفة: وفيه نظر لنفي الإمكان في المجبوب وثبوته في المريض. **قاله السنوسي.** **(ورد المظالم)** من مال وعرض ونفس وحرمة دين.

أما المال فيرده إلى أربابه إن وجدهم وإلا فإلى ورثتهم، فإن لم يكونوا تصدق به عنهم وإلا أكثر من الحسنات وإلا فيرجع إلى الله سبحانه بالتضرع والصدق ليرضيَ خصمه عنه، ويكون في مشيئة الله تعالى، والمرجو من فضله العظيم أنه إذا علم صدق العبد أرضى خصماءه عنه من خزائن فضله، ولا حكم عليه.

وأما العرض إن اغتبته أو بهته أو شتمته أو قذفته فلتستحله إن أمكنك ولم تخش زيادة وهيج فتنة في إظهار ذلك أو تجديده وتكذب نفسك بين يدي من فعلت ذلك عنده، وإن لم يمكن أو خشيت ذلك فلتكثر من الحسنات فيعطى في الآخرة حق من له عليك شيء وليسر ببعضها بينه وبين الله تعالى بكمال الإخلاص بحيث لا يطلع عليه إلا الله تعالى فعسى أن يقر به ذلك إلى الله سبحانه وتعالى، فينال به فضله الذي ادخره لعباده المؤمنين في دفع مظالم العباد عنهم **كما رواه أنس.** ويستحب أن يكثر من قول: اللهم من له حقٌّ عليَّ وعلى والدي فاغفر لي ولوادي وله ولوالديه، ثم الاستغفار الكثير لصاحبه، والثناء عليه والرجوع إليه سبحانه ليرضيه عنك.

وأما النفس: فإن كان القتل خطأً فتسليم الدية إلى المستحق، وإن كان عمدا فبالقصاص، فإن شاء وليُّ الدم عفا عنه، وإن شاء قتله لخبر: القصاص طهارة.

وقال إمام الحرمين: إن القاتل إذا ندم من غير تسليم نفسه للقصاص صحت توبته، وكان منعه القصاص من مستحقه معصية متجردة تستدعي توبة. فلا تقدح في التوبة عن القتل. **وقيل:** لا تصح. وهو مرجوح. **ثم قال:** وربما لا تصح التوبة بدون الخروج من حق العبد كما في الغصب فإنه لا يصح الندم عليه مع إدامة اليد على المغصوب ففرق بين القتل والغصب. **انتهى.**

ثم إنه إن استحله وأبى فعليه أن يتلطف به ويسعى في مهماته وأغراضه ويظهر من حبه والشفقة عليه ما يستميل به قلبه. فإن الإنسان عبد الإحسان وكل من نفر بسيئة مال بحسنة. فإذا طاب قلبه بكثرة تودده وتلطفه سمحت نفسه بالاستحلال، فإن أبى إلا الإصرار فيكون تلطفه واعتذاره إليه من جملة حسناته التي يمكن أن يجبر بها في القيامة جنايته، وليكن قدر سعيه في فرحه وسرور قلبه بتودده وتلطفه كقدر سعيه في إيذائه حتى إذا قاوم أحدهما الآخر وزاد عليه أخذ ذلك عوضا منه في القيامة بحكم الله تعالى له به عليه، كمن أتلف في الدنيا مالا فجاء بمثله فامتنع من له المال عن القبول، وعن الإبراء فإن الحاكم يحكم عليه بالقبض شاء أم أبى, وكذلك يحكم في صعيد القيامة أحكم الحاكمين. وأعدل المقسطين. وأما الحرمة: فإن خنته في أهله أو ولده أو نحوه، فلا وجه للاستحلال، والإظهار لأنه يولد فتنة وغيظا، بل تضرع إلى الله تعالى ليرضيه عنك، ويجعل له خيرا كثيرا في مقابلته فإن أمنت الفتنة والهيج وهو نادر فيستحل منه. وأما في الدين: فإن كفرته أو بدعته، أو ضللته؛ فهو أصعب الأمر فتحتاج إلى تكذيب نفسك بين يدي من قلت ذلك له، وأن تستحل من صاحبك إن أمكنك، وإلا فالابتهال إلى الله تعالى بالتضرع والصدق ليرضيه عنك، وتكثر من الدعاء له بالرحمة والصلاح، وبالجملة فما أمكنك من إرضاء الخصوم عملت، وما لم يمكنك رجعت إلى الله تعالى بالتضرع والصدق ليرضيه عنك. ومن فضائل التوبة: أنها تغسل الذنوب، وترضي علام الغيوب. **وفي الحديث:** «من أحسن فيما بقي غفر له ما مضى، ومن أساء فيما بقي أخذ فيما مضى وما بقي.»[1].

وقال بعضهم: جملة ما على العبد وما يتعلق به عشر خصال واجبة عليه: أن لا يعصي الله، وأن لا يصر على المعصية إن ابتلي بها، والتوبة إلى الله، والندم على ما فرط منه، وعقد الاستقامة على الطاعة إلى الموت، وخوف العقوبة ورجاء المغفرة، والاعتراف

[1]ـ أخرجه الطبراني في الأوسط رقم: (6998) (76/15) عن أبي ذر ﷺ.

بالظلم، واعتقاده أن الله قدر ذلك عليه، وأنه عدل منه، ومتابعة الأعمال الصالحة **لحديث**: «أتبع السيئة الحسنة تمحها[1]» فإذن كل ساعة تمضي على العبد فهي بمنزلة هذه الساعة؛ قيمتها الدنيا كلها إذا عرف قيمة ذلك. **ولذلك قيل**: ليس لما بقي من عمر العبد قيمة إذا عرف وجه التقدير من الله ﷻ، بالتصريف والحكمة. **قال بعضهم**: لا تصح التوبة من عبد حتى ينسى شهواته، ويكون ذاكرا للحزن لا يفارق قلبه، ذاهبا عن الذنب لا يخالج سره.

وقال بعض علماء أهل الشام: لا يكون المريد تائبا حتى لا يكتب عليه صاحب الشمال معصية عشرين سنة. **وقال بعضهم**: من علامة صدق التائب في توبته؛ أن يستبدل بحلاوة الهوى حلاوة الطاعة، ويبدل ركوب الذنب بالحزن عليه والسرور بحسن الإنابة. **وقال آخر**: لا يكون تائبا حتى تدخل مرارة مخالفة النفس مكان حلاوة موافقتها.

فوائد في التوبة

الفائدة الأولى: إنما أمرت بالتوبة **لأمرين**: **أحدهما**: ليحصل لك توفيق الطاعة فإن شؤم الذنب يورث حرمان الطاعة. **ففي الحديث**: «إذا كذب العبد تباعد الملكان عن نتن ما يخرج من فيه»[2]. فكيف يصلح هذا اللسان لذكر الله تعالى؟ فلا جرم، لا يكاد يجد المصر على العصيان توفيقا، ولا تخِف أركانه للعبادة وكل ذلك بشؤم الذنب وترك التوبة. ولقد صدق من قال: إذا لم تقوَ على صيام النهار وقيام الليل فاعلم أنك مكبول، فقد كبلتك خطيئتك. **الأمر الثاني**: إنما تلزمك التوبة لتقبل عبادتك فإن رب الدَيْن لا يقبل الهدية وذلك أن التوبة عن المعاصي فرض لازم وعامة العبادة التي تقصدها نفل، فكيف

([1]) أخرجه أحمد (153/5 ، رقم 21392) ، والترمذى (355/4 ، رقم 1987) وقال : حسن صحيح

[2]- أورده في الجامع الصغير (142/1) برقم: (1461) بلفظ: «إذا كذب العبد كذبة تباعد عنه الملك من نتن ما جاء به». وعزاه للترمذي وهو فيه برقم (1972) عن ابن عمر. وأخرجه أبو نعيم في الحلية كذلك.

يقبل منك تبرعك والدين عليك حالٌ، ولم تقضه فكيف تترك لأجل الحلال وأنت مصر على فعل الحرام.

الفائدة الثانية: التوبة واجبة بالكتاب والسنة والإجماع على الفور؛ من كل ذنب صغيرا كان أو كبيرا، معلوما أو مجهولا، لكن المعلوم تجب التوبة منه تفصيلا، والمجهول إجمالا على كل مكلف؛ مؤمنا كان أو كافرا. **وقيل**: الصغائر لا تفتقر إلى توبة، وتغفر باجتناب الكبائر. **وقيل**: تجب من الصغيرة إذا كانت على انفرادها، ولا تجب منها إذا كانت مرتبطة بالكبيرة مثل: مقدمة الزنا إذا أراد أن يزني وقبّل وباشر، ورجع عن الزنا فإنه يغفر له ذلك بترك الوقاع. وقيل: تغفر بالحسنات، وإن لم تجتنب الكبائر، **كما اختاره الطبري**. وإن كان خلاف ما عليه **حديث أبي هريرة**: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات ما بينهن إذا اجتنبت الكبائر.»[1]

والتوبة نعمة من الله تعالى على العبد وهي مما اختصت به هذه الأمة، لأنه كان من قبلنا إذا أذنب يجد ذنبه مكتوبا على باب دراه، وكفارته: اقتل نفسك أو افعل كذا. وأبوابها منفتحة ما لم يعاين أسباب الموت، وما لم تطلع الشمس من مغربها. فمن أخرها عصى فتجب عليه توبتان.

واختار **سيدي محمد بن يوسف السنوسي**: أن الكبائر تتضاعف بتأخير التوبة أبدا حسب تضاعف بيوت الشطرنج في الحساب على ما وصف. **وذكر اللقاني في شرح الجوهرة** أن هذا مذهب المعتزلة، **فإنه قال**: والتمادي على الذنب بتأخير التوبة منه معصية واحدة. **وقالت المعتزلة**: يلزم بتأخيرها ساعة: إثم آخر تجب التوبة منه. وساعتين أربع؛ الأوليان، وترك التوبة من كل منهما. وثلاث ساعات ثمان وهكذا.

---

[1]- أخرجه مسلم برقم: (550-551-552). وأخرجه احمد في مسنده والترمذي برقم: (214) قال أبو عيسى: "حديث حسن صحيح".

والتوبة فرض على كل عبد؛ إذ لا بد له من زلة، بل من زلل كثير، فإن لم تكن له وهو نادر فزلته التقصير، ولابد منه لمجتهد، وإن مات من شدة اجتهاده، فإنه لا يبلغ أحد أمر الله كله.

الفائدة الثالثة: تصح التوبة عندنا من بعض المعاصي مع الإصرار، على بعض خلافا لأبي هاشم. واختلفوا في لزوم تجديد الندم كلما ذكر المعصية؛ **فأوجبه القاضي منا وأبو علي** من المعتزلة. و لم يجب عند إمام الحرمين إلا أن يذكره مشتهيا لها فرحا بها.

ابن عرفة: وظاهر لفظ عياض بطلان التوبة الأولى بعدم تجديد الندم عند ذكر الذنب. وتوبة الكافر: مقبولة قطعا إجماعا. **واختلف** في توبة المؤمن العاصي، هل هي مقبولة شرعا، ظنا، وصحح أو قطعا. **واختلف** أيضا هل التوبة من جميع الذنوب، أو في غير قتل النفس. **وهو ظاهر قول مالك لأنه رد شهادته وإمامته.**

الفائدة الرابعة: في التوبة النصوح ثلاث وعشرون قولا، **منها** قول عمر: أن يذنب ثم لا يعود. **ومنها:** أن يصير من عدم قبولها على وجل. **ومنها:** ألا يحتاج معها إلى توبة أخرى. **ومنها:** أن يبغض الذنب ويستغفر منه كلما ذكره. أخرجه ابن أبي حاتم عن الحسن البصري. **ومنها:** أن يخلص التوبة. **ومنها:** أن يشتمل على خوف ورجاء ويهاجر من أعانه. **ومنها:** أن يكون ذنبه بين عينيه. **ومنها:** أن يكون وجها بلا قفا، كما كان قفا بلا وجه في المعصية. انظر بقية الأقوال في تفسير القرطبي. فإن رجع التائب إلى الذنب من غير إصرار. فالصحيح لا تعود عليه ذنوبه أولا، لكن الاعوجاج في التوبة من سوء الأدب مع الله تعالى.

قال في شرح شهية السماع: لأنه متى كان في التوبة اعوجاج ولو يسيرا انسحب حكم الاعوجاج في كل مقام بعد التوبة فيصير بناء السالك مهلهلا كالذي يبني حائطه من اللبن اليابس بغير طين. إذ التوبة أس لكل مقام ترقى إليه العبد حتى يموت فكما أن

من لا أس له لا بناء له كذلك من لا توبة له لا مقام له. **وقال سيدي عبد القادر الجيلاني:** من أحكم مقام توبته حفظ من سائر الشوائب التي تشوب في الأعمال، فهي نظير مقام الزهد في الدنيا، يحفظ به صاحبه من سائر ما يحجب عن الحق سبحانه. **وقال سيدي محمد بن عنان:** من استقام في توبته عن المعاصي ارتقى إلى التوبة من كل ما لا يعني. ومن لم يستقم فلا يشم من التوبة عن الفضول رائحة ولا يقدر على رعاية خاطره أبدا بل تغلب عليه خواطر المعاصي حتى في صلاته. وتأمل قوله تعالى للمعصوم الأكبر ﷺ: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ فأمره تعالى بالاستقامة في التوبة ومن تاب معه من جميع أتباعه وأمته. **وقال سيدي علي الخواص:** من استقام في توبته وزهد في الدنيا فقد انطوى فيه سائر المقامات والأحوال الصالحة. والمستقيم في التوبة: هو الذي لم يكتب عليه صاحب الشمال ذنبا أربعين سنة. **انتهى**[1].

الفائدة الخامسة: للتوبة بداية ونهاية؛ فبدايتها التوبة من الكبائر. ثم الصغائر، ثم المكروهات ثم من خلاف الأولى، ثم من رؤية الحسنات، ثم من رؤية أنه صار معدودا من فقراء الزمان، ثم من رؤية أنه صدق في التوبة، ثم من كل خاطر مذموم. وأما نهايتها فالتوبة كلما غفل عن شهود ربه طرفة عين.

الفائدة السادسة: وأما النية أن لا يعود فلها أعمال تخصها **منها:** المداومة في الأعمال، ومراقبة الله في السر والعلانية وإدامة الاستغفار حتى تنمّحي آثار المعصية من قلبه. ثم الإكثار من الصلاة على النبي ﷺ حتى يتنور قلبه وإذا تنور صار له حكم أهل العناية، ويتم له ذلك بصحبة الصالحين والمشائخ، ومن عسرت عليه التوبة فليكثر من قراءة سورة النصر. ومن عسر عليه قياد نفسه فليكثر من "حسبنا الله ونعم الوكيل"، ومن أراد الإخلاص فليكثر من قراءة سورته، وليقل كل يوم: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك

(1) انظر شهية السماع (ص: 2- 3) مخطوط في الزاوية.

وأنا أعلم وأستغفرك مما لا أعلم. ثلاثا مساء وصباحا، ويذكر سيد الاستغفار دائما. واتباع السنة، والصلاة في الجماعة عصمة من الانقلاب. **قاله سيدي زروق.**

وكان أبو زكرياء الرازي[1] **يقول في دعائه:** إلهي لا أقوى على شروط التوبة فاغفر لي بلا توبة. **قاله الشعراني**(2).

وأما نسيان الذنوب بعد التوبة وتذكرها فهما طريقتان:

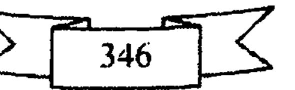
الأولى: للعارفين والمحبين، نسوا ذنوبهم شغلا عنها بالأذكار وهي مقام التوحيد وهي أفضل.

الثانية: للمريدين والخائفين تذكروا ذنوبهم دائما لاستخراج الحزن الدائم، والخوف اللازم وهي مقام التعريف، وهي أدنى ولا يعترض بقصة داوود عليه السلام في تذكره ونحوه على خطيئته؛ لأن الأنبياء علهم الصلاة والسلام يسلك بهم سبيل المعلمين، وذلك لأجل الأمة.

وفي نسيان الذنوب: الذكر لما يستقبل، والانكماش على ما يفوت من الوقت خوفا لفوت ثان. **وكره بعضهم** للمريد أن تكون وساوسه الجنة. أو يذكر ما فيها من النعيم واللباس والأزواج، ولكن تكون وساوسه ذكر الله، وخواطره وهمته متعلقة بالله لا بسواه. **قال:** لأن المريد حديث عهد بتوبته غير معتاد لطول الاستقامة والعصمة فإذا تذكر نعيم الجنة لم آمن عليه لضعف قلبه أن يشتهي مثله مما يشاهد في الدنيا من اللباس والطيبات والنساء. لأن هذا عاجل وذلك آجل.

1- هو يحيى بن معاذ بن جعفر، الواعظ الرازي ﷺ له لسان في الرجاء خصوصا وكلام في المعرفة (ت 258هـ) بنيسابور. طبقات الشعراني (81/1).

(2) انظر الطبقات الكبرى للشعراني: (80/1).



وقال أبو محمد بن سهل: لا يضره خطورة ذنب تاب منه بقلبه، فيجد حلاوته، لأنه من طبع البشر وليس له حيلة إلا أن يرفع قلبه إلى مولاه بالشكوى وينكر بقلبه ويلزم نفسه الإنكار ولا يفارقه ويدعو الله ﷻ أن ينسيه ذكر غيره ويشغله بذكره، فإن غفل عن الإنكار طرفة عين أخاف عليه أن يعود. وتعمل الحلاوة في قلبه ولكن مع وجدان الحلاوة يلزم نفسه الإنكار ويحزن فإنه لا يضره؛ لأن التوبة تصح مع بقاء الشهوة. ويكون العبد مرادا بالمجاهدة ومحو الشهوة من القلب وربما تعلق بالذنب ذنوب كثيرة هي أعظم منه، مثل الإصرار عليه والاغتباط به وتسويف التوبة بعده، ووجدان حلاوة الظفر، ووجدان الحزن والكراهة على فوته، والسرور بعلمه أو حمل غيره عليه، إن كان ذنب بين اثنين. وأقل ما في هذه: أنه لا ينهى عن منكر بيده ولا بلسانه، وهو يقدر عليه ولا بقلبه وهو أضعف الإيمان، وذهاب الحياء عنه، ويكون بموافقة الفاحشة منافقا، ومن ذلك إنفاق مال فيه، وأن يستصغر الذنب ويحتقره، والمجاهرة به والتحدث به، ثم إذا تمت توبتك على نحو ما قدمنا من إرضاء الخصماء، والتضرع إلى الله تعالى ليكفيك ذلك فقال الغزالي: تغتسل وتغسل ثيابك وتصلي أربع ركعات وتضع وجهك بالأرض، بمكان خال لا يراك إلا الله تبارك وتعالى، ثم تجعل التراب على رأسك، وتمرغ وجهك في التراب بدمع جار وقلب حزين ، وصوت عال، تذكر ذنوبك واحدا واحدا، ما أمكنك،وتلوم نفسك العاصية وتوبخها وتقول: أما تستحيي يا نفسي، أما آن لك أن تتوبي؟ ألك طاقة بعذاب الله تعالى؟ ألك حاجة بسخطه؟ وتذكر من هذا كثيرا وتبكي، ثم ترفع يديك إلى رب رحيم وتقول: إلهي؛ عبدك الآبق رجع إلى بابك، إلهي؛ عبدك العاصي رجع إلى الصلح، عبدك المذنب أتاك بالعذر، فاعف عني بجودك وتقبلني بفضلك. وانظر إلـــيَّ برحمتك، اللهم اغفر لي ما سلف من الذنوب، واعصمني فيما بقي من الأجل، فإن الخير كله بيدك ، وأنت رؤوف رحيم. ثم تبدأ دعاء الشدة وهو: يا مجلي عظائم الأمور، يا منتهى همة المهمومين، يا من إذا أراد أمرا فإنما يقول له كن فيكون؛ أحاطت بنا ذنوبنا، وأنت المذخور لها يا مذخورا لكل شدة، كنت أدخرك لهذه الساعة، فتب علي إنك أنت

التواب الرحيم، ثم ابك وتذلل وقل: يا من لا يشغله شأن عن شأن، ولا سمع عن سمع، ولا تشتبه عليه الأصوات، يا من لا تغلطه المسائل، ولا تختلط عليه اللغات، يا من لا يبرمه إلحاح الملحين، ولا تضجره مسألة السائلين، أذقنا برد عفوك، وحلاوة مناجاتك إنك على كل شيء قدير. ثم تصلي على النبي ﷺ وتستغفر لجميع المسلمين وترجع إلى الطاعة، فتكون قد تبت توبة نصوحا، وقد خرجت من الذنوب طاهرا كيوم ولدتك أمك، وأحبك الله سبحانه ولك من الأجر والثواب، وعليك من البركة والرحمة ما لا يحيط به وصف واصف، وحصل لك الأمن والخلاص، ونجوت من غضة المعاصي، وبليتها في الدنيا والآخرة.

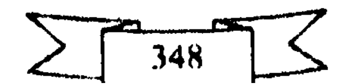
وقال سيدي عطية: من علامة التوبة إذابة كل لحم وشحم نبت من حرام في جسمك وإذاقة نفسك مرارة الطاعة، كما أذقتها حلاوة المعصية. **وقال سهل بن عبد الله التستري**: لا يصح للإنسان حقيقة التوبة **حتى يترك أربعة**: أخلاق إلا الأبالسة؛ وهي الإباء عن قبول الحق. وأخلاق السحرة؛ وهي الخَتْرُ، والمكر، وإظهار ما يستجلب به عيون الناس إليه. وأخلاق البهائم؛ وهي الأكل بلا توقف ولا ورع. وأخلاق الشياطين؛ وهي مكافأة الجاهل بأكثر مما جهل به عليك.

وقال عبيد بن عمير[1] في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ إن الأواب من يذكر ذنوبه في الخلاء فيستغفر منها. **وقال في الإحياء**: وينبغي أن يبادر التائب بعد التوبة إلى الاشتغال بالتفكير بحسنة تضاد ذنبه، كما يأتي طريق ذلك إن شاء الله، وأن يدرأ بالحسنة السيئة لتمحوها.

والحسنات المكفرات للسيئات: إما بالقلب وإما باللسان، وإما بالجوارح، ولتكن الحسنة في محل السيئة **وفي ما يتعلق بأسبابها**:

---

[1]- عبيد ابن عمير كان يقول: من صدق الإيمان إسباغ الوضوء في المكاره بالليل، وأن تخلو بالمرأة الحسناء لا تلتفت إليها. ومن كلامه: طوبى لمن يرى الشهوات بعينه ولا يشتهي الخطايا بقلبه. طبقات الشعراني (38/1)



- **فأما بالقلب**: فيكفر بالتضرع إلى الله تعالى في سؤال المغفرة والعفو ويتذلل كتذلل العبد الآبق حتى يظهر للناس فما للعبد الآبق المذنب وجه للتكبر على العباد وكذلك يضمر بقلبه الخيرات للمسلمين والعزم على الطاعات.

- **وأما باللسان**: فبالاعتراف بالظلم والاستغفار. يقول: رب إني ظلمت نفسي وعملت سوءا فاغفر لي ويكثر من ضروب الاستغفار.

- **وأما بالجوارح**: فبالطاعات والصدقات وأنواع العبادات.

وفي الآثار ما يدل على أن الذنب إذا أتبع بثمانية أعمال كان العفو عنه مرجوا أربعة من أعمال القلب وهي: التوبة، والعزم على التوبة، وحب الإقلاع عن الذنب، وخوف العقاب ورجاء المغفرة. **وأربعة من أعمال الجوارح وهي**: أن يصلي عقب الذنب ركعتين: ثم يستغفر الله بعدهما سبعين مرة. ويقول: سبحان الله العظيم وبحمده مائة مرة. ثم يتصدق، ثم يصوم يوما، **وفي بعض الآثار**: يتوضأ ويصلي في المسجد ركعتين، وفي بعض الأخبار: يصلي أربع ركعات. **وفي الخبر**: «إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تكفرها؛ السر بالسر والعلانية بالعلانية[1]».

وفي الخبر الصحيح: أن رجلا قال لرسول الله ﷺ: إني عالجت امرأة فأصبت منها كل شيء إلا المسيس، فأقض علي بحكم الله. فقال ﷺ: «أو ما صليت معنا صلاة الغداة؟ فقال: بلى. فقال: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾»[2] وهذا يدل على أن مادون الزنى من معالجة النساء صغيرة. **انتهى**.

---

(1) أخرجه أحمد في الزهد (ص 26) . قال المناوى (406/1) : قال العراقى : فيه انقطاع .

[2]- ففي سن ابن ماجه عن عبد الله بن مسعود أن رجلا أصاب من امرأة يعني ما دون الفاحشة -فلا أدري ما بلغ غير أنه دون الزنى- فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له فأنزل الله سبحانه: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ﴾ إلخ الآية. فقال يا رسول الله ألي هذه؟ قال: لمن أخذ بها. انظر سنن ابن ماجه كتاب إقامة الصلوات برقم: (1398)عن عبد الله بن مسعود.

وقال الشوشاوي: هذه الآيات يقرؤها من ارتكب ذنبا فيستغفر الله وهي: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾، ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾. **انتهى**[1].

الفائدة السابعة: **قال الغزالي**: إذا تبت من سيئاتك فاطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها. لحديث: «اتق الله وأتبع السيئة الحسنة تمحها». قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ فيكفر سماع الملاهي بسماع القرآن وبمجالس الذكر، والقعود في المسجد جنبا؛ بالاعتكاف فيه مع الاشتغال بالعبادة. ويكفر مس المصحف محدثا بإكرامه وكثرة القراءة فيه، وكثرة تقبيله. وبأن يكتب مصحفا ويحبسه. وشرب الخمر بالتصدق بكل شراب حلال هو أطيب وأحب، ويقابل أيضا إذاية الناس بالإحسان عليهم، وغصب أموالهم بالتصدق، ويكفر غيبتهم بالثناء على أهل الدين، وإظهار ما يعرف من خصال أقرانه، ويكفر قتل النفس بالعتق. وهذا التدريج في محو المعصية أولى من أن يواظب على نوع من العبادات وإن كان أيضا مؤثرا في المحو لأن المرض يعالج بضده، فكل ظلمة ارتفعت إلى القلب بمعصية فلا يمحوها إلا نور يرتفع إليها بحسنة تضادها. **انتهى بخ وتلفيق.**

وفي الخبر: «إذا أسأت فأحسن[2]». **وفيه**: «إذا كثرت ذنوبك فاسق الماء على الماء[3]». **قوله**: "الماء على الماء" **قال العلقمي**: ليس ذلك بقيد، بل لنفي توهم أنه حازه

([1]) انظر الفوائد الجميلة على الآيات الجليلة: (403) قال فيها: "لأنه روي في الحديث: أن من قرأها ثم استغفر الله تبارك وتعالى غفر له بمنه وفضله".

([2]) أخرجه الطبراني (39/20 ، رقم 58)

(3) أخرجه الخطيب (403/6) وأورده الذهبي في الميزان (73/7)

بلا كلفة كبيرة فلا أجر فيه. بل فيه الأجر والثواب فكيف إذا عظمت مشقته. **وقال المرسي في حديث:** «من اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه[1]». **قال:** لأن إنكار الذنب والاعتذار عنه بالكذب تزكية للنفس المذنبة، وشهادة زور، وتجهيل المنكر منه المعتذر عنده ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾ ﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ﴾وهذا شيء نجده في أنفسنا أن المذنب إذا اعترف وخضع رقت، له وكرهت عقوبته وتوبيخه بعد ذلك ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ والعكس بالعكس. **قاله الشعراني**[2].

وقال سيدي زروق: قالوا: من ترك شهوته لله تعالى سبع مرات: أي بصدق وجهاد نفس لم يبتل بها والله أكرم من أن يعذب قلبا بشهوة تركت لأجله. **وقيل:** من تاب من ذنب واستقام عليه سبع سنين لم يعد إليه أبدا. قال بعض العلماء: إنما يكفر الذنب الذي ارتكبه العاصي عشر مرات، أن يتمكن منه عشر مرات مع صدق الشهوة ثم يصبر عنه ويكسر شهوته خوفا من الله تعالى.

قال الغزالي: واشتراط هذا بعيد، وإن كان لا ينكر عظيم أثره لو فرض، ولكن لا ينبغي للمريد الضعيف هذا خوفا من نقض التوبة بل طريقه الفرار.

وقال الحسن: من كانت ذنوبه في شهوته فأرجو له التوبة. ومن كانت ذنوبه في الكبر [فلا ترجو له التوبة[3]]. دليل ذلك آدم وإبليس. **وفي الحديث: عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال:** «لا الله تعالى أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ

([1]) أخرجه البخاري (1517/4 ، رقم 3910) ، ومسلم (2129/4 ، رقم 2770)

([2]) انظر الطبقات الكبرى للشعراني: (276/1).

([3]) في نسخة "فارجوا له التوبة.

بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك فأخطأ من شدة الفرح»[1].
وفي رواية: «فنام نومة فاستيقظ -وقد ذهبت راحلته- فطلبها حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش أو ما شاء الله. قال: ارجع إلى مكاني فرجع فنام نومة ثم رفع رأسه فإذا راحلته عنده».

قال ابن أبي جمرة: وفي رجوعه إلى الموضع الذي ذهبت منه راحلته إشارة إلى الثقة بعظم قدرة القادر، لعل من الباب الذي كان منه الكسر بالعدل، يكون منه الجبر بالفضل حالة يعقوبية، كما ذهب بصره بقميص يوسف عليه السلام. كان به أيضا رجوعه ولذلك قال ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وفي هذا أيضا دليل على بركة الاستسلام لأمر الله وسرعة النجح عند ذلك.

يؤخذ ذلك من أنه لما ترك صاحب الراحلة جده وطلبه، وأسلم لله أمره. واستسلم له برجوعه إلى موضوعه، فأول خيراته: إرسال النوم، لأنه من علامات الرحمة عند وقوع الشدائد والرفق بمن وقعت به كما قال الله تعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ﴾ ولم يرسل تعالى على المنافقين شيئا من النعاس، وبقوا في كرب عظيم. **وفي الحديث:** «إذا تاب العبد يباهي الله به الملا الأعلى، ويوقد له سراج بين الأرض والسماء وينادي مناد من قبل الله: إن فلانا بن فلان قد صالح مولاه». **أو كما قال.**

وفي المتفق عليه من الصحيحين عن أبي سعيد الخدري ﷺأن النبي ﷺ قال: «كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم، فقال له: إنه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من توبة؟ فقال: لا. فقتله، فكمل به مائة. ثم سأل عن أعلم أهل الأرض؟ فدل على رجل عالم فقال له إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ فقال نعم، ومن يحول بينك وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا

---

[1]- أخرجه البخاري: كتاب الدعوات برقم: (6380) عن ابن مسعود فأخرجه من عدة طرق كذلك. ومسلم برقم: (6953-6955-6960-6961-6958)

وكذا، فإن بها ناسا يعبدون الله، فاعبد الله تعالى معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء فانطلق حتى إذا أنصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة جاءنا تائبا مقبلا بقلبه إلى الله تعالى. وقالت ملائكة العذاب إنه لم يعمل خيرا قط، فأتاهم ملك في صورة آدمي، فجعلوه حكما بينهم. فقال: قيسوا ما بين الارضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له فقاسوا فوجدوه أقرب إلى الأرض التي أراد بشبر فقبضته ملائكة الرحمة(1)».

وعن الأستاذ أبي إسحاق الاسفراييني[2] **أنه قال:** دعوت الله تعالى ثلاثين سنة أن يرزقني توبة نصوحا، ثم تعجبت في نفسي! فقلت: سبحان الله، حاجة دعوت الله فيها ثلاثين سنة فما قضيت إلى الآن. فرأيت فيما يرى النائم كأن قائلا يقول: أتعجب من ذلك؟ أتدري ما تسأل الله تعالى؟ إنما تسأله أن يحبك، أما سمعت قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ فهذه حاجة هينة.

وفي الخبر: «جالسوا التوابين فإنهم أرق شيء أفئدة(3)». **وفيه:** «إذا عملت سيئة فأحدث بعدها توبة؛ السر بالسر والعلانية بالعلانية»[4]. **وفيه:** «لو أخطأتم حتى تبلغ خطاياكم عنان السماء ثم تبتم لتاب الله عليكم»[5].

وفي الإسرائيليات: أن الله تعالى قال لبعض أنبيائه عليهم السلام –وقد سأله ذلك النبي قبول توبة عبد بعد أن اجتهد سنين في العبادة ولم ير قبول توبته– فقال: "وعزتي وجلالي لو شفع فيه أهل السموات والأرض ما قبلت شفاعته". وحلاوة ذلك الذنب في قلبه.

---

(1) أخرجه مسلم (2119/4 ، رقم 2766) ، وابن ماجه (875/2 ، رقم 2622)

[2]– هو ابراهيم بن محمد بن ابراهيم بن مهران، أبو إسحاق الإسفراييني، عالم بالفقه والأصول، درس بنيسابور ورحل إلى خراسان والعراق، له كتاب "الجامع" في أصول الدين (5 مجلدات) ورسالة في أصول الفقه، وكان ثقة في الحديث (ت 481هـ) ينظر للزيادة وفيات الأعيان (4/1) شذرات الذهب (209/3).

(3)أخرجه ابن المبارك فى الزهد (42/1 ، رقم 132) عن عمر

[4]– أورده في الجامع الصغير (الفتح الكبير) (126/1) وعزاه لأحمد في مسنده في الزهد عن عطاء مرسلا.

[5]– أخرجه ابن ماجه برقم: (4248) عن أبي هريرة.

وفي الحديث: «ما من رجل يذنب ذنبا ثم يتطهر ثم يصلي ركعتين فيستغفر الله من ذلك الذنب إلا غفر الله له»[1]. **وفيه:** «من أخطأ خطيئة أو أذنب ذنبا وأحب أن يتوب إلى الله فليأت فليمدد يده إلى الله ثم ليقل: اللهم إني أتوب إليك منها لا أرجع إليها أبدا، فإنه يغفر له ما لم يرجع في عمله ذلك، وقال رجل واذنوباه، فقال له النبي ﷺ قل: اللهم مغفرتك أوسع من ذنوبي ورحمتك أرجى عندي من عملي فقالها ثلاثا. فقال: قم قد غفر الله لك»[2].

وروى الطبراني مرفوعا: «من قال دبر كل صلاة: أستغفر الله وأتوب إليه غفر الله له وإن كان فر من الزحف[(3)]». ولا شك أن الفرار من الزحف من الكبائر.

وروى ابن عساكر عن معروف الخياط عن واثلة مرفوعا: «من حمل جوانب السرير الأربع غفر الله له أربعين كبيرة»[4].

وروى الطبراني والبيهقي عن ابن عمر وابن عباس مرفوعا: «من صام يوم الأربعاء ويوم الخميس ويوم الجمعة ثم تصدق بصدقة يوم الجمعة بما قل أو كثر غفر له كل ذنب حتى يصير كيوم ولدته أمه من الخطايا»[5].

وروى الديلمي عن ابن عمر مرفوعا: «من صام يوما من رمضان بإنصات وسكون وتكبير وتهليل وتحميد: يحل حلاله ويحرم حرامه غفر له ذنوبه كلها[(6)]».

---

[1]- أورده الحديث في الجامع الصغير (الفتح الكبير) (144/3) وعزاه للطبراني في الأوسط والبيهقي في شعب الإيمان، وأخرجه ابن ماجه بلفظ: «ما من رجل يذنب ذنبا فيتوضأ فيحسن الوضوء ثم يصلي ركعتين فيحسن الوضوء ثم يصلي ركعتين ويستغفر الله إلا غفر له» برقم: (1395) عن علي بن أبي طالب عن أبي بكر الصديق.

[2]- أورده في الجامع الصغير (الفتح الكبير) (284/2) وعزاه للحاكم في لمستدرك والضياء عن جابر.

(3) أخرجه الطبراني (89/5 ، رقم 4670)

4- أخرجه في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (42/3).

[5]- أورده في الجامع الصغير (الفتح الكبير) (178/3) وقال أخرجه ابن عساكر عن واثلة.

([6]) أخرجه السيوطي في جامع الأحاديث: (22656).

وروى الطبراني عن ابن عباس مرفوعا: «من قاد أعمى حتى بلغ مأمنه غفر الله له أربعين كبيرة، وأربع كبائر توجب النار»[1].

وروى الترمذي عن أبي سعيد مرفوعا: «من قال حين يأوي إلى فراشه: أستغفر الله العظيم الذي لا إله غلا هو الحي القيوم وأتوب إليه غفر الله له ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر»[2].

وروى البخاري عن أنس مرفوعا: «من قال: لا إله إلا الله ومدها هدمت له أربعة آلاف ذنب من الكبائر».

ورواه السنوسي بلفظ: «من قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه ومدها بالتعظيم غفر الله له أربعة آلاف ذنب من الكبائر قيل: فإن لم تكن له هذه الذنوب؟. قال غفر له ذنوب والديه وأهله وجيرانه، ولم ينسبه لمخرجه. إلى غير ذلك من الأحاديث التي تكفر الكبائر»[3].

الجوع وفوائده

ثم أشار إلى الركن الثالث من أركان التصوف الذي هو معظمها بقوله: (وَ) منها: أي من أركان التصوف (**الْجُوع**) كما أن "عرفة" معظم أركان الحج؛ لأن ما في الأركان تابع له بالخاصية. وإنما كان الجوع معظمها؛ لأن العبد إذا جاع قل نومه وكلامه، وأحب العزلة ولكن الجوع المفرط مفسد للفكرة مقو للخيالات، مفسد للقلب وهو ما يشتهي معه كل خبز فلزم الجوع المتوسط وهو ما يشتهي معه الخبز وحده، ثم عند أكله باستقلاله والكاذب ما ينضاف إليه كل شهوة غير معتادة له فافهم. **قاله زروق**[4].

---

[1]- تقدم تخريجه.

[2]- رواه أحمد في مسنده والترمذي برقم: (3297) عن أبي سعيد الخدري.

[3]- تقدم تخريجه.

[4]- القواعد (77/103)

وفوائد الجوع ثلاثة عشر: -صفاء القلب. -ورقته لاستلذاذ للعبادة. -والانكسار. -وذكر جوع جهنم. -ودفع كثرة شهوة الفرج. -ودفع النوم. -وتيسير المواظبة. -على الطاعة. -والفراغ من الاهتمام بتحصيل الطعام وإعداده وأكله. -والفراغ من قضاء الحاجة الإنسانية. -ودفع الأمراض الشاغلة عن الطاعة. -وخفة المؤونة. -والاكتفاء بالقليل. -وإمكان الإيثار بالفاضل. وقالوا: الأشياء التي قِلّتُها محمودة ثلاثة: الأكل، والنوم، والكلام. **وقد أنهى بعضهم فوائد الجوع إلى خمسين ونظمها.**

وقال يحي بن معاذ: الجوع طعام يقوِّي الله به أبدان الصديقين. **وقال سهل:** لما خلق الله الدنيا جعل في الجوع العلم والحكمة، وفي الشبع الجهل والمعصية. **وقال الشيخ محي الدين:** إن الله لما خلق النفس قال لها: من أنا؟ فقالت من أنا؟ فأسكنها في بحر الجوع أربعة آلاف سنة. ثم قال لها من أنا؟ فقالت: أنت الله وليس للنفس الأبية أسرع لانقيادها من الجوع: لأنه يذل الملوك فضلا عن غيرهم، إذ النفس قبل الرياضة تشبه الدابة الحرون، أو كالعجل الذي يعلمونه الدوَرَان في الطاحون، فتراهم يجوعونه ويغمضون عينيه بخرقة، ويدورونه في الطاحون، فلا يزال كذلك حتى يظهر لهم كمال الانقياد. فهناك يطعمونه ويكفون العمى عن عينيه.

وروى أبو نعيم عن سفيان الثوري عن إبراهيم بن أدهم عن محمد بن زياد عن أبي هريرة قال: دخلت على رسول الله ﷺ وهو يصلي جالسا فقلت له: يا رسول الله تصلي جالسا فما أصابك؟ قال: «الجوع يا أبا هريرة. قال: فبكيت فقال: لا تبك فإن شدة يوم القيامة لا تصيب الجائع إذا احتسبه في دار الدنيا»[1]. وكان ﷺ يشد الحجر على بطنه من الجوع. **وقال الشعراني:** كان له ﷺ مقام آخر أكبر من هذا وهو أنه يبدأ بنفسه ولا يجوع إلا اضطرارا لأن الكامل من شأنه أن يوفي طبيعته حقها لأنه مسئول عنها فما جاع ﷺ اختيارا ولا آثر على نفسه إلا ليقتدى به في ذلك فافهم. **انتهى.**

---

[1]- أخرجه في جامع الأحاديث (229/39) وحلية الأولياء (109/7) عن أبي هريرة.

وما ذكره الشعراني مخالف لما في شفاء الصدور أنه ﷺ كان يجوع من غير عذر مختارا لذلك. **وقال السلمي**: إن النفس إذا جاعت عدمت حظها، وإذا عدمت حظها ضعفت، وإذا ضعفت غلبها القلب وإذا غلبها حملها على الطاعة وأسقط عنها الكسل. **ولذا جاء في الحديث**: «ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه[1]».

فوائد

الفائدة الأولى: قال زروق: ويعين على الجوع أن يذكر الشخص: "يا صمد من غير شبيه" "ولا شيء كمثله 350". **وقال أبو سليمان الداراني**: إذا أردت حاجة من حوائج الدنيا والآخرة: فعليك بالجوع ثم اسألها. وذلك لأن الأكل يغير العقل.

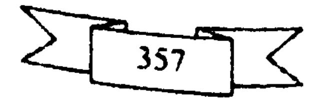
الفائدة الثانية: قال في قواعد الصوفية: ما مدح أو ذم لا لذاته قد ينعكس لموجب يقتضي نقيضه. وقد صح: "الدنيا ملعونة" الحديث. وصح: لا تسبوا الدنيا" ..إلخ. ومدحت الرئاسة لما تودي له من حفظ النظام؛ حتى أثنى الله على من طلب الرياسة الدينية فقال: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ وذمت لما تودي إليه من الكبر والخروج عن الحق ومدح الصمت للسلامة وذم الصمت عن الواجب الذي لا بد منه. ومدح الجوع لتصفية اباطن. وذم لإخلاله بالفكر، فلزم التوسط[2].

الفائدة الثالثة: قال زروق أيضا في قواعده: استواء الفعل والترك في المنفعة يقضي بترجيح الترك؛ لأنه الأصل ولاستصحابه السلامة. فمن ثم فضُل الصمتُ الكلامَ، حيث لا مرجح له. وترك الدنيا أخذها، والعزلة الصحبةَ سيما في زمن لا يأمن فيه الرجل جليسه. والجوع الشبعَ. إلى غير ذلك مما فقده في الحال فائدة في المآل. ومنه ترك



(1) أخرجه ابن حبان (2/449، رقم 674)، والبيهقي في شعب الإيمان (5/28، رقم 5649)

(2) انظر قواعد الصوفية (103/77)



الشهوات عند قوم ما لم يعتقد القربة بذلك، فلا يصح إلا بنية صالحة تحوله للندب، إذ قد أذن الله فيه فليس أحد الجانبين بأولى من غيره في أخذه وتركه إلا بمرجح[1].

الفائدة الرابعة: قال الشعراني: قالوا: ينبغي للعالم ألا يشبع قط لاسيما أيام التأليف وذلك لئلا يحجب عن كمال الفهم في القرآن والحديث والفقه وغير ذلك. فإن فهم الشبعان يكون ضعيفا جدا. ومن شك في هذا فليجرب. وقد جربوا فوجدوا الخير كله والنور في خلو البطن، حتى أنهم قالوا في المثل السائر في الطبل: إنما كان صوته قويا جهوريا لكونه خالي الجوف. **وقال سيدي علي السناوي المشهور بالذويب[2]:** صاحب الجوع إن لم يطع الله لم يعصه، لعدم داعية تدعوه إلى المعاصي. **وقال أبو سليمان الداراني:** الجوع عند الله في خزائنه لا يعطيه إلا لمن أحب. **انتهى.**

وفي الحديث: «ما من عبد ترك أكلة مخافة من حسابها إلا كانت له درجات يوم القيامة[3]». **وفيه:** «لا يدخل ملكوت السموات والأرض من يملأ بطنه». **وفيه:** «لكل شيء زكاة وزكاة البدن الجوع.»[4] ووضع أهل قباء بين يديه ﷺ قدحا فيه لبن مشوب بعسل، فقال: أما أني لست أحرمه ولكني أتركه تواضعا لله.

السهر والصمت

ثم أشار إلى الركن الرابع والخامس فقال: (وَالسَّهَرِ وَالصَّمْتِ) وهو السكوت مع القدرة على النطق، فإن توقف فيه فهو العي وإن فسدت آلة النطق فهو الخرس **(إِلاَّ عَنْ**

([1]) القواعد (92/102).

([2]) هو علي السناوي المعروف بالذويب الصالح المكاشف أقام بمصر نحو عشرين سنة ثم نزل إلى الريف وظهرت له كرامات وخوارق أخذ عن الشيخ محمد العدل الطناخي وغيره وكان ملاميا يلبس تارة لباس الحمالين وتارة لباس التراسين ولما مات وجدوا في داره نحو ثمانين ألف دينار مع أنه كان متجردا من الدنيا. انظر شذرات الذهب: (269/8).

([3]) لم أجد تخريجه.

[4]- أخرجه ابن ماجه رقم ((1745) عن أبي هريرة ﷺ.

خَيْرٍ) لحديث أبي ذر أن النبي ﷺ قال له: «عليك بالصمت إلا عن خير، فإنه مطردة للشيطان عنك، وعون لك على أمر دينك[1]».

قال القشيري: الصمت في وقته صفة الرجال، كما أن النطق في وقته أشرف الخلال[2]. **وقال أبو علي الروذباذي**[3]: من سكت عن الحق فهو شيطان.

قال علماؤنا: إذا استوى الكلام والصمت في المنفعة فالصُمت مقدم، وما ترجح منهما فحكم الوقت له، وسئل أبو حفص أي الحالين للولي أفضل؛ الصمت أو النطق؟ فقال: لو علم الناطق ما آفة النطق لصمت إن استطاع ألف سنة، ولو علم الصامت ما آفة الصمت لسأل الله أن يعمره ألفي سنة، حتى ينطق. وإنما أمرت بالصمت لأن اللسان أشد الأعضاء على الإنسان وأهلكها له. **وفي الحديث:** «هل يكب الناس في النار إلا حصائد ألسنتهم[4]». **وفيه:** «إن الرجل ليتكلم بكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالا يهوي بها في النار سبعين خريفا[5]». **ولذا قيل:** ما شيء أحق بطول السجن من اللسان.

قال بعض السلف: تعلمت الصمت بحصاة جعلتها في فمي ثلاثين سنة كنت إذا هممت بكلمة تلجلج بها لساني، فأسكت. **ونحوه عن الصديق رضي الله عنه قال:** جعلت على لساني بكل كلمة أتكلم بها فيما لا يعني صلاة ركعتين، فسهل ذلك علي ولم أنته حتى جعلت على نفسي بكل كلمة صوم يوم فسهل ذلك علي ولم أنته حتى جعلت على نفسي بكل كلمة صدقة درهم فصعب ذلك علي، فانتهيت.

---

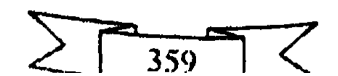
(1) من حديث طويل أخرجه ابن حبان (76/2 ، رقم 361) ، وأبو نعيم فى الحلية (166/1) .

(2) انظر الرسالة القشيرية: (120).

3- أبو علي الروذبازي: واسمه أحمد بن محمد بن القاسم بن منصور ينتهي نسبه إلى كسرى، بغدادي سكن مصر وكان شيخها ومات بها. صحب الجنيد والنوري ومن في طبقتهم، وكان عالما عارفا يعلم الطريقة، حافظا للحديث (ت: 322هـ)ومن كلامه: المريد لا يريد لنفسه إلا ما أراد الله له، ومنه: التوبة، والاعتراف والندم والإقلاع. انظر طبقات الصوفية للسلمي (ص 354) طبقات الشعراني (106/1).

(4) أخرجه البزار (273/6 ، رقم 2302) عن معاذ. قال الهيثمى (300/10) : رواه البزار ، وقال إسناده حسن

(5) أخرجه الترمذى (559/4 ، رقم 2319) وقال : حسن صحيح ، وابن ماجه (1312/2 رقم 3969)



وأخذ ابن عباس يوما ثمرة[1] **لسانه وهو يقول:** ويحك قل خيرا تغنم، واسكت عن شيء تسلم، فقيل له: ما هذا؟ قال: بلغني أن العبد أغيظ ما يكون يوم القيامة على لسانه. **وقيل:** العلم نصفه السكوت ونصفه أن تدري أين تضعه؟ **وقال الضحاك:** أدركتهم وهم يتعلمون الصمت والورع وهم اليوم يتعلمون كثرة الكلام الحسن.

وسئل بعض السلف: هل العلم اليوم أكثر أو فيما سلف؟ **قال:** الكلام اليوم أكثر، والعلم فيما سلف أكثر. **وفي الصمت خصلتان:** تدفع به جهل من هو أجهل منك، وتعلم به علم من هو أعلم منك. **وقيل:** تسعة أعشار السلامة في الصمت.

والحكمة في ذلك: أن مريم عليها السلام لما نذرت ألا تتكلم، وحبست لسانها لأجل الله، أنطق الله سبحانه لسان صبي أبكم لا يعرف الخطاب لأجل ذلك. فمن حفظ لسانه لأجل الله، أطلق الله ﷻ لسانه بالشهادة عند الموت. **وقيل:** يأتي على الناس زمان يكون أفضل أعمالهم النوم، وأفضل علومهم الصمت؛ يعني لفساد الأعمال، وفساد العلم. وحقه أن يزيد، وأفضل أحوالهم الجوع لقلة الحلال. **ويقال:** كل كلمة فيما لا يعني يوقف العبد عليها في الآخرة خمس وقفات، يطول لها حسابه ويذوب، ويتقطع حسرات، وهي أن يقال له: لم قلت كذا؟ أكانت مما يعنيك؟ وهل نفعتك إذ قلتها؟ وهل ضرتك لو لم تقلها؟ وهلا سكت فربحت السلامة من عاقبتها, وهلا جعلت مكانها: سبحان الله والحمد لله, ولا إله إلا الله, والله أكبر؛ فربحت ثوابها.

وقال يوسف بن عبد البر: العمل كله قد يشوبه شيء إلا ما كان من الصمت. **وقال:** إذا صلح من العبد أمران: صلاته ولسانه: صلح ما سواهما. **وقال إبراهيم بن أدهم:** سكوت العالم أشد على الشيطان من كلامه؛ لأنه يسكت بحكمة، وينطق بعلم، فيقول الشيطان: انظروا إلى هذا سكوته أشد علي من كلامه. **ولذلك قيل:** السكوت زين للعالم وستر للجاهل. **وعن ابن القاسم:** من إكرام المرء نفسه أن يسكت على ما

---

[1] الثمرة: طرف اللسان. القاموس .

عنده حتى يسأل عنه. **ووصف رجل لمالك بن أنس فقال**: لا بأس به إلا أنه يتكلم في شيء قبل أن يسأل عنه. **وقال بعضهم في وصف الأبدال**: أكلهم فاقة، وكلامهم ضرورة، ونومهم غلبة. **وقال أبو محمد**: العالم يقعد فيسكت، فيرفع قلبه إلى مولاه، فيفتقر إليه في حسن التوفيق، فيسأله أن يلهمه الصواب. فأي شيء سئل عنه تكلم بما فتح الله له. فجعل العلم بالله في حال سكوته ونظره إلى سيده محتاجا إلى التوكل، منتظرا لتوكله. **وقال بعضهم**: إنما العالم الذي إذا سئل عن المسألة كأنما يقلع ضرسا من أضراسه. **وقال بعضهم**: ليس العالم الذي يجمع الناس ويقص عليهم إنما العالم الذي إذا سئل عن العلم كأنما يسعط بالخردل. **وقال أبو حفص النيسابوري الكبير**[1] **وهو من نظراء الجنيد**: إنما العالم الذي يسأل عن مسألة في الدين فيغتم حتى لو جرح لم تخرج منه قطرة دم من الفزع، يخاف أن يسأل في الآخرة كما سئل في الدنيا، ويفزع أن لا يتخلص في السؤال. **وقال بعض العلماء**: يأتي على الناس زمان يكون أفضل العلم الصمت. وأفضل العمل النوم؛ يعني لكثرة الناطقين بالجهل. فصار الصمت علما للجاهل، ولكثرة العاملين بالهوى صار النوم عبادة للغافل. ولعمري إن الصمت والنوم أدنى أحوال العالم وإنهما أعلى أحوال الجاهل.

الاستقامة على السنة

ثم أشار إلى الركن السادس بقوله: (وَالإِسْتِقَامَةَ عَلَى السُّنَّةِ) **الاستقامة لغة**: ضد الاعوجاج. **واصطلاحا**: الاعتدال في السلوك عن الميل إلى جهة من الجهات. **ويقال**:

---

[1] - هو عمرو بن سلم أو سلمة، أبو حفص النيسابوري، صحب عبد الله بن مهدي وعليا النصراباذي وغيرهما، كان أحد الأئمة والسادة وانتفع به كثيرون. من كلامه: المعاصي : بريد الكفر. ومنه: الفتى من يرى الفتيان ولا يستحيي في خصاله وأعماله فهو فتى. وقال وقد سئل عن الرجال: القائمون مع الله تعالى بوفاء العهود ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾. انظر طبقات السلمي (ص: 115) ولم يؤرخ لوفاته.

هي أن لا يختار على الله تعالى شيئا. ولكل سالك اعتدال وسببها كمال العلم بالأحكام، ومجاهدة النفس في كسر الهوى. وثمرتها السلامة من الحساب، والتخلق بشريف الآداب.

والاستقامة بالنظر إلى محلها خمسة أنواع: استقامة اللسان بالنطق بالحكمة، واستقامة القلب بصدق الهمة، واستقامة النفس بحسن الخدمة، واستقامة الروح بتعظيم الحرمة، واستقامة السر بالاشتغال بالمنعم دون النعمة. **قال بعض العلماء:** معنى الاستقامة: لزوم طاعة الله تعالى؛ وهي نظام الأمور, **وقيل:** الاستقامة: أن تشهد الوقت الذي أنت فيه قيامةً قامت بأن تستشعر قيامك بين يدي مولاك، وتحسن استقامتك له في دنياك.

وقال بعضهم: الاستقامة تكون في الأقوال بترك الغيبة ونحوها، وفي الأفعال بنفي البدعة، وفي الطاعة بنفي الفترة؛ أي الفتور عنها، وفي الأحوال بنفي الحجبة التي تمنع من [تقبلها[1]].

والاستقامة من أرفع الدرجات والمراتب. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ **انتهى من العلقمي بخ، وتلفيق.**

وقال بعضهم: الاستقامة: الاستواء في اتباع الحق على منهاج السداد من غير إفراط ولا تفريط. **وأركانها:** عمل بلا فترة ولا إخلال، وتوبة بلا إصرار ولا رجوع، وإخلاص بلا تشوف ولا ملاحظة، واستسلام بلا منازعة ولا معارضة، وتفويض بلا تردد ولا تدبير، وملازمها واصل قطعا. وهي الكرامة على الحقيقة. **انتهى.**

والاستقامة خير من ألف كرامة وما أكرم الله تعالى عبدا بكرامة خير من الاستقامة، ولهذا لم ينقل عن الصحابة ﷺ إلا القليل من الكرامات، ونقل عن المتأخرين من المشايخ الصادقين والمريدين أكثر من ذلك؛ لأن الصحابة ﷺ ببركته عليه السلام وصحبتهم له

---

[1]- في نسخة: "تقلبها"

ومشاهدة الوحي وتردد الملائكة وهبوطهم بين يديه، تنورت قلوبهم، وتزكت نفوسهم، فعاينوا الآخرة، واستغنوا بما أعطوا عن رؤية الكرامة، واشتغلوا بالعبادة والاستقامة وزهدوا في الدنيا الدنية. **قاله الفشني**[1].

تتمة: وإنما كانت الاستقامة على السنة شرطا في التصوف؛ لأن التصوف إنما يحصل في الغالب بعد مجاهدات ورياضات. ولا تنتج تلك المجاهدات إلا بموافقتها للسنة والشريعة وإلا كانت عبثا، وأتعابا. ولكن الرياضات والمجاهدات لها تأثير في صفاء الباطن مطلقا، وافقت السنة أم لا. إلا أن ما كان من ذلك بحسن سياسة الشرع، ومتابعته ﷺ، ينتج تنوير القلب، والزهد وجميع الأخلاق الحميدة. وما كان منه من غير سياسة الشرع ومتابعته ﷺ، ينتج صفاء في النفس يستعان به على علوم رياضته مما يعتني به الفلاسفة والدهريون. وكلما كثّر من ذلك كثر البعد من الله. ولا يزال المقبل على ذلك يستغويه الشيطان بما يكتسب من العلوم الرياضية. أو بما يتراءى له من صدق المخاطر وغير ذلك حتى يركن إليه، ولا يعلم أن هذا الفن غير ممنوع من النصارى والبراهمة. وما يفتح من ذلك على من ليس تحت سياسة الشرع، يصير سببا لزيادة بعده وغروره وحماقته، ولا يزال به حتى يخلع رقبة الإسلام من عنقه، وينكر الحدود والأحكام، والحلال والحرام، ويظن أن المقصود ذكر الله تعالى، وعدم متابعة السنة. ثم يتدرج من ذلك إلى تزندقٍ ونعوذ بالله من الضلال. وقد يلوح لأقوام خيالات يظنونها وقائع ويسمونها بوقائع المشايخ. **قاله صاحب عوارف المعارف**[2].

وقال السنوسي: التقدم لمعالي الأمور قبل إتقان أصولها، وضبط فروعها، عجلة مذمومة، وشهوة نفسية توجب لصاحبها الفضيحة والهلاك دنيا وأخرى، ألا ترى البراهمة والنصارى قد ارتاضوا على قاعدة فاسدة، فلم يزدهم ذلك إلا ضلالا. وكثيرا ما يغتر

([1]) انظر المجالس السنية في الكلام على الأربعين النووية للفشني بهامش شرح الشبرخيتي على الأربعين: (124). حرفا بحرف.

([2]) انظر عوارف المعارف للسهروردي: (205/1).

أصحاب هذا الطريق بالتخييلات الشيطانية، أو النفسانية نوما ويقظة. **ويعدونها** كرامات وهي في الحقيقة استدراج وزيادة لهم في أنواع الضلالة. نسأله سبحانه أن يلهمنا رشدا بأنفسنا. **انتهى**.

وفي كتاب الفرج بعد الشدة: أن راهبا اشتهر ببلاد مصر بالمكاشفة فقال عالم من المسلمين: لا بد من قتله خوفا على المسلمين أن يفتنهم، فقصده بسكين مسمومة ليقتله، فلما طرق بابه قال له: أطرح السكين يا عالم المسلمين، فطرحها ودخل، فقال له: من أين لك نور المكاشفة؟ قال: بمخالفة النفس. فقال: هل لك في الإسلام؟ فقال: وما الإسلام؟ فقال: أن تشهد بالله وملائكته وكتبه ورسله. قال: نعم. أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. قال: ما حملك على هذا؟ قال: عرضت الإسلام على نفسي فأبت فخالفتها. **انتهى**[1].

قال ابن عباد: وليس طريق موت النفس بقطع جميع الأرباق عنها، وردها إلى الاجتراء بالحشيش والنخالة، والمبالغة في التقشف، والتَّقَلل مع قطع النظر عن أحوال القلب وإرادته، وترك الالْتفات إلى ما يحمد منها وما يذم، فذلك كله بدعة. وقد غلط في هذا طوائف عملوا عليه في رياضتهم ومجاهداتهم، و لم يقصدوا بذلك إخلاص العبودية لربهم، فأداهم ذلك إلى اختلال عقولهم، وانحلال قوى أبدانهم، و لم يحصلوا من أمرهم على فائدة؛ وذلك لجهلهم بالسنة. وما كان عليه سلف هذه الأمة، **انتهى**.

والحاصل أنه لابد من الجمع بين الحقيقة والشريعة. **قال أبو سليمان الداراني**: إنها لتقع النكتة من كلام القوم في قلبي أياما فأقول: لا أقبلك إلا بشاهدي عدل: الكتاب والسنة.

---

(1) الفرج بعد الشدة علم على عدة كتب، وإن كان أشهرها الفرج بعد الشدة للتنوخي لكني لم أجد هذه الإحالة فيه.

القسم السادس

تجنب البدع وحدها وانواعها واحكامها

(**وتجنب البدعة**) في العقائد وأحكام الشريعة.

قال اللقاني في شرح الجوهرة: البدعة لغة: ما كان مخترعًا على غير مثال سابق. **ومنه:** "بديع السموات والأرض"؛ أي موجدهما على غير مثال سابق. **وشرعا:** ما أُحدث على خلاف أمر الشارع. ودليله الخاص والعام؛ بأن يكون الحامل عليه مجرد الشهوة والإرادة من القرب والعبادات، وكذا العاديات بناء على الراجح من دخول البدع في العاديات كالمعاملات، **كما هو مختار السرخسي**[1] **وغيره من الحنفية** من كل ما لم تتناوله أدلة الشريعة إذا كانت مذمومة. وأما ما أُحدث مما له أصل في الشرع إما بحمل النظير على النظير أو بغير ذلك فإنه حسن، إذ هو سنة الأئمة المهتدين. **ومن ثم قال عمر في التراويح:** نعمت البدعة هي. وليس ذلك مذموما بمجرد لفظ "محدث، أو بدعة" فإن القرآن باعتبار لفظه، وإنزاله، وصف بالمحدث أول سورة الأنبياء. وإنما منشأ الذم ما اقترن به من مخالفة السنة ودعايته إلى الضلالة.

القرافي: إذا عرضت البدعة تعرض على قواعد الشرع وأدلته، فأي شيء تناولها من الأدلة والقواعد ألحقت به من إيجاب، أو تحريم، أو غيرها. وإن نظر إليها من حيث الجملة بالنظر إلى كونها بدعة مع قطع النظر عما يتقاضاها كرهت. فإن الخير كله في الاتباع، والشر كله في الابتداع. **قيل:** السنة الضعيفة: أحب إلي من عقول الرجال.

([1]) هو عبد الرحمن بن محمد السرخسي، أبو بكر: فقيه حنفي، من أهل سرخس. انتقل إلى خوزستان، وولي قضاء البصرة مرتين. من كتبه (تكملة التجريد) للكرماني، توفي 439هـ. انظر الجواهر المضية: (308/1).

ومن البدع المباحة مما لم يكن في السلف ونحن نفعله اليوم في المدارات والمكارمات: القيام للداخل من الأعيان، وإحناء الرأس له إن عظم قدره جدا، والمخاطبة بجمال الدين ونور الدين، وغير ذلك من النعوت والإعراض عن الأسماء. والمكاتبات بالنعوت أيضا إلى كل أحد على قدره، والتعبير عن المكتوب إليه بـــ: المجلس العالي، والسامي، والجناب. ونحو ذلك من الأوصاف العرفية، والمكاتبات العادية، ومن ذلك ترتيب الناس في المجالس والمبالغة في ذلك وأنواع من المخاطبات والكنايات والنعوت المعتادة للملوك والوزراء والولاة، والعظماء وغير ذلك من الأمور العادية مما لم يرد في النصوص ولم يكن في السلف، لأنه لم تكن أسباب اعتباره موجودة حينئذ، وتجددت في عصرنا فتعين فعله لتجدد أسبابه، لا لأنه شرع مستأنف. بل عُلِم من القواعد الشرعية: أن هذه الأسباب لو وجدت في زمن الصحابة ﷺ لكانت هذه المسببات من فعلهم وصنيعهم وتأخير الحكم لتأخير سببه ووقوعه عند وقوع سببه، لا يقتضي تجدد شرع ولا عدمه. كما لو أنزل الله ﷻ حكما في اللواط من رجم أو غيره من العقوبات فلم يوجد اللواط في زمن الصحابة، ووجد في زماننا اللواط، فرتبنا عليه تلك العقوبة لم نكن مجددين لشرع؛ بل متبعين لما تقرر في الشرع، ولا فرق بين أن يعلم ذلك بنص، أو بقواعد من الشرع، **وهو معنى قول عمر بن عبد العزيز**: تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور. أي يحدثون أسبابا يقتضي الشرع فيها أمورا لم تكن قبل ذلك، لأجل عدم سببها قبل ذلك لا أنها شرع متجدد. كذلك هاهنا. فعلى هذا القانون يجري هذا بشرط ألا يبيح محرما ولا يترك واجبا. فلو كان الملك لا يرضى منا إلا بشرب الخمر لم يحل لنا أن نُوادَّه: "إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق" وإنما هذه أمور لولا هذه الأسباب المتجددة لكانت مكروهة من غير تحريم. فلما تجددت هذه الأسباب صار تركها يوجب المقاطعة المحرمة، فقدم المحرم والتزم في دفعه وحسم مادته، وإن وقع المكروه، هذا هو قاعدة الشرع في زمن الصحابة وغيرهم، وإنما هذا التعارض مما وقع

الآن في زماننا فاختص الحكم به، وما خرج عن هذين القسمين؛ إما محرم فلا تجوز المودة به، أو مكروه لم يحصل فيه تعارض بينه وبين محرم.

ثم إن القيام يحرم إذا فعل تعظيما لمن يحبه تجبرا على القائمين، ومكروه إذا فعل تعظيما لمن لا يحبه كذلك. لأنه يشبه فعل الجبابرة، ولتوقع فساد قلب المقوم له.

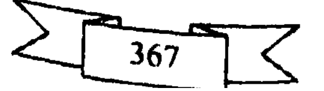
سيدي زروق: التحقيق: أن البدعة إحداث أمر في الدين يشبه أن يكون منه، وليس منه **لخبر:** «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»[1]. **مفهومه:** أن العوائد والأسباب المجردة عن أمور الدين لا تدخلها البدعة، وبناء على ذلك فالقيام مباح إذا فعل إجلالا لمن لا يريده، ومندوب للقادم من السفر فرحا به، وشكرا لإحسانه، والمصاب ليعزيه. **وبهذا يجمع بين حديث:** «من أحب أن يتمثل له الناس قياما فليتبوأ مقعده من النار»[2]. وبين قيامه لعكرمة لما قدم من اليمن فرحا به وقيام طلحة بن عبيد الله لكعب بن مالك ليهنئه بتوبة الله تعالى عليه بحضرته ﷺ ولم ينكره، والنهي الوارد عن محبة القيام ينبغي أن يحمل على من يريد ذلك تجبرا. أما من أراده لدفع الضرر عن نفسه، والنقيصة به، فلا ينبغي أن ينهى عنه؛ لأن محبة دفع الأسباب المؤلمة مأذون بها. بخلاف التجبر. ومن أحب ذلك تجبرا أيضا لا ينهى عن المحبة والميل لذلك الطبيعي، بل لما يترتب عليه من إذاية الناس، إذا لم يقوموا، ومؤاخذتهم عليه فإن الأمور الجبلية لا ينهى عنها, فقد ظهر الفرق بين المشروع من المودّة وغير المشروع منها.

وقال بعضهم: كل حكم أجازه الشرع أو منعه، أو أمكن رده على أحدهما فهو واضح بأن أجازه مرة ومنعه أخرى؛ فالثاني ناسخ للأول. وإن لم يرد فيه عنه شيء ولا أمكن رده إلى إجازة ولا منع، ففيه الخلاف قبل ورود الشرع والأصح أنه لا حكم ثمت

---

[1]- أخرجه البخاري في كتاب الصلح رقم: (2697) عن عائشة رضي الله عنها.

[2]- أخرجه أبو داوود رقم: (5229) عن معاوية.



فلا تكليف فيه بشيء. **وقيل**: يرجع على المصلحة والسياسة فما وافقهما منه أخذ به، وما لا ترك. **انتهى بخ**.

وفي الحديث: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد[1]». **رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها**. أي من أحدث ما لم يكن له من الكتاب والسنة والإجماع عاضد ظاهر أو خفي ملفوظ أو مستنبط. **وروى أبو هريرة** أنه ﷺ خرج إلى المقبرة وذكر الحديث في صفة أمته.

وفيه: «فَلَيُذَادَنَّ رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال. فأناديهم: ألا هَلُمَّ ألا هلم ألا هلم. فيقال: إنهم قد بدلوا بعدك فأقول: فسحقا، فسحقا، فسحقا»[2].

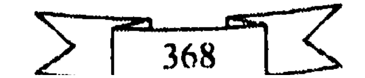
وفي الحديث: «هلك المتنطعون[3]». أي المتعمقون الغالون في أفعالهم وأقوالهم، كلامًا من أقصى من حلوقهم. وفي رواية لمسلم: «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد». أي مردود عليه وإن لم يكن هو المحدث له. فاستفيد منه زيادة على ما يفهم من الرواية الأولى وهو الرد لما يحتج به بعض المبتدعة من أنه لم يخترع، وإنما المخترع من سبقه. ويحتج بالرواية الأولى فيرد عليه بهذه الصريحة في رد المحدثات المخالفة للشريعة سواء أحدثها الفاعل أو سبق بإحداثها.

وقال ابن حجر في شرح الأربعين: هذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الإسلام بل من أعظمها وأعمها نفعا من جهة منطوقه؛ لأنه مقدمة كلية في كل دليل يستنتج منه حكم شرعي. ومن جهة مفهومه إذ كل عمل غير محدث هو صحيح مقبول. قال بعض الايمة: هذا الحديث ثلث الإسلام. ووجهه أن أحكام الشرع؛ إما منصوصة نصا لا يحتمل التأويل، أو يحتمله، أو مستنبطة، ومآلها إليه منطوقا أو مفهوما؛ كما قررنا. على أنه

([1]) أخرجه أحمد (146/6 ، رقم 25171) ، ومسلم (1343/3 ، رقم 1718)

[2]- أخرجه البخاري في كتاب المساقاة رقم: (2367) ومسلم في كتاب الطهارة رقم: (584) كلاهما عن أبي هريرة.

([3]) أخرجه مسلم (2055/4 ، رقم 2670) ، وأبو داود (201/4 ، رقم 4608)

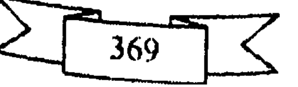


يصح أن يكون نصف الأدلة؛ لأن الدليل إنما يتركب من صغرى وكبرى، ثم المطلوب إما إثبات الحكم أو نفيه. وهذا الحديث مقدمة في إثبات كل حكم شرعي ونفيه باعتبار منطوقه ومفهومه. **وقال بعضهم:** إنه مما ينبغي حفظه وإذاعته فإنه أصل عظيم في إبطال جميع المنكرات وحوادث الضلالات. إذ هو من جوامع كلمه ﷺ، واستمداده من قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ ومن قوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ **قال مجاهد:** السبل البدع والشبهات. **ثم قال:** إن السنة السيئة قد تنتهي إلى ما يوجب التحريم، وإلى ما يوجب الكراهة أخرى. وإلى ما يظن أنه طاعة وقربة، **فمن الأول:** الانتماء إلى جماعة يزعمون التصوف ويخالفون ما كان عليه مشايخ الطريق من الزهد والورع، وسائر الكمالات المشهورة عنهم؛ بل كثير من أولئك إباحية لا يحرمون حراما ليلبس عليهم الشيطان أحوالهم القبيحة الشنيعة، فهم باسم الكفر والفسق أحق منهم باسم التصوف والفقر. **وروى الدارمي أن النبي ﷺ خط خطا ثم قال:** «هذا سبيل الله. ثم خط خطا عن يمينه وعن شماله ثم قال: هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾... الآية[1]».

وقال الشافعي: قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ أي فردوه إلى ما قال الله والرسول. **وقال ميمون بن مهران:** إن الرد إلى الله: إلى رسوله، والرد إلى الرسول إذا قبض: إلى سنته. **وروى الدارمي أن ابن مسعود** أنكر على جماعة اجتمعوا في المسجد يعدون الأذكار بالحصى وأشار إليهم بأن يعدوا سيئاتهم، فإنهم مفتتحوا باب ضلالة[2]. وينبغي حمل إنكاره على هذه الهيئة المخصوصة. وإلا فالسبحة ورد لها أصيل عن بعض أمهات المؤمنين، وأقرها النبي ﷺ على ذلك. وكان الشعبي إذا نظر إلى ما أحدث الناس من الرأي والهدى يقول: لقد كان القعود في هذا المسجد

([1]) أخرجه الدارمي في سننه: (202).

([2]) أخرجه الدارمي: (204).



أحب إلي لا أعدل به شيئا فمذ صار فيه هؤلاء المراءون بغضوا إلي الجلوس فيه. ولأن أقعد على مزبلة أحب إلي من أن أرجع فيه. وكان السلف يستعظمون يسير الحدث في الدين ودقائق البدع في الإسلام لعظم الإيمان والسنة في قلوبهم، ولمعرفتهم بحقيقة المعروف. **وقال وكيع**: لأن أزني أحب إلي من أن أسأل مبتدعا في ديني[1].

ومما أحدث أيضا: الرد على المبتدعة بالمعقول، وهجر أحمد بن حنبل الحارث المحاسبي لرده على أهل البدع، وقال: إذا رددت عليهم فقد حكيت قولهم فرددت بدعة ببدعة. وأيضا: فقد حملتهم على التفكر والرأي فيها فتكون السبب في رد الحق بالباطل. **وقال هشام بن عروة**: لا تسألوهم اليوم عما أحدثوا فإنهم قد أعدوا له جوابا ولكن سلوهم عن السنة فإنهم لا يعرفونها. **وقيل لعبد الرحمان بن مهدي**: إن فلانا يرد على البدعة فقال: بالكتاب والسنة؟ قالوا: لا بل بالمعقول. قال: بيس ما صنع رد بدعة ببدعة.

وقال الإمام مالك: ليس من السنة أن تجادل عن السنة ولكن تخبر بها فإن قبل وإلا سكت. **وعن المروزي**[2]: أن شيخا ذا هيئة كان يجالس الإمام أحمد فيكرمه الإمام فبلغه أنه طين حائط داره من خارج فأعرض عنه الإمام وقال له: إنك أخذت من طريق المسلمين قدر أنملة. قال: كيف أصنع؟ قال: إما أن تكشط ما طينته، وإما أن تهدم الحائط وتؤخره إلى وراء مقدار إصبع ثم طينه من خارج ففعل، فأقبل عليه كما كان. **ويقال**: أول ما أحدث الفتن أربعة: الموائد، والمناخل، والأشنان، والشبع، وكانوا يكرهون أن تكون أواني البيت غير الخزف ولا يتوضئون في آنية الصفر والنحاس.

وقال الجنيد: قال لي سري: أجهد أن لا تستعمل من آنية بيتك إلا جنسك يعني الطين. ويقال: لا حساب عليه.

([1]) انظر شرح الأربعين للهيتمي: (109).

([2]) تقدمت ترجمته.

وقال ابن عباس: لا يأتي على الناس عام إلا أماتوا فيه سنة وأحيوا فيه بدعة. حتى تموت السنن وتحي البدع، وإنما قيل: منكر لأنه لا يعرف فإذا خفي الحق و لم يعرف وقع عليه اسم المنكر، وإنما قيل المعروف لأنه مشهور مألوف فإذا كثر الباطل وفشا الجهل حتى ألف وعرف، وقع عليه اسم المعروف. والحاصل أن البدعة سم الدين، فكما أن سم البدن منه ما يقتل من حينه، ومنه ما يختل منه مزاج البدن فينشأ عنه المرض، كذلك البدعة المحرمة سم قاتل. والمكروهة ممرضة لدين صاحبها.

وأخرج البيهقي أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إن أبغض الأمور إلى الله تعالى البدع، وإن من البدع الاعتكاف في المساجد التي في الدور»[1]. وينبغي حمله على المعتزلات المهيئات للصلاة، فإن هذه لا يصح الاعتكاف فيها، بخلاف ما وقف منها مسجدا. **وأخرج أبو داوود عن حذيفة قال:** «كل عبادة لم تفعلها الصحابة ﷺ فلا تفعلوها»[2]؛ أي إلا إن دل عليها دليل آخر. وإلا فكم من عبادة اتضحت عنه ﷺ قولا وفعلا، و لم تنقل عن أحد منهم. **وفي الحديث:** «عمل قليل في سنة خير من عمل كثير في بدعة»[3]. **وفيه:** «خير الحديث: كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة»[4]. **رواه مسلم والترمذي. زاد البيهقي:** «وكل ضلالة في النار».

وفيه: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم والمحدثات فإن كل محدثة بدعة»[5]. **وفيه:** «بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا فطوبى

---

[1]- السنن الكبرى للبيهقي تحقيق محمد عبد القادر عطا (316/4) برقم (8356) عن ابن عباس.

[2]- أخرجه الألباني في التوسل (27/1) بلفظ: «كل عبادة لم يتعبدها أصحاب رسول الله ﷺ فلا تتعبدوها» وأخرجه في السلسلة الضعيفة أيضا.

[3]- أخرجه البيهقي في شعب الإيمان برقم: (9523) (72/7) ومصنف عبد الرزاق (291/11).

[4]- أخرجه مسلم، كتاب الجمعة برقم: (2005) عن جابر بن عبد الله. وليس في روايته «وكل محدثة بدعة» وأخرجه أحمد في مسنده والنسائي وابن ماجه.

[5]- أخرجه الرفاعي عن أبي هريرة. والديلمي في مسند الفردوس عن ابن مسعود وهو في فتح الباري

للغرباء من أمتي»[1].

وقال أبو طالب المكي: فقد صار المعروف منكرا والمنكر معروفا، وصارت السنة بدعة والبدعة سنة. **ولما ذكر ﷺ الفتن:** قال بعضهم: ما تأمرني به يا رسول الله إن أدركني ذلك؟ قال عليه الصلاة والسلام: «كن حلْسا من أحلاس بيتك»[2].

قال ابن الحاج: يعني أنه يتخذ بيته كأنه ثوبه الذي يستتر به عورته، فيلازمه، ولا يفارقه إذا عمت الفتن وكثرت. قال: وهذا موجود مشاهد؛ لأن مواضع العبادات جعلت للعادات بل بعض العبادات قد صارت اليوم وسائل للدخول في الدنيا، وأكلها وبعضهم يفعلها للرياء والسمعة في الغالب، فإذا كان الأمر كذلك فالهرب من مواضع العبادات المشتملة على هذه المفاسد العديدة بل قعود الإنسان في بيته أسلم له بل أوجب عليه إن قدر[3].

الفرق الاسلامية

وفي الحديث: «إن بني إسرائيل افترقت على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة. أو كما قال. فأصل هذه الثلاث والسبعين فرقة عشرة: أهل السنة، والخوارج، والشيعة، والمعتزلة، والمرجئة، والمشبهة، والجهمية، والصرادية، والنجارية، والكلابية»[4].

فأهل السنة: طائفة واحدة. **والخوارج** خمس عشرة فرقة. **والمعتزلة** ست فرق. **والمرجئة** اثنتا عشرة فرقة. **والشيعة:** اثنتان وثلاثون فرقة. **والجهمية والنجارية**

---

[1]- أخرجه مسلم في كتاب الإيمان رقم: (372) وليس في مسلم: "من أمتي" وهي في تحفة الأحوذي (338/8).

[2]- تقدم تخريجه.

([3]) انظر المدخل لابن الحاج: (302/1).

[4]- تقدمت تخريجه.

والصرادية والكلابية: كل واحدة فرقة واحدة. **والمشبهة** ثلاث فرق فجميع ذلك ثلاث وسبعون (73=3+4+32+12+6+15+1)

وأما الخوارج: فسموا "محكّمة" لإنكارهم الحكمين. وحرورية، وشراة: لقولهم شرينا أنفسنا في الله أي بعناها. ومارقة: لمروقهم من الدين. وأكثر ما تكون الخوارج في الجزيرة وعُمان والموصل وحضرموت ونواحي المغرب.

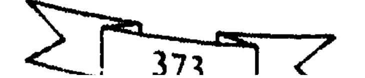
ومصنف الكتب لهم: عبد الله بن زيد، ومحمد بن حرب، ويحيى بن كامل، وسعد بن هارون[1].

وأسماء فرقهم: النجدات: نسبوا إلى نجدة بن عامر الحنفي. **وتميم:** وهم أصحاب عبد الله بن ناصر. **والأزارقة:** أصحاب نافع بن الأزرق. **والفريكية:** نسبة إلى ابن فريك. **والعطوية:** نسبة إلى عطية بن الأسود. **والعجاردة:** وهم فرق كثيرة. **والخازمية. والمجهولية والصلتية:** نسبة إلى عثمان بن الصلت. **والأخنسية:** نسبة إلى الأخنس. وتشعبت عنها **الظفرية، والحفصية** وهم أهل النهروان، ومنهم: **الأباطلية. والبيهشية** نسبة إلى أبي بيهش. **والشمراخية:** نسبة إلى عبد الله بن الشمراخ. **والبدعية.**

وأما الشيعة: فسموا بذلك لأنها شيعت عليا، وفضلته على سائر الصحابة. **ورافضة:** لرفضهم أكثر الصحابة. **وغالية:** لغلوهم في علي ﷺ، بما لا يليق به من صفات الربوبية. **ومصنف كتبهم:** هشام بن الحكم، وعلي بن منصور وأبو الأحوص، والحسين بن سعيد، والفضيل بن شداد، وأبو عيسى الوراق، وابن الراوندي، والمنبجي. **وأكثر بلادهم:** قُم، وقاشان، وبلاد إدريش، والكوفة.

---

[1] في نسخة: سعيد بن هارون.



فيجب على من منّ الله عليه بالاتباع أن يجتنب سبيل الابتداع، ويقف مع الكتاب والسنة والإجماع.

وعن الإمام أحمد قال: كنت يوما مع جماعة يتجردون ويدخلون الماء فاستعملت **حديث:** «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمام إلا بمئزر[1]» فلم أتجرد، فرأيت تلك الليلة في المنام قائلا يقول: أبشر يا أحمد فإن الله غفر لك باستعمال السنة. فقلت من أنت؟ فقال: جبريل، وقد جعلك الله إماما يقتدى بك. ورأى آخر النبي ﷺ فقال له: يا رسول الله عسى أن تشفع لي. فقال: قد شفعت لك من اليوم الذي أحييت فيه سنتي.

وحكي أن موسى الهادي استحلف هارون الرشيد أنه متى أفضت الخلافة إليه لا يقرب جارية عنده فحلف له هارون بأيمان كثيرة منها المشي إلى مكة حافيا، فلما مات الهادي طلب هارون رخصة في نكاحها، فلم يسعِفه الشافعي فتوعده وهدده فانصرف عنه الشافعي وقد رعب. ثم رأى في النوم كأنه قائم بين يدي الله تعالى؛ فنودي: يا محمد تثبت على دين محمد، وإياك أن تحيد فتضل، ألست بإمام القوم، لا وجل عليك منه، اقرأ ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾ الآية. فاستيقظت وأنا أقرأها. فصليت الصبح فوجدت في نفسي كسلا. فقيل لي هارون توجه عنك، فلا تخف ما دمت سُنِّيا، واقرأ في نفسك إذا مشيت إليه دعاء الخائف، فإنك لا ترى منه إلا خيرا فانتبهت وجعلت أقول: "اللهم إليك أشكوا ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن لك علي غضب فلا أبالي ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحُل علي سخطك لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك." **قال:** فما أكملت

---

(1) أخرجه أحمد (339/3 ، رقم 14692)

قراءته حتى جاءني الربيع وقال: أجب الخليفة فمشيت معه إليه، ورحب بي وتبسم وقال لي: نعم الإمام مثلك، لا تأخذه في الله لومة لائم، أعلم يا فقيه أني عوتبت الليلة في أمرك فانصرف راشدا فأنت الملحوظ والمحفوظ. وأمر له بعشرة آلاف دينار ففرقها بين يديه وانصرف.[1] **وهذا كله ببركة التمسك بالسنة وتجنب البدعة.**

وفي الحديث: «من مشى إلى صاحب بدعة ليوقره فقد أعان على هدم الإسلام»[2]. **وفيه:** «لا تقوم الساعة حتى تصير السنة بدعة، فإذا كثرت البدعة يقول الناس: تركت السنة». **قال الشعراني:** وذلك لتوارث الفروع البدع عن أصولهم، فلما طال زمن العمل بالبدعة ظنوا أنها سنة.

وروى الطبراني في المعجم الكبير بسنده إلى النبي ﷺ أنه قال: «يأتي زمان على أمتي وجوههم وجوه الآدميين، وقلوبهم قلوب الشياطين، أمثال الذئاب الضواري، ليس في قلوبهم شيء من الرحمة، سفاكون للدماء، لا يرعوون عن القبيح، إن بايعتهم رابوك، وإن تواريت عنهم اغتابوك، وإن أئتمنتهم خانوك، وإن جادلوك كذبوك، فصبيهم عارم، وشابهم شاطر، وشيخهم لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر، السنة فيهم بدعة والبدعة فيهم سنة. فعند ذلك سلط الله عليهم شرارهم، ويدعو خيارهم فلا يستجاب لهم. قراؤهم فسقة، وعظماؤهم شر ما تحت أديم السماء، فيهم خرجت الفتنة، وإليهم تعود»[3].

وقال ابن مسعود: حسن الهدي في آخر الزمان خير من كثير من العمل. **وقال:** إنكم في زمان خيركم فيه المسارع في الأمور. وسيأتي زمان خيركم فيه المتثبت المتوقف يعني لكثرة الشبهات. **وقال حذيفة:** أعجب من هذا أن معروفكم هذا منكر زمان قد

1- ذكر القصة القشني على الأربعين حاشية على الشبرخيتي خاتمة المجلس الخامس (ص 46) بألفاظها كما هي.

2- أخرجه في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (231/1) عن معاذ بن جبل، والطبراني في الأوسط (35/7). برقم: (6772) عن عائشة.

3- انظر المعجم الكبير (309/9) برقم: (11006) عن ابن عباس ﷺ.

مضى، وأن منكركم معروف زمان يأتي، وإنكم لن تزالوا بخير ما عرفتم الحق، وكان العالم فيكم غير مستخف. **وكان يقول:** في آخر الزمان قوم يكون العالم فيما بينهم بمنزلة الحمار الميت، لا يلتفتون إليه. يستخفي المؤمن فيهم كما يستخفي المنافق فينا اليوم، المؤمن فيه أذل من الأمة. **وفي حديث أبي هريرة:** «يأتي على أمتي زمان من عمل فيه بعشر ما أمر به نجا»[1]. **وفي رواية:** «بعشر ما يعلم». **وعن بعض الصحابة:** أنتم اليوم في زمان من ترك منكم عشر ما يعلم هلك ويأتي عليكم زمان من عمل فيه بعشر ما يعلم نجا.

وقال حذيفة: أشد الفتن أن يعرض عليك الخير والشر فلا تدري أيهما تأخذ لكثرة الشبهات. **وفي الخبر:** «يأتي على الناس زمان يضلون فيه دينهم فلا يعرفونه، يصبح الرجل على دين ويمسي على دين يظل من أمره على غير يقين، تسلب عقول أكثر الناس في ذلك الزمان، فأول ما يرفع منهم الخشوع ثم الأمانة ثم الورع[2]». **وروي:** «أول ما يرفع من الناس الألفة». **قيل:** أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: لا تجالس أهل الأهواء فيحدثوا في قلبك ما لم يكن. **وقال سهل بن عبد الله التستري:** من داهن مبتدعا سلبه الله حلاوة السنن. **وقال الدقاق:** من استهان بأدب من آداب الإسلام عوقب بحرمان الفرائض. ومن استهان بالفرائض قيض الله له مبتدعا يذكر عنده باطلا فيوقع في قلبه شبهة.

وعن ابن عباس أن النبي ﷺ لما حج حجة الوداع أمسك بيده حلقة الكعبة وهزه وبكى بكاء شديدا فقال أبو بكر الصديق: مم بكاؤك يا رسول الله؟ فقال: « وكيف لا أبكي وهذا آخر حجة لي لا أحج بعدها، وأبكاني فراق الكعبة وتوديع المسلمين».

---

[1]- أخرجه الترمذي في كتاب الفتن رقم: (2267) عن أبي هريرة. قال أبو عيسى: "هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث نعيم بن حماد عن سفيان بن عيينة" وضعفه الألباني.

([2]) أخرجه في الطبقات الكبرى بإسناد إلى معاذ بن جبل: (588/3).

قال ﷺ: «ليبلغ الحاضر الغائب؛ إن مثلكم كمثل ورق بلا شوك إلى سبعمائة سنة، ثم تكون أمتي ورقا وشوكا إلى تمام مائة سنة. ثم تكون أمتي شوكا بلا ورق، فلا ترى فيهم إلا سلطانا جائرا، أو غنيا بخيلا، أو عالما راغبا في المال أو عابدا مرائيا أو فقيرا كاذبا، أو تاجرا فاجرا، أو صانعا خائنا، أو شيخا غافلا، أو شابا فضيحا، أو امرأة لا حياء لها قال عكاشة: يا رسول الله؛ كيف يكون ذلك الزمان؟ قال: يكون فيه قوم يصومون ويصلون ويقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم، أقوالهم أحلى من العسل، وأفعالهم أنتن من رائحة البصل، قلوبهم مسودة بأعمالهم، وخبث سرائرهم. فقالوا: وما علامة ذلك يا رسول الله؟ قال: إذا أكرم الشعراء وأهين العلماء وتشاور النساء، وخلط في الأموال الربا، فيجعلون الدنيا فوق رؤوسهم، والعلم والقرآن وراء ظهورهم ،قد صار الغش فاكهتهم، وغيبة الناس بمجالسهم، فيرفعون الأصوات في المساجد بحديث الدنيا، لا يرحم غنيهم فقيرهم، ولا يوقر صغيرهم كبيرهم، زمان تركب فيه الفروج السروج وتأكل القضاة الرُّشا، ويشهد أهل العدل بالزور، ويخفى فيه الحق، ويظهر الباطل، ويشيد البناء، وتهان المساجد، ويظلم الأحرارَ عبيدُهم وتأكل الأم كسب فرج ابنتها، المؤمن بينهم ذليل، والفاجر عزيز. زمان يكون فيه الأمير كالأسد، والقاضي كالذئب، والتاجر كالثعلب، والفاسق كالكلب، والمؤمن كالشاة، ثم بكى رسول الله ﷺ وقال: يا لها من شاة بين أسد وذئب، وثعلب وكلب.» .

وقال حذيفة: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني. فقلت: يا رسول الله إنا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم، قلت فهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال نعم، وفيه دخن. قلت: وما دخنه؟ قال: قوم يهدون بغير هديي تعرف منهم وتنكر، قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم، دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها. قلت: يا رسول الله صفهم لنا. قال: هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا. قلت:

فما تأمرني به إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم. قلت: وإن لم تكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض على أصل شجرة حتى يأتيك الموت وأنت على ذلك»[1]. **أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما. والمراد بالجماعة:** ما عليه جميع الأمة أو دهماؤهم: وهو طريق الجادة وظاهر السنة التي لا يشك في حقيقتها إلا مخذول أو مرذول. **قاله سيدي زروق.**

وعن حذيفة أيضا «أنه ﷺ أخذ حصاة بيضاء فوضعها في كفه وقال: «إن الدين قد استضاء إضاءة هذه. ثم أخذ كفا من تراب فجعل يذره على الحصاة حتى واراها ثم قال: والذي نفسي بيده ليجيئن أقوام يدفنون الدين كهذا كما دفنت هذه الحصاة(2)».

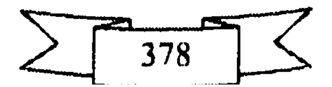
وقال الفضيل: من أحب صاحب بدعة فقد أحبط الله عمله، وأخرج نور الإسلام من قلبه. وقال: لا يرتفع لصاحب بدعة عمل. وإذا رأيت صاحب بدعة في طريق فخذ في طريق آخر. وقال: من أعان صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام، ومن زوج كريمته من مبتدع فقد قطع رحمها. وقال: النظر إلى صاحب بدعة يورث العمى؛ لأن آكل عند اليهودي والنصراني أحب إلي من أن ءاكل عند صاحب بدعة.

وقال في شرح الأربعين: أكثر ما يمكر عند الموت بأرباب البدع وأصحاب الآفات الباطنة، والظلمة المجاهرين بالمعاصي.

وقال سيدي زروق: اعلم أن للشارع في كل باب من المطالب إفادة، "وللأولياء فيه زيادة" فمن جمع بين إفادة الشارع وزيادة الأولياء كان على اهتداء واقتداء، ومن أفرد أحدهما كان نقصه بحسب ذلك. لكن نقص الاهتداء يمنع الفائدة، ونقص الاقتداء قد لا يضر لأنه مقو فقط، والوقوف معه بهجران ما ورد شرعا مضر دينا وأخرى. قال وقد

1- البخاري في كتاب المناقب رقم: (3606)

(2) تقدم تخريجه.



تأملت ما عمت به البلوى في هذا الزمان لفقراء الوقت وفهقائه فإذا هو **عشرة أشياء.**
فعد منها: المسارعة إلى نوافل الخير، والتكاسل عن القيام بحقوق الواجبات، وعدم تصحيح العمل بالعلم، كما هو شأن كثير من الجهال.

ومنها: أن شأن المريدين في بداياتهم تتبع الفضائل والأخذ بالغرائب والاعتناء بالفضائل العامة، وكل هذه موافقة الفتن والمحن فإن تتبع الفضائل مدهش للنفس مشتت للقلب، مؤد للفترة والكسل، موقع في البدع والأمور الخارجة عن الحق. فدع الغريب وما يريب، وعليك باتباع الجادة **وهي:** ماله أصل صحيح ومادة. وما رأيت من وقع في الفضائل العامة إلا وقع في شبه العامة. وخرج لكثير من المحرمات؛ كالقيام على الأمراء، وتفريق كلمة المسلمين. ولا من أخذ بالغرائب إلا وقع في مهاوى الفتنة ولا من تتبع الفضائل عن الجملة إلا وقع في شبه البدعة التي منها العمل بالموضوعات.

فأما الاغترار فمن الجهل بالزمان وأهله، وهو مؤدٍّ إلى الضلال. **وأما اتباع الوساوس:** فإن الوسوسة بدعة أصلها جهل بالسنة، أو خبال في العقل. **وأما التعزز بالطريق:** فمن الحمق والجهل بالطريق، إنما بنيت على الذل والتذلل. حتى يأتيهم الله بعز من عنده، وعلى الفقر حتى يأتيهم الغني من غير التفات ولا تشوف ولا إشراف.

ومنها: أن الغالب على المريدين في هذا الزمان -إلا من عصمه الله- الاغترار بكل ناعق واتباع الوساوس، والتعزز بالطريق. **ومنها:** طلب الكمال بالترهات والترفهات مع التساهل في أمر الدين؛ فتجد أحدهم يطمع في المقامات، ويطلب الفتح باسم الله الأعظم؛ والانتفاع بصحبة المشايخ ورؤيتهم، مع كونه لا ينفك عن محرم ولا يتحفظ عن كل شيء من أمر دينه، ولا يقيم صلاة، وهذا بمثابة من يطبخ الماء المجرد، ويطمع أن يجد في القدر لحما، وإنما جعل الله الشيخ مربيا لا خالعا، ومعينا لا موجدا. **وأصل هذا كله:** إنما هو الترخص والتأويل والجهل والابتداع في الدين. ومن ثم ضيق المضيق ووسع

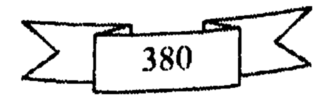
الموسع. وكل ذلك مخالف للصراط المستقيم -إلا من عصمه الله- وقليل ما هم. **ومنها:** إحداث كيفيات من العمل وغيره واتباع أهلها. **والتبرؤ من ذلك كله** بالأخذ بما بان رشده وداخله الاحتياط لا بغيره. وليس ذلك إلا بتحقيق العلم والعمل بنصوص الشريعة. **ومنها:** أن كثيرا من الناس يعتقد العصمة في المشايخ، ويعتمد عليهم فيما بينه وبين ربه. ويرى اتباعهم في كل أمر كان مباحا أو غيره، أو يعترض عليهم في ارتكاب غير المحرمات أو يسقطهم من يده بالزلة، أو الزلات، بل غالب العامة إنما يريدون من يكشف لهم الغيب، أو يخالف الحكمة أو يخرق حرمة الشريعة، أو يستظهر بالأمور الشنيعة، **انتهى.**

وقال السنوسي: السنة في أزمنتنا هذه بين البدع كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، فمن لم يجاهد اليوم نفسه في تعلم العلم وأخذه من العلماء الراسخين -وما أندر اليوم وجودهم، وأعز لقاءهم- مات على أنواع من البدع والكفريات وهو لا يشعر. وأكثر الناس اليوم في درجة من الاعتقاد الفاسد والجهل المركب وما ذاك إلا لقرب هجوم أشراط الساعة الكبرى، وقلة العلماء الراسخين، وانعدام المتعلمين الصادقين، وتعرض الدجاجلة ممن انتمى إلى الرهبانية على غير أصل علم، لقطع طريق السنة بحبائل نصبوها مزخرفة، نسأله سبحانه حسن الخاتمة. **انتهى.**

ولبعض السلف: ثلاث لو كتبن في ظفر لوسعهن وفيهن خير الدنيا والآخرة (اتبع، لا تبتدع -اتضع، لا ترتفع. -اترع، لا تتسع) وهذه الكلمات **قالها أبو العباس الأبياني الأندلسي**[1]**، كما ذكره اللقاني في شرح الجوهرة.**

وقيل: إماتة بدعة: خير من إحياء سنة؛ لأن البدعة إذا تركت صارت سنة.

([1]) عبد الله بن أحمد التونسي، أبو العباس المعروف بالأبياني: فقيه مالكي روى عنه جماعة، منهم ابن أبي زيد (386) والاصيلي (392) وصنف " مسائل السماسرة في البيوع - خ ". توفي 352هـ. انظر شجرة النور: (173).



وكان مالك كثيرا ما ينشد هذا البيت:

وَخَيْرُ أُمُورِ الدِّينِ مَا كَانَ سُنَّة   وَشَرُّ الأُمُورِ الْمُحْدَثَات الْبَدَائِع

وقال الخليل بن أحمد[1]**: الناس أربعة:**

- رجل يدري, ويدري أنه يدري: فهذا عالم فاتبعوه.
- ورجل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري فهذا جاهل فارفضوه.
- وآخر لا يدري ولا يدري أنه يدري: فهذا نائم فأيقظوه.
- وآخر لا يدري و يدري أنه لا يدري: فهذا جاهل فعلموه.

وقال السنوسي: ومن أطلق في ذم البدعة و لم يفصل: رأى أن البدعة على التحقيق لا تطلق إلا على القسم المحرم أو المكروه، فيحمل حديث: «كل محدث بدعة، وكل بدعة ضلالة»، والضلالة وأهلها في النار على البدعة المحرمة.

وقال القرافي: اتفق الأصحاب على إنكار البدع، **نص على ذلك ابن أبي زيد وغيره.** ولا يستقيم ذلك على ظاهره لأنها خمسة أقسام:

قسم واجب: وهو ما تناولته قواعد الوجوب وأدلته كتدوين القرآن والشرائع إذا خيف عليها الضياع، فإن التبليغ لمن بعدنا من القرون واجب إجماعا. وإهمال ذلك حرام إجماعا، فمثل هذا النوع لا ينبغي أن يختلف في وجوبه. **قلت: ومن ثم لا يجوز اليوم الأخذ بالمذاهب التي لم تدون.**

---

[1]- هو الخليل بن احد الأزدي الفراهيدي، أبو عبد الرحمن البصري، اللغوي، صاحب العروض والنحو صدوق عالم عابد، توفي نيفا وستين ومائة أو بعد ذلك. تقريب التهذيب (ص 135).

قال سيدي زروق في قواعده: ما دُوِّنَ من كلام الأئمة في كل فن فهو حجة لثبوته بتداوله ومعرفة أصوله، وصحة معناه، واتضاح مبناه، وتداوله بين أهله، واشتهار مسائله عند أيمته، مع اتصال كل عمن قبله، فلذلك صح ولزم، وإن انقرضت الرواية في أفرادها. وغير المدونة ليست كذلك، فلا يصح الأخذ بها، لانقراض جملتها، وقد يخص ذلك ويعم كانقراض مذهب الليث، والسفيانين عموما، وسائر المذاهب سوى: المالكي في المغرب، والشافعي: بالعجم، والحنفي بالروم.[1]

وأما الحنبلي: فلم يوجد إلا مع غيره، فلزم كل ما تمكن صحة نقله، لا ما احتمل؛ **ولهذا أفتى سحنون بأنه: لا يُفتي بالمغرب بغير مذهب مالك، ونحوه لابن الكاتب، وعند أهل مصر:** أن العامي لا مذهب له، لتوفر المذاهب عندهم، حتى رأيت لهم على ذلك فروعا جمة وفتاوى **والله أعلم.**

وتدوين المصنفات بدعة واجبة، حدثت بعد سنة عشرين ومائة، وبعد وفاة كل الصحابة وكبار التابعين. **ويقال: أول مصنف صنف في الإسلام كتاب ابن جريج[2] في الآثار،** وحروف من التفسير بمكة عن مجاهد وعطاء وأصحاب ابن عباس، ثم كتاب معن بن راشد الصنعاني باليمن؛ جمع فيه سننا منثورة مبوبة على اليقين، وغاية معرفة علم الموقنين من علم التقوى وإلهام الرشد واليقين، فخلف من بعدهم خلف **والله المستعان.**

قال اللقاني في شرح الجوهرة: ومن البدع الواجبة كفاية: الإشتغال بالعربية المتوقف عليها فهم الكتاب والسنة، كالنحو والصرف والمعاني والبيان واللغة، بخلاف العروض ونحوه، ففيه بحث ظاهر وكالجرح والتعديل، وتمييز صحيح الأحاديث من سقيمها،

---

[1]- انظر القواعد (ص:34) القاعدة رقم: 44.

[2]- هو عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الأموي (مولاهم) أبو الوليد المكي، ثقة، فقيه فاضل، كان إمام أهل الحجاز في عصره، وهو أول من صنف التصانيف في العلم بمكة، رومي الأصل، مكي المولد والوفاة. كان يدلس ويرسل (ت 150هـ). تقريب التقريب (ص: 304) ابن خلكان (286/1) بذكرة الحفاظ (160/1).

وتدوين نحو: الفقه وأصوله وآلاته والرد على القدرية والجبرية والمجسمة، إذا دعت إلى ذلك حاجة؛ لأن حفظ الشريعة فرض كفاية فيما زاد على المتعين، كما دلت عليه القواعد الشرعية، ولا يتأتى حفظها إلا بذلك، وما لا يتم الواجب المطلق إلا به فهو واجب.

قسم محرم: وهو ما تناولته قواعد التحريم وأدلته كالمكوس، والمحدث من المظالم والمحدثات المنافية لقواعد الشريعة وكتقديم الجهال على العلماء، وتولية المناصب الشرعية من لا يصلح لها بطريق التوارث وجعل المستند في ذلك كون المنصب كان لأبيه، وهو في نفسه ليس بأهل.

قال اللقاني: ومن ذلك مذاهب القدرية والجبرية والمجسمة، والرد على هؤلاء من البدع الواجبة.

قسم مندوب إليه: وهو ما تناولته قواعد الندب وأدلته؛ كصلاة التراويح جماعة، وكإحداث الربط والمدارس، وكل إحسان لم يعهد في الصدر الأول، وكالكلام في دقائق التصوف، وفي الجدل، وكجمع المحافل في الاستدلال على المسائل، إن قصد بذلك وجه الله تعالى، **قاله اللقاني.** وكإقامة صور الأئمة، والقضاة، وولاة الأمر، على خلاف ما كان عليه الصحابة رضوان الله تعالى عن جميعهم. بسبب أن المصالح والمقاصد الشرعية لا تحصل إلا بعظمة الولاة في نفوس الناس، وذلك في زمن الصحابة إنما كان بالدين فقط، وسابق الهجرة والإسلام وفي من بعدهم: إنما يعظمون بالصور فيتعين تفخيمها حتى تصلح المصالح.

وقد كان عمر ﷺ يأكل خبز الشعير والملح، ويفرض لعامله نصف الشاة في كل يوم، لعلمه أن الحالة التي هو عليها لو عملها غيره لهان في نفوس الناس، ولم يحترموه، وتجاسروا عليه بالمخالفة، فاحتاج إلى أن يضع غيره في صورة تحفظ النظام، ولذلك لما

قدم الشام ووجد معاوية قد اتخذ الحُجّاب والمراكب النفيسة الهائلة العلية، وسلك ما سلكه الملوك فسأله رضي الله عنهما عن ذلك، فقال له: أنا بأرض نحن محتاجون إلى هذا، فقال له: لا آمرك ولا أنهاك. ومعناه: أنت أعلم بحالك. هل أنت محتاج إلى هذا؟ فيكون حسنا، أو غير محتاج، فدل ذلك من قول عمر ﷺ ومن غيره على أن أحوال الأيمة، وولاة الأمر تختلف باختلاف الأمصار والأعصار والقرون، والأحوال، فكذلك يحتاجون إلى تجديد زخارف وسياسات لم تكن قديما، وربما وجبت في بعض الأحوال.

قسم بدعة مكروهة: وهي ما تناولته أدلة الكراهة وقواعدها: كتخصيص الأيام الفاضلة، أو غيرها بنوع من العبادات وزخرفة المساجد وتزويق المصاحف، وكزيادة في المندوبات المحدودة، كالتسبيح دبر الصلوات، وزكاة الفطر بسبب أن الزيادة فيها إظهار للاستظهار على الشارع، وسوء أدب معه، بل شأن العظماء من أهل الدنيا إذا حددوا شيئا وقف عنده، وعد الخروج عنه قلة أدب، والزيادة في الواجب أو عليه أشد في المنع من الزيادة في المندوب، لأنه ذريعة إلى اعتقاد وجوب الزيادة.

اللقاني: ولذا نهى مالك عن وصل ستة من شوال برمضان لئلا يعتقد أنها من رمضان، وكذا فعل عمر ﷺ بمن وصل النفل بالفرض، يريد عمر أن من قبلنا وصلوا النوافل بالفرائض، فاعتقدوا الجميع واجبا. وذلك تغيير للشرائع وهو حرام إجماعا. ثم إن كراهة الزيادة إنما هي من حيث الزيادة فلا ينافي قول النووي إنه يثاب عليه، يعني من حيث أنه ذكر. **انتهى.**

قال زروق: روي أن رجلا كان يذكر دبر كل صلاة: سبحان الله والحمد لله والله أكبر. مائة مرة من كل واحدة. فرأى كأن قائلا يقول: أين الذاكرون الله أدبار الصلوات؟ فقام له، فقال له: ارجع فلست منهم، إنما هذه المزية لمن اقتصر على الثلاث والثلاثين. وكل ما ورد فيه عدد قصر عليه وكذا اللفظ.[1]

---

[1]- انظر القواعد (ص:82) القاعدة رقم: 109.

نعم: اختلف في زيادة سيدنا في الأوراد من كيفية الصلاة عليه ﷺ والوجه أن يقتصر على لفظه فيما تعبد به، ويزاد حيث يراد الفضل في الجملة.

قسم البدع المباحة: وهي ما تناولته أدلة الإباحة. وقواعدها من الشريعة؛ كاتخاذ المناخل للدقيق ففي الآثار: أول شيء أحدثه الناس بعد رسول الله ﷺ: اتخاذ المناخل. (1)لأن تليين العيش وإصلاحه من المباحات فوسيلته مباحة وكالمصافحة عقب العصر والصبح. **قاله العلقمي**.

وكالتوسع في اللذيذ من المأكل والمشرب والملبس، والمسكن، ولبس الطيالسة وتوسيع الأكمام، وقد يختلف في بعض ذلك فيجعله بعض العلماء من البدع المكروهة، ويجعله آخرون من السنن المفعولة في عهده ﷺ فما بعده، وذلك كالاستعاذة والبسملة في الصلاة.

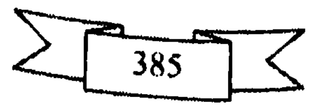
وقال الفشني في شرح الأربعين: لأهل البدع علامات: من أعظمها: عدم الاستواء والاستقامة في الصلاة فصلاتهم معوجة، لعدم التراص في الصف وكثرة الفرج والخلل فيه، وتقديم الرجل وتأخيرها، وكذا الصدر والاستهزاء بالصالحين، وإهمال الذكر والقرآن، والاشتغال بالجدال والغيبة والهذيان. **وقال الثوري**: البدعة أحب إلى إبليس من المعصية؛ لأن المعصية يتاب منها، والبدعة لا يتاب منها.[2]

وقال سهل: إنما ظهرت البدعة على أيدي أهل السنة لأنهم ظاهروهم وتأولوهم فظهرت أقاويلهم وفشت في العامة، فسمعها من لم يسمعها، ولو تركوهم ولم يكلموهم لمات كل واحد منهم على ما في صدره. ولم يظهر منه شيء.[3]

([1]) هذه الأقسام ذكرها القرافي في الذخيرة باختصار وقد فصلها المؤلف هذا التفصيل الذي رأينا. انظر الذخيرة: (234/13).

[2]- انظر الفشني على الأربعين حاشية الشبرخيتي: (ص:187) المجلس: 28.

[3]- أورده الفشني م.س (ص:186).



فائدة: إنكار ما ابتدعه المسلمون على وجه القربة مما لم يخالف الشرع من الجهل، **كما قاله علي الخواص.** إذ لو كان كل ما سكت عنه الشارع مذموما؛ لتعدّي ذلك إلى مذاهب المجتهدين ولا قائل به. وقد حكم الشارع لحكيم بن حزام حين أسلم بالخير، وكان قد سأله عن أمور فعلها في الجاهلية من عتق وصدقة، وصلة رحم، فسمى ذلك الفعل الذي فعله حكيم في الجاهلية على غير قدم الاتباع خيرا. **قاله في شرح شهية السماع**[1].

وقال صاحب كتاب التشوف: إن للصالحين أحوالا ينكرها كثير من الناس فأردت الإتيان باستنادهم فيها إلى الشريعة[2]. **وذكر الأستاذ الحكيم سعد بن أحمد بن إبراهيم بن ليون التجيبي**[3] **منها تسعين أمرا.** وذكر دليل كل واحدة **فمن أراد الوقوف عليها فلينظرها هناك. فمنها:** الذكر أمام الجنازة، ومجالس الوعظ. **ومنها:** اتخاذ السبحة: فإن لها أصلا أصيلا عن بعض أمهات المؤمنين، **وريئت بيد الجنيد سبحة فقيل له:** أنت مع شرفك ممسك سبحة؟ فقال: آلة وصلتنا إلى ما وصلتنا إليه، والله لا نتركها أبدا، ولها سند معروف إلى الحسن البصري، كل يرى في يدي شيخه سبحة ويقول له: أنت إلى الآن مع السبحة؟ فيقول: كذلك رأيت أستاذي.

وقال الحسن البصري: هذا شيء كنا استعملناه في البداية ما كنا لنتركه في النهاية, أنا أحب أن أذكر الله بقلبي ولساني ويدي.

وقال أبو العباس أحمد بن أبي بكر بن الرداد: يتبين من قول الحسن البصري أن السبحة كانت موجودة متخذة في عهد الصحابة ﵃.

([1]) انظر شرح شهية السماع: (26).

([2]) انظر التشوف إلى رجال التصوف: (50).

[3]- هو أبو عثمان، من علماء الأندلس وأدبائها المتقدمين، له أكثر من مائة مصنف في مختلف الفنون؛ منها: كتاب كمال الحافظ في المواعظ، وأنداء الديم في الحكم، نصائح الأحباب وصحائح الآداب، واختصر كثيرا من الكتب، وشعره كله حكم ووعظ (ت 750هـ). انظر نفح الطيب (289/3) دائرة البستاني (257/2).

قال زروق: ولعقد الأعداد وجه في الشرع: **إذ قال عليه الصلاة والسلام:** «لنساء من المؤمنات أعقدن بالأصابع فإنهن مستنطقات مسئولات[1]». وأقر بعض أزواجه على تسبيحها بنوى كان بين يديها، وكان لأبي هريرة خيط قد ربط فيه خمسمائة عقدة يسبح الله فيها. **قيل:** والسبحة أعون على الذكر وأدعى للدوام، وأجمع للفكر، وأقرب للحضور، وأعظم للثواب إذ له ثواب أعدادها وما تعطلت فيه لضرورة، أو تعطل منها لغلط ونحوه.

ومنها: ابتداع الأحزاب: قال في شرح شهية السماع: كره بعضهم ابتداعها. وقال: إن فيما ورد في الشريعة غنية عن ذلك، والحق تعالى؛ لا يجالس العبد إلا فيما شرعه نبيه ﷺ. **ولما اعترض بعض الفقهاء على الشاذلي في ابتداع حزبه المسمى بـ "حزب البحر" قال الشيخ:** والله لقد أخذته من في رسول الله ﷺ حرفا بحرف. **انتهى**[2].

وقال ابن عباد: الحزب من روابح[3] الدين التي يتعين التمسك بها لذهاب حقائق الديانات في هذه الأزمنة. وإن كان بدعة فهو مما اختلف فيه. وغاية القول فيه: الكراهة، فصح العمل به على قول من يقول به.

ومنها: التفرغ للعبادة دون تعلق بحرفة وكذلك كان أهل الصفة من أصحابه ﷺ. **كما أخرجه البخاري عن أبي هريرة، قال:** أهل الصفة: لا ياوون على أهل ولا مال، ولا أحد، إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئا أو هدية أشركهم فيها. والحجة في ذلك إقراره ﷺ لهم على ذلك.

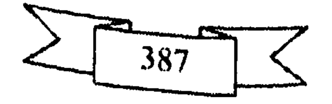
ومنها: لبس المرقعات لمن لا يجد غيرها: فقد لبسها الصحابة كمصعب بن عمير

---

(1) أخرجه الحاكم في المستدرك: (2007) والطبراني في الأوسط بلفظ: «عليكن بالتسبيح والتهليل واعقدن بالأنامل فإنهن يأتين يوم القيامة مسئولات مستنطقات ولا تغفلن فتنسين الرحمة».

(2) انظر شرح شهية السماع: (260).

(3) في نسخة: من روالح الدين.



وعمر وعلي ﷺ. **وفي الجواهر الصوفية أن عليا قال:** رقعت مدرعتي هذه حتى استحييت من رقعها.

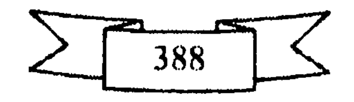
وقد قيل: إن أول من رقع آدم وحواء عليهما السلام. **وقيل في حديث:** «حسن العهد من الإيمان[1]». أن من حسن العهد ترقيع الثوب الخَلِق، فإن لم يتمكن من لبسه فليجعل منه عصابة ويشدها في وسطه ويجعل الثوب الجديد فوقها، ولا يزهد فيه إذا خلق ويترك لبسه. **قال الملالي: كذا سمعته من سيدي محمد بن يوسف.**

ومنها: لبس الخرقة: فقد ألبس الشيخ إبراهيم التازي الخرقة الشريفة الطاهرة المطهرة للشيخ محمد بن يوسف السنوسي بسندهما المعروف إلى الشيخ المعمر إلى القطب الكبير أبي محمد صالح إلى الغوث الفرد الجامع أبي مدين شعيب إلى أبي بكر بن العربي من الغزالي من إمام الحرمين من أبي طالب المكي إلى الإمام الجنيد إلى علي الرضى من أبيه موسى الكاظم من أبيه جعفر الصادق من أبيه محمد الباقر من أبيه زين العابدين من أبيه الحسين من أبيه علي بن أبي طالب من المصطفى ﷺ.

ومنها: المصافحة: فقد صافح محمد بن يوسف شيخه إبراهيم التازي بسندهما المعروف إلى المعمر، وهو صافح رسول الله ﷺ وقال: من صافحني أو صافح من صافحني دخل الجنة. وشدد سيدي إبراهيم على يد الشيخ سيدي محمد بن يوسف **وقال:** المراد بهذا الشد: الاشتداد في تأكيد الصحبة.

ومنها: المشابكة: فقد شابك سيدي إبراهيم: سيدي محمد بن يوسف فقال له: شابكني فمن شابكني دخل الجنة. بسندها المعروف أيضا إلى أبي الحسن الباغوراوي. قال: رأيت رسول الله ﷺ في النوم فشبك أصابعه بأصابعي وقال: يا علي شابكني فمن شابكني دخل الجنة، ومن شابك من شابكني فما زال يعد حتى وصل إلى سبعة. ثم

([1]) أخرجه الحاكم (62/1 ، رقم 40) ، وقال : صحيح على شرط الشيخين



استيقظت وأصابعي في أصابعه ﷺ. وهكذا ينبغي لكل من شابك أحدا أن يقول له: شابكني... إلى آخره. كما قال ﷺ للباغوراوي.

ومنها: الضيافة بسندها المعروف. **ومنها:** تلقين الذكر بسنده المعروف إلى رسول الله ﷺ. **ومنها:** حديث الرحمة. **ذكر هذا كله في المواهب القدسية. بخ.**

وقال سيدي زروق: لبس الخرقة، ومناولة السبحة، وأُخذ العهد، والمصافحة، والمشابكة: من علم الرواية إلا أن يقصد بها حال فتكون لأجله[1].

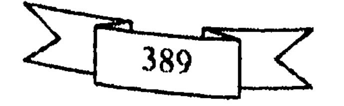
وقد ذكر ابن أبي جمرة أخذ العهد في باب البيعة. وألحقه بأقسامها، وأخذوا لباس الخرقة من أحاديث وردت في خلعه عليه الصلاة والسلام على غير واحد من أصحابه، ومبايعته لسلمة بن الأكوع تشهد لإيداع السر فيها. وكذا مبايعته عليه الصلاة والسلام بعد تحقيق الإيمان وتقرره في قلوبهم؛ إنما هو لذلك، ويجري حكم الإرث والتأسي فيها كغيرها. وفيها أسرار خفية يعلمها أهلها. **والله أعلم.**

تقوى الله ظاهرا وباطنا

ثم أشار إلى الركن السابع من أركان التصوف بقوله: (وَتَقْوَى الله) التقوى لغة: اتخاذ الوقاية وهي ما يقي الإنسان ويحفظه ويحول بينه وبين ما يخافه. **مثاله:** الترس، ونحوه من الأجسام. والصدق والصدقة من الأفعال. فالمتقي جعل بينه وبين المعاصي وقاية من قوة عزمه على تركها، واستحضار علمه بقبحها.

وفي المنهاج للغزالي: قال شيخنا: أصل لفظة التقوى في اللغة: الوقوى بالواو وهو مصدر الوقاية، يقال: وقى يقي وقاية ووقْوَى فأبدلت عن الواو تاء كما هو في الوكلان

([1]) انظر قواعد التصوف: (القاعدة 158).



والتكلان، والتقى جمع تقاة. والتقوى شرعا: اجتناب كل ما يبعد عن الله تعالى من الآثام وما يجر إليها.[1] وهي قسمان: التقوى (ظَاهِرًا) وهو كف الجوارح الظاهرة عن الحرام وحفظها عما لا تؤمن عاقبته (وَ) الثاني: التقوى (بَاطِنًا) وهو مراقة الله تعالى والظاهرة: تدرج صاحبها إلى الباطنة.

وفي ابن عاشر: ما يدل على أن أقسام التقوى أربعة: اجتناب المنهيات في الظاهر والباطن، وامتثال المأمورات في الظاهر والباطن. والاجتناب والامتثال الباطنيان مرجعهما للنية فينوي فعل الطاعة واجتناب المعصية.[2]

وللتقوى ثلاث مراتب: الأولى: التوقي من العذاب المخلد بالتبري من الشرك وعليه قوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾. **والثانية:** التجنب عن كل ما يؤثم حتى الصغائر عند قوم. وهذا التجنب هو المعروف بالتقوى في الشرع وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾. **والثالثة:** أن يتنزه عن كل ما يشغل سره عن الحق تعالى، وهذه هي التقوى في الحقيقة المطلوبة بقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾.

وقال بعضهم: إن أدنى رتبة الاجتهاد هو اجتناب المحرم وهو الورع ثم اجتناب الشبهات وهو التقوى، ثم اجتناب ما لا بأس به خوفا مما به بأس. وهو الصدق في التقوى، كترك الرّي والشبع والنظر؛ لتحريكها الشهوة، ثم اجتناب ما ليس له تعالى، وهو الصدق المطلق، كترك خطوة أو لقمة ليس فيها نية عبادة.

---

[1]- انظر المنهاج (ص:27) وما بعدها.

[2]- إشارة إلى قوله:

وحاصل التقوى اجتناب وامتثال ... في ظاهر وباطن بذا تنال

فجاءت الأقسام حقا أربعة ... وهي للسالك سبل المنفعة

وقال الغزالي: اعلم أن التقوى كنز عزيز فلإن ظفرت به فكم تجد فيه من جوهر شريف وعلق نفيس وخير كثير ورزق كريم وفوز كبير وغنم جسيم وملك عظيم فكأن خيرات الدنيا والآخرة جمعت فجعلت تحت هذه الخصلة الواحدة التي هي التقوى، فعليك بها، إن أردت العبادة، بل إن أردت سعادة الدنيا والعقبى. **ولقد صدق القائل:**

مَن اتَّقَى اللهَ فَذَاكَ الَّذِي سِيقَ إِلَيْهِ الْمَتْجَرُ الرَّابِحُ

والقائل أيضا:

مَنْ عَرَفَ اللهَ فَلَمْ تُغْنِهِ مَعْرِفَةُ اللهِ فَذَاكَ الشَّقِي

مَا يَصْنَع الْعَبْدُ بِعِزِّ الْغِنَي وَالْعِز كُلّ الْعِزِّ لِلْمُتَّقِ

وكتب على بعض القبور:

لَيْسَ زَاد سِوَى التُّقَى فَخُذِي مِنْهُ أَوْدَعِي

وقالت عائشة رضي الله عنها: ما أعجب رسول الله ﷺ شيء من الدنيا ولا أعجبه أحد إلا ذو تقى.

وعن قتادة أنه قال: مكتوب في التورية: يا ابن آدم اتق الله ونم حيث شئت. وذكر أن بعض الصالحين قال لبعض أشياخه: أوصني: قال: أوصيك بوصية الله رب العالمين للأولين والآخرين: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾.

قال الغزالي: حد التقوى الجامع: تتريه القلب عن شر لم يسبق عنك مثله بقوة العزم على تركه حتى يصير ذلك وقاية بينك وبين كل شر. ثم الشرور ضربان: شر أصلي، وهو ما نهي عنه كالمعاصي المحضة. وشر غير أصلي؛ وهو ما نهي عنه تأديبا، وهو فضول الحلال كالمباحات المأخوذة بالشهوات.

فالأول: تقوى فرضي يلزم بتركه عذاب النار. **والثاني:** تقوى خير وأدب يلزم بتركه الحبس والحساب والتعيير واللوم. فمن أتى بالأول فهو في الدرجة الدنيا من التقوى، وهو مترلة مستقيمي الطاعة، ومن أتى بالأخرى فهو في الدرجة العليا من

التقوى وذلك منزلة مستقيمي المباح فإذا جمع العبد بينهما على اجتناب كل معصية وفضول فقد استكمل معنى التقوى وقام بحقها. **انتهى**.

قال زروق في قواعده: غاية اتباع التقوى: التمسك بالورع، وهو ترك ما لا بأس به خوفا مما به بأس كما صح: لا يبلغ أحد درجة المتقين حتى يدع ما حاك في الصدر. وشك بلا علامة وسوسة. وورع بلا سنة بدعة. **ومنه:** التورع عن اليمين في الحق بالحق من غير إكثار فلا يصح قول من قال: "من الديانة أن لا تحلف بالله صادقا ولا كاذبا"، لما استفاض من آثار السلف، والأحاديث، بل في الحديث: «إن الله يحب أن يحلف به فاحلفوا بالله وبروا يمينه واصدقوا»[1]. ونهى الله تعالى أن يجعل عرضة للأيمان؛ فليتق وقوعه غاية ولا يجتنب بالكلية.والله أعلم.[2]

ثم قال: من كمال التقوى: وجود الاستقامة وهي: حمل النفس على أخلاق القرآن والسنة؛ كالعفو والأمر بالمعروف والإعراض عن الجاهلين، ودفع السيئة بالحسنة. وكقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا..﴾ الآيات. إلى غير ذلك. ولا يتم أمرها إلا بشيخ ناصح أو أخ صالح يدل العبد على اللائق به في إصلاح حاله؛ إذ رب شخص ضره ما نفع غيره، ويدل على ذلك اختلاف أحوال الصحابة في أعمالهم ووصايا رسول الله ﷺ لهم. ومعاملته معهم، فنهى عبد الله بن عمر عن سرد الصوم. وأقر عليه حمزة ابن عمرو الأسلمي.[3] **وقال في ابن عمر:** «نعم الرجل لو كان يقوم من الليل»[4]، وأوصى أبا هريرة بأن لا ينام إلا على وتر، وأمر أبا بكر برفع صوته، وعمر بالإخفاء، وتفقد عليا وفاطمة لصلاتهما من الليل، وعائشة تعترض بين يديه اعتراض الجنازة فلم يوقظها. وأعلم معاذا بأن من قال: لا إله إلا الله وجبت له الجنة.[5] وأمره

---

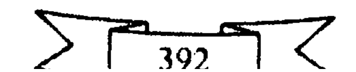
[1]- أخرجه أبو نعيم في الحلية (267/7) والديلمي (101/1) رقم: 333 عن ابن عمر.

[2]- انظر القواعد (ص: 47) القاعدة رقم: 63.

[3]- أخرجه الدارمي (379/1) رقم: 1400. وابن أبي شيبة في مصنفه (244/7) عن ابن عمر.

[4]- أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة رقم: (3670) عن عبد الله بن عمر.

[5]- تقدم تخريجه.



بإخفاء ذلك عن كل الناس. وخص حذيفة بالسر، وأسر لبعض الصحابة أذكارا •
ترغيبه في الخير عموما. وهذا كله تربية منه ﷺ في مقام الاستقامة. والله أعلم.[1]

وقال عمر بن عبد العزيز: لا يبلغ أحد مقام التقوى حتى لا يكون له فعل ولا قو
يفتضح به في الدنيا والآخرة. وقيل له متى يبلغ العبد سنام التقوى؟ فقال: إذا وضع جمي
ما في قلبه من الخواطر في طبق، وطاف به في السوق، ولم يستحيِ من شيء فيه.

الباب الأول

في الخلق

(الْبَابُ الأَوَّلُ فِي الْخلُقِ: اعْلَمْ أَنَّ الالْتِفَاتَ) بالقلب (إِلَى الْخَلْقِ) بالنظر إليهم والوقوف معهم وحب مدحهم وبغض ذمهم والطمع فيهم والخوف منهم، والشكوى إليهم (حِجَابٌ) للعبد عن الوصول إلى مقام الإحسان وإلى الله فالحجاب مضاف إلينا لا إليه إذ لا يصح الحجاب في حقه تعالى.

وقال أبو الحسين الوراق[1]: الأنس بالخلق وحشة. والطمأنينة إليهم حمق، والسكون إليهم عجز، والاعتماد عليهم وهن، والثقة بهم ضياع، وإذا أراد الله بعبده خيرا جعل أنسه به، وبذكره، وتوكله عليه، وصان سره عن النظر إليهم، وظاهره عن الاعتماد عليهم فالملتفت إلى الخلق محجوب، وكل محجوب عن محبوبه فهو محول بينه وبين ما يشتهيه، محترق بنار الفراق، ولذلك قال العارفون: ليس خوفنا من نار جهنم، ولا رجاؤنا للحور، إنما مطلبنا اللقاء ومهربنا من الحجاب فقط، ونار الحجاب إذا استولت ربما غلبت النار المحرقة للأجسام، فإن نار الفراق نار الله الموقدة التي لا تطلع إلا على الأفئدة، ونار جهنم لا شغل لها إلا مع الأجسام، فألم الأجسام يستحقر مع ألم الفؤاد ولذلك قيل:

وَفِي فِرَاقِ الْمُحِبِّ نَارُ جَوًى أَحَرُّ نَارِ الْجَحِيمِ أَبْرَدُهَا

ولا ينبغي أن ينكر هذا في الآخرة. إذ له نظير في الدنيا، ومدبر الدنيا والآخرة واحد وسنته الصادرة عن إرادته الأزلية مطردة لا تبديل لها، فقد رئي من غلب عليه الوجد

---

[1]- واسمه محمد بن سعيد، من كبار مشايخ نيسابور، كان عالما بعلوم الظاهر. ويتكلم في دقائق علوم المعاملات وعيوب الأفعال، مات قبل العشرين وثلاثمائة. من كلامه: "حياة القلب في ذكر الحي الذي لا يموت" و "العيش الهنيء مع الله لا غير" انظر للاستزادة طبقات الصوفية للسلمي (ص:299).

قاعدا على النار وعلى أصول القضب الجارحة للقدم وهو لا يحس بها لفرط غلبة ما في قلبه، وريء الغضبان يستولي عليه الغضب في القتال فتصيبه الجراحات وهو لا يشعر بها في الحال؛ لأن الغضب نار في القلب، واحتراق الفؤاد أشد من احتراق الأجساد، والأشد: يبطل الإحساس بالأضعف. **قاله الغزالي**[1].

ولما كانت حجب الوصول أربعة: الهوى، والشيطان، والدنيا، والناس. وأقواها: حجاب هوى النفس: لأن حجاب الناس يزول بالعزلة عنهم. وحجاب الدنيا يزول بالزهد في الدنيا، وحجاب الشيطان يمكن دفعه بالذكر والحوقلة والتلاوة. والنفس لا تدفع بشيء إلا بالالتجاء إلى الله تعالى، بدأ بأشدها وأقواها وهو هوى النفس. فقال:

([1]) انظر إحياء علوم الدين: (24/4).

(1) الهــــوى

(وِمِنَ الْخَلْقِ الْهَوَى) بالقصر والجمع: أهواء، وبالمد ما بين السماء والأرض، والجمع أهوية، والهوى مصدر هويته من باب تعب، إذا أحببته وعلقت به، ثم أطلق على ميل النفس وانحرافها نحو الشيء. ثم استعمل في ميل مذموم وهو تولع النفس إلى محبوبها، وميلها إلى مرغوبها، ولو كان فيه هلاكها من غير التفات إلى عاقبة الأمر وما فيه نجاتها.

قال الشاعر جامعا بين الهوى والهواء بالقصر والمـــد:

جُمِعَ الْهَوَاءُ مَعَ الْهَوَى فِي أَضْلُعِي فَتَكَامَلَتْ فِي أَضْلُعِي نَارَانِ
فَقَصرْتُ بِالْمَمْدُودِ عَنْ نَيْلِ الْمُنَى وَمددْتُ بِالْمَقْصُورِ فِي أَكْفَانِي

قال بعض الأمراء لأحد العارفين: سلني حاجتك. فقال له: أولي تقول هذا؟ ولي عبدان هما سيداك؟ قال ومن هما؟ قال: الحرص، والهوى. قد غلبتهما وغلباك، وملكتهما وملكاك.

(2) الشيطـــــان

(وَ) من الخلق الذي يحجب عن الوصول (**الشَّيْطَانَ فَاعْصِهِمَا**) لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ **ولحديث**: «العاجز من أتبع نفسه هواها[1]».

ولحديث: «آفة الدين الهوى[2]» **قال الشاعر**:

إِنَّ الْهَوَانَ هُوَ الْهَوَى قُلِبَ اسْمُـــــهُ فَإِذَا هَوِيتَ فَقَدْ لَقِيتَ هَـــوَانَا

وعصيان الهوى: ألا تميل بنفسك ولا بقلبك ولا بروحك، ولا بعقلك، ولا ببعضك، ولا بكلك، ولا بسرك، ولا بعلانيتك، إلا إلى الله تعالى، أي ميلك إلى الله تعالى وحبك له، وبغضك وقضاء حوائجك منه، وما أشبه ذلك فإن ملت إلى شيء من هذا عن الله تعالى فقد اتخذته ندا لقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا﴾.

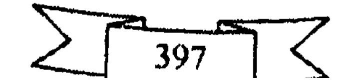
وذكر أن راهبا نصرانيا كان يعبد في صومعته فلا يأتيه ذو عاهة إلا ويبرأ بجر يده عليه، فسمع به رجل صالح فتعجب من ذلك فأتاه فسأله بم بلغت هذه المترلة؟ فقال: بمخالفة هوى النفس. فقال له الرجل: عرضت عليها لا إله إلا الله قط؟ قال: لا، ولا أعرفها. فقال له: دعني إلى غد فإني أعرضها عليها هذه الليلة. فذهب الرجل الصالح، فلما أتاه من الغد قال له النصراني: امدد يمينك أنا أقول: لا إله إلا الله، قال له: عرضتها على نفسي البارحة فنفرت منها غاية النفور، فقلت: إن فيها رضى الله. وليكن من دعائك: اللهم ملك لنا أنفسنا بخير، ولا تسلطها علينا. **انتهى**.

وأما الشيطان فعصيانه مخالفته في كل ما دعاك إليه من الشر والخير. ولا تقصر في مجاهدته، وابذل مجهودك فيها بلا غفلة ولا سهو واستعن بالله فيه، وافزع إليه بالفقر،

---

(1) الترمذى (638/4 ، رقم 2459) وقال : حسن . وابن ماجه (1423/2 ، رقم 4260)

(2) البيهقى فى شعب الإيمان (158/4 ، رقم 4647)



واللجإ والاضطرار فإنك لا حيلة لك ولا قوة إلا به، فإنه لا يالوك بكل حيلة يهلكك بها، ولا يريد بك إلا أن ترِد معه حيث يرد جهنم ويغضب الله عليك، فاحذر منه فإنه أول من عصى، وقد عاند الله تعالى في عبده آدم، وضاده في ذريته، وعاند أولياء الله من الأنبياء والصديقين، وأصفيائه من الخلق أجمعين، فإن مكائده على أنواع شتى. فأول ما يأمرك به: الكفر، فإن لم يقدر عليك فيأمرك بالشرك، فإن ائتمرت وإلا أمرك بالشك، فإن ائتمرت وإلا فبالزيغ، في كل ذلك يزين لك ويبين لك ويريك النصيحة، ونصيحته خديعة محضة، وما ذلك إلا ليستفز منك ولو بحرف واحد، فإنه يقنع منك به، فإن لم يقدر عليك في هذا كله أمرك بالكبائر، وإلا فبالصغائر، فإن ائتمرت وإلا فبالنظر لعيوب الناس، ليشغلك بها عن كمون دسائس نفسك، فإن لم يقدر عليك بالمعاصي، أمرك بالطاعة وذلك لوجهين: **أحدهما**: يأمرك بإفراط المجاهدة ليخرجك بها عن السنة، وتحقر بها الأمة، ليوقعك في البدعة والتكبر، وتزكية النفس. **والآخر**: يقول لك: أنت الآن وصلت وقد تركت الكفر وجميع المعاصي ليغيبك عن تقصير نفسك ويوقعك في الدعوى.

ومن ذلك أنه يقول لك: ما بقي إلا أن ترى الناس فعلك ليشهدوا فيك بالصلاح، **لحديث**: «من شهد فيه اثنان كان الله ثالثهما[1]». فترجع كلما تعمل عملا من أعمال البر ما تعمله إلا لتراءي الناس، فما ذلك إلا ليخرجك عن الإخلاص. **ومن ذلك**: أن يزينك الشيطان في أعين الناس، ويأمرهم بتعظيمك وتقبيل يدك ويطلبون خاطرك، وما ذلك إلا لترى أن لك قيمة تستحق عليها ذلك.

ومن ذلك: أن يأمر الناس بأن يقولوا لك: تكون شيخنا، **ويري لك حديث علي** ﷺ: «لأن يهدي الله على يدي رجلا خير لي مما طلعت عليه الشمس». فتقبل الشياخة وأنت لم تعلم دسائس نفسه ويرى لك علوما ويسوق لك فيها شواهد من مشكلات

---

(1) لم أجد تخريجه.

الآيات والروايات لتحرف حكمها عن موضعه، فيخرجك عن حكم الشريعة، فتحلل الحرام وتحرم الحلال، فإذا لم يقدر عليك وبرئت من حولك وقوتك، وأخلصت عبادتك ولا رأيت لنفسك قيمة على ذلك، ولم تبدل ولم تغير في حكم ربك، كل ذلك بالله ومن الله وإلى الله، ورأى أنك قد استقمت على ذلك وخالفته في كل ما احتال عليك؛ فحينئذ يصرخ في جميع الشياطين ليعينوه فيك، فيحاربوك على ما ذكرنا أشد محاربة. فإذا لم يقدر عليك فينفخ في الماء، فكل من شرب من ذلك الماء يبغضك، وما ذلك إلا ليضيق عليك ليدخل معك القنوط والملل فيبغضك جميع الناس حتى أبواك وأولادك ولهذا قالوا: لا يكون الصِّديق صديقا حتى يشهد فيه ألف صدِّيق أنه زنديق. فإذا هان عليك هجران الخلق في جنب الحق ورأى أنك قد وطنت نفسك على ذلك، فيرجع ويقول لك: أنت تريد أن تدخل الجنة بعملك، فإن غيرك أكثر اجتهادا منك، ومات على غير الشهادة، مثل برصيص العابد وغيره، فلا يزال يحاربك بأنواع المحاربة عسى أن تقصر فيما أنت فيه أي تفرط في جنب الله تعالى، فإذا غلبك وردك إلى الشهوة والتقصير؛ مسح على وجهك ويقول: هذا وجه لا يفلح أبدا. **ولهذا قيل:** من لم يكن في زيادة فهو في نقص. وقالوا: من نقص فقد سقط من عين الله تعالى. فإذا لم يقدر عليك وثبتك الله في طاعته؛ انهزم الشيطان. ويقول الله تعالى: يا جبريل: ناد في السموات والأرض إن الله قد أحب فلانا فأحبوه، وينزل محبته في الماء، فكل من شرب من الماء يحبه، فتلك هي المحبة المستقيمة التي هي من الله تعالى، وبأمر الله. فحينئذ: يوضع له القبول في الأرض فيحبه جميع المؤمنين، ويبغضه ويحسده جميع المنافقين، فحينئذ ما يبقى له من حيلة[1].

غير أن النفس هي وزيرته ومعها شيء من طبيعته، والنفس مثل ورقة في طرف شجرة أقل شيء يهزها، فينفخ فيها اللعين من بعد فيخبرها في تلك النفخة بما تميل إليه من طبائعها فيلهمها لطلبه، فإن غلبتك نفسك وقنعت بما زينت لك حجبت عما فوقها،

---

(1) انظر منهاج العابدين (ص:26).

وما ذلك من الشيطان إلا ليقلل درجتك حسدا منه فيبقى يلهم النفس درجة بعد درجة عسى أن تبقى مع واحدة فتحجب عما فوقها، وذلك مكر من الشيطان وجهل من النفس بما وراء ذلك، فأول ما يرى لك عذاب النار ونعيم الجنة، عسى أن تعبد بنية الخوف من النار، والطمع في الجنة، فإذا لم يقدر عليك ورأى أنك تعلو عن ذلك؛ يرى لك الكرامات عسى أن تعبد بنيتها، ثم علو الدرجات، ثم كمال المقامات، ثم القرب ثم الوصال، ثم الأنوار والأسرار، ثم الفناء ثم البقاء، ثم الأنس، ثم المحادثة والمكالمة ثم النظر للمولى. فإذا لم يقدر عليك ورأى أنك فنيت في عظمته تعالى، حتى لم تشاهد سواه وترى الأمور كلها منه، وإليه انهزم الشيطان، وينقطع وييأس أن يحجبك عن الله تعالى بشيء ولكن ما يزال يطمع ويحتال عليك، وأنت ما تزال تحذر منه، وتتهمه في كل لحظة وتخلص في حقيقة إيمانك، وفي حقيقة توكلك، وتستبشر بأنه لا يقوى عليك، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية.

وقال الغزالي في المنهاج: مكائد الشيطان في ابن آدم في الطاعة من سبعة أوجه: أحدها: إن ينهاه عنها، فإن عصمه الله تعالى رده بأن قال له: إني لمحتاج إلى ذلك جدا؛ أي لابد لي من التزود من هذه الدنيا لآخرتي، ثم يأمره بالتسويف فإن عصمه الله رده بأن قال: ليس أجلي بيدي، على أني إن سوفت عمل اليوم إلى غد، فعمل غد متى أعمله؟ فإن لكل يوم عملا. ثم يأمره بالعجلة فيقول له: اعجل لتفرغ لكذا وكذا فإن عصمه الله تعالى رده بأن قال: قليل العمل مع التمام خير من كثيره مع نقصان، ثم يأمره بمراءاة الناس، فإن عصمه الله تعالى رده بأن قال: أفلا تكفيني رؤية الله تعالى، ثم يأمره بالعجب به، فإن عصمه الله ورده بأن قال له: المنة لله تعالى في ذلك دوني وهو الذي خصني بتوفيقه وجعل لعملي قيمة بفضله ولولا فضل الله ما كان لعملي قيمة في جنب نعمة الله تعالى وجنب معصيتي له، ثم يأتيه من وجه سادس؛ وهو أعظمها ولا يقف عليه

إلا متيقظ, وهو أيقول: اجتهد أنت في السر فإن الله سيظهره عليك ويلبس كل عامل عمله. وأراد بذلك ضربا من الرياء، فإن عصمه الله تعالى رده بأن قال يا ملعون: كنت تأتيني بوجه إفساد عملي، والآن تأتيني بإخلاص لتفسده، إنما أنا عبد الله وهو سيدي إن شاء أظهر وإن شاء أخفى، وإن شاء جعلني خطيرا وإن شاء جعلني حقيرا، وذلك إليه ما أبالي أأظهر ذلك للناس أو لم يظهره، فليس بأيديهم شيء. **ثم يأتيه بوجه سابع**: ويقول: لا حاجة لك بهذا العمل، لأنك إن خلقت سعيدا لم يضرك ترك العمل، وإلا لم ينفعك فعله. فإن عصمه الله تعالى رده بأن قال له: أنا عبد لله وعلى العبد امتثال الأمر لعبوديته. والرب أعلم بربوبيته، وأيضا فمن لقي الله تعالى على الإيمان والطاعة لم يدخل النار البتة، ودخل الجنة لا لاستحقاقه الجنة بعمله ولكن لوعده الصادق. **انتهى**.

تنبيه: اعلم رحمك الله أن الشيطان عدو مسلط على الإنسان، ومقتضى ذلك أن لا توجد منه غفلة ولا فترة عن التزيين والإغواء والإضلال وهو دائما مجتهد في عطبك سرا وجهرا، ونوما ويقظة، يبطل طاعتك ويوقعك في المعصية.

قيل لبعضهم: أينام إبليس؟ فقال لو نام لوجدنا راحة. فإن غفلت عنه غلبك لا محالة لثبوت سلطنته عليك، ووصوله بالوسوسة إليك، فإن غفلت ومللت أهلكك وأعطيته أمنيته منك، وقوي عليك، ولا يريد منك إلا الكفر والعياذ بالله تعالى.

قال أهل العلم: إن لكل أحد من الناس وسواسا موكلا به مستبطنا قلبه، واضعا رأسه أو قال خرطومه عليه، فإذا غفل العبد وسوس، وإذا ذكر الله خنس. أي تأخر واستتر. **وقيل**: صدر ابن آدم مسكن له، ومجراه من بني آدم مجرى الدم.

وقال مالك بن دينار: إن عدوا يراك ولا تراه لشديد المؤونة، إلا من عصمه الله. **وقال محمد بن واسع**: ليس لإبليس كيد أعظم من رؤية العبد نفسه على إخوانه، فإنه إذا مات على ذلك أخذه ملك الموت وربه ساخط عليه لم ينفعه شيء من أعماله. **وقال**

الفضيل: إن إبليس يقول: إذا ظفرت من ابن آدم إحدى ثلاث لا أطلب غيرها؛ إعجابه بنفسه، واستكثاره عمله، ونسيانه ذنوبه. **وقال شقيق**: شيآن يغيظان الشيطان: الاكتراث بوسوسته وعدم التفكر في ذات الله تعالى. والتدبير في دفع الشيطان إنما هو بالالتجاء إلى الله تعالى منه والاستعاذة به لا غير، فإن الشيطان كلب سلطه الله عليك فالرجوع إلى ربه أولى، ثم بمجاهدته والقيام عليه بعد ذلك بالرد والدفع والمخالفة، وأن تعلم كيده وحيله، فلا يتجاسر حينئذ عليك، كاللص إذا علم أن صاحب الدار قد أحس به فر، وأن تستخف بدعوته فلا تعلق قلبك به وتتبعه، فإنه بمنزلة الكلب النابح، إن أقبلت عليه أولع بك ولج، وإن أعرضت عنه سكت. **قال أبو حازم**: ومن الشيطان حتى يهاب؟ والله لقد أطيع فما نفع ولقد عصي فما ضر. **وقال بعضهم**: الشيطان منديل هذه الدار تمسح به أقذار النسب، وهي نسبة أنواع الشر والفساد والمعاصي تأدبا معه تعالى، وهذا سر إيجاده كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْسَانِيه إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾, ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ وأما أن له حولا أو قوة يضر بهما، أو ينفع فلا. **قال أبو العباس المرسي** في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ فقوم فهموا من هذا الخطاب أنهم أمروا بعداوة الشيطان، فشغلهم ذلك عن محبة الحبيب، وقوم فهموا من ذلك أن الشيطان لكم عدو، وأنا لكم حبيب فاشتغلوا بمحبته فكفاهم من دونه. وأن تديم ذكر الله بلسانك وقلبك، **ففي الحديث**: «إن ذكر الله في جنب الشيطان كالأكلة في جنب ابن آدم[1]». وأن تقول كل يوم: اللهم إنك سلطت علينا بذنوبنا عدوا من غيرنا بصيرا بعيوبنا، مطلعا على عوراتنا، يرانا هو وقبيله من حيث لا نراهم، اللهم أيسه منا كما أيسته من رحمتك، وقنطه منا كما قنطته من عفوك، وباعد بيننا وبينه كما باعدت بينه وبين مغفرتك وجنتك إنك على كل شيء قدير. **وكان محمد بن واسع يقولها كل يوم**، فتمثل له الشيطان يوما؛ فقال له: لا تعلم هذا الدعاء لأحد، وأنا لا أعود أتعرض لك بسوء أبدا، فقال له: والله لا أمنعه من أحد واصنع أنت ما شئت. **وكان يحيى بن معاذ يقول**: اللهم

---

(1) لم أجد تخريجه.

إن إبليس لك عدو وهو لنا عدو وإنك لا تغيظه بشيء هو أنكأ له من عفوك عنا فاعف عنا يا أرحم الراحمين.

ومن دعاء الشيخ العارف محمد بن ميسرة القرطبي: اللهم لا تجعل قلبي للشيطان مراغا، ولا تصير قلبي له مجالا، ولا تجعلني ممن استفزه بصوته، وأجلب عليه بخيله ورجله، فكن لي من حبائله منجيا، ومن مصائده منقذا، ومن غوايته مبعدا، إنه وسوس في القلب، وألقى في النفس ما لا يطيق اللسان ذكره ولا تستطيع النفس نشره مما نزهك عنه علو عزك، وسمو مجدك، فأزل يا سيدي ما سطر، وامح ما زور بوابل من سحائب عظمتك وطوفان من بحار نصرتك، واسلل عليه سيف إبعادك، وارشقه بسهام إقصائك، وأحرقه بنار انتقامك واجعل خلاصي منه زائدا في حزنه، ومؤكدا لأسفه **وبالله تعالى التوفيق.**

النفـــــس

(وَ) من الخلق الذي هو حجب الوصول **(النَّفْس)** بل هي أقوى حجب الوصول كما مر. وهي هنا القوة المتوجهة بطلب الملائم طبعا في الحال، دون مبالاة بالمآل، وهي كهف الظلمة، وموطن الغفلة، وأرض الشهوة، وخزانة الجهل، ومعدن الكسل، وهي للشيطان خدن وللهلاك عدل، فلا يصل إليك شيطان إلا بشهوتها، ولا تقتحم معصية إلا بجهلها، إن ادعت صدقا كذبت، وإن امتحنتها افتضحت، وإن نصحتها غشت، وإن قومتها اعوجت، وإن قدتها بركت، وإن خوفتها استأمنت، وإن دعوتها أدبرت، وإن رشدتها أعرضت وإن غفلت عنها أهلكت، وإن سرحتها ضلت، وإن رأت شهوة فرحت، وإن رأت مرادها بادرت، وإن رأت مصيبة سخطت، فهي لكل شر أهل، ولها عن كل خير عجز، فمن لم يعرفها أردته، ومن اطمأن إليها غدرته، ومن رفعها وضعته، ومن أعزها أذلته، ومن ملكته حجبته.

فائدة: ما يرد على القلب من أربعة أوجه: الأول: حديث النفس والدليل عليه طلب الشهوات. **والثاني:** وسوسة الشيطان والدليل عليه طلب المعصية. **والثالث:** إلهام الملك، والدليل عليه طلب الهداية. **والرابع:** إلهام من الله تعالى لا يطلع عليه ملك ولا شيطان، والدليل عليه انشراح الصدر وجمود الغواية.

واعلم أن النفس خلقت ضعيفة وطبعها قوى وهي شرهة، مداهنة، آمنة، مدعية، خارجة عن طاعة الله، متملكة متمنية. خوفها أمن ورجاءها أماني. وليس لها فعل محمود ولا دعوى حق، وهي رأس البلاء ومعدن الفضيحة، وخزانة إبليس، ومأوى كل سوء، وهي كنز إبليس ومستراحه، ومسامرته ومحادثته، وصديقته فليس بلاء عظيم إلا وقد حل بها، ولا توصف بشيء إلا وهي أكثر مما توصف به **(وهِيَّ أَضَرُّ الأَعْدَاءِ)** وبلاؤها أصعب البلاء، وعلاجها أعسر الأشياء، وداؤها أعضل الأدواء، ودواؤها أشكل الدواء. وذلك لأن العدو حقيقة من سعى في ذهاب آخرتك أو نقصها، وإن حصل بذلك صورة نفع في دنياك. ولذلك كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أولياءنا وأصدقاءنا لأنهم سعوا في عمارة آخرتنا دون الشيطان والنفس، فإنهما سعيا في إفسادها، ولأنهما عدو من داخل، واللص إذا كان من داخل البيت عزت الحيلة فيه، وعظم الضرر، **ولقد صدق القائل:**

نَفسِي إِلَى مَا ضَرَّنِي دَاعٍ ... تكْثِرُ أَسْقَامِي وَأَوْجَاعِي
كَيْفَ احْتِرَاسِي مِنْ عَدُوِّي إِذَا ... كَانَ عَدُوِّي بَيْنَ أَضْلاَعِي[1]

ولأنها أيضا عدو محبوب، والإنسان عَمٍ عن عين محبوبه **كما قيل:**

وَعَيْنُ الرِّضَى عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَة ... وَلَكِنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي الْمَسَاوِيَا[2]

ولأنها أيضا مجمع الشهوات والمفاسد؛ كحب الدنيا، وخوف الخلق، وهم الرزق،

[1]- انظر المنهاج (ص:26).

[2]- انظر المنهاج (ص:27).

والحسد والكبر والحقد والرياء. وغير ذلك من عيوبها. ولذا كانت أضر الأعداء وأعداها وهي أيضا أعدى من الشيطان، وإنما يقوى عليك بها، ولذلك قيل: إن النفس كالنمر لا يردها إلا القهر القوي. والشيطان مثل الذئب إن أخرجته خرج ثم يأتي من موضع آخر.

قال الشاعر:

تَوَقَّ نَفْسَكَ لاَ تَأْمَنْ غَوَائِلَهَا   فَالنَّفْسُ أَخْبَثُ مِنْ سَبْعِينَ شَيْطَانَا

فإذا نظرت وجدت كل فتنة وفضيحة وخزي وهلاك وذنب وآفة وقع في خلق الله تعالى من أول الخلق إلى يوم القيامة من هذه النفس: إما بها وحدها أو بمعونتها ومشاركتها ومساعدتها. فأول المعصية: كان من إبليس وسببه بعد القضاء السابق هوى النفس بكيدها وحسدها، فأهلكته أبدا الآبدين بعد عبادة ثمانين ألف سنة. فيما قيل، إذ لم يكن هنالك ذنب ولا خلق، ولا شيطان، بل كانت النفس بكبرها وحسدها، فعملت به ما عملت ثم هلم جرا في الآدميين إلى يوم القيامة، لا تجد شرا إلا وأصله النفس وهواها، وإلا كان الخلق في سلامة وخير.

وقال أبو مالك الأشعري: ليس عدوك الذي إذا قتلته آجرك الله عليه ولكن عدوك الذي بين جنبيك وامرأتك التي تضاجعك وولدك، فهؤلاء أعدى عدوك.

وقال بشر الحافي: ستون من مردة الشياطين لا يفسدون ما يفسده قرين السوء في لحظة، وستون من قرناء السوء لا يفسدون ما تفسده النفس في لحظة. **وقال:** إذا حصلت الأمور كلها على وفق المراد للعبد: أتاه الخلل فيها من قبل نفسه وأجمع سائر الملل كلها على أن رضى الرب تعالى في مكروه النفس.

وقال يحيى بن معاذ: أنا أعلم شقاوتي من الآن، فقالوا له: كيف؟ قال: لأنهم قالوا: من سعادة المرء أن يكون خصمه عاقلا، وإن خصمي من لا عقل له، وهو نفسي فقيل له: أنت بحمد الله ذو عقل. فقال: كيف عقلي؟ وأنا أبيع الجنة بشهوة نومة، أو لقمة أو

كلمة. وقال: بلغنا أنه أوحى الله إلى داوود عليه السلام إن أردت محبتي لك فعاد نفسك وودني بعداوتها. **وقال:** من زعم أنه يحب الله تعالى وهو يحب نفسه فقد كذب. **وقال الأحنف بن قيس:** من أكل الشهوات وطلب حفظ جوارحه وفرجه، فقد طلب المحال.

قيل: إن أعرابيا دعا لإنسان بخير فقال له: كتب الله لك كل عدو إلا نفسك، وإذا كانت النفس بهذه المنزلة من العداوة والشر كله **(فَلاَ تَرْكَنْ إِلَيْهَا)** ومن ركونك إليها اتباعك الأخف عليها دون الأثقل، وهو معدود عندهم من نفاق القلب فخفة العمل على غالب الأنفس إنما هو لموافقة هواها، وهو لا يميل إلا إلى الباطل. **وقال أبو الفضل الأحمدي في** قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ الآية. أنه قد يدخل في ذلك الركون إلى النفس. **قاله الشعراني.** **(وَلاَ تَرضَ عَنْهَا)** أي لا تسكن إليها ولا تستحسن حالا من أحوالها، لأن من استحسن حالا من أحوالها فقد أهلكها بمهلكاتها؛ كالكبر والحسد والرياء والعجب وغيرها، ومن استحسنها أيضا استولت عليه الغفلة، وبالغفلة ينصرف قلبه عن التفقد والمراعاة لخواطره، فتثور حينئذ دواعي الشهوة على العبد، وليس عنده من المراقبة والذكر ما يدفعها به ويقهرها، فتصير الشهوة غالبة له بسبب ذلك. ومن غلبته شهوته وقع في المعاصي لا محالة، وأصل ذلك كله رضاه عن نفسه، **وإلى ذلك أشار بقوله:** **(وَهُوَ)** أي الرضى عن النفس دل عليه قوله: "ولا ترض عنها" على حد قوله تعالى: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ **(أَصْلُ كُلِّ شَرٍّ)** **قال في الحكم العطائية:** أصل كل معصية وغفلة وشهوة الرضا عن النفس، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة عدم الرضى منك عنها[1]. وذلك لأن الرضى عنها يوجب تغطية عيوبها، ومساويها، ويصير قبيحها حسنا، وعدم الرضى عنها على عكس هذا؛ لأن العبد إذ ذاك يتهم نفسه ويتطلب عيوبها، ولا يغتر بما تظهره من الطاعات والانقياد ومن كان بهذا الوصف كان متيقظا،

(1) انظر شرح الحكم العطائية للأزهري: (45/1).



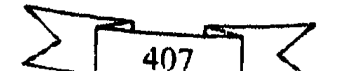
وباليقظة والتنبيه يتمكن من تفقد خواطره ومراعاتها، وعند ذلك تخمد نيران الشهوة، فلا يكون لها عليه غلبة، ولا قوة، فيتصف حينئذ بالعفة عن المنهيات.

وقال المناوي في شرح الحكم: علامة الرضى عن النفس الشفقة عليها، والاغضاء عن عيوبها. **وقال الأنماطي:** أقرب شيء إلى مقت الله رؤية النفس ورؤية أحوالها. وأشد منه طلب العوض على فعلها، فإذا كان الرضى عن النفس بهذه المترلة من الشر؛ فلا شيء أوجب على العبد من معرفة نفسه؛ لأن بها يصلح حاله ويعلو مقامه. وقد ورد عن الكبار والايمة الأخيار، من الكلمات المتضمنة لعيبهم لنفوسهم، والتهمة منهم لها وعدم رضاهم عنها أكثر من أن يحصى، ولذلك **قال أبو حفص**[1]: من لم يتهم نفسه على دوام الأوقات ولم يخالفها في جميع الأحوال، ولم يجرها إلى مكروهها في سائر أيامه، كان مغرورا.[2] وكيف يصح لعاقل الرضى عن النفس، والكريم ابن الكريم يقول: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ **وقال:** - أي الأنماطي - منذ أربعين سنة اعتقادي في نفسي: أن الله ينظر إلي نظرة سخط، وأعمالي تدل على ذلك. **وقال السري السقطي:** إني لأنظر إلى أنفي في اليوم كذا وكذا مرة مخافة أن يكون قد اسود لما أخافه من العقوبة. **وقال:** من الناس ناس لو مات نصف أحدهم ما انزجر النصف الآخر، ولا أحسبني إلا منهم. **(وَاتَّهِمْهَا)** لأن من شأنها أبدا طلب الحظوظ فلا تسعى إلا في ذلك **(وَلَوْ فِي)** عملها بـــ**(الطَّاعَةِ)** فضلا عن المعصية، ومن حاسب نفسه وراقب خواطره؛ تبين له مصداق هذا. لأنها ربما تدعو إلى الخير وتنشط فيه ما لا تنشط في نوع آخر. وقصدها في ذلك الشر، بأن تدعو إلى الفضول لتمنعك من الفاضل؛ لأن حظها في الفضول أكثر وتدعوك إلى خير لتجرك إلى ذنب عظيم لا يفي خيره بذلك الشر؛ من رياء أو عجب أو

---

[1]- هو عمر بن سلمة، أبو حفص الحداد، أحد سادات نيسابور، أول من أظهر طريقة التصوف بنيسابور، (ت:264هـــ) انظر الرسالة القشيري (ص45). وطبقات الأولياء لابن الملقن (ص:193).

[2]- انظر شرح الحكم العطائية لزروق (ص:57).



غيرهما. وكذلك الشيطان، **فإذن** إذا ألفت نفسك بابا من أبواب العبادات **فاتهمها** وشوش عليها ذلك وانقلها إلى غيره.

قال الأجهوري: الخير في خلاف ما تهواه وإن بدا فيه رضى مولاه. واعلم أن العبد إن كان منسلخا من الخير عرضت عليه النفس الوسواس بينا لعلمها أنه يقبله، وإن كان صادقا تقيا؛ أدخلت عليه الشر في معرض الخير، تلبيسا منها عليه، مثل أن تلقي دقيقة من رياء للعبد في صيام النهار وقيام الليل مثلا: فتأمره بالاجتهاد فيهما. ومثاله أيضا: رجل يكون له ورد على قدر ما يحتمله من العمل ولا يمله، فتقول له قد كان السلف يواصلون الصوم ويقومون الليل كله، هلا فعلت فعلهم لتصل إلى ما وصلوا إليه من الكرامات وتريد بذلك أن يعمل فوق طاقته، فيقطعه ذلك عن العمل ويبغض إليه العبادة. ويستدل العبد على هذه الدقيقة بكونه ينشط بحضرة الناس مالا ينشط فيه في الخلوة وبكونه إن تركه بحضرة الناس خاف سقوطه من أعينهم، فإن المرائي لا يحب أن يطلع عليه الناس إلا وهو في نوع من العبادات **(لِخدْعهَا)** ومكائدها ولأجل خدعها خفي على العامل حظها في الطاعة، فلذلك تعسر مداواته لأنه يحتاج إلى دقة فهم ونفوذ إدراك.

وحكي عن المرتعش[1] أنه قال: حججت كذا وكذا حجة على التجريد، فبان لي أن جميع ذلك مشوب بحظ، وذلك أن والدتي سألتني يوما أن أسقي لها جرة ماء، فثقل ذلك على نفسي، فعلمت أن مطاوعة نفسي في الحجات كانت بحظ وشوب من نفسي، وإلا لما صعب عليها ما هو أخف في الشرع.

وعن أحمد بن أرقم البلخي قال: دعتني نفسي إلى الغزو فقلت: سبحان الله إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ وهذه تأمرني بالخير لا يكون هذا أبدا، ولكنها

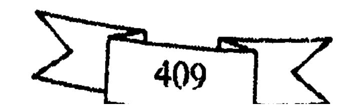
([1]) المرتعش: بضم الميم، وسكون الراء، وفتح التاء المنقوطة من فوقها باثنتين، وكسر العين المهملة، وفي آخرها الشين المعجمة، هذا لقب شيخ عصره أبي محمد جعفر بن المرتعش، من كبار مشايخ الصوفية، وهو نيسابوري، كان من ذوي الاحوال وأرباب الاموال، فتخلى منها وصحب الفقراء وسافر كثيرا، ثم استوطن بغداد إلى أن مات بها. انظر الأنساب للسمعاني: (253/5).

استوحشت، فتريد لقاء الناس لتستريح إليهم، ويتسامع الناس به فيستقبلوها بالبر والتعظيم، والإكرام فقلت لها: لا أسألك العمران. (الْقَرار) ولا أنزل على معرفة فأجابت فأسأت ظنا بها وقلت: الله أصدق قولا، فقلت لها: أقاتل العدو حاسرا فتكوني أول قتيل، فأجابت وعد أشياء مما أراد بها فأجابت إلى كل ذلك، قال: فقلت: يا رب نبهني لها فإني لها متهم ولقولك مصدق فألهمت كأنها تقول لي إنك تقتلني كل يوم مرات لمخالفتك إياي، ومنعي شهواتي ولا يشعر بي أحد، فإن قاتلت فقتلت كانت قتلة واحدة فنجوت منك، ويتسامع الناس فيقال: استشهد أحمد، فيكون شرفا لي، وذكرا في الناس. قال: فقعدت ولم أخرج ذلك العام، فانظر إلى خدع النفس وغرورها أعاذنا الله من شرها، ترائي الناس بعد الموت بعمل لم يكن بعد.

تنبيه: هذا في غير النفس المطمئنة، أما المطمئنة: فقد تدعوا إلى الطاعة ولا يدل ذلك على أن فيها حظها. **(وَاحْمِلْهَا عَلَى مَكْرُوهِهَا فَإِنَّ الْمَكَارِمَ)** جمع مكرمة **(بِحَسَبِ)** الصبر على **(الْمَكَارِهِ)** جمع مكروه، وهو كل ما يشق على النفس فعله؛ كالطهارة وغيرها من الطاعات، والصبر على المصائب وجميع المكاره. **وفي الحديث:** «حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات[1]». أي الجنة لا تنال إلا بقطع مفاوز المكاره، والصبر عليها، والنار لا ينجى منها إلا بترك الشهوات وفطام النفس عنها. **وفي الحديث:** «إن الله خلق النار فقال لجبريل عليه السلام: اذهب فانظر إليها، فذهب فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها، فحفها بالشهوات، ثم قال: اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا يبقى أحد إلا دخلها. وخلق الله الجنة فقال لجبريل عليه السلام: اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها، فحفها بالمكاره، ثم قال: اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر فقال: وعزتك وجلالك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد[2]».

([1]) الترمذي (693/4 ، رقم 2559) وقال : حسن غريب

([2]) أخرجه أبو داود (236/4 ، رقم 4744) ، والترمذي (693/4 ، رقم 2560) وقال : حديث حسن صحيح



وقال عيسى عليه السلام: إنكم لا تدركون ما تحبون إلا بالصبر على ما تكرهون. ولما كانت النفس هي الحجاب الأعظم للعبد عن الله تعالى وأن بمجاهدتها وقمعها وموتها تنال سعادة لقاء الله تعالى. أشار إلى ذلك بقوله: **(وَجَاهِدْهَا)** وحقيقة مجاهدة النفس: دوام مخالفتها فيما تهواه وتشتهيه من الحظوظ الظاهرة والباطنة من الشهوات والإرادات، ودواعي النفس وأمانيها، واختياراتها، إلا ما لابد منه من حقوقها طلبا للاستقامة، واستبقاء وثباتا على المعاملات. ومجاهدتها إنما هي بالتلطف والتدريج، فلا ينتقل دفعة واحدة إلى الطرف الأقصى، فإن الطبع نفور، ولا يمكن نقله عن أخلاقه إلا بالتدريج، فيترك البعض ويسلي نفسه بالبعض، ثم إذا قنعت نفسه بذلك البعض ابتدأ بترك البعض من ذلك البعض إلى أن تقنع بالبقية. وهكذا يفعل شيئا فشيئا إلى أن يقمع تلك الصفات التي رسخت فيه. **وفي الحديث**: «لا تشادوا هذا الدين فإن من يشاده يغلبه[1]».

وقال ابن بطال: مجاهدة النفس أشد من مجاهدة العدو. ولأن النبي ﷺ جعل الذي يملك نفسه عند الغضب أشد قوة في قوله: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب[2]». والصرعة: كهمزة: القوي الذي يصرع الناس، وأما الصرعة بسكون الراء، فهو الذي يصرعه الناس، أي الذي يقوى على نفسه عند الغضب، فيردها؛ هو القوي الفاضل. **وقال علي كرم الله وجهه**: أعمال البر كلها إلى جنب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كنفثة إلى جنب البحر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى جنب الجهاد كنفثة في بحر، والجهاد في جنب مجاهدة النفس عن هواها كنفثة في بحر، وهذا معنى: جئتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر. وإنما كان أكبر لأنها أعدى، عدو لابن آدم. ولأنه إن قتل عدوه الكافر دخل الجنة، وإن قتله عدوه كانت له شهادة، والنفس لا يحل قتلها، لأنه لا يؤذن له بذلك، وهي مسلطة عليه، فإن قتلها كفر وإن قتلته هلك، وأي جهاد أكبر من هذا؟

([1]) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة. انظر المغني عن حمل الأسفار: (327/1).

([2]) أخرجه أبو داود (248/4 ، رقم 4779)

فائدة: إنما أمر بمجاهدة النفس؛ لأن بمجاهدتها تنال سعادة لقاء الله تعالى، و بها تحصل للعبد أهلية القرب منه تعالى، ولأن المجاهدة تغطي عيوبها، فإن فيها كبر إبليس وحسد قابيل، وعتو عاد، وتمرد نمرود، واستطالة فرعون، وبغي قارون، وحماقة هامان، وهوى بلعام. وفيها من أخلاق البهائم: حرص الغراب، وشره الكلب، ورعونة طاووس، ودناءة الجعل، وعقوق الضب، وحقد الجمل، ووثوب الفهد، وصولة الأسد، وخبث الحية، ومكر الفأر، وعبث القرد.

وقال بعضهم: ما الحياة إلا في الموت، أي ما حياة القلب إلا في إماتة النفس.

وقيل: النعمة العظمى: الخروج عن النفس. **وقال سيدي أبو مدين** ﷺ: من لم يمت لم ير الحق. **وقيل:** من لم يكن في بدايته صاحب مجاهدة لم يجد من هذه الطريق شمة.

وقال أبو عثمان المغربي: من ظن أنه يفتح الله عليه بشيء من هذه الطريقة أو يكشف له عن شيء منها من غير لزوم المجاهدة فهو في غلط.

وقال الأستاذ أبو علي: من لم تكن له في بدايته قومة، لم تكن له في نهايته جلسة. ولما كانت النفس شبيهة بالكافر الذي يريد أن تكون كلمة الكفر هي العليا، وكلمة التوحيد هي السفلى، وهي أيضا تريد أن تكون كلمة باطلها من الدعاء للحظوظ العاجلة المشغلة عن الطاعات، وعن الإخلاص فيها هي العليا النافذ أمرها ونهيها في مدن الأجسام، وكان الإخلاص شرطا في الجهادين، أي لا لقصد غنيمة الأموال، ولا غنيمة الخوارق ونحوها، **كما قال أبو عبد الله القرشي**[1]: من عمل ليجد أو يرى، لم يفتح له بشيء حتى يكون قصده تحقيق العبودية، والقيام بما يجب عليه من حقوق الربوبية. أشار لذلك بقوله: ولا تقصد بمجاهدتك ورياضتك توصلا إلى شيء من المكرمات، وخرق

([1]) هو محمد بن أحمد بن إبراهيم. أبو عبد الله القرشي الهاشمي: زاهد. أندلسي الاصل، من الجزيرة الخضراء. أقام بمصر مدة، وسكن القدس وتوفي بها، ودفن بماملا (مقبرة القدس القديمة) له كلمات وجمل، في آداب المعاملات وطرائق أهل الرياضات، جمعها بعض تلاميذه في كتاب " الفصول - خ . توفي 599هـ. انظر الشذرات: 342/4).

العوائد، وأنواع الإجابات، فإن ذلك فتنة وبلية، وتقطع طريق العبودية بل ليكن قصدك الصدق في العبودية والقيام بما يجب عليك من حقوق الربوبية (**امْتِثَالاً**) لأمر الله تعالى بأن يجاهد النفس (**لِتَكُونَ كَلِمَتُهُ تَعَالَى مِنَ الأَمْرِ بِالإِخْلاَصِ**) له في العبادة ظاهرا وباطنا وسرا وعلانية في قوله تعالى:﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ فإنه تعالى أمر بالإخلاص على كل حال ورفض كل ما يشوش في ذلك (**هِيَّ الْعُلْيَا**) النافذة عملا وامتثالا وتعظيما في جميع أجزاء البدن الظاهرة والباطنة، وذلك لا يكون إلا بقتال النفس حتى تنقاد طوعا، أو تغلب وتستسلم لأداء جزية الاستعانة بها على الطاعة، بشرط أن تنزل من الذل والهوان بموضع تنفذ فيه أحكام الإيمان طوعا أو كرها، عن يد لا يقبل منها عذر وهي صاغرة لا تحمد على ما بذلت ولا يعبأ بها، بل يرى المؤمن المنة في ذلك للمولى، لأنه هو الذي ذللها له، ولا يزال المؤمن ينظرها مع هذا نظر عداوة إذ يعلم أنها لو خرجت عن هذه الذلة ورجعت إلى وطن أخلاقها الذميمة لأهلكت الحرث والنسل (**وَحَاسِبْهَا**) وناقشها، فإن الأمور المفظعة أمامك، ولابد لك من مشاهدتها؛ إما بالنجاة وإما بالعطب (**كُلَّ لَحْظَةٍ**) لتريح الملائكة من التعب وتخفف عليك من الرهب (**وَلِيَخِفَّ حِسَابُكَ غَدًا**) يوم القيامة، فإن الغفلة عن محاسبتها تمنع من الوصول إلى مقام المراقبة.

وقال سيدي أحمد الرفاعي[1]: من لم يحاسب نفسه كل نفس ويتهمها بالسوء فلا يكتب في ديوان الرجال. **وقيل**: محاسبة النفس أن تضيق مجاري الشيطان، ومجاري النفس الأمارة بالسوء، وتحفظ الأنفاس، وتراعي الأوقات، وتضبط الحواس. فعدد عليها صباحا ومساء ما عملته ليلا ونهارا، ثم كل جمعة كذلك. ثم كل شهر كذلك. ثم كل سنة كذلك. ثم دم على ذلك مدة حياتك. فما وجدت من حسنة حمدت عليها، ومن سيئة

([1]) هو أحمد بن علي بن يحيى الرفاعي الحسيني، أبو العباس: الإمام الزاهد، مؤسس الطريقة الرفاعية.ولد في قرية حسن (من أعمال واسط – بالعراق) وتفقه وتأدب في واسط، وتصوف فانضم إليه خلق كثير من الفقراء كان لهم به اعتقاد كبير. وكان يسكن قرية أم عبيدة بالبطائح (بين واسط والبصرة) وتوفي بها. وقبره إلى الآن محط الرحال لسالكي طريقته. وقد صنف كثيرون كتبا خاصة به وبطريقته وأتباعه. توفي 578هـ. انظر الوفيات: (55/1).

استغفرت وتبت منها. وأقرب من ذلك كله إلى السلامة أن تحاسبها على كل فعل قبل الإقدام عليه، حتى لا تتلبس به إلا بعد معرفة حكم الله تعالى فيه، فما كان خيرا فعلته، وإلا أمسكت عنه. وينبغي للعبد أن يدقق الحساب مع نفسه، ويكون أهم عليه كثيرا من تدقيقه في أرباح الدنيا، مع أنها محتقرة بالإضافة إلى نعيم الآخرة. ثم إنها كيف ما كانت فمصيرها إلى الزوال. ولا خير في خير لا يدوم، بل شر لا يدوم خير من خير لا يدوم. ولذلك قيل:

أَشَدُّ الْغَمِّ عِنْدِي فِي سُرُورٍ　　　تَيَقَّن عَنْهُ صَاحِبُهُ انْتِقَالاَ

فينبغي أن يفرغ قلبه ساعة بعد الصبح فيقول للنفس: ما لي بضاعة إلا العمر، ومهما فني رأس المال، وقع اليأس عن التجارة. وبطل الربح، وهذا اليوم الجديد قد أمهلني الله تعالى فيه، وأنسأ في أجلي فيه، وأنعم علي به، ولو توفاني لكنت أتمنى أن يرجعني إلى الدنيا يوما واحدا حتى أعمل فيه صالحا، واحسبي أنك توفيت ثم رجعت، وإياك ثم إياك أن تضيع اليوم قال تعالى حكاية عنهم: ﴿قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحا﴾ الآية.

ووجد مكتوبا على قبر:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ كَانَ لِي أَمَلٌ　　　قَصَّرَ بِي عَنْ بُلُوغِهِ الأَجَلُ

فَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ رَجُلٌ　　　أَمْكَنَهُ فِي حَيَاتِهِ الْعَمَلُ

مَا أَنَا وَحْدِي نَقَلْتُ حَيْثُ تَرَى　　　كُلٌّ إِلَى مِثْلِهِ سَيَنْتَقِلُ

ثم يستأنف وصية أخرى في أعضائه السبعة، وكذا ينبغي أن يكون له في آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها، كما يفعل التاجر في آخر القراض مع الشركاء في آخر سنة أو شهر أو يوم، حرصا على الدنيا الفانية ليختبر رأس المال والربح؛ فإن وجد فضلا استوفاه وشكره، وإن وجد خسرانا طالبه بضمانه وكلفه تداركه في المستقبل. فكذلك رأس مال العبد تأديته الفرائض وربحه النوافل

والفضائل، وخسرانه المعاصي. وموسم هذه التجارة جملة النهار وعامله: نفسه الأمارة بالسوء فيحاسبها على الفرائض، فإن أداها على وجهها شكر الله عليها ورغبها في مثلها. وإن فوتها من أصلها طالبها بالقضاء، وإن أداها ناقصة كلفها بالجبر بالنوافل، وإن ارتكب معصية اشتغل بتعذيبها ومعاتبتها، ولا يمهلها لئلا تتأنس بفعل المعاصي، ويعسر عليه فطامها. **وإن أردت استقصاء محاسبة النفس فعليك بكتاب المراقبة والمحاسبة في الربع الثالث من الإحياء؛ فقد أطال فيها بنحو ثلاثين ورقة. وفي الحديث:** «الكيِّس من دان نفسه -أي حاسبها- وعمل لما بعد الموت»[1].

وذكر السهروردي عن بعض المحاسبين أنه كان يكتب الصلوات الخمس، ويضع بين كل صلاتين بياضا وكلما ارتكب من غيبة أو ظن سوء، أو نحوهما خط خطا، وكلما تكلم أو تحرك فيما لا يعنيه نقط نقطة، كل ذلك ليعتبر ذنوبه وحركاته وسكناته الواقعة بغير قصد فيستغفر منها[2].

وكان الربيع بن خثيم إذا أصبح وضع عنده قرطاسا وقلما، فكان لا يتكلم يومه بلغو إلا حاسب نفسه عليه عند غروب الشمس.

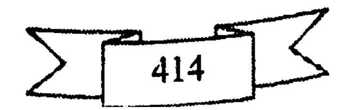
وقال ميمون بن مهران: لا يكون الرجل من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة الشريك شريكه.

اعلم أن ذوي البصائر حاسبوا أنفسهم بست مقامات: **الأول:** المشارطة قبل العمل في ساعة بعد طلوع الفجر لنفسه وأعضائه السبعة، فإذا تمرنت النفس لم تبق إلى المشارطة حاجة إلا فيما يطرأ من المعاصي. **الثاني:** المراقبة: وهي مراعاة الرقيب في أقواله وأفعاله ظاهرا وباطنا، ويثمره تأكد المعرفة باطلاعه تعالى على ما في الضمائر وانتقامه. **الثالث:**

---

[1]- الترمذي برقم: (2459).. وابن ماجه برقم: (4260) كلاهما عن شداد بن أوس.

([2]) انظر عوارف المعارف للسهروردي: (447/1).



المحاسبة بعد العمل في آخر النهار. **الرابع:** المعاقبة عند ظهور الخسران، **مثاله:** إن كانت المعصية بالنظر إلى حرام عاقب العين بمنعها من النظر، أو تدارك الأمر بالنظر في المصحف وغيره. **الخامس:** المجاهدة عند استثقال العمل بزيادة في العمل احتياطا للمستقبل. ويتعرف أحوال العُبَّاد، والاقتداء بهم، ويتعرف ثواب الطاعات. **السادس:** أن تلوم النفس اللوامة لتتدرج إلى النفس المطمئنة.

(وَلاَزِمْهَا بِـــ) كثرة **(ذِكْرِ الْمَوْتِ)** لأنه يردع المعاصي، ويلين القلب، القاسي ويوجب التجافي عن دار الغرور، ويتقاصى الاستعداد للآخرة، ويتنغص على العبد نعيم الدنيا، ويتكدر عليه صفوة لذتها، ولذا كان من أكثر ذكره يعد من الشهداء كما يأتي. **قال الحسن:** ما رأيت عاقلا قط إلا رأيته حذرا من الموت حزينا. **وفي الحديث:** «أكثروا من ذكر هادم اللذات[1]»: الموت. وفي هذا الحديث دليل على استحباب ذكر الموت، وعلى أكثريته؛ لأن ذكره أزجر عن المعصية وأدنى إلى الطاعة. **زاد النسائي:** «فإنه ما يذكر في قليل إلا كثره، ولا في كثير إلا قلله[2]»؛ أي كثير من الأمل وقليل من العمل. قيل: يا رسول الله، من أكيس الناس؟ **قال:** «أكثرهم ذكرا للموت، وأكثرهم استعدادا له، أولئك الأكياس، ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة[3]». **وفي الحديث:** «زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة[4]». **وفيه:** «لو تكاشفتم ما تدافنتم[5]». **وحفر الربيع بن خثيم** قبرا في بيته ووضع غلا في عنقه، فكان إذا وجد قسوة في قلبه اضجع فيه، ومكث ما شاء الله. ثم يقول: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّيَ أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾، ثم يخرج ويقول: يا ربيع؛ قد أعطيت ما سألت فاعمل قبل أن تسأل الرجوع فلا ترد. **وقال الثوري:**

---

(1) أخرجه الطبراني في الأوسط (256/8 ، رقم 8560)

(2) أخرجه النسائي (4/4 ، رقم 1824)

(3) أخرجه الطبراني في الأوسط (61/5 ، رقم 4671) ، وفي الصغير (189/2 ، رقم 1008)

(4) أخرجه أحمد (441/2 ، رقم 9686) ، ومسلم (671/2 ، رقم 976) ، وأبو داود (218/3 ، رقم 3234)

(5) أخرجه في كتاب جامع غريب الحديث285/2.

الطاعات تتفرع من ذكر الموت، والمعاصي تتفرع من نسيانه. **وقال حاتم الأصم:** من خرجت من داره جنازة و لم يعتبر بها لم ينفعه علم ولا حكمة ولا موعظة.

قال الشعراني: من أخلاق السلف: كثرة الحزن على تفريطهم ولاسيما عند رؤيتهم المقابر. **وكان جعفر بن محمد** يأتي المقابر ويناديهم فلا يجيبوا فيقول: كأنك يا جعفر وقد صرت مثلهم لا تجيب داعيا، ثم يَصِفُّ قدميه للصلاة إلى الفجر. **وكان يزيد الرقاشي** إذا وقع بصره على قبر يصرخ كما يصرخ الثور. **ولما حضر بشر بن منصور**[1] **الوفاة فرح فقيل له:** أتفرح بالموت؟ فقال: أتجعلون قدومي على خالق أرجوه كمقامي مع مخلوق أخافه(2).

ولعلي ﷺ بعد موت النبي ﷺ:

غَرَّ جَهُولاَ أَمَلُهْ   يَمُوتُ مَنْ جَا أَجَلُهْ
ومَنْ دَنَا مِنْ حَتْفِهِ   لَمْ تُغْنِ عَنْهُ حِيَلُهْ
وَمَا بَقَاءُ آخرٍ   قَدْ غَابَ عَنْهُ أَوَّلُهْ
فَالْمَرْءُ لاَ يَصْحَبُهُ   فِي الْقَبْرِ إِلاَّ عَمَلُه[3]

وروي: أن الموت إذا نزل على أحد قام بين يديه على صورته، ثم تقول النفس: من أنت، وماذا تريد؟ فيقول: أنا الموت الذي أخرجك من الدنيا، وجعل أولادك أيتاما، وزوجتك أرملة، ومالك موروثا بين وارثيك الذين لا تحبهم في حياتك، فإنك لو لم تقدم إلا خيرا لنفسك لكان ما وجدت خيرا لك. فإذا سمعت نفس الميت هذا؛ حول الميت وجهه إلى الحائط، فيرى الموت قائما بين يديه، فحول وجهه إلى جانب آخر، فيرى الموت قائما بين يديه فيقول له ألم تعرفني؟ فيقول له أنا الموت الذي قبضت أرواح

[1] بشر بن منصور السليمي الأزدي البصري الزاهد روى عن أيوب وطبقته. انظر العبر في أخبار من غبر: (275/1).

(2) انظر تنبيه المغترين: (108).

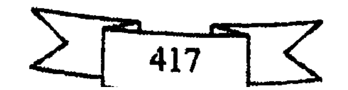
3 انظر ديوان علي بن أبي طالب.

أولادك ووالديك. لم ينفعك اليوم أحد من أقاربك، وأنا الموت الذي أفنيت القرون الماضية قرنا بعد قرن أكثر منك مالا وولدا وقوة، ثم تكلمه الدنيا، فتقول: يا عاصي أما تستحي!؟ أنت أذنبت ولم تمتنع من المعاصي. ظننت أنك لم تخرج من الدنيا، هيهات، فإني بريء منك ومن عملك، وترى مالك قد وضع في يد غيرك، فيقول المال: يا عاصي، كسبتني بغير حق، ولا تصدقت بي على الفقراء والمساكين، أنا اليوم قد وقعت في يد غيرك فذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ إِلاَّ مَنَ أتى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ فيقول الميت: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّيَ أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ﴾ فيقول الله: كلا ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾ ثم يأخذ روحه.

وفي الخبر: «إن ملك الموت إذا أراد أن يقبض روح العبد تقول الروح: لا أطيعك ما لم يأمرني ربي بذلك، فيقول له ملك الموت: أمرني ربي بذلك، ويطلب منه الروح العلامة والبرهان فيقول: إن ربي خلقني وأدخلني في جسَدي فهل تريد أن تأخذني؟ فيرجع ملك الموت إلى الله تعالى، فيقول: إلهي عبدك يقول: كذا وكذا ويطلب مني العلامة، فيقول الله تعالى: صدق روح عبدي، يا ملك الموت اذهب إلى الجنة وخذ تفاحة عليها علامتي وأرِها روح عبدي، فيذهب ملك الموت فيأخذها وعليها مكتوب: بسم الله الرحمن الرحيم. ويجيء فإذا رءاه العبد خرج روحه مع النشاط[1]»

وفي الخبر: «إذا وقع العبد في النزع ينادي مناد؛ دعه حتى يستريح، فإذا بلغ الروح إلى الصدر قال تعالى: دَعْهُ حتى يستريح، وكذلك إذا بلغ الروح إلى الركبتين والسرة، فإذا بلغ الحلقوم جاء النداءُ: دعه حتى تودع الأعضاء بعضُها بعضًا، فتودع العين العين، فتقول السلام عليكم إلى يوم القيامة، وكذلك الأذنان والرجلان. فتودع الروح النفس[2]» فنعوذ بالله من وداع الإيمان فتبقى الأعضاء بلا حركة والعينان بلا نظر. والأذنان بلا سمع والبدن بلا روح. فإذا بقي القلب بلا إيمان فقد خسر العبد خسرانا

(1) هذا الحديث لم أجده إلا في شرح صحيح البخاري لشمس الدين السفيري.
(2) لم أجد تخريج هذا الحديث.



مبينا. والعياذ بالله. وذلك لأن الموت حال عطش واحتراق كبد فيجيء الشيطان عند رأسه ومعه قدح ماء فيحرك له الماء، فيقول له المؤمن: إعطني، فيقول الشيطان: كَذِّبْ الرسل حتى أعطيك من الماء؛ فمن أدركته السعادة رد كلامه. **فإذا كان الخطر شديدا فعليك بالبكاء والتضرع وإحياء الليل، وكثرة الركوع والسجود حتى تنجو إن شاء الله.**

ويقال: إن القبر ينادي كل يوم خمس مرات: أنا بيت الوحشة فاجعل لي مؤنسا. أنا بيت منكر ونكير فأكثر علي موقنا في القرآن "لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ". وأنا بيت الظلمة فنوِّرْني بصلاة الليل. وأنا بيت الوحدة فاعمل لي عملا صالحا. وأنا بيت الأفاعي فاعمل لي الترياق، وهو: "بسم الله الرحمن الرحيم". وإهراق الدموع[1].

وروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص[2] أنه قال أبوه: ليتني ألقى رجلا عند الموت عاقلا يخبرني بما يجد عند نزوله. **قال:** فلما نزل الموت قلت: يا أبت إنك كنت رجلا عاقلا فصف لي الموت وما تجد من ألمه. قال: والله يا بني: كأن جنبيّ طحنت طحنا، وكأن غصن شوك سُلَّ من قدمي إلى هامتي، وكأني أتنفس من سم الخياط، ثم مَدَّ يده وقال: اللهم لا قوة لي فأنتصر بسواك ولا براءة لي فأعتذر، ولا ملجأ فأهرب. اللهم إني مذنب مقر ومستغفر.

وفي الحديث: «أكثروا من ذكر هاذم اللذات ومفرق الجماعات وتوَسَّدوه إذا نمتم، واجعلوه نصب أعينكم إذا قمتم، واعمروا به مجالسكم..**الحديث**[3]».

([1]) أخرجه الترمذي 2460 عن أبي سعيد.

([2]) هو عبد الله بن عمرو بن العاص صحابي، من النساك. من أهل مكة. كان يكتب في الجاهلية، ويحسن السريانية. وأسلم قبل أبيه. فاستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في أن يكتب ما يسمع منه، فأذن له. وكان كثير العبادة حتى قال له النبي صلى الله عليه وسلم: إن لجسدك عليك حقا، وإن لزوجك عليك حقا، وإن لعينيك عليك حقا - الحديث. وكان يشهد الحروب والغزوات. ويضرب بسيفين. وحمل راية أبيه يوم اليرموك. وشهد صفين مع معاوية. وولاه معاوية الكوفة مدة قصيرة. ولما ولي مزيد امتنع عبد الله من بيعته، وانزوي - في إحدى الروايات - بجهة عسقلان، منقطعا للعبادة. وعمي في آخر حياته. واختلفوا في مكان وفاته. له 700 حديث. انظر الإصابة الترجمة رقم: (4838).

([3]) أخرجه الترمذي رقم: (2307) عن أبي هريرة. وابن ماجه رقم: (4258). وأورده في الجامع الصغير بعدة روايات.

وفيه: «من أكثر الفكرة في الموت هوَّن الله عليه مرارتها وسكراتها، وجعل منه على حذر، ومن غفل عن الموت يوشك أن يأتيه فجأة[1]».

وفيه: «ما أكثر منا رجل ذكر الموت إلا ترك الفرح والسرور، ونزع من قلبه الحسرة والرغبة، فلو كان عندنا يقين أنه لا يموت إلا واحد اتهمنا أن نكون كلنا ذلك الواحد، وكان الواجب أن لا ترقى لنا دمعة خوفا من الموت فكيف ونحن على يقين أنه لا يبقى منا أحد[2]».

وذكر في بعض الأخبار: أن داوود عليه السلام كان في محرابه فإذا بدودة فأنطقها الله تعالى وقالت: يا داوود؛ إني أعبد الله وأسأله أن يهون عليَّ سكرات الموت.

وروي: أن موسى عليه السلام لما صارت روحه إلى الله سبحانه، قال الله: يا موسى كيف وجدت الموت؟ قال: وجدت نفسي كالعصفور حين يُلقى على الْمِقْلَى لا يموت فيستريح، ولا يحيا فيطير. **وفي رواية أخرى:** وجدت نفسي كشاة حية تسلخ من جلدها. **وفي رواية أخرى عن أبي إسحاق:** كسفُّود أدخل في جِرَّة صوف فامتلخ.

وفي الحديث: «لو تعلم البهائم والطيور من الموت ما تعلمون ما أكلتم منها سمينا[3]».

وعن وهب بن منبه أنه قال: أقام نوح عليه السلام خمسمائة سنة لا يقرب النساء وَجَلاً من الموت وهول المطلع.

وروي: أن عيسى عليه السلام قال للحواريين: ادعوا الله لي أن يخفف علي سكرات الموت فلقد خفت الموت حتى أوقعتني مخافتي من الموت على الموت.

وروي أنه ﷺ لما احتضر جعل يقول: «لا إله إلا الله إن للموت سكرات[4]».

وروي: أنه كان عنده قدح من ماء يدخل يديه فيه وكان يمسح بالماء وجهه وهو يقول: «إن للموت سكرات».

---

(1) لم أجد تخريجه.

(2) لم أجده أيضا.

(3) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، انظر الجامع الصغير: (39/3).

(4) أخرجه البخارى (1616/4 ، رقم 4184) ، وأخرجه أيضًا : الطبرانى (31/23 ، رقم 78) .



وفي الحديث: «لو أن قطرة من الموت وقعت على جبال الدنيا لذابت[1]».

وفيه: «لو أن أَلَمَ شعرة من شعرات الموت وضعت على أهل السموات والأرض لماتوا أجمعين؛ لأن في كل شعرة ألم الموت، ولا يقع الموت ولا يحل في شيء إلا مات[2]».

وفي حديث عائشة رضي الله عنها وأنس: قيل: يا رسول الله هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرهم؟ قال: «نعم من ذكر الموت كل يوم عشرين مرة[3]». **وفي لفظ الحديث الآخر:** «يذكر ذنوبه فتحزنه».

قال الغزالي: وإنما سبب هذه الفضيلة كلها أن ذِكْرَ الموت يوجب التجافي عن دار الغرور. ويتقاضى الاستعداد للآخرة، والغفلةُ عن ذكره تدعو إلى الانهماك في شهوات الدنيا[4]. فبذكره يتجافى العبد عن الدنيا ويتنغص عليه نعيمُه، ويتكدر عليه صفوه ولذته، وكل ما يكدر على الإنسان اللذات؛ فهو من أسباب النجاة.

قيل: أوحى الله إلى موسى عليه السلام: يا موسى أتحب أن تموت آمنا، وتبعث آمنا، وتدخل الجنة آمنا؟ قال نعم، قال: قل كل يوم عشر مرات: اللهم بارك لي في الموت وفيما بعد الموت. **وذكر عنده ﷺ رجل فأحسنوا الثناء عليه، فقال:** «كيف كان ذكر صاحبكم للموت؟» قيل له: ما كنا نسمعه يذكره. فقال: «إن صاحبكم ليس هناك[5]». **وفي الخبر** أن فتى من الأنصار قال: يا رسول الله؛ أي المؤمنين أفضل؟ قال: «أحسنهم خلقا. قال: فأي المؤمنين أكيس؟ فقال: أكثرهم ذكرا للموت، وأكثر استعدادا له، قبل أن يترل به، أولئك الأكياس[6]».

---

(1) أخرجه في كتر العمال: (39791).

(2) أخرجه المناوي في فيض القدير: (7378).

(3) أخرجه الشوكاني في الفوائد المجموعة رقم: (175).

(4) انظر إحياء علوم الدين للغزالي: (450/4).

(5) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب: (5054) عن سهل بن سعد الساعدي.

(6) تقدم تخريجه.

قال القرافي: اعلم أن ذكر الموت يهوّن على العبد بعض ما هو فيه من الضيق والمحنة؛ لأنه لا يدوم، والموت أشد منه، ويمنع من الاغترار بالنعمة والسعة.

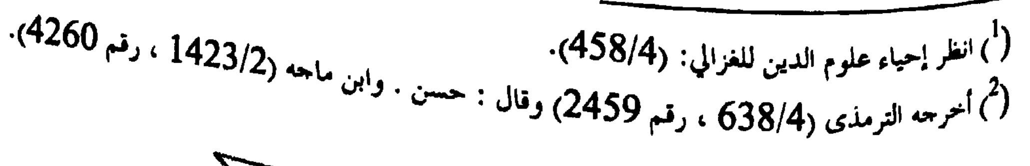
قال الغزالي: علامة التوفيق ذكر الموت كل ساعة والاستعداد لما عسى أن يرد منه في الوقت، فإن عاش يومه إلى المساء شكر الله على طاعته ففرح بأنه لم يضيع نهاره، بل استوفى منه حقه، وادخره لنفسه، ثم يستأنف مثله إلى الصباح. وهكذا إذا أصبح ولا يتيسر هذا إلا لمن فرغ القلب عن الغد وما يكون فيه. فمثل هذا إذا مات سعد، وإن عاش سُرَّ بحسن الاستعداد، ولذة المناجاة، فالموت له سعادة، والحياة له مزيد خير[1].

وقال اللفاف: من أكثر ذكر الموت أكرم بثلاثة أشياء: تعجيل التوبة، وقناعة القلب ونشاط العبادة. ومن نسي الموت عوقب بثلاثة أشياء: تسويف التوبة، وترك الرضى بالكفاف، والتكاسل في العبادة.

وفي الحديث: «الكيس من دان نفسه أي حاسبها[2]» **وقال أبو عبيد:** أي أذلها واستعبدها وعمل لما بعد الموت.

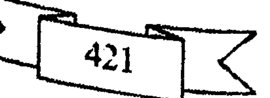
وقال الثعالبي: وأنفع طريق في ذكر الموت؛ أن يذكر الإنسان أشكاله، وأقرانه الذين مضوا قبله فيتذكر كونهم في التراب، وكيف محا التراب الآن محاسنهم، وأرمل نساءهم وأيتم أولادهم، وقسمت أموالهم وعرضت عليهم أعمالهم، وندموا ولم ينفعهم الندم، وسمعوا النداء إما بالجنة وإما بالنار، فعند ذلك ينظر الموفق نَظَرَ شفقة لنفسه، ويعلم أنه مثلهم، وأن غفلته كغفلتهم، وستكون عاقبته كعاقبتهم، ومهما طاب قلبه بشيء من الدنيا ينبغي أن يتذكر في الحال أنه لابد من مفارقته.

وكتب زيد بن حبيش إلى عبد الملك يعظه: لا يطمعك يا أمير المؤمنين في طول حياتك ما يظهر من صحتك وأنت أعلم بنفسك. وانظر ما قال الأول: إذا الرجال ولدت



(1) انظر إحياء علوم الدين للغزالي: (4/458).

(2) أخرجه الترمذى (4/638 ، رقم 2459) وقال : حسن . وابن ماجه (2/1423 ، رقم 4260).



أولادها، وبليت من كبر أجسادها، وجعلت أسقامها تعتادها، تلـــك زروع قـــد دنـــا حصادها.

قال هرم بن حيان[1] **لأويس القرني:** أوصني، قال: توسد الموت إذا نمت، واجعله نصب عينيك إذا قمت، وادع الله أن يصلح لك قلبك. وأوصاه مرة فقال له: عليـــك بـــذكر الموت فلا يفارقن قلبك ما بقيت.

قال الحسن: ما رأيت عاقلا قط إلا وجدته حذرا من الموت حزينا من أجله. وعلـــى العبد بتقصير الأمل، فإن من طال أمله ساء عمله، ومن خاف الوعيد، قرب عليه البعيد.

ويروى عن الحسن أنه قال: قال النبي ﷺ: «كلكم يحب أن يدخل الجنة؟ قالوا نعم يـــا رسول الله. فقال: قَصِّرُوا آمالكم وثبتوا آجالكم بين أبصاركم واستحيوا من الله حـــق الحياء»[2] . (وَ) لازمها أيضا بكثرة ذكر شدة الموت (**هَوْلِهِ**) **فقد ورد في شدته آثار كثيرة:**

منها: ما أخرجه ابن أبي الدنيا بسند رجاله ثقاة عن الحسن أنه ﷺ ذكر الموت فقال: «هو قدر ثلاثمائة ضربة بالسيف[3]».

وفي الحديث أيضا: «أدنى جبذات الموت بمترلة مائة ضربة بالسيف وإن ألم شعرة مـــن الموت لو وُضِع على جميع الخلائق لماتوا، وإن بين الموت وبين دخول الجنة مائة ألف هول كل هول منها يزيد على ألم الموت بمائة ألف ضعف[4]».

([1]) هو هرم بن حيان العبدي الازدي، من بني عبد القيس: قائد فاتح، من كبار النساك. من التابعين. كان أمير بني عبد القيس في الفتوح. وولي بعض الحروب في أيام عمر وعثمان، بأرض فارس. وحاصر " بوشهر سنة 18 ودخلها. وكان من سكان البصرة. عده ابن أبي حاتم في الزهاد الثمانية، من كبار التابعين. وسماه الجاحظ في النساك الزهاد من أهل البيان. من كلامه: " إياكم والعالم الفاسق ! " سأله عمر عما أراد به، فكتب إليه: ما أردت إلا الخير، يكون إمام يتكلم بالعلم ويعمل بالفسق فيشبه على الناس فيضلون. انظر الاصابة الترجمة رقم: (8948).

([2]) حديث ابن مسعود : أخرجه أحمد (387/1 ، رقم 3671) ، والترمذى (637/4 ، رقم 2458) وقال : غريب.

([3]) قال المناوى (233/1) : أخرجه ابن أبى الدنيا أبو بكر فى كتاب ذكر الموت عن الضحاك بن حُمرة الأُملُوكى الواسطى ، مرسلاً أرسل عن قتادة وجماعة قال سئل النبى - صلى الله عليه وسلم - عن الموت ... فذكره

([4]) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذكر الموت عن الضحاك بن حمزة مرسلا. انظر الجامع الصغير: (59/1).

وقال العلاء بن المسيب: ليس شيء قبل الموت إلا والموت أشد منه. وليس شيء بعد الموت إلا والموت أيسر منه.

وقال كعب: مثل الموت كشجرة كثيرة الشوك، أدخلت في جوف ابن آدم فأخذت كل شوكة بعرق، ثم اجتذبها رجل شديد الجذب فقطع ما قطع، وأبقى ما أبقى.

وقال الحسن ابن عمران[1]: الموت أشد من نشر المناشير، ومن طبخ القدور، ولو أن ألم شعرة واحدة من الموت وضع على أهل الدنيا لوجدوا من ذلك ألما يشغلهم عن الأكل والشرب[2].

وقال كعب الاحبار[3]: لما أحيى عيسى عليه السلام سام ابن نوح قال له عيسى: منذ كم وأنت ميت؟ قال: منذ أربعة آلاف سنة. قال: كيف وجدت الموت؟ قال: إلى الآن لم تذهب حرارته وسكراته[4].

وعند الموت يحدث في كل عضو بل في كل عرق أَلَمٌ، وينتشر ذلك في الظاهر والباطن، ولهذا يَرْبَدُّ لونه حتى كأنه يظهر منه التراب الذي هو أصل فطرته، وإنما لا يصيح لضعف قواه، حتى أن من كان له أدنى قوة سمع له غرغرة، وخوار من حلقه وصدره، ثم يموت أعضاؤه على التدريج فيطول ألمه.

ومن أهوال الموت: مشاهدة ملك الموت وهي مزعجة لأهل الشقاوة فقط، ومشاهدة العصاة مواضعهم في النار، وخوف الكل قبل المشاهدة إلى أن يسمعوا نغمة الملك **بإحدى البشارتين:**

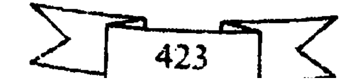
---

(1) هو الحسن بن عمران بن شاهين ثاني أمراء بني شاهين أصحاب البطيحة (بين واسطة والبصرة) وليها استقلالا بعد موت أبيه (369) وجيوش بغداد تهاجمها ولا تغوت فاستمر فيها ثلاث سنوات ثم آل أمره إلى أن قتل 372هـ. انظر تاريخ ابن خلدون: (507/4).

(2) انظر تنبيه المغترين للشعراني: (68).

(3) تقدمت ترجمته.

(4) انظر تنبيه المغترين للشعراني: (69).



إما: أبشر يا عدو الله بالنار. وإما أبشر يا ولي الله بالجنة، وقد مضى ذكر بعض أهواله.

وقال علي الخواص: يسهل الموت على العبد بقدر ما ذاق من الغَصَصِ في مرضاة الله تعالى.

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: إذا شدد الله على المؤمن الموت لا يعذبه في قبره، وإذا عذبه في قبره لا يعذبه في الآخرة.

وقال عمر بن عبد العزيز: إني أكره تخفيف الموت، وأحب التشديد لأنه آخر عمل يثاب عليه المؤمن. **وأما ما قال كعب الأحبار**: إن البشير لما أتى يعقوب ﷺ قال له يعقوب ﷺ: ما عندي شيء أكافيك به، ولكن هوَّن الله عليك سكرات الموت فهذا في حق من يخاف عليه إذا شدد عليه. **قاله الشعراني**.

وأما ما ورد من أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يشدد عليهم المرض؛ فإن الأكابر قد يشدد عليهم تعظيما لأجورهم، وبعضهم يشدد عليه الموت لأجل تلامذته فيريد عدم الخروج من الدنيا ليرشدهم إلى كمال مقام المعرفة مع محبته للقاء الله أيضا، فلما تجاذب عليه الأمران حصل التشديد، ولولا شفقته على تلامذته لكان أسرع الناس خروجا لروحه طلبا للقاء الله عز وجل.

وفي الحديث عن أبي هريرة: «يقول الله تعالى: لا يخرج عبد من عبادي من الدنيا وأنا أريد أن أغفر له إلا أقتصُّ منه بكل سيئة عملها بسقم أو مرض، أو حدٍّ، أو ضيق في معيشته، أو بما يصيبه من غمٍّ. وإن بقي عليه شيء من سيئاته شدد عليه عند الموت حتى يلقاني ولا سيئة عليه من سيئاته. وعزتي وجلالي لا أُخْرِجُ عبدا من عبادي من الدنيا وأنا أريد أن لا أغفر له إلا فتنته بكل حسنة عملها بصحة في جسده، أو فرح يصيبه، أو سعة في رزقه. فإن بقي من حسناته شيء هونت عليه عند الموت حتى يلقاني ولا حسنة له[1]».

([1]) لم أجد تخريجه.

وفي الخبر:«إن أشد الحال على الميت حين يدخل الغاسل داره عليه ليغسله فيخرج خاتم الشباب من أصبعه، وينزع قميص العروس من يده، ويرفع عمامة المشائخ عن رأسه، فينادي روحه: يا غاسل بالله لا تجعل ماءك حارا ولا باردا فإن جسدي مجروح بخروج الروح، وانزع ثيابي برفق فالآن فرغت من حرب ملك الموت. وإذا كفنه قال: بالله يا غاسل؛ لا تشدد الكفن على راسي حتى يرى وجهي أهلي ومالي، وأولادي، فإن هذا آخر رؤية فلا أراهم إلى يوم القيامة. فإذا خرج من داره نادى أيضا: يا جماعتي: تركت امرأتي أرملة، وأولادي أيتاما لا تؤذوهم. وإذا حملوه قال: بالله يا جماعتي؛ لا تعجلوني حتى أسمع أصوات أولادي وقربائي، فإني أفارقهم إلى يوم القيامة ولا تغرنكم الدنيا كما غرتني، ولا يلعبن بكم الزمان كما لعب بي. وإذا وضعوه في اللحد قال: لا تنسوني من خيركم ودعائكم، فإنا اليوم أحتاج إليكم وأنا علمتكم القرآن والأدب[1]».

وفي الخبر: «إذا وقع العبد في النزع وحُبِسَ لسانه يدخل عليه أربعة ملائكة، **فيقول الأول:** أنا موكل برزقك، طفت الأرض شرقا وغربا فما وجدت لك لقمة في الأرض. **ويقول الثاني:** أنا موكل بشرابك من الماء طفت الأرض شرقا وغربا فما وجدت لك شربة من الماء. **ويقول الثالث:** أنا موكل بالأنفاس طفت الأرض شرقا وغربا فما وجدت لك نفسا واحدا. **ويقول الرابع:** أنا موكل بأجلك طفت الأرض شرقا وغربا فما وجدت لك ساعة. وإذا مضت للميت ثلاث ليال: رجعت روحه تنظر إلى الجسد فتنظر من بعيد، وقد سال الدم من منخريه، ومن فيه فيبكي طويلا، ثم يقول: يا جسد المسكين، أما تذكر أيام حياتك، وهذا المنزل منزل الوحشة والبلاء والغم والكربة والندم. وإذا مضت سبعة أيام رجع وينظر إلى الجسد من بعيد، وقد وضع فيه الدود وسال فيه الدم والكديد. ثم ينادي أيضا».

وفي الخبر: «إذا مات المؤمن طار روحه حول داره شهرا فينظر من خلفه من عياله وكيف يقسم ماله وتؤدى ديونه، فإذا تم شهر رُدَّ إلى قبره فيدور حول قبره سنة ينظر من

(1) لم اجده.

يدعو له، وإذا كان يوم العيد أو يوم عاشوراء، أو أول جمعة من رجب، أو ليلة النصف من شعبان ويوم الجمعة؛ يخرج الموتى من قبورهم ويقفون على أبواب بيوتهم فيقولـــون: ارحمونا اليوم المبارك بصدقة او بلقمة وإلا فاذكرونا بركعتين في هذه الليلة المباركة، فمن وجد منهم شيئا من الصدقة والدعاء رجع مسرورا، وإلا رجع محزونا».

وروي: أن الميت يعذب في قبره حتى تدخل أول ليلة من رجب فيقـــول الله تعـــالى: «أشهدكم يا ملائكتي أني غفرت له بحب هذه الليلة المباركة وبركتها».

(وَ) اهتم نفسك واحذر منها و(**كُنْ فِي الْحَذَرِ مِنْهَا كَمَنْ احْتَوَشَتْهُ**) **الجوهري:** احتوش القوم الصيد إذا نَفَّرَهُ بعضهم على بعض، وإنما ظهرت فيه الواو كما ظهرت في اجتوروا وأوحشت الصيد إذا جئته من حواليه لتصرفه إلى الحبالة. (**السِّبَاعُ**) والهوام فهو خائف أن يغفل (**إِنْ غَفَلَ**) عن نفسه (**سَاعَةً افْتَرَسَتْهُ**) السباع ونهشته الهوام (**فَهُوَ مَذْعُورٌ أَبَدًا**) وجل فهو في المخافة في ليله، وإن أمن المغترون، وفي الحزن نهاره وإن فرح البطـــالون.

هذه وصية وصى بها راهبٌ عيسى بن مالك الخولاني كما ذكره الغزالي في كتـــاب الأوراد؛ ثم قال له عيسى: لو زدتني شيئا عسى أن ينفعني، **فقال:** الظمآن يجزيه من الماء يسيره أي القلب الصافي يحركه أدنى مخافة.

قال الغزالي: وما ذكره من تقديره أنه احتوشته السباع والهوام؛ فلا ينبغي أن يظن أنـــه تقدير بل هو تحقيق. فإنك لو شاهدت بنور البصيرة باطنك لرأيته مشـــحونا بـــأنواع السباع، وأصناف الهوام، مثل الغضب والشهوة والحقد والحسد، والرياء والكبر والعجب وغيرها. وهي التي لا تزال تنهشك وتفترسك إن سهوت عنها لحظة إلا أنك محجـــوب القلب عن مشاهدتها. فإذا انكشف الغطاء ووضعت في قبرك عاينتها وقد تمثلـــت لـــك بصورها، وأشكالها الموافقة لمعانيها، فترى بعينك الحيات والعقارب قد أحدقت بـــك في قبرك، وإنما هي صفاتك الحاضرة الآن قد انكشفت لك صورها. فإن أردت أن تقتلها أو

ﻬرها وأنت قادر عليها قبل الموت فافعل وإلا فَوَطِّنْ نفسك على لدغها وﻧﻬشها لصميم
بك فضلا عن ظاهر بشرتك وجسمك[1].

ثم قال: (**وَعَدَاوتُهُمَا**) أي النفس والشيطان (**لَكَ نِعْمَةٌ لِتَضْطَرَّ إِلَيْهِ**) أي إلى الله (**فِي
فْعِهِمَا**) وتستعين به عليهما، فيوجد منك حينئذ الالتجاء والاضطرار إليه، والانتصار به،
التوكل عليه فعداوﺗﻬما ردك ﺑﻬا عليه وجمعك ﺑﻬا عليه. وهذا هو غاية المقصود لمن وفقه
لله تعالى.

ولما أنهى الكلام على اثنين من العوائق الأربعة التي جمعها الشاعر في قوله:

إِنِّي بُلِيتُ بِأَرْبَعٍ يَرْمِينَنِي ... بِالنَّبْلِ عَنْ قَوْسٍ لَهُ تَوْتِيرُ
إِبْلِيسُ وَالدُّنْيَا وَنَفْسِي وَالْهَوَى ... يَا رَبِّ أَنْتَ عَلَى الْخَلَاصِ جَدِيرُ[2]

(3) الدنـــيــا

أشار إلى الثالث الذي هو من أعظمها وهو الدنيا فقال: (فَصْلٌ وَمِنْهُ) أي من الخلـــق الذي هو حجب الوصول (**الدُّنْيَا**) وهي تأنيث الأدنى.

قال التيمي في شرح البخاري: ليس بمنصرف لاجتماع الوصفية ولزوم حرف التأنيث. وأدنى أفعل التفضيل وأفعل التفضيل إذا نكر لزمه الافراد والتنكير وامتنع تأنيثه وتثنيتـــه وجمعه.

قال ابن مالك: ففي استعمال دنيا بتأنيث مع كونه منكرا إشكال فكان من حقهـــا أن تستعمل باللام كالكبرى والحسنى. **قال:** إلا أنها خُلعت عنها الوصفية غالبـــا وأجـــرى مجرى ما لم يكن وصفا قط، مما وزنه فُعْلى: كرغبى ورهـــبى. **ومن وروده منكرا مؤنثا قول الفرزدق:**

لاَ تَعْجَـــبَنَّكَ دُنْــــيَا أَنْتَ تَارِكهـَــا   كَمْ نَالها مـــنْ أُنَـــاسٍ ثُـــمَّ قَـــدْ ذَهَبُـــوا

ومما عومل معاملة دنيا في الجمع بين التنكير والتأنيث والأصـــل أن لا يكونـــا، **قـــول الشاعر:**

وَإِن دَعَـــوتِ إِلى جُلّـــى وَمَكرُمَـــةٍ   يَومـــاً ســـراةَ كِـــرامِ النـــاسِ فَادعينـــا[1]

فإن الجلى في الأصل مُؤَنَّثُ الأَجَلّ، ثم خلعت عنه الوصفية وجعل اسما للحادثة العظيمة فجرى مجرى الأسماء التي لا وصفية لها في الأصل.

قال الكرماني[2]: والدليل على جعل الدنيا أسمًا: قلب الواو ياء؛ لأنه لا يجوز القلب إلا في فُعلى الإسمية.

([1]) البيت من قصيدة لنهشل بن حري مطلعها:

إِنّا مُحَيّوكِ يا سَلمى فَحَيّينا   وَإِن سَقَيتِ كِرامَ الناسِ فَاِسقينا

انظرديوانه : (حرف النون).

([2]) هو محمود بن حمزة بن نصر، أبو القاسم برهان الدين الكرماني، ويعرف بتاج القراء: عالم بالقرآت. نقل في (التفسير) آراء مستنكرة، في معرض التحذير منها، كان الاولى إهمالها. أثنى عليه الجزري وذكر بعض كتبه، ومنها (لباب التفاسير – خ) في شستربتي

وقال بعضهم: المشهور في "دنيا" القصر بلا تنوين. وحكى تنوينها والدنيا بضم الدال. **وحكى ابن قتيبة**[1] كسرها فِعْلى من الدنو أي القرب لسبقها الآخرة. **وقيل:** لـــدنوها من الزوال: وهي ما على الأرض من الهواء والجو. وقيل: كل المخلوقات من الجـــواهر والأعراض. وتطلق على كل جزء من ذلك مجازا. والدنيا أيضا: اسم لهذه الحياة.

تتمة: المراد بالدنيا هنا: المال وتوابعه التي هي من جملتها كالجاهِ والكبر والخيلاء. **قـــال الثوري:** سمِّي المال مالا لأنه يميل القلوب. **النووي:** وهذه مناسبة في المعنى وإلا فلـــيس مشتقا من ذلك، لأن عين المال وَاوِيٌّ لا من الميل بالياء. ومن شرط الاشتقاق الاتفاق في الحروف الأصلية.

الزهد في الدنيـــا

ولما كان المذموم من الدنيا الركون إليها بالقلب. فالشأن فيه لا في الجوارح؛ أشـــار إلى ذلك بقوله: (فَانْفُضْ يَدَ الْقَلْبِ مِنْهَا) إذ كم تارك لها بظاهره؛ محب مريد لها بباطنه، وأمر القلب هو المهم. والدنيا أمرها يسير وقدرها حقير، كأنها سحائب صيف، أو زائر طيف، أشبه شيء بالسراب، طالبها لم يزل في عذاب وليس القصد منها إلا ما أعانك لا ما أتعبك وأهانك.

وقال بعضهم: تركت الدنيا لسرعة فنائها، وقلة غنائها، وخسة شـــركائها. دار شـــأنها الذل والهوان، فكيف تصفو لك يا إنسان، مسرتها مقرونة بالغم، وحلاوتهـــا معجونـــة بالسم.

(4147) وهو المعروف بكتاب (العجائب والغرائب) في مجلدين، ضمنه أقوالا في معاني بعض الآيات. توفي 505هـــ.انظر غاية النهاية: 291/2).

(1) هو أحمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، أبو جعفر: قاض، من أهل بغداد، له اشتغال بالأدب والكتابة. كان يحفظ كتب أبيه وهي 21 كتابا في غريب القرآن والحديث والأدب والاخبار. ولي القضاء بمصر سنة 321 هـــ فحماءها، وعرف فضله فيها فأقبل عليه طلاب العلوم والآداب. ويرجح (الكندي) أنه عزل بعد ثلاثة أشهر من ولايته. ويقول أكثر مؤرخيه إنه مات وهو على القضاء وكانت وفاته بمصر. انظر إنباه الرواه: (45/1).

أَتَطْلُبُ أَنْ تَعِيشَ بِغَيْرِ هَمٍّ وَدَارُ الْهَمِّ أَنْتَ بِهَا مُقِيمُ

طُبِعَتْ عَلَى كَدَرٍ وَأَنْتَ تُرِيدُهَا صَفْوًا مِنَ الأَقْذَارِ وَالأَكْدَارِ
وَمُكَلِّفُ الأَيَّامِ ضِدَّ طِبَاعِهَا مُتَطَلِّبٌ فِي الْمَاءِ جِذْوَةَ نَارِ

والقلب: جزء من البدن جعله الله تعالى محل الكلام والعلم وغير ذلك من الصفاة. وجعله مبدأ الحركات البدنية، والإرادات النفسانية. ووكل به ملكا يأمره بالخير، وشيطانا يأمره بالشر، والعقل بنوره يهديه والهوى بظلمته يغويه، والقضاء والقدر مسلطان على الكل، والقلب يتقلب بين الخواطر الحسنة والسيئة، والمحفوظ من حفظه الله تعالى. (**زُهْدًا فِيهَا**) ورغبة عنها وإنما لزمك الزهد لأمرين: **أحدهما**: لزمك (**لِيَزْكُوَ عَمَلُكَ**) أي تكثر قيمته ويعظم قدره. **ففي الحديث**: «ركعتان من رجل زاهد قلبه خير وأحب إلى الله تعالى من عبادة المتعبدين إلى آخر الدهر أبدا سرمدا»[1].

والثاني: فراغ وقتك للعبادة فتستقيم لك وتكثر، فإن الرغبة في الدنيا تشغلك. أما ظاهرك: فبالطلب، وأما باطنك فبالإرادة وحديث النفس، وكلاهما يمنع من العبادة فالقلب واحد، فإذا اشتغل بشيء انقطع عن ضده.

وعن أبي الدرداء[2] **قال**: حاولت أن أجمع بين العبادة والتجارة فلم يجتمعا فأقبلت على العبادة وتركت التجارة.

وعن عمر ﷺ أنه قال: لو كانتا مجتمعتين لأحد غيري لاجتمعتا لي، لما أعطاني الله تعالى من القوة واللين.

وقال طاووس: حلو الدنيا مر الآخرة، ومر الدنيا حلو الآخرة.

([1]) أخرجه الديلمي (265/2، رقم 3234)

([2]) هو عويمر بن مالك بن قيس بن أمية الانصاري الخزرجي، أبو الدرداء: صحابي، من الحكماء الفرسان القضاة. كان قبل البعثة تاجرا في المدينة، ثم انقطع للعبادة. ولما ظهر الإسلام اشتهر بالشجاعة والنسك. وفي الحديث " عويمر حكيم أمتي " و " نعم الفارس عويمر ". وولاه معاوية قضاء دمشق بأمر عمر بن الخطاب، وهو أول قاض بها. قال ابن الجزري: كان من العلماء الحكماء. وهو أحد الذين جمعوا القرآن، حفظا، على عهد النبي صلى الله عليه وسلم بلا خلاف. مات بالشام. وروى عنه أهل الحديث 179 حديثا. انظر الاصابة: ت 6119.

وقال يمن بن رزق[1]: ليس إلا دنيا أو أخرى، فإن أردت الجمع بينهما رمت محالا وذهبتا عنك معا، فاختر لنفسك؛ **فالأولى**: عيش النفس ومادته الأرضيات. **والثانية**: عيش الروح ومادتها العلويات.

وفي الحديث: «من أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه، فآثروا ما يبقى على ما يفنى[2]» فاستبان من هذا أن العبادة لا تتأتى على وجهها إلا بالزهد.

قوله: "من أحب دنياه.."إلخ. سبب ذلك أن القلب إذا انصرفت همته إلى الدنيا تصاعبت عليه الآخرة حتى يصير أصعب شغل من أشغال الدنيا أخف عليه من أقل شغل من أشغال الآخرة؛ لأن القلب إذا تفاحش فيه حب الدنيا لازم العبدُ فراشَ الغفلة، ولم يستطع الخروج عنها، وكلت الجوارح عن أفعال البر، فيكون شغل من أشغال الدنيا – وإن كان عسيرا– أهون عليه من ركعتين يركعهما بخشوع.

وقوله: "من أحب آخرته.."إلخ. سبب ذلك أن القلب إذا أحياه الله بحب الآخرة تيسر عليه العمل لها بطيب نفس منه دون صعوبة وتثقل عليه أشغال الدنيا التي لا يتعلق حبه بها حتى يتعطل عليه أكثر أشغالها من أجل انصراف القلب عنها.

ومن فوائد الزهد أيضا: السلامة من كدر الدنيا والراحة من طلبها. **(وَهُوَ)** قسمان: زهد مقدور للعبد، وزهد غير مقدور؛ فالمقدور ثلاثة أشياء: ترك طلب المفقود من الدنيا. وتفريق المجموع منها و**(تَرْكُ إِرَادَتِهَا)** واختيارها **(بِالْقَلْبِ)** وغير المقدور للعبد هو برودة الشيء على قلب الزاهد. فالمقدور مقدمات لغير المقدور له. فإنه إذا فعل الأشياء الثلاثة أورثه ذلك برودة الدنيا على قلبه، وأصعب الثلاثة ترك الإرادة بالقلب؛ إذ كم تارك لها بظاهره محب مريد لها بباطنه فالشأن في ترك الإرادة بالقلب وهو المهم دون الطلب والفعل للمراد.

---

(1) هو يُمْن بن رِزْق الزّاهِد: من أهلِ تُطيلة؛ يُكنّى: أبا بكر. له كتاب في الزهد. انظر تاريخ علماء الأندلس: (212/1).

(2) أخرجه السيوطي في جامع الأحاديث: (45314).

قال في الإحياء: الزهد عبارة عن عزوف النفس عن الدنيا مع القدرة عليها، لأجل الآخرة. فلا يتصور الزهد ممن ليس له مال ولا جاه، ولا ساعدته الدنيا. والزاهد لا ينخل الحنطة، وإلا فليس بزاهد، ولا يأتدم باللحم إلا مرة أو مرتين في الأسبوع وإلا فليس بزاهد. ولا يكون له ثوب يلبسه إذا غسل ثوبه، وإلا فليس بزاهد، ولا يدخر فوق كفايته سنة، وإلا فليس بزاهد، أي لا يعطي في الآخرة ما أعد الله للزهاد.

قال: والدرجة العليا في الزهد: أن يزهد وأن يزهد في زهده ولا يرى زهده شيئا إذ لا يرى أنه ترك شيئا إذ عرف أن الدنيا لا شيء، فيكون كمن ترك حصاة وأخذ جوهرة فلا يرى ذلك معاوضة، ولا يرى نفسه تاركا لشيء بل الدنيا أخس من الحصاة بالنسبة لهما. **ومثل من ترك الدنيا للآخرة:** كمن منعه من باب الملك كلب على بابه، فألقى إليه لقمة فشغل الكلبَ باللقمةِ ودخل الباب ونال قرب الملك. فاللقمة قليلة في جنب ما نال من قرب الملك ونعيمه فالشيطان على باب الله تعالى يمنع الناس من الدخول. والدنيا كلقمة تنقضي لذتها بعد البلع على القرب، بل الدنيا أقل من اللقمة بالنسبة. **والزهد أيضا قسمان:**

- **فرض:** وهو ترك كل ما يعطل عن الواجبات ويوقع في بعض المحرمات.
- **ونفل:** وهو ترك كل مازاد على مقدار الضرورة[1].

قال بعضهم: الزهد **له أول وهو:** ترك كل ما يشغل المريد عن الطريق من الأسباب، والأشياء والأشخاص والخروج عما يملكه إلا ما لابُدَّ منه من سد الجوعة وستر العورة، في الوقت من غير ذخيرة للغد باعتماده وتوكله على الله تعالى. **وله آخر وهو:** ترك كل ما يشغله عن الله تعالى بالإعراض عما سواه من العلوم والأحوال والكرامات، وما في معناها. **وثمرة الزهد الواجب:** استنارة القلب بالحكم وتعاون الأعضاء على العبادة وكثرة نية العمل ومضاعفة ثوابه وعظم قدره، وشرف محله.

---

(1) انظر إحياء علوم الدين: (242/4).

وعن سلمان الفارسي[1]: إن العبد إذا زهد في الدنيا استنار قلبه بالحكمة وتعاونت أعضاؤه بالعبادة.

وقال العلقمي: الزهد ثلاثة: زهد العوام؛ وهو ترك الحرام بالقلب. **وزهد الخواص**: وهو ترك الفضول من الحلال بالقلب. **وزهد خواص الخواص**: وهو ترك كل ما يشغل عن الله تعالى بالقلب.

قال ابن عيينة: الزهد ثلاثة أحرف: الزاي: ترك الزينة. والهاء: ترك الهوى. والدال ترك الدنيا بجملتها.

وحقيقته شرعا: ترك الدنيا بجملتها، وترك كل ما لا قربة فيه منها مما يتنعم به فيها؛ من مطعم ومشرب وملبس ومسكن، وترك التلذذ بملاذها والخلود فيها إلى الراحة، و لم يأخذ من ذلك إلا ما لابد منه. لأن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده. وأما ترك ما يجب تركه من المحرمات فلا يسمى زهدا. وأما ترك ما يجب أخذه من قوام نفسه ومن تلزمه نفقته فمعصية يستحق عليها العقوبة. **فالزاهد**: هو المستصغر للدنيا الذي انصرف قلبه عنها لصغر قدرها عنده، فلا يفرح بشيء منها ولا يحزن على فقده، ولا يأخذ منها إلا ما أمر بأخذه مما يعينه على الطاعة، ويكون مع ذلك داعيا للشغل بذكر الله، وذكر الآخرة. هذا هو أرفع أحوال الزهد، فمن بلغ هذه المرتبة فهو في الدنيا شخصه وفي الآخرة روحه.

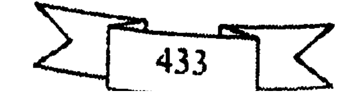
وقال الفضيل[2]: جعل الله الشر كله في بيت، وجعل مفتاحه حب الدنيا وجعل الخير كله في بيت وجعل مفتاحه الزهد.

قيل: جاء وليٌّ إلى أمير فقال له الأمير –وقد رأى عليه لباس الزهد–: مالكم تزهدون في الدنيا؟ قال: أنتم أزهد منا. قال له الأمير: وكيف ذلك؟ قال لأن زهدنا إنما هو في الدنيا، وزهدكم أنتم إنما هو في الآخرة. فلما افترقا، تأمل الأمير قوله، فوجده كأنه قال

---

(1) تقدمت ترجمته.

(2) تقدمت ترجمته.



له: أنت أحمق لزهدك في شيء نفيس. ونحن عقلاء لزهدنا في شيء قليل جدا لا قيمة له ليسارته.

فائدتان في الزهد:

الفائدة الأولى: قال الهيثمي: أنكر بعضُ العلماء وصفه ﷺ بالزهد **ويؤيده قول محمد بن واسع، وقد قيل له:** فلان زاهد. قال: وما قدر الدنيا حتى يزهد فيها؟ وإذا أُنكِرَ وصفه ﷺ بالزهد فالضرورة من باب أولى. **وأفتى فقهاء الأندلس** بقتل من وصفه ﷺ بالفقر.

وزعم ابن السبكي[1] أن زهده لم يكن قصدا، ولو قدر على الطيبات لأكلها.

وذكر الزركشي[2] عن بعضهم أنه ﷺ لم يكن فقيرا من المال قط ولا حاله حال فقير، بل كان أغنى الناس بالله قد كفى أمر دنياه في نفسه وعياله. والمرادُ بقوله: اللهم أحيني مسكينا وأمتني مسكينا[3]...**الحديث**. استكانة القلب لا المسكنة المرادفة للفقر؛ لأنه صح استعاذته عليه الصلاة والسلام من فتنة الفقر، كما استعاذ من فتنة الغنى.

الفائدة الثانية: قال الهيثمي أيضا: الصحابة في الزهد قسمان: فأكثرهم؛ زَهِد في الدنيا اشتغالا بالعلوم والمعارف ونشرها وبالعبادات حتى لم يبق من أوقاتهم شيء إلا وهم مشغولون بشيء من ذلك وكثير منهم حصل الدنيا لكن كانوا فها خزانا لله تعالى. وهذا لا ينافي زهدهم فيها، لأنهم لم يمسكوها لأنفسهم بل أمسكوها لإخراجها لمستحقها

([1]) تقدمت ترجمته.

([2]) هو محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي، أبو عبد الله، بدر الدين: عالم بفقه الشافعية والاصول.تركي الاصل، مصري المولد والوفاة. له تصانيف كثيرة في عدة فنون، منها (الاجابة لايراد ما استدركته عائشة على الصحابة – ط) و (لقطة العجلان – ط) في أصول الفقه،و(البحر المحيط – خ) ثلاث مجلدات في أصول الفقه،و(إعلام الساجد بأحكام المساجد – ط) و (الديباج في توضيح المنهاج – خ) فقه، و (مجموعة – خ) فقه، و (المنثور – خ) يعرف بقواعد الزركشي في أصول الفقه، و (التنقيح لالفاظ الجامع الصحيح – خ) و (ربيع الغزلان) أدب و (عقود الجمان، ذيل وفيات الأعيان – خ) في 34 كراسا، بمكتبة عارف حكمة، في المدينة، كما في مذكرات الميمني – خ. انظر شذرات الذهب: (335/6).

([3]) أخرجه الترمذى (577/4 ، رقم 2352) وقال : غريب.

بحسب نظرهم واجتهادهم، فأغنياؤهم كانوا خزانا لله يصرفون مالهم في مصارفه الشرعية، ويفنونه لذلك لا لفخر ولا لمباهات ولا لمحبة جمع لذلك الحطام الفاني، فلا يعدون من الأغنياء إلا باعتبار الصورة. وأما باعتبار الحقيقة فهم على غاية من الافتقار إلى الله عز وجل ببواطنهم وظواهرهم، لا يشهدون لأنفسهم مالا ولا غنى وإنما يعدون أنفسهم خزنة لا غير. **انتهى بخ**[1].

قال عبد الله بن عتبة[2]: **كان لعثمان رضي الله عنه** يوم قتل عند خازنه مائة ألف وخمسون ألف دينار، وألف ألف درهم، وخلف ضياعه ببير أريس، وخيبر وواد القرى. وبلغ مال الزبير خمسين ألف دينار، وترك ألف فرس ، وألف مملوك. **وغنى عبد الرحمن بن عوف أشهر من أن يذكر.** وكانت الدنيا في أكفهم لا بقلوبهم صبروا عنها حين فقدت. وشكروا الله حين وجدت وإنما ابتلاهم الحق بالفاقة في أول أمرهم حتى تكملوا، ثم بذلها لهم فلو أعطوها قبل ذلك، فلعها تأخذ من قلوبهم. فلما أعطوها بعد التمكين والرسوخ في اليقين تصرفوا فيها تصرف الخازن الأمين. وقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ فقد خرج أبو بكر ﷺ من ماله كله وعمر من نصفه، وعبد الرحمن بن عوف عن سبعمائة بعير موقورة الأحمال وجهز عثمان جيش العسرة.

ومن كتاب تنبيه المغترين للشعراني: قال سيدي محمد بن عنان: كيف يليق بالفقير أن يكون الولاة أزهد منه؟ فقيل له: كيف ذلك؟ قال: لأن الأمير ما أعصى الفقير شيئا إلا بعد زهده فيه، ولولا زهده ما قدر أن يستخلصه من يده أبدا[3].

---

(1) انظر الهيثمي على الأربعين باختصار وتصرف وتلفيق: (236).

(2) هو عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي، أبو عبد الله: مفتي المدينة، وأحد الفقهاء السبعة فيها. من أعلام التابعين. له شعر جيد أورد أبو تمام قطعة منه في " الحماسة " وأبو الفرج كثيرا منه في " الأغاني " وهو مؤدب عمر بن عبد العزيز. قال ابن سعد: كان ثقة عالما فقيها كثير الحديث والعلم بالشعر، وقد ذهب بصره. مات بالمدينة. انظر: الوفيات: (1271).

(3) لم أجده في محله من كتاب تنبيه المغترين ولعله أتى به في موضع آخر.

وقال والي البصرة يوما لمالك بن دينار[1]: أتدري ما الذي أجرأك علينا في إغلاظك القول علينا وعدم قدرتنا على مقابلتك؟ قلة طمعك فيما بأيدينا وزهدك فيه.

ودخل محمد بن واسع[2] **على قتيبة بن مسلم**[3] **وعليه صوف فقال قتيبة**: ما الذي حملك على لبس مدرعة الصوف؟ فسكت محمد. فقال: أكلمك فلا تجيبني؟ فقال: إن قلت زهدا زكيت نفسي، وإن قلت فقرا شكوت ربي فهذا نظير ما قيل: إن معاوية ذكروا عند كلاما وعنده الأحنف بن قيس فقال معاوية: ما تقول يا أحنف في هذا الكلام؟ فسكت، فقال له: أما تتكلم؟ فقال: إني أخشى الله إن كذبت وأخشاك إن صدقت فرأيت السكوت أولى.

وقال الثوري[4]: من جمع المال ابتلي بخمس خصال طول الأمل، وشدة الحرص، والشح، ونسيان الآخرة وقلة الورع.

وقال سيدي علي الخواص[5]: إنما طلب سليمان ملكا لا ينبغي لأحد من بعده ليتحقق بمقام الزهد؛ لأن الزهد مع وجود الدنيا أعظم ممن كان زهده فيها مع الفقر.

وقال الشافعي[6]: لو أوصى إلى أعقل الناس لصرفته إلى الزاهدين في الدنيا.

وقال الحسن[7]: يحشر الناس كلهم عراة إلا الزاهدين في الدنيا.

وقال إبراهيم ابن أدهم[8]: من ادعى الزهد في الدنيا وغضب ممن نقصه عند أهلها فهو كاذب في دعواه.

وقال يونس بن عبيد[1]: غاية الزهد في الدنيا عدم الراحة.

---

(1) تقدمت ترجمته.

(2) تقدمت ترجمته.

(3) تقدمت ترجمته.

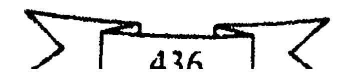
(4) تقدمت ترجمته.

(5) تقدمت ترجمته.

(6) تقدمت ترجمته.

(7) تقدمت ترجمته.

(8) تقدمت ترجمته



وقال مالك بن دينار: بلغنا أن عيسى عليه السلام مر على شخص نائم والناس قائمون يصلون بالليل فقال له: قم فصل قال: قد عبدت الله بأفضل العبادة، فقال له: وما هي؟ قال: زهدت في الدنيا، فقال له نَم فقد فقت العابدين.

وقال ابن مسعود: من كان أكثر الناس زهدا في الدنيا كان أكثرهم عملا صالحا. وعن عبد الله بن أحمد بن حنبل: قال: قلت لأبي: إنك كنت تختلف إلى معروف الكرخي؛ أكان عنده حديث؟ فقال: كان عنده رأس المال؛ تقوى الله والزهد.

واعلم أن طلب الرزق من وجه سوَّغه الشرع لا ينقص الزهد؛ لأن طلب الرزق الحلال فرض ولأن العبادة لا تكون إلا بإحراز القوت.

وجاء عبد الله بن عامر بن ربيعة[2] في بزته إلى أبي ذر وسأله عن الزهد فجعل أبو ذر يضرط له في كفه، ثم أعرض عنه ولم يكلمه، فغضب أبو عامر، وشكاه إلى عبد الله بن عمر؛ فقال: يا ابن عمي؛ تأتي أبا ذر في هذه الثياب وتسأله عن الزهد.

ومن خسة الدنيا التي يحق أن يزهد الناس فيها: أنها كثيرا ما ترفع الجاهل وتضع العالم.

وأنشدوا:

عَتَبْتُ عَلَى الدُّنْيَا بِتَقْدِيمِ جَاهِلٍ ... وتَأْخِيرِ ذِي فَضْلٍ فَقَالَتْ خُذِ الْعُذْرَا

بَنُو الْجَهْلِ أَبْنَائِي لِذَاكَ رَفَعْتُهُمْ ... وَأَهْلُ التُّقَى أَبْنَاءُ ضَرَّتِيَ الأُخْرَى

وقال شقيق[3]: من انشرح لدخول الدنيا عليه فهو منافق، يريد بذلك من تظاهر للناس بالزهد فيها، وأما من لم يتظاهر بذلك فليس بمنافق.

وفي الخبر: «قال الله تعالى: يا موسى: إذا تنفس المسكين لطلب شهوة لا يقدر عليها

---

(1) هو يونس بن عبيد بن دينار العبدي بالولاء، البصري، أبو عبد الله، أو أبو عبيد: من حفاظ الحديث الثقات. من أصحاب الحسن البصري. كان من أهل البصرة. يبيع بها الخز. ونعته الذهبي بأحد أعلام الهدى. قال أحد الغزاة: والله إنا نكون في نحر العدو فإذا اشتد علينا الامر قلنا اللهم رب يونس فرج عنا، فيفرج عنا ! ولما مات حمله بنو العباس على أعناقهم. له نحو مئتي حديث. انظر تاريخ الاسلام للذهبي: (318/5).

(2) هو عبد الله بن عامر بن ربيعة العنزي حليف بني عدي.

(3) تقدمت ترجمته.

كان أفضل عندي من مائة حسنة، ومن عبادة ألف سنة. يا موسى إن من عبادي المؤمنين من لا يصلح إيمانه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسده غناه، وإن من عبادي المؤمنين من لا يصلح إيمانه إلا الغنى فلو أفقرته لأفسده فقره».

وفي الحديث: «الفقر أزين للمؤمن من العذار الجيد على خد الفرس[1]».

وقال أحد الحكماء: ستة لا تفارقهم الكئابة: الحقود، والحسود، وحديث عهد بالغنى، وغني يخشى الفقر، وطالب رتبة يقصر قدره عنها، وجليس لأهل الأدب وليس منهم.

وفي الخبر: «يفرح عبدي أن أوسع له في الدنيا، وذلك أبعد ما يكون مني وأبغض ما يكون إلي».

وفي الخبر أيضا: «إن الله عز وجل يقول: يحزن عبدي أن اصرف عنه فتنة الدنيا، وذلك أقرب ما يكون مني وأحب ما يكون إلي. قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللّـهِ وَبِرَحْمَتِـهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾.

وفيه: «إن العبد يدعى للحساب بكل قيراط أربعا وعشرين مرة»».

وقال عيسى عليه السلام: يا طالب الدنيا لِتَبَرَّ. تركك الدنيا أبرُّ وَأَبَرُّ.

وقال بعض الحكماء: جواهر البر ست خصال: كتمان الفقر حتى يظن الناس أنك غني. وكتمان الصدقة حتى يظن الناس أنك بخيل. وكتمان الشدة حتى يظن الناس أنك متمم. وكتمان الأمراض حتى يظن الناس أنك لا تشكو شيئا. وكتمان المصائب حتى يظن الناس أنك معافى، وكتمان البر حتى يظن الناس أنك لا تعمل عملا.

وفي الحديث: «إن بين أيدينا عقبة كؤودا لا يصعدها إلا المخفون. قيل له: وما المخفون؟ ومن المثقلون؟ قال: عندك طعام يومك؟ قال نعم. قال: وطعام غد؟ قال نعم. قال وطعام بعد غد؟ قال: لا، قال: فلو كان عندك طعام ثلاث لكنت من المثقلين[2]».

([1]) أخرجه الطبراني (294/7 ، رقم 7181) قال المناوى (464/4) : قال الحافظ العراقى : سنده ضعيف.

([2]) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (309/7 ، رقم 10407) .

وتوفي رجل من أهل الصفة فما وجدوا له كفنا. فقال النبي ﷺ «فتشوا ثوبه» قال: فوجدنا في داخلة إزاره دينارين. فقال: كيتان وإنما كانا كيتين في حق هذا دون غيره ممن خلف أكثر من ذلك؛ لأن هذا حاله الزهد وإظهار الفقر فاستعمل الادخار وأظهر خلاف حاله. ومر رسول الله ﷺ بنوق عشار فغمض عينيه وهي من أنفس المال وتلا: ﴿لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ﴾... الآية.

قيل: إن عمر بن عبد العزيز أزهد من أويس القرني؛ لأن عمر ملك الدنيا فزهد فيها، وأويس لم يملكها فقيل: لو ملكها لفعل كما فعل عمر. فقالوا: ليس من جرب كمن لم يجرب[1].

قال الثعالبي: لا شك أن الزهد علامة كمال العقل والهداية. العاقل يترك المنفعة العاجلة خوفا من المضرة الآجلة. وينظر في عواقب الأمور. بخلاف الجاهل.

واعلم أن من فهم عن الله تعالى ورزق التوفيق لم ينخدع بغرور الدنيا، وزخرفها الفاني بل بصرف همته بالكلية إلى التزود لآخرته، ساعيا في مرضاة ربه. وأن من أيقن أن الله يطلبه صدق في الطلب إليه وأنه لا بد لبناء هذا الوجود أن تنهدم دعائمه، وأن تسلب كرائمه، فالعاقل: من كان بما هو أبقى أفرح منه بما هو يفنى. قد أشرق نوره، وظهرت تباشيره، فصرف همته عن هذه الدار مغضيا، وأعرض عنها موليا، فلم يتخذها وطنا، ولا جعلها سكنا، بل أنهض الهمة فيها إلى الله تعالى، وصار فيها مستعينا به في القدوم عليه، فما زالت مطية عزمه لا يقر قرارها دائما تسيارها إلى أن أناخت بحضرة القدس وبساط الأنس.

وفي الحديث: «إن أغبط أوليائي عندي لمؤمن خفيف الحاذ، ذو حظ من الصلاة، أحسن عبادة ربه، وأطاعه في السر، وكان غامضا في الناس، لا يشار إليه بالأصابع، وكان رزقه كفافا، فصبر على ذلك. ثم نفض يديه وقال: عُجِّلَتْ منيته، وَقَلَّتْ نوائحه، وقلّ تراثه[2]».

---

(1) انظر شرح الهيثمي على الأربعين النووية: (236).

(2) أخرجه أحمد (255/5 ، رقم 22251) ، والترمذى (575/4 ، رقم 2347) ، والحاكم (137/4 ، رقم 7148)

وفي الحديث أيضا: «عرض علي ربي أن يجعل لي بطحاء مكة ذهبا، فقلت: لا يا رب ولكن اشبع يوما وأجوع يوما، أو قال ثلاثا ونحوها. أو نحو هذا. فإذا جعت تضرعت إليك وإذا شبعت شكرتك وحمدتك[1]».

وقال الغزالي: إذا أنعم الله عليك بنعمة في الدين فلا تلتفت إلى الدنيا وحطامها فإن ذلك ضرب من التهاون بما أولاك ربك من نعم الدين. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ﴾ فالزم الشكر على ذلك فإنه الكرامة الحقيقية.

وفي الحديث: «من أوتي القرآن فيرى أن أحدا أعطى أفضل مما أعطى فقد عظم صغيرا وصغر عظيما».

وأما حطام الدنيا فإنه يصبه تعالى على كل كافر، وفرعون، وملحد وزنديق، وجاهل وفاسق، ويصرفه عن كل نبي، وصفي وصديق، وعالم وعابد، حتى أنهم لا يكادون يجدون كسرة أو خرقة حتى من عليهم بأن لا يلطخهم بقذرها. وروي أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام: لو شئت أن أزينك بزينة يعلم فرعون حين يراها أن مقدرته تعجز عنها لفعلت ولكن أزوي عنك الدنيا. كذلك أفعل بأوليائي، وإني أذودهم عن نعيمها كما يذود الراعي الشفيق إبله عن مبارك العرة، وإني لأجنبهم سلوتها وعيشها وليس ذلك لهوانهم علي، ولكن ليستكملوا حظهم.

تتمة: الفرق بين الزهد والورع: أن **الزهد** ترك ما لا ينفع في الآخرة، **والورع** ترك ما يخشى ضرره في الآخرة. **قاله العلقمي**. والورع سيد العمل.

وعن ابن المبارك[2]: ترك فلس من حرام أفضل من مائة فلس يتصدق بها.

وأتي عمر ﷺ بزيت من الشام فقسمه على الناس وعنده ابن له وله شعر فلما فرغ مسح الابن رأسه ببقية جفنة الزيت فقال له عمر: إن شعرك شديد الرغبة في زيت

([1]) أخرجه أحمد (254/5 ، رقم 22244) ، والترمذى (575/4 ، رقم 2347) وقال : حسن.

([2]) تقدمت ترجمته.

المسلمين فجز رأسه، وقال: هذا أهون عليك.

واستأجر ابن أدهم دابة إلى عمان فركبها حتى سقط سوطه فنزل فربطها وذهب راجلا وأخذ السوط فقيل له: لو حولت رأس دابتك؟ فقال: إنما استأجرتها لتذهب وما استأجرتها لترجع. **انتهى من السمرقندي.**

وقال سحنون[1]: ترك الحرام أفضل من جميع العبادات، وترك دانق من الحرام أفضل من سبعين ألف حجة مبرورة وسبعين ألف عمرة مبرورة مقبولة. ومن سبعين ألف فرس في سبيل الله بزادها وسلاحها، ومن عتق سبعين رقبة مؤمنة من ولد إسماعيل.

وقال عبد الجبار بن خالد[2]: وَمِنْ مِلْءِ الأرض نقدا حلالا أنفق خالصا لله تعالى.

ولما كان حب الدنيا المذموم يرجع إلى أصلين، وهما اللذان يجب الزهد فيهما وهما: الفرح بالموجود منها، والتأسف على المفقود منها: أشار إليهما بقوله: (وَلاَ تَفْرَحْ بِمَوْجُودِهَا، وَلاَ تَحْزَنْ عَلَى مَفْقُودِهَا) فلا عثور على مقام الزهد إلا بعد تجريد النفس عن هذين الأصلين. قال تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ فهاتان العلتان لا مطمع للسالك في لحوق أهل ولاية الله ما لم تزولا من قلبه. فمن أراد اللحوق بهم فليقطع أصول هاتين العلتين من قلبه، ومثال من يحزن على الفائت من الدنيا من جاءته حية لتلدغه، ثم مضت وسلمه الله منها فحزن عليها إذ لم تضره، وإنما أمر بالزهد في الدنيا وعدم الفرح بها **(لأَنَّ حُبَّهَا)** والرغبةَ فيها والتكالبَ عليها؛ وهو حب كل ما يشغلك عن ذكر الله تعالى فيها من حب الحلال وحب التكاثر والجمع والمنع والتمتع والتنافس فيها وحب أبنائها، والركون إليهم، والركون إلى ما بيدك منها، وإلى

---

(1) هو أبو سعيد عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخي الفقيه المالكي، ولد سنة: 160 هـ، قرأ على ابن القاسم وعنه أخذ المدونة، وابن وهب وأشهب، وانتهت إليه رئاسة العلم بالمغرب، وأخذ عنه خلق كثير منهم: ابنه محمد ومحمد بن عبدوس وابن غالب وحمديس القطان وغيرهم. توفي سنة: 240 هـ.(شجرة النور الزكية ص: 69، وفيات الأعيان ج3 ص: 180، شذرات الذهب ج2 ص: 94).

(2) هو عبد الجبار بن خالد بن عمران السرتي، أبو حفص: فقيه فاضل زاهد. من ثقات الشيوخ وعقلائهم في إفريقية. يضرب أهلها المثل به في الفضل والدين. له أخبار وكلمات سائرة. انظر معالم الايمان: (123/2).

صحتك وعقلك.

قال الهيثمي: حب الدنيا المذموم: هو ما في قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ﴾ الآية. ويجمع ذلك كل ما لك فيه عاجل حظ، أو شهوة من غير أن يعين على عمل أخروي، ولا يقصد به (بِـ) حكم (**الطَّبْعِ**) فمن أحبها بحكم الطبع كرهه الحق على قدر محبته لها، كثرةً وقلةً، احترازا من حبها للعون على الطاعة، أو لنفع المسلمين أو للاستغناء عن الناس ليسلموا من لسانه ويده وإذايته، وليسلم له دينه **–كما يأتي إن شاء الله–** فإن ذلك خير وأجر[1]. (**وَمِنْهُ يَتَفَرَّعُ كُلُّ شَرٍّ**) ومنه يتفرع كل قبيح كعيوب النفس كلها الآتية وذلك لأن المال والجاه من الدنيا، **وهما كما قال الفخر الرازي:** يحملان الإنسان على المبالغة في حفظهما، وذلك الحفظ لا يتم إلا بجميع الأخلاق الذميمة كالغدر، والمكر، والكذب، والغيبة، والنميمة، والأيمان الكاذبة، ولو لم يكن للمال والجاه سوى أن الله تعالى حكم بأنه إنما وصف بهذه الأوصاف الذميمة من كان له مال وجاه لكفى ذلك دليلا على خساستهما. **انتهى**[2].

قال الثعالبي: وما ذكره الفخر في المال والجاه هو الأغلب.

وعن علي ﷺ أنه قال: إذا كان يوم القيامة أتت الدنيا بأحسن زينتها ثم قالت يا رب هبني لبعض أوليائك، فيقول الله تعالى: اذهبي يا لا شيء فلأنت أهون من أن أهبك لبعض أوليائي فتطوى كما يطوى الثوب الخلق فتلقى في النار.

وفي الحديث: «حب الدنيا رأس كل خطيئة[3]».

وفيه: «أكبر الكبائر حب الدنيا[4]».

([1]) كلام الهيثمي لم أجد لفظه وكأنه نقله بمعناه من شرح حديث: «ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس» انظر كلام الهيثمي في شرح الأربعين: (231-232).

([2]) انظر التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: (143/13).

([3]) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن الحسن مرسلاً.

([4]) أخرجه الديلمي (364/1 ، رقم 1468)

ومن كلامهم: لا يترقى مريد قط إلا إن صحت له محبة الله تعالى ولا يحبه الحق تعالى حتى يبغض الدنيا وأهلها. ومتى تلقى على شيخ وهو يميل إلى الدنيا، فلابد أن يرجع من حيث جاء وترفضه الطريق.

وقال الشاذلي[1]: العبادة مع محبة الدنيا شغل وتعب جوارح، فهي -وإن كثرت- قليلة. وإنما هي صورة بلا روح ولهذا ترى كثيرا من أرباب الدنيا يصلون كثيرا ويصومون كثيرا، وليس لهم نور الزهادة ولا حلاوة العبادة.

وقال سيدي إبراهيم المبتولي: من لم ينظف قلبه من محبة الدنيا لم يجر في قلبه ماء الإيمان.

وفي الحديث: «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها الكافر شربة ماء[2]».

وفيه: «عش ما شئت فإنك ميت واعمل ما شئت فإنك مجزي به، وأحبب ما شئت فإنك مفارقه[3]».

وفيه: «إذا رأيت أنك كلما طلبت شيئا من أمر الآخرة وابتغيته يسر لك، وإذا أردت شيئا من أمر الدنيا وابتغيته عسر عليك فأنت على حسنة. وإذا رأيت كلما طلبت شيئا من أمر الآخرة وابتغيته عسر عليك، وإذا أردت شيئا من أمر الدنيا وابتغيته يسر لك؛ فأنت على حالة قبيحة»[4]. وفيه دليل على أن تيسر أسباب الدنيا مع الإعراض عن الآخرة ليس من علامات الفرج.

وفيه: أنه ﷺ رأى شاة ميتة فقال: «والذي نفسي بيده للدنيا أهون عند الله من هذه الشاة على أهلها ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها الكافر شربة ماء».

وفيه: «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما ولاه، وعالم ومتعلم[5]». والمراد

---

(1) تقدمت ترجمته.

(2) أخرجه ابن ماجه (1376/2 ، رقم 4110) ، والطبراني (157/6 ، رقم 5840) ، والحاكم (341/4 ، رقم 7847).

(3) أخرجه الحاكم (360/4 ، رقم 7921) ، وقال : صحيح الإسناد ، والبيهقي في شعب الإيمان (349/7 ، رقم 10541).

(4) أخرجه ابن المبارك في الزهد (29/1 ، رقم 88) عن أبي سعيد.

(5) أخرجه الترمذي (561/4 رقم 2322) وقال : حسن غريب . وأخرجه أيضًا : ابن ماجه (1377/2 رقم 4112).



بهذا المستثنى ما كان من الدنيا يقرب من الله ويعين على عبادته.

وفيه: «إن العبد لَيُنشر له من الثناء ما بين المشرق والمغرب ولا يزن عند الله جناح بعوضة[1]».

وفيه: «ليأتي الرجل السمين العظيم يوم القيامة ولا يزن عند الله جناح بعوضة، اقرؤوا إن شئتم ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾» **معنى الآية والحديث:** أنه لا ثواب لهم وأعمالهم مقابلة بالعذاب فلا حسنة لهم توزن في موازين القيامة ومن لا حسنة له فهو في النار .

وقال أبو سعيد الخدري: يؤتى بأعمال مثل جبال تهامة؛ فلا تزن عند الله شيئا. **وقيل:** المراد المجاز والاستعارة؛ وكأنه قال: لا قدر لهم عندنا يوم القيامة وفي هذا الحديث من الفقه: ذم السمن لمن تكلفه من تكليف المطاعم الزائدة على قدر الكفاية.

وفي الحديث: «إن أبغض الرجال إلى الله الحبر السمين[2]».

وفيه: «ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تسلط عليكم الدنيا كما سلطت على من قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم[3]».

وفيه: «اللهم من آمن بي وصدقني، وعلم أن ما جئت به هو الحق من عندك فأقل ماله وولده، وحبب إليه لقاءك وعجل له القضاء، ومن لم يؤمن بي و لم يصدقني و لم يعلم أن ما جئت به هو الحق من عندك فأكثر ماله وولده وأطال عمره[4]».

وفيه: إن أبا ذر أتى النبي ﷺ فقال: إني أحبكم ءال البيت فقال له النبي ﷺ «ءا الله قال: ءا الله. قال: فأعد للفقر تجفافا، فإن الفقر أسرع إلى من يحبنا من السيل من أعلى الأكمة إلى أسفلها[5]».

([1]) ذكره الغزالي في الإحياء واستنكره العراقي: (2/1).

([2]) أخرجه في كنز العمال 4171.

([3]) أخرجه في فتح الباري لابن حجر – (ج 9 / ص 426)

([4]) أخرجه ابن ماجه (1385/2 ، رقم 4133)

([5]) أخرجه الحاكم (367/4 ، رقم 7944) وقال : صحيح على شرط الشيخين

وروي في الخبر:«ما أعطى أحد من الدنيا شيئا إلا نقص من درجته وإن كان عند الله كريما».

وفي شرح الحكم العطائية للمناوي: قال الجيلاني[1]: لا يدخل أحد من عتبة الولاية حتى يسمع النداء من قلبه: ألا من أراد دخول حضرة الحق، فليترك الحظوظ كلها ويخلع نعليه وهما دنياه ويتجرد من جميع الأكوان ويتعدى عن سائر الأماني ثم يدخل فمن لم يتجرد كما ذكرْ لا يمكنه أن يطأ بساط الحضرة أبدا.

وقال: قال بعضهم: مثل الحريص على الدنيا: مثل رجل يصلي خلف الإمام وهو مستعجل لحاجته فهو يسبق الإمام بالركوع والسجود استعجالا للفراغ فلا ينفعه ذلك ولا يخرج من الصلاة إلا إذا سلم الإمام.

وروى ابن أبي الدنيا عن ابن عباس قال: يؤتى بالدنيا يوم القيامة في صورة عجوز شمطاء زرقاء بارزة أنيابها، مشوهة خلقتها، فتشرف على الخلائق فيقال: هل تعرفون هذه؟ فيقولون: نعوذ بالله من معرفة هذه، فيقال: هذه الدنيا التي تناجزتم عليها، وبها تقاطعتم، وبها تحاسدتم وتباغضتم واغتررتم، ثم تقذف في جهنم فتنادي؛ أي رب أين أتباعي وأشياعي؟ فيقول الله تعالى: ألحقوا بها أتباعها وأشياعها[2].

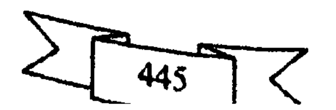
وفي الخبر: «إن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام: إذا رأيت الفقر مقبلا إليك فقل: مرحبا بشعار الصالحين، وإذا رأيت الغنى مقبلا إليك فقل: ذنب عُجِّلت عقوبته[3]».

وقال في سراج الملوك: اعلم أن الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له، وعليها يعادى من لا علم له، وعليها يَحْسُدُ من لا فقه له، من صح فيها سقم، ومن سلم فيها برم، ومن افتقر فيها حزن، ومن استغنى فيها فتن، ومن طلبها فاتته،

([1]) تقدمت ترجمته.

([2]) أخرجه أبو سعيد بن الأعرابي في الزهد (46/1 ، رقم 70) ، والبيهقي في شعب الإيمان (383/7 ، رقم 10671)

([3]) أخرجه الديلمي (175/3 ، رقم 4469)



ومن قعد عنها أتته، لا خيرها يدوم، ولا شرها يبقى، ولا فيها لمخلوق بقاء[1].

ولما بلغ الأمير "مزدك" من الدنيا أفضل ما سمت إليه نفسه، ورقت إليه همته، رفضها ونبذها وقال: هذا سرور لولا أنه غرور ونعيم لولا أنه عديم، وملك لولا أنه هُلك، وغناء لولا أنه عناء، وجسيم لولا أنه دميم، ومحمود لولا أنه مفقود، وغنى لولا أنه منى، وارتفاع لولا أنه اتضاع، وعلاء لولا أنه بلاء، وحسن لولا أنه حزن. ولا تكن يا أخي كالمنخل، يرسل أطيب ما فيه ويمسك الحثالة.

وقال عبد الواحد بن زيد[2]: قالت لي مجنونة تنطق بالحكمة: يا عبد الواحد: فعجبت من معرفتها بي و لم ترني قبل ذلك: اعلم أن العبد إذا كان في كفاية من الله ثم مال إلى الدنيا سلبه الله حلاوة الزهد، فيظل حيران والها، فإن كان له عند الله نصيب عاتبه الله تعالى وحيا في سره فقال: عبدي؛ أردت أن أرفع قدرك عند ملائكتي وحملة عرشي، وأجعلك دليلا لأوليائي وأهل طاعتي في أرضي، فملت إلى عرض من أعراض الدنيا وتركتني فورثتك بذلك الوحشة بعد الأنس، والذل بعد العز، والفقر بعد الغنى...عبدي؛ أرجع إلى ما كنت عليه أرجع إلى ما كنت تعرفه من نفسك.

وفي الحديث: «وهل يتوقع أحدكم من الدنيا إلا غنى مطغيا، أو فقرا منسيا، أو مرضا مفسدا، أو هرما مفندا، أو الدجال فالدجال شر غائب ينتظرْ، أو الساعة؛ والساعة أدهى وأمرْ[3]».

وفي بعض الأحاديث: «يا دنيا: مُرِّي على أوليائي ولا تحلولي لهم فتفتنيهم[4]».

([1]) انظر سراج الملوك للطرطوشي: (82/1).

([2]) هو عبد الواحد بن زيد البصرى الزاهد الذي قيل إنه صلى الغداة بوضوء العشاء أربعين سنة ومن مواعظه قوله ألا تستحيون من طول مالا تستحيون روى عن الحسن وجماعة وهو متروك الحديث وفيها شريك بن عبد الله النخعى الكوفى القاضي أبو عبد الله أحد الأعلام عن نيف وثمانين سنة روى عن سلمة بن كهيل والكبار سمع منه إسحاق الأزرق تسعة آلاف حديث قال ابن المبارك هو أعلم بحديث بلده من سفيان الثورى. انظر العبر في خبر من غبر: (270/1).

([3]) أخرجه ابن المبارك فى الزهد (3/1 ، رقم 7) ، والترمذى (552/4 ، رقم 2306) ، والحاكم (356/4 ، رقم 7906) وقال : صحيح على شرط الشيخين.

([4]) أخرجه في الزهد لابن حنبل: (98/1).

وهذا الحرف يروى بكسر الميم من المرارة وبضمها من المرور. ومثل من يستعجل زهرة الدنيا ويعرض عن الدار الآخرة؛ مثال رجلين لقطا من الأرض حبّتيْ عِنَب فمص أحدهما حبته التذاذا بها ثم بلعها، وزرع الآخر حبته فالتقيا بعد زمان، فإذا الذي زرع الحبة قد صارت له كرما وكثرت ثمرته، وفكر الآخر في صنعه في الحبة فوجدها قد صارت عذرة، وليس عنده منها إلا الحسرة على تفريطه والغبطة لصاحبه. **انتهى بخ. ولبعضهم:**

إِذَا مَـا شِـئْتَ أَنْ تُـدْعَى حَكِيمَـا   وَتَلْحَـقَ بِالرِّجَـالِ ذَوِي الْكَمَـالِ

فَـلاَ تَغْـبطْ بَنِـي الـدُّنْيَا بِشَـيْءٍ   وَلاَ تَخْطُـرْ لَـكَ الـدُّنْيَا بِبَـالِ

ولبعضهم:

إِذَا مَـا شِـئْتَ أَنْ تَحْيَـا   حَيَـاةً حُلْـوَةَ الْمَحْيَـا

فَـلاَ تَغْضَـبْ وَلاَ تَحْسُـدْ   وَلاَ تَأْسَـفْ عَلَـى الـدُّنْيَا

وفي الترمذي عن ابن مسعود قال: نام رسول الله ﷺ على حصير فقام وقد أثر في جنبه قلنا يا رسول الله؛ لو اتخذنا لك؟ فقال: «مالي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل في ظل تحت شجرة ثم راح وتركها[1]».

وفي الخبر: «إن موسى عليه السلام مر برجل وهو يبكي فقال: يا رب عبدك يبكي من مخافتك. فأوحى الله إليه يا ابن عمران؛ لو نزل دماغه مع دموع عينيه ورفع يديه حتى تسقطان لم أغفر له وهو يحب الدنيا».

وقال الحسن: والله ما أحد من الناس بسط الله له في الدنيا فلم يخف أن يكون قد مكر به فيها إلا كان قد نقص عمله، وعجز رأيه وأمن مكر الله، وما أمسكها الله عن عبد فلم يظن أنه خير له فيها إلا قد كان نقص عمله وعجز رأيه.

وقال الشعراني في كتاب تنبيه المغترّين: قال مسلم بن النحات: لما ضُرب الدينار والدرهم جعلهما إبليس على جبهته، وقال: من أحبكما فهو عبدي حقا حقا. قلت: لا

---

(1) أخرجه الترمذي (588/4 ، رقم 2377) وقال : حسن صحيح.

يؤمن استثناء من أحبهما للإنفاق من هذا الإطلاق، والله تعالى أعلم لأنه إطلاق في محل التفصيل[1].

وكان الثوري يتمثل بهذين البيتين:

إِنِّـي وَجَـدْتُ فَـلاَ تَظُنُّـوا غَيْـرَهُ   أَنَّ التَّـوَرُّعَ عِنْدَ هَـذَا الدِّرْهَـمِ

فَـإِذَا قَـدرْتَ عَلَيْـهِ ثُـمَّ تَرَكْتَـهُ   فَاعْلَمْ بِـأَنَّ تُقَـاكَ تَقْـوَى الْمُسْـلِمِ

ومن أخلاق السلف: تقديم أعمال الآخرة دائما على أعمال الدنيا فيقدم ورده بعد الصبح على سائر مهامه، كما يقدم التهجد في الليلة الباردة على نومه تحت اللحاف.

وقال مالك بن دينار[2]: من خطب الدنيا طلبت منه دينه كله في صداقها، لا يرضيها منه إلا ذلك.

وقال الشاذلي: الدنيا بنت إبليس فمن خطبها كثر ترداد أبيها إليه فإن دخل بها أقام عنده بالكلية. **قلت:** المراد بخطبة الدنيا تمنيها، وبالدخول بها إمساك الفاضل عن حاجته لغير غرض شرعي، **فاعلم** أن من أراد أن إبليس لا يسكن عنده مع تزوج ابنته الدنيا فقد رام المحال ولذلك كان يتوسوس في نية الصلاة، وفي الطهارة كثير من الناس الذين يحبون الدنيا بقلوبهم.

وقال حفص بن حميد[3]: أجمع العلماء والفقهاء والحكماء والشعراء على أن كمال النعيم في الآخرة لا يدرك إلا بنَغَص النعيم في الدنيا.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: من حبس الله عنه الدنيا ثلاثة أيام وهو عنه راض وجبت له الجنة.

وقال سيدي علي الخواص[1]: إذا ترقى العبد في مقامات العرفان صارت الدنيا تزداد منه نفرة ولو أنه طلبها لما أجابته لعدم رؤيتها محلا في قلبه تمكث محبتها فيه. **انتهى[2]**.

([1]) انظر تنبيه المغترين للشعراني: (103).

([2]) تقدمت ترجمته.

([3]) وأبو عبيد حفص بن حميد القمي. من الاتباع، من أهل قم. يروي عن عكرمة، وشمر بن عطية. وقرأ القرآن على أبي حميد عبد الرحمن السلمي. روى عنه يعقوب القمي . انظر الانساب للسمعاني: (544/4).

فعُلم أن من علامة الفقير الكاذب أن يزداد من الدنيا وأمتعتها كلما طعن في السن.

وقال عيسى عليه السلام: الجنة بجملتها ترجع إلى شيئين: الرحات والشهوات، ولا يدخل أحد الجنة إلا بترك الراحات والشهوات في الدنيا. **قلت:** من لم يصبر عن فضول الدنيا من طعام ومنام وكلام وجماع وغير ذلك، لا تقول له الملائكة يوم القيامة ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ بل هو يوم القيامة في هم وغم وعدم أمن، بخلاف من سلمت عليه الملائكة فإنه يأمن ويزول عنه الهم والغم ويصير في سرور.

ومن أخلاق السلف: تقديم السلامة على الغنيمة من حيث رفض الدنيا وفراغ أيديهم منها فكانوا يقدمون فراغ أيديهم من الدنيا على جمعها وإنفاقها في سبيل الله خوفا من أن يمنعوا منها حقها **حتى كان أحدهم يقول:** يا طالب الدنيا لتبر بها غيرك تركك لها أبر وأبر.

وقال الجنيد: تجريد القلب من الدنيا أفضل من أخذها وإنفاقها.

وقال الحسن: من تفرغ لعبادة ربه فهو أفضل ممن تركها وسعى على عياله.

قلت: ومن أدلة القوم على أن ترك الدنيا مقدم على جمعها وإنفاقها: **ما ورد أنه ﷺ خرج يوما على أهل الصفة فقال:** «أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحاء فيأتي بناقتين كوماوين؟» قالوا: كلنا يحب ذلك يا رسول الله. فقال: «لأن يترك أحدكم ذلك ثم يذهب إلى المسجد فيتعلم آيتين من كتاب الله خير له من اثنتين أو ثلاث[3]» .

والحاصل: أن من كان موقنا بحيث لم توسوس له نفسه إن تركها، ولم تتعلق به نفقة واجبة وجب إرشاده لرفض الدنيا ليصير الفقر له زينة والقناعة له ذخيرة فإن نزل العبد عن هذه الرتبة وجب إرشاده لجمع الحلال، ليدخر منه ما تسكن به نفسه وينقطع عنها الوسواس، من أجله، ويجعل الفضلة ذخيرة لميعاده، فإن نزل العبد عن هذه الرتبة أيضا

---

(1) تقدمت ترجمته.

(2) انظر تنبيه المغترين: (106).

(3) أخرجه أبو داود (71/2 ، رقم 1456) ، والطبراني (290/17 ، رقم 799) ، وابن حبان (321/1 ، رقم 115).

وغلب عليه شحه وجب إرشاده لجمع ما تسكن إليه نفسه من الحلال ويدخره ولا يرشد للأحوال الزهدية والمقامات العلية، فإن نفسه لا تسكن إلى القسمة السابقة لكنها بما تدخر واثقة وليس أسفل من هذه الرتبة إلا رتبة من نبذ ورعه ولم يبال من حيث جلب رزقه.

وقال أبو حازم[1]: يوقف من يعظم الدنيا بين يدي الله فيقال: هذا الذي عظم ما حقر الله فيسقط لحم وجهه من الخجل. فعليك بالقناعة في الدنيا. فمن حرم القناعة لم يرض إلا الكثير، وليس دون الجنة كثرة، ومن أجل ذلك لا يشبع قلب محب الدنيا، فالدنيا قليلة ، ومن أجل قلتها وقع عليها الازدحام والرغبة فإنها لا تسد للقلوب جوعة فما كان وصفه القلة والزوال فطالبه لا يشبع وهو متعب لا راحة له. **انتهى من الشعراني باختصار وتلفيق**[2].

وفي المناوي: قال الشهاب الرفاعي[3]: القلب إذا تخلى من حب الدنيا وشهواتها صار كالبلّور وأخبر صاحبه بالماضي والآتي من أحوال الخلق.

وقال بعضهم: القلب إذا تخلى صار كالمرءات الكرة المعلقة بين السماء والأرض فيرتسم فيها جميع العلويات والسفليات وامتحن ذلك بوضع مرءات صغيرة فوق منارة علية. فإنك إذا قابلتها بمدينة كاملة تجدها كلها مرتسمة فيها. فاعمل على جلاء قلبك تطرق الأقاليم كلها في ساعة. **انتهى**.

وقال الثوري: ما بسطت الدنيا على أحد إلا اغترارا ولا زويت عن أحد إلا اختيارا.

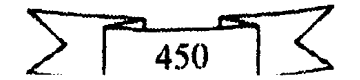
وفي الحديث: «آخر الأنبياء دخولا الجنة: سليمان بن داوود عليه السلام لمكان ملكه. وآخر أصحابي عبد الرحمن بن عوف».

---

(1) هو أبو حازم رضي الله عنه، كان يقول: كل مودة يزيدها اللقاء لمدخولة. ومن كلامه: إذا كنت في زمان يرضي فيه القول دون العمل فأنت في شر ناس وشر زمان. ومن كلامه: أدركت الأمراء والسلاطين يأتون العلماء ويقفون على أبوابهم كالعبيد، واليوم انعكس الأمر. ولمزيد من أخباره انظر طبقات الشعراني: (36/1).

(2) لم أجده في الطبقات ولا في محله من تنبيه المغترين ولعله في بعض كتبه الكثيرة.

(3) تقدمت ترجمته.



وفيه: «إنك يا ابن عوف لن تدخل الجنة إلا زحفا[1]»، **وفي رواية**: «حبوا فأقرض الله عز وجل بقرض يطلق قدميك»، فاهتم عبد الرحمن بن عوف بصدقة ماله كله، فقال جبريل للنبي ﷺ: مر ابن عوف فليضف الضيف، وليطعم المسكين، وليعط السائل، فإذا فعل ذلك كان كفارة لما هو فيه.

وفي الحديث: «اطلعت على النار فوجدت أكثر سكانها الأغنياء، واطلعت على الجنة فوجدت أكثر سكانها الفقراء[2]».

وقال الثعالبي: اعلم أن أصل الوهن والضعف عن الجهاد ومكافحة العدو هو حب الدنيا، وكراهية بذل النفوس لله وبذل مهجها للقتل في سبيل الله. ألا ترى حال الصحابة رضي الله عنهم وقتالهم في صدر الإسلام وكيف فتح الله بهم البلاد ودان لدينهم العباد لما بذلوا لله أنفسهم في الجهاد، وحالنا اليوم كما ترى؛ عدد أهل الإسلام كثير، ونكايتهم في الكفار نزر يسير[3].

ومن خسة الدنيا: أن المشغوف بحب المال والولد لا يزال في تعب فيحتاج في اكتساب الأموال وتحصيلها إلى تعب شديد ومشقة عظيمة. ثم عند حصولها يحتاج إلى مصاعب أشد وأصعب في حفظها وصونها؛ لأن حفظ الأموال بعد حصولها أصعب من اكتسابها، ثم إنه لا ينتفع إلا بالقليل من تلك الأموال فالتعب كثير والنفع قليل.

وقال الفخر: إن الدنيا حلوة خضرة، والحواس الخمس مائلة إليها فإذا كثرت وتوالت استقرت فيها وانصرف الإنسان بكليته إليها فيصير ذلك سببا لحرمانه من ذكر الله تعالى، ثم إنه يحصل في قلبه نوع قسوة وقوة وقهر، وكلما كان المال والجاه أكثر كانت القسوة أقوى. قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾ فظهر أن كثرة المال سبب قوي في زوال حب الله وحب الآخرة من القلب وفي حصول حب الدنيا وشهواتها في القلب

---

(1) أخرجه ابن سعد (131/3) ، وابن عدى (12/3 ، ترجمة 577 خالد بن يزيد بن عبد الرحمن) ، والحاكم (352/3 ، رقم 5358).

(2) أخرجه في الأمالي الشجرية: (418/1) عن ابن عباس.

(3) انظر الجواهر الحسان للثعالبي: (119/2).



فعند الموت كان الإنسان ينتقل من البستان إلى السجن، ومن مجالسة الأقرباء والأحبة إلى موضع الغربة والكربة فيعظم تألمه ويقوى حزنه[1].

وقال: اعلم أن أعقل العقلاء مؤمن مقبل على آخرته، فقد جعل الموت نصب عينيه ولم يغتر بزخارف الدنيا كما اغتر به الحمقاء، ومن جعل همه هما واحدا -هم الميعاد- كفاه الله هم الدنيا. ومن تشعبت به هموم الدنيا لم يبال الله تعالى في أي أوديتها هلك.

وقال الغزالي: ما خلقت لذّات الدنيا إلا لتجلب بها العقول الناقصة وتخدع حتى إذا انخدعت وتقيدت بها. أبت كالمرأة الجميل ظاهرها تتزين للشاب الشبق الغبي حتى إذا تقيد بها قلبه استصعبت واحتجبت عنه فلا يزال معها في عناء دائم وتعب وكل ذلك لاغتراره بلذة النظر إليها في لحظة، ولو غفل وغض البصر واستهان بتلك اللذة سلم جميع عمره . هكذا وقعت أرباب الدنيا في شباك الدنيا وحبائلها[2].

ومثال المغموم بدنياه والغافل عن التزود لأخراه؛ كمثال إنسان جاءه سبع وهو يريد أن يفترسه ووقع عليه ذباب فاشتغل بذب الذباب ودفعه عن التحرز عن السبع، فهذا أحمق ولو كان عاقلا لشغله أمر الأسد وصولته وهجومه عليه عن الفكرة في الذباب. كذلك المتهمم بأمر دنياه عن التزود للآخرة. إذ لو كان عاقلا لشغله التأهب للآخرة التي هو مسئول عنها ولا يشتغل بأمر الرزق فإن الاهتمام به بالنسبة إلى الآخرة نسبة الذباب إلى مفاجأة الأسد وهجومه.

وفي الحديث: «من أشرب قلبه حب الدنيا وركن إليها التاط منها بشغل لا يبلغ غناه، وأمل لا يبلغ منتهاه، وحرص لا يدرك مداه[3]».

وقال عيسى عليه السلام: الدنيا مزرعة لإبليس وأهلها حرّاث له. **وقال:** الدنيا قنطرة تعبر ولا تعمر.

([1]) انظر التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: (75/16).

([2]) انظر إحياء علوم الدين: (126/4).

([3]) أخرجه الطبراني (162/10 رقم 10328)

وقال علي ﷺ: الدنيا كالحية لين مسها قاتل سمها فكن أحذر ما تكون لها، أسر ما تكون بها، فإن من سكن منها إلى إيناس أزاله عنها إيحاش.

وفي الحديث: «من هوان الدنيا على الله أنه لا يعصى الله إلا فيها ولا ينال ما عنده إلا بتركها». **وقيل:** الدنيا تقبل إقبال الطالب، وتدبر إدبار الهارب، وتصل وصال الملول، وتفارق فراق الواله التي فقدت ولدها.

وقال عيسى ﵇: الدنيا يومان؛ يوم فرح ويوم هم، وكلاهما زائل فدعوا ما يزول وأتعبوا أنفسكم في العمل فيما لا يزول.

وقال عيسى ﵇: تعملون للدنيا وأنتم ترزقون فيها بغير عمل ولا تعملون للآخرة وأنتم لا ترزقون فيها إلا بالعمل.

وقيل: أوحى الله إلى الدنيا: من خدمني فاخدميه ومن خدمك فاستخدميه.

وقال صاحب كليلة ودمنة: طالب الدنيا كشارب ماء البحر؛ كلما ازداد شربا ازداد عطشا.

وسمع حكيم رجلا يقول لصاحبه: لا أراك الله مكروها فقال: إنك دعوت عليه بالموت فإن صاحب الدنيا لا بد أن يرى مكروها.

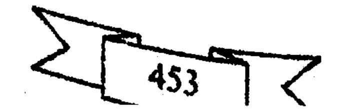
وقيل لعيسي ﵇: ألا تتزوج؟ فقال: إنما التكاثر في دار البقاء. وقيل له: لو اتخذت حمارا؟ فقال: أنا أكرم على الله من أن يجعلني خادم حمار.

وقيل لأبي حازم(1): ما مالُك؟ قال: الرضى عن الله والغنى عن الناس. وقيل له: إنك لمسكين قال: كيف أكون مسكينا ومولاي له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى؟ وقيل: رب مغبوط بمسرة هي داؤه، ومحروم من سقم هو شفاؤه.

وقال رجل يا رسول الله: أنا أكره الموت، قال: «ألك مال؟» قال نعم قال «قدم مالك فإن قلب المرء عند ماله».

---

(1) تقدمت ترجمته.



وقال أبو القاسم اللجائي[1]: ليس غسق الليل على بصر الوجه بأشد سوادا أو ظلمة من سواد حب الدنيا وظلمتها على بصيرة القلب.

وباع عبيد الله[2] **بن عبد الله بن عتبة بن مسعود** دارا بثمانين ألف درهم فقيل له: لو اتخذت لولدك ذخرا من هذا المال؟ فقال: اجعله ذخرا عند الله وأجعل الله ذخرا لولدي وتصدق بها.

وعوتب سهل بن عبد الله المروزي في كثرة الصدقة فقال: من أراد الانتقال من دار إلى دار هل يبقى في الأولى شيئا.

قالت عائشة رضي الله عنها: ذبحنا شاة فتصدقنا بها فقلت يا رسول الله، ما بقي منها إلا كتف، فقال رسول الله ﷺ: «كلها بقيت إلا كتفها» واعلم أن الله تعالى أخرج خلقه من الأرحام إلى الدنيا ثم أعطاهم العقول ودعاهم إليه فشغلتهم الدنيا و لم يسمعوا ذلك سماع حقيقة بل صار سماع قلوبهم لدعوته تعالى شبه سماع النداء وهو تحت ثقل النوم، فلا يتهيأ لإجابة النداء حتى يفوته الوقت الذي يصلح فيه امتثال أمر المنادي ولذلك قيل: الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا.

وقال الثعالبي: اعلم أن المال الزائد على قدر الحاجة قل أن يسلم صاحبه من الآفات إلا من عصمه الله. قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ الآية.

وفي الخبر: «الأكثرون مالا المقلون يوم القيامة إلا من قال بالمال هكذا وهكذا[3]».

وأشار ابن شهاب بين يديه وعن يمينه، وعن شماله، وقليل ما هم.

وفيه: «إن الشيطان قال: لا يخلوا الغنى من إحدى ثلاث: إما أن أزين ماله في عينه فيمنعه من حقه. وإما أن أسهل له سبيله فينفقه في غير حقه. وإما أن أحببه إليه فيأخذه بغير حقه»[4].

([1]) لم أعثر عليه رقم كثرة هذا اللقب.

([2]) تقدمت ترجمته.

([3]) أخرجه البغوي: (249/3).

([4]) أخرجه أحمد (230/4 ، رقم 18053) ، وهناد (323/1 ، رقم 586) ، وابن ماجه (1413/2 ، رقم 4228).

وقال عيسى عليه السلام: في المال ثلاث خصال: يكسبه الإنسان من غير حله وإن كسبه من حله؛ يضعه في غير حقه، وإن وضعه في حقه يشغله عن عبادة ربه[1].

وقال بشر بن مروان[2]: يا أبا حازم ما المخرج مما نحن فيه؟ قال: تنظر فيما عندك فلا تضعه إلا في حقه، وما ليس عندك فلا تأخذه إلا بحقه، قال: ومن يطيق هذا؟ قال: فمن أجل ذلك ملئت جهنم من الجنة والناس أجمعين.

ولما ثقل عبد الملك بن مروان رأى غسالا يلوي ثوبا بيديه فقال: وددت أني كنت غسالا لا أعيش إلا بما أكسبه يوما فيوما؛ **فبلغ ذلك أبا حازم فقال:** الحمد لله الذي جعلهم يتمنون عند الموت ما نحن فيه ولا نتمنى عند الموت ما هم فيه.

وقال أبو حازم: إنما بيني وبين الملوك يوم واحد؛ أما أمس فلا يجدون لذته، وأنا وهم من غد على وجل وإنما هو اليوم فما عسى أن يكون فيه.

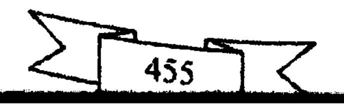
وقال الهيثمي: أكثر القرآن مشتمل على ذم الدنيا، وصرف الخلق عنها، ودعوهم إلى الآخرة، بل هذا هو المقصود بالذات من سائر الشرائع، كيف وهي عدوة الله تعالى لقطعها الطريق الواصلة إليه، ولذلك لم ينظر إليها منذ خلقها. وعدة لأوليائه لأنها تزينت لهم بزينتها حتى تجرعوا مرارة الصبر على مقاطعتها. وعدوة أيضا لأعدائه لأنها استدرجتهم بمكرها واقتنصتهم بشبكتها، حتى وثقوا بها فخدلتهم أحوج ما كانوا إليها. وصح أنه ﷺ دعا لمن آمن به وصدقه بقلة المال والولد، هذا مع دعائه عليه السلام لخادمه أنس بكثرة المال والولد.

وقال الشعراني: كان عامر بن قيس[1] إذا تشوش من إنسان ودعا عليه يقول: اللهم كثر ماله وأصح جسمه وأطل عمره. **ومن دعاء طاووس:** اللهم أحرمني كثرة المال والولد وارزقني الإيمان والعمل.

---

[1] انظر الجواهر الحسان للثعالبي: (249/3).

[2] هو بشر بن مروان بن الحكم بن أبي العاص القرشي الأموي. أمير، كان سمحا جوادا. ولي إمرة العراقين (البصرة والكوفة) لأخيه عبد الملك سنة 74 هـ وهو أول أمير مات بالبصرة. توفي عن نيف وأربعين سنة. انظر خزانة البغدادي: (117/4).



قال الهيثمي: ووجه الجمع بينهما: أن المدعو له في الأول من قلة المال والولد المراد منهما: قلة فتنتهما. وفي الثاني من كثرتهم المرادبه كثرة فوائدهما، وثمراتهما الآخروية. والمال ليس خيرا محضا من كل وجه ولا شرا محضا من كل وجه وإنما هو كالسيف يد القاتل يقتل به معصوما تارة ومهدورا تارة أخرى.. وكحية في يد إنسان، فيعل سم وترياق لكن سمها أكثر وأغلب وأوهى للنفوس وأذهب. **انتهى**[2].

قال:

أَرَى طَالِبَ الدُّنْيَا وَإِنْ طَالَ عُمْرُهُ وَنَالَ مِنَ الدُّنْيَا سُرُورًا وَأَنْعُمَا

كَبَانٍ بَنَى بُنْيَانَهُ فَأَقَامَهُ فَلَمَّا اسْتَوَى مَا قَدْ بَنَاهُ تَهَدَّمَا

ولما كان البطن هو أشد الأعضاء إصلاحا على المجتهد، وأكثرها مؤونة وشغلا وأعظمها ضررا؛ لأنه المنبع والمعدن، ومنه تهيج الأمور في الأعضاء بقوة وضعف، وعفة وجماع، وكان يتعين على العبد صيانته عن الحرام، والشبهة وفضول الحلال، لما فيها من الآفات فبدأ بالحرام لأنه أشد، **وفيه ثلاث مهلكات:**

أشار إلى المهلكة الأولى بقوله: (وَحَرَامِهَا) وهو عند الشافعي ما منع من تعاطيه دليل. **وعند أبي حنيفة** ما لم يرد دليل بحله **(طرد)** لصاحبه عن خدمة الملك الجبار؛ لأن ءاكله مطرود لا يوفق للعبادة إذ لا يصلح لخدمة الله تعالى على وجهها إلا كل طاهر مطهر.

قال الغزالي: وإذا كان الْمُحْدِثُ يمنع من مس كتابه، والجنب يمنع منه ومن دخول بيته مع أنهما أمر مباح، فكيف بمن هو منغمس في قذر الحرام، ونجاسة السحت، والشبهة فإنه لا يدعى لخدمته تعالى، وذكره الشريف.

وقال يحيى بن معاذ الرازي[3]: الطاعة مخزونة في خزائن الله تعالى. ومفتاحها الدعاء

([1]) هو عامر بن قيس بن محمد ين قاسم الشهابي، أمير كانت له ولاية حوران، وفي أيامه استولى أحمد بن طولون على بلاد الشام، وحاول الاستيلاء على حوران فقاتله عامر وظفر عليه وكان شجاعا شاعرا. توفي 280هـ. انظر للزيادة الشرياق (43).

([2]) انظر مبحث ذم الدنيا والزهد فيها من شرح الأربعين للهيثمي: (231).

([3]) هو يحيي بن معاذ الرازي بن جعفر أبو زكرياء. واعظ زاهد لم يكن له نظير في وقته من أهل الري. توفي 258هـ. للزيادة من ترجمته انظر الصوفية: (107).

وأسنانها الحلال فإذا لم يكن للفتاح أسنان فلا ينفتح الباب ولا يوصل إلى الطاعة.

وقال غير الغزالي: صاحب الحرام لا يفعل إلا المحرمات، وصاحب الشبهة مخلط للطاعات بالشبهات، وصاحب فضول الحلال واقع في الغفلات والفترات.

ثم أشار إلى المهلكة الثانية بقوله: (**وَحِرْمَانٌ**) لصاحبه من قبول الطاعة إن فعلها فهو محروم وإن اتفق له فعل خير فهو مردود عليه غير مقبول منه، فليس له إلا العناء والكدُّ وشغل الوقت.

ففي الحديث: «كم من قائم ليس له من قيامه إلا السهر، وكم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والظمأ[1]».

وعن ابن عباس: لا يقبل الله صلاة امرئ وفي جوفه حرام.

وفي الحديث: «الربا اثنان وسبعون بابا أدناها أن يزني الرجل بأمه أو أخته[2]».

وفيه: «لدرهم يصيبه الرجل من الربا أعظم عند الله من سبعين زنية في الإسلام[3]».

وفيه: «قضاء درهم أكله العبد من الربا خمسون صلاة مقبولة عند الله».

ثم أشار إلى المهلكة الثالثة بقوله: (**وَعَذَاب**) بدخول النار قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾.

تنبيه: ذكر الغزالي في المنهاج أن الحرام والشبهة في هذه الآفات سواء. ومن آفات الحرام؛ أنه ربما يورث الختم بالسوء.

قال العلقمي: قيل: إن أكل أموال اليتامى مجرب لسوء الخاتمة أعاذنا الله تعالى منها.

---

(1) أخرجه أحمد 373/2(8843)

(2) أخرجه الطبراني (172/13 ، رقم 411) .

(3) أخرجه الطبراني كما في مجمع الزوائد (117/4)



مبحث الشبهات

ثم أشار إلى آفات الشبهة بقوله: (وَشُبُهَاتِهَا) جمع شبهة، **وهـي:** ما أخذ شبها مـن الحلال والحرام. **وفي جواز الإقدام عليها قولان:** لتوسطها بينهما. فالحلال ما ليس فيه تبعة، والحرام ما فيه تبعة. والشبهة ما في التبعة فيه شك، فقد يكون ذلك من جهة تعلق الطلب به، وقد يكون مما يقع في نفس متناوله من تقذره **لحديث:** «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك[1]» وقيل: الشبهة ما لا يعلم حكمه كثير من الناس لخفائه علـيهم ويعلمـه العلماء بنص أو قياس أو استصحاب ونحو ذلك واختلف في الشبهة وفي جواز الإقـدام عليها قولان: فقيل: إنها الحرام عملا بقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ **وعملا بحديث:** «من اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه[2]» أي طلب البراءة لدينه من ذم الشرع وصان عرضه من كلام الناس. **وقيل:** إنها الحلال عملا **بحديث:** «كالراتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه[3]» وعملا بقوله تعالى: ﴿ خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً﴾.

ومعنى قوله في الحديث: «ومن وقع في الشبهة وقع في الحرام» أي أنه بصدد الوقوع في الحرام لأن من أكثر تصافحها ربما صادف الحرام المحض وإن لم يتعمـده، **(ظُلْمَـةٌ)** في القلب **(وَعِتَابٌ)** في الآخرة وتحرك الأعضاء أيضا للمعاصي كالحرام.

وفي الحديث: «دع ما يريبك إلى ما يريبك[4]».

ولفظ "عتاب" ورد في أثر رواه الزناتي عن علي ﷺ قال: "حلال الـدنيا حسـاب، وحرامها عذاب وشبهاتها عتاب". **ولكن الغزالي** ألحق الشبهة بالحرام في جميع آفاته كما مر.

والأصل في ترك الشبهات ما أخرجه أهل الصحيحين عن النعمان بن بشـير ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «الحلال بين والحرام بين، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كـثير

([1]) أخرجه أحمد (153/3 ، رقم 12572)

(2) البخارى (28/1 ، رقم 52) ، ومسلم (1219/3 ، رقم 1599) من حديث: "الحلال بين والحرام بين"... عن النعمان بن بشير.

([3]) أخرجه ابن حبان (380/12 ، رقم 5569) ، والطبرانى كما فى مجمع الزوائد (293/10)

([4]) أخرجه أحمد (153/3 ، رقم 12572

من الناس، **فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في** الحرام **كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن** حمى الله في أرضه محارمه[1]»... **الحديث.**

والشبهة: ما تخيل للناظر أنه حجة وليس كذلك، وكل ما ترتاب فيه فهو شبهة. **قاله في شرح شهية السماع**[2].

وقال الزناتي[3]: **الشبهة:** ما أخذت شبها من كل من الحلال والحرام ويعتبر ذلك بالحال وبالمقال، ومثل الحال ما يأخذه من يد صالح حلالي أو من يد طالح حرامي أو من يد متوسط بينهما؛ **فالأول:** حلال. **والثاني:** حرام. **والثالث:** شبهة.

ومثال المقال: بالنظر إلى العالم المجتهد، تقوم معه أدلة فيعجز عن ترجيح بعضها فيتخير منها ففتواه بذلك شبهة. ومثاله بالنظر إلى العامي المقلد في مسائل الخلاف: كل مسألة وقع فيها الخلاف بين العلماء المشهورين شبهة. فإن الأقوال إذا تقابلت بالجواز والمنع فالمسألة بالنظر إلى الجواز حلال وبالنظر إلى المنع حرام. ويقع الترجيح بكثرة العدد، أو بالاعلمية فمن الناس من يسكن إلى الأول، ومنهم من يسكن إلى الثاني. فهذا هو الجاري على سنن الأصول.

وأما الاعتماد على إمام واحد مطلقا في جميع المسائل كما جرت به العادة اليوم في الامتناع عن الخروج عن مذهب مالك عند مقلديه؛ فليس بمخلص للورع، فلا بد من السؤال في كل قضية تعرض -وإن كان في الوقت من هو أهل للسؤال- فإن عدم فربما يقبل عذره في البقاء على معتقده في مقلده إن شاء الله تعالى. انتهى.

وقال الفضيل بن عياض: إياكم أن تسافروا إلى مكة بشيء من الشبهات فإن رد دانق من شبهة أفضل عند الله من خمسمائة حجة فيها شبهة.

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) انظر شرح شهية السماع: (28) مخطوط بالزاوية.

(3) تقدمت ترجمته.

قال الهيثمي: هي كل ما ليس بواضح الحل والحرمة، مما تنازعته الأدلة وتجاذبته المعاني والأسباب. فبعضها يعضده دليل الحلال. وبعضها يعضده دليل الحرام. **ومن ثم فسر أحمد وإسحاق وغيرهما الشبهة:** بما اختلف فيه، **وفسرها أحمد مرة:** باختلاط الحلال والحرام[1].

قال ابن حجر العسقلاني: وَحَاصِل مَا فَسَّرَ بِهِ الْعُلَمَاء الشُّبُهَات أَرْبَعَة أَشْيَاء : **أَحَدهَا:** تَعَارُض الْأَدِلَّة كَمَا تَقَدَّمَ. **ثَانِيهَا:** اِخْتِلَاف الْعُلَمَاء وَهِيَ مُنْتَزَعَة مِنْ الْأُولَى. **ثَالِثهَا:** أَنَّ الْمُرَاد بِهَا مُسَمَّى الْمَكْرُوه لِأَنَّهُ يَجْتَذِبهُ جَانِبَا الْفِعْل وَالتَّرْك. **رَابِعهَا:** أَنَّ الْمُرَاد بِهَا الْمُبَاح ، وَلَا يُمْكِن قَائِل هَذَا أَنْ يَحْمِلهُ عَلَى مُتَسَاوِي الطَّرَفَيْنِ مِنْ كُلّ وَجْه ، بَلْ يُمْكِن حَمْله عَلَى مَا يَكُون مِنْ قِسْم خِلَاف الْأَوْلَى ، بِأَنْ يَكُون مُتَسَاوِي الطَّرَفَيْنِ بِاعْتِبَارِ ذَاته ، رَاجِح الْفِعْل أَوْ التَّرْك بِاعْتِبَارِ أَمْر خَارِج[2] .

ثم أشار إلى المباح. وأحواله في الجملة ثلاثة: أشار لأولها بقوله: (**وَإِمْسَاكُ حَلاَلِهَا تَفَاخُرًا وَتَكَاثُرًا**) حبس و(**حِسَابٌ**) ولوم وتعيير لصاحبه، استوجب ذلك على ظاهر فعله (**وَعِقَابٌ**) أي عذاب في النار لصاحبه استوجبه على باطن فعله، وهو قصد التكاثر والتفاخر، وذلك القصد معصية وذنب لقوله تعالى:﴿ نَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ **وفي الحديث:** «من طلب الدنيا حلالا مباحا، مكاثرا مفاخرا مرائيا لقي الله تعالى وهو عليه غضبان[3]» فالوعيد على قصده ذلك بقلبه. **ولثانيها بقوله:** (**وَ**) أخذها واستعمالها (**شَهْوَة**) وهي انبعاث النفس لطلب الملائم طبعا. **والفرق بينها وبين الهوى:** أنه يختص بالإرادات والاعتقادات

([1]) انظر شرح ابن حجر الهيثمي على الأربعين النووية: (112).

([2]) انظر فتح الباري لابن حجر العسقلاني: (82/1).

([3]) أخرجه أبو نعيم في الحلية (110/3) . وأخرجه أيضًا : إسحاق بن راهويه (353/1 ، رقم 352)

والشهوة تختص بالمحبوبات والمستلذات فهي أخص والهوى أعم. **قاله ابــن ليــون**[1].

(حُبْسٌ) لصاحبه عن الجنة مدة الحساب عريانا عطشانا، وذلك في عرصات القيامة، بين أهوالها ومخاوفها (وَحِسَابٌ) وهو أن يسأل يوم القيامة عن ماذا اكتسبت وفيم أنفقتَ؟ وما أردت بذلك. قال تعالى: ﴿ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾.

وفي الحديث: «حلالها حساب[2]» وإنما لم يعذب كالأول؛ لأن الأكل بالشهوة لــيس بمعصية، وإنما عليه الحبس والحساب واللوم والتعيير لتركه الأدب كما يأتي.

وقال الغزالي: فضول الحلال آفة العبادة وبلية أهل الاجتهاد، **وفيها عشر آفات:**

الأولى: قسوة القلب وذهاب نوره، وانطفاء النور الحاصل من التوحيد. **وفي الحــديث**: «لا تميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب فإن القلب يموت كــالزرع إذا كثــر عليــه الماء[3]».

الثانية: فتنة الأعضاء وانبعاثها للفضول والفساد لأن الرجل إذا شبع بطر واشتهت عينه النظر إلى ما لا يعنيه، والأذن الاستماع إليه واللسان للتكلم، والفرج الشهوة وإن جاع سكنت الأعضاء و لم تنشط. **وقال الأستاذ أبو جعفر**[4]: البطن عضو إن جاع هو شبع سائر الأعضاء وإن شبع جاعت.

الثالثة: قلة الفهم والعلم؛ فإن البطنة تذهب الفطنة.

الرابعة: قلة العبادة لثقل الأعضاء وكثرة النوم، وفي النوم الغفلة وإضاعة مصالح الدارين. ولقد قيل: إذا كنت بطينا، فعد نفسك زمينا.

([1]) هو سعد بن أحمد بن ليون التجيبي أبو عثمان من علماء الأندلس وأدبائها المقدمين له أكثر من مائة مصنف منها كتاب كمال الحافظ في المواعظ وأنداء الديم في الحكم. توفي 750هـ. انظر للزيادة نفح الطيب: (289/3).

([2]) هذا جزء من حديث: "يا ابن آدم ما تصنع بالدنيا حلالها حساب وحرامها عذاب". أخرجه الديلمى (283/5 ، رقم 8192) .

([3]) ذكره الغزالي في الإحياء واستنكره العراقي: (45/1).

([4]) لعله أبو جعفر الكاتب وهو أحمد بن يوسف بن إبراهيم البغدادي، باحث من وجوه الكتاب الفصحاء، كانت له معرفة بالأدب والتاريخ والطب والفلك والحساب وله شعر حسن، اشتهر بمصر وولي أعمالا ديوانية في العهد الطولوني وله مؤلفات عديدة في مختلف المواضيع توفي 240هـ انظر معجم الأدباء: (157/2).



الخامسة: فقد حلاوة العبادة. **قال أبو بكر ﷺ:** ما شبعت منذ أسلمت لأجد حلاوة عبادة ربي وما رويت منذ أسلمت اشتياقا إلى لقاء ربي. **وقال الدارمي**[1]: أحلى ما تكون العبادة إذا التصق ظهري ببطني.

السادسة: خطر الوقوع في الحرام والشبهة لأن الحلال قل أن يأتي إلا قوتا. **وقال ذو النون:** ما شبعت قط إلا عصيت أو هممت بالمعصية.

السابعة: كثرة شغل القلب والبدن بتحصيله أولا ثم بتهيئته ثانيا. ثم بأكله ثالثا، ثم بإفراغه وتخليص البطن منه رابعا، ثم بالسلامة من آفاته وعلله الدينية والدنيوية خامسا. وكل واحد من هذه يطلب زمنا طويلا ومعاناة وتعلقا بالدنيا وأهلها وطمعا وهلعا ونحو ذلك من المفاسد، ويفوت بذلك من العبادات وخيرات الآخرة ما لا يمكن أن يعد ويحصى.

الثامنة: شدة سكرات الموت، **وروي في الأخبار:** أن شدة سكرات الموت على قدر لذات الحياة.

التاسعة: نقصان الثواب فإنه بقدر ما يأخذ من لذات الدنيا ينتقص من ثواب الآخرة. **وروي أن عمر ﷺ** عطش يوما، فأتاه رجل بماء نبذ فيه تمرات فلما وجده باردا حلوا أمسك عنه، فقال: أوه. فقال الرجل: والله ما ءالوكه حلاوة يا أمير المؤمنين، فقال عمر: ذلك الذي منعني ويحك لولا الآخرة لشاركنا كم عيشتكم.

العاشرة: الحبس وطول المواقف في عظائم تلك الأهوال والحساب واللوم والتعيير في ترك الأدب في أخذ الفضول وطلب الشهوات فإن الدنيا حلالها حساب،وحرامها عقاب وزينتها إلى تباب. **وفي الحديث:** «يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم وهو خمسمائة عام[2]».

---

(1) تقدمت ترجمته.

(2) أخرجه ابن حجر في فتح الباري: (6468).

تتمة: وإنما استحق اللوم والتعيير مع أن الحلال أحله الله لنا؛ لترك الأدب كمن جلس على مائدة الملك فترك الأدب فإنه يعير بذلك ويلام -وإن كان الطعام له مباحا- والأصل في هذا أن الله تعالى خلق العبد لعبادته فحق له أن يجعل أفعاله كلها عبادة ما أمكن فإن لم يفعل وآثر شهوته على عبادته ربه مع تمكنه من ذلك والدار دار خدمة وعبادة لا دار تنعم وشهوة استحق بذلك اللوم والتعيير من سيده.

فائدتان

الأولى: ورد: أن فضلة الضيف لا يحاسب عليها. **وكان بعض السلف** إذا جاءهم ضيف يقدمون له في وقت واحد ما يقوم بنفقته شهرا ونحوه، فيقال له في ذلك، فيقول: قد ورد أن فضلة الضيف لا حساب فيها على المرء، فكان لا يأكل إلا فضلة الضيف لأجل ذلك. وكذا في أوقات التوسعة على العيال كيوم عاشورا ء ويوم العيد إن لم يقصد التفاخر والتكاثر. بل تطييب خاطر الضيف والعيال وقضاء وطرهم مما يشتهونه.

وكان **عبد الله** بن المبارك[1] إذا اشتهى شيئا لا يأكله إلا مع ضيفه، ويقول بلغنا أن طعام الضيف لا حساب فيه.

وذكر القسطلاني أيضا أنه ورد: أن لا حساب في الفطور والسحور وما أكل مع الإخوان. **ونصه في حديث أبي هريرة**: «ثلاثة لا يحاسب عليها العبد: أكلة السحور، ومما أفطر عليه، وما أكل مع الإخوان[2]». **ونظمها الأجهوري[3] فقال**:

قَدْ جَاءَ لاَ حِسَابَ فِي أَكْلِ الْفُطُورْ لِصَائِمٍ كَذَاكَ أَكْلٌ فِي السُّحُورْ
أَوْ مَعَ الإخْوَانِ وَفَضْلِ الضَّيْفِ قَدْ صَرَّحَ بَعْضٌ أَنَّهُ كَذَا وَرَدْ

وقال حسان بن عطية[4]: من قال عند طعامه: "اللهم اجعله لي رزقا طيبا لا تباعة فيه ولا حساب" فقد أدى شكره. **قاله الثعالبي**.

وعن بعض من أثق به عن بعض الفضلاء أن من قال بعد الطعام: "الحمد لله الذي أطعمنا وأروانا وأنعم علينا وأفضل اللهم ارحم أمة محمد، اللهم انصر أمة محمد، اللهم

---

(1) تقدمت ترجمته.

(2) ذكره الغزالي واستنكره العراقي: (144/1).

(3) هو أبو الإرشاد نور الدين علي بن محمد زين العابدين عبد الرحمن الأجهوري شيخ المالكية في عصره في مصر، أخذ عن أعلام منهم البنوفري والقرافي وأبو النجاة السنهوري والكرخي، وأخذ عنه جماعة كالشمس البابلي وعيسى الثعالبي وأبي سالم العياشي والخرشي والزرقاني والشبرخيتي، من مؤلفاته: شرح لرسالة ابن أبي زيد القيرواني- شرح لألفية العراقي في السيرة- تأليف على مختصر ابن أبي جمرة- شرح لألفية ابن مالك- ثلاثة شروح لمختصر خليل. توفي سنة: 1066 هـ.(شجرة النور الزكية: 303، كفاية المحتاج ج1 282).

(4) هو حسان بن عطية المحاربي مولاهم أبو بكر الدمشقي، ثقة فقيه عابد توفي بعد 120هـ. تقريب التهذيب: (98).

صلى وسلم على سيدنا محمد" فإنه لا يحسب عليه إن شاء الله تعالى.

وقيل: أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: أتحب أن لا أحاسبك غدا بما أنعمت عليك في دار الدنيا؟ قال موسى: نعم. قال الله تعالى قل كل يوم عشر مرات: الحمد لله قبل كل أحد، والحمد لله بعد كل أحد، والحمد لله على كل حال.

وفي نهاية التبيان في تفسير القرآن: قال إبراهيم: من أكل فسمى وفرغ فحمد الله لم يسأل عن نعيم ذلك الطعام. فمن عطف همته على استيفاء اللذات، ولم يعش إلا ليأكل الطيب، ويلبس اللين، ويقطع أوقاته في اللهو واللعب، ولا يعبأ بالعلم والعمل؛ فإنه يسأل. وأما من تمتع بنعم الله تعالى وأرزاقه التي لم يخلقها إلا لعباده، ويتقوى بها على الدين والعمل، وكان ناهضا بالشكر فهو من ذلك بمعزل.

الثانية: قال سيدي زروق في شرح الرسالة: الحلال ما انحلت عنه التباعات فلم يتعلق به حق لله تعالى ولا حق لغيره، وهل هو ما جهل أصله أو ما علم أصله وأصل أصله **أقوالٌ** أرجحها **الأول**؛ لأنه الأشبه **بحديث:** «دين الله يسر[1]» وعليها؛ لو رأينا نباتا لا ندرك أمضر هو أملا؟ أو حيوان لا يعرفه الناس، فعلى **الأول:** هو حلال **كما عند الشافعي** لسكوت الشارع عن تحريمه. وعلى **الأخيرين:** حرام **كما عند أبي حنيفة** لعدم ورود نص بحله.

قال بعضهم: خلق الله المال حلالا كما خلق الماء طهورا، فكما لا ينجسُ الماء إلا ما غيره، كذلك لا يحرم المال إلا ما غيره. إلا أن الشارع لما رأى حرص النفوس على التحفظ في الطهارة تساهل فيها. ولما رأى تساهلها في الأموال تحفظ فيها، فاستعمل الورع في هذه دون تلك.

قال البلاّلي[2]: الحلال مثل ماء المطر أخذ قبل وقوعه، والحرام كربي وخمر ونحوهما.

---

(1) أخرجه أحمد (5/69 ، رقم 20688) ، وابن سعد (7/68) بلفظ: أيها الناس دين الله يسر".

(2) محمد بن علي بن جعفر، شمس الدين أبو عبد الله العجلوني ثم القاهري المعروف بالبلالي فقيه شافعي من أهل بلالة (من أعمال عجلون)، تميز بالتصوف ولازم النظر في كتاب (الاحياء) للغزالي، وصنف (مختصرا - خ) له، في التيمورية، و (السول في شئ من

والشبهة تعارض احتمالين وأماراتها كثيرة كشكه في سبب حله وتحريمه، ثم ذكر شبهة الاختلاط، وأن أموال زماننا من اختلاط غير محصور، بغير محصور، فلا يحرم التناول. **قال:** ويحرم بقرينة كأموال الظلمة وفيه نظر. **قال:** وما جهل من هدية ومبيع وغيرهما فرخصة، ويحرم بحثه عنه لإيذاء مالكه، ويؤيده دليل ملكه، ويجب بحثه عما غلب عليه الحرام. **قال:** ولو اشتبه بما له حرام رد مثله، ومن غيره أولى. وتركه أعلى. **ثم قال:** ومن بأحد ماليه شبهة فما تيقن حله؛ فلقوته وكسوته والشبهة لمنافع منفصلة، وإن اختلط اشترى على ذمته ونقد ما اشتبه ثمنا. **قال:** وشك بلا علامة وسوسةٌ.

ثم قال زروق: والجزم بالتحريم في الشبهة عظيم. **وقد كان مالك وأمثاله** يتورعون من إطلاق الحلال والحرام في الفروع لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ **كذا روي عنه وفيه نظر** لمربط الآية بقوله الكريم: ﴿لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ **انتهى**[1].

فيجب على الإنسان التحري في طلب معاشه، والاجتهاد غاية جهده في حفظ الخلاف ليعمل به؛ إذ لا يستوي من أكل شيئا فيه الخلاف مع من أكل مالا خلاف في تحريمه. فإن كان الطعام في السوق فشراء الخبز أخف وأحسن من شراء الدقيق، وشراء الدقيق أحسن من شراء الزرع؛ لأن ذلك يدخل فيه الطعام في ضمان البائع كأنه أدى ثمنه لصاحبه ثم باعه. وشراء الزرع المجلوب من بعد أفضل من الذي جلب من بلد قريب فكل ما بعد من ذلك حيث يقوى الخلاف في أن ذلك فوت ولا يكون لأهل تبعات البائع لذلك إلا القيمة كان أحسن مما إذا كان قريبا حيث يضعف الخلاف في أنهم ليس لهم أخذ ذلك، وفي وجوب السؤال عن صفة أصل حله قولان:

أحاديث الرسول) ولم يكمله، وعمل (مختصرا) في فروع الفقه. واستقدمه نائب السلطنة إلى مصر في حدود سنة 790 فتولى مشيخة (سعيد السعداء) ومن تصانيفه (جنة المعارف - خ) في شستربتي (الرقم 4455). توفي بمصر. انظر الشذرات: (147/7).

(1) انظر شرح زروق على الرسالة: (348/2).

الفاكهاني[1]: **لا ينبغي اليوم أن يسأل عن أصل شيء فإن الأصول قد فسدت واستحكم فسادها، بل أخذ الشيء على ظاهر الشرع أولى له من أن يسأل عن أصل شيء فيتعين له تحريمه ثم يحتاج إليه فيأخذه مع علمه بتحريمه، أو شبهته وهذا هو الأرفق بالناس لا قول من قال: الحلال ما عرف أصله والذي عندي في هذا الزمان أن من أخذ قدر الضرورة لنفسه وعياله من غير سرف ولا زيادة على ما يحتاج إليه لم يأكل حراما ولا شبهة.**

وقال القاسم بن محمد[2]: لو كانت الدنيا حراما لما كان لك بد من العيش.

سئل بشرٌ الحافي: من أين طعامك؟ قال: آكل مما تأكلون، ولكن ليس من يأكل ويبكي كمن يأكل ويضحك وليس من يده قصيرة كمن يده طويلة، وليس من يصغر اللقمة كمن يكبرها يعني الأكل من ورع، ثم إن اجتهد في طلب الحلال ولم يجد إلا الحرام المحض فإنه يقتصر على قوته منه، ولا يوسع، ولا حرج عليه لأنه ضرورة كما أبيحت له الميتة.

وفي الحديث: «لو كانت الدنيا كلها مضغة دم لكان قوت المؤمن منها حلالا».

ومن الحلال: أكل الفواكه والثمار ولبن الغنم بجملتها لمن احتاج إليها وإن لم يأذن ربها. وفي جواز ذلك لغير المحتاج وعدمه. ثالثها: يجوز في اللبن دون الفواكه والثمار.

وأصول الحلال: صيد البر وصيد البحر، وتجارة صدق، وإجارة نصح ومغنم قسم بعدل، وإرثٌ عن قريب، وماء من غدير، ونبات أرض غير مملوكة، وهدية من أخ صالح، وسؤال عن حاجة.

---

[1] هو عمر بن علي بن سالم بن صدقة اللخمي الاسكندري تاج الدين، عالم بالنحو، سمع منه ابن كثير صاحب البداية والنهاية. له كتب منها: الإشارة في النحو، والمنهج المبين، والتحرير والتحبير في شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، وله شرح عمدة الأحكام، والفجر المنير في الصلاة على البشير النذير. توفي: 734هـ. انظر الدرر الكامنة: (178/3).

[2] هو القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق أبو محمد أحد الفقهاء السبعة في المدينة. ولد فيها وتوفي بقديد (بين مكة والمدينة) حاجا ومعتمرا، وكان صالحا ثقة من سادات التابعين. قال ابن عيينة: كان القاسم أفضل أهل زمانه. توفي 167هـ. انظر الوفيات: (418/1).

قال الجزولي: الغالب في مغربنا هذا الحرام إذ يكرون الأرض بما تنبته، ولا يؤدون الزكاة فزروعهم حرام.

والغالب في بلاد المصامدة الحلال؛ إذ لا يأكلون ميراث الإناث ويزكون كذلك، وشراؤهم صحيح فحيثما دنوت إلى المغرب يكثر الحرام.

ومن الحرام: ما يعطى لمن يظن به الدين وليس كذلك وهو الأكل بالدين. وشرط حله: ألا يكون في باطنك ما لو اطلع عليه المعطي لامتنع من العطاء.

ولا فرق بين ما يأخذه بالتصوف والتقوى ولم يتصف به باطنا، وبين من يدعي الشرف كاذبا فذلك حرام. ولو أفتى الفقيه بالحل بناء على الظاهر. وكذلك -على هذا- من تصدر في الإمامة والشهادة وهو يعلم الجرحة في نفسه أو تصدر للفتيا والقضاء وهو لم يتقنهما بشرائطهما على هذا القياس والله أعلم. ولم يكتب الكاتب هذا بناء على تبرئته، بل لتقوم حجة الله، ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ عنده في التستر به عن الناس. اللهم يسر علينا أحسن المخارج. **انتهى من شرح ميارة على ابن عاشر. بخ.** أو يعطى له إعانة على طلب العلم ولم يكن يطلبه. وتكره الإجارة على تعليم العلم وحفر القبور وغسل الموتى.

وقال الغزالي: الامتناع عن الحرام المحض واجب، وعن الشبهة تقوى وورع، واختلف في قبول صلاة متناوليها. واختلف في قبول صلاة السلاطين: **قيل:** يجوز للغني والفقير أخذها، إلا أن يتحقق حراميتها. وإنما تبعتها على المعطي. قالوا لأن النبي ﷺ قبل هدية المقوقس ملك الأسكندرية، واستقرض من اليهودي مع قول الله تعالى: ﴿أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾.

وقد أدرك بعض الصحابة كأبي هريرة وابن عباس وابن عمر[1] وغيرهم أيام الظلمة وأخذوا منهم. **وقيل:** لا يجوز لهما إلا أن تتحقق الحلية. **وقيل:** يجوز للفقير فقط لأنها إن كانت فيئا فله فيه حق وكذلك لأهل العلم فيه حق.

---

(1) تقدمت ترجمتهم.

قال علي ﷺ: من دخل الإسلام طائعا وقرا القرآن طاهرا فله في بيت مال المسلمين في كل سنة مائة درهم. وروي: دينار. وإن لم يأخذها في الدنيا أخذها في الآخــرة. وإذا كان كذلك فالفقير العالم يأخذ بوصفيه.

ثم إن كان الْمُهْدِي ظاهر الصلاح فلا يلزم البحث عن صلته بل ذلك سوء ظن بالمسلم، وكان بعضهم يأخذ التطوع ولا يأخذ الزكاة لعدم التحقق بشرطها. وبعضهم بالعكس لأن الزكاة مال الله وكلهم على هدى. ومن لا يتناول ما بأيدي الناس إلا عند الضرورة بمقدار ما يبلغه إلى الطاعة كان له عذر في ذلك ولا يضره أن كان في أصله شبهة، فــإن الله تعالى أولى بالعذر.

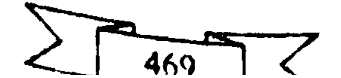
وعن وهيب بن الورد[1]: أنه يجوع نفسه يوما ويومين وثلاثة ثم يأخذ رغيفا ويقــول: اللهم إنك تعلم أني لا أقوى على العبادة إلا به وأخشى الضعف إن لم آكله اللــهم إن كان فيه شيء من خبث أو حرام فلا تواخذني به ثم يبل الرغيف ويأكله.

ثم إن حكم الشرع وظاهره أن تأخذ ما لا تتيقن أنه حرام. ولكن حكم الــورع أن لا تاخذ إلا ما بحثت عنه غاية البحث حتى تتيقن أنه لا شبهة فيه بحال. فالورع مبني علــى التشدد والاحتياط، **كما قيل**: الأمر على المتقي أضيق من عقد التسعين وبقدر ما تعــنى تنال ما تمنى.

وروي: أن غلاما أتى الصديق ﷺ بلبن فشربه، ثم أخبره أن قوما رقاهم برقى الجاهلية أعطوه هذا اللبن فتقايأ منه أبو بكر الصديق ﷺ **وقال**: اللهم إن هذه مقدرتي فما بقي في العروق فأنت حسبه ولأجل قلة الحلال وضيقه كرهوا التوسع على النفس والعيال خوف الوقوع في الحرام والشبهة، **وقد قالوا في حديث**: «إن الله ليحب أن يرى أثر نعمه على عبده[2]» إن التعبير "بأثر" إشارة إلى القلة في المأكل والمشرب والملبس وغيرها.

([1]) وهيب بن الورد بن أبي الورد المخزومي، بالولاء، أبو امية: من العباد الحكماء. من أهل مكة. ووفاته بها. كان من أقران إبراهيم بن أدهم. وكان سفيان الثوري إذا حدث الناس في المسجد الحرام وفرغ قال: قوموا إلى الطبيب ا يعني وهيبا. له أخبار وكلمات مأثورة. وكان اسمه " عبد الوهاب " فصغر فقيل " وهيب ". انظر حلية الاولياء: (140/8).

([2]) أخرجه ابن سعد (291/4) ، والطبراني (135/18 ، رقم 281)



وقال سيدي علي الخواص: لبس الثوب بالعشرة دارهم كاف في إظهار النعم المأمور بها.

وقال: لا ينبغي للموسر لبس الأصواف الرفيعة، ولا الجوخ البندقي ولا الشاش العندهاوي ولا الظهر الأسكندراني ولا أن يأكل في أواني الصيني ولا أن يطبخ في بيته كل ليلة اللحم الضأني والدجاج والحلواء لكثرة المحاويج، ولأن القوت اليوم لا يوجد إلا بمعاينة أسباب الموت، كما يعرف ذلك أرباب الحرف من السوقة والفلاحين، ولخوف الاستهانة بالنعم وجهل مقدارها لأن من جاع وعطش يتلقى الطعام والشراب بكل شعرة فيه، فأعدل الأمور أن تكون نفقته على عياله على وجه الكرِّ والفرِّ فكلما خاف سخطهم على ربهم وسع عليهم حتى يشكروا، وإن خاف تهاونهم بالنعمة فترها عليهم ليتلقوها بالتعظيم. ولئلا يتسبب في تحويل النعم عنهم بكثرة إطعامهم الشهوات ولأن الإسراف في المال إسراف في الدين والعرض، وعن قريب يصير يسأل الناس فلا يعطونه.

وقال سيدي زروق: تكليف ما ليس في الوسع جائز عقلا، وقد أمر تعالى كل مؤمن بطلب الحلال فوجده ممكنا للكل في كل عصر وقطر، لوجود أصوله عموما، ولأن الأرض لا تخلوا من ولي وصالح وهو قوتهم، ولا يكلفنا الله بما في علمه إلا بعلامة صحيحة، وإنما يكلفنا بما نعلم من حيث نعلم فمن لم يعمل بيده حراما ولا يغلب على ظنه دخوله في ماله بعلامة صحيحة فلا وجه لاعتقاد الحرام ولا الشبهة فيه. بل قد قيل: المال كالماء خلق الله هذا حلالا كما خلق الماء طهورا لا ينجسه إلا ما غيره وهذا لا يحرمه إلا ما غيره، ولذا أجمعوا على وجوده **كما ذكره السهروردي**[1].

وقال الشعراني: كان السلف يقدمون كسب الدرهم الحلال على سائر مهماتهم؛ لأن الأعمال الأخروية الخالصة لا تقع على يد من أكل حراما أو شبهة.

([1]) انظر قواعد التصوف: (القاعدة 90). حرفا بحرف.. **والسهروردي** هو عبدالقاهر بن عبد الله بن محمد البكري الصديقي، أبو النجيب السهروردي: فقيه شافعي واعظ، من أئمة المتصوفين. ولد بسهرورد. وسكن بغداد. فبنيت له فيها رباطات للصوفية من أصحابه، وولي المدرسة النظامية. وتوفي ببغداد. له " آداب المريدين – خ " و " شرح الاسماء الحسنى – خ " و " غريب المصابيح – خ ". انظر الوفيات: (299/1).

وقال يونس بن عبيد[1]: ما ثم اليوم أقل من درهم طيب ولو وجدناه لاستشفينا به لمرضانا.

وكان إبراهيم بن أدهم[2] يرى الحضور مع الله في عمل الحرفة شرطا للحلال وكل شيء عمله بلا حضور لا يأخذ له أجرة. وقال: رأيت عابدا يقوم إلى الصلاة بثقل فنظرت فإذا ذلك الثقل من عدم صفاء مأكله ولو أنه أكل حلالا لخفت عليه العبادة.

وسئل سفيان الثوري[3] عن فضل الصف الأول فقال: انظر رغيفك من أين هو؟ فكله وصل في الصف الأخير ولا حرج عليك. وكان إذا ذهب به إلى وليمة أخذ معه رغيفا فإذا قال له صاحب الطعام إنما دعوتك لتأكل من طعامي قال له سفيان: إنك تدري خبزك من أين هو وأنا أدري خبزي من أين هو؟ فكل واحد يأكل مما يدري.

قال ابن عبدوس[4]: قوام الدين طيب الطعام، فمن طاب مكسبه زكا عمله وزاد أجره.

وفي الحديث: «المؤمن الذي إذا أصبح سأل من أين قرصاه وإذا أمسى سأل من أين قرصاه». **قالت عائشة**: ولو علم الناس لتكلفوه. أي علم الناس أن المؤمن من كان حاله هكذا لاجتهدوا فيه بالتعب قال ﷺ «قد علموا ولكنهم غشموا المعيشة غشما.

وقال ﷺ لسعد بن أبي وقاص[5]: «طيب لقمتك إن أردت أن يجيب الله دعاءك» وقد سأله أن يجعل الله دعوته مستجابة. وقال سعد ففعلت ذلك فوجدته كما قال.

وفي الحديث: «العبادة عشرة أجزاء تسعة منها في طلب الحلال[6]». **وفيه**: «طلبك الحلال جهاد[1]». **وفيه**: «من بات وانيا في طلب الحلال بات مغفورا له، وأصبح والله

([1]) تقدمت ترجمته.

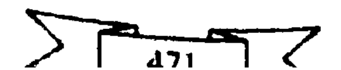
([2]) تقدمت ترجمته.

([3]) تقدمت ترجمته.

([4]) علم على عدة رجال ولعله: محمد بن إبراهيم بن عبد الله ابن عبدوس، فقيه زاهد من أكابر التابعين من أهل القيروان له مجموعة في الفقه والحديث. توفي 260هـ. انظر للزيادة والتكميل معالم الايمان: (90/2).

([5]) تقدمت ترجمته.

([6]) رواه الديلمي من حديث أنس. انظر الإحياء: (90/2).



راض عنه[2]». وفيه: «من أوقف نفسه موقف الذل في طلب الحلال تساقطت عنه ذنوبه كما يسقط الورق عن الشجر[3]». وفيه: «من أكل الحلال أطاع الله أحب أم كره». وفيه: «من أكل الحلال أربعين يوما نور الله قلبه وأظهر الحكمة على لسانه[4]».

(وَ) أخذه (احْتِيَاجًا) بأن يتشوش حاله إن لم يأخذ ذلك المباح ينقطع بسببه عن فرض أو سنة أو نفل يكون ذلك أفضل من ترك المباح فإن ترك المباح فضيلة فهذا حال العذر.

(وَعَوْنًا) أي وأخذه لقصد العون والعدة (عَلَى الطَّاعَةِ) وهو أن يذكر بقلبه أنه لولا ما فيه من التوصل إلى الطاعة لما أخذ ذلك، فهذا ذكر الحجة.

ويشترط في كون أخذ الحلال خيرا وحسنة هذان الشرطان وهما: ذكر الحجة في حال العذر. أما لو كان حاله حال العذر ولا يكون له هذا القصد والذكر. أو يكون له هذا الذكر ولا يكون في حال العذر فلا يصير ذلك من جملة الخيرات. ثم الاستقامة على حفظ هذا الأدب تحتاج إلى بصيرة وقصد مجمل؛ فإنه لا يأخذ من الدنيا بحال إلا للعدة على الطاعة حتى أنه إن سها عن ذكر الحجة في حال أجزأه ذلك القصد المجمل عن تجديد ذكر الحجة. **قال شيخنا:** فصارت الأمور الثلاثة معتبرة فيه كل واحد من وجه؛ يعني أن الذكر والحال معتبران في حصول كونه خيرا أصلا، والقصد المجمل المقتضي عن بصيرة المترل مترلة الأدب، معتبر في الاستقامة عليه. فافهم ذلك راشدا!. **قاله في المنهاج**[5].

(وَ) أخذه (تَعَطُّفًا عَلَى النَّاسِ) ولاسيما على عياله وعلى جاره (وَتَعَفُّفًا عَنْ) مَسْأَلَتِـ(ـهِمْ) **وفي الحديث:** «من سأل وله قيمة أوقية فقد ألحف[6]». **وفيه:** «المسالة كلها

([1]) أخرجه القضاعى (83/1 ، رقم 82) . وأخرجه أيضًا : الديلمى (442/2 ، رقم 3919) .

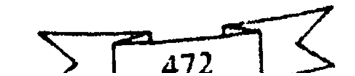
([2]) أخرجه الطبران (267/20 ، رقم 631) ، وابن عساكر (10/14) . وأخرجه أيضًا : أحمد (131/4 ، رقم 17220) .

([3]) أخرجه في الأحياء: (91/2).

([4]) أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث أبي أيوب. انظر الاحياء: (89/2).

([5]) انظر منهاج العابدين للغزالي: (45).

([6]) أخرجه أبو داود (116/2 ، رقم 1628) وابن خزيمة (100/4 ، رقم 2447)



كدوح إلا أن يسال الرجل قدر الحاجة، وما جاءك من غير مسالة ولا إشراف نفس فخذه فإنما هو رزق ساقه الله إليك».

(**لِيَسْلَمُوا مِنْهُ**) أي من يده ولسانه وأذاه (**وَيَسْلَمَ لَهُ دِينُهُ**) **وفي الحديث**: «كاد الفقر أن يكون كفرا».

وقال ذو النون المصري[1]: أقرب الناس إلى الوقوع في الكفر شخص ذو فاقة وعيال ولا صبر له.

قال الشعراني: وقوعه في الكفر بالألفاظ التي ظاهرها السخط على مقدور الله. (**خَيْرٌ**) **وهو ما فيه سلامة ومنفعة**. (**وَثَوَابٌ**) وأجر جزيل؛ لأن العبادة المتعدية فائدتها أنفع من القاصرة فالتعطف على الناس عبادة في نفسه تقرّبه إلى الله تعالى. ثم يحصل له بالصدقة فائدة الغير وتنجذب إليه بركة دعوات المسلمين فيتضاعف به الأجر وقد تقدم الكلام في فضل الصدقة.

وفي الحديث: «من طلب الدنيا حلالا تعففا عن المسالة وسعيا على عياله وتعطفا على جاره لقي الله ووجهه كالقمر ليلة البدر».

وفيه أيضا: «أنه ﷺ كان جالسا مع أصحابه ذات يوم فنظر إلى شاب ذي جلد وقوة قد بكر يسعى فقالوا: ويح هذا لو كان شبابه وجلده في سبيل الله. فقال عليه الصلاة والسلام: لا تقولوا هذا فإنه إن كان يسعى لنفسه ليكفها عن المسألة ويغنيها عن الناس فهو في سبيل الله وإن كان يسعى على أبوين ضعيفين أو ذرية ضعاف ليغنيهم ويكفهم فهو في سبيل الله. وإن كان يسعى تفاخرا وتكاثرا فهو في سبيل الشيطان».

وفيه: «لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتي رجلا فيسأله أعطاه أو منعه[2]».

وفيه: «من فتح على نفسه بابا من المسألة فتح الله عليه بابا من الفقر[1]».

([1]) تقدمت ترجمته.

([2]) أخرجه مالك (998/2 ، رقم 1815) ، والبخارى (535/2 ، رقم 1401) ، والنسائى (96/5 ، رقم 2589)

وقالت خديجة: خياركم من لم يدع دنياه لآخرته، ولا آخرته لدنياه.

وفيه: «لا تسبوا الدنيا فنعم مطية المؤمن، عليها يبلغ الخير وبها ينجوا من الشر[2]».

وقد جاء عن عيسى عليه السلام أنه مر بمتعبد فقال له: من أين تأكل؟ فقال له: إن لي أخا يطعمني فقال له عيسى عليه السلام: أخوك أعبد منك لانه هو الذي أعانك على الطاعة وفرغك لها.

وفي الحديث: «اليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول[3]».

وفيه: «كفى المرء إثما أن يضيع من يمون[4]».

وفيه: «الفار من عياله كالفارّ من الزحف[5]».

وقال العلماء: من وجد كفاية عن الأسباب فالله أغناه، وإلا فلا يجوز لأحد أن يقعد عن الأسباب كلا على الناس، وهو قادر على الاكتساب والشبع من الحلال مبدأ كل شر فكيف به من الحرام.

وقال عبد الله بن المبارك[6]: لا يخرج العبد من الزهد إمساك الدنيا ليصون بها نفسه عن سؤال الناس.

وقال لقمان لابنه: يابني؛ حملت الصخر والحديد فلم أر شيئا أثقل من الدين وأكلت الطيبات وعانقت الحسان فلم أر شيئا ألذ من العافية وذقت المرارة كلها فلم أر شيئا أمر من الحاجة إلى الناس.

وقال الشعراني: من أخلاق السلف: تقديمهم الخوف من الحاجة إلى الناس على خوف الحساب من جهة المال الذي ربما دخلته الشبهة.

([1]) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (273/3 ، رقم 3524) .

([2]) أخرجه الديلمى (10/5 ، رقم 7288) . وأخرجه أيضًا : الشاشى (387/1 ، رقم 383)

([3]) أخرجه أحمد (329/3 رقم 14571) ، وقال الهيثمى (115/3) : رجاله رجال الصحيح

([4]) أخرجه أحمد (160/2 ، رقم 6495) ، وأبو داود (132/2 ، رقم 1692)

([5]) أخرجه أحمد (324/3 ، رقم 14518) ، وعبد بن حميد (ص 336 ، رقم 1118)

([6]) تقدمت ترجمته.

وقال سفيان الثوري: لأن أخلّف عشرة آلاف أحاسب عليها أحب إلي من أن أحتاج إلى الناس. **وقال:** المال فيما مضى يكره، وأما اليوم فهو ترس المؤمن.

وقال: حفظك لما في يدك لتقضي به حاجتك؛ أولى من تصدقك وطلبك لما في يد غيرك. وقال: خصلتان لا يزال العبد بخير ما حفظهما: درهمه لمعاشه، ودرهمه لمعاده.

وكان قيس بن عاصم[1] مع زهده وورعه يقول: لبنيه: عليكم بالكسب الحلال؛ فإنه يسر الصديق ويكمد العدو، وتستغنون به عن سؤال الناس لاسيما اللئيم، وإياكم وسؤال الناس فإنه كسب العاجز.

وقيل للثوري: أيكون الرجل زاهدا ويكون له المال؟ قال: نعم. إذا ابتلي صبر، وإذا أعطي شكر.

وقال ابن مسعود: إني لأكره أن أرى الرجل فارغا، لا في أمر دنياه ولا في أمر آخرته.

وقال سهل بن عبد الله التستري[2]: من أعظم ما يبتلى به العبد الفراغ من أعمال الدنيا والآخرة ولكن لا يشعر به أنه بلاء إلا القليل من الناس.

وقال أبو قلابة[3]: لأن أُرى في معاشي أحب إلـيَّ من أن أُرى في زوايا المسجد. وقال: عليكم بالسوق والصنعة فإنكم لن تزالوا كراما على إخوانكم ما لم تحتاجوا إليهم.

([1]) هو قيس بن عاصم بن سنان المقريزي السعدي التميمي، أبو علي: أحد أمراء العرب وعقلائهم والموصوفين بالحلم والشجاعة فيهم. كان شاعرا، اشتهر وساد في الجاهلية. وهو ممن حرم على نفسه الخمر فيها. ووفد على النبي صلى الله عليه وآله في وفد تميم (سنة 9 هـ فأسلم، وقال النبي صلى الله وآله وسلم لما رآه: هذا سيد أهل الوبر ! واستعمله على صدقات قومه. ثم نزل البصرة في أواخر أيامه، وروى أحاديث. وتوفي بها. وهو الذي يقول عبدة بن الطيب في رثائه: " وما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما " وكان له 33 ولدا. قال لهم في مرض موته: " يا بني احفظوا عني ثلاثا، فلا أحد أنصح لكم مني: إذا أنا مت فسودوا كباركم ولا تسودوا صغاركم فيحقر الناس كباركم وتهونوا عليهم، وعليكم بحفظ المال فانه منبهة للكريم ويستغني به عن اللئيم، وإياكم والمسألة فانها آخر كسب الرجل ". انظر الاصابة: (الترجمة 7194).

([2]) تقدمت ترجمته.

([3]) تقدمت ترجمته.

وقال لقمان لابنه: يا بني استغن بالكسب الحلال عن الفقر فإنه ما افتقر أحد إلا أصابته إحدى خصال ثلاث: رقة في دينه. وضعف في عقله. وذهاب في مروءته. وأعظم من هذه الثلاثة استخفاف الناس به.

وسئل إبراهيم عن التاجر الصدوق أهو أحب إليه أم المتفرغ للعبادة؟ قال: التاجر الصدوق أحب إلي؛ لأنه في جهاد يأتيه الشيطان من طريق المكيل والموزون ومن قبل الأخذ والعطاء فيجاهده. وخالفه الحسن في هذا.

وقال الغزالي: أما المؤمن فالمال له محمود لأن الفقير في طلب العلم والكمال وليس معه كفاية كساع إلى الهيجاء بغير سلاح، وكباز يروم الصيد بلا جناح.

وفي الخبر: «نعم المال الصالح للرجل الصالح[1]». وفيه: «نعم العون على تقوى الله المال[2]».

كيف ومن عدم المال صار مستغرق الأوقات في طلب القوت، ثم يتعرض لأنواع من الأذى تشغله عن الفكر والذكر، ولا يندفع ذلك إلا بسلاح المال، ثم بعد ذلك يحرم فضيلة الحج والزكاة والصدقات وإفاضة الخيرات. فالمذموم من الدنيا إمساكها والحرص عليها للاستكثار منها والتوسع في نعيمها بما يوجب الركون إليها وإلى لذاتها. وأما قدر الكفاية وصرف الفضائل إلى الخيرات فليس بمذموم، ومن سمحت نفسه بإطعام الطعام وتوسيع الزاد فلا بأس بالاستكثار له. وفي الحديث: «ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب[3]». معناه: لأنفسكم خاصة وإلا فقد كان من يروى هذا الحديث ويعمل به: يأخذ مائة ألف درهم في موضع واحد، ويفرقها في موضعه ولا يمسك منها حبة.

ولما ذكر ﷺ أن الأغنياء يدخلون الجنة زحفا استأذنه عبد الرحمن بن عوف في أن يخرج عن جميع ما يملكه فأذن له فنزل جبريل عليه السلام فقال له: «مره أن يطعم المسكين ويكسو

---

(1) أخرجه أحمد (202/4 ، رقم 17835) ، والحاكم (3/2 ، رقم 130) وقال : صحيح على شرط مسلم
(2) أخرجه الديلمى (256/4 ، رقم 6756)
(3) أخرجه ابن الأعرابى فى الزهد (54/1 ، رقم 87)

العاري ويقري الضيف[1]»...**الحديث**.

واعلم أن أفضل ما أكلت منه كسبك من زراعة لأنه أقرب إلى التوكل ثم من صنعة لأن الكسب فيها يحصل بكد اليمين ثم من تجارة؛ لأن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يكتسبون بها.

فائدة: قال سهل التستري: اجتمعت بشيخ من أصحاب عيسى عليه السلام وعليه جبة صوف فيها طراوة فقلت له: فكم لهذه الجبة عليك فقال: لها علي من أيام المسيح سبعمائة سنة، إن الأبدان لا تخلق الثياب وإنما يخلقها رائحة الذنوب ومطاعم السحت. **قلت**: ومن هنا كان الخضر لا يبلى له ثوب لأنه لا يعصى ولا يأكل حراما وكما لا يبلى لآكل الحلال ثوب، فكذا لا يبلى له جسم بعد موته كما وقع لبعض الأولياء، فوجدناه طريا كما وضعناه بعد سنين. **قاله الشعراني**[2].

وقد قيل في فضل الكسب: الرجال ثلاثة: رجل شغله معاشه عن معاده فهو من الهالكين. **ورجل** شغله معاده عن معاشه فهو من الفائزين. **والأقرب** إلى الاعتدال هو الثالث الذي شغله معاشه لمعاده فهو من المقتصدين.

وفي الحديث: «من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهم في طلب المعيشة[3]».

وفيه: «التاجر الصدوق يحشر يوم القيامة مع الصديقين والشهداء[4]».

وفيه: «إن الله يحب العبد المؤمن المحترف[5]».

وفيه: «أحل ما أكل الرجل من كسبه وكل بيع مبرور[6]».

وفيه: «أحل ما أكل الرجل كسب يد الصانع إذا نصح[1]».

---

(1) أخرجه ابن عساكر (263/35)

(2) انظر الطبقات الكبرى للشعراني: (77/1).

(3) أخرجه الطبراني في الأوسط (38/1 ، رقم 102)

(4) أخرجه عبد بن حميد (ص 299 ، رقم 966) ، والترمذي (515/3 ، رقم 1209) وقال : حسن .

(5) أخرجه الطبراني (308/12 ، رقم 13200)

(6) أخرجه أحمد (141/4، رقم 17304) ، والطبراني (276/4 ، رقم 4411) ، والحاكم (13/2، رقم 2160)

إلى دنياه حظا من عنايته؛ لأن بها يتزود لآخرته، **وقال ابن ليون:** فليصرف الإنسان إلى دنياه حظا من عنايته؛ لأن بها يتزود لآخرته، وقد قال تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴾ أي فإذا فرغت من أمر الدنيا فانصب في العبادة. **وقال عليه الصلاة والسلام:** «خيركم من لم يترك الدنيا للآخرة، ولا الآخرة للدنيا لا من ترك إحداهما للأخرى ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه[2]» **وقال:** «نعمت المطية الدنيا فارتحلوها تبلغكم الآخرة».

وقال الثوري: في التوراة: إذا كان في الليلة قوت فتعبد وإن لم يكن فاطلب يابن آدم حرك يدك يتحرك لك رزقك. **ولمحمود الوراق[3]:**

لاَ تتْبَعِ الدُّنْيَا وَأَيَّامِهَا ذَمًّا وَإِنْ دَارَتْ بِكَ الدَّائِرَةْ

أَنَّ بِهَا تُسْتَدْرَكُ الآخِرَةْ مِنْ شَرَفِ الدُّنْيَا وَمِنْ فَضْلِهَا

قال الشعراني: من أخلاق السلف: تقديمهم عمل الحرفة والصنعة التي تكفهم عن سؤال الناس على سائر نوافلهم وواجباتهم الموسعة.

وقد سئل الحسن البصري عن رجل محتاج إلى الكسب ولو ذهب لصلاة الجماعة احتاج ذلك النهار إلى سؤال الناس **فقال:** يتكسب ويصلي منفردا. **قال الشعراني:** لعل ذلك في غير صلاة الجمعة.

وفي الحديث: «إن الله تعالى علم آدم عليه السلام ألف حرفة وقال له: قل لولدك يتعلمون هذه الحرف ويأكلون بها ولا يأكلوا بدينهم»[4].

وقال عمر رضي الله عنه: لا يقعد أحدكم في المسجد ويترك طلب الرزق ويقول: اللهم ارزقني فإن ذلك خلاف السنة. وقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة. وكانت الصحابة

---

(1) حديث أحل ما أكل العبد كسب الصانع إذا نصح رواه أحمد من حديث أبي هريرة خير الكسب كسب العامل إذا نصح وإسناده حسن. انظر الاحياء: (62/2).

(2) أخرجه الديلمى (409/3، رقم 5249)، وابن عساكر (197/65)

(3) تقدمت ترجمته.

(4) أخرجه الديلمى (42/3، رقم 4105)

يتحرون برا وبحرا والقدوة بهم أولى. قال تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ سَمَّاهُمْ رجالا لما قاموا بالأسباب ولم يشتغلوا بها عن الذكر.

وفي الحديث: إنهم أثنوا عند النبي ﷺ على رجل بالعبادة فقال ﷺ: «فمن كان يطعمه ويسقيه ويعلف دابته ويكفيه ضيعته؟ قالوا: نحن يا رسول الله. قال: كلكم خير منه[1]».

وقال أبو سليمان الداراني[2]: ليس الشأن أن تصفَّ قدميك للعبادة وغيرك يقوت لك، إنما الشأن أن تحرز رغيفك في بيتك ثم تُغْلِقْهُ وتصلي فلا تبالي بعد ذلك بأي داقٌ دقَّ عليك الباب، بخلاف من قام في بيته يصلي وليس عنده شيء يأكله فيصير كل داقٌ دقَّ الباب يقول إن معه رغيفا.

وقال الثوري: عليكم بالحرفة فإن عامة من أتى أبواب الأمراء إنما أتاهم من الحاجة[3].

وقال الفضيل: إذا افتقر أحدكم فلا يجعل فقره فيما بينه وبين الناس وليجعله فيما بينه وبين الله لئلا يهون في أعين الناس يحزن ويسوء بذلك الصديق ويسر بذلك العدو.

وقال بعض السلف: وجدت خير الدنيا والآخرة في التقوى والغنى، وشر الدنيا والآخرة في الكفر والفقر. **ولبعضهم:**

وَلَمْ أَرَ بَعْدَ الدِّينِ خَيْرًا مِنَ الْغِنَى ... وَلَمْ أَرَ بَعْدَ الْكُفْرِ شَرًّا مِنَ الْفَقْرِ

وقيل: إن كان شيء فوق الحياة فالصحة. وإن كان شيء مثلها فالغنى، وإن كان شيء فوق الموت فالمرض، وإن كان شيء مثله فالفقر. وقيل: القبر خير من الفقر. **وأنشدو:**

أَعُوذُ بِكَ اللهُمَّ مِنَ بَطَرِ الْغِنَى ... وَمِنْ نَهْكَةِ الْبَلْوَى وَمِنْ ذِلَّةِ الْفَقْرِ

وقال مجاهد[4]: الخير كله في القرآن: المال.

وقال السدي[1] **وابن زيد**[2]: إن الحسنة في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ المال. وفي الآخرة حسنة: الجنة.

---

(1) رواه أبو داوود في المراسيل: (306) عن أبي قلابة.

(2) تقدمت ترجمته.

(3) انظر كلام الشعراني بكامله في تنبيه المغترين: (303).

(4) تقدمت ترجمته.

والحاصل: أن المال كالحية التي فيها سم ناقع وترياق نافع فإن أصابها المعزم الذي يعرف وجه الاحتراز عن سمها، وطريق استخراج ترياقها النافع، كانت نعمة وإلا فهي عليه هلاك وبلاء، وإن الجاه كالبحر الذي تحته أصناف الجواهر واللآلي. فمن ظفر بها فهي نعمة، وإن خاضه جاهل هلك. وأكثر الناس جاهل بطريق الرقية لحية المال وبطريق الغوص في بحر الجاه فوجب تحذيرهم لئلا يهلكوا بسم المال قبل الوصول إلى ترياقه وبتمساح الجاه قبل العثور على جواهره فمن وفق ببصيرته وكمال معرفته فله أن يقرب منها متقيا داءها ومستخرجا دواءها. ومن لا: فالبعدَ البعدَ والفرارَ الفرارَ عن مظان الأخصار ولا تعدل بالسلامة شيئا.

الكفاف أفضل من الفقر والغنى

ثم قال: (وَالْكَفَافُ فِيهَا) أي في الدنيا أي قدر الحاجة لا يفضل عنها.

قال النووي: هو الكفاية بلا زيادة ولا نقص. وقال أيضا: هو ما يسد الرمق.

وقال القرطبي[3]: هو ما يكف عن الحاجات، ويدفع الضرورات والفاقات. ولا يلحق بأهل الترفهات. وقال أيضا: هو ما يقوتهم ويكفيهم بحيث لا يشوشهم الجهد، ولا ترهقهم الفاقة، ولا تذلهم المسالة والحاجة. ولا يكون في ذلك فضول يخرج إلى الترفه والتبسط في الدنيا والركون إليها.

وفي بعض الأخبار: أن عليا كرم الله وجهه قال: أربعة آلاف درهم فما دونها نفقة فما زاد عليها فهو كتر، وإن أُدِّيتْ زكاته.

وقال أبو ذر[4] وجماعة معه: ما فضل من مال الرجل عن حاجة نفسه فهو كتر.

([1]) تقدمت ترجمته.

([2]) تقدمت ترجمته.

([3]) تقدمت ترجمته.

([4]) تقدمت ترجمته.

وقال الشعراني: الكفاف هو الذي يفضل عن الغداء والعشاء منه شـيء. وصـاحب الكفاف معدود من الفقراء؛ لأنه لا يترفه في طيبات الدنيا بل يجاهد نفسه في الصبر عن القدر الزائد على الكفاف فلم يفته من حال الفقراء إلا السلامة من قهر الحاجـة وذل المسألة.

وفي الحديث: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقنعه الله بما رزقه[1]».

معناه: من اتصف بتلك الصفات حصل على مطلوبه، وظفر بمرغوبه في الدنيا والآخرة.

وفيه: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا[2]». أي اكفهم من القوت مالا يـرهقهم إلى ذل المسألة ولا يكون فيه فضول يبعث على الترفه والتبسط في الدنيا.

وذكر ابن رشد في البيان: أن الفقر أفضل من الكفاف لأن الفقير يؤجر من **وجهين:**

-**الصبر** على الفقر مع الرضى والشكر.

والثاني: تصرفه فيما لا بد منه من نفقة نفسه، ومن تلزمه نفقته، فصاحب الكفاف إنمـا يؤجر على الشكر على الكفاف، وإن الغنى أفضل من الفقر؛ لأن الغنى يؤجر من وجوه؛ وهي الشكر والصبر على إعطاء الزكاة الواجبة والإنفاق على عياله[3]. (**أَفْضَلُ مِنَ الْفَقْرِ وَالْغِنَى**) **لحديث:** «اللهم اجعل رزق آل محمد كفافا[4]» **في هذا الحديث دليل علـى فضل الكفاف وأخذ البلغة من الدنيا** والزهد فيما فوق ذلك رغبة في توفير نعيم الآخرة وإيثارا لما يبقى على ما يفنى فينبغي أن تقتدي به أمته في ذلك. **ومعلوم** أنه ﷺ لا يسأل إلا أفضل الأحوال وأسنى المقامات والأعمال. **ولحديث:** «قد أفلح من أسلم وكان رزقه كفافا وقنعه الله بما رزقه[5]». **ولحديث:** «يابن آدم إنك إن تبذل الفضل خير لك، وإن

---

(1) أخرجه أحمد (168/2 ، رقم 6572) ، ومسلم (730/2 ، رقم 1054)

(2) أخرجه البخارى (2372/5 ، رقم 6095) ، ومسلم (2281/4 ، رقم 1055)

(3) انظر البيان والتحصيل لابن رشد: ((109/17).

(4) تقدم تخريجه.

(5) تقدم تخريجه.

تمسك شر لك ولا تلام على كفاف[1]». **وحديث**: «إن أغبط أوليائي عندي لمؤمن خفيف الحاذ ذو حظ من الصلاة أحسن عبادة ربه، وأطاعه في السر والعلانية وكان غامضا في الناس لا يشار إليه بالأصابع وكان رزقه كفافا فصبر على ذلك[2]» ... **الحديث**. ولأن الكفاف أيضا حالة متوسطة.

وفي الحديث: «خير الأمور أوسطها[3]» ولأن حالة صاحبه أيضا حالة الفقير إذ لا يترفه في الطيبات. وكانت حاله إلى الفقر أقرب فقد حصل له ما حصل للفقير من الثواب على الصبر وكفي مرارته وآفاته. وعلى هذا فأهل الكفاف هم إن شاء الله صدر كتيبة الفقراء الداخلين الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام. لأنهم وسطهم والوسط العدل. وليسوا من الأغنياء كما ذكرنا. وإذا تأملت **هذا وجدت حالة الكفاف هي حالة أكثر الناس اليوم سيما أهل البادية. قاله الشعراني**. ولأن في الكفاف أيضا السلامة من آفات الغنى والفقر. وفتنتيهما اللتين كان يتعوذ منهما النبي ﷺ.

أما آفات الغنى فقال الغزالي: هي الحرص على جمع المال حتى يكسبه من غير حله، ويمنعه من واجبات إنفاقه. **وقال البيضاوي**: هي البطر والطغيان والتفاخر وصرف المال في المعاصي وما أشبهه كأخذه من الحرام وأن لا يؤدي حقه وأن يتكبر به.

وأما آفات الفقر فقال بعضهم: هي حسد الأغنياء والطمع في مالهم والتذلل لهم بما يدنس به عرضه ويثلم به دينه وعدم الرضى بما قسم الله له إلى غير ذلك مما لا تحمد عاقبته. **وأما قوله ﷺ**: «كاد الفقر أن يكون كفرا[4]» **فمعناه**: أي قرب فقر اليد من المال والقلب لطلب الزيادة إذا لم يقارنه صبر أن يكفر العبد بربه عز وجل لما يصحبه في هذا الفقر من التسخط على الله عز وجل والاعتراض والتضجر، فيحمله ذلك على أمور محرمة ليحصل قوت نفسه وعياله فيفضي إلى الكفر، أو لا يشبع من الذي يعطى فيطلب

---

(1) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (224/3 ، رقم 3386)

(2) تقدم تخريجه

(3) تقدم تخريجه

(4) أخرجه أبو نعيم (53/3)

الزيادة ويستحل شيئا من هذه المحرمات **فيكفر لحديث صحيح.**

وقال الغزالي: فتنة الفقر المراد به: الفقر المدقع الذي لا يصحبه خير ولا ورع حتى يتضرر صاحبه بسببه فيما يليق بأهل الدين والمروءة ولا يبالي بسبب فاقته على أي حرام وثب ولا في أي حالة تورط[1].

وقيل: المراد بالمدقع: فقر النفس الذي لا يرده ملك الدنيا بحذافيرها. **قال الراغب**[2]: هذا هو الذي استعاذ منه النبي ﷺ. **وقال:** الفقر المستعاذ منه: هو الفقر المدقع الذي يفضي بصاحبه إلى كفران نعم الله تعالى وإلى التكفف والتذلل. والمدقع: الملصق بالدقعاء وهي التراب ذلا. **قاله العلقمي.**

وقال أعرابي: أحسن الأحوال: حال يغبطك بها من دونك، ولا يحقرك بها من فوقك.

تتمة: قال الغزالي: الضرورة: مطعم وملبس ومسكن والباقي فضول فالضرورة من المطعم ما يقيم صلبك، ويسد رمقك واقصد به التقوى على الطاعة واقتصر في اليوم والليلة بمرة بما لا يزيد على ثلث البطن ولا تطلب اللذائذ. بل اقنع بما اتفق فإن قدرت على هذا وأسقطت عنك مؤنة الشهوات أمكنك ألا تأكل إلا من حله، فإن الحلال يعز، ولا يفي بالشهوات. **وأما** ملبسك فما يدفع الحر والبرد وستر العورة فكل ما دفع البرد عن رأسك ولو قلنسوة بدانق فطلبك غيره فضول منك يضيع زمانك، ويلزمك الشغل الدائم في تحصيله بالكسب مرة، والطمع أخرى من الحرام. فإن لم تكتف بهذا كنت ممن لا يملأ بطنه إلا التراب. وكذلك المسكن إن اكتفيت بمقصوده؛ كفاك السماء سقفا والأرض مستقرا فإن غلبك حر أو برد فالمسجد وإلا فبيت يمنع من الأبصار والأمطار لتتفرغ لله والتزود لآخرتك. والاستعداد لخاتمتك وإن جاوزت حد الضرورة إلى أودية الأماني؛ تشعبت همومك و لم يبال الله في أي واد أهلكك. **انتهى**[3].

---

(1) انظر الاحياء: (323/1).

(2) هو الراغب الاصفهاني الحسين بن محمد بن المفضل أبو القاسم الاصفهاني، المعروف بالراغب، أديب من الحكماء العلماء، سكن بغداد واشتهر حتى كان يقرن بالإمام الغزالي. توفي 502هـ. انظر كشف الظنون: (36/1).

(3) انظر الاحياء: (179/4).

وقال صاحب تحفة الملوك: الأكل على ثلاثة أنواع: فرض: وهو ما يدفع بـه الهلـك ويمكن معه الصلاة قائما. **ومباح:** وهو أدنى الشبع ويحاسب به حسابا يسيرا إن كان من حلال. **وحرام:** وهو ما زاد على ذلك إلا صوم أو موافقة ضيف، أو كان من أصحاب الأعمال الشاقة؛ كالحرّاث والحصّاد والغرّاس. والفاعل.

ومن أخلاق السلف: استحياؤهم من كثرة ترددهم إلى الخلاء لأجل كثرة الأكل.

وكان عبد الرحمن بن أبي نعيم لا يأكل إلا بعد خمسة عشر يوما فدعاه الحجاج ووضعه في بيت وأغلق عليه الباب خمسة عشر يوما ثم فتحه فإذا هو قائم يصلي.

وكان عبد الله بن الزبير يطوي الأسبوع فلا يأكل إلا يوم السبت.

وقال أبو سليمان الداراني[1]: أحلى ما تكون العبادة إلـي إذا ألصقت بطني بظهري. فإن الحكمة كالعروس تطلب البيت الخالي تنام فيه لتخلو بصاحبها.

وقال الحسن: لا تجمعوا بين إدامين، فإنه طعام المنافقين.

وكان أبو عفان المغربي؛ يأكل في كل ستة أشهرة مرة.

قال الشعراني: سمعت سيدي عليا المرصفي يقول: وقع لسيدي عيسى بن نجم أنه مكث سبع عشرة سنة لا يأكل ولا يشرب ولا ينام وهو على وضوء واحد[2].

وكان سهل التستري يقسم عقله وقوته ومعرفته إلى سبعة أجزاء؛ فلا يأكل حتى يذهب من كل واحد ستة أجزاء. **ويقول:** لولا أني أخاف الهلاك لكنت لا ءاكل حـتى تفـنى السبعة أجزاء[3].

وكان سيدي علي الخواص لا يجاوز تسع لُقَمٍ، **ويقول:** قال رسول الله ﷺ: «حسـب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه[1]» واللقيمات من الثلاث إلى التسع فمن آمن به الإيمـان الكامل كفته التسع لقم، ومن لم يكتف بها لم يؤمن بقوله ﷺ.

([1]) هو عبد الرحمن بن أحمد بن عطية العنسي المدحجي، أبو سليمان الداراني، زاهد مشهور من أهل داريا (بغوطة دمشق) رحل إلى بغداد وأقام بها مدة. ثم عاد إلى الشام وتوفي ببلده سنة 215هـ. انظر وفيات الأعيان: (217/1).

([2]) انظر الطبقات للشعراني: (335/1).

([3]) انظر هذا الكلام من بدايته: "ومن أخلاق السلف..." في كتاب تنبيه المغترين للشعراني: (132).

فإن قيل: ما ذكرتم من طي أكثر من ثلاثة أيام لم يفعله ﷺ، وأنتم قيدتم بالجوع الشرعي، فما وجه الزيادة؟ فالجواب: أنه ﷺ كان رحمة على أمته، وكان يقول: «قدروا الناس بأضعفهم، مع أنه ﷺ كان يواصل الصوم. ويحتمل أن هؤلاء الذين جاعوا نصف شهر وأكثر كانوا من الورثة له في ذلك. ويحتمل نهيه عن الوصال على من لم يطق ذلك، فنهاه أن يعذب نفسه حتى تصير تكره عبادة ربها.

وقال بعض المحققين: إن أحدهم يتناول نحو الزبيبة والرطبة ونحو القطرة من الماء ليخرج عن الوصال المنهي عنه. وذلك هو الظن. ثم قال: (والغنيُّ الشَّاكِرُ) وشكره أن يفرح بنعمة الله تعالى عليه ويشكر ربه، وأن يمسك قدر الضرورة من ماله ولا يستعمله في المعصية. ولا يستعمل الفاضل في التنعم المباح بل يصرفه إلى الخيرات. (أَفْضَلُ مِنَ الْفَقِيرِ الصَّابِرِ) لحديث الصحيحين: «ذهب أهل الدثور بالأجور[2]»...الحديث. ولحديث: «المكثرون هم المقلون إلا من قال بالمال: هكذا وهكذا[3]». وحديث سعد: «إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة[4]». وحديث: «نعم المال الصالح للرجل الصالح[5]».

والحاصل: أنهما محنتان يختبر بهما العبد في الشكر والصبر، وأنهما متقابلان لما يعرض لكل منهما من العوارض فيمدح أو يذم.

والفقر عند الصوفية: نفض اليد من الدنيا ضبطا وطلبا مدحا وذما ولأن في الأول احتمال ألم في صرف الفاضل إلى الفقراء وترك صرفه إلى التنعم المباح. وكان الحاصل يرجع إلى أن شيئين أفضل من شيء واحد وأن الجملة أعلى رتبة من البعض.

([1]) أخرجه ابن حبان (449/2 ، رقم 674) ، والبيهقى فى شعب الإيمان (28/5 ، رقم 5649)

([2]) أخرجه ابن عساكر (297/53)

([3]) أخرجه البخارى (2366/5 ، رقم 6078) ، ومسلم (688/2 ، رقم 94) .

([4]) أخرجه مالك (763/2 ، رقم 1456) ، والطيالسى (ص 27 ، رقم 195)

([5])تقدم تخريجه.

وأما إذا كان شكره بأن لا يستعين به على معصية بل يصرفه إلى التنعم المباح؛ فالصبر هنا أفضل من الشكر والفقير الصابر أفضل من الغني الممسك ماله الصارف له إلى المباحات، لا من الغنى الصارف له إلى الخيرات؛ لأن الفقير الصابر قد جاهد نفسه وكسر همتها وأحسن الرضى على بلاء الله تعالى. والغني تبع همته وأطاع شهوته. ولكنه اقتصر على المباح وفي الحلال مندوحة عن الحرام أيضا وهذا المعنى عنا الجنيد بأن الفقير الصابر أفضل. **قال:** لأن الغني تصحبه فيما عليه أشياء تلائم نفسه وتمتعها وتلذذها، والفقير تصحبه فيما عليه أشياء تؤلم نفسه وتقبضها وتزعجها فكان الذي آلم نفسه وأزعجها أتم حالا ممن متعها ونعمها. **ويقال: كان أبو العباس ابن عطاء الله رحمه الله خالفه في ذلك، وقال:** الغني الشاكر أفضل **فدعا عليه الجنيد** فأصابه بلاء من قتل أولاده وتلف ماله وزوال عقله أربع عشرة سنة فكان يقول: **دعوة الجنيد أصابتني**، ورجع إلى تفضيل الفقير الصابر.

وإن احتج على فضل الغني بقوله تعالى: ﴿تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ ...الآية. أجبت بأن الآية حجة لفضل الفقير لأن بكاء هم ومشاهد تهم تقصير هم لمشاهدة عظيم الربوبية عليهم حتى كأنهم مسيئون حتى يبشرهم الله بأنهم محسنون ولو كان بكاؤهم وحزنهم على الدنيا لذموا. **وأيضا:** شاركوا رسول الله ﷺ في قوله: ﴿لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ فمن كان برسول الله مقتديا فهو أفضل فإن الفقر شعار الأنبياء.

وقيل لرسول الله ﷺ: أرأيت أشياء نشتهيها ولا نقدر عليها هل لنا فيها أجر؟ قال: ففيم توجرون إذا لم تؤجروا فيها.

وفي حاشية علي الأجهوري[1] على الرسالة: أن الغنى ما زاد على المحتاج إليه وهل المراد: في يوم أو سنة؟ والظاهر الأول أي يعتبر كل يوم على حدته فإذا كان عنده في يوم زيادة على المحتاج في الآخر دونه كان غنيا في اليوم الأول دون الثاني. وهكذا. **ومعنى كون الغني أفضل وعكسه:** أن ثواب الغني على أعماله الصالحة أكثر من ثواب

([1]) تقدمت ترجمته.

الفقير عليها. ويحتمل أن حسنات الغني أكثر من حسات الفقير. ومهما لاحظت ما ذكرنا علمت أن لكل واحد من القولين وجها في بعض الأحوال فرب فقير صابر أفضل من غني شاكر كما سبق، ورب غني شاكر أفضل من فقير صابر. وهو المراد في المتن وهو الغني الذي يرى نفسه مثل الفقير. إذ لا يملك لنفسه من ماله إلا قدر الضرورة والباقي يصرفه إلى الخيرات أو يمسكه على اعتقاده أنه من المحتاجين والمساكين. ثم إذا صرف لم يصرف إلى طلب الجاه والصيت ولا لتقليد منة بل أداء لحق الله تعالى في تفقد عباده فهذا أفضل.

فإن قلت: فهذا لا يثقل على النفس والفقير يثقل عليه الفقر لأن هذا يستشعر لذة القدرة وذلك يستشعر ألم الصبر وإن كان متألما بفراق المال فينجبر ذلك بلذته في القدرة.

فاعلم أن الذي نراه أن الذي ينفق ماله عن رغبة وطيب نفس؛ أكمل حالا ممن ينفقه وهو بخيل به وإنما يقتطعه عن نفسه قهرا فإيلام النفس ليس مطلوبا لعينه بل لتأديبها، وذلك يضاهي ضرب كلب الصيد والكلب المؤدب: أكمل من الكلب المحتاج إلى الضرب. وإن كان صابرا على الضرب ولذلك يحتاج إلى الإيلام والمجاهدة في البداية ولا يحتاج إليها في النهاية. بل النهاية أن يكون ما كان مؤلما في حقه لذيذا عنده كما يصير التعلم عند الصبي العاقل لذيذا، وقد كان مؤلما له أولا. **قاله الغزالي**[1]. **بخ**.

فائدة: إنما كان الغني الشاكر أفضل من الفقير الصابر؛ لأن الغني هو الذي ختم به أمره ﷺ وهو كان دائم الترقي في الكمالات فلولا أنه أفضل لما ختم له به. قيل: محل الخلاف في غير الفقر مع الرضى، وأما هو فأفضل قطعا، وفيه نظر؛ لأن النبي ﷺ في ابتداء أمره مع فقره على غاية من الرضى لم يصل إليها غيره. ومع ذلك لم يختم له إلا بالغنى مع الشكر. **قاله الهيثمي**[2].

---

(1) انظر الاحياء: (141/4).

(2) انظر شرح ابن حجر الهيثمي على الأربعين النووية: (206).

وإنما كان أفضل لحديث: «الطاعم الشاكر كالصائم الصابر[1]» ثم إن الخلاف المشهور بين الفقير الصابر والغني الشاكر محله فيما زاد علي الكفاف، وأما الكفاف فلا ملام على صاحبه كما تقدم. وأما الفقر عن مقدار الضرورة أيضا فإن ذلك يكاد أن يكون كفـــرا فلا خير فيه بوجه من الوجوه. وأما مثل غنى عائشة رضي الله عنها أيضا الذي يســـتوي عندها الوجود والعدم فيكون الوجود مزيدا له، وتستفيد به أدعية الفقراء ونفعهم فليس من محل الخلاف. **قاله الغزالي وغيره.**

وقال سيدي محمد الشاذلي: تفاخر الغنى والفقر، فقال الغنى: أنا وصف الرب الكـــبير، فمن أنت يا حقير؟. فقال له الفقر: لولا وصفي ما تبين وصفك ولولا تواضعي ما رفـــع قدرك، وإن وصفي وسم بذل العبودية وأنت وصفك نازع الربوبية. **قاله الشـــعراني في طبقات الأولياء[2].**

ومن حجة من يرجح الفقير الصابر حديث: «الفقراء يسبقون الناس إلى الجنة فيخـــرج إليهم منها ملائكة فيقولون: ارجعوا إلى الحساب، فيقولون: على ماذا نحاسب فو الله ما أفيضت علينا الأموال في الدنيا فنقبض فيها ونمسك وما كنا أمراء فنعدل ونجور ولكنـــا جاءنا أمر الله فعبدناه حتى أتانا اليقين. **وحديث:** «يدخل الفقراء الجنة قبـــل الأغنيـــاء بخمس مائة عام نصف يوم منها مثل عام من أعوام الدنيا».

وبالجملة: فالفقير بالحقيقة العبد وإن كان له مال وإنما يكون غنيا إذا عول على مـــولاه ولم يتعلق بشيء سوه فإن تعلق بشيء من الدنيا باله ورأى أنه فقير إليه فهو عبده.

وفي الحديث: «تعس عبد الدينار[3]» ...**الحديث**. وهذا هو الفقير حقيقـــة، وعادمـــه

---

[1]) أخرجه أحمد (343/4 ، رقم 19036) ، والدارمى (130/2 ، رقم 2024) ، وابن ماجه (561/1 ، رقم 1765)

[2]) انظر الطبقات الكبرى: (288/1).

[3]) جزء من حديث: " تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة إن أعطى رضى وإن لم يعط سخط تعس وانتكس وإذا شيك فلا نتقش طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه فى سبيل الله أشعث رأسه مغبرة قدماه إن كان فى الحراسة كان فى الحراسة وإن كان فى الساقة كان فى الساقة إن استأذن لم يؤذن له وإن شفع لم يشفع. أخرجه البخارى (1057/3 ، رقم 2730) ، وابن ماجه (1385/2 ، رقم 413).

الذي يقول: لا أبالي به إنما هو ضرورة العيش فإذا وجدها فغيرها زيادة تشغل عن الإرادة فهو الغني حقيقة. **ففي الحديث:** «ليس الغنى من كثرة العرض إنما الغنى غنى النفس[1]». **قاله الثعالبي**[2].

وقال زروق: وللناس في الغني الشاكر والفقير الصابر طريقان، والحق أن كلا منهما متضمن للآخر فلا تفاضل وقد اختار كلا منهما رسول الله ﷺ حيث قال: أجوع يوما وأشبع يوما وأطعم أيضا ألفا من صاع وشد الحجر على بطنه.

ومن حجة من رجح الفقر **قول علي كرم الله وجهه:** من رضي بالقليل من الرزق رضي الله منه بالقليل من العمل. **وقول عمر** ﷺ من نُبل الفقر أنك لا تجد أحدا يعصي الله ليفتقر **وأخذه محمود الوراق**[3] **فقال:**

يَـا عَائِـبَ الْفَقْـرِ أَلاَ تَزْدَجِـرْ عَيْـبُ الْغِنَـى أَكْبَـرُ لَـوْ تَعْتَبِـرْ
مِـنْ شَـرَفِ الْفَقْـرِ وَمِـنْ فَضْـلِهِ عَلَى الْغِنَـى إِنْ صَـحَّ مِنْـكَ النَّظَـرْ
أَنَّـكَ تَعْصِـي لِتَنَـالَ الْغِنَـى وَلَسْـتَ تَعْصِـي اللهَ كَـيْ تَفْتَقِـرْ

ثم قال: (**وَكُنْ عِنْدَ أَخْذِ الْقُوتِ**) منها (**كَالْمُضْطَرِّ لِلْمَيْتَةِ**) وهو لابد أن يكون كارها غير متنعم بها ولا تكن رغبتك في أخذ القوت أكثر من رغبتك في قضاء الحاجة إذ لا فرق بين إدخال الطعام في البطن وإخراجه منه فهما ضرورتان في الجبلة وكما لا يكون قضاء الحاجة من همتك التي تشغل بها قلبك فلا ينبغي أن يكون الطعام من همتك. واعلم أنه إن كانت همتك إلى ما يدخل بطنك فقيمتك ما يخرج منه. (**وَ**) كن (**فِيهَا كَالْغَرِيبِ الْمُسَافِرِ**) **لحديث:** «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل[4]».

وقال علي كرم الله وجهه: الدنيا كمركب يسير بأهله وهم نيام. **والحديث:** «ليكن

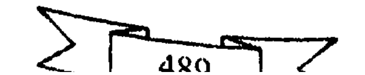
---

(1) أخرجه أبو يعلى (404/5، رقم 3079)، والطبراني في الأوسط (203/7، رقم 7274)

(2) انظر تفسير الثعالبي: (270/4).

(3) تقدمت ترجمته.

(4) أخرجه البخارى (2358/5، رقم 6053). وأخرجه أيضًا: ابن حبان (471/2، رقم 698)



بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب[1]». **وقيل للشافعي: ما بالك تمشي على عصا ولست بكبير ولا ضعيف؟ قال: لأعلم أني مسافر، فإن العصا من آلة السفر. قال الشاعر:**

حَمَلْتُ الْعَصَا لاَ الضُّعْفُ أَوْجَبَ حَمْلَهَا عَلَيَّ وَلاَ أَنِّي تَحَنَّيْتُ مِنْ كِبَرْ
وَلَكِنَّنِي أَلْزَمْتُ نَفْسِيَ حَمْلَهَا لِأُعْلِمَهَا أَنِّي مُقِيمٌ عَلَى السَّفَرْ

وقال الشافعي: من شهد الضعف من نفسه نال الاستقامة. فحق للعبد أن يرى نفسه في الدنيا غريبا فإن الغريب يدور مع السلامة ويعامل بالإنصاف، ويعمل لدار قرار ويأخذ في مرضاة رب المترل ولا ينازع أحدا في داره هذا وغربته في السجن **كما قال:** (**الْمَسْجُونِ**) لأن الدنيا سجن المؤمن. وأعظم أعماله في السجن: الصبر، وكظم الغيظ **كما قاله عبد الله بن المبارك[2]. أشار إلى حديث:** «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر[3]».

قال القاضي ابن المطيب[4]: هذا بالإضافة إلى ما يصير إليه كل واحد منهما في الآخرة. **وقيل:** المعنى: إنما سجن المؤمن؛ لأنها موضع تعبه في الطاعات.

ولقي القاضي أبو بكر بن فورك[5] يوما يهوديا رث الثياب والقاضي متجمل في اللباس وقال له اليهودي: يا شيخ سمعتكم تروون عن نبيكم: «الدنيا سجن المؤمن وجنة

([1]) تقدم تخريجه.

([2]) تقدمت ترجمته.

([3]) أخرجه أحمد (323/2 ، رقم 8272) ، ومسلم (2272/4 ، رقم 2956) ، والترمذى (562/4 ، رقم 2324)

(4) هو الصديق بن علي بن محمد بن علي القاضي الفقي العلامة رضي الدين المطيب الزبيدي الحنفي والد عبد الرحمن ويعرف بابن المطيب. مات في سحر يوم الثلاثاء سادس عشري رمضان سنة ثلاث وتسعين، وكان بارعاً في العربية والمعاني والبيان والمنطق والأصلين والتفسير والفقه. ولي قضاء الحنفية بزبيد بل كان ولي بها قضاء الأقضية بحيث كان الشافعية فيها من نوابه في أيام علي بن طاهر ودرس وأقرأ سيما العربية، وممن أخذ عنه حمزة الناشري وبالجملة فكان رئيس الحنفية ورأسهم وإليه مرجعهم. انظر الضوء اللامع: (186/2).

(5) هو محمد بن الحسن بن فورك الانصاري الأصبهاني، أبو بكر: واعظ عالم بالاصول والكلام، من فقهاء الشافعية. سمع بالبصرة وبغداد. وحدث بنيسابور، وبنى فيها مدرسة. وتوفي على مقربة منها، فنقل إليها. له كتب كثيرة منها (مشكل الحديث وغريبه – ط) و (النظامي – خ) في أصول الدين، ألفه لنظام الملك، و (الحدود – خ) في الاصول، وأسماء الرجال – خ) و (التفسير – خ). توفي 406هـ. انظر الوفيات: (482/1).

الكافر» فكيف تكون الدنيا سجنك وهذا حالك؟ وكيف تكون الدنيا جنتي وهذه حالتي؟ فقال له القاضي: إن الذي أنا فيه بالنظر إلى الجنة سجن لي، وأما ما أنت فيه من الحال بالنظر إلى عذاب النار جنة لك فأسلم اليهودي.

وأتى المؤلف بعبارة بديعة وإشارة لطيفة، مشيرا إلى حديثين بقوله: "كالغريب المسافر المسجون"؛ **الأول:** «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل». **والثاني:** «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر».

وشبه في الأول السالك الناسك بالغريب الذي ليس له مسكن يأويه. ثم ترقى وأضرب عنه إلى عابر سبيل؛ لأن الغريب قد يسكن في بلد الغربة بخلاف عابر السبيل القاصد لبلد شاسع، وبينهما أودية مردية، ومفاوز مهلكة وقطاع طريق. فإن من شأنه ألا يقيم لحظة فهو دائم السير إلى بلد الإقامة. **والمعنى:** لا تركن إلى الدنيا ولا تتخذها وطنا ولا تحدث نفسك بالبقاء فيها، ولا تتعلق منها بما لا يتعلق به الغريب في غير وطنه. والمرء في الدنيا كعبد أرسله سيده في حاجة إلى غير بلده فشأنه أن يبادر بفعل ما أمر به، ثم يعود إلى وطنه، ولا يعلق قلبه بشيء من بلد الغربة وينزل نفسه في بلد الغربة منزلة المسجون والمسجون لا يري ما يسره، وينتظر أسباب الهلاك ثم لا عزَّ للغريب إلا برب المنزل ولا راحة للمسجون إلا بخروجه، ولا راحة للمؤمن إلا بلقاء ربه: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾ **ومثال ذلك أيضا:** من دخل دار ملك وعلم أنه يخرج منها لا محلة، فرأى وجها حسنا لا يخرج معه من الدار فذلك بلاء عليه؛ لأنه يورثه الأنس بمنزل لا يمكنه المقام فيه، ولو أمكنه كان عليه في المقام خَطِرٌ من أن يطلع عليه الملك فيعذبه فإن أصابه ما يكره حتى نفره من المقام كان ذلك نعمة عليه، والدنيا دار نقمة قد دخلها الناس من باب الرحم، خارجون عنها من باب اللحد فكل ما يحقق أنسهم بالمنزل فهو بلاء وكل ما يزعج قلوبهم ويقطع أنسهم بها فهو نعمة.

كدر الدنيا والبلاء فيها نعمة

وإلى ذلك أشار بقوله: (وَكَدَرِهَا) قال في القاموس: كدر مثلثة الدال كدارةً وكدرًا محركة وكدورًا وكدورةً وكدرةً بضمهن واكدرَّ اكدرارًا وتكدَّرَ: نقيض صفا. وهو أكدرُ وكدِر وكدْر كفخذٍ وفخْذ، وكديرٌ. والمراد به هنا الأنكاد والتغييرات والمحزنات[1]، وذلك **(كَالْبَلاَءِ) قال في النهاية: قال القتيبي:** يقال: من الخير بليته أبليه، ومن الشر بلوته أبلوه بلاء، والمعروف أن الابتلاء يكون في الخير والشر معا، من غير فرق بين فعليهما[2].

وقال في المصباح: قال أبو زيد: ما باليتُ به مبالاةً والاسم "البلاء" وزن كتاب، وهو الهم الذي تحدث به نفسك[3].

والمراد بالبلاء هنا: كل ما في الجسم كالجذام والبرص والجدري وغيرها، وإن كان هو أعم من أن يكون بدنيا أو ماليا أو غيرهما. **كما قاله زروق. (وَالْمَرَضِ وَالْفَقْرِ وَالْمُصِيبَةِ)** في الأهل والقرابات والإخوان بالموت والفقد والفراق والمرض. وفي المال بالذهاب، وفي النفس بالضرب والجرح والطعن فيه، والازدراء به وفي العرض بالغيبة، والكذب عليه وغير ذلك **(نِعْمَة)** باطنة في طي نقمة، وفي معنى قوله تعالى: ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ قيل: ظاهرة: العوافي، وباطنة: البلايا لأنها نعمة الآخرة. فإن كل ما يصيب المؤمن فهو نعمة، كائنا ما كان فلله الحمد على نعمه.

قال عمر بن عبد العزيز[4]: لو كانت الدنيا نعيما بلا كدر لكانت هي الجنة ولم نحتج إلى الانتقال منها. والنعمة: كل ما أنعم الله عليك به، وكذلك النعيم، والنعمى والنعماء بالمد في الفتح، والقصر في الضم.

([1]) انظر القاموس المحيط: (602/1).

([2]) انظر النهاية في غريب الأثر: (411/1).

([3]) انظر المصباح المنير للمقري: (37/1).

([4]) تقدمت ترجمته.

قال القشيري: وليس كل إنعامه تعالى انتظام أسباب الدنيا والتمكن منها، بل ألطاف الله تعالى فيما زوِّي من الدنيا أكثر فإن قرب العبد من الله تعالى على حسب تباعده من الدنيا.

قال في التنوير: وفي البلايا والفاقات من أسرار الألطاف؛ ما لا يفهمه إلا أولوا البصائر[1]. **منها ما أشار إليه بقوله: (لأَنَّ منْ فَقَدَهُ)** أي الكدر **(سَكَنَ إِلَيْهَا فَتَصِيرُ جَنَّتَهُ) لما ورد أن** «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر[2]».

وروي: أن فرعون مكث أربعمائة سنة لم يتصدع رأسه حتى سكن إلى الدنيا فادعى الربوبية ولو أخذ مرة لما ادعاها. **(فَيَكْرَهَ لِقَاءَ الله)** بالموت. **وفي الحديث**: «من كره لقاء الله كره الله لقاءه[3]».

فلا ينبغي أن يفارق أحد الدنيا إلا محبا لله تعالى ليكون محبا للقائه فمن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه فإن المصير إليه والقدوم عليه بالموت ومن قدم على محبوبه عظم سروره بقدر محبته، ومن فارق محبوبه اشتدت محنته وعذابه، فمهما كان الغالب على القلب حب الدنيا فالدنيا جنته، والجنة: عبارة عن البقعة الجامعة لجميع المحابِّ، فموته خروج من الجنة وحيلولة بينه وبين ما يشتهيه فلا يخفى حال من يحال بينه وبين ما يشتهيه، وإذا لم يكن له محبوب سوى الله تعالى وسوى ذكره ومعرفته والفكر فيه، فالدنيا وعلائقها شاغلة عن المحبوب، فالدنيا سجنه؛ لأن السجن عبارة عن البقعة المانعة للمحبوس عن السراح إلى محابِّه، فموته قدوم على محبوبه وخلاص من السجن وتخلية بينه وبين محبوبه بلا مانع ولا مكدر. فنسأل الله تعالى أن يتوفانا مسلمين.

ولا مطمع في إجابة هذا الدعاء إلا باكتساب حب الله تعالى. ولا سبيل إلى الحب إلا بإخراج حب غيره من القلب، وتقطيع العلائق عن كل شيء سوى الله تعالى من جاه

---

(1) انظر التنوير في إسقاط التدبير: (7).

(2) أخرجه مسلم (2272/4 ، رقم 2956) ، والترمذى (562/4 ، رقم 2324) وقال : حسن صحيح

(3) أخرجه في كنز العمال 42799

ومال ووطن. **والأولى أن يدعو**: اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك وحب ما يقربني إلى حبك واجعله أحب إلي من الماء البارد.

فإن غاية السعادة أن يموت العبد محبا لله. وإنما تحصل المحبة بالمعرفة وبإخراج حب الدنيا من القلب، حتى تصير الدنيا كالسجن المانع من المحبوب.

ومن النعم التي في الكدر أيضا ما أشار إليه بقوله: (وَ) كدر الدنيا أيضا نعمة. **(لِأَنَّ بِهِ الِاضْطِرَارَ وَالرُّجُوعَ إِلَيْهِ تَعَالَى كَرْهًا)** وملازمة بابه بصدق اللجإ والافتقار يجد ذلك من نفسه كل من نزلت به بلية. وهذا هو أعظم فوائد البلايا.

قال في الحكم العطائية: من لم يقبل على الله بملاطفات الإحسان قيد إليه بسلاسل الامتحان[1].

وقال سيدي أبو مدين[2]: سنته تعالى استدعاء الخلق لعبادته بسعة الأرزاق ودوام المعافات ليرجعوا إليه بنعمته فإن لم يفعلوا ابتلاهم بالسراء والضراء لعلهم يرجعون. لأن مراده: رجوع العبد إليه طوعا أو كرها. **انتهى**.

وذلك في حق من أراد به العناية لا في حق من أراد به الغواية فإن ذلك حقه إقامة الحجة عليه كما أنه صححه لغيره. فافهم!. **قاله زروق**[3].

والحاصل: أن أهل الله حال المحنة والحاجة يفزعون إلى الله ويلجئون إليه بالضراعة بين يديه علما منهم أنه لا ينجيهم إلا هو. ولهذا كان ﷺ إذا نابه أمر فزع إلى الصلاة.

وكان المرسي إذا سأله إنسان في شفاعة يقول: أترى أن أنزل حاجتك بالله فإن قال: نعم قضيت، وإن أبى تركه. وأما غيرهم فيفزع إلى العوائد والأسباب ويقف بذا الباب وذا الباب فلم يزدهم ذلك إلا الحيرة. وإنما كان الاضطرار إلى الله نعمة. **(لِأَنَّ أَفْضَلَ أَحْوَالِ الْعَبْدِ حَالَةُ الذُّلِّ)** والذل التباؤس والمسكنة. **(وَالِاضْطِرَارِ)** وهو تأكيد الاحتياج

([1]) انظر شرح الحكم للأزهري: (64/1).

([2]) تقدمت ترجمته.

([3]) انظر شرح زروق على الحكم: (82).

واشتداده لأنها ترد العبد إلى مولاه بلا واسطة، وتقطعه عن الخلق إليه، وتعرفه بجلاله وقهره، وتسلبه عن دعواه ولأنها أيضا إخلاص محض والأعمال لا تخلوا من الشوائب، ولأنها إتيان الأمر من بابه وتوسل له بأسبابه. **قال أبو يزيد**[1]: قيل لي: خزائننا مملوءة بالخدمة، فإن أردتنا فعليك بالذلة والافتقار، ولأن فيها أيضا خاصية إجابة الدعاء قال تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ والاضطرار أخص أوصاف العبودية ولذا لم يطلب من العبد أجل منه.

وعن ابن وهب قال: كان رجل عبد الله تعالى سبعين عاما وهو صائم يفطر من سبت إلى سبت. فسأل الله حاجة فلم تقض فأقبل على نفسه وقال: من قبلك أوتيت ولو كان عندي خير قضيت حاجتك. فأنزل الله تعالى ملكا قال له: يا ابن آدم ساعتك التي أزريت فيها بنفسك خير من عبادتك التي مضت وقد قُضيت حاجتك. وأوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه: أما وعزتي وعظمتي لا ينتصر بي عبد من عبادي دون خلقي -أعلم ذلك من نيته- فتكيده السموات السبع والأرضون السبع ومن فيهن إلا جعلت له منهن مخرجا.

سُبْحَانَ مَنْ لاَ يَخِيبُ مَنْ قصَدَهْ ... مَنْ قَصَدَ اللهَ صَادِقًا وَجَدَهْ
قَدْ شَمِلَ الْخَلْقَ فَضْلُ نِعْمَتِهِ ... كُلٌّ إِلَى فَضْلِهِ يَمُدُّ يَدَهْ

ومع حالة الذل أيضا تكون النصرة قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ **قال أبو يزيد**: رأيت الباري فقلت: يا رب ما أقرب ما يتقرب به إليك؟ قال: بما ليس من صفتي؛ الذلة والافتقار.

قال الشعراني: أجمع مشايخ الطريق على أن من فيه صفتا الغنى والعز لا يمكن من دخول حضرة الصلاة أبدا فتقربنا إلى الحق إنما هو بتخلفنا بما ليس من صفته فانظر ما أعجب حضرة القرب! يطرد منها من تخلق بصفات مالكها التي لم يأذن فيها. **قاله المناوي**.

واعلم أن حالة الذل والاضطرار؛ لا تنفع صاحبها إلا بالرضى، والقيام بحقوق الله

---

(1) تقدمت ترجمته.

المطلوبة في ذلك من عبادة وغيرها. والالتجاء إلى الله وإظهار ما هو فيه من فاقة وتحقيقها.

ومعنى إظهارها: أي من حيث احتياجه وافتقاره، لا من حيث ما يحتاج إليه. ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ فذكر فقره لا حاجته، وذكر احتياجه لا مطلبه، فافهم!.

ومعنى تحقيقها: تأكيدها في النفس حتى يكون ثبوتها مستشعرا في عموم الأوقات والحلات، وإلا فهي ثابتة لذاته. وقد عتب الله أقواما اضطروا إليه عند وجود أسباب ألجائهم فلما زالت الأسباب زال اضطرارهم. قال تعالى: ﴿إِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً﴾ الآية. ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ قُلِ اللّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ الآيتين.

فالعبد لا يزاوله الاضطرار إلى ربه أبدا لا في الدنيا ولا في الآخرة ولو دخل الجنة إلا أنه غمس اضطراره في المنة التي أفرغت عليه ملابسها وهذا حكم الحقائق إذ لا يختلف حكمها في الغيب ولا في الشهادة، ولا في الدنيا ولا في الآخرة.

ولأجل كون حالة الاضطرار ذاتية للعبد كتب إبراهيم من أدهم[1] رقعة فيها:

أَنَا حَامِدٌ أَنَا شَاكِرٌ أَنَا ذَاكِرٌ ... أَنَا ضَائِعٌ أَنَا جَائِعٌ أَنَا عَارِي

هِيَ سِتَّةٌ فَأَنَا الضَّمِينُ لِنِصْفِهَا ... فَكُنِ الضَّمِينَ لِنِصْفِهَا يَا بَارِي

مَدْحِي لِغَيْرِكَ لَهْبُ نَارٍ خُضْتُهَا ... فَأَجِرْ عُبَيْدَكَ مِنْ لَهِيبِ النَّارِ

قال زروق: الذي عندي أن ضمانه إنما وقع على الثلاث الأخيرة لكونها لازمة لوجوده لا للثلاث الأول، إذ ليست بمقدوره إلا بتوفيق من ربه فضمانه لها دعوى. والله أعلم.

ويشهد لذلك حديث: «يا عبادي كلكم جائع...إلخ».

---

(1) تقدمت ترجمته.

قال في التنوير: إنما خص الله تعالى الحيوان بالافتقار إلى التغذية دون غيره من الموجودات لأنه تعالى وهب الحيوان من صفاته ما لو تركه من غير فاقة لادعى الربوبية أو أدعى فيه ذلك فأراد الله الحق سبحانه وهو الحكيم الخبير أن يحوجه إلى مأكل ومشرب وملبس وغير ذلك من أسباب الحاجة. لتكون أسباب الحاجة منه سببا لخمود الدعوى منه أو فيه. **ثم فسر الاضطرار المطلوب من العبد فقال:** (**وَهُوَ أَنْ لاَ يَرى**) العبد ولا يتوهم (**لِغياثِهِ**) مما هو فيه من الفقر والفاقة والحاجة والافتقار والاضطرار (**حَوْلاً**) ولا قوة (**وَلاَ سَبَبًا**) من الأسباب يستند إليه أو (**يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ**) الاعتماد على الشيء حصر القوة فيه، بمعنى الاستناد إليه في تحصيل المقصود (**إِلاَّ مَوْلاَهُ**) الكريم المغيث ولا يرى بينه وبين مولاه حسنة يستحق بها شيئا ولا يقدم طاعته فيدعو على أثرها، بل يقدم افتقاره وعجزه وفاقته وقلة حيلته ثم يدعو فيقول: يا مولاي هب لي بلا شيء ولا علاقة، ويكون في عدم اعتماده على شيء سوى الله تعالى (**كَالْغَرِيقِ**) في البحر (**وَالضَّالِّ**) في التيه والقفر فلا يرى لغياثة إلا مولاه ولا يرجو النجاة من هلكته أحدا سواه.

تنبيهان: **الأول: قال في كتاب البركة:** لا بأس أن يتوسل العبد إلى الله تعالى بما عمله من صالح خالص لله تعالى. **قاله المناوي وغيره.** دليله حديث الثلاثة. **ويتوسل أيضا بالأشخاص** كتوسل عمر بالعباس رضي الله عنهما في استسقائه. وجاء الترغيب في دعاء المرء لأخيه بظهر الغيب وغيره. **وقد روي عن مالك:** لا يتوسل بمخلوق أصلا. **وقيل:** إلا برسول الله. **قاله زروق.**

قيل: لا يتوسل إلى الله إلا بنفسه **لحديث:** «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك[1]»، إذ لا شيء أعظم من جاهه سبحانه. **وقيل:** يتوسل إلى الله بالمقطوع بفضيلته عند الله كالملائكة والأنبياء والأولياء. **وقيل**

---

(1) أخرجه الدارقطني في الأفراد كما في أطراف ابن طاهر (440/5، رقم 5986). وأخرجه أيضًا: أبو داود (232/1، رقم 879)، والترمذي (524/5، رقم 3493) وقال: حسن. والنسائي (222/2، رقم 1130).

لمالك: أتجوز بصاحب هذا القبر؟ يعني النبي ﷺ فقال للسائل: هل بينك وبين الله إلا هو؟
قلت: والوجهان جائزان عند ابن العربي[1]، إلا أن ترك التوسل بمخلوق أحسن.

الثاني: قد علمت أن العبد ملازم للافتقار إلى الله تعالى والعجز والنقص والعيب أبدا فوجب عليه أن يطلب ما يحتاج إليه دنيا وأخرى عند الأبواب التي فتحها الله تعالى لذلك بمحض اختياره لها إما عادة كالأطعمة والأشربة ونحوهما. وإما شرعا كالأعمال الصالحة فإذا وقف عند تلك الأبواب بصفة الذلة والمسكنة فلا يعتمد إلا على فضله تعالى لا عليها، ولا على الأبواب. والتزام الذلة والمسكنة: إنما هو لتحقيق الاعتماد على محض فضله تعالى لا لأجل أنهما يصلحان للاعتماد عليهما والإدلاء بهما على نيل غرضه، إذ هما من جملة الأبواب المخلوقة، والممكنات الناقصة التي لا تأثير لها في شيء البتة.

(وَأَدْنَاهَا) أي أحوال العبد: **(حَالَةُ النَّظَرِ إِلَى النَّفْسِ، وَالإِسْتِنَاد إِلَى الْغَيْرِ حَتَّى الْعِلْم وَالْعَمَل)** فالاعتماد على العمل من صفات الجاهلين لأنهم إذا وقعوا في زلة نقص بذلك رجاؤهم كما أنهم إذا عملوا طاعة جعلوها من أقوى معتمد هم فيتعلقوا بالأسباب وحجبوا عن رب الأرباب.

والناس ثلاثة: رجل يزيده رجاؤه بعمله، وينقص بزلله لاستشعاره حصول المراد بالعمل وفواته بالزلل فهذا معتمد على عمله ثم إن كان مستمرا فهو من العاملين وإن كان مقصرا فهو من الغافلين، ومقام هذا الإسلام. **والثاني:** رجل زاد شكره بعمله، وزاد التجاؤه بزلله لاستشعاره منة الله في العمل وفراره لمولاه في الزلل فهذا معتمد على مولاه راجع إليه في السراء بالحمد والشكر وفي الضراء بإظهار الفاقة والفقر، ومقام هذا الإيمان. **والثالث:** رجل أسلم نفسه لمولاه، فلم يزعجه ما به تولاه، بل شأنه السكون تحت جريان الأحكام، وفقد الاضطراب والاتهام، فلا يزيد رجاؤه لعلة ولا ينقص

([1]) تقدمت ترجمته.

لسبب، ولو وُزِنا لتعادلا في كل حال من أحواله وذلك لعدم اعتباره لأعماله، ومقام هذا الإحسان.

قال بعض المحققين: من بلغ إلى حقيقة الإسلام لم يقدر أن يفتر عن العمل، ومن بلغ إلى حقيقة الإيمان؛ لم يقدر أن يلتفت إلى العمل ومن بلغ إلى حقيقة الإحسان،: لم يقدر أن يلتفت إلى أحد سوى الله. ومن الاعتماد على العمل: استحلاء الطاعات (وَ) حتى الاستناد إلى الكرامة، و(**الْحَالِ**) من أحوال القلب؛ كالزهد والرضى والقناعة والصبر وغيرها أو هو السكون إلى استحلاء ما يلاقيك به ربك من فنون تقريبك لأنه من القواطع، ومن استحلى حالا، أو ساكن مقاما فقد استند له.

وقال عبد السلام بن مشيش[1]: أشكو إلى الله من برد الرضى والتسليم أي أخاف أن تشغلني حلاوتهما عن الله تعالى.

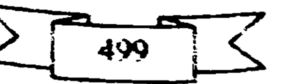
وقال أبو العباس المرسي[2]: اللطف حجاب عن اللطيف؛ يعني السكون إليه والوقوف عنده وشدة الفرح به ولو أن رجلا خاطبه كل طائر وكل شجر؛ السلام عليك يا ولي الله فسكنت نفسه إلى ذلك كان في يديها أسيرا.

وعن أبي يزيد[3] حين اطلع على أنواع العجائب، ووجه بسنّي الرغائب، وكشف له عن الملكوت الأعلى فقيل له: هل استحسنت شيئا منها؟ فقال: لم أر شيئا استحسنه، فقيل له أنت عبدي حقا.

(وَلِذَا) أي ولأجل كون أفضل أحوال العبد حالة الذل وأدناها حالة الاعتماد على الغير. (**كَانَ ذُلُّ الذَّنْبِ**) وهو ما عصي الله تعالى به. أو ما يذم مرتكبه شرعا وترادفه:

---

(1) تقدمت ترجمته.
(2) تقدمت ترجمته.
(3) تقدمت ترجمته.



المعصية والخطيئة والسيئة والجريمة. (وَ) ذل (الْبَلاَءِ) أعم من أن يكون بدنيا أو ماليا أو غيرهما، وذل الحرمان (خَيْرٌ مِنْ عِزِّ الطَّاعَةِ) والعافية (وَالْعَطَاءِ) من باب اللف والنشر المرتب إلا أن في كلامه احتباكا وهو أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني وبالعكس فإنه أثبت في الأول البلاء وحذف نظيره وهو العافية في الثاني. وأثبت في الثاني العطاء وحذف نظيره وهو الحرمان في الأول.

قال سعيد بن جبير[1]: أعبد الناس: رجل احترح من الذنوب ثم تاب فكلما ذكر ذنوبه احتقر عمله.

وقال مطرف[2]: لأن أبيت نائما وأصبح نادما أحب إلي من أن أبيت قائما وأصبح معجبا أرى نفسي على النائمين.

وقال أبو بكر الوراق: خضوع الفاسقين أفضل من صولة المطيعين.

وقال سيدي أبو جعفر بن حمدان بن سنان[3]: تكبر المطيعين على العصاة بطاعتهم شر من معاصيهم، وأضر عليهم منها، كما أن غفلة العبد عن توبة ذنب ارتكبه شر من ارتكابه. **وقال**: أنت تبغض العاصي بذنب واحد تظنه ولا تبغض نفسك بذنوب كثيرة تتيقنها. **قاله الشعراني**[4].

وإنما كان كذا لأنه عند الطاعة معرض للنظر للنفس، واستعظام العمل والسكون إليه والعجب به والتصنع والكبر والعز، واحتقار من لم يعملها، وطلب العوض عليها فهذه

([1]) تقدمت ترجمته.

([2]) تقدمت ترجمته.

([3]) هو أبو جعفر أحمد بن حمدان بن علي بن سنان من كبار مشايخ نيسابور صحب أبا عثمان ولقي أبا حفص، وهو أحد الخائفين الورعين جاور بمكة في آخر عمره وعشرين سنة متوالية نعى بموت أبي بشر سنة سبع، وثمانين، وثلاثمائة، وكان بمكة، وكان أوحد مشايخ الحرم في وقته، ومات أبو جعفر بن حمدان سنة إحدى عشرة، وثلاثمائة. انظر الطبقات للشعراني: (103/1).

([4]) انظر الطبقات الكبرى: (103/1).

ذنوب أحاطت بهذه الحسنة أحبطتها وأبطلتها، والكبر والعز من أوصاف الربوبية. والذنب يحمله على الاضطرار والافتقار والذل والاستكانة والخضوع والخوف والحذر. فهذه سيئة أحاطت بها حسنات وصفات عبودية تمحوها.

وقال سيدي أبو مدين[1]: انكسار العاصي خير من صولة المطيع.

وفي الحديث: «لولا أن الذنب خير من العجب ما خلى الله بين مؤمن وبين ذنب أبدا»... **الحديث.**

وكان سيدي أبو العباس المرسي[2] ربما دخل عليه المطيع فلا يبالي به لكبره بعمله ونظره إليه وإن دخل عليه عاص أكرمه لذلة معاصيه. **وقال في إشارته:** ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أي يولج الطاعة في المعصية والمعصية في الطاعة. **والروايات في هذا المعنى كثيرة، وانظر ابن عباد في شرح "معصية أورثت ذلا"... إلخ**[3].

ثم قال: وإنما كان كدر الدنيا نعمة لمن وفقه الله تعالى لأن (فِيهِ ضَعْفُ النَّفْسِ) وذبولها وخروسها عن طلب حظوظها وذهاب قوتها.

ومن فوائد ضعف قوى النفس بتعاقب الأمراض والبلايا عليها: سهولة خروج الروح وخفة النزع والسكرات خلاف موت الفجأة كما يشاهد من اختلاف أحوال الموتى في الشدة واللين.

وفي الحديث: «مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تفيئها الريح هكذا وهكذا، فإذا سكنت اعتدلت. وكذلك المؤمن يكفأ بالبلايا. ومثل الكافر كمثل الأرزة صماء معتدلة

---

[1] تقدمت ترجمته.
[2] تقدمت ترجمته.
[3] انظر شرح الحكم لابن عباد: (76).

حتى يقصمه الله أي لأن الكافر معافى غالبا ممتع بصحة جسمه كالأرزة الصماء حتى إذا أراد الله هلاكه قصمه لحينه على غرة وأخذه بغتة من غير لطف ولا رفق. فكان موته أشد عليه حسرة ومقاساة نزعه مع قوته وصحته أشد ألما وعذابا[1]». ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ وذلك عادة الله في أعدائه يفاجئهم بالموت على حال عتو وغفلة على غير استعداد بغتة ولهذا كره السلف موت الفجأة. **وقال ﷺ في رجل مات فجأة:** «سبحان الله كأنه على غضب المحروم من حرم وصيته». وقال: «موت الفجأة راحة المؤمن وأخذة أسف للكافر» وذلك لأن الموت يأتي المؤمن مستعدا له غالبا منتظرا لحلوله فهان أمره إليه وأفضى إلى راحته. وهذا أيضا من فوائد البلايا والأمراض، وذلك لأنها نذير الموت فيستعد من أصابته للقاء ربه، ويعرض عن الدنيا الكثيرة الأنكاد، ويتعلق قلبه بالآخرة فيتنصل من كل ما يخشى تباعته ويؤدي الحقوق إلى أهلها ويوصي. وقد طلب ﷺ التنصل ممن كان له عليه حق ومكن من القصاص منه وأوصى بالثقلين: الكتاب والسنة. وبالأنصار. ودعا بكتب كتاب لئلا تضل أمته بعده. ثم رأى الإمساك عنه أفضل. **صح من الشفا بتلفيق واختصار**[2].

وفي الحديث: «إن المؤمن إذا أصابه سقم ثم عوفي منه كان كفارة للماضي من ذنوبه وموعظة له فيما يستقبل. وإن المنافق إذا مرض وعوفي كان كالبعير عقله أهله ثم أرسلوه فلم يدر لم عقلوه ولم أرسلوه. (**وَتَحْقِيرِهَا**) وإيلامها فكل ما أضعف النفس وآلمها وأجهدها ونقصها، فهو محمود العاقبة. (**وَ**) في البلايا أيضا (**الْمَنْعِ**) للعبد (**مِنَ الْمَعَاصِي**) لأن بها تبطل صفاتها التي يقتضي وجودها وقوع العبد في المعاصي الظاهرة والباطنة، ويتأكد منه حب الدنيا والحرص على اتباع الهوى. **وقد قيل:** لا يخلو المؤمن من علة أو عيلة أو ذلة أو قلة.

([1]) أخرجه ابن أبي شيبة (89/7 ، رقم 34412) ، ومسلم (2163/4 ، رقم 2810) ، والطبراني (94/19 ، رقم 185).
([2]) انظر الشفا بتعريف حقوق المصطفى لعياض: (210/2).

وفي الخبر عن الله تعالى: "الفقر سجني والمرض قيدي أحبس بذلك من أحببته من عبادي». (وَتَكْفِيرِهَا) لحديث: «ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى، ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله به خطاياه[1]».

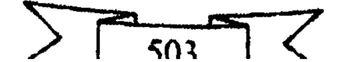
قال اللقاني في شرح الجوهرة: التكفير بالمصيبة واقع قطعا سخط أم صبر إلا أنه إن صبر اجتمع له التكفير والأجر وإلا فالتسخط معصية أخرى. ثم قد تكون قدر السيئة التي كفرت بالمصيبة أو أقل أو أعظم بحسب كثرة التسخط وقلته، وعظم المصيبة وقلتها وصغرها. **ولا يجوز أن يقال لمصاب**: جعل الله لك مصيبتك كفارة؛ لأنها كفارة قطعا. والدعاء بتحصيل الحاصل حرام لأنه قلة أدب معه تعالى بل يقال: اللهم عظم له الكفارة فإن تعظيمها لم يعلم ثبوته بخلاف أصل التكفير. **انتهى**.

وقال السنوسي: **الصبر على أقسام**: صبر على ما هو كسب للعبد؛ كالصبر على الأوامر وعن النواهي. فهذا يحصل فيه نيل المثوبات ورفع الدرجات. **والصبر** على ما ليس مكتسبا للعبد؛ كالأمراض والأحزان والهموم والمصيبة وغيرها. فهذا إنما يحصل فيه تكفير الذنوب فقط وإطلاق الثواب عليها تسامح باعتبار ماقارنها من الصبر والرضى؛ لأنه حصل عليها الثواب من حيث أنها مصيبة. **والفرق**: أن نيل المثوبات ورفع الدرجات يشترط فيه أن يكون مكتسبا للمكلف مأمورا به من جهة الشرع. فما ليس مأمورا به وإن كان مكتسبا كالأفعال المباحة فلا ثواب فيه وأحرى إن كان غير مأمور به ولا مكتسب كالأمراض ونحوها. **وأما سبب التكفير** فلا يشترط فيه شيء من ذلك بل قد يكون مكتسبا من باب الحسنات لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ وقد يكون غير مكتسب كالمصائب المؤلمة لحديث: «لا يصيب المؤمن وصب ولا نصب حتى الشوكة يشاكها إلا كفر بها من ذنوبه[2]». ولحديث: «مثل المريض إذا صح وبرئ من

---

(1) أخرجه ابن حبان (166/7 ، رقم 2905)

(2) أخرجه أيضًا : أحمد (81/3 ، رقم 11787) ، ومسلم (1992/4 ، رقم 2573) ، والبيهقى (373/3 ، رقم 6329)



مرضه كمثل البردة تقع من السماء في صفائها ولونها[1]»، **والحديث:** «لا تسبن الحمى فإنها تذهب خطايا بني آدم كما يذهب الكير خبث الحديد[2]».

وعن عيسى ﷺ **أنه قال:** لا يكون عالما من لم يفرح بدخول المصائب والأمراض على جسده وماله؛ لما يرجوه في ذلك من كفارة خطاياه.

وقيل: إن معنى ﴿يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ أي من الآثام والذنوب بالأمراض والحمى.

قال ابن مسعود: لا يكتب للمريض أجر إنما الأجر في العمل ولكن تكفر به الخطايا.

قال السمرقندي: يعني: لا يكتب له بالمرض أجر ولكن يكتب له مثل عمله الذي كان يعمل إن كان الرجل محسنا وعجز عن العمل ويعلم الله تعالى أنه لو كان صحيحا لكان يعمل مثل ما كان يعمله وأنه يكتب له مثل ثواب تلك الأعمال ويكون المرض كفارة لذنوبه. يعني إذا تاب وإلا فلا يكفرها إذا نوى أنه إن صح عاد إلى مثل الحالة الخبيثة. **انتهى.**

ومن ذلك ما في مسلم وغيره: «من مات له ثلاثة من الولد كانوا له حجابا من النار قيل يا رسول الله؛ واثنان قال واثنان[3]».

قال القرافي: الحجاب راجع إلى معنى التكفير. أي تكفر المصيبة ذنوبا كان من شأنها أن يدخل بها النار فلما كفرت تلك الذنوب بطل دخول النار بسببها فصارت المصيبة كالحجاب المانع من دخول النار من جهة مجاز التشبيه. **قال:** واعلم أن التكفير في موت

([1]) ذكره الحكيم (263/2) ، وأخرجه الديلمي (143/4 ، رقم 6331) ، وابن عساكر (387/11) وأخرجه أيضًا : الترمذى (411/4 ، رقم 2086)

([2]) أخرجه الطبراني (405/24 ، رقم 984) . قال الهيثمى (307/2) : رجاله رجال الصحيح

([3]) أخرجه أحمد (306/3 ، رقم 14324). والبخارى فى الأدب المفرد (63/1 ، رقم 146)

الأولاد ونحوهم؛ إنما هو بسبب الألم الداخل على القلب من فقد المحبوب فإن كثر التكفير. وإن قل قل التكفير.

ولا جَرَمَ. يكون التكفير على قدر نفاسة الولد في صفاته ونفاسته في بره، وأحواله، فإن كان الولد مكروها يستبشر بفقده فلا كفارة بفقده البتة. قال: وإنما أطلق رسول ﷺ التكفير في موت الأولاد؛ بناء على الغالب أنه يؤلم فظهر لك بهذا الفرق بين المكفرات وأسباب المثوبات. **انتهى وبالله تعالى التوفيق.**

قال الشعراني من أخلاق السلف: عدم مبادرتهم إلى الدعاء بالشفاء إذا دخلوا على مريض بل يتربص أحدهم حتى يعلم سبب مرضه وانتهاؤه ثم يدعوا بعد ذلك. فإن المرض ربما كان رفع درجات، فلا ينبغي الدعاء برفعه. وكذلك إذا كان كفارة لذنوبه فلا ينبغي الدعاء بدفعه. وكذلك القول فيه إذا كان عقوبة فالأولى أن يصبر العبد حتى تبلغ العقوبة حدها أدبا مع الله تعالى. وإن كان أحدهم له حال مع الله تعالى فله أن يسأله الشفاء من باب المنة والفضل. **فاعلم ذلك فإنه نفيس!**[1] .

تتمة: ومن ما يكفر الذنوب: الهمومُ والأحزان بطلب المعيشة وبالمباحات من حاجة الدنيا للفقراء. وأما الحزن على ما يفوت من قربات الآخرة فهو للمؤمنين درجات، وهو على حب الدنيا والجمع لها والحرص عليها عقوبات.

وقال بعض السلف: كفى به ذنبا لا يستغفر منه حب الدنيا. وقال آخر: لو لم يكن للعبد من الذنوب إلا أنه يغتم بمصائب الدنيا، وما يفوته منها ما لا يغتم بفوت نصيبه من الآخرة والتزود لها.

---

[1] انظر تنبيه المغترين: (177).

وفي الحديث: «إِذَا كَثُرَتْ ذُنُوبُ الْعَبْدِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مَا يُكَفِّرُهَا مِنَ العَمَلِ، ابْتَلَاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالْحُزْنِ لِيُكَفِّرَهَا عَنْهُ [1]».

ويقال: إن الهم الذي يعرض للقلب في وقت لا يعرف العبد سببه هو كفارة الهم بالخطايا. **ويقال:** حزن العقل عند تذكر الوقوف والمحاسبة لأجل جنايات الجسد فلزم العقل ذلك الهم وتظهر على العبد منه كآبة لا يعرف سبب همه. وكذلك إزراء العبد على نفسه ومقته لها عن معرفة بها وترك نظره وسكونه إلى خير إن ظهر عليها يكون من كفارات ذنوبه لأنه من تدبر الخطاب في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾. (وَ) في كدر الدنيا أيضا (**الإِقْبَال**) على الله تعالى و (**عَلَى الآخِرَةِ وَتَذْكِيرِهَا**) أي تذكرك الآخرة وتعرفك بجلال الله تعالى، وحقارة الدنيا ونفسك وتسليك من هواك وتشغلك عما لا يعني وتلجئك إلى الإخلاص في الدعاء (وَ) في كدر الدنيا أيضا (**الأَجْرُ إِنْ رَضِي**) أي باعتبار ما قارنه من الرضى والتوكل والصبر والزهد في الدنيا وغيرها، لا أنه يحصل فيه الأجر من حيث أنه بلاء لأن شرط المأجور فيه أن يكون مكتسبا للمكلف وإطلاق الأجر عليه تسامح كما تقدم.

ففي الحديث: «إن أهل العافية يودون يوم القيامة أن جلودهم قرضت بالمقاريض لما يشاهدون من ثواب أهل البلايا[2]».

وفيه أيضا: «إن الله يتعهد عبده المؤمن بالبلايا كما يتعهد الوالد ولده».

وفيه: «يؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان ويصب عليهم الأجر صبا بغير حساب. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ حتى يتمنى أهل العافية أن أجسادهم تقرض بالمقاريض مما ذهب به أهل البلايا من الفضل[1]».

([1]) أخرجه أحمد (157/6 ، رقم 25275) قال المنذرى (146/4) : رواته ثقات.

([2]) أخرجه الترمذى (603/4 ، رقم 2402) وقال : غريب . وأخرجه أيضًا : البيهقى فى شعب الإيمان (180/7 ، رقم 9921) ، والطبرانى فى الصغير (156/1 ، رقم 241)

وفيه: «إذا أحب الله عبدا ابتلاه فإن صبر احتباه، وإن رضي اصطفاه[2]».

وعن ابن عباس: حمى يوم تكفر ذنوب ثلاثين سنة.

وقال أبو هريرة: ﷺ: ما وجع أحب إلي من الحمى؛ لأنها تعطي كل مفصل حقه وقسطه من الأجر بسبب عموم الوجع. وقال: المرض لا يدخله رياء ولا سمعة بل هو محض أجر.

وقد قسم الشيخ عبد القادر الجيلي المرض إلى ثلاثة أقسام: عقوبة: وهو ما صاحبه السخط. وكفارة: وهو ما صاحبه الصبر. ودرجة: وهو ما صاحبه الرضى وانشراح الصدر. قاله الشعراني في طبقات الأولياء[3].

وأوحى الله تعالى إلى داوود عليه السلام يا داوود: أصبر على المؤنة حتى تأتيك من الله المعونة. ومات له ولد فحزن عليه داوود حزنا شديدا فقيل له: ما كان يعدل عندك؟ قال: ملء الأرض ذهبا أنفقُه في سبيل الله. قال الله عز وجل: "لك من الأجر مثل ذلك".

وقال محمد بن شقيق[4]: اشتريت بطيخة لأمي فسخطت فقلت: يا أماه؛ عَلاَمَ تسخطين؟ على بائعها أم على مشتريها أم على خالقها؟ فو الله إن خالقها لأحسن الخالقين، وإن البائع والمشتري ما أعطياك إلا ما قسم الله لك. فاستغفرت أمي من ذلك وتابت.

([1]) أخرجه الطبراني (182/12 ، رقم 12829) قال الهيثمي (305/2) : فيه جماعة بن الزبير وثقه أحمد وضعفه الدارقطني .

([2]) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (145/7 ، رقم 9788)

([3]) انظر الطبقات الكبرى: (23/1).

([4]) محمد بن شقيق بن ضبارة ابن مسعود بن حميد بن نصير بن الشماخ بن ضبارة بن فهيرة بن شقيق أبو الأسد اللخمي المؤدب ذكره أبو الحسين الرازي في تسمية من كتب عنه بدمشق وكان من أهل اللغة والنحو مات سنة ست وعشرين وثلاث مئة. انظر مختصر تاريخ دمشق: (305/1).

وقيل: لا يصف الله عبدا ولا يثني عليه حتى يبتليه فإن صبر فخرج من البلاء سليما مدحه ووصفه، وإلا بين له كذبه ودعواه.

وفيه: «عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له[1]».

وفيه: «من يرد الله به خيرا يصب منه[2]».

وفيه: «إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثل ما كان يعمل مقيما صحيحا[3]» **كذا في البخاري. وفي رواية هشيم:** «إذا كان العبد يعمل صالحا فشغله عن ذلك مرض أو غيره»...**الحديث.**

وفي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعا «أن العبد إذا كان على طريقة حسنة من العبادة ثم مرض قيل للملك الموكل به: اكتب له مثل عمله إذا كان طلقا حتى أطلقه أو أكفته إلي[4]».

وفي روية: «إن الله يكتب للمريض أفضل ما كان يعمل في صحته ما دام في وثاقه[5]».

وفي رواية: «ما من امرئ تكون له صلاة من الليل يغلبه عليها نوم أو وجع إلا كتب له أجر صلاته، وكان نومه عليه صدقة[6]».

وهذا كله في حق من كان يعمل طاعته فمنع منها وكانت نيته لولا المانع أن يدوم عليها.

([1]) أخرجه أحمد (333/4 ، رقم 18959) ، ومسلم (2295/4 ، رقم 2999)

([2]) أخرجه أحمد (237/2 ، رقم 7234) ، والبخارى (2138/5 ، رقم 5321)

([3]) أخرجه البخاري (1092/3 ، رقم 2834) وابن حبان (191/7 ، رقم 2929)

([4]) أخرجه أحمد (203/2 ، رقم 6895) قال الهيثمى (303/2) : إسناده صحيح

([5]) أخرجه الخطيب (191/2)

([6]) أخرجه أبو داود (34/2 ، رقم 1314) ، والنسائى (257/3 ، رقم 1784) ، والبيهقى (15/3 ، رقم 4499)

وفي بعض الأخبار: أن يونس قال لجبريل: دلني على أعبد أهل الأرض. فأتى به إلى رجل قد قطع الجذام يديه ورجليه...إلى أن قال: قال جبريل: يا يونس: إن هذا طريق ليس يوصل إلى رضى الله بشيء أفضل منه.

وفيه: أنه ﷺ قال للرجل الذي قال له: أوصني. قال: «لا تتهم الله في شيء قضاه عليك[1]».

وعن أنس: أن الله خلق عباده صحيح وسقيم وغني وفقير. ومنهم من لو أسقمه لأفسده ذلك، ومنهم من لو أصحه لأفسده ذلك، ومنهم من لو أغناه لأفسده ذلك والله أعلم بمصالح عباده.

وعن أبي هريرة: «لا يزال البلاء بالمؤمن في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله وما عليه خطيئة[2]».

وعن أنس ﷺ عن النبي ﷺ «إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافى به يوم القيامة[3]».

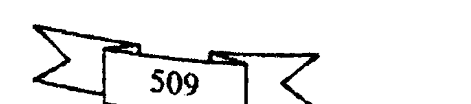
وفي حديث آخر: «إذا أحب الله عبدا ابتلاه ليسمع تضرعه[4]».

وعن لقمان: يا بني الذهب والفضة يختبران بالنار، والمؤمن يختبر بالبلاء.

وورد: أن من سعى لمريض في حاجته فقضاها غفر له. قيل له: يا رسول الله إن كان المريض من أهله؟ فقال: «ومن أعظم أجرا ممن سعى في حاجة أهل بيته؟». **وأخبار الصالحين في البلايا ورضاهم بها، والتذاذهم بها كثيرة لا تحصى.**

---

(1) أخرجه أحمد (318/5 ، رقم 22769)
(2) أخرجه أحمد (450/2 ، رقم 9810) ، وهناد (238/1 ، رقم 402) ، وابن حبان (176/7 ، رقم 2913)
(3) أخرجه الترمذى (601/4 ، رقم 2396) ، وقال : حسن غريب . والحاكم (651/4 ، رقم 8799)
(4) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (145/7 ، رقم 9788) ، والديلمى (251/1 ، رقم 970)



وعن بعض الصالحين أنه قال: لقد مرضت مرضة فأحببت أن لا تزول وبكى مطرف عند عمران بن حصين وهو مريض لما رأى من حاله. فقال له: لا تبك فإنه أحبه إلي حبه إلى الله تعالى. ثم قال: أحدثك بشيء لعل الله تعالى أن ينفعك به واكتم علي حتى أموت إن الملائكة تزورني فآنس بها وتسلم علي فأسمع تسليمها.

وبلغ سويد بن شعبة[1] غاية في المرض فقال: ما يسرني أني نقصت من هذا قلامة ظفر.

وعن عبد الرحمن بن زيد[2]: أنه مر بعبد مقطوع بالجذام يسيل قيحا وصديدا، فقال له يا هذا: لو تعالجت؟ فرفع رأسه إلى السماء فقال: يا سيدي بأي ذنب سلطت علي هؤلاء ليسخطوني عليك ويكرهوك إلي. سيدي لك العتبى من ذلك الذنب وأستغفرك منه لا أعود فيه أبدا. ثم أعرض بوجهه فانصرفنا.

وعن بشر بن الحارث[3]: قال: رأيت رجلا قد قطعه البلاء فدعوت الله أن يكشف ما به فسمع دعائي فقال: من هذا الفضولي الذي يدخل بيني وبين ربي ويعترض عليه في نعمته علي؟ قال بشر: فاعتقدت ألا أعترض على عبد في نعمة أراها عليه من البلاء.

وكان السلف يستوحشون إذا خرج عنهم عام لم يصابوا فيه بنقص من نفس أو مال. ويقال: لا يخلوا المؤمن في كل أربعين يوما أن يراع بروعة، أو يصاب بنكبة، وكانوا يكرهون فقد ذلك في هذا العدد أن يصابوا فيه بشيء. فهؤلاء شاهدوا في بلاياهم عاطاياهم وفي محنه مننه، وفي عنفه لطفه، فاوجب لهم ذلك من الرضى بما هم فيه والتنعم به والإلتذاذ ما حملهم على أن يحبوا زوال ذلك عنهم ولا نقصانه ووجود الألطاف والمنن

([1]) سويد بن شعبة الوربوعي من بني تميم وكان من الذين اختطوا بالكوفة أيام عمر بن الخطاب. للمزيد من أخباره انظر صفوة الصفوة: (42/3).

([2]) عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب العدوي القرشي: وال. كان من أتم الرجال خلقة. روى الحديث عن أبيه وغيره، وروى عنه ابنه عبد الحميد وآخرون. وزوجه عمر بن الخطاب ابنته فاطمة.وولاه يزيد بن معاوية مكة سنة 63 هـ. انظر للزيادة في ترجمته: تهذيب التهذيب: (176/6)

([3]) تقدمت ترجمته.

في البلايا لا تحصى.

وعن عطاء السلمي[1]: أنه بقي سبعا لم يذق طعاما فسر قلبه بذلك غاية السرور فقال: يا رب إن لم تطعمني ثلاثة أيام أخرى لأصلين لك ألف ركعة.

وعثرت امرأة فتحٍ الموصليِّ فطار ظفرها فضحكت، فقيل لها: ألم تجدي ألم الظفر؟ فقالت بلي؛ ولكن ثواب ذلك ألهاني عن وجود الاشتغال بالألم.

وقال الفضيل[2]: إن الله ليوصل البلاء بعبده المؤمن فيترل عليه بلاء بعد بلاء حتى يمشي وليس عليه خطيئة.

وقال أبو سليمان الداراني[3]: مر موسى عليه السلام برجل قد مزقت السباع لحمه ونهشت بطنه فوقف موسى عليه السلام متعجبا فقال: يا رب إنه لمطيع لك فما الذي أرى؟ فأوحى الله تعالى إلى موسى إنه سألني درجة لم يبلغها بعمله فابتليته لأبلغه تلك الدرجة، فقال أبو سليمان: سبحان الله؛ لو شاء الله لبلغه تلك الدرجة بلا بلوى ولكن سبحان الله الحليم العليم.

وقال الجنيد[4]: كنت نائما عند سري الشقطي فنبهني فقال لي: يا جنيد؛ رأيت كأني وقفت بين يديه فقال لي يا سري: خلقت الخلق فكلهم ادعوا محبتي فخلقت الدنيا فهرب مني تسعة أعشارهم وبقي معي العشر وخلقت الجنة فهرب مني تسعة أعشار العشر، وبقي معي عشر العشر فسلطت عليهم ذرة من البلاء فهرب مني تسعة أعشار عشر العشر فقلت للباقين معي: لا الدنيا أردتم، ولا الجنة أردتم ولا من النار هربتم فما تريدون؟ قالوا إنك تعلم ما نريد فقلت: إني مسلط عليكم من البلاء بعدد أنفاسكم مالا

---

(1) تقدمت ترجمته.

(2) تقدمت ترجمته.

(3) تقدمت ترجمته

(4) تقدمت ترجمته

تقوم به الجبال أتصبرون؟ قالوا إذا كنت أنت المبتلي فافعل ما بدا لك فهؤلاء عبادي حقا. انتهى.

قال في التنوير: إنما يُعينهم على حمل أقداره شهود حسن اختياره. **وأنشدوا**:

وَخفف عَنِّي مَا أُلاَقِي مِنَ الْعَنَا لِأَنَّكَ أَنْتَ الْمُبْتَلِي وَالْمُقَدِّرُ
ومَا لاِمْرِئٍ عَمَّا قَضَى الله معدلُ [1]وَلَيْسَ لَهُ مِنْهُ الَّذِي يَتَخَيَّرُ

وقال الأستاذ أبو علي: جربت مرة وكنت في صورة وحشة من ذلك ففتح على قلبي شيء من الرضى فكنت ألثم تلك القروح فخرجت و لم يبق منها أثر.

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري[2]: سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول في آخر عمره: وقد اشتدت به العلة: من أمارات التأييد حفظ التوحيد في أوقات الحكم ثم قال: كالمفسر لقوله مشيرا على ما كان فيه من حاله: هو أن يقرضك بمقاريض القدرة في إمضاء الأحكام قطعة قطعة وأنت ساكن جامد.

وفي الحديث: «إن الرجل لتكون له الدرجة في الجنة فلا يبلغها بشيء من عمله فيبتليه الله فيبلغ درجة لا يبلغها بعمله[3]».

وفيه: «داء الأنبياء الفالج واللَّقْوَة[4]» ومن المفاليج **-كما قال الجاحظ-** سيدنا إدريس عليه السلام، وأكثر ما يعتري الفالج المتوسطين من الناس لأن الشباب كثير الحركة والشيخ كثير اليبس. **رزقنا الله العافية في جميع الأمور ولطف بنا في جميع الأحوال وأعاننا على**

([1]) انظر التنوير في إسقاط التدبير: (6) والبيتان لابن عطاء الله.

([2]) عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة بن محمد. الإمام أبو القاسم القشيري، النيسابوري، الزاهد، الصوفي، شيخ خراسان، وأستاذ الجماعة، ومقدم الطائفة. قال الخطيب: كتبنا عنه وهو ثقة، وكان يعرف الأصول على مذهب الأشعري، والفروع على مذهب الشافعي. صنف التفسير، وهو من أجود التفاسير، والرسالة المشهورة في رجال الطريقة. وحج مع البيهقي، وأبي محمد الجويني. وكان له في الفروسية واستعمال السلاح يد بيضاء. وله عدة أولاد أئمة. عبد الله، وعبد الواحد، وعبد الرحيم، وعبد المنعم وغيرهم

([3]) أخرجه الطبراني (323/22 ، رقم 813)

([4]) أخرجه في فيض الباري في شرح صحيح البخاري: (215/3).

ما فيه رضاه بمنه وكرمه.

ولبعضهم سائلا العفو والعافية من الرب اللطيف:

يَا رَبِّ إِنْ كَانَ تَمْرِيضِي يُقَرِّبُنِي بــــي إِلَيْكَ زُلْفَى فَبَابُ الْعَفْوِ أَوْسَعُ لِي ع
أَوْ كَانَ مِنْ أَجْلِ تَكْفِيرِ الذُّنُوبِ فَـــلاَ لي
فــــــــــــــــــــــلا يَحْتَاجُ عَفْوُكَ لِلأَسْقَامِ وَالْعِلَــلِ لــل

ومن دعاء سلام بن مطيع: اللهم إن كنت قد بلغت أحدا من عبادك الصالحين درجــة ببلاء، فبلغنيها بالعافية. **قاله في المستطرف**[1].

قال الشعراني: وإياك أن تقول **كما قال بعض المحبين حين ابتلي:** اللهم إن كان في هذا رضاك فزدني، فإن رجال البلاء هم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وكان الشافعي به البواسير تنضح دما ليلا ونهارا حتى كان يجلس للحديث والطســت تحته يقطر فيه الدم فقال يوما: اللهم إن كان في هذا رضاك فزدني منه **فسمعه شــيخه مسلم بن خالد الزنجي**[2] فقال: مه يا محمد فنسأل الله العافية، فأنا وأنت لســنا مــن رجال البلاء. واعتل علة شديدة فكان يقول: اللهم إن كان في هذا رضاك فزدني منــه. فكتب إليه المعافري من سواد مصر: يا أبا عبد الله لست وإياك من أهل البلاء، فسل الله الرضى، والأولى بنا أن نسأل الرفق والعافية. فرجع الشافعي عن قوله هذا وقال: أستغفر الله وأتوب إليه. وكان بعد ذلك يقول اللهم اجعل لي خيرتي فيما أحببت.

وقال الثوري: أدركنا الناس وهم يخافون من الأمراض والبلايا خوف أن يقعوا في كراهة

---

(1) انظر المستطرف في كل فن مستظرف: (533/2).

(2) هو مسلم بن خالد بن مسلم بن سعيد القرشي المخزومي، مولاهم، المعروف بالزنجي: تابعي، من كبار الفقهاء. كان إمام أهل مكة. أصله من الشام. لقب بالزنجي لحمرته، أو على الضد، لبياضه.وبه تفقه الإمام الشافعي قبل أن يلقى مالكا. وهو الذى أذن للشافعي بالافتاء. انظر تذكرة الحفاظ: (235/1).

قضاء الله تعالى عليهم. قال: فو الله لا أدري ماذا يقع مني فلعلي أكفر ولا ..

وقال الصديق ﷺ:سلوا الله العافية فإن المؤمن لم يعط بعد الإيمان أفضل من العفو والعافية. وأيضا سؤال البلاء فيه دعوى لمقام الصبر وكل مدع ممتحن.

ولما قال سمنون المحب[1]:

وَلَيْسَ لِي فِي سِوَاكَ حَظٌّ فَكَيْفَ مَا شِئْتَ فَاخْتَبِرْنِي

ابتلي بعسر البول؛ **فصاح وصار يقول**: أدعو لعمكم الكذاب[2].

وقال أبو العباس المرسي[3]: لو قال عوض ما قال: فكيف ما شئت فاعف عني. لكان أولى من طلب الاختبار.

قال الشعراني: إنما وقع الامتحان لسمنون لغفلته عن التبري من الدعوى، فلو قال: مدني بالقوة ثم اختبرني بما شئت.

وكان شيخنا يقول: إذا قيل لك أتخاف من الله، فقل: نعم. لكن بقدر ما خلقه الله في من الخوف وبقدر ما خلق عندي من الرجاء. وكذلك القول في الحب لله تعالى. فمن سلك ذلك لا يقع له امتحان لتعويله على الله؛ لا على قوة نفسه وقد قالوا كل مدع ممتحن. وهذا ميزانه. والله أعلم. **انتهى**[4].

وقال ابن دريد[5] **في قصيدته المعروفة:**

([1]) هو سمنون بن حمزة الخواص، أبو الحسن، أو أبو بكر: صوفي ناسك، من الشعراء. له مقطوعات في غاية الجودة. وهو من أهل البصرة. سكن بغداد وتوفي بها نحو 290هـ. انظر حلية الأولياء: (309/10).

([2]) انظر التنوير لابن عطاء الله: (55).

([3]) تقدمت ترجمته.

([4]) انظر الطبقات الكبرى للشعراني: (230/1).

([5]) هو محمد بن الحسن بن دريد الازدي، من أزد عمان من قحطان، أبو بكر: من أئمة اللغة والادب. كانوا يقولون: ابن دريد أشعر العلماء وأعلم الشعراء. وهو صاحب (المقصورة الدريدية – ط). ولد في البصرة، وانتقل إلى عمان فأقام اثني عشر عاما، وعاد إلى

مارَستُ مَن لَو هَوَتِ الأَفلاكُ مِــن (1) جَوانِبِ الجَوِّ عَلَيــهِ مــا شَــكا

قال تلميذه ابن البغدادي[2]: إن الله عاقبه بقوله ذلك بفالج أبطل من مخرجه إلى قدميه فكان يصيح لذلك ويضج.

وفي البلايا أيضا: يقع له خلف ما يفوته من الطاعات فيكتب له في مرضه مثل ما كان يعمل من ذلك في صحته، وذلك أبلغ في الوصول إلى غرضه، لأنه من اختيار الله تعــالى وهو خير من اختياره لنفسه؛ لأن ما كان يفعله من الطاعات من لــه بتخليصــه عــن الشوائب وتصفيته من الآفات والمعائب؟ فليحسن العبد ظنه بمولاه وليعلم أن ما يختاره له خير مما يختاره لنفسه.

وفي الخبر: «يقول الله تعالى لملائكته: اكتبوا لعبدي صالح ما كان يعمل في صحته، فإنه في وثاقي إن أطلقته أبدلته لحما خيرا من لحمه ودما خيرا من دمه، وإن توفيته توفيته إلى رحمتي»[3].

قيل: أوحى الله تعالى إلى أيوب ﷺ: إني مبتليك، قال: يا رب: أين يكون القلب؟ قال: عندي، قال: يا رب فصب علي البلاء صبا، فلما بلغ البلاء منتهاه أوحى الله إليــه؛ إني معافيك فقال: يا رب فأين يكون قلبي؟ قال عندك. قال: "مسني الضر وأنت أرحم الراحمين".

البصرة. ثم رحل إلى نواحي فارس، فقلده (آل ميكال) ديوان فارس، ومدحهم بقصيدته (المقصورة) ثم رجع إلى بغداد، واتصل بالمقتدر العباسي فأجرى عليه في كل شهر خمسين دينارا، فأقام إلى أن توفي سنة 321هـــ. انظر للزيادة: وفيات الاعيان: (497/1).

[1] من قصيدة له 256بيتا مطلعها:

يا ظَبيَةً أَشبَه شَيءٍ بِالمَها ترعى الخُزامى بَينَ أَشجارِ النَقا

انظر ديوانه.

[2] عبد الله بن محمد من أهل قفصة، كان أبوه ظريفاً فلقب بالبغدادي؛ قال ابن رشيق في الأنموذج: وطريق ابن البغدادي في الشعر خارجة عن طرقات أهل العصر، لأنه كان جاهلي المرمى، ملوكي المنتمى، يخاله السامع فحلاً يهدر، أو أسداً (2) يزأر، وله أمثال واستعارات على حدة من الكلام وفي جهة من البلاغة، وكانت له من عبد الله بن حسن مكانة (3) ، ثم تغير عليه فداجاه إلى أن تخلص منه إلى مدينة صقلية، ثم ورد الحضرة، ثم انتقل إلى طرابلس الغرب، ثم انتقل إلى مصر سنة أربعمائة. وكانت له بمصر وقعات، فخرج منها مترقباً ثم عاد إلى الحضرة، وبها توفي سنة عشرين وأربعمائة، وقد قارب الستين. انظر فوات الوفيات: (227/2).

[3] أخرجه الخطيب (191/2)

وقال بعضهم: إذا أردت أن تعرف رضى الله عنك فانظر إلى رضاك عنـــه في البلـــوى وموافقتك إرادته في لمصائب، فإن كنت راضيا عنه في البلوى وموافقا لإرادته فهو عنك راض **لحديث**: «من رضي فله الرضى ومن سخط فله السخط». **(وَ)** في كدر الـــدنيا أيضا **(صَفَاءُ الْبَاطِنِ)** من عيوبه؛ كحب الدنيا والكبر والرياء وقمع الهوى وغير ذلـــك. **(وَ)** فيه أيضا تحصل **(طَاعَتُهُ)** أي طاعة القلب وأعماله التي ذرة منها خير مـــن أمثـــال الجبال وأعمال الجوارح وذلـــك مثـــل الصـــبر والرضـــى والزهـــد والتوكـــل. **وفي الحديث**:«ركعتان من رجل زاهد قلبه خير له وأحب إلى الله من عبادة المجتهدين إلى آخر الدهر أبدا سرمدا[1]».

وإلى ذلك أشار بقوله: (وَهِيَّ أَفْضَلُ مِنْ طَاعَةِ الظَّاهِرِ لأَنَّهَا) أي طاعة الباطن **(أَشَقُّ عَلَى النَّفْسِ) قال في التنوير**: وليس يدل على فهم العبد كثرة عمله، ولا مداومته على ورده، إنما يدل على فهمه، ونوره غناه بربه، وانحياشه إليه بقلبه، وتحرره من رق الطمع، وتحليه بحلية الورع.

وقال عبد الواحد بن زيد[2] لرجل تعبد خمسين سنة: حبيبي؛ أخبرني عنك هل قنعت به أم لا؟ قال: لا، قال: فهل آنست به؟ قال: لا. قال: فهل رضيت عنه؟ قال: لا؟ قال: فإنما مزيدك منه الصلاة والصوم؟ قال نعم. قال: لولا أني استحيي منك لأخبرتـــك أن أعمالك خمسين سنة مدخولة.

قال أبو طالب المكي[3]: أراد بذلك: إنه لم يرفعك بأعمالـــك إلى مقامـــات المقـــربين فيوجدك مواجد العارفين فيكون مزيدك أعمال القلوب التي يستعمل بها كـــل محبـــوب مطلوب، لأن القناعة به حال الموقن والأنس به مقام المحب. **والرضى**: وصف المتوكـــل

([1]) تقدم تخريجه.

([2]) تقدمت ترجمته.

([3]) تقدمت ترجمته.

إنما أنت عنده في طبقة أصحاب اليمين فمزيدك منه مزيد العموم من أعمال الجوارح، فمن وفقه الله تعالى إلى منازلة هذه المقامات وتوفية حقوقها في البلايا النازلة فقد حصل على كنوز البر. رزقنا الله العافية في جميع الأمور ولطف بنا في جميع الأحوال بمنه. ومن مولانا اللطيف الخبير نسأل اللطف بنا في أحكام المقادير فإن لطف الجليل جل جلاله يصحب عباده بحسب الحاجة وعونه يأتيهم على قدر نزول الشدة، وغوثه يسرع إليهم على مراتبهم في الاضطرار ولما كان الروح يتقوت بالهواء ولا يصبر عنه ساعة كان الهواء أكثر الموجودات إمكانا, ولما كانت الحاجة إلى الماء شديدة والصبر عنه قليل؛ كان قريبا منه في الإمكان. فتأمل؛ لو كانا لا يوخذان إلا بالثمن كالطعام؛ ما الحيلة؟ ولما كانت الحاجة إلى النار دون ذلك والقليل منها يكفي والكثير منها يضر كانت أقل إمكانا حتى أنها قل ما تكون إلا بالمعالجة، ومن تصفح ديدن الموجودات وجد هذا الفن من علومها كثيرا فالفواكه قليلة بالنسبة إلى القوت للاستضرار بعدم القوت. وأقل الجواهر وجودا ما لا تمس الحاجة إليه.

ولما كان المشي على الأقدام؛ كانت بشرتها أغلظ، والكف تحتاج إلى مباشرة الخشن فغلظت بشرتها بحسب الحاجة، ثم تدرج الغلظ في جميع البشرة على نحو ذلك حتى صارت بشرة الشفة أرقها إذ لا يباشرها إلا اللين.

ولما احتيج إلى كشف الوجه للمواجهة أعين على ألم الحر والبرد أكثر من سائر البدن.

ومن العجب: أنه يتألم بأقل الخجل حتى يتصبب عرقا ثم يحتمل شدة البرد.

ولما كان المظلوم إلى النصر أحوج؛ كانت الإجابة إلى دعائه أسرع «اتقوا دعوة المظلوم فليس بينها وبين الله حجاب[1]».

---

[1] أخرجه أحمد (153/3 ، رقم 12571)

ولما كان الصغير من الحيوان غير مستقل بنفسه استخدمت له الأم بقهر الشفقة بخلاف الكبير. فسبحان من عجزت العقول عن إدراك بعض لطائفه وقصرت الألسن عن شكر أقل عوارفه.

تتمة: ومن فوائد المرض أيضا: أن القلم يرفع عن المريض، ويكتب له ما كان يعمل صحيحا، ويحمد الله لعواده فيكتب شاكرا ويغفر له إن شفي وإن مات دخل الجنة، وإن المرض يتتبع كل خطيئة في المفاصل حتى يستخرجها وإن أنينه تسبيح وصياحه تهليل ونفسه صدقة ونومه عبادة وتقلبه من جنب إلى جنب جهاد، ثم إن احتسب مرضه مصيبة وصبر كتب في ديوان الصابرين، وإن احتسبه نعمة وشكر كتب في ديوان الشاكرين.

ومن آداب المرض: كتمه وإخفاؤه **لما ورد:** أن من كنوز الجنة كتمان الأمراض والمصائب والصدقة والرضى به والصبر ولا يتسخط ولا يضجر، وأداء الفرائض في أوقاتها ما استطاع ولا يشكو لأحد إلا الطبيب يطبه ولا يحدث به إلا أن يرى ذلك نعمة فيتحدث بنعمة الله، وأن يرى ذلك نعمة ليطهره من الذنوب وتذكرة من الله ووعظا، ويوصي لقرابته لئلا يختم عمله بالمعصية.

يتحرون برا وبحرا والقدوة بهم أولى. قال تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ سَمَّاهُمْ رجالا لما قاموا بالأسباب ولم يشتغلوا بها عن الذكر.

وفي الحديث: إنهم أثنوا عند النبي ﷺ على رجل بالعبادة فقال ﷺ: «فمن كان يطعمه ويسقيه ويعلف دابته ويكفيه ضيعته؟ قالوا: نحن يا رسول الله. قال: كلكم خير منه[1]».

وقال أبو سليمان الداراني[2]: ليس الشأن أن تصفَّ قدميك للعبادة وغيرك يقوت لك، إنما الشأن أن تحرز رغيفك في بيتك ثم تُغْلِقْهُ وتصلي فلا تبالي بعد ذلك بأي داقٌ دقٌ عليك الباب، بخلاف من قام في بيته يصلي وليس عنده شيء يأكله فيصير كل داقٌ دقٌ الباب يقول إن معه رغيفا.

وقال الثوري: عليكم بالحرفة فإن عامة من أتى أبواب الأمراء إنما أتاهم من الحاجة[3].

وقال الفضيل: إذا افتقر أحدكم فلا يجعل فقره فيما بينه وبين الناس وليجعله فيما بينه وبين الله لئلا يهون في أعين الناس يحزن ويسوء بذلك الصديق ويسر بذلك العدو.

وقال بعض السلف: وجدت خير الدنيا والآخرة في التقوى والغنى، وشر الدنيا والآخرة في الكفر والفقر. **ولبعضهم:**

وَلَمْ أَرَ بَعْدَ الدِّينِ خَيْرًا مِنَ الْغِنَى ... وَلَمْ أَرَ بَعْدَ الْكُفْرِ شَرًّا مِنَ الْفَقْرِ

وقيل: إن كان شيء فوق الحياة فالصحة. وإن كان شيء مثلها فالغنى، وإن كان شيء فوق الموت فالمرض، وإن كان شيء مثله فالفقر. وقيل: القبر خير من الفقر. **وأنشدو:**

أَعُوذُ بِكَ اللهُمَّ مِنَ بَطَرِ الْغَنَى ... وَمِنْ نَهْكَةِ الْبَلْوَى وَمِنْ ذِلَّةِ الْفَقْرِ

وقال مجاهد[4]: الخير كله في القرآن: المال.

وقال السدي[1] وابن زيد[2]: إن الحسنة في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ المال. وفي الآخرة حسنة: الجنة.

---

(1) رواه أبو داوود في المراسيل: (306) عن أبي قلابة.

(2) تقدمت ترجمته.

(3) انظر كلام الشعراني بكامله في تنبيه المغترين: (303).

(4) تقدمت ترجمته.

والحاصل: أن المال كالحية التي فيها سم ناقع وترياق نافع فإن أصابها المعزم الذي يعرف وجه الاحتراز عن سمها، وطريق استخراج ترياقها النافع، كانت نعمة وإلا فهي عليه هلاك وبلاء، وإن الجاه كالبحر الذي تحته أصناف الجواهر واللآلي. فمن ظفر بها فهي نعمة، وإن خاضه جاهل هلك. وأكثر الناس جاهل بطريق الرقية لحية المال وبطريق الغوص في بحر الجاه فوجب تحذيرهم لئلا يهلكوا بسم المال قبل الوصول إلى ترياقه وبتمساح الجاه قبل العثور على جواهره فمن وفق ببصيرته وكمال معرفته فله أن يقرب منها متقيا داءها ومستخرجا دواءها. ومن لا: فالبعدَ البعدَ والفرارَ الفرارَ عن مظان الأخصار ولا تعدل بالسلامة شيئا.

الكفاف أفضل من الفقر والغنى

ثم قال: (وَالْكَفَافُ فِيهَا) أي في الدنيا أي قدر الحاجة لا يفضل عنها.

قال النووي: هو الكفاية بلا زيادة ولا نقص. وقال أيضا: هو ما يسد الرمق.

وقال القرطبي[3]: هو ما يكف عن الحاجات، ويدفع الضرورات والفاقات. ولا يلحق بأهل الترفهات. **وقال أيضا:** هو ما يقوتهم ويكفيهم بحيث لا يشوشهم الجهد، ولا ترهقهم الفاقة، ولا تذلهم المسالة والحاجة. ولا يكون في ذلك فضول يخرج إلى الترفه والتبسط في الدنيا والركون إليها.

وفي بعض الأخبار: أن عليا كرم الله وجهه **قال:** أربعة آلاف درهم فما دونها نفقة فما زاد عليها فهو كنز، وإن أُدِّيَتْ زكاته.

وقال أبو ذر[4] **وجماعة معه:** ما فضل من مال الرجل عن حاجة نفسه فهو كنز.

([1]) تقدمت ترجمته.

([2]) تقدمت ترجمته.

([3]) تقدمت ترجمته.

([4]) تقدمت ترجمته.

وقال الشعراني: الكفاف هو الذي يفضل عن الغداء والعشاء منه شـيء. وصـاحب الكفاف معدود من الفقراء؛ لأنه لا يترفه في طيبات الدنيا بل يجاهد نفسه في الصبر عن القدر الزائد على الكفاف فلم يفته من حال الفقراء إلا السلامة من قهر الحاجـة وذل المسألة.

وفي الحديث: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقنعه الله بما رزقه[1]».

معناه: من اتصف بتلك الصفات حصل على مطلوبه، وظفر بمرغوبه في الدنيا والآخرة.

وفيه: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا[2]». أي اكفهم من القوت مالا يـرهقهم إلى ذل المسألة ولا يكون فيه فضول يبعث على الترفه والتبسط في الدنيا.

وذكر ابن رشد في البيان: أن الفقر أفضل من الكفاف لأن الفقير يؤجر من **وجهين:**

-**الصبر** على الفقر مع الرضى والشكر.

والثاني: تصرفه فيما لا بد منه من نفقة نفسه، ومن تلزمه نفقته، فصاحب الكفاف إنمـا يؤجر على الشكر على الكفاف، وإن الغنى أفضل من الفقر؛ لأن الغنى يؤجر من وجوه؛ وهي الشكر والصبر على إعطاء الزكاة الواجبة والإنفاق على عياله[3]. **(أَفْضَلُ مِنَ الْفَقْرِ وَالْغِنَى) لحديث:** «اللهم اجعل رزق آل محمد كفافا[4]» **في هذا الحديث دليل علـى فضل الكفاف وأخذ البلغة من الدنيا** والزهد فيما فوق ذلك رغبة في توفير نعيم الآخرة وإيثارا لما يبقى على ما يفنى فينبغي أن تقتدي به أمته في ذلك. **ومعلوم** أنه ﷺ لا يسأل إلا أفضل الأحوال وأسنى المقامات والأعمال. **ولحديث:** «قد أفلح من أسلم وكان رزقه كفافا وقنعه الله بما رزقه[5]». **ولحديث:** «يابن آدم إنك إن تبذل الفضل خير لك، وإن

---

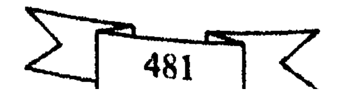
(1) أخرجه أحمد (168/2 ، رقم 6572) ، ومسلم (730/2 ، رقم 1054)

(2) أخرجه البخارى (2372/5 ، رقم 6095) ، ومسلم (2281/4 ، رقم 1055)

(3) انظر البيان والتحصيل لابن رشد: ((109/17).

(4) تقدم تخريجه.

(5) تقدم تخريجه.



تمسك شر لك ولا تلام على كفاف[1]». **وحديث**: «إن أغبط أوليائي عندي لمؤمن خفيف الحاذ ذو حظ من الصلاة أحسن عبادة ربه، وأطاعه في السر والعلانية وكان غامضا في الناس لا يشار إليه بالأصابع وكان رزقه كفافا فصبر على ذلك[2]» ... **الحديث**. ولأن الكفاف أيضا حالة متوسطة.

وفي الحديث: «خير الأمور أوسطها[3]» ولأن حالة صاحبه أيضا حالة الفقير إذ لا يترفه في الطيبات. وكانت حاله إلى الفقر أقرب فقد حصل له ما حصل للفقير من الثواب على الصبر وكفي مرارته وآفاته. وعلى هذا فأهل الكفاف هم إن شاء الله صدر كتيبة الفقراء الداخلين الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام. لأنهم وسطهم والوسط العدل. وليسوا من الأغنياء كما ذكرنا. وإذا تأملت **هذا وجدت حالة الكفاف هي حالة أكثر الناس اليوم سيما أهل البادية. قاله الشعراني**. ولأن في الكفاف أيضا السلامة من آفات الغنى والفقر. وفتنتيهما اللتين كان يتعوذ منهما النبي ﷺ.

أما آفات الغنى فقال الغزالي: هي الحرص على جمع المال حتى يكسبه من غير حله، ويمنعه من واجبات إنفاقه. **وقال البيضاوي**: هي البطر والطغيان والتفاخر وصرف المال في المعاصي وما أشبهه كأخذه من الحرام وأن لا يؤدي حقه وأن يتكبر به.

وأما آفات الفقر فقال بعضهم: هي حسد الأغنياء والطمع في مالهم والتذلل لهم بما يدنس به عرضه ويثلم به دينه وعدم الرضى بما قسم الله له إلى غير ذلك مما لا تحمد عاقبته. **وأما قوله ﷺ**: «كاد الفقر أن يكون كفرا[4]» **فمعناه**: أي قرب فقر اليد من المال والقلب لطلب الزيادة إذا لم يقارنه صبر أن يكفر العبد بربه عز وجل لما يصحبه في هذا الفقر من التسخط على الله عز وجل والاعتراض والتضجر، فيحمله ذلك على أمور محرمة ليحصل قوت نفسه وعياله فيفضي إلى الكفر، أو لا يشبع من الذي يعطى فيطلب

([1]) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (224/3 ، رقم 3386)

([2]) تقدم تخريجه

([3]) تقدم تخريجه

([4]) أخرجه أبو نعيم (53/3)

الزيادة ويستحل شيئا من هذه المحرمات **فيكفر لحديث صحيح**.

وقال الغزالي: فتنة الفقر المراد به: الفقر المدقع الذي لا يصحبه خير ولا ورع حتى يتضرر صاحبه بسببه فيما يليق بأهل الدين والمروءة ولا يبالي بسبب فاقته على أي حرام وثب ولا في أي حالة تورط[1].

وقيل: المراد بالمدقع: فقر النفس الذي لا يرده ملك الدنيا بحذافيرها. **قال الراغب**[2]: هذا هو الذي استعاذ منه النبي ﷺ. **وقال**: الفقر المستعاذ منه: هو الفقر المدقع الذي يفضي بصاحبه إلى كفران نعم الله تعالى وإلى التكفف والتذلل. والمدقع: الملصق بالدقعاء وهي التراب ذلا. **قاله العلقمي**.

وقال أعرابي: أحسن الأحوال: حال يغبطك بها من دونك، ولا يحقرك بها من فوقك.

تتمة: قال الغزالي: الضرورة: مطعم وملبس ومسكن والباقي فضول فالضرورة من المطعم ما يقيم صلبك، ويسد رمقك واقصد به التقوى على الطاعة واقتصر في اليوم والليلة بمرة بما لا يزيد على ثلث البطن ولا تطلب اللذائذ. بل اقنع بما اتفق فإن قدرت على هذا وأسقطت عنك مؤنة الشهوات أمكنك ألا تأكل إلا من حله، فإن الحلال يعز، ولا يفي بالشهوات. **وأما** ملبسك فما يدفع الحر والبرد وستر العورة فكل ما دفع البرد عن رأسك ولو قلنسوة بدانق فطلبك غيره فضول منك يضيع زمانك، ويلزمك الشغل الدائم في تحصيله بالكسب مرة، والطمع أخرى من الحرام. فإن لم تكتف بهذا كنت ممن لا يملأ بطنه إلا التراب. وكذلك المسكن إن اكتفيت بمقصوده؛ كفاك السماء سقفا والأرض مستقرا فإن غلبك حر أو برد فالمسجد وإلا فبيت يمنع من الأبصار والأمطار لتتفرغ لله والتزود لآخرتك. والاستعداد لخاتمتك وإن جاوزت حد الضرورة إلى أودية الأماني؛ تشعبت همومك و لم يبال الله في أي واد أهلكك. **انتهى**[3].

---

(1) انظر الاحياء: (323/1).

(2) هو الراغب الاصفهاني الحسين بن محمد بن المفضل أبو القاسم الاصفهاني، المعروف بالراغب، أديب من الحكماء العلماء، سكن بغداد واشتهر حتى كان يقرن بالإمام الغزالي. توفي 502هـ. انظر كشف الظنون: (36/1).

(3) انظر الاحياء: (179/4).

وقال صاحب تحفة الملوك: الأكل على ثلاثة أنواع: فرض: وهو ما يدفع بـه الهلـك ويمكن معه الصلاة قائما. ومباح: وهو أدنى الشبع ويحاسب به حسابا يسيرا إن كان من حلال. وحرام: وهو ما زاد على ذلك إلا صوم أو موافقة ضيف، أو كان من أصحاب الأعمال الشاقة؛ كالحرَّاث والحصَّاد والغرَّاس. والفاعل.

ومن أخلاق السلف: استحياؤهم من كثرة ترددهم إلى الخلاء لأجل كثرة الأكل.

وكان عبد الرحمن بن أبي نعيم لا يأكل إلا بعد خمسة عشر يوما فدعاه الحجاج ووضعه في بيت وأغلق عليه الباب خمسة عشر يوما ثم فتحه فإذا هو قائم يصلي.

وكان عبد الله بن الزبير يطوي الأسبوع فلا يأكل إلا يوم السبت.

وقال أبو سليمان الداراني[1]: أحلى ما تكون العبادة إلـي إذا ألصقت بطني بظهري. فإن الحكمة كالعروس تطلب البيت الخالي تنام فيه لتخلو بصاحبها.

وقال الحسن: لا تجمعوا بين إدامين، فإنه طعام المنافقين.

وكان أبو عفان المغربي؛ يأكل في كل ستة أشهرة مرة.

قال الشعراني: سمعت سيدي عليا المرصفي يقول: وقع لسيدي عيسى بن نجم أنه مكث سبع عشرة سنة لا يأكل ولا يشرب ولا ينام وهو على وضوء واحد[2].

وكان سهل التستري يقسم عقله وقوته ومعرفته إلى سبعة أجزاء؛ فلا يأكل حتى يذهب من كل واحد ستة أجزاء. ويقول: لولا أني أخاف الهلاك لكنت لا ءاكل حـتى تفـنى السبعة أجزاء[3].

وكان سيدي علي الخواص لا يجاوز تسع لُقَمٍ، ويقول: قال رسول الله ﷺ: «حسـب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه[1]» واللقيمات من الثلاث إلى التسع فمن آمن به الإيمـان الكامل كفته التسع لقم، ومن لم يكتف بها لم يؤمن بقوله ﷺ.

([1]) هو عبد الرحمن بن أحمد بن عطية العنسي المدحجي، أبو سليمان الداراني، زاهد مشهور من أهل داريا (بغوطة دمشق) رحل إلى بغداد وأقام بها مدة. ثم عاد إلى الشام وتوفي ببلده سنة 215هـ. انظر وفيات الأعيان: (217/1).

([2]) انظر الطبقات للشعراني: (335/1).

([3]) انظر هذا الكلام من بدايته: "ومن أخلاق السلف..." في كتاب تنبيه المغترين للشعراني: (132).

فإن قيل: ما ذكرتم من طي أكثر من ثلاثة أيام لم يفعله ﷺ، وأنتم قيدتم بالجوع الشرعي، فما وجه الزيادة؟ **فالجواب:** أنه ﷺ كان رحمة على أمته، وكان يقول: «قدروا الناس بأضعفهم، مع أنه ﷺ كان يواصل الصوم. ويحتمل أن هؤلاء الذين جاعوا نصف شهر وأكثر كانوا من الورثة له في ذلك. ويحتمل نهيه عن الوصال على من لم يطق ذلك، فنهاه أن يعذب نفسه حتى تصير تكره عبادة ربها.

وقال بعض المحققين: إن أحدهم يتناول نحو الزبيبة والرطبة ونحو القطرة من الماء ليخرج عن الوصال المنهي عنه. وذلك هو الظن. **ثم قال:** (**والغنيُّ الشَّاكِرُ**) وشكره أن يفرح بنعمة الله تعالى عليه ويشكر ربه، وأن يمسك قدر الضرورة من ماله ولا يستعمله في المعصية. ولا يستعمل الفاضل في التنعم المباح بل يصرفه إلى الخيرات. (**أَفْضَلُ مِنَ الْفَقِيرِ الصَّابِرِ**) **لحديث الصحيحين:** «ذهب أهل الدثور بالأجور[2]»...**الحديث. وحديث:** «المكثرون هم المقلون إلا من قال بالمال: هكذا وهكذا[3]». **وحديث سعد:** «إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة[4]». **وحديث:** «نعم المال الصالح للرجل الصالح[5]».

والحاصل: أنهما محنتان يختبر بهما العبد في الشكر والصبر، وأنهما متقابلان لما يعرض لكل منهما من العوارض فيمدح أو يذم.

والفقر عند الصوفية: نفض اليد من الدنيا ضبطا وطلبا مدحا وذما ولأن في الأول احتمال ألم في صرف الفاضل إلى الفقراء وترك صرفه إلى التنعم المباح. وكان الحاصل يرجع إلى أن شيئين أفضل من شيء واحد وأن الجملة أعلى رتبة من البعض.

---

(1) أخرجه ابن حبان (2/449 ، رقم 674) ، والبيهقى فى شعب الإيمان (5/28 ، رقم 5649)
(2) أخرجه ابن عساكر (53/297)
(3) أخرجه البخارى (5/2366 ، رقم 6078) ، ومسلم (2/688 ، رقم 94) .
(4) أخرجه مالك (2/763 ، رقم 1456) ، والطيالسى (ص 27 ، رقم 195)
(5) تقدم تخريجه.

وأما إذا كان شكره بأن لا يستعين به على معصية بل يصرفه إلى التنعم المباح؛ فالصبر هنا أفضل من الشكر والفقير الصابر أفضل من الغني الممسك ماله الصارف له إلى المباحات، لا من الغنى الصارف له إلى الخيرات؛ لأن الفقير الصابر قد جاهد نفسه وكسر همتها وأحسن الرضى على بلاء الله تعالى. والغني تبع همته وأطاع شهوته. ولكنه اقتصر على المباح وفي الحلال مندوحة عن الحرام أيضا وهذا المعنى عنا الجنيد بأن الفقير الصابر أفضل. **قال:** لأن الغني تصحبه فيما عليه أشياء تلائم نفسه وتمتعها وتلذذها، والفقير تصحبه فيما عليه أشياء تؤلم نفسه وتقبضها وتزعجها فكان الذي آلم نفسه وأزعجها أتم حالا ممن متعها ونعمها. **ويقال: كان أبو العباس ابن عطاء الله رحمه الله خالفه في ذلك، وقال:** الغني الشاكر أفضل **فدعا عليه الجنيد** فأصابه بلاء من قتل أولاده وتلف ماله وزوال عقله أربع عشرة سنة فكان يقول: **دعوة الجنيد أصابتني**، ورجع إلى تفضيل الفقير الصابر.

وإن احتج على فضل الغني بقوله تعالى: ﴿تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ ...الآية. أجبت بأن الآية حجة لفضل الفقير لأن بكاء هم ومشاهد هم تقصير هم لمشاهدة عظيم الربوبية عليهم حتى كأنهم مسيئون حتى يبشرهم الله بأنهم محسنون ولو كان بكاؤهم وحزنهم على الدنيا لذموا. **وأيضا:** شاركوا رسول الله ﷺ في قوله: ﴿لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ فمن كان برسول الله مقتديا فهو أفضل فإن الفقر شعار الأنبياء.

وقيل لرسول الله ﷺ: أرأيت أشياء نشتهيها ولا نقدر عليها هل لنا فيها أجر؟ قال: ففيم توجرون إذا لم تؤجروا فيها.

وفي حاشية علي الأجهوري[1] على الرسالة: أن الغنى ما زاد على المحتاج إليه وهل المراد: في يوم أو سنة؟ والظاهر الأول أي يعتبر كل يوم على حدته فإذا كان عنده في يوم زيادة على المحتاج في الآخر دونه كان غنيا في اليوم الأول دون الثاني. وهكذا.

ومعنى كون الغني أفضل وعكسه: أن ثواب الغني على أعماله الصالحة أكثر من ثواب

---

(1) تقدمت ترجمته.

الفقير عليها. **ويحتمل** أن حسنات الغني أكثر من حسات الفقير. ومهما لاحظت ما ذكرنا علمت أن لكل واحد من القولين وجها في بعض الأحوال فرب فقير صابر أفضل من غني شاكر كما سبق، ورب غني شاكر أفضل من فقير صابر. وهو المراد في المتن وهو الغني الذي يرى نفسه مثل الفقير. إذ لا يملك لنفسه من ماله إلا قدر الضرورة والباقي يصرفه إلى الخيرات أو يمسكه على اعتقاده أنه من المحتاجين والمساكين. ثم إذا صرف لم يصرف إلى طلب الجاه والصيت ولا لتقليد منة بل أداء لحق الله تعالى في تفقد عباده فهذا أفضل.

فإن قلت: فهذا لا يثقل على النفس والفقير يثقل عليه الفقر لأن هذا يستشعر لذة القدرة وذلك يستشعر ألم الصبر وإن كان متألما بفراق المال فينجبر ذلك بلذته في القدرة.

فاعلم أن الذي نراه أن الذي ينفق ماله عن رغبة وطيب نفس؛ أكمل حالا ممن ينفقه وهو بخيل به وإنما يقتطعه عن نفسه قهرا فإيلام النفس ليس مطلوبا لعينه بل لتأديبها، وذلك يضاهي ضرب كلب الصيد والكلب المؤدب: أكمل من الكلب المحتاج إلى الضرب. وإن كان صابرا على الضرب ولذلك يحتاج إلى الإيلام والمجاهدة في البداية ولا يحتاج إليها في النهاية. بل النهاية أن يكون ما كان مؤلما في حقه لذيذا عنده كما يصير التعلم عند الصبي العاقل لذيذا، وقد كان مؤلما له أولا. **قاله الغزالي**[1]. **بخ.**

فائدة: إنما كان الغني الشاكر أفضل من الفقير الصابر؛ لأن الغني هو الذي ختم به أمره ﷺ وهو كان دائم الترقي في الكمالات فلولا أنه أفضل لما ختم له به. قيل: محل الخلاف في غير الفقر مع الرضى، وأما هو فأفضل قطعا، وفيه نظر؛ لأن النبي ﷺ في ابتداء أمره مع فقره على غاية من الرضى لم يصل إليها غيره. ومع ذلك لم يختم له إلا بالغنى مع الشكر. **قاله الهيثمي**[2].

(1) انظر الاحياء: (141/4).

(2) انظر شرح ابن حجر الهيثمي على الأربعين النووية: (206).

وإنما كان أفضل لحديث: «الطاعم الشاكر كالصائم الصابر[1]» ثم إن الخلاف المشهور بين الفقير الصابر والغني الشاكر محله فيما زاد علي الكفاف، وأما الكفاف فلا ملام على صاحبه كما تقدم. وأما الفقر عن مقدار الضرورة أيضا فإن ذلك يكاد أن يكون كفرا فلا خير فيه بوجه من الوجوه. وأما مثل غنى عائشة رضي الله عنها أيضا الذي يستوي عندها الوجود والعدم فيكون الوجود مزيدا له، وتستفيد به أدعية الفقراء ونفعهم فليس من محل الخلاف. **قاله الغزالي وغيره.**

وقال سيدي محمد الشاذلي: تفاخر الغنى والفقر، فقال الغنى: أنا وصف الرب الكبير، فمن أنت يا حقير؟. فقال له الفقر: لولا وصفي ما تبين وصفك ولولا تواضعي ما رفع قدرك، وإن وصفي وسم بذل العبودية وأنت وصفك نازع الربوبية. **قاله الشعراني في طبقات الأولياء**[2].

ومن حجة من يرجح الفقير الصابر حديث: «الفقراء يسبقون الناس إلى الجنة فيخرج إليهم منها ملائكة فيقولون: ارجعوا إلى الحساب، فيقولون: على ماذا نحاسب فو الله ما أفيضت علينا الأموال في الدنيا فنقبض فيها ونمسك وما كنا أمراء فنعدل ونجور ولكنا جاءنا أمر الله فعبدناه حتى أتانا اليقين. **وحديث:** «يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمس مائة عام نصف يوم منها مثل عام من أعوام الدنيا».

وباجملة: فالفقير بالحقيقة العبد وإن كان له مال وإنما يكون غنيا إذا عول على مولاه و لم يتعلق بشيء سوه فإن تعلق بشيء من الدنيا باله ورأى أنه فقير إليه فهو عبده.

وفي الحديث: «تعس عبد الدينار[3]» ...**الحديث**. وهذا هو الفقير حقيقة، وعادمه

---

(1) أخرجه أحمد (343/4 ، رقم 19036) ، والدارمى (130/2 ، رقم 2024) ، وابن ماجه (561/1 ، رقم 1765)

(2) انظر الطبقات الكبرى: (288/1).

(3) جزء من حديث: " تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة إن أعطى رضى وإن لم يعط سخط تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه فى سبيل الله أشعث رأسه مغبرة قدماه إن كان فى الحراسة كان فى الحراسة وإن كان فى الساقة كان فى الساقة إن استأذن لم يؤذن له وإن شفع لم يشفع. أخرجه البخارى (1057/3 ، رقم 2730) ، وابن ماجه (1385/2 ، رقم 4135).

الذي يقول: لا أبالي به إنما هو ضرورة العيش فإذا وجدها فغيرها زيادة تشغل عن الإرادة فهو الغني حقيقة. **ففي الحديث**: «ليس الغنى من كثرة العرض إنما الغنى غنى النفس[1]». **قاله الثعالبي**[2].

وقال زروق: وللناس في الغني الشاكر والفقير الصابر طريقان، والحق أن كلا منهما متضمن للآخر فلا تفاضل وقد اختار كلا منهما رسول الله ﷺ حيث قال: أجوع يوما وأشبع يوما وأطعم أيضا ألفا من صاع وشد الحجر على بطنه.

ومن حجة من رجح الفقر **قول علي كرم الله وجهه**: من رضي بالقليل من الرزق رضي الله منه بالقليل من العمل. **وقول عمر** ﷺ من نُبل الفقر أنك لا تجد أحدا يعصي الله ليفتقر **وأخذه محمود الوراق**[3] **فقال**:

يَا عَائِبَ الْفَقْرِ أَلاَ تَزْدَجِرْ عَيْبُ الْغِنَى أَكْبَرُ لَوْ تَعْتَبِرْ
مِنْ شَرَفِ الْفَقْرِ وَمِنْ فَضْلِهِ عَلَى الْغِنَى إِنْ صَحَّ مِنْكَ النَّظَرْ
أَنَّكَ تَعْصِي لِتَنَالَ الْغِنَى وَلَسْتَ تَعْصِي اللهَ كَيْ تَفْتَقِرْ

ثم قال: (**وَكُنْ عِنْدَ أَخْذِ الْقُوتِ**) منها (**كَالْمُضْطَرِّ لِلْمَيْتَةِ**) وهو لابد أن يكون كارها غير متنعم بها ولا تكن رغبتك في أخذ القوت أكثر من رغبتك في قضاء الحاجة إذ لا فرق بين إدخال الطعام في البطن وإخراجه منه فهما ضرورتان في الجبلة وكما لا يكون قضاء الحاجة من همتك التي تشغل بها قلبك فلا ينبغي أن يكون الطعام من همتك. واعلم أنه إن كانت همتك إلى ما يدخل بطنك فقيمتك ما يخرج منه. (**وَ**) كن (**فِيهَا كَالْغَرِيبِ الْمُسَافِرِ**) **لحديث**: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل[4]».

وقال علي كرم الله وجهه: الدنيا كمركب يسير بأهله وهم نيام. **ولحديث**: «ليكن

([1]) أخرجه أبو يعلى (5/404 ، رقم 3079) ، والطبراني في الأوسط (7/203 ، رقم 7274)

([2]) انظر تفسير الثعالبي: (4/270).

([3]) تقدمت ترجمته.

(4) أخرجه البخارى (5/2358 ، رقم 6053) . وأخرجه أيضًا : ابن حبان (2/471 ، رقم 698)

بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب[1]». **وقيل للشافعي**: ما بالك تمشي على عصا ولست بكبير ولا ضعيف؟ **قال**: لأعلم أني مسافر، فإن العصا من آلة السفر. **قال الشاعر**:

حَمَلْتُ الْعَصَا لاَ الضُّعْفُ أَوْجَبَ حَمْلَهَا عَلَيَّ وَلاَ أَنِّي تَحَنَّيْتُ مِنْ كِبَرْ
وَلَكِنَّنِي أَلْزَمْتُ نَفْسِيَ حَمْلَهَا لِأُعْلِمَهَا أَنِّي مُقِيمٌ عَلَى السَّفَرْ

وقال الشافعي: من شهد الضعف من نفسه نال الاستقامة. فحق للعبد أن يرى نفسه في الدنيا غريبا فإن الغريب يدور مع السلامة ويعامل بالإنصاف، ويعمل لدار قرار ويأخذ في مرضاة رب المترل ولا ينازع أحدا في داره هذا وغربته في السجن **كما قال**: (**الْمَسْجُونِ**) لأن الدنيا سجن المؤمن. وأعظم أعماله في السجن: الصبر، وكظم الغيظ **كما قاله عبد الله بن المبارك**[2]. **أشار إلى حديث**: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر[3]».

قال القاضي ابن المطيب[4]: هذا بالإضافة إلى ما يصير إليه كل واحد منهما في الآخرة. **وقيل**: المعنى: إنها سجن المؤمن؛ لأنها موضع تعبه في الطاعات.

ولقي القاضي أبو بكر بن فورك[5] يوما يهوديا رث الثياب والقاضي متجمل في اللباس وقال له اليهودي: يا شيخ سمعتكم تروون عن نبيكم: «الدنيا سجن المؤمن وجنة

([1]) تقدم تخريجه.

([2]) تقدمت ترجمته.

([3]) أخرجه أحمد (323/2 ، رقم 8272) ، ومسلم (2272/4 ، رقم 2956) ، والترمذى (562/4 ، رقم 2324)

(4) هو الصديق بن علي بن محمد بن علي القاضي الفقي العلامة رضي الدين المطيب الزبيدي الحنفي والد عبد الرحمن ويعرف بابن المطيب. مات في سحر يوم الثلاثاء سادس عشري رمضان سنة ثلاث وتسعين، وكان بارعاً في العربية والمعاني والبيان والمنطق والأصلين والتفسير والفقه. ولي قضاء الحنفية بزبيد بل كان ولي بها قضاء الأقضية بحيث كان الشافعية فيها من نوابه في أيام علي بن طاهر ودرس وأقرأ سيما العربية، وممن أخذ عنه حمزة الناشري وبالجملة فكان رئيس الحنفية ورأسهم وإليه مرجعهم. انظر الضوء اللامع: (186/2).

(5) هو محمد بن الحسن بن فورك الانصاري الأصبهاني، أبو بكر: واعظ عالم بالاصول والكلام، من فقهاء الشافعية. سمع بالبصرة وبغداد. وحدث بنيسابور، وبنى فيها مدرسة. وتوفي على مقربة منها، فنقل إليها. له كتب كثيرة منها (مشكل الحديث وغريبه – ط) و (النظامي – خ) في أصول الدين، ألفه لنظام الملك، و (الحدود – خ) في الاصول، وأسماء الرجال – خ) و (التفسير – خ). توفي 406هـ. انظر الوفيات: (482/1).

الكافر» فكيف تكون الدنيا سجنك وهذا حالك؟ وكيف تكون الدنيا جـنتي وهـذه حالتي؟ فقال له القاضي: إن الذي أنا فيه بالنظر إلى الجنة سجن لي، وأما ما أنت فيه من الحال بالنظر إلى عذاب النار جنة لك فأسلم اليهودي.

وأتى المؤلف بعبارة بديعة وإشارة لطيفة؛ مشيرا إلى حديثين بقوله: "كالغريب المسافر المسجون"؛ **الأول:** «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل». **والثاني:** «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر».

وشبه في الأول السالك الناسك بالغريب الذي ليس له مسكن يأويه. ثم ترقى وأضـرب عنه إلى عابر سبيل؛ لأن الغريب قد يسكن في بلد الغربة بخلاف عابر السبيل القاصد لبلد شاسع، وبينهما أودية مردية، ومفاوز مهلكة وقطاع طريق. فإن من شأنه ألا يقيم لحظة فهو دائم السير إلى بلد الإقامة. **والمعنى:** لا تركن إلى الدنيا ولا تتخذها وطنا ولا تحدث نفسك بالبقاء فيها، ولا تتعلق منها بما لا يتعلق به الغريب في غير وطنه. والمرء في الدنيا كعبد أرسله سيده في حاجة إلى غير بلده فشأنه أن يبادر بفعل ما أمر به، ثم يعـود إلى وطنه، ولا يعلق قلبه بشيء من بلد الغربة وينزل نفسه في بلد الغربة منزلـة المسـجون والمسجون لا يري ما يسره، وينتظر أسباب الهلاك ثم لا عزَّ للغريب إلا برب المنزل ولا راحة للمسجون إلا بخروجه، ولا راحة للمؤمن إلا بلقاء ربه: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾ **ومثال ذلك أيضا:** من دخل دار ملك وعلم أنه يخرج منها لا محلة، فرأى وجها حسنا لا يخرج معه من الدار فذلك بلاء عليه؛ لأنه يورثه الأنس بمنزل لا يمكنـه المقام فيه، ولو أمكنه كان عليه في المقام خَطِرٌ من أن يطلع عليه الملك فيعذبه فإن أصابه ما يكره حتى نفره من المقام كان ذلك نعمة عليه، والدنيا دار نقمة قد دخلها الناس من باب الرحم، خارجون عنها من باب اللحد فكل ما يحقق أنسهم بالمنزل فهو بلاء وكل ما يزعج قلوبهم ويقطع أنسهم بها فهو نعمة.

كدر الدنيا والبلاء فيها نعمة

وإلى ذلك أشار بقوله: (وَكَدَرِهَا) قال في القاموس: كدر مثلثة الدال كدارةً وكـدرًا محركة وكدورًا وكدورةً وكدرةً بضمهن واكدرَّ اكدرارًا وتكدَّرَ: نقيض صفا. وهـو أكدرُ وكدِر وكدْر كفخذٍ وفخْذ، وكديرٌ. والمـراد بـه هنـا الأنكـاد والتغـييرات والمحزنات[1]، وذلك (كَالْبَلاَءِ) **قال في النهاية: قال القتيـبـي:** يقال: من الخير بليتـه أبليه، ومن الشر بلوته أبلوه بلاء، والمعروف أن الابتلاء يكون في الخير والشر معا، مـن غير فرق بين فعليهما[2].

وقال في المصباح: قال أبو زيد: ما باليتُ به مبالاةً والاسم "البلاء" وزن كتاب، وهو الهم الذي تحدث به نفسك[3].

والمراد بالبلاء هنا: كل ما في الجسم كالجذام والبرص والجدري وغيرها، وإن كان هو أعم من أن يكون بدنيا أو ماليا أو غيرهما. **كمـا قالـه زروق. (وَالْمَـرَضِ وَالْفَقْـرِ وَالْمُصِيبَةِ)** في الأهل والقرابات والإخوان بالموت والفقد والفراق والمرض. وفي المـال بالذهاب، وفي النفس بالضرب والجرح والطعن فيه، والازدراء به وفي العرض بالغيبـة، والكذب عليه وغير ذلك **(نِعْمَةٌ)** باطنة في طي نقمة، وفي معنى قوله تعالى: ﴿ وَأَسْـبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ قيل: ظاهرة: العوافي، وباطنة: البلايا لأنها نعمة الآخرة. فإن كل ما يصيب المؤمن فهو نعمة، كائنا ما كان فلله الحمد على نعمه.

قال عمر بن عبد العزيز[4]: لو كانت الدنيا نعيما بلا كدر لكانت هي الجنة ولم نحتج إلى الانتقال منها. والنعمة: كل ما أنعم الله عليك به، وكذلك النعيم، والنعمى والنعماء بالمد في الفتح، والقصر في الضم.

---

(1) انظر القاموس المحيط: (602/1).

(2) انظر النهاية في غريب الأثر: (411/1).

(3) انظر المصباح المنير للمقري: (37/1).

(4) تقدمت ترجمته.

قال القشيري: وليس كل إنعامه تعالى انتظام أسباب الدنيا والتمكن منها، بل ألطاف الله تعالى فيما زوّى من الدنيا أكثر فإن قرب العبد من الله تعالى على حسب تباعده من الدنيا.

قال في التنوير: وفي البلايا والفاقات من أسرار الألطاف؛ ما لا يفهمه إلا أولوا البصائر[1]. **منها ما أشار إليه بقوله: (لأَنَّ منْ فَقَدَهُ)** أي الكدر **(سَكَنَ إِلَيْهَا فَتَصِيرُ جَنَّتُهُ) لما ورد أن** «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر[2]».

وروي: أن فرعون مكث أربعمائة سنة لم يتصدع رأسه حتى سكن إلى الدنيا فادعى الربوبية ولو أخذ مرة لما ادعاها. **(فَيَكْرَهَ لِقَاءَ اللهِ)** بالموت. **وفي الحديث:** «من كره لقاء الله كره الله لقاءه[3]».

فلا ينبغي أن يفارق أحد الدنيا إلا محبا لله تعالى ليكون محبا للقائه فمن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه فإن المصير إليه والقدوم عليه بالموت ومن قدم على محبوبه عظم سروره بقدر محبته، ومن فارق محبوبه اشتدت محنته وعذابه، فمهما كان الغالب على القلب حب الدنيا فالدنيا جنته، والجنة: عبارة عن البقعة الجامعة لجميع المحابّ، فموته خروج من الجنة وحيلولة بينه وبين ما يشتهيه فلا يخفى حال من يحال بينه وبين ما يشتهيه، وإذا لم يكن له محبوب سوى الله تعالى وسوى ذكره ومعرفته والفكر فيه، فالدنيا وعلائقها شاغلة عن المحبوب، فالدنيا سجنه؛ لأن السجن عبارة عن البقعة المانعة للمحبوس عن السراح إلى محابّه، فموته قدوم على محبوبه وخلاص من السجن وتخلية بينه وبين محبوبه بلا مانع ولا مكدر. فنسأل الله تعالى أن يتوفانا مسلمين.

ولا مطمع في إجابة هذا الدعاء إلا باكتساب حب الله تعالى. ولا سبيل إلى الحب إلا بإخراج حب غيره من القلب، وتقطيع العلائق عن كل شيء سوى الله تعالى من جاه

---

(1) انظر التنوير في إسقاط التدبير: (7).

(2) أخرجه مسلم (2272/4 ، رقم 2956) ، والترمذى (562/4 ، رقم 2324) وقال : حسن صحيح

(3) أخرجه في كنز العمال 42799

ومال ووطن. **والأولى أن يدعو**: اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك وحب ما يقربني إلى حبك واجعله أحب إلي من الماء البارد.

فإن غاية السعادة أن يموت العبد محبا لله. وإنما تحصل المحبة بالمعرفة وبإخراج حب الدنيا من القلب، حتى تصير الدنيا كالسجن المانع من المحبوب.

ومن النعم التي في الكدر أيضا ما أشار إليه بقوله: (وَ) كدر الدنيا أيضا نعمة. **(لِأَنَّ بِهِ الِاضْطِرَارَ وَالرُّجُوعَ إِلَيْهِ تَعَالَى كَرْهًا)** وملازمة بابه بصدق اللجإ والافتقار يجد ذلك من نفسه كل من نزلت به بلية. وهذا هو أعظم فوائد البلايا.

قال في الحكم العطائية: من لم يقبل على الله بملاطفات الإحسان قيد إليه بسلاسل الامتحان[1].

وقال سيدي أبو مدين[2]: سنته تعالى استدعاء الخلق لعبادته بسعة الأرزاق ودوام المعافات ليرجعوا إليه بنعمته فإن لم يفعلوا ابتلاهم بالسراء والضراء لعلهم يرجعون. لأن مراده: رجوع العبد إليه طوعا أو كرها. **انتهى**.

وذلك في حق من أراد به العناية لا في حق من أراد به الغواية فإن ذلك حقه إقامة الحجة عليه كما أنه صححه لغيره. فافهم!. **قاله زروق**[3].

والحاصل: أن أهل الله حال المحنة والحاجة يفزعون إلى الله ويلجئون إليه بالضراعة بين يديه علما منهم أنه لا ينجيهم إلا هو. ولهذا كان ﷺ إذا نابه أمر فزع إلى الصلاة.

وكان المرسي إذا سأله إنسان في شفاعة يقول: أترى أن أنزل حاجتك بالله فإن قال: نعم قضيت، وإن أبى تركه. وأما غيرهم فيفزع إلى العوائد والأسباب ويقف بذا الباب وذا الباب فلم يزدهم ذلك إلا الحيرة. وإنما كان الاضطرار إلى الله نعمة. **(لِأَنَّ أَفْضَلَ أَحْوَالِ الْعَبْدِ حَالَةُ الذُّلِّ)** والذل التباؤس والمسكنة. **(وَالِاضْطِرَارِ)** وهو تأكيد الاحتياج

([1]) انظر شرح الحكم للأزهري: (64/1).

([2]) تقدمت ترجمته.

([3]) انظر شرح زروق على الحكم: (82).

واشتداده لأنها ترد العبد إلى مولاه بلا واسطة، وتقطعه عن الخلق إليه، وتعرفه بجلاله وقهره، وتسلبه عن دعواه ولأنها أيضا إخلاص محض والأعمال لا تخلوا من الشوائب، ولأنها إتيان الأمر من بابه وتوسل له بأسبابه. **قال أبو يزيد**[1]: قيل لي: خزائننا مملوءة بالخدمة، فإن أردتنا فعليك بالذلة والافتقار، ولأن فيها أيضا خاصية إجابة الدعاء قال تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ والاضطرار أخص أوصاف العبودية ولذا لم يطلب من العبد أجل منه.

وعن ابن وهب قال: كان رجل عبد الله تعالى سبعين عاما وهو صائم يفطر من سبت إلى سبت. فسأل الله حاجة فلم تقض فأقبل على نفسه وقال: من قبلك أوتيت ولو كان عندي خير قضيت حاجتك. فأنزل الله تعالى ملكا قال له: يا ابن آدم ساعتك التي أزريت فيها بنفسك خير من عبادتك التي مضت وقد قُضيت حاجتك. وأوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه: أما وعزتي وعظمتي لا ينتصر بي عبد من عبادي دون خلقي –أعلم ذلك من نيته– فتكيده السموات السبع والأرضون السبع ومن فيهن إلا جعلت له منهن مخرجا.

سُبْحَانَ مَنْ لاَ يَخِيبُ مَنْ قصَدَهْ ... مَنْ قَصَدَ اللهَ صَادِقًا وَجَدَهْ
قَدْ شَمِلَ الْخَلْقَ فَضْلُ نِعْمَتِهِ ... كُلٌّ إِلَى فَضْلِهِ يَمُدُّ يَدَهْ

ومع حالة الذل أيضا تكون النصرة قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ **قال أبو يزيد:** رأيت الباري فقلت: يا رب ما أقرب ما يتقرب به إليك؟ قال: بما ليس من صفتي؛ الذلة والافتقار.

قال الشعراني: أجمع مشايخ الطريق على أن من فيه صفتا الغنى والعز لا يمكن من دخول حضرة الصلاة أبدا فتقربنا إلى الحق إنما هو بتخلفنا بما ليس من صفته فانظر ما أعجب حضرة القرب! يطرد منها من تخلق بصفات مالكها التي لم يأذن فيها. **قاله المناوي.**

واعلم أن حالة الذل والاضطرار؛ لا تنفع صاحبها إلا بالرضى، والقيام بحقوق الله

---

[1] تقدمت ترجمته.

المطلوبة في ذلك من عبادة وغيرها. والالتجاء إلى الله وإظهار ما هو فيه من فاقة وتحقيقها.

ومعنى إظهارها: أي من حيث احتياجه وافتقاره، لا من حيث ما يحتاج إليه. ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ فذكر فقره لا حاجته، وذكر احتياجه لا مطلبه، فافهم!.

ومعنى تحقيقها: تأكيدها في النفس حتى يكون ثبوتها مستشعرا في عموم الأوقات والحلات، وإلا فهي ثابتة لذاته. وقد عتب الله أقواما اضطروا إليه عند وجود أسباب ألجأتهم فلما زالت الأسباب زال اضطرارهم. قال تعالى: ﴿إِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً﴾ الآية. ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ قُلِ اللّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ الآيتين. فالعبد لا يزاوله الاضطرار إلى ربه أبدا لا في الدنيا ولا في الآخرة ولو دخل الجنة إلا أنه غمس اضطراره في المنة التي أفرغت عليه ملابسها وهذا حكم الحقائق إذ لا يختلف حكمها في الغيب ولا في الشهادة، ولا في الدنيا ولا في الآخرة.

ولأجل كون حالة الاضطرار ذاتية للعبد كتب إبراهيم من أدهم[1] رقعة فيها:

أَنَا حَامِدٌ أَنَا شَاكِرٌ أَنَا ذَاكِــرٌ كـــر	أَنَا ضَائِعٌ أَنَا جَائِعٌ أَنَــا عَــارِي اري
هِيَ سِتَّةٌ فَأَنَا الضَّمِينُ لِنِصْفِهَا فهـــا	فَكُنِ الضَّمِينَ لِنِصْفِهَا يَا بَــارِي اري
مَدْحِي لِغَيْرِكَ لَهْبُ نَارٍ خُضْتُهَا هـــا	فَأَجِرْ عُبَيْدَكَ مِنْ لَهِيــبِ النــارِرِ ري

قال زروق: الذي عندي أن ضمانه إنما وقع على الثلاث الأخيرة لكونها لازمة لوجوده لا للثلاث الأول، إذ ليست بمقدوره إلا بتوفيق من ربه فضمانه لها دعوى. والله أعلم. **ويشهد لذلك حديث:** «يا عبادي كلكم جائع...إلخ.».

---

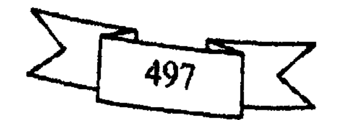
[1] تقدمت ترجمته.

قال في التنوير: إنما خص الله تعالى الحيوان بالافتقار إلى التغذية دون غيره من الموجودات لأنه تعالى وهب الحيوان من صفاته ما لو تركه من غير فاقة لادعى الربوبية أو أدعى فيه ذلك فأراد الله الحق سبحانه وهو الحكيم الخبير أن يحوجه إلى مأكل ومشرب وملبس وغير ذلك من أسباب الحاجة. لتكون أسباب الحاجة منه سببا لخمود الدعوى منه أو فيه. **ثم فسر الاضطرار المطلوب من العبد فقال:** **(وَهُوَّ أَنْ لاَ يَرى)** العبد ولا يتوهم **(لِغياثِهِ)** مما هو فيه من الفقر والفاقة والحاجة والافتقار والاضطرار **(حَوْلاً)** ولا قوة **(وَلاَ سَبَبًا)** من الأسباب يستند إليه أو **(يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ)** الاعتماد على الشيء حصر القوة فيه، بمعنى الاستناد إليه في تحصيل المقصود **(إِلاَّ مَوْلاَهُ)** الكريم المغيث ولا يرى بينه وبين مولاه حسنة يستحق بها شيئا ولا يقدم طاعته فيدعو على أثرها، بل يقدم افتقاره وعجزه وفاقته وقلة حيلته ثم يدعو فيقول: يا مولاي هب لي بلا شيء ولا علاقة، ويكون في عدم اعتماده على شيء سوى الله تعالى **(كَالْغَرِيقِ)** في البحر **(وَالضَّالِّ)** في التيه والقفر فلا يرى لغياثه إلا مولاه ولا يرجو النجاة من هلكته أحدا سواه.

تنبيهان: **الأول: قال في كتاب البركة:** لا بأس أن يتوسل العبد إلى الله تعالى بما عمله من صالح خالص لله تعالى. **قاله المناوي وغيره.** دليله حديث الثلاثة. **ويتوسل أيضا بالأشخاص** كتوسل عمر بالعباس رضي الله عنهما في استسقائه. وجاء الترغيب في دعاء المرء لأخيه بظهر الغيب وغيره. **وقد روي عن مالك:** لا يتوسل بمخلوق أصلا. **وقيل:** إلا برسول الله. **قاله زروق.**

قيل: لا يتوسل إلى الله إلا بنفسه **لحديث:** «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك[1]»، إذ لا شيء أعظم من جاهه سبحانه. **وقيل:** يتوسل إلى الله بالمقطوع بفضيلته عند الله كالملائكة والأنبياء والأولياء. **وقيل**

[1] أخرجه الدارقطنى فى الأفراد كما فى أطراف ابن طاهر (5/440 ، رقم 5986) . وأخرجه أيضًا : أبو داود (1/232 ، رقم 879) ، والترمذى (5/524 ، رقم 3493) وقال : حسن . والنسائى (2/222 ، رقم 1130) .



لمالك: أتجوز بصاحب هذا القبر؟ يعني النبي ﷺ فقال للسائل: هل بينك وبين الله إلا هو؟

قلت: والوجهان جائزان عند ابن العربي[1]؛ إلا أن ترك التوسل بمخلوق أحسن.

الثاني: قد علمت أن العبد ملازم للافتقار إلى الله تعالى والعجز والنقص والعيب أبدا فوجب عليه أن يطلب ما يحتاج إليه دنيا وأخرى عند الأبواب التي فتحها الله تعالى لذلك بمحض اختياره لها إما عادة كالأطعمة والأشربة ونحوهما. وإما شرعا كالأعمال الصالحة فإذا وقف عند تلك الأبواب بصفة الذلة والمسكنة فلا يعتمد إلا على فضله تعالى لا عليها، ولا على الأبواب. والتزام الذلة والمسكنة: إنما هو لتحقيق الاعتماد على محض فضله تعالى لا لأجل أنهما يصلحان للاعتماد عليهما والإدلاء بهما على نيل غرضه، إذ هما من جملة الأبواب المخلوقة، والممكنات الناقصة التي لا تأثير لها في شيء البتة.

(وَأَدْنَاهَا) أي أحوال العبد: **(حَالَةُ النَّظَرِ إِلَى النَّفْسِ، وَالإِسْتِنَاد إِلَى الْغَيْرِ حَتَّى الْعِلْم وَالْعَمَل)** فالاعتماد على العمل من صفات الجاهلين لأنهم إذا وقعوا في زلة نقص بذلك رجاؤهم كما أنهم إذا عملوا طاعة جعلوها من أقوى معتمد هم فيتعلقوا بالأسباب وحجبوا عن رب الأرباب.

والناس ثلاثة: رجل يزيده رجاؤه بعمله، وينقص بزلله لاستشعاره حصول المراد بالعمل وفواته بالزلل فهذا معتمد على عمله ثم إن كان مستمرا فهو من العاملين وإن كان مقصرا فهو من الغافلين، ومقام هذا الإسلام. **والثاني:** رجل زاد شكره بعمله، وزاد التجاؤه بزلله لاستشعاره منة الله في العمل وفراره لمولاه في الزلل فهذا معتمد على مولاه راجع إليه في السراء بالحمد والشكر وفي الضراء بإظهار الفاقة والفقر، ومقام هذا الإيمان. **والثالث:** رجل أسلم نفسه لمولاه، فلم يزعجه ما به تولاه، بل شأنه السكون تحت جريان الأحكام، وفقد الاضطراب والاتهام، فلا يزيد رجاؤه لعلة ولا ينقص

---

[1] تقدمت ترجمته.

لسبب، ولو وُزِنا لتعادلا في كل حال من أحواله وذلك لعدم اعتباره لأعماله، ومقام هذا الإحسان.

قال بعض المحققين: من بلغ إلى حقيقة الإسلام لم يقدر أن يفتر عن العمل، ومن بلغ إلى حقيقة الإيمان؛ لم يقدر أن يلتفت إلى العمل ومن بلغ إلى حقيقة الإحسان،: لم يقدر أن يلتفت إلى أحد سوى الله. ومن الاعتماد على العمل: استحلاءُ الطاعــات (وَ) حــتى الاستناد إلى الكرامة، و(**الْحَالِ**) من أحوال القلب؛ كالزهد والرضى والقناعة والصــبر وغيرها أو هو السكون إلى استحلاء ما يلاقيك به ربك من فنون تقريبك لأنــه مــن القواطع، ومن استحلى حالا، أو ساكن مقاما فقد استند له.

وقال عبد السلام بن مشيش(1): أشكوا إلى الله من برد الرضى والتسليم أي أخاف أن تشغلني حلاوتهما عن الله تعالى.

وقال أبو العباس المرسي(2): اللطف حجاب عن اللطيف؛ يعني السكون إليه والوقوف عنده وشدة الفرح به ولو أن رجلا خاطبه كل طائر وكل شجر؛ السلام عليك يــا ولي الله فسكنت نفسه إلى ذلك كان في يديها أسيرا.

وعن أبي يزيد(3) حين اطلع على أنواع العجائب، ووجه بسنّي الرغائب، وكشف لــه عن الملكوت الأعلى فقيل له: هل استحسنت شيئا منها؟ فقال: لم أر شيئا استحســنه، فقيل له أنت عبدي حقا.

(**وَلِذَا**) أي ولأجل كون أفضل أحوال العبد حالة الذل وأدناها حالة الاعتمــاد علــى الغير. (**كَانَ ذُلُّ الذَّنْبِ**) وهو ما عصي الله تعلى به. أو ما يذم مرتكبه شرعا وترادفــه:

---

(1) تقدمت ترجمته.

(2) تقدمت ترجمته.

(3) تقدمت ترجمته.

المعصية والخطيئة والسيئة والجريمة. (وَ) ذل (الْبَلَاءِ) أعم من أن يكون بدنيا أو ماليا أو غيرهما، وذل الحرمان (خَيْرٌ مِنْ عِزِّ الطَّاعَةِ) والعافية (وَالْعَطَاءِ) من باب اللف والنشر المرتب إلا أن في كلامه احتباكا وهو أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني وبالعكس فإنه أثبت في الأول البلاء وحذف نظيره وهو العافية في الثاني. وأثبت في الثاني العطاء وحذف نظيره وهو الحرمان في الأول.

قال سعيد بن جبير[1]: أعبد الناس: رجل اجترح من الذنوب ثم تاب فكلما ذكر ذنوبه احتقر عمله.

وقال مطرف[2]: لأن أبيت نائما وأصبح نادما أحب إلـي من أن أبيت قائما وأصبح معجبا أرى نفسي على النائمين.

وقال أبو بكر الوراق: خضوع الفاسقين أفضل من صولة المطيعين.

وقال سيدي أبو جعفر بن حمدان بن سنان[3]: تكبر المطيعين على العصاة بطاعتهم شر من معاصيهم، وأضر عليهم منها، كما أن غفلة العبد عن توبة ذنب ارتكبه شر من ارتكابه. **وقال**: أنت تبغض العاصي بذنب واحد تظنه ولا تبغض نفسك بذنوب كثيرة تتيقنها. **قاله الشعراني**[4].

وإنما كان كذا لأنه عند الطاعة معرض للنظر للنفس، واستعظام العمل والسكون إليه والعجب به والتصنع والكبر والعز، واحتقار من لم يعملها، وطلب العوض عليها فهذه

([1]) تقدمت ترجمته.

([2]) تقدمت ترجمته.

([3]) هو أبو جعفر أحمد بن حمدان بن علي بن سنان من كبار مشايخ نيسابور صحب أبا عثمان ولقي أبا حفص، وهو أحد الخائفين الورعين جاور بمكة في آخر عمره وعشرين سنة متوالية نعي بموت أبي بشر سنة سبع، وثمانين، وثلاثمائة، وكان بمكة، وكان أوحد مشايخ الحرم في وقته، ومات أبو جعفر بن حمدان سنة إحدى عشرة، وثلاثمائة. انظر الطبقات للشعراني: (103/1).

([4]) انظر الطبقات الكبرى: (103/1).

ذنوب أحاطت بهذه الحسنة أحبطتها وأبطلتها، والكبر والعز من أوصـــاف الربوبيـــة. والذنب يحمله على الاضطرار والافتقار والذل والاستكانة والخضوع والخوف والحذر. فهذه سيئة أحاطت بها حسنات وصفات عبودية تمحوها.

وقال سيدي أبو مدين[1]: انكسار العاصي خير من صولة المطيع.

وفي الحديث: «لولا أن الذنب خير من العجب ما خلى الله بين مؤمن وبـــين ذنـــب أبدا»... **الحديث.**

وكان سيدي أبو العباس المرسي[2] ربما دخل عليه المطيع فلا يبالي به لكـــبره بعملـــه ونظره إليه وإن دخل عليه عاص أكرمه لذلة معاصيه. **وقال في إشارته:** ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أي يولج الطاعـــة في المعصـــية والمعصـــية في الطاعـــة. **والروايات في هذا المعنى كثيرة، وانظر ابن عباد في شرح "معصية أورثـــت ذلا"... إلخ**[3].

ثم قال: وإنما كان كدر الدنيا نعمة لمن وفقه الله تعالى لأن (فِيهِ ضَعْفُ النَّفْسِ) وذبولها وخروسها عن طلب حظوظها وذهاب قوتها.

ومن فوائد ضعف قوى النفس بتعاقب الأمراض والبلايا عليها: سهولة خروج الروح وخفة النزع والسكرات خلاف موت الفجأة كما يشاهد من اختلاف أحوال الموتى في الشدة واللين.

وفي الحديث: «مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تفيئها الريح هكذا وهكذا، فـــإذا سكنت اعتدلت. وكذلك المؤمن يكفأ بالبلايا. ومثل الكافر كمثل الأرزة صماء معتدلة

---

(1) تقدمت ترجمته.

(2) تقدمت ترجمته.

(3) انظر شرح الحكم لابن عباد: (76).

حتى يقصمه الله أي لأن الكافر معافى غالبا ممتع بصحة جسمه كالأرزة الصماء حتى إذا أراد الله هلاكه قصمه لحينه على غرة وأخذه بغتة من غير لطف ولا رفق. فكان موته أشد عليه حسرة ومقاساة نزعه مع قوته وصحته أشد ألما وعذاب[1]». ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ وذلك عادة الله في أعدائه يفاجئهم بالموت على حال عتو وغفلة على غير استعداد بغتة ولهذا كره السلف موت الفجأة. **وقال ﷺ في رجل مات فجأة:** «سبحان الله كأنه على غضب المحروم من حرم وصيته». وقال: «موت الفجأة راحة المؤمن وأخذة أسف للكافر» وذلك لأن الموت يأتي المؤمن مستعدا له غالبا منتظرا لحلوله فهان أمره إليه وأفضى إلى راحته. وهذا أيضا من فوائد البلايا والأمراض، وذلك لأنها نذير الموت فيستعد من أصابته للقاء ربه، ويعرض عن الدنيا الكثيرة الأنكاد، ويتعلق قلبه بالآخرة فيتنصل من كل ما يخشى تباعته ويؤدي الحقوق إلى أهلها ويوصي. وقد طلب ﷺ التنصل ممن كان له عليه حق ومكن من القصاص منه وأوصى بالثقلين: الكتاب والسنة. وبالأنصار. ودعا بكتب كتاب لئلا تضل أمته بعده. ثم رأى الإمساك عنه أفضل. **صح من الشفا بتلفيق واختصار**[2].

وفي الحديث: «إن المؤمن إذا أصابه سقم ثم عوفي منه كان كفارة للماضي من ذنوبه وموعظة له فيما يستقبل. وإن المنافق إذا مرض وعوفي كان كالبعير عقله أهله ثم أرسلوه فلم يدر لم عقلوه ولم أرسلوه. (**وَتَحْقِيرِهَا**) وإيلامها فكل ما أضعف النفس وآلمها وأجهدها ونقصها، فهو محمود العاقبة. (وَ) في البلايا أيضا (**الْمَنْع**) للعبد (**مِنَ الْمَعَاصِي**) لأن بها تبطل صفاتها التي يقتضي وجودها وقوع العبد في المعاصي الظاهرة والباطنة، ويتأكد منه حب الدنيا والحرص على اتباع الهوى. **وقد قيل:** لا يخلو المؤمن من علة أو عيلة أو ذلة أو قلة.

([1]) أخرجه ابن أبي شيبة (89/7 ، رقم 34412) ، ومسلم (2163/4 ، رقم 2810) ، والطبراني (94/19 ، رقم 185).

([2]) انظر الشفا بتعريف حقوق المصطفى لعياض: (210/2).

وفي الخبر عن الله تعالى: "الفقر سجني والمرض قيدي أحبس بذلك من أحببته من عبادي». (وَتَكْفِيرهَا) لحديث: «ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى، ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله به خطاياه[1]».

قال اللقاني في شرح الجوهرة: التكفير بالمصيبة واقع قطعا سخط أم صبر إلا أنه إن صبر اجتمع له التكفير والأجر وإلا فالتسخط معصية أخرى. ثم قد تكون قدر السيئة التي كفرت بالمصيبة أو أقل أو أعظم بحسب كثرة التسخط وقلته، وعظم المصيبة وقلتها وصغرها. ولا يجوز أن يقال لمصاب: جعل الله لك مصيبتك كفارة؛ لأنها كفارة قطعا. والدعاء بتحصيل الحاصل حرام لأنه قلة أدب معه تعالى بل يقال: اللهم عظم له الكفارة فإن تعظيمها لم يعلم ثبوته بخلاف أصل التكفير. انتهى.

وقال السنوسي: الصبر على أقسام: صبر على ما هو كسب للعبد؛ كالصبر على الأوامر وعن النواهي. فهذا يحصل فيه نيل المثوبات ورفع الدرجات. والصبر على ما ليس مكتسبا للعبد؛ كالأمراض والأحزان والهموم والمصيبة وغيرها. فهذا إنما يحصل فيه تكفير الذنوب فقط وإطلاق الثواب عليها تسامح باعتبار ماقارنها من الصبر والرضى؛ لأنه حصل عليها الثواب من حيث أنها مصيبة. والفرق: أن نيل المثوبات ورفع الدرجات يشترط فيه أن يكون مكتسبا للمكلف مأمورا به من جهة الشرع. فما ليس مأمورا به وإن كان مكتسبا كالأفعال المباحة فلا ثواب فيه وأحرى إن كان غير مأمور به ولا مكتسب كالأمراض ونحوها. وأما سبب التكفير فلا يشترط فيه شيء من ذلك بل قد يكون مكتسبا من باب الحسنات لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ وقد يكون غير مكتسب كالمصائب المؤلمة لحديث: «لا يصيب المؤمن وصب ولا نصب حتى الشوكة يشاكها إلا كفر بها من ذنوبه[2]». ولحديث: «مثل المريض إذا صح وبرئ من

([1]) أخرجه ابن حبان (166/7 ، رقم 2905)

([2]) أخرجه أيضًا : أحمد (81/3 ، رقم 11787) ، ومسلم (1992/4 ، رقم 2573) ، والبيهقى (373/3 ، رقم 6329)

مرضه كمثل البردة تقع من السماء في صفائها ولونها[1]»، **والحديث:** «لا تسبن الحمى فإنها تذهب خطايا بني آدم كما يذهب الكير خبث الحديد[2]».

وعن عيسى عليه السلام أنه قال: لا يكون عالما من لم يفرح بدخول المصائب والأمراض على جسده وماله؛ لما يرجوه في ذلك من كفارة خطاياه.

وقيل: إن معنى ﴿يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ أي من الآثام والذنوب بالأمراض والحمى.

قال ابن مسعود: لا يكتب للمريض أجر إنما الأجر في العمل ولكن تكفر به الخطايا.

قال السمرقندي: يعني: لا يكتب له بالمرض أجر ولكن يكتب له مثل عمله الذي كان يعمل إن كان الرجل محسنا وعجز عن العمل ويعلم الله تعالى أنه لو كان صحيحا لكان يعمل مثل ما كان يعمله وأنه يكتب له مثل ثواب تلك الأعمال ويكون المرض كفارة لذنوبه. يعني إذا تاب وإلا فلا يكفرها إذا نوى أنه إن صح عاد إلى مثل الحالة الخبيثة. **انتهى.**

ومن ذلك ما في مسلم وغيره: «من مات له ثلاثة من الولد كانوا له حجابا من النار قيل يا رسول الله؛ واثنان قال واثنان[3]».

قال القرافي: الحجاب راجع إلى معنى التكفير. أي تكفر المصيبة ذنوبا كان من شأنها أن يدخل بها النار فلما كفرت تلك الذنوب بطل دخول النار بسببها فصارت المصيبة كالحجاب المانع من دخول النار من جهة مجاز التشبيه. **قال:** واعلم أن التكفير في موت

([1]) ذكره الحكيم (263/2) ، وأخرجه الديلمى (143/4 ، رقم 6331) ، وابن عساكر (387/11) وأخرجه أيضًا : الترمذى (411/4 ، رقم 2086)

([2]) أخرجه الطبرانى (405/24 ، رقم 984) . قال الهيثمى (307/2) : رجاله رجال الصحيح

([3]) أخرجه أحمد (306/3 ، رقم 14324). والبخارى فى الأدب المفرد (63/1 ، رقم 146)

الأولاد ونحوهم؛ إنما هو بسبب الألم الداخل على القلب من فقد المحبوب فإن كثر كثر التكفير. وإن قل قل التكفير.

ولا جَرَمَ. يكون التكفير على قدر نفاسة الولد في صفاته ونفاسته في بره، وأحواله، فإن كان الولد مكروها يستبشر بفقده فلا كفارة بفقده البتة. قال: وإنما أطلق رسول ﷺ التكفير في موت الأولاد؛ بناء على الغالب أنه يؤلم فظهر لك بهذا الفرق بين المكفرات وأسباب المثوبات. **انتهى وبالله تعالى التوفيق.**

قال الشعراني من أخلاق السلف: عدم مبادرتهم إلى الدعاء بالشفاء إذا دخلوا على مريض بل يتربص أحدهم حتى يعلم سبب مرضه وانتهاؤه ثم يدعوا بعد ذلك. فإن المرض ربما كان رفع درجات، فلا ينبغي الدعاء برفعه. وكذلك إذا كان كفارة لذنوبه فلا ينبغي الدعاء بدفعه. وكذلك القول فيه إذا كان عقوبة فالأولى أن يصبر العبد حتى تبلغ العقوبة حدها أدبا مع الله تعالى. وإن كان أحدهم له حال مع الله تعالى فله أن يسأله الشفاء من باب المنة والفضل. **فاعلم ذلك فإنه نفيس!**[1].

تتمة: ومن ما يكفر الذنوب: الهمومُ والأحزان بطلب المعيشة وبالمباحات من حاجة الدنيا للفقراء. وأما الحزن على ما يفوت من قربات الآخرة فهو للمؤمنين درجات، وهو على حب الدنيا والجمع لها والحرص عليها عقوبات.

وقال بعض السلف: كفى به ذنبا لا يستغفر منه حب الدنيا. وقال آخر: لو لم يكن للعبد من الذنوب إلا أنه يغتم بمصائب الدنيا، وما يفوته منها ما لا يغتم بفوت نصيبه من الآخرة والتزود لها.

---

(1) انظر تنبيه المغترين: (177).

وفي الحديث: «إِذَا كَثُرَتْ ذُنُوبُ الْعَبْدِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مَا يُكَفِّرُهَا مِنَ العَمَلِ، ابْتَلَاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالْحُزْنِ لِيُكَفِّرَهَا عَنْهُ [1]».

ويقال: إن الهم الذي يعرض للقلب في وقت لا يعرف العبد سببه هو كفارة الهم بالخطايا. **ويقال**: حزن العقل عند تذكر الوقوف والمحاسبة لأجل جنايات الجسد فلزم العقل ذلك الهم وتظهر على العبد منه كآبة لا يعرف سبب همه. وكذلك إزراء العبد على نفسه ومقته لها عن معرفة بها وترك نظره وسكونه إلى خير إن ظهر عليها يكون من كفارات ذنوبه لأنه من تدبر الخطاب في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾. (وَ) في كدر الدنيا أيضا (**الإِقْبَال**) على الله تعالى و (**عَلَى الآخِرَةِ وَتَذْكِيرهَا**) أي تذكرك الآخرة وتعرفك بجلال الله تعالى، وحقارة الدنيا ونفسك وتسليك من هواك وتشغلك عما لا يعني وتلجئك إلى الإخلاص في الدعاء (وَ) في كدر الدنيا أيضا (**الأَجْرُ إِنْ رَضِي**) أي باعتبار ما قارنه من الرضى والتوكل والصبر والزهد في الدنيا وغيرها، لا أنه يحصل فيه الأجر من حيث أنه بلاء لأن شرط المأجور فيه أن يكون مكتسبا للمكلف وإطلاق الأجر عليه تسامح كما تقدم.

ففي الحديث: «إن أهل العافية يودون يوم القيامة أن جلودهم قرضت بالمقاريض لما يشاهدون من ثواب أهل البلايا[2]».

وفيه أيضا: «إن الله يتعهد عبده المؤمن بالبلايا كما يتعهد الوالد ولده».

وفيه: «يؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان ويصب عليهم الأجر صبا بغير حساب. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ حتى يتمنى أهل العافية أن أجسادهم تقرض بالمقاريض مما ذهب به أهل البلايا من الفضل[1]».

([1]) أخرجه أحمد (157/6 ، رقم 25275) قال المنذرى (146/4) : رواته ثقات.

([2]) أخرجه الترمذى (603/4 ، رقم 2402) وقال : غريب . وأخرجه أيضًا : البيهقى فى شعب الإيمان (180/7 ، رقم 9921) ، والطبرانى فى الصغير (156/1 ، رقم 241)

وفيه: «إذا أحب الله عبدا ابتلاه فإن صبر اجتباه، وإن رضي اصطفاه[2]».

وعن ابن عباس: حمى يوم تكفر ذنوب ثلاثين سنة.

وقال أبو هريرة: ﷺ: ما وجع أحب إلي من الحمى؛ لأنها تعطي كل مفصل حقه وقسطه من الأجر بسبب عموم الوجع. وقال: المرض لا يدخله رياء ولا سمعة بل هو محض أجر.

وقد قسم الشيخ عبد القادر الجيلي المرض إلى ثلاثة أقسام: عقوبة: وهو ما صاحبه السخط. **وكفارة:** وهو ما صاحبه الصبر. **ودرجة:** وهو ما صاحبه الرضى وانشراح الصدر. **قاله الشعراني في طبقات الأولياء**[3].

وأوحى الله تعالى إلى داوود عليه السلام يا داوود: أصبر على المؤنة حتى تأتيك من الله المعونة. ومات له ولد فحزن عليه داوود حزنا شديدا فقيل له: ما كان يعدل عندك؟ قال: ملء الأرض ذهبا أنفقُه في سبيل الله. قال الله عز وجل: "لك من الأجر مثل ذلك".

وقال محمد بن شقيق[4]: اشتريت بطيخة لأمي فسخطت فقلت: يا أماه؛ عَلامَ تسخطين؟ على بائعها أم على مشتريها أم على خالقها؟ فو الله إن خالقها لأحسن الخالقين، وإن البائع والمشتري ما أعطياك إلا ما قسم الله لك. فاستغفرت أمي من ذلك وتابت.

---

[1] أخرجه الطبراني (182/12 ، رقم 12829) قال الهيثمي (305/2) : فيه بجاعة بن الزبير وثقه أحمد وضعفه الدارقطني .

[2] أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (145/7 ، رقم 9788)

[3] انظر الطبقات الكبرى: (23/1).

[4] محمد بن شقيق بن ضبارة ابن مسعود بن حميد بن نصير بن الشماخ بن ضبارة بن فهيرة بن شقيق أبو الأسد اللخمي المؤدب ذكره أبو الحسين الرازي في تسمية من كتب عنه بدمشق وكان من أهل اللغة والنحو مات سنة ست وعشرين وثلاث مئة. انظر مختصر تاريخ دمشق: (305/1).

وقيل: لا يصف الله عبدا ولا يثني عليه حتى يبتليه فإن صبر فخرج من البلاء سليما مدحه ووصفه، وإلا بين له كذبه ودعواه.

وفيه: «عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له[1]».

وفيه: «من يرد الله به خيرا يصب منه[2]».

وفيه: «إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثل ما كان يعمل مقيما صحيحا[3]» **كذا في البخاري. وفي رواية هشيم:** «إذا كان العبد يعمل صالحا فشغله عن ذلك مرض أو غيره»... **الحديث.**

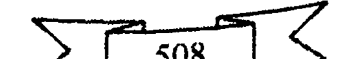
وفي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعا «أن العبد إذا كان على طريقة حسنة من العبادة ثم مرض قيل للملك الموكل به: اكتب له مثل عمله إذا كان طلقا حتى أطلقه أو أكفته إلي[4]».

وفي روية: «إن الله يكتب للمريض أفضل ما كان يعمل في صحته ما دام في وثاقه[5]».

وفي رواية: «ما من امرئ تكون له صلاة من الليل يغلبه عليها نوم أو وجع إلا كتب له أجر صلاته، وكان نومه عليه صدقة[6]».

وهذا كله في حق من كان يعمل طاعته فمنع منها وكانت نيته لولا المانع أن يدوم عليها.

([1]) أخرجه أحمد (333/4 ، رقم 18959) ، ومسلم (2295/4 ، رقم 2999)
([2]) أخرجه أحمد (237/2 ، رقم 7234) ، والبخارى (2138/5 ، رقم 5321)
([3]) أخرجه البخاري (1092/3 ، رقم 2834) وابن حبان (191/7 ، رقم 2929)
([4]) أخرجه أحمد (203/2 ، رقم 6895) قال الهيثمى (303/2) : إسناده صحيح
([5]) أخرجه الخطيب (191/2)
([6]) أخرجه أبو داود (34/2 ، رقم 1314) ، والنسائى (257/3 ، رقم 1784) ، والبيهقى (15/3 ، رقم 4499)



وفي بعض الأخبار: أن يونس قال لجبريل: دلني على أعبد أهل الأرض. فأتى به إلى رجل قد قطع الجذام يديه ورجليه...إلى أن قال: قال جبريل: يا يونس: إن هذا طريق ليس يوصل إلى رضى الله بشيء أفضل منه.

وفيه: أنه ﷺ قال للرجل الذي قال له: أوصني. قال: «لا تتهم الله في شيء قضاه عليك[1]».

وعن أنس: أن الله خلق عباده صحيح وسقيم وغني وفقير. ومنهم من لو أسقمه لأفسده ذلك، ومنهم من لو أصحه لأفسده ذلك، ومنهم من لو أغناه لأفسده ذلك والله أعلم بمصالح عباده.

وعن أبي هريرة: «لا يزال البلاء بالمؤمن في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله وما عليه خطيئة[2]».

وعن أنس ﷺ عن النبي ﷺ «إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافى به يوم القيامة[3]».

وفي حديث آخر: «إذا أحب الله عبدا ابتلاه ليسمع تضرعه[4]».

وعن لقمان: يا بني الذهب والفضة يختبران بالنار، والمؤمن يختبر بالبلاء.

وورد: أن من سعى لمريض في حاجته فقضاها غفر له. قيل له: يا رسول الله إن كان المريض من أهله؟ فقال: «ومن أعظم أجرا ممن سعى في حاجة أهل بيته؟». **وأخبار الصالحين في البلايا ورضاهم بها، والتذاذهم بها كثيرة لا تحصى.**

---

(1) أخرجه أحمد (318/5 ، رقم 22769)

(2) أخرجه أحمد (450/2 ، رقم 9810) ، وهناد (238/1 ، رقم 402) ، وابن حبان (176/7 ، رقم 2913)

(3) أخرجه الترمذى (601/4 ، رقم 2396) ، وقال : حسن غريب . والحاكم (651/4 ، رقم 8799)

(4) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (145/7 ، رقم 9788) ، والديلمى (251/1 ، رقم 970)

وعن بعض الصالحين أنه قال: لقد مرضت مرضة فأحببت أن لا تزول وبكى مطرف عند عمران بن حصين وهو مريض لما رأى من حاله. فقال له: لا تبك فإنه أحبه إلي حبه إلى الله تعالى. ثم قال: أحدثك بشيء لعل الله تعالى أن ينفعك به واكتم علي حتى أموت إن الملائكة تزورني فآنس بها وتسلم علي فأسمع تسليمها.

وبلغ سويد بن شعبة[1] غاية في المرض فقال: ما يسرني أني نقصت من هذا قلامة ظفر.

وعن عبد الرحمن بن زيد[2]: أنه مر بعبد مقطوع بالجذام يسيل قيحا وصديدا، فقال له يا هذا: لو تعالجت؟ فرفع رأسه إلى السماء فقال: يا سيدي بأي ذنب سلطت علي هؤلاء ليسخطوني عليك ويكرهوك إلي. سيدي لك العتبى من ذلك الذنب وأستغفرك منه لا أعود فيه أبدا. ثم أعرض بوجهه فانصرفنا.

وعن بشر بن الحارث[3]: قال: رأيت رجلا قد قطعه البلاء فدعوت الله أن يكشف ما به فسمع دعائي فقال: من هذا الفضولي الذي يدخل بيني وبين ربي ويعترض عليه في نعمته علي؟ قال بشر: فاعتقدت ألا أعترض على عبد في نعمة أراها عليه من البلاء.

وكان السلف يستوحشون إذا خرج عنهم عام لم يصابوا فيه بنقص من نفس أو مال. ويقال: لا يخلوا المؤمن في كل أربعين يوما أن يراع بروعة، أو يصاب بنكبة، وكانوا يكرهون فقد ذلك في هذا العدد أن يصابوا فيه بشيء. فهؤلاء شاهدوا في بلاياهم عطاياهم وفي محنه مننه، وفي عنفه لطفه، فاوجب لهم ذلك من الرضى بما هم فيه والتنعم به والإلتذاذ ما حملهم على أن يحبوا زوال ذلك عنهم ولا نقصانه ووجود الألطاف والمنن

([1]) سويد بن شعبة اليربوعي من بني تميم وكان من الذين اختطوا بالكوفة أيام عمر بن الخطاب. للمزيد من أخباره انظر صفوة الصفوة: (42/3).

([2]) عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب العدوي القرشي: وال. كان من أتم الرجال خلقة. روى الحديث عن أبيه وغيره، وروى عنه ابنه عبد الحميد وآخرون. وزوجه عمر بن الخطاب ابنته فاطمة.وولاه يزيد بن معاوية مكة سنة 63 هـ. انظر للزيادة في ترجمته: تهذيب التهذيب: (176/6)

([3]) تقدمت ترجمته.

في البلايا لا تحصى.

وعن **عطاء السلمي**[1]: أنه بقي سبعا لم يذق طعاما فسر قلبه بذلك غاية السرور فقال: يا رب إن لم تطعمني ثلاثة أيام أخرى لأصلين لك ألف ركعة.

وعثرت **امرأة فتحٍ الموصليِّ** فطار ظفرها فضحكت، فقيل لها: ألم تجدي ألم الظفر؟ فقالت بلي؛ ولكن ثواب ذلك ألهاني عن وجود الاشتغال بالألم.

وقال **الفضيل**[2]: إن الله ليوصل البلاء بعبده المؤمن فيترل عليه بلاء بعد بلاء حتى يمشي وليس عليه خطيئة.

وقال **أبو سليمان الداراني**[3]: مر موسى عليه السلام برجل قد مزقت السباع لحمه ونهشت بطنه فوقف موسى عليه السلام متعجبا فقال: يا رب إنه لمطيع لك فما الذي أرى؟ فأوحى الله تعالى إلى موسى إنه سألني درجة لم يبلغها بعمله فابتليته لأبلغه تلك الدرجة، فقال أبو سليمان: سبحان الله؛ لو شاء الله لبلغه تلك الدرجة بلا بلوى ولكن سبحان الله الحليم العليم.

وقال **الجنيد**[4]: كنت نائما عند سري الشقطي فنبهني فقال لي: يا جنيد؛ رأيت كأني وقفت بين يديه فقال لي يا سري: خلقت الخلق فكلهم ادعوا محبتي فخلقت الدنيا فهرب مني تسعة أعشارهم وبقي معي العشر وخلقت الجنة فهرب مني تسعة أعشار العشر، وبقي معي عشر العشر فسلطت عليهم ذرة من البلاء فهرب مني تسعة أعشار عشر العشر فقلت للباقين معي: لا الدنيا أردتم، ولا الجنة أردتم ولا من النار هربتم فما تريدون؟ قالوا إنك تعلم ما نريد فقلت: إني مسلط عليكم من البلاء بعدد أنفاسكم مالا

---

(1) تقدمت ترجمته.

(2) تقدمت ترجمته.

(3) تقدمت ترجمته

(4) تقدمت ترجمته

تقوم به الجبال أتصبرون؟ قالوا إذا كنت أنت المبتلي فافعل ما بدا لك فهؤلاء عبادي حقا. **انتهى.**

قال في التنوير: إنما يُعينهم على حمل أقداره شهود حسن اختياره. **وأنشدوا:**

وَخفف عَنِّي مَا أُلاقِي مِنَ الْعَنَا لِأَنَّكَ أَنْتَ الْمُبْتَلِي وَالْمُقَدِّرُ
وَمَا لِامْرِئٍ عَمَّا قَضَى اللهُ معدلُ (1) وَلَيْسَ لَهُ مِنْهُ الَّذِي يَتَخَيَّرُ

وقال الأستاذ أبو علي: جربت مرة وكنت في صورة وحشة من ذلك ففتح على قلبي شيء من الرضى فكنت ألثم تلك القروح فخرجت و لم يبق منها أثر.

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري[2]: **سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول في آخر عمره:** وقد اشتدت به العلة: من أمارات التأييد حفظ التوحيد في أوقات الحكم ثم قال: كالمفسر لقوله مشيرا على ما كان فيه من حاله: هو أن يقرضك بمقاريض القدرة في إمضاء الأحكام قطعة قطعة وأنت ساكن جامد.

وفي الحديث: «إن الرجل لتكون له الدرجة في الجنة فلا يبلغها بشيء من عمله فيبتليه الله فيبلغ درجة لا يبلغها بعمله[3]».

وفيه: «داء الأنبياء الفالج واللَّقْوَة[4]» ومن المفاليج –**كما قال الجاحظ**– سيدنا إدريس عليه السلام، وأكثر ما يعتري الفالج المتوسطين من الناس لأن الشباب كثير الحركة والشيخ كثير اليبس. **رزقنا الله العافية في جميع الأمور ولطف بنا في جميع الأحوال وأعاننا على**

---

(1) انظر التنوير في إسقاط التدبير: (6) والبيتان لابن عطاء الله.

(2) عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة بن محمد. الإمام أبو القاسم القشيري، النيسابوري، الزاهد، الصوفي، شيخ خراسان، وأستاذ الجماعة، ومقدم الطائفة. قال الخطيب: كتبنا عنه وهو ثقة، وكان يعرف الأصول على مذهب الأشعري، والفروع على مذهب الشافعي. صنف التفسير، وهو من أجود التفاسير، والرسالة المشهورة في رجال الطريقة. وحج مع البيهقي، وأبي محمد الجويني. وكان له في الفروسية واستعمال السلاح يد بيضاء. وله عدة أولاد ألمة. عبد الله، وعبد الواحد، وعبد الرحيم، وعبد المنعم وغيرهم

(3) أخرجه الطبراني (323/22 ، رقم 813)

(4) أخرجه في فيض الباري في شرح صحيح البخاري: (215/3).

ما فيه رضاه بمنه وكرمه.

ولبعضهم سائلا العفو والعافية من الرب اللطيف:

يَا رَبِّ إِنْ كَانَ تَمْرِيضِي يُقَرِّبُنِي بِــي — إِلَيْكَ زُلْفَى فَبَابُ الْعَفْوِ أَوْسَعُ لِي ع لي

أَوْ كَانَ مِنْ أَجْلِ تَكْفِيرِ الذُّنُوبِ فَــلاَ فــــــلا — يَحْتَاجُ عَفْوُكَ لِلأَسْقَامِ وَالْعَلَــلِ لــل

ومن دعاء سلام بن مطيع: اللهم إن كنت قد بلغت أحدا من عبادك الصالحين درجــة ببلاء، فبلغنيها بالعافية. قاله في المستطرف[1].

قال الشعراني: وإياك أن تقول كما قال بعض المحبين حين ابتلي: اللهم إن كان في هذا رضاك فزدني، فإن رجال البلاء هم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وكان الشافعي به البواسير تنضح دما ليلا ونهارا حتى كان يجلس للحديث والطســت تحته يقطر فيه الدم فقال يوما: اللهم إن كان في هذا رضاك فزدني منه فسمعه شــيخه مسلم بن خالد الزنجي[2] فقال: مه يا محمد فنسأل الله العافية، فأنا وأنت لســنا مــن رجال البلاء. واعتل علة شديدة فكان يقول: اللهم إن كان في هذا رضاك فزدني منــه. فكتب إليه المعافري من سواد مصر: يا أبا عبد الله لست وإياك من أهل البلاء، فسل الله الرضى، والأولى بنا أن نسأل الرفق والعافية. فرجع الشافعي عن قوله هذا وقال: أستغفر الله وأتوب إليه. وكان بعد ذلك يقول اللهم اجعل لي خيرتي فيما أحببت.

وقال الثوري: أدركنا الناس وهم يخافون من الأمراض والبلايا خوف أن يقعوا في كراهة

---

(1) انظر المستطرف في كل فن مستظرف: (533/2).

(2) هو مسلم بن خالد بن مسلم بن سعيد القرشي المخزومي، مولاهم، المعروف بالزنجي: تابعي، من كبار الفقهاء. كان إمام أهل مكة. أصله من الشام. لقب بالزنجي لحمرته، أو على الضد، لبياضه.وبه تفقه الإمام الشافعي قبل أن يلقى مالكا. وهو الذى أذن للشافعي بالافتاء. انظر تذكرة الحفاظ: (235/1).

قضاء الله تعالى عليهم. قال: فو الله لا أدري ماذا يقع مني فلعلي أكفر ولا ..

وقال الصديق ﷺ:سلوا الله العافية فإن المؤمن لم يعط بعد الإيمان أفضل من العفو والعافية. وأيضا سؤال البلاء فيه دعوى لمقام الصبر وكل مدع ممتحن.

ولما قال سمنون المحب[1]:

وَلَيْسَ لِي فِي سِوَاكَ حَظٌّ فَكَيْفَ مَا شِئْتَ فَاخْتَبِرْنِي

ابتلي بعسر البول؛ **فصاح وصار يقول:** أدعو لعمكم الكذاب[2].

وقال أبو العباس المرسي[3]: لو قال عوض ما قال: فكيف ما شئت فاعف عني. لكان أولى من طلب الاختبار.

قال الشعراني: إنما وقع الامتحان لسمنون لغفلته عن التبري من الدعوى، فلو قال: مدني بالقوة ثم اختبرني بما شئت.

وكان شيخنا يقول: إذا قيل لك أتخاف من الله، فقل: نعم. لكن بقدر ما خلقه الله في من الخوف وبقدر ما خلق عندي من الرجاء. وكذلك القول في الحب لله تعالى. فمن سلك ذلك لا يقع له امتحان لتعويله على الله؛ لا على قوة نفسه وقد قالوا كل مدع ممتحن. وهذا ميزانه. والله أعلم. **انتهى**[4].

وقال ابن دريد[5] **في قصيدته المعروفة:**

---

(1) هو سمنون بن حمزة الخواص، أبو الحسن، أو أبو بكر: صوفي ناسك، من الشعراء. له مقطوعات في غاية الجودة. وهو من أهل البصرة. سكن بغداد وتوفي بها نحو 290هـ. انظر حلية الأولياء: (309/10).

(2) انظر التنوير لابن عطاء الله: (55).

(3) تقدمت ترجمته.

(4) انظر الطبقات الكبرى للشعراني: (230/1).

(5) هو محمد بن الحسن بن دريد الازدي، من أزد عمان من قحطان، أبو بكر: من أئمة اللغة والادب. كانوا يقولون: ابن دريد أشعر العلماء وأعلم الشعراء. وهو صاحب (المقصورة الدريدية – ط). ولد في البصرة، وانتقل إلى عمان فأقام اثني عشر عاما، وعاد إلى

مارَستُ مَن لَو هَوَتِ الأَفلاكُ مِـــن جَوانِبِ الجَوِّ عَلَيـــهِ مـــا شَـــكا[1]

قال تلميذه ابن البغدادي[2]: إن الله عاقبه بقوله ذلك بفالج أبطل من مخرجه إلى قدميه فكان يصيح لذلك ويضج.

وفي البلايا أيضا: يقع له خلف ما يفوته من الطاعات فيكتب له في مرضه مثل ما كان يعمل من ذلك في صحته، وذلك أبلغ في الوصول إلى غرضه، لأنه من اختيار الله تعـــالى وهو خير من اختياره لنفسه؛ لأن ما كان يفعله من الطاعات من لـــه بتخليصـــه عـــن الشوائب وتصفيته من الآفات والمعائب؟ فليحسن العبد ظنه بمولاه وليعلم أن ما يختاره له خير مما يختاره لنفسه.

وفي الخبر: «يقول الله تعالى لملائكته: اكتبوا لعبدي صالح ما كان يعمل في صحته، فإنه في وثاقي إن أطلقته أبدلته لحما خيرا من لحمه ودما خيرا من دمه، وإن توفيته توفيته إلى رحمتي»[3].

قيل: أوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السلام: إني مبتليك، قال: يا رب: أين يكون القلب؟ قال: عندي، قال: يا رب فصب علي البلاء صبا، فلما بلغ البلاء منتهاه أوحى الله إليـــه؛ إني معافيك فقال: يا رب فأين يكون قلبي؟ قال عندك. قال: "مسني الضر وأنت أرحم الراحمين".

البصرة. ثم رحل إلى نواحي فارس، فقلده (آل ميكال) ديوان فارس، ومدحهم بقصيدته (المقصورة) ثم رجع إلى بغداد، واتصل بالمقتدر العباسي فأجرى عليه في كل شهر خمسين دينارا، فأقام إلى أن توفي سنة 321هـ. انظر للزيادة: وفيات الاعيان: (497/1).

(1) من قصيدة له 256بيتا مطلعها:

يا ظَبيَةً أَشبَه شَيءٍ بِالمَها تَرعى الخُزامى بَينَ أَشجارِ النَقا

انظر ديوانه.

(2) عبد الله بن محمد من أهل قفصة، كان أبوه ظريفاً فلقب بالبغدادي؛ قال ابن رشيق في الأنموذج: وطريق ابن البغدادي في الشعر خارجة عن طرقات أهل العصر، لأنه كان جاهلي المرمى، ملوكي المنتمى، يخاله السامع فحلاً يهدر، أو أسداً (2) يزأر، وله أمثال واستعارات على حدة من الكلام وفي جهة من البلاغة، وكانت له من عبد الله بن حسن مكانة (3) ، ثم تغير عليه فداجاه إلى أن تخلص منه إلى مدينة صقلية، ثم ورد الحضرة، ثم انتقل إلى طرابلس الغرب، ثم انتقل إلى مصر سنة أربعمائة. وكانت له بمصر وقعات، فخرج منها مترقباً ثم عاد إلى الحضرة، وبها توفي سنة عشرين وأربعمائة، وقد قارب الستين. انظر فوات الوفيات: (227/2).

(3) أخرجه الخطيب (191/2)

وقال بعضهم: إذا أردت أن تعرف رضى الله عنك فانظر إلى رضاك عنه في البلوى وموافقتك إرادته في لمصائب، فإن كنت راضيا عنه في البلوى وموافقا لإرادته فهو عنك راض **لحديث:** «من رضي فله الرضى ومن سخط فله السخط». **(وَ)** في كدر الدنيا أيضا **(صَفَاءُ الْبَاطِنِ)** من عيوبه؛ كحب الدنيا والكبر والرياء وقمع الهوى وغير ذلك. **(وَ)** فيه أيضا تحصل **(طَاعَتُهُ)** أي طاعة القلب وأعماله التي ذرة منها خير من أمثال الجبال وأعمال الجوارح وذلك مثل الصبر والرضى والزهد والتوكل. **وفي الحديث:**«ركعتان من رجل زاهد قلبه خير له وأحب إلى الله من عبادة المجتهدين إلى آخر الدهر أبدا سرمدا[1]».

وإلى ذلك أشار بقوله: (وَهِيَّ أَفْضَلُ مِنْ طَاعَةِ الظَّاهِرِ لأَنَّهَا) أي طاعة الباطن **(أَشَقُّ عَلَى النَّفْسِ)** **قال في التنوير:** وليس يدل على فهم العبد كثرة عمله، ولا مداومته على ورده، إنما يدل على فهمه، ونوره غناه بربه، وانحياشه إليه بقلبه، وتحرره من رق الطمع، وتحليه بحلية الورع.

وقال عبد الواحد بن زيد[2] لرجل تعبد خمسين سنة: حبيبي؛ أخبرني عنك هل قنعت به أم لا؟ قال: لا، قال: فهل آنست به؟ قال: لا. قال: فهل رضيت عنه؟ قال: لا؟ قال: فإنما مزيدك منه الصلاة والصوم؟ قال نعم. قال: لولا أني استحيي منك لأخبرتك أن أعمالك خمسين سنة مدخولة.

قال أبو طالب المكي[3]: أراد بذلك: إنه لم يرفعك بأعمالك إلى مقامات المقربين فيوجدك مواجد العارفين فيكون مزيدك أعمال القلوب التي يستعمل بها كل محبوب مطلوب، لأن القناعة به حال الموقن والأنس به مقام المحب. **والرضى:** وصف المتوكل

([1]) تقدم تخريجه.

([2]) تقدمت ترجمته.

([3]) تقدمت ترجمته.

إنما أنت عنده في طبقة أصحاب اليمين فمزيدك منه مزيد العموم من أعمال الجوارح، فمن وفقه الله تعالى إلى منازلة هذه المقامات وتوفية حقوقها في البلايا النازلة فقد حصل على كنوز البر. رزقنا الله العافية في جميع الأمور ولطف بنا في جميع الأحوال بمنه. ومن مولانا اللطيف الخبير نسأل اللطف بنا في أحكام المقادير فإن لطف الجليل جل جلاله يصحب عباده بحسب الحاجة وعونه يأتيهم على قدر نزول الشدة، وغوثه يسرع إليهم على مراتبهم في الاضطرار ولما كان الروح يتقوت بالهواء ولا يصبر عنه ساعة كان الهواء أكثر الموجودات إمكانا, ولما كانت الحاجة إلى الماء شديدة والصبر عنه قليل؛ كان قريبا منه في الإمكان. فتأمل؛ لو كانا لا يؤخذان إلا بالثمن كالطعام؛ ما الحيلة؟ ولما كانت الحاجة إلى النار دون ذلك والقليل منها يكفي والكثير منها يضر كانت أقل إمكانا حتى أنها قل ما تكون إلا بالمعالجة، ومن تصفح ديدن الموجودات وجد هذا الفن من علومها كثيرا فالفواكه قليلة بالنسبة إلى القوت للاستضرار بعدم القوت. وأقل الجواهر وجودا ما لا تمس الحاجة إليه.

ولما كان المشي على الأقدام؛ كانت بشرتها أغلظ، والكف تحتاج إلى مباشرة الخشن فغلظت بشرتها بحسب الحاجة، ثم تدرج الغلظ في جميع البشرة على نحو ذلك حتى صارت بشرة الشفة أرقها إذ لا يباشرها إلا اللين.

ولما احتيج إلى كشف الوجه للمواجهة أعين على ألم الحر والبرد أكثر من سائر البدن. **ومن العجب**: أنه يتألم بأقل الخجل حتى يتصبب عرقا ثم يحتمل شدة البرد.

ولما كان المظلوم إلى النصر أحوج؛ كانت الإجابة إلى دعائه أسرع «اتقوا دعوة المظلوم فليس بينها وبين الله حجاب[1]».

---

(1) أخرجه أحمد (153/3 ، رقم 12571)

ولما كان الصغير من الحيوان غير مستقل بنفسه استخدمت له الأم بقهر الشفقة بخلاف الكبير. فسبحان من عجزت العقول عن إدراك بعض لطائفه وقصرت الألسن عن شكر أقل عوارفه.

تتمة: ومن فوائد المرض أيضا: أن القلم يرفع عن المريض، ويكتب له ما كان يعمل صحيحا، ويحمد الله لعواده فيكتب شاكرا ويغفر له إن شفي وإن مات دخل الجنة، وإن المرض يتتبع كل خطيئة في المفاصل حتى يستخرجها وإن أنينه تسبيح وصياحه تهليل ونفسه صدقة ونومه عبادة وتقلبه من جنب إلى جنب جهاد، ثم إن احتسب مرضه مصيبة وصبر كتب في ديوان الصابرين، وإن احتسبه نعمة وشكر كتب في ديوان الشاكرين.

ومن آداب المرض: كتمه وإخفاؤه **لما ورد**: أن من كنوز الجنة كتمان الأمراض والمصائب والصدقة والرضى به والصبر ولا يتسخط ولا يضجر، وأداء الفرائض في أوقاتها ما استطاع ولا يشكو لأحد إلا الطبيب يطبه ولا يحدث به إلا أن يرى ذلك نعمة فيتحدث بنعمة الله، وأن يرى ذلك نعمة ليطهره من الذنوب وتذكرة من الله ووعظا، ويوصي لقرابته لئلا يختم عمله بالمعصية.

(4) النـــاس

ولما أنهى كلامه على ثلاثة من العوائق أخذ في الكلام على الرابع فقال: (فَصْلٌ وَمِنْهُ) أي ومن الخلق الذي هو من حجب الوصول: **(النَّاسُ فَارْفَعْ هِمَّتَكَ) وسيأتي معنى الهمة إن شاء الله تعالى (عَنْهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَشَكْوَى فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ)** ولا تلتفت إليهم بل التفت إلى نظر الله إليك وإقباله عليك لأن الالتفات إليهم يوجب أنواعا من الكبائر مع الانحطاط في أهوائهم، وتحسين مواقع نظرهم منه بالتصنع والتزين لهم وتربية الجاه والحشمة لديهم تكبرا وتعظيما عليهم ومعاشرتهم بالنفاق والدهاء وتخالف الاسرار والإعلان وهذا عذاب أليم استعجله في الدنيا إذ تفوته بذلك راحة قلبه مع الطمع والذلة فتقل قيمته. ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ **قال:**

مَنْ رَاقَبَ النَّاسَ مَاتَ غَمًّا (1) وَفَازَ بِالرَّاحَةِ الْجَسُورُ

ثم بعد ذلك لا يحصل ما أراده منهم فإن أغراضهم مختلفة وطباعهم متباينة فربما استحسن من نفسه شيئا لم يستحسنه غيره، وربما أرضى شخصا ما لا يرضى آخر، فهو يعمل بزعمه فيما ينفعه عند الناس وهو ساع فيما يضره عندهم وعند الله تعالى مع مقاساة التعب في نفسه. **وانظر قصة لقمان المشهورة مع ابنه وحماره، فرضى الناس غاية لاتدرك، وأحمق الناس من طلب ما لا يدرك. والعاقل من يميل إلى الحق ونظره تعالى من غير اكتراث بعيب عائب، ويقول بلسان حاله:**

إِنَّ الَّذِي تَكْرَهُونَ مِنِّي ذَاكَ الَّذِي يَشْتَهِيهِ قَلْبِي

(1) البيت لسلم بن عمرو البصري، وبعده:

لَولا مُنى العاشِقِينَ ماتوا غَمّاً وَبَعضُ المُنى غُرورُ

وهما من مخلع البسيط. انظر ديوانه (حرف الراء).

ويعرض عن الخلق (إِقْبَالاً) أي إن أقبلوا عليك وتوجهوا إليك بالتعظيم والمدح والعطاء فلا تركن إليهم في ذلك لأنه تعالى هو الفاعل لذلك حقيقة ولا تفرح بمدحهم وكن أنت ذاما لنفسك لما تعلم منها من العيوب وعدم تشميرك لما مدحت به وظهور أثر الصلاح عليك دون حقيقته فإذا قاموا بحق ما يجب عليهم من مدحك وحسن الظن بك فقم أنت بما يجب عليك من اتهام نفسك. **قال بعضهم**: من فرح بمدح فقد مكن الشيطان يدخل في بطنه. **وقال آخر**: إذا قيل نعم الرجل أنت فكان أحب إليك من أن يقال: بيس الرجل فأنت والله بيس الرجل.

وقال الأصمعي[1]: كان أبو بكر إذا مدح يقول: اللهم أنت أعلم بي من نفسي وأنا أعلم بنفسي منهم، اللهم اجعلني خيرا مما يظنون واغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون. **قاله العلقمي**.

وقال بعضهم: لا تزال بخير ما لم تر أن فيك خيرا. **وقال آخر**: علامة المنافق الذي إذا مدح بما ليس فيه ارتاح لذلك قلبه. **وقال آخر**: إذا رأيت الرجل يحب أن يحمده الناس كلهم ويكره أن يذكره أحد بسوء فاعلم أنه منافق.

وقال المناوي: قال ابن العريف[2]: الفتنة الباطنة قد عمت وهي جهل كل أحد بمقداره فلزم اعتبار العبد العاقبة في نفسه حتى لا تناله الفتن وإلا هلك دنيا ودينا فتأمل هذه الفائدة فإنها من واجبات الوقت. **انتهى**.

وإنما كرهوا المدح خيفة أن يفرحوا بمدح الخلق، وهم ممقوتون عند الخالق، فالممدوح حقيقة هو المقرب إلى الله تعالى. والمذموم هو المبعد عنه الملقى في النار. فمن مدحه الناس إن كان من أهل النار؛ فما أعظم جهله إذا فرح بمدح غيره وإن كان من أهل الجنة فلا

([1]) تقدمت ترجمته.

([2]) هو أحمد بن محمد بن موسى الصنهاجي الأندلسي المري، أبو العباس: فاضل شهير بالصلاح. له شعر ومشاركة في العلوم. وصنف كتاب (محاسن المجالس – ط) على طريق القوم. نسبته إلى المرية ووفاته بمراكش. انظر وفيات الأعيان: (54/1).

ينبغي أن يفرح إلا بفضل الله تعالى وثنائه عليه إذ ليس أمره بيدهم، وإذا علم أن الخير بيده تعالى أعرض عن مدحهم واشتغل بما أهمه من أمر دينه. ثم إن مدحك أحد أو ذمك فلا تخرج عن الحق بحيث لو مدحك من شأنه الذم لاقتصرت على مقدار ما واجهك به وما عملته من أوصافه المحمودة. ولو ذمك من شأنه المدح لم يخرجك ذلك عن إقامة حقه بمدحه وهذا جار في العطاء والمنع فلا تمدحن أحدا ولا تذمه إلا من حيث مدحه الله أو ذمه.

وقال حاتم الأصم: مذمة الناس للإنسان في هذا الزمان مدحة له لأنهم لا يذمونه إلا لمخالفته لما تهواه نفوسهم (وَ) أعرض عنهم **(إِدْبَارًا)** أي إن أدبروا وأعرضوا عنك. وقابلوك بالإهانة والذم والمنع لعلمك بأن إحسانهم إليك وإساءتهم عليك كل ذلك مخلوق لله تعالى. قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ فلا إساءة لهم حتى تذمهم عليها إلا إذا أمر الشرع بذمهم أو معاقبتهم فيفعل حينئذ ما أمره الشرع به تعبدا فمتى آلمك ذم الناس فارجع على ما بينك وبين ربك. **(وَاقْنَعْ بِعِلْمِهِ تَعَالَىٰ فِيكَ)** بأن تنظر إلى ما أعرضوا عنك بسببه أو ذممت به من أجله أو أهنت فإن كان تعالى يعلم منك وجوده فارجع إليه بالتوبة والاستغفار؛ نظرا إلى أن ألسنة الخلق أقلام الحق وإن لم تجده في نفسك فارجع إليه بالكفاية به عن علم غيره. وقل بلسان الحال والمقال: أنت تعلم براءتي وكفى بك وكيلا. وارجع إليه بالدفع عنك عبودية وتضرعا. وعلامة الاكتفاء بعلم الله التحفظ من الوقيعة فيمن آذاك والقصد في العمل بأسباب الرفع حيث توجهت والقيام لله بالعبودية افتقارا فيما أنت فيه ثم إن قنعت بعلم الله فيك ورضيت به فكان لك في ذلك أعظم سلوان عما يفوتك من جهة المخلوقين بل لا تجد لذلك وقعا في نفسك فإن لم ترض بذلك و لم تقنع به؛ فمصيبتك بذلك أعظم من مصيبتك بأذى الناس لك بل لا مصيبة في أذى الناس البتة. وقال إبراهيم التيمي لبعض أصحابه: ما يقول الناس فيَّ؟ فقال: يقولون: إنك مراء. فقال: الآن طاب العمل. قال بشر: اكتفى -والله- بعلم الله

فلا يحب أن يدخل مع الله علم غيره. وقال: سكون النفس إلى قبول المدح لها اشد عليها من المعاصي.

تنبيهات: الأول: الناس في قبول المدح على **ثلاثة أقسام:**

قسم قبله من حيث الطبع والملاءمة وهم العوام.

وقسم رده لما ورد من ذمه؛ وهم العباد والزهاد **لحديث:** «إن المدح هو الذبح[1]»، **وحديث:** «احثوا التراب في وجوه المداحين[2]». **وقال عليه الصلاة والسلام** للذي مدح عنده رجلا: قطعتم عنق صاحبكم.

ومعنى حديث: «ربا الإيمان في قلبه[3]» في حق هؤلاء أي ربا بزيادة الخوف والإشفاق من المكر به والاستدراج. **ومعناه في حق العارف:** أنه يفرح بالمدح ويضيفه إلى مولاه الذي به تولاه فيرد الصنعة إلى صانعها ويشهد في الفطرة فاطرها فيكون ذلك مدحا للصانع ووصفا للفاطر لا ينظر به إلى نفسه ولا يعجب بوصفه.

ومر بشر الحافي بالناس فقالوا: هذا لا ينام الليل ولا يفطر النهار، فبكى وقال: لا أذكر أني سهرت ليلة كاملة لكن الله يلقى في القلوب أكثر مما يفعله العبد لطفا به.

وقسم: قبلوه وهم العارفون من حيث أن ألسنة الخلق أقلام الحق. فالعارف يحمد الله على ما أجرى من المدح فيقبض عند الذم ويبسط عند المدح لشهوده المدح من ربه فلا ينظر إلى وصفه ولا يعجب بنفسه فيكون ذلك مزيدا في حاله ومقامه لغيبته عن نفسه. **ففي الحديث:** «إذا مدح المؤمن ربا الإيمان في قلبه»[4]. **وقد مدح ﷺ جماعة؛ كأبي بكر**

([1]) أخرجه ابن عبد البر في الاستذكار: (98/7).

([2]) أخرجه الطبراني (239/20 ، رقم 566) .

(3) أخرجه الطبراني (170/1 ، رقم 424) بلفظ: "إذا مدح المومن في وجهه ربا الإيمان في قلبه".

([4]) أخرجه الطبراني (170/1 ، رقم 424)

وعمر وعثمان وعلي، وابن عمر، وجعفر وأبي هريرة، وأبي ذر وغيرهم كأبي عبيدة وأشج عبد القيس، وزيد بن ثابت.

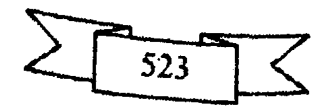
ومدح ابن عطاء الله شيخه أبا العباس المرسي بقصائد وقعت منه موقعا. **وقال:** أيدك الله بروح القدس نحو ما كان يقول رسول الله ﷺ لشاعره حسان بن ثابت. وبهذا النظر والشهود الجمعي استقام لهم من مدحهم لأنفسهم ما لم يستقم لغيرهم كما وقع لسيدي عبد القادر وسيدي أبي الحسن الشاذلي، وسيدي أبي العباس المرسي وغيرهم. مع أن حب المدح عندهم من الرذائل والصدق القبيح.

وبالجملة: فشرط المدح الاقتصار على الحق في محله من غير زيادة مضرة ولا نقصان مخل، وأن يكون المدح حقا وإلا فلا يجوز ذكره ولا قبوله وأن يزيد الممدوح خيرا فإن زاده شرا أو جهل حاله حرم لأنه ظلم له، ولأن غالب النفوس على التضرر به فيحمل عليه عند الجهل.

الثاني: إذا أطلق الله ألسنة الخلق بالثناء عليك ولا أهلية فيك لذلك فاعرف الحق لأهله واثن على الله تعالى بما هو أهله شكرا لنعمة إطلاق الألسنة بمدحك من غير استحقاق لذلك ولا ثبوت أهلية.

قال المناوي: ولما اختفى الإمام مالك زمن الفتنة قال لمطرف: ما يقول الناس فيَّ قال: الصديق يثني والعدو يقع. قال: ما زال الناس هكذا لهم عدو وصديق لكن نعوذ بالله من تتابع الألسنة بالذم. **انتهى.**

الثالث: قال الخواص وغيره: أحذر إذا مدحت أن تقول: نحن أقل الناس أو نحن تراب نعال الناس لأنك تريد بذلك التبري مما توهمت أن الناس ظنوه فيك من الفرح بالمدح فذلك يزيدك عندهم رفعة، بل الزم السكوت موهما أنك تحب المدح فإنه أقوى في رياضة النفس وتهذيبها. قال: وهذا أمر يجب عندنا فعله على كل من كان تحت سلطان نفسه.



وأما من غلب نفسه فهو بالخيار بين أن يجيب عن نفسه وبين أن يسكت. ولقد بلغنا أن شخصا كان يسب الإمام عليا بن أبي طالب كرم الله وجهه فجمعهما يوما محفل فمدح عليا على خلاف عادته، فقال له الإمام علي: أنا دون ما تقول وفوق ما في نفسك.

وقال الشيخ محي الدين بن عربي: ينبغي لمن مدحه أحد أن يشكر ويستغفر معا وأن يحثو التراب في وجه المادح **لحديث**: «احثوا التراب في وجوه المداحين[1]». وصورة ذلك أن يأخذ أحدنا كفا من تراب ويرمي به بين يدي المادح برفق ثم يقول سرا: وماذا عسى أن تمدح من خلق من هذا التراب الذي تطأه الأقدام. **انتهى من شرح شهية السماع والمناوي**[2].

تتمة: قوله: واقنع بعلمه فيك إلى آخره: **قال المناوي**: علامة القنوع بعلمه تعالى؛ والاكتفاء به: التحفظ من الوقيعة فيمن آذاك والقصد في العمل بأسباب الدفع حيث توجهت والقيام لله بالعبودية افتقارا فيما أنت فيه.

ثم قال: (وَانْظُرْ إِلَيْهِمْ بِعَيْنَيْنِ) لأن من نظر إليهم بعين الشريعة وحدها يقع في مقتهم واحتقارهم وفي الشماتة بهم إذا أقيمت عليهم الحدود والتعزيرات ولا يخفى ما في ذلك. ومن نظرهم بعين الحقيقة وحدها أيضا عذرهم حتى لا ينهاهم عن المنكر فيكون شريكا لهم في معصيتهم.

([1]) تقدم تخريجه.

([2]) انظر شرح شهية السماع: (41) مخطوط في الزاوية.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وقال سيدي علي الخواص: من نظر إلى العصاة بعين الشريعة فقط؛ فمن لازمه أن يزدري بهم والازدراء بشيء من العالم يرجع في الحقيقة إلى صنع الله والازدراء بالصنع كفر، فالسلامة أن ينظر إليهم بعينين (**عَيْن الشَّرِيعَةِ**) المطهرة (**بِالأَمْرِ**) والأمر اقتضاء فعل غير كف أو اقتضاء كف لكن بلفظ كف (**بِالْمَعْرُوفِ**) والمعروف اسم لما أمر به الشرع (**وَالنَّهْيِ**) والنهي اقتضاء الكف عن الفعل بغير لفظ كف (**عَنِ الْمُنْكَرِ**) والمنكر اسم لما نهي عنه. والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شيئان من جهة الصورة وإن كانا في المعنى واحدا، فمن أمر بالمعروف فقد نهى عن المنكر، ومن نهى عن منكر فقد أمر بمعروف؛ لأن الأمر بالشيء نهي عن ضده كما إذا قيل له اسكن فكأنه قال: لا تتحرك أيضا إذ لا يتحقق السكون بدون الكف عن التحرك.

قال النووي في شرح مسلم: هذا الباب ـ أي باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ قد ضيع أكثره في أزمان متطاولة ولم يبق منه إلا رسوم قليلة وهو باب عظيم به قوام الأمر وملاكه. وإذا كثر الخبث عم العقاب الصالحَ والطالحَ، وينبغي للعاقل أن يعتني بهذا الباب؛ فإن نفعه عظيم لاسيما وقد ذهب معظمه، ويخلص نيته ولا يهابن أحدا لارتفاع مرتبته، وعلو منزلته فإن الله تعالى قال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ واعلم أن الأجر على قدر النصب، ولا يترك أحدا لصداقته، ومودته ومداهنته، وطلب الوجاهة عنده، ودوام المنزلة لديه، فإن صداقته ومودته له توجب له حرمة وحقا، ومن حقه أن ينصحه ويهديه إلى مصالح آخرته وينقذه من مضارها، وصديق الإنسان ومحبه من سعى في عمارة آخرته وإن أدى ذلك إلى نقص في دنياه. وعدوه: من سعى في ذهاب آخرته، وإن حصل بسبب ذلك صورة نفع في دنياه. وإنما كان إبليس عدوا لنا لهذا وكانت الأنبياء

عليهم الصلاة والسلام أولياء للمؤمنين للسعي بهم في مصالح آخرتهم وهدايتهم إليها[1]. انتهى.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية إذا تعدد من يقوم به إن قام به من فيه غناء في كل موضع: سقط عن الباقين فإن لم يوجد لذلك إلا واحدا كان فرض عين في حقه اتفاقا. وهكذا كل فرض كفاية. ويتعين أيضا إذا كان في موضع لا يعلم فيه إلا هو. وكذلك من يرى زوجته أو ولده على منكر أو تقصير في المعروف.

ويشترط في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: معرفة كل وأن لا يؤدي ذلك إلى ما هو أعظم منه مفسدة وأن يظن الإفادة لئلا يكون ذلك عبثا واشتغالا بما لا يعني. فإن قيل يجب وإن لم يفد إعزازا للدين؛ قلنا ربما يكون ذلك إذلالا له. فالأولان: شرطان للجواز فيحرم عند فقدهما. والثالث: للوجوب فيسقط عند عدم ظن الإفادة، ويبقى الجواز. وهل الأفضل حينئذ التغيير؛ وهو مذهب مالك وابن حنبل وابن المسيب أو السكوت؟وأما من يحمل وحده على المشركين وهو يظن أنه يقتل؛ فإنه إنما يجوز إذا غلب على ظنه أنه ينكئ فيهم بقتل أو جرح أو هزيمة. **ونظم بعضهم هذه الشروط بقوله:**

مَعْرِفَةُ الْمُنْكَرِ وَالْمَعْرُوفِ ف وَالظَّنُّ فِي إِفَادَةِ الْمَوْصُوفِ وف
وَالأَمْنُ فِيهِ مِنْ أَشَدِّ النُّكْرِ ر كَقَتْلِ شَخْصٍ فِي قِيَامِ الْخَمْرِ ر

ويشترط أيضا: أن يكون المنكر مما أجمع على تحريمه أو ضعف مدرك القائل بجوازه، فعلينا نهي حنفي عن شرب النبيذ.

وذكر في محيط الحنفية: أن للحنفي أن يحتسب على الشافعي في أكل الضبع، وفي متروك التسمية عمدا. وللشافعي أن يحتسب على الحنفي في شرب المثلث والنكاح بلا

---

[1] انظر شرح النووي على مسلم: (24/2).

ولي. وأما ما اختلف فيه فلا ينكر على مرتكبه إن علم أنه يعتقد تحليله بتقليد القائل به: كصلاة مالكي بمنـــى في ثوبه مقلدا للشافعي في طهارته بشرط طهارة فرجه قبله عنده، فإن علم أنه يرتكبه مع اعتقاد تحريمه نهى لانتهاكه الحرمة.

زروق: وإن لم يعتقد التحريم ولا التحليل والمدرك فيهما متواتر: أرشد للترك برفق مـــن غير إنكار ولا توبيخ لأنه من باب الورع، ولا تشترط عدالة الآمر والناهي على المشهور بل قال الإمام : وعلى شارب الخمر أن ينكر على الجلاس.

وقال الغزالي: يجب على من غصب امرأة للزنى أن يأمرها بستر وجهها عنه، وذلك لأن ترك المنكر والنهي فرضان متميزان ليس لمن ترك أحدهما أن يترك الآخر لخـــبر: «مـــر بالمعروف وإن لم تأته، وانه عن المنكر وإن لم تجتنبه».

ولا يشترط أيضا: إذن الإمام فيهما ولا يختصان بالولاة لأن المسلمين في الصدر الأول؛ كانوا يأمرون الولاة أنفسهم وينهوهم من غير نكير لأحد ولا توقف على إذن. ويشترط ظهور المنكر في الوجود من غير تجسس ولا استنشاق ريح ليتوصل لـــذلك المنكـــر ولا يبحث عما أخفي بيد أو ثوب، أو حانوت، أو دار فإنه حرام. والظاهر أن حرمة الإقدام على ذلك لا تمنع وجوب النهي عنه بعد ذلك. **وأما عفو عمر ﷺ عن شارب خمر** اطلع عليه ليلة فإنه نظر إليه من خلال باب فإن ذلك ليس مذهبنا.

وأقوى مراتبه: اليد، ثم اللسان برفق ولين، ثم الإنكار بقلبه وهو أضعف الإيمان. وصورة تغييره بالقلب أن يقول في نفسه: لو كنت أقدر على الأمر والنهي لفعلت ويبغض ذلك الفعل. ولا يداهن فاعل المنكر وتارك المعروف بمجالسته أو مخالطته، أو مضـــاحكته، أو مواكلته، أو بموافقته، ويتركه على ذلك كله إلا أن يخافه فلينتقل إلى المداراة.

وفي الأثر: «إذا رأى أحدكم منكرا لا يستطيع النكير عليه فليقل ثلاث مرات: اللهم إن هذا منكر فأنكرناه، فيكون له ثواب من أمر ونهى».

وإذا نصب للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أحد تعين عليه وهو المسمى بالمحتسب في عرف الناس يحتسب في حق الله تعالى وفي حقوق العباد الخاصة. كمطل المديان الموسر وتعدي الجار في جوار الجار إذا استدعاه صاحب الحق. وفي حقوق العامة كتعطل سوق البلد، وانهدام سوره، وترك أهله رعاية أبناء السبيل المحتاجين مع عدم بيت المال، وينكر على من يغير هيئات العبادات كالجهر في الصلاة السرية وبالعكس، وعلى من يزيد في الأذان، وعلى من يتصدر للإفتاء والتدريس أو الوعظ وهو ليس من أهله، وعلى القضاة إذا احتجبوا عن الخصوم أو قصروا في النظر في الخصومات. وعلى أئمة المساجد المطروقة إذا طولوا في الصلاة. وبهذا يعلم أن الأمر والنهي لا يقتصران على الواجب والحرام. وينبغي أن يحتسب برفق وسكون متدرجا إلى الأغلظ فالأغلظ بحسب حال المنكر.

وفي المحيط للحنفية: أن من رأى غيره مكشوف الركبة ينكر عليه برفق ولا ينازعه إن لج. وفي الفخذ ينكر عليه بعنف ولا يضر به إن لج. وفي السوءة أدبه وإن لج قتله. والمحتسب عليه: كل إنسان ولو صبيا أو مجنونا، فمن رآهما على زنى أو شرب خمر؛ وجب عليه المنع، ولا يلزم على ترك الصلاة إذ لم يخاطبا بها وهما مخاطبان بالامتناع من الفساد. وفي وجوب الاحتساب على البهائم إذا أخذت في الإفساد وعدمه، أو يفرق بين مالا مشقة فيه فيجب، وما فيه مشقة فلا يجب.

وينبغي للآمر والناهي أن يقصد وجه الله تعالى وإعزاز دينه ونصره وإعلاء كلمته وإظهار طاعته، وأمره دون الرياء والسمعة، والحمية لنفسه، فإنه إن قصد ذلك نصره الله تعالى ووفقه، وإن قصد حمية نفسه؛ خذله الله وأذله. فإنه بلغنا عن عكرمة أن رجلا مر بشجرة تعبد من دون الله فغضب وقصدها ليقطعها فلقيه إبليس في صورة إنسان فنهاه عن قطعها فأبى وقال له: ارجع وأنا أعطيك عن كل يوم أربعة دراهم تجدها تحت فراشك فرجع ووجد ذلك أياما فانقطع ذلك عنه. ثم قصد الشجرة ثانية ليقطعها فعرض

له إبليس أيضا في صورة إنسان فقال له: لا تطيق قطعها؛ أما أول مرة فكان خروجك غضبا لله فلو اجتمع الخلق لم يقدروا على ردك. وأما الآن فإنما خرجت حيث لم تجد الدراهم فإن تقدمت إليها لأدقن عنقك فرجع وترك الشجرة.

وفي شرح شهية السماع: إن من ضعف الإيمان أن يسكت المرء عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خوفا من الخلق.

وروى أبو نعيم في الحلية عن عبد الله بن عبد العزيز العمري قال: من ترك الأمر والنهي من أجل مخافة المخلوقين نزعت منه هيبة الله فلو أمر ولده أو بعض مواليه لاستخف به[1]. **فقد ورد:** أن اللعنة تنزل على من حضر رجلا يضرب أو يقتل ظلما ولم يدفع عنه.

وفي الحديث: «إن الله ليسأل العبد يوم القيامة حتى يقول له: ما منعك إذا رأيت المنكر أن تنكره، فإذا لقن الله عبدا حجته قال: يا رب رجوتك وفررت من الناس».

وفيه: «لا يحقرن أحدكم نفسه إذا رأى أمرا لله عليه فيه مقال فلا يقول فيه فيقال له يوم القيامة: ما منعك إذا رأيت منكرا أن تقول فيه؟ فيقول: أي رب خفت الناس فيقول: إياي كنت أحق أن تخاف[2]».

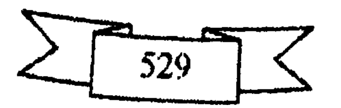
وقال أنس بن مالك: من سمع أحدا يفعل منكرا ولم ينهه جاء يوم القيامة أصم مقطوع الأذنين.

وقال عمر رضي الله تعالى عنه: سيأتي على الناس زمان يكون صالحهم فيه؛ من لا يأمر ولا ينهى. فيقول الناس: ما رأينا منه إلا خيرا لكونه؛ لم يغضب لله.

---

(1) انظر الحلية لأبو نعيم: (284/2).

(2) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان: (7168).



وقال ابن مسعود: إذا مات الرجل و لم يذمه أحد من جيرانه فاعلموا أنه مداهن والمداهن: من يرضى الناس بما ينقص دينه كما أن المداراة إرضاء الناس بما ينقص دنياه فالأولى حرام والثانية مستحبة.

وقال الثوري: يأمر الرجل من يعلم أنه لا يقبل منه ليكون له ذلك معذرة عند الله. **وقال سيدي علي الخواص:** عليك بالأمر والنهي فإن ذلك من زكاة العلم. فقد أوحى الله تعالى إلى داوود ﷺ: يا داوود؛ إذا ترك العلماء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ذهبت الهيبة منهم، وصارت في السفهاء والأشرار.

وقال الثوري: إذا رأيت القارئ محببا في جيرانه محمودا عند إخوانه فاعلم أنه مداهن.

وفي الحديث: «لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم سلطانا ظالما لا يجل كبركم ولا يرحم صغيركم، ويدعو خياركم فلا يستجاب لهم، ويستنصرون فلا ينصرون ويستغفرون فلا يغفر لهم[1]».

وفيه: «إذا هابت أمتي أن يقولوا للظالم: أنت ظالم فتودع منهم[2]».

وفيه: «ما من قوم يكون فيهم رجل يعمل بالمعاصي وقدروا أن يغيروا عليه فلم يغيروا عليه إلا عمهم الله بعذاب قبل أن يتوبوا[3]». واحترز في الحديث مما إذا كان الإنكار تغريرا بالنفس ولحوق ضرر بها فلا يجب لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ ولحديث: «لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه أي يتعرض لما لا يمكنه. **وفي الأحاديث تحذير عظيم لمن سكت عن النهي فكيف بمن داهن، فكيف بمن رضي، فكيف بمن أعان، نسأل الله العافية والسلامة.**

---

(1) أخرجه أبو داود (121/4 ، رقم 4336) ، والبيهقى (93/10 ، رقم 19983)

(2) أخرجه ابن بطال في شرح البخاري: (51/10).

(3) أخرجه الطبراني (203/10 ، رقم 10467)

وعن ابن أبي الدنيا في كتاب "الأمر بالمعروف": إن الله أوحى إلى يوشع بن نـــون؛ إني مهلك من قومك أربعين ألفا من خيارهم، وستين ألفا من شرارهم. فقال: فكيف يـــا رب؟ هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار؟ فقال إنهم لم يغضبوا لغضبي وكانوا يواكلـــونهم ويشاركونهم[1].

وقال مالك بن دينار[2]: أوحى الله تعالى إلى ملك من الملائكة أن أقلب مدينـــة كـــذا وكذا على أهلها. قال: يا رب؛ إن فيهم عبدك فلانا و لم يعصك طرفة عين. فقال: قلبها عليهم وعليه، فإن وجهه لم يتغير لي ساعة قط.

قال البيهقي: ذكر أنه يقوم كثرة رؤية المنكرات مقام ارتكابها في سلب القلوب نور التمييز والانكار؛ لأن المنكرات إذا كثر على القلب ورودها وتكرر بالعين شهودها ذهبت عظمتها من القلوب شيئا فشيئا إلى أن يراها الإنسان فلا يخطر بباله أنها منكرات ولا يمر بفكره أنها معاصٍ لما أحدث من تكرارها من تألف القلوب لها.

وفي القوت لأبي طالب المكي عن بعضهم: أنه مر يوما بالسوق فرأى بدعة فبال الدم من شدة إنكاره لها بقلبه، وتغير مزاجه لرؤيتها، فلما كان اليوم الثاني مر فرآها فبال دما صافيا، فلما كان اليوم الثالث مر فرآها فبال البول المعتاد؛ لأن حرارة الإنكار التي أثرت في بدنه ذلك الأثر ذهبت فعاد المزاج إلى حاله الأول. وصارت البدعة كأنها مألوفة عنده معروفة. هذا أمر مستقر لا يمكن جحوده. **انتهى من القسطلاني في باب إذا انزل الله بقوم عذابا.**

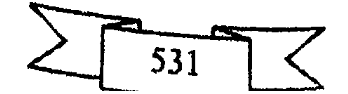
وعن علي كرم الله وجهه: من نهى عن المنكر وشنأ الفاسقين، وغضب إذا انتهكت حرمات الله غضب الله له.

وقد مثل في الحديث المداهن في حقوق الله والواقع فيها، والقائم عليها بثلاثة نفر كانوا في سفينة فاقتسموا منازلهم، فصار لأحدهم أسفلها، فأراد أن يخرق السفينة من

---

(1) انظر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابن أبي الدنيا: (76/1).

(2) تقدمت ترجمته.



أسفل ليقرب منه الماء فيصنع مهراقا للماء. فقال بعضهم اتركوه أبعده الله من جهته ما شاء.

وقال بعضهم: لا تدعوه يخرقها فيهلكنا ويهلك نفسه، فإن هم أخذوا على يده نجا ونجوا وإلا هلك وهلكوا.

وقال علي كرم الله وجهه: أفضل الأعمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وشأن الفاسق بغضه لأهل المعروف، فمن أمر بالمعروف شد ظهر المؤمن ومن نهى عن المنكر رغم انف المنافق.

وجاء في الحديث «إن أفضل الأعمال الإيمان بالله، ثم صلة الرحم، ثم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإن أبغض الأعمال إلى إلي الله أضداد هذه[1]».

وقال كعب الأحبار: جنة الفردوس خاصة لمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

وفي الحديث: «من قيل له اتق الله فغضب أوقف يوم القيامة، فلم يبق ملك إلا مر به وعاتبه، وقال له قيل لك اتق الله فغضبت»، يعني يوبخه بذلك.

وقال عبد الله بن مسعود: إن من أكبر الذنوب عند الله تعالى أن يقال للعبد اتق الله فيقول عليك بنفسك.

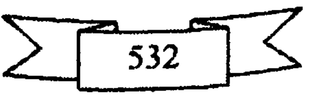
وفي الحديث: «إن من الناس مفاتيح للخير، مغاليق للشر، وهو الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ومنهم مفاتيح للشر مغاليق للخير: وهو من يامر بالمنكر وينهى عن المعروف. فطوبى للأول وويل للثاني[2]». نسأل الله السلامة والعافية.

(وَإِقَامَةُ الْحَدِّ) والتعزيرات ليترجروا وذلك رحمة لهم من حيث تطهيرهم، فقد رجعت الشريعة إلى الرحمة بالعصاة كالحقيقة، قال تعالى ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله. الآية. **وروى الشيخان حديث:** «إنما أهل الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق

---

(1) أخرجه في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للحافظ الهيثم رقم: (13454)، ومسند أبي يعلى: (6839).

(2) أخرجه ابن ماجه رقم (237) عن أنس بن مالك.



فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد[1]».

وروى ابن ماجه حديث: «إقامة حد خير من مطر أربعين ليلة في بلاد الله[2]».

وحديث : «أقيموا حدود لله في القريب والبعيد، ولا تأخذكم في الله لومة لائم[3]» فإذا تقرر هذا فلا ترأف لمحدود، أو مقتول، بل أفرح له من التطهير رحمة به. ولا تقل: مسكين هذا ما كان يستحق ذلك، فإن ذلك ادعاء مقام في الرحمة فوق رحمة من قدر عليه ذلك. ولا تقل: يستحق هذا ما جرى له لأن في ذلك رائحة شماتة بالمسلمين، بل اسأل الله التفريج عنه، فإنه تعالى ما يترل بعبد عقوبة إلا جزاء لعمل أحصاه الله ونسيه العبد.

فرع: قال سيدي زروق: ثبوت المزية لا يقضي برفع الأحكام الشرعية وإجراء الأحكام الشرعية لا يرفع خصوصية المزية، فمن ثبت عليه حق، أو لزمه حد، أو وقع عليه مع حفظ حرمته الإيمانية أصل؛ا فلا يمتهن عرضه إلا على قدر الحق المسوغ له، وإن أثبتت حرمته مزية دينية لم ترتفع إلا بموجب رفعها. فالولي ولي وإن أتى حد؛ا أو أقيم عليه، ما لم يخرج لحد الفسق بإصرار وإدمان ينفى ظاهر الحكم عنه بالولاية «لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله»، «ولو سرقت فاطمة لقطعت يدها» وقد أعاذها الله من ذلك ﴿ولا تاخذكم بهما رأفة في دين الله﴾. **فمن ثم أفتى الشبلي[4] بقتل الحلاج[5]**

([1]) أخرجه مسلم في كتاب الحدود: (4411)، والبخاري: (6788) عن عائشة.

([2]) أخرجه ابن ماجه: (2537) عن ابن عمر.

([3]) أخرجه ابن ماجه: (2540).

([4]) تقدمت ترجمته.

([5]) هو الحسين بن منصور الحلاج، أبو مغيث: فيلسوف، يعد تارة في كبار المتعبدين والزهاد، وتارة من الملحدين. أصله من بيضاء فارس، ونشأ بواسط العراق (أو بتستر) وانتقل إلى البصرة، وحج، ودخل بغداد وعاد إلى تستر. وظهر أمره سنة 299هـ فاتبع بعض الناس طريقته في التوحيد والايمان. ثم كان يتنقل في البلدان وينشر طريقته سرا، وقالوا: إنه كان يأكل يسيرا ويصلي كثيرا ويصوم الدهر، وإنه كان يظهر مذهب الشيعة للملوك (العباسيين) ومذهب الصوفية للعامة،وكثرت الوشايات به إلى المقتدر العباسي فأمر بالقبض عليه، فسجن وعذب وضرب وهو صابر لا يتأوه ولا يستغيث. قال ابن خلكان: وقطعت أطرافه الاربعة ثم حز رأسه وأحرقت جثته ولما صارت رمادا ألقيت في دجلة ونصب الرأس على جسر بغداد. وادعى أصحابه أنه لم يقتل وإنما ألقي شبهه على عدو له. انظر طبقات الصوفية: (307).

والحريري[1] بضربه وإطالة سجنه. **وقال هو نفسه: ما على المسلمين أهم من قتلي** نصحا للدين من دعاوى الزنادقة، لا إقرارا على نفسه وإعانة على قتله لما علم من براءته. والله تعالى أعلم. **(وشكر إحسانهم)** إن أحسنوا إليك، لأنهم واسطة والواسطة يجب شكرها شرعا، وشكرها أن تدعو لمن أو صل الله تعالى إليك نعمة على يده، وتثنى عليه امتثالا لأمر الله تعالى وعملا بما جاءت به الشريعة. قال تعالى: ﴿أن اشكر لي ولوالديك﴾.

وفي الحديث: «من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله[2]» رواه النعمان بن بشير.

وفيه: «أشكر الناس لله أشكرهم للناس[3]» رواه أسامة بن زيد.

ويجب أيضا شكر من أحسن إليك لأن الله تعالى اختصه بأن أقامه بذلك، وأهَّله له. ومن أسمائه تعالى الشكور فليتخلق العبد بذلك، وهذا هو حق الشرع.

وفي الحديث أيضا: «من صنع إليكم معروفا فكافئوه فإن لم تكافئوه فادعوا له له حتى تظنوا أنكم كافيتموه».

وأكل ﷺ عند قوم وقال: «أفطر عندكم الصائمون، وأكل طعامكم الأبرار، وصلت عليكم الملائكة».

وأكل هو وأصحابه عند أبي الهيثم بن التيهان[1] فقال لهم: «أثيبوا أخاكم. فقالوا ما إثابته؟ قال الدعاء فجعلوا يدعون له». **وقيل:** كان هو الداعي وهم يؤمنون على دعائه.

([1]) هو القاسم بن علي بن محمد بن عثمان أبو محمد الحريري البصري الأديب الكبير صاحب المقامات المشهورة. ومن مؤلفاته درة الغواص في أوهام الخواص، ومحلة الاعراب، وله ديوان شعر. كان دميم الصورة غزير العلم، ترجمت مقاماته إلى اللاتينية وغيرها من اللغات. توفي 516هـ. انظر وفيات الأعيان: (419/1).

([2]) أخرجه أحمد في مسنده وابن ماجه رقم: (4008) مع اختلاف بسيط في اللفظ والمعنى متفق.

([3]) أخرجه أحمد والترمذي رقم: (1955) عن أسامة بن زيد.

إعطاء الحقوق وكف الأذى والصبر

(وَ) انظر إليهم أيضا (**بِعَيْنِ الْحَقِيقَةِ بِالْعُذْرِ إِنْ عَصَوْا**) أي أعذرهم في معصيتهم وزللهم (**فَإِنَّهُمْ مَجْبُورُونَ**) حقيقة على ذلك. وذلك بأن تشهد أن الله تعالى مادام يخلق المعصية للعبد فلا تمكنه التوبة النصوح التي ما بعدها ذنب أبدا. فإذا انتهى خلق المعصية فيه تاب لا محالة،وقال تعالى: ﴿ ثم تاب عليهم ليتوبوا﴾ بل لو قدر أنه أراد المعصية لم يجد ما يعصي به (**أَوْ**) أعذرهم أيضا (**إِنْ مَنَعُوكَ**) **كان محمد بن واسع إذا سأل أحدا حاجة يقول:** قد رفعنا أمرها إلى الله فإن أذن لك في قضائها حمدناك وإن لم يأذن لك في قضائها أعذرناك. (**أو آذوك فإن المانع الضار**) حقيقة (**هو الله تعالى**) فإنك إن تأثرت بمنعهم، أو إذايتهم لك فذلك ينافي التوحيد، **قال ابن عطاء الله:**

لاَ تَشْتَغِلْ بِالْعَتْبِ يَوْمًا لِلْوَرَي ... فَيَضِيعَ وَقْتُكَ وَالزَّمَانُ قَصِيرُ
وَعَلاَمَ تَعْتِبُهُمْ وَأَنْتَ مُصَدِّقٌ ... أَنَّ الأُمُورَ جَرَى بِهَا الْمَقْدُورُ
هُمْ لَمْ يُوَفُّوا لِلإِلَهِ بِحَقِّهِ ... أَتُرِيدُ تَوْفِيَّةً وَأَنْتَ حَقِيرُ
وَاشْهَدْ حُقُوقَهُمُ عَلَيْكَ وَوَفِّهَا ... وَاسْتَوْفِ مِنْكَ لَهُمْ وَأَنْتَ صَبُورُ
فَإِذَا فَعَلْتَ فَأَنْتَ أَنْتَ بِعَيْنِ مَنْ ... هُوَ بِاللَّحَائِقِ عَالِمٌ وَبَصِيرُ

(**وَعَامِلْهُمْ بِإِعْطَاءِ الْحُقُوقِ**) ومنه تنزيل الناس منازلهم (**وَكُفَّ الأَذَى عَنْهُمْ وَاصْبِرْهُ**) أي الأذى (**مِنْهُمْ**) هذا من باب الاستخدام؛ لأن الأذى الذي يكف عنهم ليس هو الذي يصبره منهم. في هذا حث على صبر الأذى من الخلق والحلم عنه بما في ذلك من الفضل.

وحكي: أنه كان في زمن عيسى عليه السلام امرأة صالحة فجعلت يوما العجين في التنور وصلت، وجعل إبليس ولدها في التنور فلم تلتفت إليه فدخل زوجها فوجد الولد في

([1]) مالك بن التيهان الانصاري الاوسي، أبو الهيثم: صحابي. كان يكره الاصنام في الجاهلية، ويقول بالتوحيد، هو وأسعد بن زرارة. وكانا أول من أسلم من الانصار بمكة. وهو أحد النقباء الأثني عشر. شهد بدرا وأحدا والمشاهد كلها. وتوفي في خلافة عمر، وقيل: شهد صفين مع علي، وقتل بها سنة 37 هـ. انظر الاصابة: (الترجمة 7603).

التنور يلعب بالجمر، وقد جعله الله عقيقا أحمر فأخبر عيسى بذلك، فسألها عن عملها فقالت: يا روح الله؛ ما أحدثت إلا توضأت، ولا طلب مني أحد حاجة إلا قضيتها وأحتملُ الأذى من الأحياء كما يحتمله الأموات منه.

وقال كعب الأحبار: لا يوصف بالصبر إلا من صبر على أذى الناس ولم يقابلهم بنظير ذلك: يعني لا سرا ولا جهرا حتى بالدعاء عليهم والتوجه إلى الله فيهم **لحديث:** «دعى على ظالم فقد انتصر منه».

وقال عمر بن عبد العزيز: إياك أن تقابل من ظلمك فربما تكون أظلم ممن ظلمك بمقابلتك له وذلك أنه يظلمك مرة فتصير تلعنه وتشتمه كلما تذكرت فعله حتى تستوفي بذلك حقك وتكون عليك بعد ذلك التبعة.

وقال عيسى عليه السلام: من احتمل كلمة سفه فأعرض عنها فإن لها عند قائلها أخوات يجيبك بها.

وقال مالك بن دينار[1]: أشد ما على السفيه الإعراض عن جوابه، وإظهار عدم التأثر به. **وقال:** ليس بحليم من نفذ غضبه في حمار أو هرة.

وقال بعض العارفين: لا يثبت لعبد مقام في التوكل حتى يؤذى ويصبر على الأذى. قال تعالى: ﴿ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون﴾ وقال: ﴿ودع أذيهم وتوكل على الله} وقال: {فاتخذه وكيلا واصبر على ما يقولون﴾.

وفي الحديث: «وجبت محبة الله لمن أغضب فحلم[2]».

وأغلظ رجل لمعاوية فحلُم عنه، فقيل له أتحلم عن هذا؟ فقال: إني لا أحول بين الناس وبين ألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين سلطاننا.

وقال الأحنف بن قيس: وجدت الحلم أنصر لي من الرجال صدق؛ لأن من حلم كان الناس أنصاره. وسبه رجل وأكثر عليه فلم يحفل به. فقال له الرجل إياك أعني.

([1]) تقدمت ترجمته.

([2]) أخرجه ابن عساكر عن عائشة والقضاعي في مسند الشهاب:(333/1).

وقال له: وعنك أحلم وكمل ما تريده من السب قبل أن تصل سفهاء قومي فيوذونك. وبعض من لا يعلم يحسب الحلم مهانة، والعاقل يراه من كمال العزة.

وقال بعض الحكماء: أحلم الناس من قدر على الكلام وهو كثير صمته، ومن قدر على العقوبة وهو كثير عفوه، وقدر على الحركة وهو كثير وقاره.

وقال معاوية: إني لأجد للعفو عن الذم لذة وأريحية ما أجدها لشيء من لذات الدنيا.

ومن تمام الحلم: قبول العذر من كل معتذر صادقا كان أو كاذبا، فإن الاعتذار دليل على الندم. والندم توبة، وقد يكون الاعتذار حياءً والحياء من الإيمان.

وفي الحديث «من لم يقبل من متنصل عذرا صادقا كان أو كاذبا لم يرد علي الحوض[1]». **وفيه:** «المعترف بالذنب كمن لا ذنب له»، **وقالوا:** الاعتراف يهدم الاقتراف. **واعتذر رجل إلى إبراهيم بن المهدي فقال:** قد أغناك الله بالعذر عن الاعتذار وأغنانا بحسن النية عن سوء الظن.

وقال الحسين ﷺ: لو أن رجلا شتمني في أذني هذه، وأعتذر إليَّ في الأخرى لقبلت عذره. **وقال الحسن بن وهب**[2]:

مَا أَحْسَنَ الْعَفْوَ مِنَ الْقَادِرِ لاَ سِيَّمَا مِنْ غَيْرِ ذِي نَاصِرِ
إِنْ كَانَ لِي ذَنْبٌ وَلاَ ذَنْبَ لِي فَمَا لَهُ غَيْرُكَ مِنْ غَافِرِ
بِحُرْمَةِ الْوِدِّ الَّذِي بَيْنَنَا [3]لاَ تُفْسِدَ الأَوَّلُ بِالآخِرِ

قال الشاذلي: آذاني إنسان فضقت به ذرعا، فنمت، فقيل: من علامات الصديقية كثرة الأعداء، وعدم المبالاة بهم.

---

(1) أخرجه ابن عساكر في معجمه وضعفه.

(2) الحسن بن وهب بن سعيد بن عمرو بن حصين الحارثي، أبو علي: كاتب، من الشعراء. كان معاصرا ل أبي تمام، وله معه أخبار. وكان وجيها، استكتبه الخلفاء، ومدحه أبو تمام. وهو أخو سليمان (وزير المعتز والمهتدي) ولما مات رثاه البحتري. توفي 250هـ، انظر فوات الوفيات: (36/1).

(3) الأبيات الثلاثة يخاطب الحسن بهم المأمون.

وقال مسلم بن قتيبة: من أعظم المروءة الصبر على أذى الناس. **وقال يحي بن الحسين:** من طلب السلامة احتمل الملامة. **وقال الفضيل:** بلغنا أن الله تعالى إذا أراد أن يتحف عبده سلط عليه من يظلمه.

وفي الحديث: «إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكرا لقدرتك عليه».

وقال علي كرم الله وجهه: ما ظلم أحد أحدا، ولا أساء أحد على أحد حقيقة لأن الله تعالى: ﴿من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها﴾.

وقال يحي بن معاذ: لو ظلمني أحد و لم أكافئه كان أحب إلي من ترك زنية.

وقال كعب الأحبار: من صبر على أذى امرأته أعطاه الله من الأجر مثل ما أعطى أيوب عليه السلام، ومن صبرت على أذى زوجها لها أعطاها الله من الأجر مثل ما أعطى آسية بنت مزاحم.

وقال أيوب بن خلف: من لم يصبر على أذى زوجته فكيف يدعي أن له درجة عليها.

وقال المدائنـــي[1]: شكي نبي من الأنبياء إلى ربه سوء خلق امرأته، فأوحى الله تعالى إليه إني جعلت ذلك حظك من العقاب. وكان السلف يصبرون على أذى أزواجهم لهم لشهودهم أن ذلك من سوء معاملتهم لربهم. فكما خالف أحدهم ربه كذلك خالفته زوجته. وهي قاعدة أكثرية لا كلية، ليخرج الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لعصمتهم. **قاله الشعراني.**

وكانوا يؤدون إلى المرأة حقها على الكمال، ولا يمنعهم مخالفتها لهم من ذلك عملا **بحديث:** «أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك[2]»، **وفي الحديث:** «استوصوا

([1]) هو علي بن محمد بن عبد الله، أبو الحسن المدائني: رواية مؤرخ، كثير التصانيف، من أهل البصرة. سكن المدائن، ثم انتقل إلى بغداد فلم يزل بها إلى أن توفي. أورد ابن النديم أسماء نيف ومئتي كتاب من مصنفاته في المغازي، والسيرة النبوية، وأخبار النساء، وتاريخ الخلفاء، وتاريخ الوقائع والفتوح، والجاهليين، والشعراء، والبلدان. قال ابن تغري بردي: " وتاريخه أحسن التواريخ وعنه أخذ الناس تواريخهم ". بقي من كتبه " المردفات من قريش – ط " رسالة، و " التعازي – خ ". انظر الاعلام: (323/4).

([2]) أخرجه البخارى فى التاريخ (360/4) وأبو داود (290/3 ، رقم 3535)

بالنساء خيرا فإنهن عندكم عوان لا يملكن أنفسهن، وإنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله[1]».

وفيه: «من تزوج امرأة بصداق وهو ينوي أن لا يؤديه فهو زان، ومن استدان دينا وهو ينوى أن لا يقضيه فهو سارق».

وقال عمر رضي الله عنه: أتجاوز عن زوجتي لحقوق لها علي، فإنها مدة يسيرة لأنها سترة بيني وبين النار، وخازنة لمالي وحافظة له، وتغسل ثيابي وظئر لولدي وبشارة لي وخبازة وطباخة.

وفي الحديث: «إذا هربت المرأة من بيت زوجها لم تقبل لها صلاة حتى ترجع وتضع يدها في يديه، وتقول: اصنع ما شئت[2]». ويقال: إن المرأة إذا صلت ولم تدع لزوجها ردت عليها صلاتها حتى تدعو لزوجها. قاله السمرقندي.

وتزوج بعضهم امرأة فلم يزل يخدمها حتى استحيت المرأة وشكت ذلك لأبيها، وقالت: قد تحيرت في هذا الرجل أنا في منزلي منذ سنين فما ذهبت قط لخلاء إلا وحمل الماء قبلي إليه. **وتزوج** رجل امرأة جميلة فأصابها الجدري حين زفافها، فحزن أهلها لذلك خوف أن يستقبحها فأراهم الرجل أن به رمدا، فأظهر أنه عمي حتى زفت إليه المرأة فبقيت عنده عشرين سنة، ثم ماتت ففتح عينيه فقيل له في ذلك، فقال: فعلت ذلك لأجل أهلها حتى لا يحزنوا، فقيل له: سبقت أصحابك بهذا الخلق. **وتزوج** بعض الصوفية امرأة سيئة الخلق فكان يصبر عليها فقيل له: لم لا تطلقها؟ فقال: أخشى أن يتزوجها من لا يصبر على خلقها فيتأذى بها.

قال الشعراني: ومن أخالق السلف: كثرة الصدقة، فإن لم يجد أحدهم ما يتصدق به تصدق بكف أذاه عن الناس وتحمل أذاهم[3].

---

[1] أخرجه البخاري: (4787)، ومسلم: (2671) عن أبي هريرة.

[2] أخرجه في الفوائد المعللة لعبد الرحمن بن عمرو النصري: (14/1).

[3] انظر تنبيه المغترين للشعراني: (237).

وقال محمد بن كرام[1]: لا تعادوا أحدا حتى تنظروا إلى عمله، فإن كان عمله حسنا فإن الله لا يسلمه إليكم وان كان عمله سيئا فخفاياه تكفيه[2].

وقد أوحى الله إلى داود يا داود: اتل على بني إسرائيل نبأ المرأتين وقع بينهما شر، فقالت احداهما للأخرى: عليك بابنك الأجذم، فأولدها الهل مجذوما حين عابت على صاحبتها. يا داود من التفت إلى حرم المؤمنين سلطت على حرمه من يكثر الالتفات إلى حرمه.

فائدة: قال السري السقطي: الحلم على خمسة أقسام:

الأول: حلم غريزي وذلك هبة من الله تعالى للعبد به يعفو عن من ظلمه ويعطي من حرمه، ويصل به رحمه وان قطعه.

الثاني: حلم تحالم بكظم غيظك رجاء الثواب وفي القلب كراهة.

الثالث: حلم مذموم رياء وسمعة وصاحبه حاقد ساكت، يرائي جلساءه.

الرابع: حلم كبر لا يراه أهلا بأن يجاوبه

الحلم: حلم مهانة ومذلة. انتهى من تنبيه المغترين.

وقال بعض الصحابة: ما كانا نعد إيمان الرجل إيمانا حتى يصبر على الأذى. وقال تعالى: ﴿ولنصبرن على ما آذيتمونا﴾ فالصبر على أذى الناس من أعلى مراتب الصبر لأنه يتعاون فيه على باعث الدين باعث الشهوة والغضب معا.

وقال المرصفي[1]: لا يبلغ عبد الكمال حتى يتخلق بالستر والحلم عن جميع العالم، فيستر فضائحهم، ولا يعاقبهم إلا بطريق الشرع كالشمس، **قاله المناوي**. (وَ) عاملهم

([1]) محمد بن كرام بن عراق بن حزابة، أبو عبد الله، السجزي: إمام الكرامية، من فرق الابتداع في الاسلام كان يقول بأن الله تعالى مستقر على العرش، وأنه جوهر. ولد ابن كرام في سجستان وجاور بمكة خمس سنين، وورد نيسابور، فحبسه طاهر بن عبد الله. ثم انصرف إلى الشام وعاد إلى نيسابور فحبسه محمد بن طاهر، وخرج منها (سنة 251 هـ إلى القدس، فمات فيها. انظر تذكرة الحفاظ: (106/2).

([2]) انظر تنبيه المغترين للشعراني: (308).

أيضا (**بِسِيَاسَةِ النَّصِيحَةِ**) مأخوذة من نصح الرجل ثوبه إذا خاطه، فشبهوا فعل الناصح فيما يتحراه من صلاح المنصوح لما يسده من خلل الثوب. **وقيل:** من نصحت العسل إذا صفيته من الشمع لأن الناصح يصفي قوله من الغش.

عياض: حد الصيرفي النصيحة بأنها فعل الشيء الذي به الصلاح، وحدها الخطابي بأنها كلام يراد به الخير بالمنصوح، وهو إظهار ما خفي من المراشد والمحامد في أسباب الدين والدنيا.

وفي الحديث: «الدين النصيحة[2]» رواه مسلم؛ أي معظم الدين النصيحة، كـ: «الحج عرفات».

قال أبو محمد: إذا رأيت من يفسد صلاته أو وضوءه أو غير ذلك، ولم تعلمه فإنك مأثوم. **وقيل:** إلا أن تعلم أنه لا يسمع فيسقط عند ذلك. انتهى.

فإذا كان هناك من يشاركك في النصيحة فهل يجب عليك سواء طلب منك أم لا؟ كمن رأيته يفسد عبادته. فقال ابن عربي: لا تجب. **وقال الغزالي:** تجب. وسياسة النصيحة أن تكون سرا، وبتحرير النية، وبرفق، وأن تكون بعد استشارة المنصوح وبعد تمهيد البساط له، وأن يرى نفسه دون المنصوح، وأن يوطن نفسه على تحمل أذى المنصوح ولا يندم على نصحه إذا أذاه.

وربما قال بعضهم: أنا الظالم الذي نصحته فيجعل النصح الذي هو واجب ظلما. وإنما حصل له الأذى من جهله بطريق السياسة في النصح ونصح الكفار المحاربين بسؤال الهداية لهم والقتال حتى يتوبوا وإن كانوا هم لا يشعرون.

([1]) هو علي بن خليل المرصفي الشافعي المديني، نور الدين: صوفي مصري. له تآليف، منها " منهج السالك إلى أشرف المسالك – خ " اختصر به مقاصد السلوك من الرسالة القشيرية و " أحسن التطلاب " في آداب المريد، و " كشف غوامض المنقول من مشكل الآيات والآثار وأخبار الرسول " توفي بالقاهرة، وهو شيخ الشعراني. انظر شذرات الذهب: (8)(174).

([2]) أخرجه مسلم رقم: (196). ولفظه: عن تميم الداري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:« الدين النصيحة قلنا لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم».

ومن نصحنا لأولادنا وأرقائنا وأقاربنا وتلامذتنا تأديبهم حتى بالضرب والهجر. **قاله في شرح شهية السماع**[1].

ومن أفضل النصيحة: الإصلاح بين الناس. **وعن أبي أمامة قال:** امش ميلا وعد مريضا، وامش ميلين وزر أخا، وامش ثلاثة أميال وأصلح بين الناس. **وعن أنس:** من أصلح بين اثنين أعطاه الله بكل كلمة عتق رقبة.

وفي الحديث: «أفضل الناس عند الله يوم القيامة المصلحون بين الناس».

والإصلاح بين الناس شعبة من شعب النبوءة والتصرم بين الناس شعبة من شعب السحر.

وقال في سراج الملوك: إذا نصحك أحد فلم تحمد عاقبته فلا تلمه؛ بان تقول: أنت فعلت، وأنت أمرتني، ولولا أنت...الخ. فهذا ضجر وندم وخفة. **قيل:** من بذل نصحه لمن لا يشكره فهو كمن بذر في السباخ، وإذا استشارك أحد فجرد له النصيحة، لأنه بالاستشارة خرج من عداوتك إلى موالاتك، وأعلم أن جرعة النصيحة لا يقبلها إلا أولو العزم.

وقال عمر بن عبد العزيز لميمون بن مهران: قل لي في وجهي ما أكره، فإن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له في وجهه ما يكره.

وفي منثور الحكم: ودك من نصحك، وقلاك من مشى في هواك.

وقال الأسنوي[2]: إذا أراد الله بالعبد خيرا ساق إليه من يذكره إذا غفل، وإذا أراد الله به شرا ساق إليه جليس السوء، ينهاه عن الأخذ بالموعظة، وكان ﷺ ينصح أصحابه بما نفعهم ونفع من بعدهم.

([1]) انظر شرح شهية السماع: (64) مخطوط في الزاوية.

([2]) هو إبراهيم بن هبة الله بن علي الحميري، نور الدين الاسنوي: قاض، شافعي، من أهل إسنا (بصعيد مصر) ويقال له (الاسنائي) أيضا، نسبة إليها. تنقل في القضاء، وتوفي بالقاهرة معزولا.له (شرح المنتخب) في أصول الفقه، و (نثر ألفية ابن مالك) في النحو، و (شرحها) واختصر (الوسيط) و (الوجيز) في الفقه. انظر: طبقات الشافعية: (86/6).

قال الشعراني: من أخلاق السلف أنهم لا ينصحون إلا ممن عرفوا منه بالقرائن قبول ذلك منهم، وإلا أعرضوا عنه[1].

قلت: وهذا مذهب مرجوح والجمهور على أنه يجب النصح وإن لم يؤثر.

وقال أبو الدرداء[2]: إن شئتم لأنصحن لكم، إن أحب عباد الله إليه الذين يحببون عبادة الله إلى عباده ويعملون في الأرض نصحا، ويقال من اصفر وجهه من النصيحة اسود لونه من الفضيحة.

الشفقة والإحسان وحسن الخلق

(وَ) عاملهم (بِالشَّفَقَةِ) عليهم بالرأفة (وَالرَّحْمَةِ) على الصغير منهم والحرمة للكبير، والشفقة على العاصي، والتواضع للمطيع والاحسان لمن أساء، والدعاء له بالصلاح من حقد عليه ولا ذلة لأحد.

ففي الحديث: «من لم يرحم صغيرنا، ويعرف حق كبيرنا فليس منا[3]». **رواه البخاري وأبو داود والترمذي.**

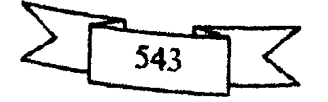
وقد سأل شيعي سنيا فقال له: الرحيم: من حقيقته أن لا يعذب أحدا من عبيده، فكيف يعذب عباده بالنار وهو الرحمن الرحيم؟. فجاوبه السني بأن قال: أسماء الله عديدة منها: المنتقم وكل أسمائه تعالى حقيقية لا مجاز فيها، ولا بد لكل اسم أن يظهر ما يدل عليه في عالم الوجود والخلق، فمن خصه الله بالرحمة فلا يعذبه، ومن خصه بالانتقام فلا يرحمه، فبهت الشيعي وكأنه القم حجرا، أو كما جرى. **قاله ابن أبي جمرة.**

وفي الحديث: «لن تؤمنوا حتى تتراحموا»، قالوا كلنا رحيم يا رسول الله قال: «إنه ليس برحمة أحدكم صاحبه، ولكنها رحمة الناس عامة.

([1]) انظر تنبيه المغترين للشعراني: (79).

([2]) تقدمت ترجمته.

([3]) أخرجه الترمذي بلفظ: "ليس منا من لم يرحم صغيرنا" رقم: (1919) وأخرجه أبو داوود: (4943).



قال بعضهم: علم اتساع الرحمة الإلهية من تحقق به رحم جميع العالمين، وليس في العلوم أكثر نفعا منه، فإنه تعالى يرحم صاحبه بعدد من رحمه من جميع العالم ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء﴾. **قاله المناوي.**

قيل: أوحى الله تعالى إلى جبريل عليه السلام: أن أهبط إلى بلدة كذا، فاجعل عاليها سافلها، فإنه قد اشتد غضبي عليهم، إذ ركب منهم في هذه الليلة سبعون ألف ذكر سبعين ألف فرج زنا. قال: فذهب إليها وكانت سبع مدائن فرفعها على خافقة من جناحه حتى وصل بها إلى عنان السماء، وأراد أن يقلبها، وكان لامرأة منهم عجين فقامت إليه ولها طفل نائم في المهد، فلما أن وضعت يدها في العجين استيقظ الطفل وصاح، فحارت المرأة في أمرها، يدها في العجين وولدها يصيح. فقالت: من عظم رحمتها وشفقتها تخاطب ولدها: يا ولدي إن ربي تعالى من كرمه حليم لا يعجل بالعقوبة على من عصاه، فسكن غضب الرب من كلام الرب وشفقتها. وقال لجبريل: ضع القرى مكانها فقد سكن غضبي بمناجاة هذه المرأة لولدها وإني حليم لا أعجل بالعقوبة على من عصاني فكانت شفقتها سببا للشفاعة في من استحق العذاب وهم لا يعلمون.

وفي الحديث: «أنا وكافل اليتامى كهاتين وأشار بأصبعيه[1]». **وقال ابن عطاء الله:** حق على من سمع هذا الحديث أن يعمل به ليكون رفيق النبي ﷺ في الجنة ولا منزلة في الجنة أفضل من ذلك.

وفي طبقات الأولياء: قال سيدي إبراهيم الدسوقي: من لم يكن عنده شفقة على الخلق لا يرقى مراقي أهل الله. **وقد ورد:** أن موسى عليه السلام لما رعى الغنم لم يضرب واحدة منها بعصاه ولا جوعها ولا آذاها، فلما علم الله تعالى قوة شفقته على غنمه بعثه الله نبيا وجعله كليما، راعيا لبني إسرائيل وناجاه، فمن أعز الخلق وأشفق عليهم ترقى إلى مراتب الرجال. **اهـ**[2].

([1]) أخرجه البخاري: (6005)، والترمذي: (1918).

([2]) انظر الطبقات الكبرى للشعراني: (179/1).

وفي الحديث: «خير أمتي علماؤها، وخير علمائها رحماؤها»...**إلى أن قال**: «ألا وإن العالم الرحيم يجيء يوم القيامة وإن نوره قد أضاء[1]»...**الحديث. وفيه**: «لا تنزع الرحمة إلا من شقي[2]». **رواه البخاري. وفيه**: «من لا يرحم الناس لا يرحمه الله[3]». **رواه الشيخان. وفيه**: «لا يدخل الجنة إلا رحيم، قيل يا رسول الله كلنا يرحم. قال: ليس أن يرحم أحدكم صاحبه، إنما الرحمة أن يرحم الناس[4]». **رواه البزار**.

ورد شريك نملة فارسية رآها في سفرته بمقدار أربعة فراسخ رحمة بها. وكان يفت الخبز للنمل، ويذر لهم الدقيق على بيوتهم، وكان أبو الدرداء يشترى العصافير التي يمسكها الأطفال ويرسلها إلى عشها. وكذلك الأمهات يرسلها إلى أولادها إذا صيدت، وليس هذا من باب تسييب السوائب، إنما كان رحمة للأم والولد.

وكان ثابت البناني إذا سأله احد حاجة دعا له فيها بسجود صلاته حتى تقضى.

وقال أبو سليمان الداراني: الرضا عن الله تعالى والرحمة للخلق من أخلاق المرسلين.

وقال الفشني في شرح الأربعين: روى ابن عساكر عن بعض أصحاب الشبلي، قال: رأيت الشبلي في النوم بعد موته فقال: أوقفني تعالى بين يديه. وقال يا أبا بكر أتدري بم غفرت لك: قلت بإخلاصي في عبوديتي؟ أم بحجي وصومي وصلاتي؟ أم بهجرتي إلى الصالحين؟ أو بإدامة أسفاري في طلب العلوم؟ قال: لا. قلت: يا رب هذه المنجيات التي كنت أعقد عليها حسن ظني. قال أتذكر حين تمس على درب بغداد فوجدت هرة صغيرة قد أضعفها البرد، وهي تنـــزوي إلى جدار من شدة [البرد[5]]. فأدخلتها في الفرو رحمة بها وكان ذلك وقاية لها من ألم البرد؟ فقلت: نعم. قال: برحمتك

([1]) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس.

([2]) أخرجه أبو داوود: (4942)،والترمذي: (1923).

([3]) أخرجه البخاري: (5997).

([4]) أخرجه البزار والبيهقي في شعب الايمان.

([5]) في نسخة "الثلج".

لتلك الهرة رحمتك[1].

قال الشاذلي: اعلم يا أخي إن كان لك تشوفٌ إلى تلك الدرجات العظيمة أن تكون رحيما لنفسك ولغيرك، بل ترحم الجاهل بعلمك، والذليل بجاهك والبهائم بعطفك ورفع غضبك، وأقرب الناس من رحمة الله أرحمهم لخلقه.

وفي مسلم: أنه ﷺ قال: «إن الله تعالى خلق مائة رحمة أنزل منها رحمة بين الجن والإنس والبهائم». **وفي رواية لمسلم:** «كل رحمة منها طباق ما بين السماء والأرض، فجعل منها في الأرض رحمة فبها تعطف الوالدة على ولدها، والوحش والطير بعضها على بعض، فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة، وأخر الله تسعة وتسعين رحمة يرحم بها عباده في الآخر[2]. **انتهى**.

وقال أيوب السختياني: إن رحمة قسمها في دار الدنيا، وأصابني منها الإسلام. إني لأرجو من تسع وتسعين رحمة ما هو أكثر من ذلك.

قال ابن أبي جمرة: وهذا كما جاء في الحديث: «إن نار الآخرة فضلت على جميع نار الدنيا بتسعة وتسعين جزءا».

([1]) انظر الفشني على الأربعين حاشية الشبرخيتي: (104).

([2]) الحديث أخرجه مسلم بخمس روايات متفاوتة طولا وقصرا، وكلها تختلف ألفاظها عن ما في النص، وإن كان المعنى واحدا في بعضها، ومتقاربا في بعضها:

الأولى: حديث رقم: 6972، عن ابي هريرة قال: جعل الله الرحمة مائة جزء فامسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل بالأرض جزء واحدا، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه.

الثانية: رقم: 6973، خلق الله مائة رحمة، فوضع واحدة بين خلقه، وخبأ عنده مائة إلا واحدة. عن أبي هريرة.

الثالثة: رقم 6974، إن لله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والانس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخر الله تسعا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة. عن أبي هريرة.

الرابعة: إن لله مائة رحمة، فمنها رحمة بها يتراحم الخلق بينهم، وتسعة وتسعون ليوم القيامة. عن سلمان الفارسي.

الخامسة: إن الله خلق يوم خلق السموات والأرض مائة رحمة، كل رحمة طباق ما بين السماوات والأرض، فجعل منها في الأرض رحمة؛ فبها تعطف الوالدة على ولدها والوحش والطير بعضها على بعض، فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة. الحديث 4، رقم 6975 والخامس: 6976 كلاهما عن سلمان الفارسي.

وفي الحديث الصحيح: «إن الله تعالى غفر لبغي بسقاية كلب، وعذب امرأة بهرة حبستها حتى ماتت جوعا وعطشا. قيل إن رجلا إسرائيليا كان مسرفا على نفسه، فمر على كلب يلهث عطشا فرق له ورثى، فنزل في بئر، ونزع خفه وسقاه فيه، فشكر الله له ذلك وغفر له. وأوحى الله تعالى إلى نبي ذلك الزمان: قل لذلك المسرف: غفرت له جميع ما اقترف برحمته على خلقي[1]».

وروي: أن سبب ابتلاء يعقوب بفرقة يوسف عليهما السلام: أنه ذبح عجلا بين يدي أمه وهي تخور، فلم يرحمها.

وفي الحديث: «من قتل عصفورا عبثا عج إلى الله يوم القيامة»، ويقول: يا رب سل هذا لم قتلني عبثا و لم يقتلني لمنفعة[2]»

قال الشعراني في كتاب تنبيه المغترين: قال ابن عون: أول ما يرفع من هذه الأمة الشفقة والألفة. **وكان حبيب الأعجمي** إذا قرأ آية فيها: إن الله غضب على قوم يبكي، ويقول: يا رب قد أدخلت قلبي رحمتهم، فإن شئت فاغفر لهم, وإن شئت فعذبني عنهم.

قلت: ولعل مراده بالرحمة التي دخلت قلبه فتح باب سؤاله ربه أن يرضى عنه، لا التحجير على الله في غضبه عليه، فإن الكامل من شانه أن يغضب لغضب الحق، ويرضى برضاه.

وقد كان حبيب هذا معدودا عند التابعين فيمن غلبت عليه الشفقة والرأفة والتسليم، ولكن غلب عليه الحال. وأهل الأحوال لا يقتدى بأفعالهم عند أهل الطريق، فإن الله تعالى أرحم بعباده من حبيب، فرحمته دون رحمة الحق بيقين. والله أعلم. **انتهى**[3].

وفي الحديث عن أنس: «والذي نفسي بيده لا يضع الله الرحمة إلا على رحيم»، قلنا يا رسول الله: كلنا رحيم، قال: ليس الرحيم الذي يرحم نفسه وأهله خاصة، ولكن الذي يرحم المسلمين».

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) أخرجه أحمد في مسنده وابن حبان والنسائي رقم: (4451).

(3) انظر تنبيه المغترين: (120).

وفيه عن أبي بكر ﷺ: «قال الله عز وجل: إن كنتم تريدون رحمتي فارحموا خلقي».

وكان أبو مسلم الخولاني[1] من المبالغين في التخلق بالرحمة حتى أنه ربما مر على القوم فيخاف أن لا يردوا عليه السلام فلا يسلم عليهم، ويقول: أخاف أن يحتقروني فلا يردوا على السلام فتلعنهم الملائكة بسببي.

وكان أبو عبد الله الأنطاكي يقول: إذا علمت من الناس الوقوع في عرضك إذا رأوك فلا تجتمع بهم رحمة بهم إلا في أوقات الصلاة والخيرات.

وقال أبو عبد الله المغاربي[2]: من لم ينظر إلى العصاة بعين الرحمة فقد خرج عن طريق القوم.

وكان معروف الكرخي إذا رأى عاصيا دعا له بالمعروف، ورجا له الرحمة، **ويقول:**إن رسول الله ﷺ بعث بالرحمة، ولنجاة الناس والرحمة لهم, والشيطان بعث بإهلاكهم والشماتة فيهم. **ومر على قوم بين أيديهم الطرب والشراب، فقيل له:** ألا تدعو عليهم؟ فقال: اللهم كما فرحتهم في الدنيا ففرحهم في الآخرة. فقالوا: إنما سألناك أن تدعو عليهم. فقال: معاذ الله أن أدعو على مسلم، وإن الله تعالى لا يفلحهم في الآخرة إلا أن تاب عليهم في الدنيا وغفر لهم.

وقال الله تعالى لموسى: يا موسى أحب الخلق إلي من إذا سمع أن أخاه المؤمن شاكته شوكة حزن لها كأنها شاكته هو.

وقال الحسن البصري: من علامة الأبدال كثرة الشفقة والرحمة لعامة المسلمين.

وقال معروف الكرخي[1]: من قال كل يوم: اللهم ارحم أمة محمد ﷺ، اللهم أصلح أمة محمدﷺ، اللهم فرج عن أمة محمدﷺ كتبه الله من الأبدال.

([1]) عبد الله بن ثوب (بضم ففتح) الخولاني: تابعي، فقيه عابد زاهد، نعمة الذهبي بريحانة الشام. أصله من اليمن. أدرك الجاهلية، وأسلم قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ولم يره، فقدم المدينة في خلافة أبي بكر، وهاجر إلى الشام، وفي أكثر المصادر: وفاته بدمشق، وقبره بداريا. وكان يقال: أبو مسلم حكيم هذه الأمة. انظر تذكرة الحفاظ: (46/1).

([2]) أبو عبد الله المغاربي لم أجد ترجمته.

وقال زهير بن نعيم: وددت أن جلدي يقرض بالمقاريض، ولا يعصي أحد ربه.

وقال شقيق البلخي: من لم يرحم الرجل السوء فهو أسوأ حالا منه. ومن ذكر عنده رجل بسوء فوجد لذكره حلاوة فهو رجل سوء.

وكان ميمون بن مهران إذا سمع بقوم ظلموا مرض من أجلهم أياما حتى يصير يعاد، فإذا أخبر بشفائهم زال مرضه.

قلت: ومن له صح هذا المقام فلا يطلب أحدا من الأطباء إذ لا يد لهم إلا فيما تولد من الطعام[2]. (وَ) عاملهم (بِالإِحْسَانِ) عليهم ولو منعوك بقضاء حوائجهم. واصطناع المعروف والإحسان إلى مسيئهم، وتنفيس كربتهم، وإشباع جوعتهم، وستر عورتهم، وغير ذلك. **وفي الحديث:** «كل معروف صدقة[3]». والمعروف يقي سبعين نوعا من البلاء، ويقي ميتة السوء. والمعروف والمنكر خلقان منصوبان للناس يوم القيامة، فالمعروف لازم لأهله يقودهم ويسوقهم إلى الجنة والمنكر لازم لأهله يقودهم ويسوقهم إلى النار.

وروى الشعبي: عن ابن عباس قال: يأتي أصحاب المعروف في الدنيا يوم القيامة، فيغفر لهم بمعروفهم، وتبقى حسناتهم جامة فيعطونها لمن زادت سيئاته.

وروى ابن وهب عن أبي زيد عن أبي حازم قال: كانت امرأة من بني إسرائيل وزوجها صالح، قالت لزوجها: اسأل ربك أن يرزقنا ولدا صالحا، فسأل الله تعالى فأتاه آت من الله فقال: إن الله يخيرك بين أن يهب لك ولدا ويجعل موته ليلة بنائه بأهله، فشاور زوجته فقالت: اقبل عطية الله، يكون قرة أعيينا في حياته وأجرا لنا إن مات فيكون لنا خيران: دنيوي وأخروي. قال: نعم ثم وطئها فاتت بغلام فعلمناه القرآن، فلما بلغ زَوَّجَاهُ، فليلة بنائه بأهله بات أهله يجمعون حنوطه وكفنه، وابوه يقول: نغدو عليه

([1]) معروف بن فيروز الكرخي، أبو محفوظ: أحد أعلام الزهاد والمتصوفين. كان من موالى الإمام علي الرضى بن موسى الكاظم. ولد في كرخ بغداد، ونشأ وتوفي ببغداد. اشتهر بالصلاح وقصده الناس للتبرك به حتى كان الإمام أحمد ابن حنبل في جملة من يختلف إليه. ولابن الجوزى كتاب في (أخباره وآدابه). انظر وفيات الاعيان: (104/2).

([2]) انظر تنبيه المغترين للشعراني: (120).

([3]) اخرجه أحمد في مسنده وابن حبان والنسائي عن الشريد بن سويد.

ميتا، فلما أصبح غدا عليه، فقال له من هذا؟ فقال: أنا يا أبت، فاعتنقه وقال: يا بني أخبرني ما ذا أحدثت في ليلتك هذه من العمل؟ قال أتاني شيخ يتوكأ على عصاه فصرع، فقمت عن وسادتي حتى أخذت بيده فرفعته ثم أجلسته على الوسادة، ثم جعلت أتخير له من اللحم حتى شبع فقام على عصاه ثم قال: أحييتن أحياك الله ثلاث مرات. فقال: من هنا جاءت النعمة، فعمره الله معهما عمرا طويلا. **قال ابن زيد:** أظنه ملكا في صورة ذلك الشيخ.

وروي: **أن عبد الله بن المبارك** دخل الكوفة حاجا؛ فإذا بامرأة تنتف بطة ميتة فقال: لم تنتفينها؟ قالت: لآكلها أنا وعيالي، ثم انصرف عنها فسأل عن دارها، ثم أدخل بغلا فقال للمرأة: هذا البغل وما عليه من النفقة والزاد والكسوة فهو لكم. ثم قعد ابن المبارك عن الحج، فلما رجع الناس من الحج جاءه قوم من أهل مرو، فجعلوا يهنئونه بالحج فقال لهم: إني لم أحج في هذا العام لعلة، فقال بعضهم: سبحان الله ألم نُودِعْكَ نفقتي ونحن ذاهبون إلى عرفات، وآخر يقول الم تسقني في موضع كذا وكذا؟ وآخر يقول: ألم تستنـــزلنـــي كذا وكذا؟ قال لهم: ما أدرى ما تقولون أما أنا فلم أحج في هذا العام، قال فلما كان في الليل قيل له في المنام: يا عبد الله بن المبارك إن الله عز وجل قبل صدقتك، وإنه بعث ملكا على صورتك فحج عنك. ثم إنه اجتمع عنده مال فقال: أحج بهذا المال، فخرج حتى وصل الكوفة قال: فوجدت في دار رائحة طعام طيب فقلت: أطعموني من طعامكم، فإنني شممت رائحته فاشتهيته فبكت صبية فقالت: يا عم هو علينا حلال وعليك حرام. فقلت: وكيف ذلك؟ قالت: أنا صبية هاشمية ولي ثلاث أخوات وأُمٌّ قعد بنا الزمان ولنا ثلاثة أيام ما طعمنا شيئا، فرأت أمنا حمارا مية وأتتنا بشيء من لحمه فنظفناه بالأبزار وطيبناه بها، فما شممت فمن تلك الأبزار، فقلت في نفسي: هؤلاء أفضل من الحج، فقلت: ائتوني بأمكم. فإذا العجوز؛ فعرفتني بالقصة بعينها فسلمت إليها الدنانير ورجعت إلى بلدي، فرأيت البارئ تعالى في النوم فقال: يا ابن المبارك لأقيمن لك ملكا يحج عنك إلى يوم القيامة.

وفي حديث: «إن أسرع صدقة تصعد إلى السماء أن يصنع الرجل طعاما طيبا، ثم يجمع عليه أناسا من إخوانه وكان يقال: البخل جلباب المسكنة[1]». **وفيه:** «أحد موجبات الجنة إطعام الأخ السغبان[2]». **وفيه:** «من أكرم أخاه المؤمن فإنما يكرم الله».

وفيه: «ما من أحد ألقى تحت أخيه المسلم شيئا ليقيه من التراب إلا غفر الله له ذنوبه ذلك اليوم؛ ما تقدم من ذنبه وما تأخر».

فها أنا أريد أن أتتبع الأحاديث التي فيها الحض على الإحسان إلى المسلمين، وفضل اصطناع المعروف إليهم، وقضاء حوائجهم ليظهر ما في ذلك من الأجر والثواب. وقد خرج بعضهم في هذا الباب أربعين حديثا؛ كالإمام زكي الدين بن عبد القوي المنذري(3)، فهاك ما تيسر منه محذوفة الأسانيد طلبا للاختصار:

ففي الحديث: «إن لله عبادا خلقهم لقضاء حوائج الناس، آلى بنفسه أن لا يعذبهم بالنار، فإذا كان يوم القيام وضعت لهم منابر يحدثون الله تعالى عليها والناس في الحساب[4]». **رواه كثير بن عبد الله بن عمر المزني عن أبيه عن جده.**

وفيه: «الخلق كلهم عيال الله، فأحب خلقه إليه أنفعهم لعياله[5]». **رواه أنس.**

وفيه: «إن لله عز وجل خلقا خلقهم لحوائج الناس يفزع إليهم الناس لحوائجهم، أولئك الآمنون غدا من عذاب الله[6]». **رواه ابن عمر.**

وفيه: «من قضى لأخيه حاجة كنت واقفا عند ميزانه، فإن رجح وإلا شفعت[7]». **رواه أنس.**

---

(1) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الإخوان عن حبان بن أبي جبلة.

(2) أخرجه الحاكم في المستدرك بلفظ قريب من هذا عن جابر بن عبد الله: (3896).

(3) ينظر جل هذه الأحاديث في الترغيب والترهيب للمنذري: (261/3).

(4) أخرجه الطبراني عن ابن عمر /انظر الجامع الصغير /379/1

(5) أخرجه أبو يعلى في مسنده و البزار عن أنس والطبراني في الكبير عن ابن مسعود /100/2

(6) أخرجه الطبراني عن ابن عمر /انظر الجامع الصغير (379/1)

(7) انظر الجامع الصغير :(12183) وعزاه لأبي نعيم في الحلية عن أنس وعبد بن حميد عن جابر

ولا شك في صلاح من سعى في مصالح المؤمنين، وذم من خذلهم وترك نصرهم؛ **لحديث**: «ما من عبد يدع معونة أخيه بالسعي في حاجة قضيت أو لم تقض إلا ابتلي بمعونة من يأثم فيه ولا يؤجر عليه». **ومعنى**: "قضيت له أو لم تقض": أن العبد إذا ترك معونة أخيه حصل له هذا الوعيد وإن قضيت حاجة ذلك العبد.

وفيه: «ما من امرئ مسلم يخذل امرءا مسلما في موضع ينقص فيه من عرضه وتنتهك فيه حرمته، إلا خذله الله في موطن يحب فيه نصرته، وما من امرئ ينصر مسلما في موضع ينتقص فيه من عرضه، وينتهك فيه من حرمته إلا نصره الله في موضع يحب فيه نصرته[1]».

وفيه: «من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله».

وفيه: «من مشى في عون أخيه ومنفعته فله ثواب المجاهدين في سبيل الله». **رواه علي** ﷺ.

وفيه: «من كان وصلة إلى ذي سلطان في منفعة برٍّ أو تيسير عسير أعين على إجازة الصراط يوم دحض الأقدام». **رواه ابن عمر**.

وفيه: «من قضى لأخيه المسلم حاجة كان كمن خدم الله عمره[2]». **رواه أنس**.

وفيه: «لا يرى امرؤ من أخيه زلة فسترها عليه إلا دخل الجنة». **رواه أبو سعيد الخدري**.

وفيه: «من فرج عن مؤمن كربة فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر على مومن ستر الله عورته، ولا يزال تعالى في عونه ما دام في عون أخيه[3]». **رواه أبو هريرة**.

([1]) أورده في الجامع الصغير وعزاه لابن حبان عن علي انظر:2/99

([2]) أورده في الجامع الصغير :3/218) وعزاه لأبي نعيم في الحلية عن أنس

([3]) أخرجه مسلم رقم(6853) عن أبي هريرو وأبو داوود رقم 4946 عن أبي هريرة والترمذي رقم :1425/1930/2945)كلهم عن أبي هريرة

وفيه: «من فرج عن مؤمن كربة جعل الله له شعلتين من نور على الصراط يستضيء بضوئهما عالم لا يحصيه إلا رب العزة[1]». **رواه أبو هريرة.**

وفيه: «من مشى مع أخيه في حاجة فناصحه فيها جعل الله بينه وبين النار سبع خنادق ما بين الخندق والخندق ما بين السماء والأرض». **رواه ابن عباس.**

وفيه: «من ستر مسلما ستره الله عز وجل في الدنيا والآخرة. ومن فك عن مكروب فكّ الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته[2]». **رواه مسلمة بن مخلد.**

وفيه: «إن لله عبادا اختصهم بالنعم لمنافع العباد يقرها فيهم ما بذلوها، فإذا منعوها حولها الله عنهم وجعلها في غيرهم[3]». **رواه ابن عمر.**

وفيه: «من أضاف مؤمنا أو حق له في شيء من حوائجه كان حقا على الله أن يخدمه وصيفا في الجنة». **رواه أنس.**

وفيه: «إذا جاءني طالب حاجة فاشفعوا له لكي تؤجروا. ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء». **رواه أبو موسى.**

وينبغي لمن تولى أمر المسلمين أن يأمر أهل الخير والصلاح أن يشفعوا عنده ويظهر لهم السرور بذلك اقتداء به عليه الصلاة والسلام لأنه شرّع لنا ذلك لِتَستَنّ ولاّة الأمر بذلك. ولأن الآمر بالمعروف مأجور. ولا يأخذ شيئا في مقابلة شفاعته، لأن ذلك سحتٌ.

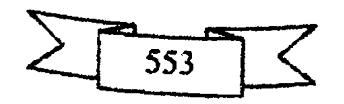
وفيه: «من رفع حاجة ضعيف إلى ذي سلطان لا يستطيع رفعها ثبت الله قدميه يوم القيامة».

---

(1) أخرجه مسلم رقم: (6853) عن أبي هريرة، وأبو داوود رقم: (4946).

(2) هذا الحديث والحديث السابق يدخلان في لفظ ومعنى حديث: "من فرج عن مؤمن" وقد تقدم تخريجه.

(3) أخرجه الطبراني في الكبير عن ابن عمر. انظر الجامع الصغير: (379/1).



وفيه: «من أغاث ملهوفا كتب الله له ثلاثا وسبعين حسنة واحدة يصلح بها آخرته ودنياه والباقي في الدرجات[1]». **رواه أنس.**

وفيه: «إن الله يحب إغاثة اللهفان[2]». **رواه أنس.**

وفيه: «إن من موجبات المغفرة إدخالك السرور على قلب أخيك المسلم وإشباع جوعته وتنفيس كربته[3]». **رواه جابر.**

وفيه: «من مشى في حاجة أخيه المسلم كتب الله له في كل خطوة سبعين حسنة وكفر عنه سبعين سيئة فإن قضيت حاجته على يديه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، وإن مات في خلال ذلك دخل الجنة بغير حساب[4]». **رواه أنس.**

وفيه: «من أنعش حقا بلسانه أجرى الله له أجره حتى يأتي يوم القيامة فيوفيه حسابه». **رواه أنس.**

وفيه: «من سقى مسلما شربة ماء بعده الله من النار شوط فرس، يعني حُضْرَ فرس»[5]. **رواه عبد الله بن عمرو بن العاص.**

وفيه: «من أطعم أخاه حتى يشبعه أو سقاه حتى يرويه بعده الله من النار سبع خناذق ما بين حندقين مسيرة خمسمائة عام»[6]. **رواه ابن عمر.**

وفيه: «أيما مسلم كسا مسلما ثوبا كان في حفظ الله ما بقيت عليه منه رقعة»[7].

وفيه: «من سر مومنا فإنما يسر الله عز وجل، ومن عظم مؤمنا فإنما يعظم الله عز وجل، ومن يكرم مؤمنا فإنما يكرم الله عز وجل»[8].

([1]) أخرجه البخاري التاريخ والبيهقي في شعب الإيمان عن أنس انظرالجامع الصغير:(157)

([2]) أخرجه ابن عساكر عن أبي هريرة /انظر الجامع الصغير (329/1)

([3]) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن جابر انظر الجامع الصغير(391/1)

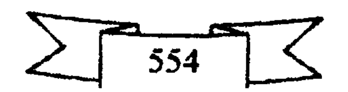
([4]) سبق تخريجه.

([5]) جزء من حديث اخرجه أبو داوودرقم:(1682) عن أبي سعيد/وأخرجه الترمذي (2449)

([6]) أخرجه النسائي والحاكم في المستدرك عن ابن عمر انظر الجامع الصغير (155/3)

([7]) أخرجه احمد في مسنده وأبو داوود (1682) والترمذي (2449) عن ابي سعيد والطبراني عن ابن عباس

([8]) تقدم تخريجه.



وفيه: «أيما أهل عرصة ظل فيهم امرأ جائعا فقد برئت منهم ذمة الله».

وفيه: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه لمن يظلمه ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته. ومن فرج عن مؤمن كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة»[1]. **رواه ابن عمر.**

وفيه: «من أغاث ملهوفا كتب الله له ثلاثا وسبعين مغفرة واحدة منها صلاح أمره كله واثنتان وسبعون له درجات يوم القيامة»[2]. **رواه أنس .**

وفيه: «أفضل الصدقة صدقة اللسان. قيل: يا رسول الله وما صدقة اللسان؟ قال: الشفاعة تفك بها الأسير، وتحقن بها الدم وتجر بها المعروف إلى أخيك وتدفع عنه الكريهة»[3]. **رواه سمرة بن جندب.**

وفيه: «إذا عاد المسلم أخاه أو زاره في الله يقول الله عز وجل طبت وطاب ممشاك وتبوأت في الجنة مترلا»[4] **رواه أبو هريرة.**

وفيه: «المؤمن مرآة المؤمن حيث لقيه، ويكف عنه صنيعه، ويحوطه من ورائه». **رواه أبو هريرة.**

وفيه: «أتدرون ما يقول الأسد في زئيره؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال يقول: اللهم لا تسلطني على أحد من أهل المعروف»[5]. **رواه أبو هريرة.**

وفيه: «من عاد مريضا لا يزال يخوض في الرحمة حتى إذا قعد استنقع فيها ثم إذا رجع لا يزال يخوض فيها حتى يرجع من حيث جاء»[6]. **رواه أبو بكر بن حزم عن أبيه عن جده.**

([1]) أخرجه البخاري (6951) عن ابن عمر ومسلم (6578)

([2]) أخرجه البخاري في التاريخ والبيهقي في شعب الإيمان عن أنس. انظر الجامع الصغير: (157/1).

([3]) أخرجه أحمد في مسنده والطبراني في الكبير عن أبي أيوب. انظر الجامع الصغير: (198/1).

([4]) أخرجه أحمد في مسنده والبيهقي في سننه عن علي.

([5]) أخرجه الديلمي (59/2 ، رقم 2337)

([6]) أخرجه أبو داوود رقم: (3106) والحاكم عن ابن عباس.

وفيه: «من أقال مسلما عثرته أقاله الله يوم القيامة»[1]. **رواه أبو هريرة.**

وفيه: «يقول الله عز وجل: أنا الله قدرت الخير والشر، فطوبى لمن جعلت مفاتيح الخير على يديه، وويل لمن جعلت مفاتيح الشر على يديه». **رواه ابن عباس.**

وفيه: «مثل المؤمنين فيما بينهم كمثل البنيان يمسك أو يشد بعضه بعضا». **رواه أبو بردة عن أبيه عن جده.**

وفيه: «ما من مسلم يعزي أخاه المسلم بمصيبته إلا كساه الله من حلل الكرامة يوم القيامة». **رواه عبد الله بن أبي بكر بن حزم عن أبيه جده.**

وفيه: «ألا أخبركم بأفضل من درجات الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى. قال: إصلاح ذات البين وإفساد ذات البين هي الحالقة». **رواه أبو الدرداء.**

وفيه: «ينادي مناد يوم القيامة: لا يقوم اليوم أحد إلا أحد له عند الله يد. فتقول الخلائق سبحانك. بل لك اليد. فيقول ذلك مرارا، بلى. من عفى في الدنيا بعد القدرة بقدرة». **رواه أبو داود.**

وفيه: عن ابن عمر: «قيل يا رسول الله أي الناس أحب إليك؟ قال: أنفع الناس للناس. قيل: فأي العمل أفضل؟ قال: إدخالك السرور على المؤمن. قيل: وما سرور المؤمن قال: إشباع جوعته، وتنفيس كربته، وقضاء دينه. ومن مشى مع أخيه في حاجة كان كصيام شهر رمضان واعتكافه».

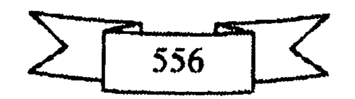
وفي رواية ابن عباس: «مشي الرجل مع أخيه في حاجة خير له من اعتكاف شهرين في المسجد الحرام. ومن مشى مع مظلوم يعينه ثبت الله قدمه يوم تزل الأقدام، ومن كف غضبه ستر الله عورته. وإن الخلق السيئ يفسد العمل كما يفسد الخل العسل».

وفيه: «لا تزال الملائكة تصلى على أحدكم ما دامت مائدته منصوبة».

وفيه: «من مشى إلى غريمه بحقه صلت عليه دواب الأرض ونون الماء ونبتت له في

---

(1) أخرجه أبو داوود رقم (3460)وابن ماجه رقم :2199) كلاهما عن ابي هريرة ورواه الحاكم



كل خطوة شجرة تغرس في الجنة، وذنبه يغفر».

وفيه: «من قاد أعمى أربعين خطوة وجبت له الجنة»[1].

وفيه: «من مشى في حاجة أخيه المسلم حتى يثبتها أظله الله بخمس وسبعين ألف ملك يدعون له ويصلون عليه إن كان صباحا حتى يمسي وإن كان مساء حتى يصبح ولا يرفع قدما إلا كتبت له حسنة، ولا يضع قدما إلا محيت عنه سيئة».

وفيه: «من رأى عورة أخيه فسترها كان كمن أحيا موءودة في قبرها»[2].

وفيه: «إن أبدال أمتي لم يدخلوا الجنة بالأعمال، ولكن دخلوها برحمة الله وسخاوة النفس، وسلامة الصدر والرحمة لجميع المسلمين»[3].

وفيه: «أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة».

وفيه: «إن لله عبادا خلقهم لحوائج المسلمين أولئك هم الآمنون يوم القيامة»[4].

وفيه: «أحب عباد الله إلى الله أنفعهم لعباد الله».

وفيه: «أحب العباد إلى الله أنفعهم لعياله[5]».

وفيه: «تجافوا عن ذنب السخي فإن الله ءاخذ بيده كلما عثر»[6].

وعوتب عبد الله بن جعفر على كثرة عطائه فقال: إن الله عز وجل عودني أن يتفضل علي وعودته أن أتفضل على عباده، فأخاف إن قطعت أن يقطع.

وفيه: «لن يتقرب العبد إلى الله بأفضل من ريّ كبدٍ جائعة».

وفيه: «أطلب الخير والحوائج عند حسان الوجوه»[7].

---

(1) أخرجه أبو يعلي في مسنده والطبراني في الكبير وابن عدي في الكامل وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر

(2) أخرجه ابو داوود رقم(4891)والحاكم والبخاري في الأدب عن عقبة بن عامر

(3) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان

(4) أخرجه الطبراني في الكبير عن ابن عمر

(5) أخرجه في الجامع الصغير: (45/1) وأسنده إلى عبد الله في زواهد الزهد عن الحسن مرسلا.

(6) أخرجه الدار قطني في الإفراد والطبراني في الكبير والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس

(7) أخرجه ابن عساكر عن عائشة

وفيه: «ما أعطي الرجل قلب سوء في صورة حسنة». **قال الزهري:** والله ما عنى رسول الله ﷺ الصباحَة، ولكن عَنَى التهلُّل عند طلب الحاجة.

وجاء في الحديث: «إن الله تعالى ضمن دين العبد في ثلاثة أشياء: إذا استدان في النكاح مخافة الزنا، أو إستدان لإغاثة المسلمين ممن يخرج إلى الغزو، أو لكفن، فإن الله تعالى يرضي خصماء هؤلاء إذا ماتوا قبل قضاء الدين». **رواه أنس.**

وقال الحسن: قد كبر أنس وضعف ونسي أفضل من ذلك وهو من استدان لنفقته على عياله فاجتهد في القضاء وعجز عنه حتى مات.

ومن أعظم الإحسان ما روي أن محمد بن المنكدر حج 33 حجة، فقال في آخرها وهو بعرفات: اللهم إن واحدة منها عن فرضي، والثانية: عن أبي، والثالثة عن أمي، والباقي لمن وقف موقفي هذا ولم تتقبل منه. فلما دفع من عرفات نودي: يا ابن المنكدر أتتكرم على من خلق الكرم والجود؟ وعزتي وجلالي لقد غفرت لمن يقف بعرفات قبل أن أَخْلُقَ عرفات بألف عام.

ومنه ما ذكره ابن خلكان في ترجمة الواقدي[1] أن الواقدي قال: كان لي صديقان أحدهما هاشمي، فنالتني شدة فأرسلت إلى صديقي الهاشمي يواسيني؛ فوجه إليَّ كيسا مختوما فيه ألف درهم فما لبثت أن جاءني رسول صديقي الآخر يشكوا إلي مثل ما شكوت إلى صديقي الهاشمي، فوجهت إليه الكيس بحاله، فلم أمكث أن جاءني صديقي الهاشمي ومعه الكيس كهيئته. فقال: أصدقني عن ما فعلته فيما وجهت به إليك. فعرفته الخبر على وجهه وقال: إنك وجهت إلي وما أملك إلا ما بعثت به إليك، وكتبت إلى صديقنا أسأله المواساة فوجه إلي كيسي بخاتمي. **قال الواقدي:** فتواسينا الألف درهم فيما بيننا وأخرجنا لزوجتي مائة درهم لكونها هي الحاملة لي أولا على الرسالة. فنُمِي الخبر إلى

([1]) هو محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي بالولاء، أبو عبد الله الواقدي. من أقدم المؤرخين في الإسلام ومن أشهرهم، حافظ للحديث. قدم بغداد واتصل بيحيى بن خالد البرمكي في أيام الرشيد. فولاه الرشيد قضاء بغداد واستمر إلى أن توفي. ومؤلفاته عديدة وشهيرة منها: المغازي النبوية، وفتح افريقية، وفتح مصر والاسكندرية، وتفسير القرآن. وأخباره لا تسعها الهوامش. توفي 207هـ. انظر وفيات الأعيان: (1/506).

المأمون فدعاني فشرحت له الخبر فأمر لنا بسبعة آلاف دينار لكل واحد ألفا دينار وللمرأة ألف دينار[1].

وقال: يحب الله تعالى من خلقه إحسان بعضهم إلى بعض حتى أن الطائر في حبسك والسنور في دارك لا ينبغي أن تقصر في تعهده بإحسانك.

وقال بعض السلف: لا يتم المعروف إلا بثلاثة: تعجيله، وتصغيره، وكتمه.

وحكى القرطبي في تفسيره: أن جماعة رفعت عاملا إلى أبي جعفر المنصور فحاجها العامل وغلبها لأنهم لم يثبتوا عليه كبير ظلم ولا جور. فقام فتى من القوم فقال: يا أمير المؤمنين؛ إن الله أمر بالعدل والإحسان وإن هذا عدل ولم يحسن فتعجب أبو جعفر من إصابته وعزل العامل[2].

وقيل: اصطناع المعروف لا يضيع ولو مع غير أهله، واصطناع المعروف يقي مصارع السوء؛ **كما وقع لمحمد بن حمير مع الحية** في قصة طويلة.

حاصلها: أنه أتته حية ذات يوم تستجير به من عدوها وقالت: إن أردت اصطناع المعروف فافتح لي فاك أدخل فيه فعهدت له أن لا تضره، ففتح لها فاه فانسابت فيه، وجاءه رجل فسأله هل لقيها؟ فقال: لا. قال: فاستغفرت من قول لا مائة مرة، وقد علمت أين هي، فلما انصرف الرجل وأَمِنَتْ قالت لي: يا محمد اختر لنفسك إما أن أفتت كبدك وإما أن أثقب فؤادك. فخانت ونقضت العهد، فلما يئست من الحياة رفعت رأسي إلى السماء **وقلت:** يا لطيف الطف بي بلطفك الخفي، يا لطيف يا قدير بالقدرة التي استويت بها على العرش، ولم يعلم العرش أين مستقرك منه، يا حليم يا عليم يا علي يا عظيم يا حي يا قيوم يا الله إلا ما كفيتني أمر هذه الحية. فلم ألبث أن جاءني ملك على صورة رجل قال لي: افتح فمك ففتحت فمي فوضع فيه مثل ورق الزيتون أخضر قال: امضغ وابلع فمضغت وبلعت، فرميت بالحية من أسفل قطعة قطعة، فقلت: من أنت

---

(1) انظر وفيات الأعيان: (506/1).

(2) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: (168/10).

الذي منَّ الله علي بك؟ قال: أنا ملك في السماء الرابعة يقال لي: اصطناع المعروف، أمرني تعالى: أن انطلق إلى الجنة فخذ ورقة خضراء فألْحِقْ بها عبدي محمد بن حمير. يا محمد عليك باصطناع المعروف فإنه يقي مصارع السوء وإن صنعته لمن يضيع عنده فلا يضيع عند الله.

ومن ذلك ما روي أن بعض الملوك صلب رجلا قبل قتله، ثم بعث إليه رجلا يسأله هل مر عليه شيء قط مثل ما هو فيه الآن؟ فسأله فقال: نعم؛ نزل علينا قوم فلم أجد ما أقدمه لهم، فكان ذلك أشد علي مما أنا فيه، فعاد الرجل فأخبره بمقالته، فقال الملك: خلوا سبيله ليس الكريم لعقوبة الملك بموضع، فهذا بلغ به سخاؤه إلى شفاعة الأمير عليه بعد صلبه فكيف بمالك الملوك الذي لا ينقص العطاء خزانة فضله؟.

(**وَ**) عامل من يستحقه منهم بـــ(**حُسْنِ الْخُلُقِ ظَاهِرًا**) وأما أهل الكفر والظلم والإصرار على الكبائر فأغْلُظْ عَلَيْهم (**مَعَ الإنْقِبَاضِ**) عنهم (**بَاطِنًا**) ومن صفة العالم الانقباض في بسط خلق .

وقال الشافعي: الانقباض عن الناس مكسبة لعداوتهم، فكن بين المنقبض والمنبسط.

قال شقيق: اصحب الناس كما تصحب النار، خذ منها منفعتها واحذر أن تحرقك.

وقال: العبادة عشرة أجزاء: تسعة منها في الهرب من الناس، وواحد في السكوت.

فوائد: الأولى: حقيقة حسن الخلق: ملكة يسهل على ذويها تجنب القبيح وفعل الجميل كالصبر عند المكاره والحلم عند الجفاء وحمل الأذى والإحسان للناس، والتودد إليهم، والمسارعة في قضاء حوائجهم، والرحمة بهم، والشفقة عليهم، واللين في للقول، والتثبت في الأمور.

وقال أبو القاسم اللجائي: وأن تخاطب الناس بقدر عقولهم، وأن تعامل كل إنسان بما يؤنسه ولا يوحشه، وأن لا يشتكي منك أحد، ولا تشتكي من أحد، والإيثار والكرم والتواضع والأدب، وأن تجازي من أساء إليك بالإحسان. وعلامة ذلك أن لا تريد لمخلوق إلا ما تريد لنفسك.

وقال الحسن البصري: حقيقة حسن الخلق: بذل المعروف وكف الأذى وطلاقة الوجه.

وقال العلقمي: وحقيقته: أنه صورة الإنسان الباطنة وهي نفسه وأوصافها ومعانيها والثواب والعقاب يتعلقان بأوصاف الصورة الباطنية أكثر مما يتعلقان بأوصاف الصورة الظاهرة.

ويدخل في حسن الخلق: الإنصاف في المعاملة، والرفق في المجادلة، والعدل في الأحكام، والإحسان في اليسر، والإيثار في العسر، وحسن الصحبة، ولين الجانب. **قاله الفشني**[1].

ومن حسن الخلق: الوفاء بالعهد. **ومن أحسن ما قيل في حسن الوفاء بالعهد ما أنشده ابن هانئ عن شيخه أبي العلاء:**

بَيْنِـــي وَبَيْنَـــكَ ذِمَّـــةٌ مَرْعِيَّـــةٌ بَدَتْ هُنَـــالِكُمْ وَأُخْـــرَى هَاهُنَـــا

فَلَقَدْ يَحُولُ الْمَـــاءُ بَعْـــدَ صَـــفَائِهِ وَالْجَوُّ بَعْـــدَ ضِـــيَّائِهِ وَأَنَـــا أَنَـــا

ومنه: الفتوة وهي غاية الكرم، والإيثار في اصطلاح الصوفية في ألفاظهم. **قيل:** إن هذا الخلق لا يكون إلا لنبينا ﷺ فإن كل واحد في القيامة يقول: نفسي نفسي، وهو ﷺ يقول أمتي أمتي.

الثانية: ورد في حسن الخلق أحاديث كثيرة:

ففي الحديث: «من سعادة المرء حسن خلقه»[2].

وفيه: «خصلتان لا تجتمعان في مؤمن: البخل وسوء الخلق». **رواه أبو سعيد الخدري**[3].

وفيه: «أول ما يوضع في الميزان حسن الخلق»[1].

([1]) انظر المجالس السنية في الكلام على الأربعين النووية: (175).

([2]) أخرجه البيهقي في الشعب

([3]) أخرجه الترمذي رقم: (1962) عن أبي سعيد.

وفيه: «إن العبد ليدرك بحسن خلقه درجة القائم بالليل الصائم بالنهار الظامئ بالهواجر».

وفيه: «من يرد الله به خيرا يجعل خلقه حسنا[2]». **رواه قبيصة بن ذؤيب.**

وفيه: «إن الإنسان إذا كثر حسن خلقه كثر بره للناس».

وفيه: «أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق».

وفيه: «إن الله كريم يحب مكارم الأخلاق»[3].

وفيه: «حسن الخلق يمن وسعادة، وسوء الخلق شؤم ورداءة».

وفيه: «إن أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا وألطفهم بأهله[4]».

وفي رواية: زيادة: «وإن حسن الخلق ليبلغ درجة الصوم والصلاة». **أخرجه البزار عن أنس.**

وفيه: «الخلق الحسن طوق من رضوان الله في عنق صاحبه». والطوق مشدود إلى سلسلة من الرحمة، والسلسلة مشدودة إلى حلقة من أبواب الجنة، حيثما ذهب الخلق الحسن جذبته إلى نفسها فتدخله من ذلك الباب الجنة، والخلق السوء طوق من سخط الله والطوق مشدود إلى سلسلة من عذاب الله. والسلسلة مشدودة إلى حلقة من أبواب النار. وحيث ما ذهب الخلق السيئ جذبته السلسة إلى نفسها فتدخله من ذلك الباب إلى النار[5].

وقيل لرسول الله ﷺ: فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وهي سيئة الخلق تؤذي جيرانها بلسانها، قال: «لا خير فيها هي من أهل النار».

([1]) أخرجه الطبراني في الأوسط عن أم الدرداء بلفظ: "أول ما يوضع في الميزان الخلق الحسن"

([2]) أخرجه في الشهاب للقضاعي: (255).

([3]) أخرجه في الجامع الصغير (317/1)

([4]) أخرجه أبو يعلى (237/7 ، رقم 4240) ، والضياء (331/6 ، رقم 2353) . وأخرجه أيضا : البزار كما فى كشف الأستار (27/1 ، رقم 35) . قال الهيثمى (58/1) : رجاله ثقات

([5]) وجدت عدة أحاديث في معناه دون لفظه

ولما خلق الله الإيمان قال: اللهم قومني فقواه بحسن الخلق والسخاء، ولما خلق الله الكفر قال: اللهم قوني فقواه بالبخل وسوء الخلق.

وكان رسول الله ﷺ يكثر في دعائه: «اللهم إني أسألك الصبر والعافية وحسن الخلق».

ومن دعائه عليه الصلاة والسلام في افتتاح الصلاة: «اللهم اهدني لأحسن الأخلاق ولا يهدي لأحسنها إلا أنت وأصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت[1]».

وفيه: « إن الخلق الحسن زمام رحمة الله، والزمام في يدي ملك، والملك يجره إلى الخير، والخير يجره إلى الجنة، وإن الخلق السيئ زمام من عذاب الله تعالى في أنف صاحبه، والزمام بيد شيطان والشيطان يجره إلى الشر، والشر يجره إلى النار»[2].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن الخلق الحسن يذيب الخطايا كما تذيب الشمس الجليد. وإن الخلق السيئ ليفسد العمل كما يفسد الخلُّ العسلَ.

وعن علي رضي الله عنه أنه قال: من كان فيه أربع خصال بدل الله سيئاته حسنات يوم القيامة: الصدق والحياء والشكر وحسن الخلق. وقيل: عنوان صحيفة المرء حسن خلق، وقيل: مجامع الخير محصورة في أمرين: صدق مع الحق، وخلق مع الخلق. فينبغي للعاقل أن يتأدب بآداب الشريعة، وأن يحسن العشرة مع عبادا لله.

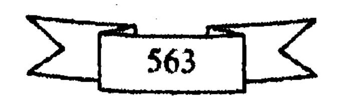
وقال وهب بن منبه: مثل سيئ الخلق مثل الفخار المكسور لا يرقع ولا يعاد طينا. وقال الحسن: من ساء خلقه عذب نفسه، ومن كثر ماله كثرت ذنوبه، ومن كثر كلامه كثر سخطه.

وقال أنس: إن العبد ليبلغ بحسن الخلق أعلا درجة في الجنة وهو غير عابد وإن العبد ليبلغ أسفل درك جهنم بسوء خلقه[1]. وقيل: حسن الأخلاق كتر الأرزاق.

---

(1) أخرجه مسلم (534/1 ، رقم 771) ، وأبو داود (201/1 ، رقم 760) ، والترمذى (485/5 ، رقم 3421)

(2) أخرجه أبو الشيخ في الثواب عن أبي موسى



وقيل: جمع الله حسن الخلق في ثلاث كلمات: ﴿خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين﴾. **وقيل:** سبعة من أخلاق المؤمنين: مجالسة الفقراء، ومساءلة العلماء ومخالطة الحكماء، ومؤانسة الأبرار، ومجانبة الأشرار، ومواظبة العبادات، ومكارم الأخلاق.

وقيل: كانت لشقيق امرأة سيئة الخلق فقيل له: لم لا تفارقها؟ فقال إن كانت سيئة الخلق فأنا حسنه، لو فارقتها صرت مثلها، ومع ذلك أخاف ألا يمسكها أحد غيري لسوء خلقها. **وقال غيره في زوجة سيئة الخلق:** أخاف أن تضر مسلما بعدي، **وأنشدوا:**

بِمَكَــارِمِ الأَخْــلاَقِ كُــنْ مُتَخَلِّقًــا ... لِيَفُوحَ مِسْكُ ثَنَائِكَ الْعَطِرِ الشَّــذِي

وَانْفَــعْ صَــدِيقَكَ إِنْ أَرَدْتَ صَــدَاقَةً ... وَادْفَعْ عَــدُوَّكَ بِــالَّتِي فَــإِذَا الــذِي

يريد بقية الآية: ﴿ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾الآية.

وفي الخبر: «إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ولكن ليسعهم منكم وجه طليق وخلق حسن[2]». **وفي لفظ آخر:** «وبشر وبشاشة».

وفيه: «رأس العقل بعد الإيمان بالله التودد إلى الناس[3]».

وقيل: أتى رجل عليا كرم الله وجهه برجل آخر فقال: إن هذا زعم أنه احتلم بأمي، فقال علي: أقمه للشمس واضرب ظله ثم تبسم وقال: لا بأس بالفكاهة حتى يخرج الرجل عن حد العبوس.

ومن كلامهم: الانبساط يوجب المؤانسة والانقباض يوجب الوحشة. **صح من الشهب اللامعة.**

([1]) – أخرجه الطبراني في الأوسط والضياء عن أنس بلفظ: إن العبد ليبلغ بحسن خلقه العظيم درجات الآخرة وشرف المنازل، وإنه لضعيف العبادة. وإنه ليبلغ بسوء أسفل درك جهنم، وإنه لعابد.

([2]) أخرجه أبو نعيم فى الحلية (25/10) ، والحاكم (212/1 ، رقم 427) ، والبيهقى فى شعب الإيمان (253/6 ، رقم 8054).

([3]) أخرجه : الطبرانى فى الأوسط (120/5 ، رقم 4847) ، قال الهيثمى (24/8) : فيه جماعة لم أعرفهم . وأبو نعيم فى الحلية (203/3) وقال : غريب .

وفي الحديث: «ألا أنبئكم بشراركم؟ قالوا بلى يا رسول الله قال: من لا يقيل عثرة ولا يقبل معذرة، ألا أنبئكم بشر من ذلكم؟ قالوا: بلى. قال: من يبغض الناس ويبغضونه[1]».

قال المناوي: وفي الآثار: إن بعضهم يوقف بين يدي الله يوم القيامة فيقول: إنه عمل من الخير ما لم يعمله وهو كاذب فيتجاهل له ربه فيأمر بهِ إلى الجنة فتقول الملائكة إنه كذب فيقول: علمت واستحييت أن أكذب نسبته.

قال ابن عربي: في هذا أصل عظيم من مكارم الأخلاق، ويلزم أهل الله التخلق به. **انتهى.**

وحكي: أن الحسن والحسين أقبلا على شيخ يفسد وضوءه وقالا له: إنا نريد أن نتوضأ بين يديك حتى تعلم من يحسن منا الوضوء ومن لا، ففعلا ذلك فلما فرغا قال: أنا والله الذي لا يحسن الوضوء وأنتما أحسنتماه فانتفع بذلك من غير تعنيت ولا توبيخ. وهكذا ينبغي للعالم قال تعالى: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾.

وذلك أنه خرج رسول الله ﷺ يوما من المدينة ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، فأهديت له شاة فذكاها أبو بكر، وجردها عن جلدها عمر، وقطّعها عثمان، وأنضجها علي. فقال ﷺ: أما أنتم فقد عملتم؛ وأما أنا فأسوق الحطب بما تطبخ. فقالوا: كفيناك يا رسول الله. فقال: لا بد. فأخذ الحبل وصار يحتطب، وأتى بحزمة على عنقه ﷺ فنزل الأمين جبريل عليه السلام بقوله تعالى: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾.

وعن أنس ﷺ أنه قال: قالت أم حبيبة: يا رسول الله أريت المرأة منا ربما كان لها زوجان لأيهما في الجنة قال: لأحسنهما أخلاقا كان عندها في الدنيا والآخرة. **قالت أم حبيبة:** ذهب حسن الخلق بخيري الدنيا والآخرة.

وأول ما يمتحن به: حسن الخلق الصبر على الأذى واحتمال الجفاء. ولما كثرت قريش ضرر رسول الله ﷺ قال: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون». ولذلك قال تعالى

---

(1) أخرجه الطبراني (318/10 ، رقم 10775)

﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾. **قاله في الإحياء**[1].

الثالثة: كثير من خُلُقِ أهل هذا الزمان نفاق والعياذ بالله؛ لأنهم يبدؤون الشخص بالسلام ويلقونه بالترحيب والتعظيم والتواضع والبشر والبشاشة وجميع أنواع حسن الخلق، فإذا قام عنهم اغتابوه ورموه بجميع أنواع السوء. **وكان السلف يعدون هذا من النفاق**، وكانوا إذا مدحوا أحدا بقول لم يذموه بفعل، وإذا ذموا أحدا بفعل لم يمدحوه بقول، وإذا تكلموا في أحد ببدعة لم يكلموه، وإذا سلموا على أحد سلمت قلوبهم وسلم منهم. وكانوا يقولون: معنى "السلام عليكم": أي سلمت مني أن أغتابك أو أذمك، فمن سلم على غيره فقد أمنه من شره، وعاهده على ذلك فليس له نقض عهده، وإن كان كافرا. فذلك أمان لا يجوز خفره، وإلا كان في ذلك صاحب لسانين واختلاف وجهين واختلاف السر والعلانية.

وفي الحديث: «شر الناس ذو الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه»[2].

وفي حديث آخر: «من كان ذا لسانين في الدنيا جعل الله عز وجل له يوم القيامة لسانين من نار[3]». **وفي آخر:** «لا ينبغي لذي وجهين أن يكون وجيها عند الله»، **قال:**

إِذَا السِّرُّ وَالإِعْلاَنُ فِي الْمُؤْمِنِ اسْتَوَى ... فَقَدْ فَازَ فِي الدَّارَيْنِ وَاسْتَوْجَبَ الثَّنَا

وَإِنْ خَالَفَ الإِعْلاَنَ سِرٌّ فَمَا لَهُ ... عَلَى سَعْيِهِ شَيْءٌ سِوَى الْكَدِّ وَالْعَنَا

وفي الحديث: «كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثا هو لك به مصدق وأنت له به كاذب[4]».

وذو اللسانين هو: أن يتردد بين المتعادين ويكلم كل واحد بما يوافقه لغير غرض الإصلاح. **قاله في كتاب البركة.**

([1]) انظر إحياء علوم الدين: (70/3).

([2]) أخرجه الطبراني في الأوسط (116/2)

([3]) أخرجه أبو داوود رقم: (4873) عن عمار بن ياسر.

([4]) أخرجه أحمد في مسنده انظر الجامع الصغير (296/1)

ومما يشبه ذا اللسانين: من يمدح رجلا في وجهه خوف أن يظهر خلاف ما يضمره فيقع في المجازفة، أو يبالغ فيقع في الكذب، أو يدخل السرور على قلب الممدوح الفاسق، أو يفرح الممدوح فيقصر في العمل، أو يدخله الكبر والعجب.

وقال النووي: ذو الوجهين: من يأتي كل طائفة بما يرضيها، فيظهر لها أنه منها ومخالف لضدها وقصده نفاق محض وكذب وخداع، وتحيل إلى الاطلاع على أسرار الطائفتين وهي مداهنة محرمة.

وأما إن قصد الإصلاح بينهما فهو محمود؛ كأن يأتي كل طائفة بما فيه صلاح الأخرى، ويعتذر لكل واحدة عن الأخرى، وينقل إليها ما أمكن من الجميل وستر القبيح. **وأما من يُزَيِّنُ لكل طائفة عملها ويقبحه عند الأخرى، ويذم كل طائفة عند الأخرى** فذلك مذموم.

وقال بعضهم: ما ذكر عندي إنسان قط إلا مثلته جالسا فأقول في غيبته ما أحب أن يسمع. **وقال آخر:** ما ذكر عندي رجل إلا تصورت نفسي في مثاله، وكل ما أحب أن يقال لي قلته له، وكان أحدهم إذا ذكر عنده غيره بسوء وقف في شأنه، فإن كان فيه هو مثل ذلك السوء قطعه الحياء عن الكلام في أخيه، وإن لم يكن فيه حمد الله ورحم أخاه. فشغله الشكر لمولاه إذ عافاه. **فاحذر يا أخي أصلحك الله من حسن خلق أهل العصر.**

بعض أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم

فها أنا أذكر بعض أخلاق النبي ﷺ وسيرته تبركا بها واقتداء به ﷺ فإن من أراد اتباعه ﷺ واقتفاء آثاره فليبحث عن سيرته وخلقه في كتب الحديث والتفسير. قال تعالى: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾. وقال: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾:

فمن ذلك: أن أزواجه عليه الصلاة والسلام اجتمعن عنده ذات يوم وقلن له: أينا أحب إليك يا رسول الله؟ فوعدهن أن يخبرهن بالغداة، فلما كان تلك العشية أعطى لكل واحدة منهن خاتما، من غير أن تعلم واحدة بالأخرى، فلما اجتمعن عنده بالغداة قلن له: أينا أحب إليك؟ قال لهن: صاحبة الخاتم أحب إِلَـيَّ؛ فظنت كل واحدة منهن أنها أحب إليه، وأنه ما أعطى الخاتم إلا لها.

ومن خلقه عليه الصلاة والسلام: أنه ما استضافه أحد، أو جالسه، إلا ظن أنه أكرم الناس عليه.

وقالت عائشة رضي الله عنها: كان خلقه القرآن؛ يغضب لغضبه ويرضى لرضاه.

ومن خلقه: حسن المعاشرة، وكرم الصنيعة، ولين الجانب، وبذل المعروف، وإطعام الطعام، وإفشاء السلام، وعيادة المريض المسلم برا كان أو فاجرا، ويعود المرضى في أقصى المدينة، ولو من وجع العين ماشيا، ويعود الأعراب والصبيان، وتشييع جنائز المسلمين، وحسن الجوار لمن جاوره مسلما كان أو كافرا، وتوقير ذي الشيب المسلم، وإجابة الطعام، والدعاء إليه، والعفو، والإصلاح، والجود، والكرم، والسماحة، وكظم الغيظ، وحسن الحديث، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وترك الخيانة، وحفظ الجار، ورحمة اليتيم، ولين الجانب، وحسن العمل، وقصر الأمل، ولزوم الإيمان، والتفقه بالقرآن، وحب الآخرة، وخفض الجناح، هين، لين، سمح، يعقل البعير، ويخصف النعل، ويرقع الثوب، ويخدم في مهنة أهله، وَيَقُمُّ البيتَ، ويحلب الشاة، ويأكل مع الخادم، ويطحن ويعجن معها إذا عييت، ويصافح الغني والفقير، طلقَ الوجه، بسَّام من غير

ضحك، محزون من غير عبس، متواضع من غير ذلة، جواد من غير سرف، يركب الحمار، وكان يوم بني قريظة والنضير على حمار مخطوم بحبل من ليف عليه إكاف من ليف، وما لعن أحدا قط، وما ضرب بيده قط إلا في سبيل الله، وما انتقم من أحد قط إلا أن يكون انتقم لله، ولا يغضب لنفسه إلا أن تُنتَهَكَ حرمات الله، فإذا غضب لله لم يقم لغضبه أحد، وتوفي ﷺ وعليه دين، ودرعه مرهونة في طعام لأهله، لم يترك دينارا، ولا درهما، ولا شيد قصرا، ولا غرس نخلا، ولا شق نهرا، وما خير بين أمرين إلا واختار أيسرهما، إلا أن يكون فيه إثم، أو قطيعة رحم، وإلا كان أبعد الناس منه، وما كان يأتيه أحد؛ حرٌّ أو عبد إلا قام معه في حاجته، وكانت الأمة من إماء المدينة تأخذ بيده فتذهب به حيث شاءت، ولم يقل لخادمه قط: لم فعلت؟ وهل لا فعلت؟. **وقال خَدِيمُهُ أنس ابن مالك:** والذي بعثه بالحق ما قال لي في شيء قط كرهه: لم فعلت، ولا لمني أحد إلا قال: إنما هذا بكتاب وقدر. إن فُرش له اضجع، وإلا اضجع على الأرض، ليس بفظ، ولا غليظ، ولا صخاب، ولا فحاش، ولا عياب، ولا مداح، ولا يجزي بالسيئةِ السيئةَ، ولكن يعفوا، ويصفح، ويبدأ من لقيه بالسلام، ومن قاومه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف، وما أخذ أحد بيده فيرسل يده حتى يرسلها الآخر، وكان إذا لقي أحدا من أصحابه صافحه ثم شابكه ويشد قبضته. **وقال: «من صافحني أو صافح من صافحني إلى يوم القيامة دخل الجنة، ومن شابكني دخل الجنة، ومن شابك من شابكني إلى يوم القيامة دخل الجنة».**

قال جامعه عفى الله عنه: وقد أخذت المصافحة والمشابكة والحمد لله بسند متصل إلى رسول الله على السند العالي القريب من رسول الله ﷺ، فبيني وبين رسول الله ﷺ ثلاث وعشرون رجلا.

وكان ﷺ لا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر الله تعالى، ولا يجلس إليه أحد وهو يصلي إلا خفف صلاته وأقبل عليه فيسأله عن حاله، فإذا فرغ عاد إلى الصلاة. وكان يكثر الذكر، ويقلل اللغو، ويطيل الصلاة، ويقصر الخطبة، ولا يستنكف أن يقعد مع الأرملة

والعبد، ويحب الطيب، ويكره الرائحة الخبيثة، يَألَفُ أهل الشرف، ويكرم أهل الفضل، ويأكل على الأرض، ويجلس عليها، ويلبس العباءة، ويجالس المساكين، ويمشي في الأسواق، ويتوسد يده، ويلعق أصابعه، ويقتص من نفسه، ولا يُرى ضاحكا ملء فيه، لا يأكل وحده، ولا يضرب عبده، ولا يمنع رفده. وقام لله حتى تورمت قدماه؛ فقيل له: أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: أفلا أكون عبدا شكورا؟ وكان يسمع لجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء إذا قام بالليل، لم يكن يُعرف مجلسه من مجلس الصحابة، وكان أكثر ما يجلس مستقبل القبلة، ويؤثر من يدخل عليه بالوسادة التي تحته، فإن أبى أن يقبلها عزم عليه. **ويقول:** «ما من مسلم يدخل على أخيه المسلم فيُلقي إليه وسادة إكراما له إلا غفر الله له». ويعطي كل من يدخل عليه نصيبه من وجهه وسمعه وحديثه. ومجلسُه مع ذلك مجلسُ حياء وتواضع وأمانة، ولهذا يدعو الصحابة بكُنَاهم إكراما لهم، ويُكَنِّي من لم تكن له كنية، ويدعوهم بأحب أسمائهم إليهم، وكان يكني النساء ذوات الأولاد، وكان أبعد الناس غضبا، وأيسرهم رضا، وأرأف الناس بالناس، وأنفعهم للناس، لا ترفع الأصوات في مجلسه. **وكان إذا قام من مجلسه قال:** «سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا اله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، **قال:** علمنيهن جبريل عليه الصلاة والسلام». وكان ﷺ أحلم الناس، وأجودهم، وأكثرهم حياء، وعن العورات إغضاءً. كان أشد حياء من العذراء في خدرها، لا يثبت بصره في وجه أحد، وكان أوسع الناس صدرا، وأصدقهم لهجة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة، وكان دائم البشر، سهل الخلق، لَيِّنَ الجانب، يجيب من دعاه، ويجيب بِـ:"لَبَّيْكَ"، ويجيب دعوة الحر، والعبد، والأمة، والمسكين، ويقبل الهدية ولو كانت قراعا، أو جرعة لبن، أو فخذ أرنب، ويأكلها، ويكافئ عليها، يغضب لربه. وكان يمازح أصحابه، ويخالطهم، ويُحَنِّكُ أطفالهم، ويضعهم في حجره، ويداعبهم، ويقبل عذر المعتذر، ويكثر مشاورة أصحابه، ولا يقطع حديثا حتى يستأمر عائشة؛ لأنها كانت رجلة الرأي. **وقال لوفد عبد القيس:** مرحبا بالقوم، **وقال لعمار:** مرحبا بالطيب المُطَيَّبِ.

وقال: مرحبا بأم هانئ، **وقال لفاطمة:** مرحبا بابنتي، وكان إذا دخلت عليه قام إليها، وأخذ بيدها وقبلها وأجلسها في مجلسه، وكذا كانت تفعل إذا دخل عليها، وارتحله أحد بني ابنته وهو ساجد يصلي بالقوم فطول سجوده مخافة أن يعجله حتى يقضي حاجته، وكان يدلع لسانه للحسن. **وقال له يرقصه:** حُزقة، حزقة، تَرَقَّ عينَ بَقّة.

الحزقة: القصير؛ أي يا صغير الجثة كأنه عين بقة، اصعد علي فترق، حتى وضع قدميه على صدره. وكان يكرم كريمة كل قوم، ويُوَلِّيهِ عليهم، **ويقول:** «إذا أتاكم كريم القوم فأكرموه، وإذا أكرم الرجل أخاه فإنما يكرم ربه، فأنزلوا الناس منازلهم»، وكان يَحْذَرُ الناس، ويحترس منهم من غير أن يطوي عن أحد بُشْرَهُ ولا خُلقه، وكان يُؤَلِّفُهُمْ ولا يُنَفِّرُهُمْ، يتفقد أصحابه، ويسأل الناس عن ما بالناس، من أتاه لحاجة لم يَرُدَّهُ إلا بها أو بميسور من القول، وقد وسع الناس بسطه وخلقه، فصار لهم أبا، وصاروا عنده في الحق سواء، ولا يرى مقدما ركبتيه، ولا مادا رجليه بين جليس عنده حتى لا يُضَيِّقَ بهما على أحد، يكرم من يدخل عليه، وربما بسط ثوبه لمن ليست بينه وبينه قرابة ولا رضاع يجلس عليه. ورمى لجرير بثوب يجلس عليه، فوضع جرير عليه وجهه وقبله، وعَمَّمَ عبد الرحمن بن عوف بيده، ولا يقطع عن أحد حديثه إلا أن يقطع صاحبه بانتهاء أو قيام. ويَسُرُّ الرجل من أصحابه إذا رآه مغموما بالمداعبة, ولا يلتفت إلى أصحابه مخافة أن يراهم يمرحون فَيَستَوْرُونَ. وكانوا يتناشدون الشعر، ويتذكرون أمر الجاهلية، وهو عندهم ساكت، وربما تبسم معهم، وكان يضحك مما يضحكون منه، ويعجب مما يعجبون منه، ويرى اللعب المباح فلا يكرهه، ولا يطوي بشره عن أحد، ويصبر للغريب عن الفجوة في نطقه ومسألته، وكان يمشي في السوق مرة بعد أخرى، فيأمر فيه وينهى، وكان أكثر الناس تبسما، وأطيبهم نفْسا، ما لم يترل عليه قرآن، أو يعظ، أو يخطب، وكان يجالس الفقراء، ويوَاكِلُ المساكين، ويأكل ما سقط من المائدة، وسابق عائشة وهما في سفر فسبقته، ثم سابقها مرة أخرى فسبقها، **وقال:** هذه بتلك. وكان يخطب كل بما يفهمونه من لغتهم؛ **كقوله:** «لَيْسَ مِن امْبِرْ امْصَومُ فِي امْسَفَرْ». **وقوله لرجل:** «أنط»

أي اسكت؛ لغة حميرية. **وقال لعمر:** «لا تنسانا يا أخي من دعائك»، فقال عمر: كلمة ما يسرني أن لي بها الدنيا. **وقال لهلال غلام المغيرة:** «ادع لنا واستغفر لنا». وَقَبَّلَ عثمان بن مظعون وهو ميت وهو يبكي، واعتق زيد بن حارثة وَقَبَّلَهُ، والتزم جعفرًا وَقَبَّلَ ما بين عينيه، **وقال للزبير:** «فداك أبي وأمي»، وكذا قال لسعد بن أبي وقاص. وكان يطعم القوم، ويسقيهم اللبن والماء، ثم يأكل سؤرهم ويشرب آخره، **ويقول:** «ساقي القوم آخرهم شربا». لا يترفع على عبيده وإمائه بمأكل ولا مشرب ولا ملبس، وكان يحتضن أولاده، ويحملهم على ظهره، وحمل أمامة -وهي ابنة بنته زينب- في صلاته، فإذا سجد وضعها، وإذا قام حملها، وأراد أن ينحي مُخَاطَ أسامة فقالت عائشة: دعني حتى أكون أنا الذي أفعله. وكان إذا أتته هدية أطعم من حضر، وخبأ نصيب من غاب، وكان يجلس في الأرض، ويأكل الطعام، **ويقول:** «أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد، وأنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد». ولا تُغْلَقُ دونه الأبواب، ولا يقوم دونه الْحُجَّابُ، ولم يُغْدَ عليه بالْجِفَان، ولم يُرَحْ عليه بها. حيث ما انتهى به المجلس جلس، لا يجلس بين اثنين إلا بإذنهما، **ويقول:** «لا يحل لأحد أن يفرق بين اثنين إلا بإذنهما»، ولا يُقيم الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه، **ولكن يقول:** «تفسحوا وتوسعوا». وكان لا يتقي الأرض بشيء، وهو أشجع الناس، وأشدهم تواضعا، وأقلهم كبرا، وهو أرحم الناس، وأشدُّهم خوفا من ربه تعالى. وهو أرحم الناس بالناس. لم تمس يده يد امرأة لا يملك رقبتها أو نكاحها حتى في البيعة، وكن يلمسن ثوبه. وسئل أن يدعو على قوم من الكفار **فقال:** «إنما بعثت رحمة ولم أبعث عذابا». ولما كُسرت رباعيته، وشج وجهه يوم أحد **قال:** «اللهم اغفرْ لقومي فإنهم لا يعلمون». وإذا تكلم بكلمة كررها ثلاثا حتى تفهم عنه، وإذا سلم على قوم سلم ثلاثا. **قال زيد:** كنا إذا ذكرنا الدنيا ذكرها معنا، وإذا ذكرنا الطعام ذكره معنا، وإذا ذكرنا الله ذكره معنا، وإذا ذكرنا الآخرة ذكرها معنا. **قد ترك نفسه من ثلاث:** الرياء، والإكثار، وما لا يعنيه. كان لا يذم أحدا، ولا يطلب عورته، ولا ويواجهه بشيء يكرهه، ولا يتلكم إلا فيما رجي

ثوابه. **وقال لمملوك امرأة من مزينة:** «بلغها سلامي». **ومر على غلمان يلعبون فقال:** «السلام عليكم يا صبيان». **ومرَّ** على نسوة قعود فألوى بيده بالتسليم. **وكان الحبشة** يلعبون بالمسجد فقام ينظر إليهم وعائشة تنظر خلفه حتى سئمت فانصرفت وانصرف، وكان قيامه لأجلها. وأخذ بيد حذيفة فستر عليه حتى اغتسل. وكان يصغي الإناء للهرة لتشرب منه. وكان إذا قدم من سفر يلتقى بصبيان أهل بيتهِ. وكان يواسي الشعراء وأمثالهم، ويسمع الشعر، ويرق له وَيَهَشُّ، **وكسا كعبا بردة لما أنشده:**

بَانَتْ سُعَادُ.................. ....

وكان يركب حينا الحمار عريانا، وحينا البغلة، وحينا الجمل، وحينا الناقة، وحينا الفرس، وحينا راجلا، وحافيا، بلا رداء وعمامة ولا قلنسوة، وَيُرْدِفُ خلفه وأمامه بعض نسائه وعبيده. ووضع ركبته عند بعيره فوضعت صفية رجلها عليها فركبت. وركب جابر الجمل وهو ﷺ يسوقه ويضرب بالعصا. وكان يدعى إلى خبز الشعير والإهابة السَّنْخَةِ فيجيب. وكانت عائشة تشرب وهي حائض ثم يتناوله فيضع فاه على موضع فمها فيأكل أو يشرب، وتُرَجِّلُ رأسه وهي حائض. واغتسل هو وميمونة في قصعة فيها أثر العجين، واغتسل هو وعائشة في إناء واحد وهي تقول: دع لي ﷺ. وكان يحب المساكين، ويشهد جنائزهم، ويعود مرضاهم، ولا يحقر فقيرا لفقره، ولا يهاب ملكا لملكه، وكان لا يدع أحدا يمشي خلفه، **ويقول:** «خَلُّوا ظهري للملائكة». يلبس الصوف، وينتعل المخصوف، أحب اللباس إليه الْحِبَرَةُ. وأصابه في الخندق جَهْدٌ فعَصَّب بأعلى بطنه حجرا من الجوع مع ما آتاه الله من خزائن الأرض. خيره الله بين أن يكون ملكا نبيا وبين أن يكون نبيا عبدا، وأعطاه الله الجبال أن تتحول له ذهبا فلم يقبل. وَخَرَجَ من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير هو وأهل بيته. وكان يأتي عليه الشهر والشهران لا يوقد في بيت من بيوته نار. وكان قوته الماء والتمر. **قالت عائشة رضي الله عنها:** إلا أن حولنا أهل دور من الأنصار يبعثون إلينا شياههم فنصيب من ذلك اللبن. وما عاب طعاما قط؛ إن اشتهاه أكله وإلا تركه. ولا يأكل متكئا، ولا على خِوَانٍ، ولا

سَكُرُجَّة، ولا خبزًا مرققا، أكل البطيخ بالرطب، والقُثّاء بالرطب **وقال:** «يُسَكِّنُ حَرُّ هذا بردَ هذا وبردُ هذا حرَّ هذا». وكان يحب الحلواء والعسل، وأحب الشراب إليه الحلو البارد.

وهذه الأخلاق كثيرة المنافع عظيمة البركة. ومن وقف عليها فليتخلق بها تبركا بموصوفها عليه الصلاة والسلام وليصنها وهي من أعظم المهمات، وأعظم ما يتبرك به لأنها أخلاق النبي ﷺ الكريمة الحسنة الباهرة.

وعن بعض الشيوخ: أن من كانت معه هذه الأخلاق مع خصائصه ﷺ وحلف أن معه النبي ﷺ لم يحنث في يمينه. **وفوائدها لا يشك فيها إلا منافق**، والظن أن من قرأها نال مقصده وسلم من كل مكروه، ولا يستغرب ذلك في بركته ﷺ.[1]

الرفق بجميع المخلوقات

(**وَالرِّفْقُ**) بجميع الحيوانات عاقلة وغيرها وهي المداراة والأناة.

قال ابن المبارك في رقائقه: أخبرني حبيب بن حجر القيسي قال: كان يقال: ما أحسن الإيمان بزينة العلم، وما أحسن العلم بزينة العمل، وما أحسن العمل بزينة الرفق، وما أضيف شيء إلى شيء مثل حلم إلى علم.

وقال بعضهم: اعلم أن من كان وجهه إلى الدنيا كان معاديا لأكثر الخلق، ومن كان وجهه إلى خدمة الله تعالى لم يكن معاديا لأحد؛ لأنه يرى الكل أسيرا لقبضة القضاء والقدر. **ولهذا قيل:** إن العارف إذا أمر أمرَ برفق، ونصح لا بعنف وعسر، وكيف وهو مستنهض بالله في القدر.

([1]) استطرد المؤلف في باب الخلق بحثا عن خلقه ولم نتعرض لتخريج احاديثها لكثرتها وشهرتها عند العامة لأن كتب السير والمدائح النبوية مشحونة منها ومتداولة بين الخاصة والعامة وقد ألف فيها الكثير .نفعنا الله بها ورزقنا التخلق بها إن شاء الله آمين.

قال الفخر: كان الأنصار قبل الإسلام أعداء فلما أكرمهم الله بالإسلام كانوا إخوانا في الله متراحمين.

وفي الحديث: «إذا أراد الله بقوم خيرا أدخل عليهم الرفق برفق بعضهم ببعض».

وقال ﷺ لعائشة رضي الله عنها: «عليك بالرفق ما كان الرفق في شيء إلا زانه وما نزع من شيء إلا شانه»[1].

تتمة: يدخل في هذه الرفق بالبهائم **لحديث**: «اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة، واركبوها صالحة». **قال العلقمي**: أي خافوا الله في هذه البهائم التي لا تتكلم فتسأل ما بها من الجوع والعطش والنصب والمشقة. **وفي هذا الحديث الأمر بالقيام بحقوقها** الواجبة والمندوبة من العلف والسقي الذي يكفيها، أو تمكينها من الرعي ولا يكلفها من العمل ما لا تطيق، ولا تركب إلا إذا كانت صالحة للركوب قادرة عليه، فإذا أعيت فلا تركبوها وكذا إذا كانت صغيرة أو مريضة. **وفي الحديث أيضا**: «نهى ﷺ أن [تُصبر[2]] بهيمة أو غيرها للقتل». **وفيه**: «من قتل عصفورا عبثا جاء يوم القيام العصفور مستجيرا يقول: يا رب سل هذا لِمَ قتلني عبثا».

وفيه: «دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، لا هي أطعمتها ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت».

وفيه: مر رسول الله ﷺ ببعير معقول في صدر النهار، فقضى حاجته والبعير على حاله فقال لصاحبه: «هل علفت هذا البعير هذا اليوم؟ فقال: لا فقال أما إنه يحاجك يوم القيامة». **يعني**: يخاصمك إلى الله تعالى.

وفي الحديث: «من أُعطي حظه من الرفق فقد أعطي خير الدنيا والآخر ومن حرم حظه من الرفق حرم حظه من الدنيا والآخرة»[3].

---

(1) أورده في الجامع الصغير (70/1) وعزاه للديلمي في مسند الفردوس عن أبي هريرة.

(2) أن تصبر: أي تحبس حتى تموت.

(3) أخرجه أحمد في مسنده وأبي داوود (4808)

وفيه: «إن الله يحب الرفق يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف ويدخل فيه أيضا الرفق بالمملوك خاصة»[1].

روى الشيخان حديث: «إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان تحته أخوه، تحت يده فليطعمه من طعامه، وليلبسه من لباسه، ولا يكلفه ما يغلبه فإن كلفه ما يغلبه فليُعنه»[2].

وروى الترمذي وغيره: «لا يدخل الجنة سيئ المملكة. وسأله رجل كم أعفوا عن الخادم؟ كل يوم سبعين مرة»[3]

. وروى البخاري عن علي: كان آخر كلام النبي ﷺ: «الصلاة الصلاة واتقوا الله فيما ملكت أيمانكم».

وروى الحاكم وغيره: «أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا وألطفهم بأهله»[4].

وفي الحديث: «أيها الناس الله الله فيما ملكت أيمانكم، أطعموهم مما تطعمون وألبسوهم مما تلبسون، ولا تكلفوهم ما لا يطيقون فإنهم لحم ودم وخلق أمثالكم. ألا من ظلمهم فأنا خصيمه يوم القيامة، والله حاكمهم». **وإنما قال:** "مما تطعمون ومما تلبسون": فإذا أطعمته وألبسته بالمعروف من بعض ذلك فقد شاركته في مطعمك وملبسك، ولا يلزم تسوية مماليكك في المطعم والملبس، إذ ليس العبد الأسود الذي للخدمة كالفارِهِ التاجر.

وفي الحديث: «لا يجلد أحدكم زوجته جلد العبد». **يؤخذ منه جواز ضربه فوق جلد الحر والمرأة،** ولكن لا يمثل به، فإذا ضربته فاتق الوجه بنية التأديب، وأرج من الله أدبه، فإنه منه لا من الضرب، وتذكر قدرة الله عليك، وغضبه عند قدرتك وغضبك.

([1]) في مسلم يا عائشة إن الله رفيق يحب الرفق (رقم 6601) .

([2]) أخرجه مسلم رقم(1945)قال أبو عيسي هذا حديث حسن صحيح

([3]) أخرجه الترمذي رقم:(1946)

([4]) أخرجه احمد في مسنده والحاكم في المستدرك وأبو داوود رقم(4682) عن أبي هريرة وأخرجه الترمذي بزيادة:وخياركم خياركم لنسائهم رقم (1162)عن أبي هريرة .

وكان عون ابن عبد الله إذا عصاه غلامه يقول: ما أشبهك بمولاك يعصي مولاه وتعصي مولاك.

وفي الحديث: «شر الناس من منع رفده، وجلد عبده، وأكل وحده».

وفيه: «الإحسان إلى الخادم مما يكبَتُ به العدو».

وفيه: «من أحسن إلى ما ملكت يمينه نصره الله على عدوه».

وفيه: لا يجلد أحدكم فوق عشرة أسواط إلا في حد من حدود الله عز وجل[1]».

وسئل الحسن البصري عن المملوك يرسله مولاه في حاجته وتحضره صلاة الجماعة بأي شيء من ذلك يبدأ، **قال:** بحاجة مولاه. **قال السمرقندي:** هذا مُقيَّدٌ بسعة الوقت، وأما إن ضاق فإنه يقدم الصلاة **لحديث:** «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»[2].

وينبغي للسيد أن يتعاهد مملوكه بحسن المعاشرة، وجميل التكليف وأيسره، لأنه تعالى لا يكلف عبده بما لا يطيق.

ورأى ابن عمر كسرة خبز فقال لغلامه: ارفعها وأمط عنها الأذى، فرفعها العبد وأكلها. فقال له ابن عمر: اذهب فأنت حر؛ **سمعت رسول الله ﷺ يقول:** «من وجد كسرة خبز فرفعها عن الأرض ثم أكلها لم تصل إلى جوفه حتى يغفر الله له، فإني أكره أن أستعبد من غفر الله له».

وفي الحديث: «حسن المملكة نماء- **ويروى:** يمنٌ- وسوء المملكة شؤم[3]». والمملكة حالة يكون عليها المملوك عند مالكه، فإن كانت حسنةً اغتبط بها المملوك ولم يرد الخروج ولا يرى لسيده بدلا، وكانت يمنا وبركة، وإن كانت بضد ذلك كانت شؤما على المالك إذ لا يرضى المملوك البقاء عليها؛ **إذ قيل:** لا يُمْلَكُ الإنسان إلا بالإحسان.

([1]) أخرجه البخاري: (2512/6، رقم 6456).

([2]) أخرجه أحمد في مسنده والحاكم في المستدرك انظر الجامع الصغير (331/3)

([3]) أخرجه أحمد في مسنده انظر الجامع الصغير (68/2)

وفي الحديث: «إذا اشترى أحدكم الخادم فليكن أول ما يطعمه الحلوى فإنه أطيب لنفسه»[1]. **وفي الحديث:** «أنه يعفى عن الخادم سبعين مرة».

وفيه: «لا يقولن أحدكم: عبدي ولا أمتي. وكلكم عباد الله ونساؤكم إماء الله، لكن ليقل: غلامي وفتاتي وجاريتي، ولا يقل العبد ربي، ولكن سيدي ومولاي، وليس منا من خبَّبَ امرأة على زوجها ولا عبدا على سيده»[2]. أي أفسده.

فائدة: أصل الرق الكفر؛ إذ يجوز قتل الكافر وسبيه واسترقاقه، أبيض كان أو أسود، فإنه إذا مُلِكَ لم يرتفع عنه الملك إلا بالعتق، لا بالإسلام. **والفقهاء يقولون:** الحرية أصل والرق طارئ. وإنما كثر تملك السودان في المغرب لقرب أهلها من بعض بلاد السود وكانوا كفارا، فهم يُغنمون على التأبيد، وكثُرت البيض في المشرق لقرب أهلها من الروم والقبط والصقالبة.

ومن يؤتى أجره مرتين: عبد أحسن عبادة ربه ونصح لسيده. **ونظمهم السيوطي فقال:**

وَجَمْعٌ أَتَى فِيمَا رَوَيْنَاهُ أَنَّهُمْ يُثَنَّى لَهُمْ أَجْرٌ حَوَوْهُ مُحَقَّقَا
فَأَزْوَاجُ خَيْرِ الْخَلْقِ أَوَّلُهُمْ وَمَنْ يَخُصُّ ذَوِي أَرْحَامِهِ إِنْ تَصَدَّقَا
وَقَارٍ بِجُهْدٍ ذُو اجْتِهَادٍ أَصَابَ وَ الْـ ـوُضُوءُ اثْنَتَيْنِ وَالْكِتَابِيُّ صَدَّقَا
وَمَنْ أَمَةً يَشْرِي وَأَدَّبَ مُحْسِنًا وَيَنْكِحُهَا مِنْ بَعْدِ مَا كَانَ أَعْتَقَا
وَعَبْدٌ أَتَى حَقَّ الإِلَهِ وَسَيِّدٍ وَعَابِرُ يَسْرِى مَعْ غَنِيٌّ بِهِ تُقَى

(وَسَلاَمَةُ الصَّدْرِ) وطهارته من الحقد؛ **وهو:** بَغْضَةٌ ثابتةٌ يجدها العبد في نفسه لأحد من المسلمين بغير موجب شرعي. ومن العداوة **وهي:** نتيجة الحقد؛ **وهي:** المهاجرة والمتاركة بلا استحقاق لذلك من جهة، ومن الكبر على الناس والغش والحسد.

[1] أخرجه ابن ماجه رقم (2252)
[2] أخرجه مسلم رقم(5874)

وَلِشَرَفِ سلامة الصدر وعزة وجودها قال عليه الصلاة والسلام: «سلامة الصدر لا تلحق بعمل» فأعظم بخصلة تزيد -بنص الحديث- على عبادة الصيام، والجهاد، وقيام الليل، وسائر النوافل، والصدقات، ولو بطول السنين.

وشهد ﷺ لعبد الله بن سلام بالجنة، فقيل له: وأي شيء زدت به على الناس؟ فقال: لا أعلمه إلا أني أرجوا ذلك بسلامة الصدر وترك ما لا يعني.

وقال سيدي علي الخواص: من أراد هذا السرور في القبر فلا يجعل له سريرة يفتضح بها يوم القيامة، وما دام له سريرة سيئة فالرعب من شأنه إلى أن يبعث من قبره مرعوبا.

ولذلك قال لقمان لابنه: يا بنـــي كما تنام كذلك تموت، وكما تستيقظ كذلك تبعث، فاعمل عملا صالحا تَنَمْ وتستيقظ كالعروس، ولا تعمل شرا فَتَنَمْ وتستيقظ كالمجرم الذي طلبه السلطان ليسفك دمه.

وفي الحديث: «إن بدلاء أمتي لم يدخلوا الجنة بصلاة ولا صيام، ولكن دخلوها بسخاء الأنفس وسلامة الصدر[1]» .

(وَإِرَادَةُ الْخَيْرِ لَهُمْ) لحديث: «لا يبلغ أحد حقيقة الإيمان حتى يحب لأخيه المؤمن ما يحب لنفسه»[2]. وإرادة القلب يُثاب العبد عليها ويعاقب بحسب نيته.

وقسموا الخواطر أربعة: أولها: الهاجِسُ؛ وهو أن يهجس الشيء في القلب مرة أو مرتين ثم يروح و لم يفعله. **الثاني:** الوارد: وهو أن يتردد الشيء في القلب ترددا مرجوحا. **الثالث:** حديث النفس: وهو أن يتردد الشيء في القلب ترددا مستويا، فهذه الثلاثة لا ثواب فيها ولا إثم. **الرابع:** الهم: وهو أن يتردد الشيء في القلب ترددا راجحا، فإن كان خيرا أثيب عليه، وإن كان شرا فلا عقاب فيه. **لحديث:** «من هم بحسنة و لم يعملها

---

(1) تقدم تخريجه

(2) أخرجه مسلم في صحيحه رقم (170) والبخاري رقم (13) كلاهما عن أنس

كتبت له حسنة ومن هم بسيئة ولم يعملها لم تُكْتَبْ عليه[1]». **الخامس:** العزم: وهو أن يعزم القلب على الشيء عزما لا ترَدُّدَ، وهو المراد عند أهل السنة بإرادة العبد. ففيه الثواب والعقاب وإن لم يعمل أو يتكلم. **صح من المزيد العائد في شرح دلائل العقائد.**

(والأَمَانَةُ) قال الله تعالى: ﴿إن الله يأمركم أن تودوا الأمانات إلى أهلها﴾ **وروى أحمد حديث:** «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له»[2].

وصحح الحاكم حديث: «المؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم»[3]. **وروى الطبراني حديث:** «تناصحوا في العلم فإن خيانة أحدكم في علمه أشد من خيانته في ماله». **وفي الحديث أيضا:** «يُطبع المؤمن على كل شيء إلا الخيانة»[4].

قال ابن العربي: فالأمانة عظيمة القدر عند الله في الدين. ومن عظيم قدرها أنها تقف جنبتــيْ الصراط لا يُمَكّنُ من الجواز إلا من حفظها، ولهذا وجب أن تؤديها إلى من إئمنك، ولا تخن من خانك، فتقابلَ المعصية بالمعصية، وكذلك لا يجوز أن تَغدر من غدرك. **قال البخاري:** بابُ إثْمِ الغَادِرِ للبر والفاجر. **(وَإِذَايَتُهُمْ)** لك **(نِعْمَةٌ)** عظيمة ولا سيما ممن اعْتَدْتَّ منه الملاطفة والإكرام والمبرَّةَ والاحترام **(إِذْ يَرُدُّكَ بِهَا إِلَيْهِ)** فيفيدك ذلك عدم السكون إليهم، وتركَ الاعتماد عليهم، وفقد الأنس بهم، فتتحقق بذلك عبوديته لربه تعالى.

ومن دعاء أبي محمد عبد السلام: اللهم إن قوما سألوك أن تسخر لهم خلقك فرضوا بذلك منك. **اللهم** إني أسألك اعوجاج الخلق حتى لا يكون لي ملجأً إلا إليك.

وقيل: الصيحة من العدو سوط الله يرد بها القلوب إذا شردت عنه، وإلا رقد القلب في ظل العز والجاه، وهو حجاب عن الله عظيم.

([1]) أخرجه أحمد (234/2 ، رقم 7195) . وأخرجه الطبراني في الأوسط (260/4 رقم 4140) ، ومسلم (118/1 رقم 130)

([2]) أخرجه أحمد في مسنده انظر الجامع الصغير (297/3)

([3]) أخرجه الحاكم في المستدرك

([4]) أخرجه البيهقي انظر الجامع الصغير: (400/3).

قال في لطائف المنن: اعلم أن أولياء الله عز وجل حكمهم في بدايتهم أن يسلط الخلق عليهم ليطهروا من البقايا، ولِتَتَكَمَّلَ فيهم المزايا، وكي لا يساكنوا هذا الخلق باعتماد، أو يميلوا إليه باستناد، مَنْ آذاك فقد أعتقك من رِقِّ إحسانه، ومن أحسنَ إليك فقد استَرَقَّكَ بوجود امتنانه، **فلذلك قال ﷺ:** «جُبِلَتْ القلوب على حب من أحسن إليها». **وقال:** «من أسدى إليكم معروفا فكافئوه»... **الحديث**[1]. كل ذلك ليتخلص القلب من رِقِّ إحسان الخلق ويتعلق بالملك الحق[2]. **ومن دليل ذلك:** أنك لا تجد على الإنسان أشد من أقاربه الذين يتأكد السكون إليهم لو وقع الإحسان منهم، وإنما جعلهم كذلك ليتم انْحِيَّاشُكُ إليهم. **والله اعلم.**

عدم الاعتماد على العمل

(فَصْلٌ وَمِنْهُ) أي من الخلق الذي هو من حجب الوصول: **(الْعَمَلُ فَلاَ تَعْتَمِدْ عَلَيْهِ)** لما في الاعتماد عليه من سوء الأدب. مَنْ اعتمدَ على شيء دون الله تخلى عنه في الآخرة. **وقالوا:** الاعتماد على العمل أول عائق يعرض لأرباب السلوك في بدايتهم، وذلك من غلبة الوهم على وجودهم، وتراكم الخيال على مرايا عقولهم، فلا يخرجون من ذلك إلا بنور الكشف بأن الله خالق لأعمالهم. **وقالوا:** من علامة من تحقق بمعارف الحضرة الإلهية: امِّحَاقُ وصفه بوصفها، وخروجه من الاعتماد على عمله.

فائدة: قال المرصفي: عملت مرة عملا صالحا فظننت أني من ﴿من عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون﴾ فرأيت تلك الليلة أني متُّ ودفنت وصُورت لي أعمالي خشنة محشوة شوك أمِّ غيلانَ وأنا أتقلب عليها عريانا، فما رأيت أشد من ذلك، فانتبهت مستغفرا واعتمدت على فضله لا على عملي. **انتهى من المناوي.**

([1]) رواه الزبيدي في اتحاف السادة المتقين (554/9)، وابن كثير في البداية والنهاية (11/ص58)، وأبي نعيم في حلية الأولياء (121/4) وغيرهم.

([2]) انظر لطائف المنن ص: 93.

(وَلاَ تَطْلُبْ عَلَيْهِ ثَوَابًا) إذ لا يليق بأحد من أمثالنا أن يسأل الله ثوابا على عبادته، وإنما اللائق به أن يسأل العفو عما جناه في تلك العبادة من سوء الأدب، وعدم الخشوع، لا طلب الأجر عليها لما ورد: «أن الصلاة إذا لم يكن فيها خشوع تُلَفُّ كما يُلَفُّ الثوب الخلق ثم يضرب بها وجه صاحبها». مع أن طلب الثواب على العبادة لا يصدر إلا ممن يراها فعله. وقد صرحوا بعدم قبول كل عمل أشرك صاحبه نفسه فيه.

قال الشاذلي: علامة صدق المريد: عدم طلب العوض على عبادته فإن عبد الأجر لا قيمة له، ولا يمكنه المؤجر من الدخول إلى حرمه، وبمجرد أخذ الأجرة يفارق سيده. **وقال:** إن الله تعالى لا يعطي الكرامات لمن طلب أو حدد بها نفسه. ولو أن القوم أحبوا أن يعرفوا ما عرفوا.

وقال الخواص: من طلب الثواب على طاعته طولب بما عليه فيها، وكأنه طلب ما هو حاصل وليس ذلك مقصود الرجال، إنما يطلبون منه ما يخاف منه الفوات وهو الحضور مع الله تعالى، فإن كل وقت ذهب والعبد فيه غير حاضر بقلبه لا يحسب من عمره، بل هو خسران في الدارين مع أن الثواب حاصل في كل عبادة حصل بها الإخلاص والحضور. لكن الأكابر لهم طلب الثواب على طاعتهم بشرطه؛ لأنهم لا يشهدون أعمالهم خلقا لله تعالى، ولا يصح لمريد أن يطلب ثوابا على طاعته كالأكابر. إلا أن حكم مقام التوحيد لله في الفعل، وإلا فمن لزمه طلب الثواب في مقابلة طاعته كما عليه من لم تَرُبَّهُمْ الصوفية. فيقول الحق تعالى لأحدهم: ادخل الجنة برحمتي. فيقول بل بعملي. ولو أن أحدكم ذاق مقام التوحيد لربه بالفعل لم يقم لربه مثل ذلك؛ لأنه جهل وخروج عن أدب العبيد، فإن من شأن العبد أن يخدم سيده قياما بواجب حق السيادة، لا لعلة أخرى من علل النفوس.

فوالله لو عَبَدَ أحد الله من افتتاح الوجود إلى انتهائه، لم يَفِ بشكر ما أهَّله للوقوف بين يديه تعالى ولم يطرد كما طرد تاركوا الصلاة، فلم يكن أحد منهم يقف بين يدي الله تعالى. ومن تأمله وجد وقوف أمثالنا بين يدي الله تعالى، حكم العبد المجرم الذي

فسق في حريم الوالي، فهو لا يخطر بباله أنه يخلع عليه خلعة أبدا، وإنما يسال ربه العفو وترك العقوبة.

والحاصل: أن من أحكمَ مقام التوحيد، ورأى أن الطاعة ليست فعله، لم يطلب عليه ثوابا، ولا يرائي فيها، ولا يتكبر، ولا يعجب بها؛ إذ لا يتصور أن عاقلا يطلب ثوابا على غير فعله، أو يرائي به، أو يتكبر، أو يعجب، فحينئذ لا تطلبْ على عملك ثوابا لأمرين: **فبالنظر إلى أولهما** يتحقر عند وجود عملك، **وبالنظر إلى ثانيهما** يغيب عنك شهوده.

أشار للأول بقوله: (لِـ) أجل (**اعْتِلاَلِهِ**) أي لأنه لا يخلوا من علة وريبة، كرياء، وتصنع، وسوء أدب، وعدم خشوع، وأقل ريبة تقصيرك فيما قمت به؛ إذ ﴿ما قدروا الله حق قدره﴾ ولذلك أمرنا بالاستغفار أدبار الصلاة، وأثنى الله تعالى على المستغفرين بالأسحار بعد قيامهم بالليل.

وقال النهر جوري[1]: **من علامة من تولاه الله في أحواله:** أن يشهد التقصير في إخلاصه، والغفلة في أذكاره، والنقصان في صدقه، والفتور في مجاهدته، وقلة المراعاة في فقره، فتكون جميع أعماله عنده غير مرضية، ويزداد فقرا إلى الله تعالى في قصده وسيرته، حتى يفنى عن كل شيء دونه.

وقال النصرباذي[2]: العبادات إلى طلب العفو عن تقصيرها أقرب منها إلى طلب الأعواض عليها.

وقال خير النساج[3]: ميراث أعمالك ما يليق بأفعالك فاطلب ميراث فضله، فإنه أتم وأحسن: ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا﴾.

---

(1) إسحاق بن محمد النهرجوري، أبو يعقوب: من علماء الصوفية. نسبته إلى نهر جور (قرية بالقرب من الاهواز) رحل إلى الحجاز، وأقام مجاورا بالحرم سنين كثيرة ومات بمكة. من كلامه: الصدق موافقة الحق في السر والعلانية. وحقيقة الصدق القول بالحق في مواطن الهلكة. وقال في مجلس وعظ: أعرف الناس بالله أشدهم تحيرا فيه. انظر الاعلام: (296).

(2) هو إبراهيم بن محمد بن محمويه شيخ خراسان في وقته، النيسابوري، من كبار الزهاد، من كلامه: أثقال الحق لا يحملها إلا مطايا الحق. توفي 367هـ. انظر طبقات الصوفية: (484).

(3) هو خير بن عبد الله النساج: متصوف معمر، من كبار الزهاد. أصله من سرمن رأى. نزل ببغداد وصحب الجنيد والخواص والسهلي وكثيرين. ثم كان أستاذ الجماعة. أخباره كثيرة وله كلمات مأثورة. وفي الأعلام – خ، لابن قاضي شهبة انه كان اسمه محمد

والثاني لقوله: (**وَلِأَنَّهُ**) أي العمل (**لَيْسَ لَكَ**) بل هو لربك خلقا واختراعا، وإن نسب إليك كسبا. فكيف تطلب الثواب على عمل لا مدخل لك فيه على الحقيقة، وإنما خلقه فيك ونسبه إليك فضلا منه. **وقال:** يا عبدي أنت مطيع وَمُتَّقٍ ومجتهد وعامل سأثيبك على ذلك. وعلى هذا إذا قال العبد: يا رب كما تفضلت علي بخلق الطاعة لي، ووصفتني بصفات حميدة، أنا خَلِيٌّ منها في الحقيقة، ووعدتني مع ذلك جزيل الثواب، والنجاة من العقاب، فتقبل مني عملي، وأنجز لي ما وعدتني؛ كان في ذلك مصيبا، وإلا فلا. فحقُّ العبد أن لا ينسب لنفسه جميلا حقيقة ولا أدبا. وأيضا: لا يطلب العوض إلا على عم كامل. **والكامل ما تمت شروطه الثلاثة:** قيام صورته الظاهرة على موافقة السنة، والإخلاص فيه، والصدق؛ وهو التبري من الحول والقوة، وذلك متعذر لنقص البشرية، **وإلى ذلك أشار بقوله:** (**وَصَحِّحْهُ بِالصِّدْقِ**) وهو الإخلاص في العمل, ثم الغيبة عن الإخلاص، بشهود التقصير في العمل، والتبري من الحول والقوة, وهو أخص من الإخلاص.

والحاصل: أن الذي يصح طلب الثواب عليه: ما عملته لينتفع به غيرك، ولم تحصل لك به منفعة، ولم تندفع به عنك مضرة. والأعمال الدينية المطلوبة منك ظاهرا وباطنا بخلاف هذا كله.

قيل: مطالبةُ الأعواض على الطاعات من نسيان الفضل. **وقيل:** الكَيِّسُ في عمله من أعرض عن طلب العوض أدبا وتورعا. **وقيل:** طلب العوض على فعل غيرك قبيح ﴿بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان﴾.

قال المناوي: قال بعضهم: عبد الثواب معدود عند العارفين من النساء وإن كان له لحية كبيرة. وقد أجمع أهل الله على أنه من ادعى أنه يحب الله، واختار معه أو طلب

بن إسماعيل، وكان أسود، وحج فلما أتى الكوفة أخذه رجل وقال: أنت عبدي ! واسمك خير، فانقاد معه، فاستعمله سنين في نسج الخز، ثم أطلقه. واحتفظ باسمه الجديد (خير) إلى أن توفي. انظر الاعلام: (326/2).

العوض على عمله، فهو مفتر كذاب. فالمخلص من عبده ليعطي الربوبية حقها وأنه عبده.اهـ.

وقد تقدم من الحض على اتباع السنة والمحافظة على الشريعة ما فيه مقنع عند قوله: "واتباع السنة وتجنب البدعة".

وقد كان السلف يحثون على اتِّباع السنة، وتجنب البدعة، ويشددون في ذلك؛ **حتى أن عمر** ﷺ ربما يَهُمُّ بالأمر ويعزم عليه، فيقول له شخص: إن رسول الله ﷺ لم يفعل ذلك فيرجع عن عزمه. وَهَمَّ مرة أن يأمر الناس بترع ثياب كانت عليهم لَمَّا بلغه أنها تُصبغُ ببول العجائز، فقال له شخص: إن رسول الله ﷺ قد لبس منها، ولبسها الناس في عصره. فاستغفر ورجع.

وقيل: إن زين العابدين قال لولده: اتخذ لي ثوبا ألبسه عند قضاء الحاجة، وأنزعه عند الشروع في الصلاة؛ فإني رأيت الذباب يجلس على النجاسة ثم يقع على ثوبي، فقال له ولده: إن رسول الله ﷺ لم يكن له إلا ثوب واحد لخلائهِ ولصلاته فرجع عن ذلك.

قال الشعراني: المنقول أن رسول الله ﷺ لم يكن الذباب يترل على ثوبه ولا بدنه، فلا يصح ما ذكر دليلا؛ إلا لو قال له ولده: إن رسول الله ﷺ لم يأمر أحدا بذلك. **فَلْيُتَأَمَّلْ. اهـ**[1].

(وَقُلْ إِذَا دَخَلْتَ جَنَّتَهُ) أي جنة عملك وعلمك، وما أُعطيت من نور وفتح: **(مَا شَاءَ اللَّهُ)** كان **(لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ)** ولا تقل ما قال من ﴿دخل الجنة وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا﴾ فافهم قوله ﷺ: «لا حول ولا قوة إلا بالله كتر من كنوز العرش» فترجمة ظاهرُ الكنوز والمكنوز فيها صدق التبري من الحول والقوة والرجوع إلى حول الله وقوته.

وقال أشهب[1] **عن مالك:** ينبغي لمن دخل مترله أن يقول: ﴿ما شاء الله لا قوة إلا بالله﴾.

([1]) انظر تنبيه المغترين للشعراني: (23).

ابن العربي: وكذا مسجده. **قيل**: كان مالك يكتبها على باب داره.

قال ابن وهب[2] لابن ميسرة[3]: رأيت على باب وهب بن منبه مكتوبا: ما شاء الله لا قوة إلا بالله.

وفي الحديث: «ما أنعم الله على عبد نعمة من أهل أو مال أو ولد فيقول: ما شاء الله لا قوة إلا بالله فيرى فيه آفة دون الموت». **ذكره النووي في الأذكار[4]**.

وقال السيوطي: والسنة أن يدعو بالبركة ويقول: ما شاء الله لا قوة إلا بالله. وهذه الكلمة **ورد في الحديث** أنها تقال عند دخول المترل.

الزناتي: وكذا غيره مما ينصف بالحصول فيه من بيت ومخزن وفَدَّان وجنان وَدُكّان وحانوت.

وورد في صفة التوحيد وتحقيق التفويض في الأمور إلى الله تعالى بصورة الندب والإثبات: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

قال أبو هريرة: من قال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ولا منجى من الله إلا إليه كشف الله عنه سبعين بابا من الضر.

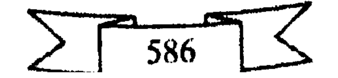
وفي المستطرف: أن موسى عليه السلام قال: يا رب إنك تعطيني أكثر من أملي. **فقال**: بكثرة قولك: ما شاء الله لا قوة إلا بالله.

([1]) هو أشهب بن عبد العزيز بن داوود القيسي العامري الجعدي أبو عمرو: فقيه الديار المصرية في عصره. كان صاحب الإمام مالك. قال الشافعي: ما أخرجت مصر أفقه من أشهب لولا طيش فيه. قيل: اسمه مسكين، وأشهب لقب له. توفي 204هـ بمصر. للمزيد من أخباره انظر الوفيات: (78/1).

([2]) هو عبد الله بن وهب بن مسلم الفهري بالولاء المصري أبو محمد، فقيه من الأئمة. من أصحاب الإمام مالك. جمع بين الفقه والحديث والعبادة. له كتب منها: "الجامع" في الحديث مجلدان، "والموطأ في الحديث كتابان كبير وصغير. وكان حافظا ثقة مجتهدا. عرض عليه القضاء فخبأ نفسه ولزم مترله. للمزيد من أخباره انظر الوفيات: (297/1).

([3]) هو عطاء بن مسلم بن ميسرة الخراساني، نزيل بيت المقدس: مفسر. كان يغزو، ويكثر من التهجد في الليل. من تصانيفه: التفسير" والناسخ والمنسوخ" توفي 135هـ. انظر الشذرات: (192/1).

([4]) انظر الأذكار للنووي: (505/1).



وقال الشاذلي: إذا استحسنت شيئا من أحوالك الظاهرة والباطنة فخفت زواله **فقل:** ما شاء الله لا قوة إلا بالله.

تتمة: قال بعض العارفين: من نظر في توحيده إلى عقله لم ينجه توحيده من النار، حتى يكون نظره في توحيده إليه عز وجل. هذا هو شكر هذه النعمة العظيمة، إذ لو قَلَّبَ قلوبنا عن التوحيد كما يُقَلِّبُ جوارحنا في الذنوب، أو قَلَّبَ قلوبنا في الشك والضلال، كما يُقَلِّبُ نياتنا في الأعمال، أي شيء كنا نصنع؟ وعلى أي شيء كنا نعول؟ وبأي شيء كنا نطمئن ونرجوا؟ فهذا من كبائر النعم، ومعرفته هو شكر نعمة الإيمان، والجهل بهذا غفلة عن تلك النعمة توجب المقتَ، ومن ادَّعى أنه عن كسب معقول، أو استطاعة بقوة أو حول، فهو كفر نعمة الإيمان وأخاف على من توهم ذلك أن يسلب الإيمان؛ لأنه بَدَّل شكر نعمة الله كفرا. **قاله الشيخ أبو طالب**[1].

وقال الشيخ داود ابن باخلا: لا تجعل دينك وإيمانك من نتائج العقول والأفكار، مستندا إلى أدلة النظر؛ بل عرج إلى المحل الأعلى واستمد البركات والأنوار من رسول الله ﷺ، وسل الله تعالى أن يمن عليك بمدد من عنده يعينك على كل شيء سواه، يهديك بنوره إليك حتى لا تشهد في ذلك إلا إياه. **وقل:** إنـــي أعوذ بك أن يكون إيماني بك وبما أنزلت وبما أرسلت مستفادا من فكرة مشوبة بالأوصاف النفسية، أو مستندا إلى عقل ممزوج بأشباح الطينة البشرية، بل من نورك المبين، ومددك الأعلى، ونور نبيك المصطفى. **قاله الشعراني في طبقات الأولياء**[2].

وفيه أيضا: قال سيدي محمد الشاذلي: ذكر أهل الحضرة: الحمد لله، وأستغفر الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله. **وزدت أنا عليهم:** آية من كتاب الله لتكون حرزا لأن كل أحد يحب دوام النعمة عليه وهي قوله تعالى: ﴿ما شاء الله لا قوة إلا بالله﴾. وهي كانت

([1]) هو محمد بن علي الحارثي، أبو طالب، واعظ زاهد فقيه، من أهل الجبل (بين بغداد وواسط) نشأ واشتهر بمكة. ورحل إلى البصرة فاتهم بالاعتزال. وسكن بغداد فوعظ فيها، فحفظ عنه الناس أقوالا هجروه من أجلها. وتوفي ببغداد. "له قوت القلوب" في التصوف. توفي 386هـ. انظر الوفيات: (498/1).

([2]) انظر الطبقات الكبرى للشعراني: (199/1).

هِجِّيرَي الإمام مالك[1] فكان لا يقوم ولا يقص إلا قالها، حتى أنه كتبها على باب داره وقال: جنة الرجل داره، وقال تعالى: ﴿ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله﴾ لو قالها الرجل سلمت داره من الآفات.

وفي الحديث: «احتجت الجنة والنار فقالت هذه: يدخلني الجبارون والمتكبرون. وقالت هذه: يدخلني الضعفاء والمساكين[2]».. **الحديث.**

قال محمد بن إسحاق بن خزيمة[3]: الضعيف المذكور في هذا الحديث الذي يُبَرِّئُ نفسه من الحول والقوة يعني في اليوم عشرين مرة أو خمسين مرة.

قال القرطبي: ومثل هذا لا يقال من جهة الرأي . فهو – والله أعلم – مرفوع.

الفهـــرس